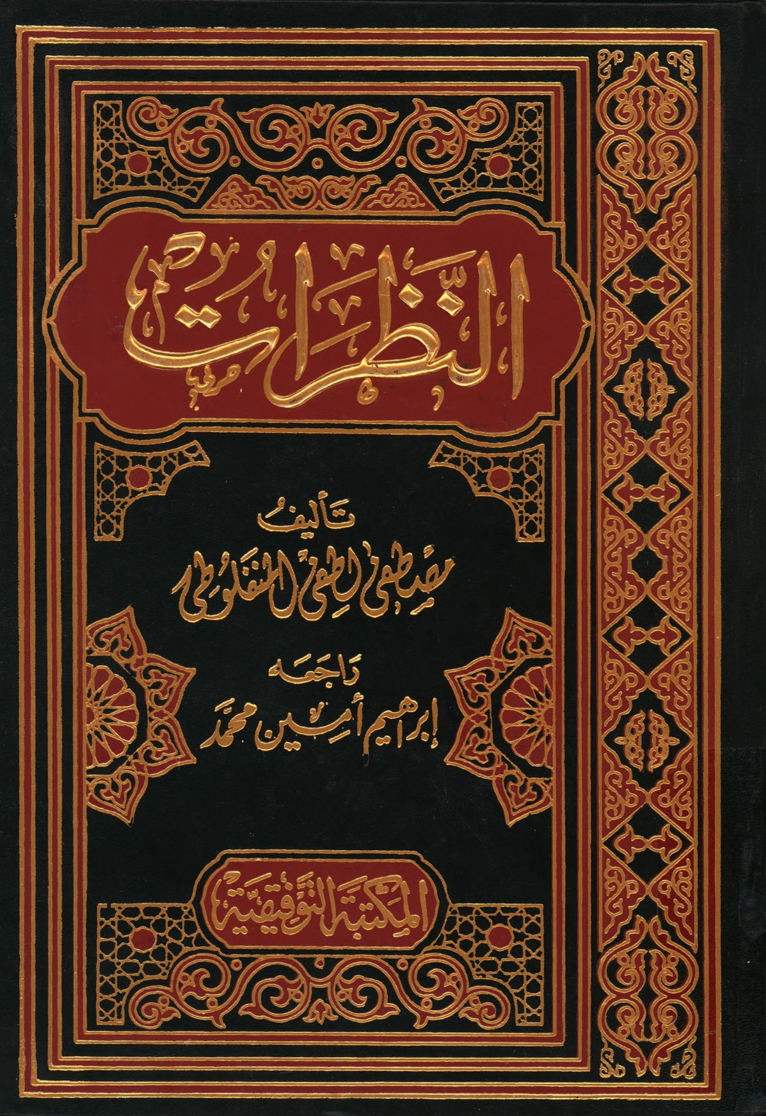
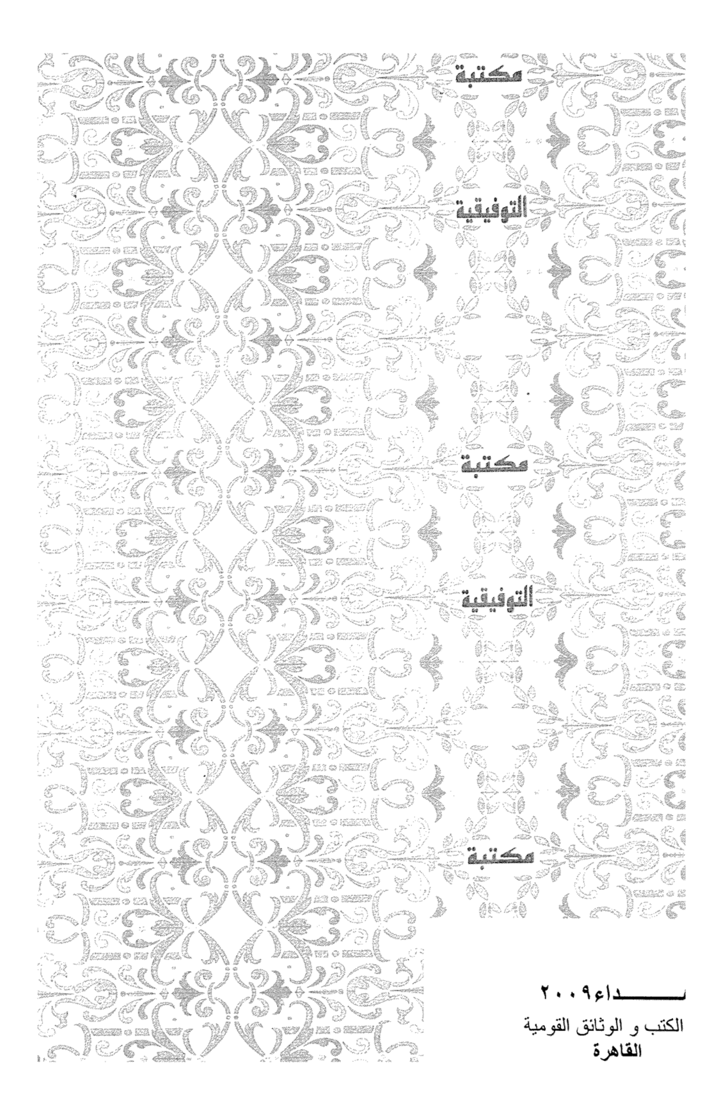

النظرات
تأليف
مصطفى لطفي المنفلوطي
راجعه
إبراهيم أمين محمد
المكتبة التوفيقية



ـــــداء ٢٠٠٩
الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

مكتبة
التوفيقية
مكتبة
التوفيقية

مُصطفى لطفى المنفلُوطىّ



الجزء الأول

راجعه

إبراهيم أمين محمد



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
ت ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠

مقدمة

يسألنى كثير من الناس كما يسألون غيرى من الكتّاب: كيف أكتب رسائلى، كأنما يريدون أن يعرفوا الطرق التى أسلكها إليها فيسكلوها معى، وخير لهم ألا يفعلوا، فإنى لا أحب لهم ولا لأحد من الشادين فى الأدب أن يكونوا مقيّدين فى الكتابة بطريقتى أو طريقة أحد من الكتاب غيرى، وليعلموا -إن كانوا يعتقدون لى شيئًا من الفضل فى هذا الأمر- أنى ما استطعت أن أكتب لهم تلك الرسائل بهذا الأسلوب الذى يزعمون أنهم يعرفون لى الفضل فيه، إلا لأنى استطعت أن أنفلت من قيود التمثلِ والاحتذاء، وما نفعنى فى ذلك شىء ما نفعنى ضعف ذاكرتى والتواؤها علىّ وعجزها عن أن تمسك إلا قليلاً من المقروءات التى كانت تمر بى، فقد كنت أقرأ من منثور القول ومنظومه ما شاء الله أن أقرأ، ثم لا ألبث أن أنساه فلا يبقى منه فى ذاكرتى إلا جمال آثاره وروعة حسنه ورنة الطرب به، وما أذكر أنى نظرت فى شىء من ذلك لأحشو به حافظتى أو أستعين به على تهذيب بيانى، أو تقويم لسانى، أو تكثير مادة علمى باللغة والأدب، بل كل ما كان من أمرى أننى كنت امرأ أحب الجمال وأفتتن به كلما رأيته فى صورة الإنسان، أو مطلع البدر أو مغرب الشمس، أو هجعة الليل، أو يقظة الفجر، أو قمم الجبال، أو سفوح التلال، أو شواطئ الأنهار، أو أمواج البحار، أو نغمة الغناء، أو رنة الحداء، أو مجتمع الأطيار، أو منتثر الأزهار، أو رقة الحس، أو عذوبة النفس، أو بيت الشعر، أو قطعة النثر، فكنت أمر بروض البيان مرًا، فإذا لاحت لى زهرة جميلة بين أزهاره، تتألق فى غصن زاهر بين أغصانه، وقفت أمامها وقفة المعجب بها، الحانى عليها، المستهتر بحسن تكوينها وإشراق منظرها، من حيث لا أريد اقتطافها أو إزعاجها من مكانها، ثم أتركها حيث

هى، وقد علقت بنفسى صورتها إلى أخرى غيرها، وهكذا حتى أخرج من ذلك الروض بنفس تطير سرورًا به، وتسيل وجدًا عليه، وما هو إلا أن درت ببعض تلك الرياض بعض دورات، ووقفت ببعض أزهارها بضع وقفات، حتى شعرت أنى قد بدلت من نفسى نفسًا غيرها، ورأيت بين جنبى حالاً غريبة لا عهد لى بمثلها من قبل، فأصبحت أرى الأشياء بعين غير التى كنت أراها بها، وأرى فيها من المعانى الغريبة المؤثرة ما يملأ العين حسنًا، والنفس بهجة، فقد كنت أرى الناس فرأيت نفوسهم، وأرى الجمال فرأيت لبه وجوهره، وأرى الخير فرأيت حسنه، وأرى الشر فرأيت قبحه، وأرى النعماء فرأيت ابتساماتها، وأرى البأساء فرأيت مدامعها، وأرى العين فرأيت السحر الكامن فى محاجرها، وأرى الثغور فرأيت الخمر المترقرقة بين ثناياها، وكنت أرى الشمس فرأيت خيوطها الفضية الراقصة فى جو السماء، وأرى القمر فرأيت شعاعه يهم أن يسيل على جوانبه سيلاً، وأرى الفجر فرأيت بياضه وهو يدب فى تجاليد[1] الظلام دبيب المشيب فى تجاليد الشباب، وأرى النجوم فرأيت عيونها الذهبية على الكون من فروج قميص الليل، وأرى الليل فرأيته وهو يهوى بأجنحته السوداء إلى الأرض هوى الكرى إلى الأجفان، وكنت أسمع خرير المياه فسمعت مناجاتها، وحفيف الأوراق ففهمت نغماتها، وتغريد الأطيار فعرفت لغاتها؛ فأحببت الأدب حبًا جمًا ملأ ما بين جانحتى؛ فلم تكن ساعة من الساعات أحب إلىَّ ولا آثر عندى من ساعة أخلو فيها بنفسى وأمسك على بابى ثم أسلم نفسى إلى كتابى فيخيل إلىَّ أنى قد انتقلت من هذا العالم الذى أنا فيه إلى عالم آخر من عوالم التاريخ الغابر، فأشهد بعينى تلك العصور الجميلة، عصور العربية الأولى، وأرى العرب فى جاهليتها بين خيامها وأخبيتها، وأطنابها، وأعوادها، وإبلها وشائها، وشيحها وقيصومها، وأرى مساجلاتها ومنافراتها، وحبها وغرامها، وعفتها ووفاءها، وصبرها وبلاءها، وحداءها وغناءها، وأسواق شعرائها، ومواقف خطبائها، وفقرها وإقلالها، وشحوب وجوهها، وسمرة ألوانها، وضوى أجسامها وترددها فى

---

(١) التجاليد: الجسم.

بيدائها بين حمارة القيظ[١] وصبارة البرد[٢]، وتنقلها من صحراء إلى ريف، ومن مشتى إلى مصيف، ومن نجد إلى وهد، ومن شرف إلى غور، وانتجاعها مواقع الغيث، ومنابت العشب، وقناعتها من الطعام بأجفان التمر وقعاب اللبن وأصواع الشعير، فإذا جد الجد أكلت القد[٣] واشتوت الجلد، وتبلغت بالضب واليربوع، وعراقيب الآبال، وأظلاف الأبقار، واكتفت من اللباس بأكسية الكرابيس وأردية الأشعار، وقمص الأوبار، فإذا أعوزها ذلك لبست الظل، وافترشت الرمل، غير ناقمة ولا ساخطة، ولا متبرمة بقضاء الله وقدره فى قسمة أرزاقه بين عباده، ولا باكية حظها من رخاء العيش ولينه، ثم أراها بعد ذلك وقد أنعم الله عليها بنعمة المدنية الإسلامية فأرى رغد عيشها، ولين طعامها واعشوشاب جانبها، وعذوبة مواردها ومصادرها، وسرورها وغبطتها بما أفاء الله عليها من ذخائر الفرس وأعلاق الروم، وامتلاء قصورها باللؤلؤ المنظوم من القيان، واللؤلؤ المنثور من الولدان، وأرى مجالس غنائها، ومجامع أنسها، ومسارح لهوها، ومجالات سبقها، وملاعب جيادها، ومذاهب طرائدها، ومواقف حجها، وازدحام شعرائها على أبواب أمرائها، وجوائز أمرائها فى أيدى شعرائها، وانطلاق ألسنتها بوصف ما تشاء من الأعواد والبرابط والمعازف والمزاهر والأقداح والدنان والموائد والصحف، وألوان الطعام حلوه وحامضه، وأصناف الشراب حلاله وحرامه، والطيور المحلقة فى الأجواء، والسفن الذاهبة فى الدأماء[٤]، والرياض الخضراء والغابات الشجراء، والقصور وتماثيلها، والبحيرات وأسماكها، والأنهار وشواطئها، والأزهار ونفحاتها، والغيوث وقطراتها، ودبيب الحب فى القلب، والغناء فى السمع، والصهباء فى الأعضاء، وخلجة الشك، ولمحة الفكر، وبارقة المنى.

ثم لا أشاء أن أرى بين هذا وذاك خلقًا عذبًا، أو أدبًا غضًا، أو حبًا

(١) شدة الحر.
(٢) شدة البرد.
(٣) السير يقد من جلد.
(٤) الدأماء: البحر.

وفيًا، أو مجونًا مستظرفًا، أو حورًا مستملحًا، إلا وجدته؛ ولا أن أسمع ما تهتف به العاتق فى خدرها، وما يحدو به الحادى فى أعقاب إبله، وما يتغنى به العاشق، وما يهذى به الشارب، وما يترنم به الشادى، وما يساجل به الماتح[1] إلا سمعته. ولا أن أعلم ما يهجس فى نفس المحب إذا اشتمل عليه ليله، والحائر إذا ضل به سبيله، والثاكل إذا فجعت بواحدها، والموتور إذا حيل بينه وبين واتره، والكريم إذا لاح له منظر من مناظر البؤس والشقاء، والغريب فى دار غربته، والسجين بين جدران سجنه، والخائف إذا وقف بين الرضا والغضب، والمقدم للقتل إذا وقف بين الرجاء واليأس، والبائس إذا أعوزه القوت، واليائس إذا أعوزه الموت، والعزيز إذا ذل، والمشرف إذا هوى، والشريف إذا عبث بشرفه عابث؛ والغيور إذا لمس عرضه لامس، إلا علمته، ولا أن أعرف خلق الدهر فى تنقله بالناس ما بين رفع وخفض، وجدة وفقر، ونعيم وبؤس، وإقبال وإدبار، ولا أثر يده السوداء فى خراب القصور، وخلاء الدور، وإقفار المغانى، وتصويح الرياض، إلا عرفته؛ فكنت أجد فى نفسى من اللذة والغبطة بذلك ما لا يقوم به عندى كل ما ينعم به الناعمون من رغد فى العيش ورخاء حتى ظننت أن الله سبحانه وتعالى قد صنع لى فى هذا الأمر، وأنه لما علم أنه يكتب لى فى لوح مقاديره ما كتب للسعداء والمجدودين من مال أو جاه أعيش فى ظله، وأنعم بثمرته زخرف لى هذا الجمال الخيالى البرىء من الريبة والإثم، وزوّره[2] لى تزويرًا بديعًا ووضع لى فيه من الملاذ والمناعم ما لم يضع لغيرى. رحمة بى وإرعاء على أن أهلك، أو يهلك لبى بين اليأس القاتل، والرجاء الكاذب، وهكذا لا أزال محلقًا فى هذا الجو البديع من الخيال أضحك مرة وأكتئب أخرى، وأتغنى حينًا وأبكى أحيانًا حتى يرمينى الباب ببعض الطارقين أو يستعيد إلىّ نفسى مستعيد.

ولم يكن حولى لذلك العهد ممن يستعين بمثلهم مثلى على الأدب أحد؛ لأننى كنت أعيش فى مفتتح عهدى به –ولم أكن زاهيت إذ ذاك الثالثة عشرة–

---

(١) الماتح: المستقى على البئر.

(٢) زوّره: حسنه وقومه.

بين أشياخ أزهريين من الطراز القديم لا يرون رأيي فيه، ولا يتعلقون منه بما أتعلق فكانوا يرون أن التوفر عليه أو الإلمام به عمل من أعمال البطالة والعبث، وفتنة من فتن الشيطان، فكان الذين يتولون أمرى منهم لا يزالون يحولون بينى وبينه، كما يحول الأب بين ولده وبين ما يعرض له من فتن الهوى ونزعات الصبوة ضنًا بى -يزعمون- أن أنفق ساعة من ساعات دراستى بين لهو الحياة ولعبها! فكنت لا أستطيع أن ألم بكتابى إلا فى الساعة التى آمن فيها على نفسى أن يلموا بأمرى -وقليلاً ما كنت أجدها- وكثيرًا ما كانوا يهجمون منى على ما لا يحبون فإذا عثروا فى خزانتى أو تحت وسادتى أو بين لفائف ثوبى على ديوان شعر أو كتاب أدب خيل إليهم أنهم قد ظفروا بالدينار فى حقيبة السارق، أو الزجاجة فى جيب الغلام، أو العشيق فى خدر الفتاة، فأجد من البلاء بهم والغصص بمكانهم ما لا يحتمل مثله مثلى؛ وهم لا يعلمون -أحسن الله إليهم- أنهم وجميع من يدور به جدار مسجدهم حسنة من حسنات الأدب الذى ينقمون منه ما ينقمون، ويد من أياديه البيضاء على هذا المجتمع البشرى؛ فلولا الأدب ما استطاع أئمتهم المجتهدون فهْم آيات الكتاب المنزل ولا استنباط تلك الأحكام التى دوّنوها لهم وتركوها بين أيديهم يستغلونها كما يستغل المالك ضيعته ويعيشون فى ظلها عيش السعداء المترفين، ولولاه لما استطاع علماؤهم اللغويون أن يورثوهم هذه العلوم اللغوية التى يدرسون اليوم نحوها وتصريفها وبيانها فى مجالس علمهم، ويدلون بمكانهم منها على الناس جميعًا، كما يعلمون أن الأدب هو خير ما يستعين به متعلم على علم، وأن الذوق الأدبى الذى يستفيده المتأدب من دراسة الأدب ومزاولته هو الميزان الذى يزن به ما يحاول فهمه من عبارات العلوم وأساليبها، والدليل الذى يتسمته ويترسم مواقع أقدامه فى فهم أصول الدين ليكون مجتهدًا إن استطاع أو واقفًا على منازع المجتهدين، واللسان الذى يستعين به على الإفضاء بأدق أغراضه وأعمقها وأقصاها مكانًا من قلبه ليكون إنسانًا ناطقًا، ومعلمًا نافعًا، ولو أن هؤلاء الزارين على الأدب من علماء الدين وشيوخه -وهم اليوم والحمد لله قليل، بل هم فى طريق الفناء والانقراض- قد تعلقوا منه بما

كان يتعلق أسلافهم وأئمتهم من قبل لنالوا به فى دينهم خيراً، ولاستدفعوا به عن أنفسهم فى أمره شراً عظيمًا، فما زال الدين واضح المنهج قائم الحجة، وما زالت آيات الكتاب ومتون الأحاديث سائغة هنيئة، لا يلحقها الريب ولا يحيط بها الشك ولا تطير بجنباتها الأوهام والظنون، حتى جهل علماء الدين والأدب، ففسدت أذواقهم، وضلت أفهامهم، فكثر بينهم التأويل والتخريج، ووهت تلك العقدة الوثيقة بين الألفاظ والمعانى، واسترخت عراها من أيديهم، فأصبح كل لفظ فى نظرهم محتملاً لكل معنى، حتى ما يأبى أحدهم على الآخر شيئًا، وتهافت ذلك الحاجز الحصين الذى كان قائمًا بين الحقيقة والمجاز، والحقيقة والخيال، فبغى بعض الكلم على بعض، وعاث كل منها فى تربة صاحبه إقبالاً وإدبارًا، وجيئة وذهوبًا وصعودًا ونزولاً، فاستطاع الواغلون فى الدين والناصبون له أن يدخلوا عليه من الأحاديث المنحولة الغريبة فى أساليبها ومناهجها عن مناهج العرب وأساليبهم ما لا يضبطه الحساب كثرة، فهلكت الأمة بين هذا وذاك هلكًا لا تزال تتجرع كأسه المريرة حتى اليوم.

فالحمد لله أولاً، وللأدب ثانيًا، على نجاتى منهم فيما كانوا يرومون بى، ويحاولون منى، بل أحمد الله إليهم كذلك فقد كفيت بسوء رأيهم فى الأدب ونقمتهم عليه شر من يدخل بينى وبين نفسى فى المفاضلة بين شاعر وشاعر، وكاتب وكاتب، أو الموازنة بين أسلوب وأسلوب، وديباجة وأخرى، فلم يكن لى عون على ذلك كله غير شعور نفسى وخفوق قلبى خفقة السرور أو الألم أن مر بى ما أحب أو ما أكره من حسنات القول أو سيئاته، من حيث لا أعرف سبيل ذلك ولا مأتاه، فكان شأنى فى ذلك السامع الطروب الذى تطربه نغمة وتزعجه أخرى، فيطير بالأولى فرحًا وبالثانية جزعًا، وقد يكون ضعيف الإلمام بضروب الإيقاع وقواعد النغم، فكنت لا أقرأ إلا ما أفهم، ولا أفهم إلا ما أشعر أنه قد خرج من فم قائله خروج السهم من القوس، فإذا هو فى كبد الرمية ولبها، فإن رأيت أن المعنى قد قام دونه ستار من التراكيب المتعاظلة، والأساليب الملتوية، علمت أن القائل إما ضعيف المادة اللغوية فهو

يعجز عن الإفضاء بما فى نفسه لأنه لا يعرف كيف يفضى به، وإما جاهل لم يستو له المعنى الذى يريده كل الاستواء ولم يدر فى جوانب نفسه حتى يستقر فى قراره منها، فهو يتوهمه توهمًا ويجمجمه جمجمة ويهذى به هذيانًا فلا سبيل له إلى الإفصاح عنه، وإما داهية محتال قد علم أن المعنى الذى يجول فى نفسه ويتردد فى خاطره تافه مرذول وكان لابد له أن ينفقه[1] على الناس ويزخرفه لهم ويزوره[2] فى أعينهم، فهو يكسوه أسلوبًا غامضًا ليكدهم ويجهدهم فى سبيله حتى إذا ظفروا به بعد ذلك خيل إليهم أنهم قد ظفروا بمعنى غريب، أو خاطر بديع، ووجدوا فيه عند الوصول إليه من اللذة والمتعة ما يجد الظامىء فى ضحضاح[3] الماء الكدر إذا أبعد النجعة فى طلبه ووصل إليه بعد الجهد والإشقاء، وإما عاجز ضعيف القوة النفسية قد علم أن ضعفاء الأفهام من الناس، وهم سواد الأمة ودهماؤها، لا يرضون عن معنى من المعانى ولا يستسنون[4] قيمته ولا يقيمون له وزنًا إلا إذا جاءهم فى جلدة من الألفاظ المتكرسة المتقبضة، وأنهم إذا ورد عليهم أثمن المعانى وأغلاها، وأكرمها جواهرًا وأطيبها عناصرًا فى ثوب من الأساليب الرقيقة الشفافة ذهب بهم الوهم إلى أنه ما جاءهم على هذه الصورة إلا لأنه ساقط مبتذل، أو سوقى مطروق فاحتقروه وازدروه، وكان يرى لضعف حيلته وسقوط همته. أن لابد له من موافاة رغبتهم وبلوغ رضاهم، والنزول على حكمهم، فتجمل لهم باللكنة والعى! وتملقهم بالغموض والإبهام. وإما أعجمى يظن أن اللغة العربية حروف وكلمات وهو لا يعرف منها غيرهما فينطق بشىء هو أشبه الأشياء بما يترجمه بعض المترجمين من اللغات الأعجمية ترجمة حرفية، فإن نعيت عليه غرابة أسلوبه واستعجامه والتواءه على الفهم كان مبلغ ما ينضح به عن نفسه أن المعانى العصرية والخيالات الحديثة لا يستطاع إلباسها الأكسية

---

(١) ينفقه -بالتشديد- يجعله نافقًا: أى رائجًا.
(٢) زور الشىء: حسنه وزخرفه.
(٣) الضحضاح: الماء القليل فى قعر البئر.
(٤) استسنى قيمته: رآها سنية رفيعة.

البدوية، والأردية العربية، كأنما هو يظن أن المعانى والخواطر خطط وأقسام، وأنصبة وسهام، هذا للشرق وهذا للغرب، وهذا للعرب وهذا للعجم! أما الحقيقة التى لا ريب فيها فهى أن الرجل لا ينتزع تلك المعانى من قرارة نفسه ولا يصور فيها صورة عقله. وإنما هو مترجم قد عثر بتلك المعانى فى اللغة الأعجمية التى يعرفها لاصقة بأثوابها الأصلية، فلما أراد أن يفضى بها إلى العرب، وكان غير مضطلع بلغاتهم ولا متمكن من أساليبهم عجز عن أن ينزع عنها أثوابها اللاصقة بها فنقلها إليهم كما هى إلا ما كان من تبديل حرف بحرف أو لفظ بآخر من حيث يظن أنه يهتف بشىء قام فى نفسه أو يفضى بخاطر من خواطر قلبه، وإما شحيح يأبى له لؤم نفسه وخبث فطرته أن يمنح الناس منحته سائغة هنيئة دون أن يكدرها عليهم بالمطل والتسويف والمدافعة والمحاولة. والشح خلق إذا نزل منزله من نفس صاحبه أقام من نفسه حارسًا يقظًا على كل حاسة من حواسه الباطنة والظاهرة حتى لا يجد فيه واجد مصطنعًا ولا يظفر منه متعصر ببلة. فيضن بعلمه كما يضن بماله، ويقبض لسانه عن النطق كما يقبض يده عن الإنفاق ويصرد[1] عطاءه تصريدًا ليستديم حاجة الناس إليه كما يجيع كلبه ليتبعه، ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين على العجزة والجاهلين والمحتالين والكاذبين والأشحاء والباخلين.

وكان أشعر الشعراء عندى وأكتب الكتاب -سواء فى ذلك المتقدم والمتأخر والنابه والخامل- أوصفهم لحالات نفسه أو أثر مشاهد الكون فيها، وأقدرهم على تمثيل ذلك وتصويره للناس تصويرًا صحيحًا كأنما هو يعرضه على أنظارهم عرضًا، أو يضعه فى أيديهم وضعًا، فإن ظننت أن القائل كاذب فيما يقول أو أنه يرسم صورة غير الصورة التى تتلجلج فى نفسه، أو أنه لغوى يفر من ضعف أسلوبه وفساد نظمه إلى أكمة من الألفاظ الغريبة والتراكيب المستوعرة يكمن وراءها، أو ناقل يتخذ الكتابة حقيبة يحشوها بالمسائل العلمية والوقائع التاريخية حشوًا، أو مترجم ينقل عن اللغة الأعجمية التى يعرفها آراء علمائها وكأنما هو صاحبها، أو شعرت أنه قد قدر فى نفسه،

(١) صرد العطاء: أعطاه قليلاً قليلاً.

وهو يكتب كلمته أن يكون بليغًا فيها أو مبدعًا ليعجب الناس منها، وكان كل حظه عندى أن أعرف له قدره فى العلم ومنزلتـه من الذكاء والفهم أن أحسن فيما يقـول، ولكننى لا أعده كاتبًا ولا شاعرًا، لذلك كـان أغزل الغزل عندى غزل العـاشقين، وفـضل الرثاء رثاء الثاكلـين، وأنبل المدح مدح الشـاكرين، وأشـرف العظات عظات المخلصين، وأجـمل البكاء بكاء المنكوبين، وأحـسن الهجاء هجاء الصادقين، وأبرع الوصف وصف الرائين المشاهدين.

ولا أدرى مـا الذى كـان يعـجبنى فـى مطالعـاتى من شـعر الهـمـوم والأحزان، ومواقف البـؤس والشقاء، وقصص المحزونـين والمنكوبين خاصة، فقد كان يعجبنى كثيرًا ويبكينى أحر بكاء وأشجاه شقاء المهلهل فى الطلب بثأر أخيه، وشـقاء امرئ القيس فى الطلب بثأر أبيـه، وبكاء جليلة أخت جساس على زوجهـا وأخيـها، وبكاء عـدى بن زيد على نفسـه فى سجن النعـمان، وبكاء متمم بن نويرة على أخيه مـالك حتى دمعت عينه العوراء، وبكاء ليلى بنت طريف على أخيها الوليد، وهيـام أم حكيم زوج عبيد الله بن العباس فى المواقف والمواسم تنشـد طفليـها الذبيـحين، وبكاء الشـريف على المناذرة فى خرائب الحـيرة. وبكاء أبى عـبادة على الأكـاسرة فى خـرائب المدائن، وبكاء الرضى على بنى هاشم، وبكاء العـبلى على بنى أمية، وبـكاء الرقاشى على بنى برمك، وذل أبى فراس فـى أسره، والمعتـمد بن عبـاد فى سجنه، وبكاء الوزير ابن زيدون على نفسه مـرة، وعلى ولادة أخرى، وبكاء ابن مناذر على عبـد المجيد، والبحـترى على المتوكل، وابن اللبـانة على ابن عباد، والتـيمى على يزيد بن مزيد، ومروان بن حفـصة على معن بن زائدة، وجنون المجنون بليلاه، وجلوسه فى جنبـات الحى منفردًا عاريًا مذهوب اللب مشـترك العقل يهذى ويخطط فى الأرض ويلـعب بالتراب، ثم هيامـه بعد ذلك مع الوحش فى البـرية لا يأكل إلا ما ينبت فـيهـا من بقل، ولا يشرب إلا مع الظـباء إذا وردت مناهلهـا، وراحـته إلى الطريـق يصعـد مع مـصعـديه، وينحـدر مع منحدريه، حـتى هلك فى أرض مقـشعرة مـغبرة بـين الصخور والأحـجار، وشقـاء قيس بلـبناه بعد أن طلقـها برًا بوالده، ونزولاً على حكمـه، وذهاب

الحب به ذلك كل مـذهب، حتى هلك بين الوفـاء للفضيلة والوفـاء للحب، وموقف جميل بن معمر بين يدى أبيه، وهو يعتب عليه أشد العتب وأمره فى استهتاره بحب بثينة ومخاطرته بنفسه فى الإلمام بحبها فيقول: يا أبت! هل رأيت قبلى أحدًا قدر أن يدفع عن قلبه هواه أو ملك أن يسلى نفسه أو استطاع أن يتقى ما قضى به عليه، والله لو قدرت أن أمحـو ذكرها من قلبى أو أزيل شخصها من عينى لفعلت، ولكن لا سبيل إلى ذلك، وإنما هو بلاء بليت به لحين قد أتيح لى، وأنا أمتنع عـن طروق هذا الحى والإلمام به ولو مت كمدًا، وهذا جهدى ومبلغ مـا أقدر عليه، وبكاء النبى -ﷺ- عندما سمع قيس بن عاصـم يحدث عن نفسه أنه كـان يئد بناته فى الجـاهلية، وأن واحـدة منهن ولدتها أمها وهو فى سفر، فدفعتـها إلى أخوالها ضنًا بها على الموت وإشفاقًا عليهـا، فلما عـاد وسألها عن الحـمل قالت له أنها ولـدت مولودًا ميتًا. ثم مضت على ذلك سنون عدة حتى كبـرت البنت ويفعت فزارت أمها ذات يوم فرآها عندها فأعجـب بجمالها وعقلها وذكائهـا وسألها عنها فحدثتـه حديثها على وجهه، ولم تكتمه شيئًا طمعًا فى أن يضـمها إليه ويمنحها رحمته وعطفه فأمسك عنها أيامًا، ثم تغفل أمها عنها ذات يوم وخرج بها إلى الصحراء حتى أبعد فاحتفـر لها حفرة وجعلها فيها فـأخذت تقول: يا أبت ما تريد أن تصنع بى، وما هذا الذى تفعل؟ وهو يهيل عليها التراب ولا يلتفت إليها، وهى تئن وتقـول: أتاركى أنت يا أبت وحـدى فى هـذا المكان ومنصـرف عنى؟ حـتى واراها وانقطع أنينهـا، وبكاء الأعـرابيـة التى مات منهـا ولدها فى دار غـربة فدفنته، ثم وقفت على قبره تودعه. وتقول: والله يا بنى لقد غذوتك رضيعًا؛ وفقدتك سريعًا، وكأن لم يكن بين الحالين مدة ألتـذ بعيشك فيها، فأصبحت بعد الغضارة والنضارة ورونق الحياة والتنسم بطيب روائحها تحت أطباق الثرى جسدًا هامدًا ورفاتًا سـحيقًا وصعيدًا جرزًا، اللهم إنك قـد وهبته لى قرة عين فلم تمتعنـى به كثيـرًا بل سلبتنيه وشـيكًا ثم أمرتنى بالصـبر، ووعـدتنى عليه الأجر، فـصدقت وعـدك، ورضيت قـضاءك، فـارحم اللهم غربتـه، وآنس وحشتـه، واستر عورته يوم تنكشف الهنات والسـوءات؛ واثكل الوالدات! ما

أمض حرارة قلوبهن، وأقلق مضاجعهن؛ وأطول ليلهن، وأقل أنسهن، وأشد وحشتهن، وأبعدهن من السرور، وأقربهن من الأحزان، وشقاء ذينك البائسين المنكوبين عروة بن حزام وعفراء بنت عقال ومناصبة الدهر لهما وانقطاع سبيله بهما حتى أصبحت زوجًا لغيره وأصبح بعدها هائمًا مختبلاً يرمى بنفسه المرامى ويقذف بها فى فجاج الأرض ومخارمها، حتى بلغ منزلها ذات يوم فتنكر حتى زارها، وهو يظن أن زوجها لا يعلم من أمره إلا أنه أحد الأضياف الغرباء، فلما علم أنه يعرف حقيقته، وأنه على ذلك لا يتهمه ولا يتنكر له، عزم على الانصراف حياء منه وقال لها: يا عفراء، أنت حظى من الدنيا، وقد ذهبت فذهبت دنياى بذهابك فما قيمة العيش من بعدك، وقد أجمل هذا الرجل عشرتى واحتمل لى ما لا يحتمله أحد لأحد حتى استحييت منه، وإنى راحل من هذا المكان، وإنى عالم أنى راحل إلى منيتى، وما زال يبكى وتبكى حتى انصرف، فلما رحل نكس بعد صلاحه وتماسكه وأصابه غشى وخفقان، فكان كلما أغمى عليه ألقى على وجهه خمارًا لعفراء كانت زودّته إياه فيفيق، حتى بلغ حيه وأمسك عامًا كاملاً لا يسمع منه سامع كلمة ولا أنة حتى بلغ منه اليأس فسقط مريضًا، فمر بعض الناس فرآه مطرحًا بجانب خبائه، فسأله عما به، فوضع يده على صدره، وقال:

كأن قطاة علقت بجناحها ... على كبدى من شدة الخفقان

ثم شهق شهقة كانت نفسه فيها، فلما بلغ عفراء خبره قامت إلى زوجها وقالت: لقد كان من خبر ابن عمى ما كان، وقد مات فى وبسببى ولابد أن أندبه وأقيم مأتمًا عليه، فقال: افعلى، فما زالت تندبه ثلاثًا حتى ماتت فى اليوم الرابع. وشقاء سعد الوراق بحب عيسى النصرانى حينما علم أن أهله قد بنوا له ديرًا بنواحى الرقة ليترهب فيه ويحتجب عن الناس فضاقت عليه الدنيا بما رحبت وأحرق بيته وفارق أهله وإخوانه ولزم صحراء الدير عله يجد السبيل إلى الوصول إليه، فامتنع عليه ذلك بعد ما ذل للرهبان وتخضع وتأتى لهم بكل سبيل فلم يجده ذلك شيئًا، فصار إلى الجنون وحرق ثيابه وأصبح

عريان هائمًا لا شأن له إلا أن يقف بكل طائر يراه على شجرة فيناشده الله أن يبلّغ رسائله إلى عيسى، حتى رآه بعض الناس فى بعض الأيام ميتًا إلى جانب الدير. وأمثال ذلك من مواقف البؤس ومصارع الشقاء؛ كأنما كنت أرى أن الدموع مظهر الرحمة فى نفوس الباكين؛ فلما أحببت الرحمة أحببت الدموع لحبها؛ أو كأنما كنت أرى أن الحياة مواطن البؤس والشقاء ومستقر الآلام والأحزان، وأن الباكين هم أصدق الناس حديثًا عنها، وتصورًا لها، فلما أحببت الصدق أحببت البكاء لأجله؛ أو كأنما كنت أرى أن بين حياتى وحياة أولئك البائسين المنكوبين شبهًا قريبًا وسببًا متصلاً؛ فأنست بهم وطربت بنواحهم طرب المحب بنوح الحمائم وبكاء الغمائم، أو كأنما كنت فى حاجة إلى بعض قطرات من الدمع أتفرج بها مما أنا فيه، فلما بكى الباكون وبكيت لبكائهم وجدت فى مدامعهم شفاء نفسى وسكون لوعتى؛ أو كأنما كنت أرى أن جمال العالم كله فى الشعر وأن الشعر هو تفجر من صدع الأفئدة الكليمة فجرى من عيون الباكين مع مدامعهم، وصعد من صدورهم مع زفراتهم.

تلك أيامى التى سعدت بها برهة من الدهر ومرَّ لى فيها أحسن ما مرَّ لأحد والتى لا أزال أذكرها بعد مرور تلك الأعوام الطوال فأكاد أشرق بدمعى لذكراها، ثم انثنيت فوجدت يدى صفرًا منها وإذ أنا بين يدى هذا العالم المظلم المقشعر عالم الحقيقة والألم، فنظرت إليه نظر الغريب الحائر إلى بلد لا عهد له به ولا سكن له فيه فرأيت مخازيه وشروره وظلمة أجوائه، واغبرار سمائه، وقتال الناس بعضهم بعضًا على الذرة والحبة والنسمة والهبوة[1]، واتساع مسافة الخلف بين دخائل القلوب وملامح الوجوه، وسلطان القوة على الحق وغلبة الجهل على العلم. وإقفار القلوب من الرحمة، وجمود العيون عن البكاء، وعجز الفقراء عن فتات موائد الأغنياء، وتمضغ الأغنياء بلحوم الفقراء، ورأيت الترائى بالرذيلة حتى ادعاها لنفسه ونحلها إياها من لا يتخلق بها طلبًا لرضا الناس عنه برضاه عنها، ورأيت البراءة من الفضيلة حتى فرَّ بها صاحبها من وجوه الساخرين به والناقمين عليه فرار العارى بسوأته والموسوم

(١) الهبوة: الغبرة.

بخزيته. ورأيت الرجل والمرأة وقد سرا[١] كل منهما ثوبه عن جسمه وألقاه بين يديه، ثم تقايضا فلبست قباءه ولبس غلالتها فأصبح امرأة لها من النساء التكسر والتبرد وأصبحت رجلاً له من الرجال التوقح والتشطر[٢] ورأيت الدين وهو دوحة السلام الخضراء التى يستظل بها الضاحون[٣] من لفحات الحياة وزفراتها قد استحال فى أيدى الناس إلى سهام مسمومة يحاول كل منهم أن يصيب بها كبد أخيه فلا يخطئها، ورأيت ضلال الأسماء عن مسمياتها وحيرة مسمياتها بينها، واضطراب الحدود والتعاريف عن أماكنها ومواقفها حتى دخل فيها ما لم يكن داخلاً، وخرج منها ما لم يكن خارجًا، فسمى الشح اقتصادًا، والكرم إسرافًا، والحلم جبنًا، والسماجة جرأة، والسفاهة براعة، والفجور فتوة، والتبذل حرية، واشتبهت طرق الفضيلة ومسالكها على من يريد ركوبها، لأنه يجد على رأس كل واحدة منها زعيمًا من زعماء الخديعة والكذب يصرفه عنها إلى غيرها، وكنت أرى أن الأدب حال قائمة بالنفس تمنع صاحبها أن يقدم على شر أو يحدث نفسه به أو يكون عونًا لفاعليه عليه، فإن ساقته إليه شهوة من شهوات النفس أو نزوة من نزواتها وجد فى نفسه عند غشيانه ومخالطته من المضض والارتماض ما ينغص عليه عيشه، ويقلق مضجعه، ويطيل سهده وألمه، فإذا هو صورة من صور الجوارح وعرض من أعراض الجسم لا دخل له فى جوهر النفس، ولا علاقة بينه وبين الحس والوجدان، فأكثر الناس عند الناس أدبًا، وأقومهم خلقًا، وأطهرهم نفسًا: من لا يفى على شرط أن يعد، ومن يكذب على أن يكون كذبه سائغًا مهذبًا، ومن يملأ صدره موجدة وحقدًا على أن يكون بسامًا ضحوك السن، ومن يسرق على أن يستطيع العبث بمواد القانون وخداع القضاة عنها، ومن يبغض الناس جميعًا بقلبه على أن يحبهم جميعًا بلسانه، ومن يحفظ تلك المصطلحات اللفظية وتلك الصور الجافة من الحركات

---

(١) سرا الثوب عن جسمه: ألقاه عنه.
(٢) تشطر: صار شاطرًا؛ والشاطر هو من أعيى أهله خبثًا.
(٣) الضاحى: المنكشف للشمس.

الجسمية، التى تواضع عليها المتكلفون فى الزيارة والاستزارة والهناء والعزاء والمؤاكلة والمنادمة، وأمثال ذلك مما يرجع العلم به غالبًا إلى صغر النفس وإسفافها، أكثر مما يرجع إلى علوِّها وكمالها، فداخلنى من ذلك خطر عظيم لم أستطع أن أملك نفسى معه، كأنما خيل إلىَّ -لقرب عهدى بما أرى- أننى أرى شيئًا عجيبًا، أو منظرًا غريبًا، أو كأنما كنت أحسب أن عالم الخيال الذى كنت فيه إنما هو صورة صحيحة لعالم الحقيقة الذى انتقلت إليه، فأزعجنى ما رأيت من هذا الاختلاف العظيم بينهما، فأرسلت الكلمة إثر الكلمة كما يتنفس المتنفس أو يئن الحزين، فقرأ ذلك بعض الناس، فسموا ما رأوه كلامًا، ثم ما زالوا يستحسنون ما أقول ويغروننى بأمثاله، وما زلت أطمع فيهم وأرجو أن أصيب ما فى نفوسهم، حتى سمونى كاتبًا.

وكان لذلك الأدب الذى توليت به نفسى فيما مضى أثر باق عندى حتى اليوم فإنى لا أحسن أن أكتب كلمة يفضى بها غيرى أو أعبر عن معنى لا يقوم بنفسى أو أبكى على من لا يحزننى فراقه. أو أندب من لا يفجعنى موته أو أستنكر ما أستحسن. أو أستحسن ما أستنكر، كما لا أستطيع أن أمر بمشهد من تلك المشاهد التى تهيج فى نفسى حزنًا شديدًا، أو طربًا كثيرًا، فأملك نفسى عن محاولة الإفضاء بما تركه عندى من خير أو شر، وما أعلم أنى كتبت كلمة فى شأن من الشئون إلا وكان بعض تلك المشاهد منشأها فى قلبى. فقد كنت رجلاً لا أحب الكذب، ولا آخذ نفسى به ما وجدت منه بدًا، فأبغضت الكاذبين بغض الأرض للدم. فكان من همى أن أقاتلهم على الصدق قتالاً مستعرًا، حتى أصل بهم إلى إحدى الحسنيين: إما أن يكونوا صادقين وإما أن يعلم الناس أنهم كاذبون، وكنت إنسانًا بائسًا لم يترك الدهر سهمًا من سهامه المريشة لم يرمنى به، ولا جرعة من كأس مصائبه ورزاياه لم يجرعنى إياها، فقد ذقت الذل أحيانًا، والجوع أيامًا، والفقر أعوامًا، ولقيت من بأساء الحياة وضرائها ما لم يلق بشر، فشعرت بمرارة الحياة فى أفواه المساكين. ورأيت مواقع سهام الدهر فى أكباد البائسين والمنكوبين، فكان من

همى أن أبكى كل بائس، وأندب كل منكوب، وأطلب رحمة القوى للضعيف، والغنى للفقير، والعزيز للذليل.

وقد قدَّر لى فيما مرَّ بى من أيام حياتى أن رأيت بعينى من وقفت بين يديه امرأة ذليلة تبكى وتضرع إليه أن يرضخ لها بقليل من المال تستعين به على ستر ما كشف ابنه من سوأة ابنتها، فأبى ذلك عليها وقال لها -وهو يحسب أنه يعقل ما يقول-: أيتها المرأة لا حق لابنتك عندى ولا عند ولدى. فلم يكن حظه منها فيما كان من أمرهما بأكبر من حظها منه، ورأيت من تزوج من فتاة كان يمسك فى نفسه لأهلها حقدًا قديمًا، فما دنا منها ليلة البناء بها حتى صدف عنها صارخًا: أيها الناس إن الفتاة مريبة. وكان كاذبًا فيما يقول، ولكن صدقه الناس، فانتقم لنفسه بذلك شر انتقام وأفظعه، ورأيت من دخلت إليه امرأة من أولئك النساء المريبات تسأله بعض المعونة على أمرها فأمر بطردها ذهابًا بنفسه أن تسوء سمعته بدخولها بيته، وكان هو الذى أفسدها على نفسها فنزل بها فسادها إلى هذه المنزلة من السقوط ثم الفقر، فلما جد الجد حاسبها على لقمة تتذوقها فى بيته. ولم يحاسب نفسه على عرض كان يأكله فى بيته أكلاً. فكان بى منذ ذلك العهد أن أنظر إلى المرأة بعين غير العين التى ينظر بها الناس إليها، وأن ألتمس لها من العذر -وإن زلت بها قدم- ما لا يلتمسه لها أحد، وأن أنتصف لها من الرجل ما وجدت سبيلاً إلى ذلك حتى يديل لها الله منه، وكنت من شئون عيشى فى حالة لا أستطيع معها أن أعتزل الناس الاعتزال كله، ولا أن أختار لعشرتى من أشاء من خيارهم وذوى المروءة فيهم، فلبستهم على علاتهم فما حفظ لى صديق عهدًا، ولا صان لى صاحب سرًا، ولا استدنت مرة فنفس عنى دائن، ولا دنت فوفى لى مدين، ولا رد لى مستعير عارية، ولا شكر لى شاكر صنيعة، ولا فرج لى كربتى مفرج إلا إذا استقطر ماء وجهى إلى القطرة الأخيرة منه، ليأخذ أكثر مما أعطى، ويسلب فوق ما وهب، ووجدت فى طريق حياتى من خالطنى مخالطة الزائر للمزور حتى أمكنته الفرصة فسرق مالى بعد ما تحرم بطعامى وشرابى. ومن كان يبسط إلىَّ يد الآمل الراجى فأكره أن أرده خائبًا،

فلما عجزت عن ذلك مرة أضمر لى فى قلبه من الشر ما لا يضمر لمثله الرجل إلا لمن يغلبه على تراث أبيه وأمه، أو يخضب لحيته من دم مفرقه ومن نصب[١] لى وغرى بمحاداتى، ومماظتى[٢]، لأنه كان يحمل فى رأسه فتكة لم يجد فى طريقه من يحملها عنه ويستخذى له فيها سواى، ومن أخذ نفسه بالنيل منى والغض من شأنى لأنه كان يشكو الخمول والضعة وكان لابد له أن يكون نابهًا مذكورًا، فاتفق له أن رأى عاتقى بين يديه فظن أنه أعلى العواتق وأبعدها مذهبًا فى جو السماء، فعلاه ليشرف منه على الناس فيعرفوا مكانه، فوالله ما تحلحلت ولا نبوت به بقيًا عليه وضنًا به أن يسقط سقطة لا يئل منها، ومن كان لا يكبر شأنى إلا إذا اتقانى، فإذا أضاء ما بينى وبينه كنت فى عينه أصغر منه فى عين نفسه، ومن كان يقبل ويدبر بإقبال الدهر علىَّ وإدباره عنى، لا يستحى أن يكرر ذلك حتى أستحيى له منه. فعركت بجنبى[٣] كل ما كرهت من ذلك، ولكننى لم أرض لنفسى أن أنزل فى الغرارة والسذاجة دون المنزلة التى ينزل إليها الغر الكريم، فلم أثأر لنفسى، ولكن أصبح رأيى فى الناس غير رأيهم فى أنفسهم، ورأى بعضهم فى بعض، وخفت أن يصيب كثيرًا من الضعفاء والمحدودين[٤] أمثالى مثل ما أصابنى، فكان من همى أن أدل على شرور الأشرار الكامنة فى نفوسهم وأن أكشف الستر عن دخائل قلوبهم حتى يتراءوا ويتكاشفوا، فيتواقعوا ويتحاجزوا، فلا يهنأ خادع بخدعته، ولا يبكى مخدوع على نكبته، ولا يتخذ بعضهم بعضًا حمرًا يركبونها إلى أغراضهم ومطامعهم، وكان منشئ فى قوم بداة سذج لا يبتغون بدينهم دينًا، ولا بوطنهم وطنًا، ثم ترامى بى الأمر بعد ذلك وتصرفت بى فى الحياة شئون جمة، فخضعت لكثير من أحكام الدهر وأقضيته، إلا أن أكون ملحدًا فى دينى أو زاريا على وطنى، فاستطعت -وقد غمر الناس ما غمرهم من هذه المدنية الغربية- أن أجلس ناحية منها. وأن أنظر إليها من

(١) نصف فلان لفلان: عاداه.

(٢) المماظة: المخاصمة والمشارة.

(٣) عرك بجنبه ذنب صاحبه: احتمله.

(٤) المحدود: المحروم: ويراد به سيء الحظ.

مرقب عال، وكنت أعلم أن من أعجز العجز أن ينظر الرجل إلى الأمر نظرة طائرة حمقاء، فإما أخذه كله أو تركه كله، فرأيت حسناتها وسيئاتها، وفضائلها ورذائلها، وعرفت ما يجب أن يأخذ منها الآخذ وما يترك التارك، فكان من همى أن أحمل الناس من أمرها على ما أحمل عليه نفسى، وأن أنقم من هؤلاء العجزة الضعفاء وتهالكهم لها، واستهتارهم بها، وسقوطهم بين يدى رذائلها ومخازيها، وإلحادها وزندقتها، وشحها وقسوتها، وشرهها وحرصها، وتبذلها وتهتكها، حتى أصبح الرجل الذى لا بأس بعلمه وفهمه إذا حزبه الأمر(١) فى مناظرة بينه وبين من يأخذ برذيلة من الرذائل لا يجد بين يديه ما ينضج به عن نفسه إلا أن يعتمد عليها فى الاحتجاج على فعل ما فعل، أو ترك ما ترك كأنما هى القانون الإلهى الذى تثوب إليه العقول عند اختلاف الأنظار واضطراب الإفهام، أو القانون المنطقى الذى توزن به التصديقات والتصورات لمعرفة صوابها وخطئها وصحيحها وفاسدها؛ وحتى أصبح السيد فى منزله يستحى الحياء كله من خادم غرفته الأوربية أن تطلع منه على جهل ببعض عاداتها وعادات قومها حتى فى لبس الرداء وخلع الحذاء أكثر مما يستحى من الله ومن الناس أن يهجموا منه على أرذل الرذائل وأكبر الكبائر؛ وحتى أصبح طريق المشرق وتاريخ علمائه وأدبائه وفلاسفته وشعرائه صورة من أقبح الصور وأسمجها فى نظر كثير من الشرقيين: يفخرون بجهله أن جهلوه، ويراؤون بعلمه أن علموه، وحتى قدر الغلام الرومى -خادم الحان- منفرداً على ما لا تقدر عليه الأمة جميعها مجتمعة، فحملها على النزول إليه لتحدثه بلغته، قبل أن تحمله على الصعود إليها ليحدثها بلغتها، وهو إلى أن يترضاها ويستدنيها أحوج منها إلى أن تترضاه وتزدلف إليه.

فذلك ما تراه فى رسائل النظرات منتشراً ههنا وههنا، وقد شعر به قلبى ففاض به قلبى من حيث لا أكذب الناس عن نفسى، ولا أكذب نفسى عنها.

وعندى أن الكاتب المسخر الذى لا شأنه له إلا أن يكتب ما يفضى به الناس إليه صانع غير كاتب، ومترجم غير قائل، لا فرق بينه وبين صائغ

---

(١) حزبه الأمر: اشتد عليه.

الذهب وثاقب اللؤلؤ: كلاهما ينظم ما لا يملك ويتصرف فيما لا شأن له فيه، على أن خير ما ينتفع به الأديب من أدبه أن يترك يوم وداعه هذه الدنيا صفحة يقرأ فيها الناظرون فى تاريخه من بعده صورة نفسه ومضطرب آماله ومسرح أحلامه؛ فإن كان من شأنه فى حياته أن يكون مرآة تتقلب فيها مختلفات الصور، أو وفيعة[1] تتمسح بها أعواد الأقلام كان خسرانه عظيمًا لا يقوم به كل ما يربح الرابحون من مال أو يؤثلون من جاه، والتاريخ أضن من أن يحفظ بين دفتيه من مجد الأدباء إلا مجد أولئك الذين يودعون نفوسهم صفحات كتبهم ثم يموتون وقد تركوها نقية بيضاء من بعدهم، وحياة الكاتب بحياة كتابته فى نفوس قرائها، ولا تحيا كتابة كاتب سيعلم الناس من أمره بعد قليل أنه يكذبهم عن نفسه وعن نفوسهم وأنه رواغ متخلج[2] يأمرهم اليوم بما ينهاهم عنه غدًا، ويرى فى ساعة ما لا يرى فى أخرى، وأنه يستبكى ولا يبكى، ويسترحم ولا يرحم، ويحزن النفوس وهو ساكن، ويثير الثائر وهو سالم، فيستريبون به، ويحارون فى مصادره وموارده، ثم يحملون أمره شر حالية ثم ينقطع ما بينهم وبينه، والبيان ليس سلعة من السلع التى يتنقل بها تجارها من سوق إلى سوق ومن حانوت إلى آخر، ولكنه حركة طبيعية من حركات النفس تصدر عنها آثارها عفوًا بلا تكلف ولا تعمل، صدور النور عن الشمس، والصدى عن الصوت، والأريج عن الزهر، وشعاع لامع يشرق فى نفس الأديب إشراق المصباح فى زجاجته، وينبوع ثرار يتفجر فى صدره ثم يفيض على أسلات قلمه، وهو أمر وراء العلم واللغة والمحفوظات والمقروءات والقواعد والحدود، ولو أن أمرًا من ذلك كائن لكان أبرع الكتاب وأشعر الشعراء أغزرهم مادة فى العلم، أو أعلمهم بقواعد اللغة، أو أجمعهم لمتونها، أو أحفظهم لفصيح القول ورائعة؛ أما العلم فأكثر المؤلفين الذين تركوا بين أيدينا هذه الأسفار التى نقرؤها فى الشريعة والحكمة والمنطق وغيرها كانوا علماء ما يتدافع فى ذلك اثنان؛ وها قد مرت علينا وعلى ما تركوه بين

---

(١) الوفيعة: خرقة يمسح بها القلم.

(٢) المتخلج: المضطرب فى مشيته.

أيدينا القرون والحقب وأكثرنا عاجز عن فهم أكثر ما كانوا يكتبون؛ وأما المحفوظات فما نعلم أحد أحفظ لكتاب الله من جماعة القراء، ولا أحفظ للحديث من الفقهاء، ولا أقل منهم إلمامًا بالأدب ولا أبعد عنه مكانًا؛ وأما اللغة فما عرفنا بين المتقدمين والمتأخرين من رواتها وحفاظها والمتوفرين على تدوينها وتحقيقها والمنقطعين لدرس قواعدها وفنونها من عرفت له البراعة والتفوق فى تحبير الرسائل أو قرض الشعر أو القوة القلمية فى التصنيف فى غير ما أخذوا أنفسهم به؛ وكان الخليل بن أحمد إذا سئل عن نظم الشعر قال: يأباني جيده وآبى رديئه؛ وكان الأصمعى يحفظ ثلث اللغة، وأبو يزيد الأنصارى يحفظ نصفها وأبو مالك الأعرابى يحفظها كلها، وكذلك كان شأن النضر بن شمبل وأبى عبيدة وابن دريد والأزهرى والصاغانى وابن فارس وابن الأثير صاحب النهاية، والجوهرى والفيروزابادى وأمثالهم من علماء اللغة والنحو، وما سمعنا لواحد منهم فى إحدى الصناعتين شيئًا مذكورًا، وقال أبو العباس المبرد فى بعض أحاديثه لا أحتاج إلى وصف نفسى: لعلم الناس بى أنه ليس أحد من الخافقين تختلج فى نفسه مشكلة إلا لقينى بها وأعدنى لها، فأنا عالم ومتعلم وحافظ ودارس، لا يخفى علىَّ مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنثور والخطب والرسائل وربما احتجت إلى اعتذار من فلتة أو التماس حاجة، فأجعل المعنى الذى أقصده نصب عينى، ثم لا أجد سبيلاً إلى التعبير عنه بيد ولا لسان، ولقد بلغنى أن عبيد الله بن سليمان ذكرنى بجميل فحاولت أن أكتب إليه رقعة أشكره فيها وأعرض بعض أمورى فأتعبت نفسى يومًا فى ذلك فلم أقدر على ما أرتضيه منها، وكنت أحاول الإفصاح عما فى نفسى فينصرف لسانى إلى غيره اهـ. بل لو شئت لقلت أنه ما أفسد على المتنبى وأبى تمام كثيراً من شعرهما، ولا المعرى كثيراً من منظمه ومنثوره، ولا على الحريري مقاماته، ولا على ابن دريد مقصورته، إلا غلبة اللغة عليهم واستهتارهم بها وشغفهم بتدوينها فى كل ما يكتبون فقد كانوا هم وأمثالهم من حبائس اللغة وأنضائها فى كثير من مواقفهم يؤلفون ويدونون، من حيث يظنون أنهم ينظمون أو يكتبون، ولا تزال نفسى تشتمل على لوعة من الحزن

لا تفارقها حتى الموت كلما ذكرت أن الأدب العربى كان يستطيع أن يكون خيرًا مما كان لو أن الله تعالى كتب للزوميات المعرى النجاة من قبضة اللغة وأسر الالتزام وإنك لا تكاد ترى اليوم من شعراء هذا العصر وكتابه -الذين يأخذون بزمام المجتمع العربى ويقيمون عالمه ويقعدونه بقوتهم القلمية فى شئونه السياسية والاجتماعية والأدبية كافة- من يعد من حفاظ اللغة العربية وثقاتها، أو من يسلم له مقال من مأخوذ نحوى أو مغمز لغوى، وهم على ذلك أدخل فى باب البيان وألصق به وأمس رحمًا من أولئك الذين يستظهرون متون اللغة ويحفظون دقائقها ويحيطون بمترادفها ومتواردها ويتباصرون بشاذها وغريبها ويحملون فى صدورهم ما دق وما جل من مسائل نحوها وتصريفها، فإذا عرض لهم غرض من الأغراض فى أى شأن من شئون حياتهم وأرادوا أنفسهم على الإفضاء به- ارتج عليهم فأغلقوا أو تقعروا وتشدقوا فكأنهم لم ينطقوا، والفرق بين الأدباء واللغويين أن الأولين كاتبون، والآخرون مصححون؛ فمثلهما كمثل النساج وعامله: هذا ينسج الثوب، وهذا يلتقط زوائده ويمسح زئبره(١)، أو كمثل الشاعر والعروضى: هذا ينظم الشعر وهذا يعرضه على تفاعيله وموازينه، وليس البيان ذهاب كلمة ومجىء أخرى، ولا دخول حرف وخروج آخر، وإنما هو النظم والنسق والانسجام والاطراد والرونق واستقامة الغرض وتطبيق المفصل، والأخذ بمجامع الألباب، امتلاك أزمة الهواء؛ فإذا صح ذلك لامرئ فهو الكاتب القدير أو الشاعر الجليل؛ فإن زلت به يده أصيل، أو كان ممن يفوته العلم ببعض قواعد اللغة أو بعض وجوه الاستعمال فيها، كان ذلك عيبًا لاحقًا بعلمه أو بحافظته، لا ببيانه وفصاحته، ومتى صدر القائل فى قوله عن سجية وطبع، أصبح شأنه شبيهًا بشأن العرب الأولين، وكان من شأنهم أن يسبقهم فى كلامهم الخطأ اللفظى فى بعض الأحيان، وكان السبب فى ذلك كما يقول أبو على الفارسى: أنهم كانت تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به؛ فربما استهواهم الشىء، فزاغوا به عن القصد من حيث لا يشعرون، وكما أن الجسم لا يغير من صورته، ولا

---

(١) الزئبر: ما يظهر من درز الثوب.

يبدل من سحنته، أن تطير منه ذرة وتحل أخرى محلها لتمثلها، كذلك لا يغير من صورة الكلام ولا يذهب بنسقه خروج أصيل، أو دخول دخيل، وقد قيل لأحد الكتاب الإنكليز: نراك كثير الإعجاب بالكاتب «كبلنغ» وهو رجل لحانة لا يحفل بقواعد اللغة، فأجاب: إن سطرًا واحدًا مما يكتبه «كبلنغ» أثمن عندى من قوانين اللغة جميعها، وليس من الرأى أن أحرم نفسى التمتع بأدبه وإكرامًا لسواد عيون الغراماطيق[1] الإنكليزى، فضل الأدباء على اللغة فى سيرورتها وذيوعها وتداولها وخلودها أفضل من فضل اللغويين عليها فى ذلك، لأنهم هم الذين يمهدون سبلها ويعبدون[2] طرقها ويستدنون نافرها، ويجمعون شاردها، وينظمون لآلئها نظم الثاقب لآلئه فى السلك فيأخذها الناس عنهم من أخصر الطرق وأقربها، وأشهاها إلى النفس، وأعلقها بالقلب؛ وقليل من الناس من يأخذ مادته اللغوية من معاجم اللغة أو يكتسب ملكة الأعراب من كتب النحو والتصريف؛ وما كانت اللغة عدوة للأدب ولا كان عدوًا لها، بل هى أساسه وقوامه الذى يقوم به، ولكن المشتغلين بها والمتوفرين على دراستها، والمنقطعين لاستظهارها، والنظر فى دقائقها، والتعمق فى أطوائها لا يزال يتغلب عليهم الولع بها والفناء فيها، حتى تصبح فى نظرهم مقصدًا من المقاصد، لا وسيلة من الوسائل، وللبيان وسائل كثيرة غير وسيلة اللغة فمن لا يأخذ نفسه بجميع وسائله لا يصل إليه، والتربية العلمية كالتربية الجسمية؛ فكما أن الطفل لا ينمو جسمه ولا ينشط، ولا تتبسط أعضاؤه، ولا تنتشر القوة فى أعصابه، إذا إذا نشأ فى لهوه ولعبه وقذفه ووثبه؛ كذلك الكاتب لا تنمو ملكة الفصاحة فى لسانه، ولا تأخذ مكانها من نفسه إلا إذا ملك الحرية فى التصرف والافتنان والذهاب فى مذاهب القول ومناحيه كما يشاء وحيث يشاء، دون أن يسيطر عليه فى ذلك مسيطر إلا طبعه وسجيته؛ واللغوى لا يزال يحوط نفسه بالحذر والخوف والوساوس والبلابل، فإن مشى خيل إليه أنه يمشى على رملة ميثاء، وإن تحرك

---

(١) الغراماطيق: النحو.

(٢) يعبدون: يذللون ويمهدون.

خيل إليه إن تحت قدميه حفرة جوفاء حتى يقعد به خوفه ووسواسه عن الغاية التى يريد الوصول إليها. على أن الكاتب لا يبلغ مرتبة الكتابة إلا إذا نظر إلى الألفاظ بالعين التى يجب أن ينظر بها إليها فلم يتجاوز بها منزلتها الطبيعية التى تنزلها من المعانى، وهى أن تكون خدمًا لها وخولاً، وأوعية وظروفًا، فإذا كتب تركها وشأنها وأغفل أمرها حتى تأتى بها المعانى وتقتادها طائعة مرغمة، والمعانى هى جوهر الكلام ولبه، ومزاجه وقوامه، فما شغل الكاتب من همته بغيرها أزرى بها حتى تفلت من يده فيفلت من يده كل شىء.

وبعد؛ فالعلم والمحفوظات والمقروءات والمادة اللغوية، والقواعد النحوية إنما هى أعوان الكاتب على الكتابة ووسائله إليها؛ فالجهل لا يكتب شيئًا لأنه لا يعرف شيئًا؛ ومن لا يضطلع بأساليب العرب ومناحيَها فى منظومها ومنثورها سرت العجمة إلى لسانه، أو غلبته العامية على أمره؛ ومن قل محفوظه من المادة اللغوية، قصرت يده عن تناول ما يريد تناوله من المعانى؛ ومن جهل قانون اللغة أغمض الأغراض وأبهمها، أو شوّه الألفاظ وهجنها، ولكنها ليست هى جوهر الفصاحة ولا حقيقة البيان فأكثر القائمين عليها والمضطلعين بها، لا يكتبون ولا ينظمون، فإن فعلوا كان غاية إحسان المحسن منهم أن يكون كصانع التماثيل الذى يصب فى قالبه تمثالاً سويًا متناسب الأعضاء مستوى الخلق؛ إلا أنه لا روح فيه ولا جمال له، لأنه ينقصهم بعد ذلك كله أمر هو سر البيان ولبه، وهو الذوق النفسى والفطرة السليمة، وأنى لهم ذلك؛ وما دخلت الفلسفة أيًا كان نوعها على عمل من أعمال الفطرة إلا أفسدته، وما خلط التكلف عملاً من أعمال الذوق إلا شوّه وجهه، وذهب بحسنه وروائه.

ولقد قرأت ما شئت من منثور العرب ومنظومها، فى حاضرها وماضيها قراءة المتثبت المستبصر، فرأيت أن الأحاديث ثلاثة: حديث اللسان، وحديث العقل، وحديث القلب.

فأما حديث اللسان فهو فى تلك العبارات المنمقة، والجمل المزخرفة، أو

تلك الكلمات الجامدة الجافة التى لا يعنى صاحبها منها سوى صورتها اللفظية فإن كـان لغويًا تقعـر وتشدق، وتكلف وأغـرب، حتى يأتيك بشىء خيـر ما يصفه به الوصف أنه متن مشوش من متون اللغة لا فصول له ولا أبواب، وإن كان بديعيًا جنس ورصع وقابل ووسع وزاوج وافتن فى الإتيان بالكلمة مهملة كلها أو معجمة كلها أو راوح بين الإهمال والإعجام، فيخيل إليك وأنت تراه ينطق بما ينطق به كأنما هو يصنعه بيديه صنعًا، أو يصففه تصفيفًا، ثم لا يبالى بعد ذلك باستقامـة المعنى فى ذاته ولا بمقدار ما له من الأثر فى نفس السامع، وهذا الحديث هو أسـقط الأحاديث الثلاثة وأدناها وأجـدرها أن ينظمه الناظم فى سلك الصناعات اليـدوية التى لا دخل للعقل ولا للفـهم فى شىء منها، وأن ينظم صـاحبهـا فى سلك جمـاعة المحللين الذين لا شـأن لهم إلا تحليل المواد وتركيـبها، وجمـعها وتفريقـها، والمزاوجة بين مـقاديرها، والموازنة بين أثقالهـا، من حيث لا يكون لقـوة التصور ولا لذكـاء القلب دخل فى هذا أو ذاك.

وأما حديث العـقل فهو تلك المعانى التى ينحتهـا الناحتون من أذهانهم نحتًـا، ويقتطعـونها منها اقـتطاعًا، ويذهبون فـيها مـذهب المعاياة والتـحدى والعمق والإغراب، ويسمونها تارة تخييلاً وأخرى غلواً وأخرى حسن تعليل، إلى كثير من أمثـال هذه الأسماء والألقاب التى تتفرق ما تتفـرق، ثم يجمعها شىء واحد هو الكذب والإحالة؛ وآية ما بينك وبينهـا: أنك إذا رأيتها شعرت بأنك ترى أمامك شـيئًا غريبًـا عن نفسك. وعن نفس صاحبـه، وعن نفوس الناس جميعًا، وأن صاحبه لا يريد منه إلا أن يطرفك أو يضحكك أو يعجبك من ذكائه وفطنته واقتداره على تصـوير ما لا يتصور وإيجاد ما لا يكون، وهو أمر لا علاقة له بجـوهر الشعر، ولا حقيقة الكتـابة، وربما انعكس عليه حتى غرضه هذا فنفرك وأكدك وملأ قلبك غيظًا وقبحًا كأن يقول:

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليـها عـقـد منتطق

فإن الجـوزاء لا تنتطق، ولو كان هذا الذى نراه يستـدير بها نطاقًا فـهو شىء متصل بها قـبل أن يخلق الممدوح ويخلق آباؤه الأولون إلى آدم وحواء،

والكواكب ليست أشخاصًا أحياء يتخـذ منها الناس خدمًا وخولاً لأنفسهم ولو كانت كذلك لاستحال عليـها -وهى من سكان السماء- أن تهبط إلى الأرض لتخدم سكانهـا، فقد كذب وأحال أربع مرات فى بيت واحـد، ثم عجز بعد هذا كله أن يترك فى نفس السـامع صورة تمثل جلال ممدوحـه، وعظم شأنه، فهو فى الحقيقة إنما يريد ببيته هذا أن يمتدح نفسه بالإبداع وقوة التخيل، لا أن يمتدح ممدوحه برفعة الشأن وعلو المقام.

أو يقول:

مـا به قـتل أعـاديه ولكن يتقى أخلاف ما ترجو الذئاب

فإن الذى يحمل فى صدره قلبًا رحيـمًا مشفقًا على الذئاب من الجوع، مستـعظمًا أن يخلفها ما عوّدهـا إياه من طعام وشراب، لا يمكن أن يكون هو نفسه ذئبًـا ضاريًا يريق دماء الناس ويمزق أحشاءهم، ويقطع أوصـالهم، ليملأ بها بطون الوحش؛ ولا يوجد بين الأسباب التى تحمل الناس على القتال سبب يشبه هذا السبب الذى ذكره؛ على أن المحسن لا يكون محسنًا إلا إذا وهب ما يهب من ماله، ومن خزائن بيـته، فإما أن يقتل الناس تقـتيلاً ويمثل بهم، ثم ينعم بجثثهم على الجائعـين والظماء من وحوش الأرض وذئابها؛ فذلك شىء هو بالجنون أشبه منه بالإحسان.

أو يقول:

لا يذوق الإغـفـاء إلا رجـاء أن يرى طيف مستميح رواحا

فإن النوم قـوام الإنسان وعماد حـياته، ولازم من لوازمه اللاصـقة به، أراد ذلك أم لم يرد، فإن كان لابد من دخوله فى باب الاخـتيار فإن من أبعد الأشياء عن التصور والفهم أن يكون ما يحمل الإنسان على طلب النوم رجاؤه أن يرى فيه الأحلام والرؤى، فإن فعل فعلاً يدخل فى باب أغراضه وأمانيه أن ينام ليرى خيـال جماعة المتسولين والمتـأكلين، وهم ملء الأرض وهباء الجو، وأرصاد الأعـتاب، وأعـقاب الأبـواب، لا تفتح الأعين إلا عليـهم ولا تمتلئ

الأنظار إلا بهم، فهم لم يبلغوا فى الضن بأنفسهم والعزف بها مبلغ من لا يراه الرائى ولا يعثر به إلا إذا ألقى فى طريقه حبائل الأحلام ليصطاد بها.

أو يقول:

لم يتخذ ولداً إلا مبالغة   فى صدق توحيد من لم يتخذ ولداً

فإن الأولاد لا يتخذون اتخاذًا، وإنما ينعم الله بهم على من يشاء من خلقه إنعامًا، وأكثر ما تقذف به الأرحام من النسمات إنما هى ثمرات الحب يأتى بها عفوًا، لا نبتة من نبات الأرض يبذر الزارع بذورها ليستنبتها، والله تعالى غنى بربوبيته ووضوح آثارها عن الاستدلال عليها بنطفة يقذفها قاذفها فى بعض الأرحام، فإن كان لابد فى إثبات ربوبيته من دليل يدل على مخالفته للحوادث فى الصفات والأفعال؛ فالأدلة على ذلك كثيرة لا يضبطها الحساب كثرة. وربما كان أهونها وأضعفها أنه لا يتخذ ولدًا، وأنهم يتخذون. على أن المتخذين كثيرون قد ضاق بهم بطن الأرض وظهرها، فالمسألة مفروغ منها قبل أن يخلق هذا الممدوح ويخلق ولده؛ فلا فضل له فى الإتيان بشىء جديد.

أو يقول:

وما ريح الرياض لها ولكن   كساها دفنهم فى الترب طيبًا

فإن الأزهار التى تستمد حياتها ونماءها من جثث الموتى ورممهم لا يمكن أن تكون طيبة الريح، على أن الأزهار مريحة قبل أن يدفن هؤلاء الموتى فى قبورهم، فلم يزد فى كلمته هذه على أن أتى بخيال ضعيف مبتذل هو أشبه الأشياء بخيال العامة الذين يرون أن بعض الأزهار ما خلق إلا إكرامًا لبعض النبيين.

أو يقول:

تتلف فى اليوم بالهبات وفى الـ   ساعة ما تجتنيه فى سنتك

فقد أراد أن يصف ممدوحه بالكرم وصفًا فوق ما يصف الناس ويأتى فى

ذلك بما لم يأت به غيره؛ فأنزله منزلة مجانين المسرفين الذين لا يحسنون الموازنة بين دخلهم ونفقاتهم، ولو تقدمت هذه التهمة بهذه الصورة إلى قاض من قضاة المال لما كان له بد من الحجر عليه، والقضاة يرضون فى مثل هذه الأحكام بدون إنفاق دخل السنة جميعها فى ساعة واحدة أو يوم واحد.

أو يقول:

ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا عن الأكفان ثوب السافيات

فإن شيئًا من ذلك لم يكن، فالقبر لا يضيق بأحد، والجو لا يكون قبرًا، والريح ليست كفنًا، والرجل لا يزال مصلوبًا غير مقبور، ولا يزال عاريًا غير مدرج فى كفن.

وأما حديث القلب فهو ذلك المنثور أو المنظوم الذى تسمعه فتشعر أن صاحبه قد جلس إلى جانبك ليتحدث إليك كما يتحدث الجليس إلى جليسه، أو ليصور لك ما لا تعرف من مشاهد الكون، أو سرائر القلوب، أو ليفضى إليك بغرض من أغراض نفسه، أو لينفس عنك كربة من كرب نفسك، أو ليوافى رغبتك فى الإفصاح عن معنى من المعانى الدقيقة التى تعتلج فى صدرك، ثم يتكاءدك الإفصاح عنها من حديث لا يكون للصناعة اللفظية، ولا للفلسفة الذهنية دخل فى هذا أو ذاك، حتى ترى حجاب اللفظ قد رق بين يديك دون المعنى حتى يفنى كما تفنى الكأس الصافية دون ما تشمل عليه من الخمر، فإذا الخمر قائمة بغير إناء، أو كما تفنى صفحة المرأة الصقيلة بين يدى الناظر فيها، فلا يرى إلا صورته ماثلة بين يديه، ولا لوح هناك ولا زجاج، وهو أرقى الأحاديث الثلاثة وأشرفها، وهل الذى يريده المريدون مهما اختلفت عباراتهم، وتنوعت أساليبهم من كلمة البيان.

ولقد كان من أكبر ما أعاننى على أمرى فى كتابة تلك الكلمات أشياء أربعة أنا ذاكرها، لعل المتأدب يجد فى شىء منها ما ينتفع به فى أدبه.

أولها: أنى ما كنت أحفل من بين تلك الأحاديث الثلاثة بحديث اللسان ولا حديث العقل، أى أننى ما كدت أتكلف لفظًا غير اللفظ الذى يقتاده المعنى ويتطلبه، ولا أفتش عن معنى غير المعنى الطبيعى القائم فى نفسى، بل كنت أحدث الناس بقلمى كما أحدثهم بلسانى، فإذا جلست إلى منضدتى خيل إلىّ أن بين يدى رجلاً من عامة الناس مقبلاً علىّ بوجهه، وأن من ألذ الأشياء وأشهاها إلى نفسى أن لا أترك صغيرًا ولا كبيرًا مما يجول بخاطرى حتى أفضى به إليه، فلا أزال أتلمس الحيلة إلى ذلك ولا أزال أتأتى إليه بجميع الوسائل وألح فى ذلك إلحاح المشفق المجد، حتى أظن أنى قد بلغت من ذلك ما أريد، فلا أقيد نفسى بوضع مقدمة الموضوع فى أوله ولا سرد البراهين على الصورة المنطقية المعروفة، ولا التزام استعمال الكلمات الفنية التزامًا مطردًا إبقاء على نشاطه وإجماحه، وإشفاقًا عليه أن يمل ويسأم، فينصرف عن سماع الحديث أو يسمعه فلا ينتفع به.

وثانيها: أنى ما كنت أحمل نفسى على الكتابة حملاً، حولا أجلس إلى منضدتى مطرقًا مفكرًا: ماذا أكتب اليوم؟، وأى الموضوعات أعجب وأغرب وألذ وأشوق؟، وأيها أعلق بالنفوس، وألصق بالقلوب؟ بل كنت أرى فأفكر فأكتب فأنشر ما أكتب فأرضى الناس مرة وأسخطهم أخرى من حيث لا أتعمد سخطهم ولا أتطلب رضاهم.

وثالثها: أنى ما كنت أكتب حقيقة غير مشوبة بخيال، ولا خيال غير مرتكز على حقيقة، لأنى كنت أعلم أن الحقيقة المجردة عن الخيال لا تأخذ من نفس السامع مأخذًا، ولا تترك فى قلبه أثرًا؛ وأحسب أن السبب فى ذلك أن أكثر ما تشتمل عليه النفوس من العقائد والمذاهب والآراء والأخلاق، والخواطر والتصورات، إنما هو أثر من آثار الخيالات الذهبية التى تتراءى فى سماء الفكر. ثم لا تزال بها الأيام تكسوها طبقة بعد طبقة من غبار القدم حتى تصبح حقيقة من الحقائق الثابتة فى الأذهان، وكما أن الحديد لا يفله إلا

الحـديد، واللون لا يذهب به إلا لون غـيـره. كذلك الخـيـال لا يذهب ولا يزعجه من مكانـه إلا الخيال، وللخيال الأثر الأعظم فى تكـوين هذا المجتمع الإنسانى وتكييفه على الصورة التى يريدها، فلولا خيال الشعر ما هاج الوجد فى قلب العاشق، ولـولا خيال الشـرف ما هلك الجندى فى ساحـة الحرب، ولولا خيال الذكرى مـا اخترعت المخترعات، ولا ابتـدعت المبتدعات، ولولا خيال الرحمة ما عطف غنى على فقيـر، ولا حنا كبير على صغير، كما كنت أعلم أن الخيال غير المرتكز على الحقيقة إنما هو هبوة طائرة من هبوات الجو لا تهبط أرضًا ولا تصعد إلى سماء.

ورابعها: أنى كنت أكتب للناس لا لأعجبهم، بل لأنفعهم، ولا لأسمع منهم: أنت أحسنت، بل لأجد فى نفوسهم أثرًا مما كتبت، وللناس كما قلت فى بعض رسائلى؛ خـاصة وعامـة، أما خاصتـهم فلا شأن لى مـعهم، ولا علاقـة لى بهم ولا دخل لكلمة من كلمـاتى فى شأن من شؤونهم فـلا أفرح برضاهم ولا أجـزع لسخطهم، لأنى لم أكتب لهم، ولم أتحدث مـعهم، ولم أشهدهم أمرى، ولم أحضرهم عملى، بل أنا أتجنب جهد المستطاع أن أستمع منهم شيئًا مما يتعلق بى من خـير أو شر؛ لأنى راض عن فطرتى وسجيتى فى اللغة التى أكتب بهـا، فلا أحب أن يكدرها علىَّ مكدر، وعن آرائى ومذاهبى التى أودعها رسـائلى فلا أحب أن يشككنى فيها مـشكك، ولم يهبنى الله من قوة الفراسة ما أستطيع به أن أميز بين مخلصهم ومشوبهم. فأصغى إلى الأول لأستفيد عـلمه، وأعرض عن الثانى لأتقى غشه، فأنا أسيـر بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لابد له أن يفرغ منها فى سـاعة معينة. ثم علم أن على يمين الطريق التى يسلكها روضة تعتنق أغصانهـا، وتشتجر أفنانها، وأن على يساره غابًا تزأر أسوده وتعوى ذئابه وتفح أفاعيه وصلاله، فمضى قدمًا لا يلتفت يمنة مخافة أن يلهو عن غـايته بشهوات سمعه وبصره، ولا يسـرة مخافة أن يهيج بنظراته فضول تلك السباع المقعية، والصـلال الناشرة، فتعترض طريقه. وأما

عامتهم، فهم بين ذكى قد وهبه الله من سلامة الفطرة، وصفاء القلب، وسلاسة الوجدان، ما يعده لاستماع القول واتباع أحسنه؛ فأنا أحمد الله فى أمره، وضعيف قد حيل بينه وبين نفسه، فهو لا يرضى إلا عما يعجبه، ولا يسمع إلا ما يطربه، فأكل أمره إلى الله تعالى، واستلهمه صواب الرأى فيه حتى يجعل الله له من بعد عسر يسراً.

مصطفى لطفى المنفلوطى

الغـد

عرفت أنى فكرت ليلة أمس فيما أكتب اليوم، وعرفت أنى آخذ الساعة بقلمى بين أناملى، وأن بين يدى صحيفة بيضاء تسود قليلاً قليلاً كلما أجريت القلم فيها؛ ولـكنى لا أعلم هل يبلغ القلم مداه أو يكبو(١) دون غايته؟ وهل أسـتطيع أن أتمم رسـالتى هذه، أو يعـترض عـارض من عـوارض الدهر فى سبيلها؟ لأنى لا أعرف من شؤون الغد شيئًا، ولأن المستقبل بيد الله.

عرفت أنى لبست أثوابى فى الصبـاح، وأنى لا أزال ألبسها حتى الآن، ولكنى لا أعلم هل أخلعها بيدى أو تخلعها يد الغاسل؟

الغد شبح مبهم يتراءى للناظر من مكان بعـيد، فربما كان ملكًا رحيمًا، وربما كان شيطانًا رجيمًا، بل ربما كان سحابة سوداء إذا هبت عليها ريح باردة حللت أجزاءها، وبعثـرت ذراتها، فأصبحت كـأنما هى عدم من الأعدام التى لم يسبقها وجود.

الغد بحر خضم زاخر يعب عبابه(٢) وتصطخب أمواجه، فما يدريك إن كان يحمل فى جوفه الدر والجوهر، أو الموت الأحمر.

لقد غـمض الغد عن العقـول، ودق شخصـه عن الأنظار، حتى لو أن إنسانًا رفع قدمه ليـضعها فى خروجه من باب قصـره؛ لا يدرى أيضعها على عتبة القصر أم على حافة القبر.

الغد صـدر مملوء بالأسرار الغـزار، تحوم حوله البـصائر، وتتـسقطه(٣) العـقول، وتسـتدرجـه الأنظار، فـلا يبوح بسـر من أسراره؛ إلا إذا جـاءت الصخرة بالماء الزلال.

---

(١) كبا: سقط على وجهه.

(٢) يعب عبابه: يرتفع موجه.

(٣) تسقط الخبر: أخذه شيئًا فشيئًا.

كأنى بالغد وهو كامن فى مكمنه، رابض فى مجثمه[١]. متلفع بفضل إزاره، ينظر إلى آمالنا وأمانينا نظرات الهزء والسخرية ويبتسم ابتسامات الاستخفاف والازدراء، يقول فى نفسه: لو علم هذا الجامع أنه يجمع للوارث، وهذا البانى أنه يبنى للخراب، وهذا الوالد أنه يلد للموت: ما جمع الجامع ولا بنى البانى ولا ولد الوالد.

ذلل الإنسان كل عقبة فى هذا العالم، فاتخذ نفقًا فى الأرض، وصعد فى سلم إلى السماء، وعقد ما بين المشرق والمغرب بأسباب[٢] من حديد، وخيوط من نحاس، وانتقل بعقله إلى العالم العلوى، فعاش فى كواكبه، وعرف أغوارها وأنجادها. وسهولها وبطاحها، وعامرها وغامرها، ورطبها ويابسها. ووضع المقاييس لمعرفة أبعاد النجوم ومسافات الأشعة. والموازين لوزن كرة الأرض إجمالاً وتفصيلاً. وغاص فى البحار فعرف أعماقها، وفحص تربتها وأزعج سكانها، ونبش دفائنها وسلبها كنوزها، وغلبها على لآلئها وجواهرها، ونفذ من بين الأحجار والآكام إلى القرون الخالية فرأى أصحابها وعرف كيف يعيشون وأين يسكنون، وماذا يأكلون ويشربون، وتسرب من منافذ الحواس الظاهرة إلى الحواس الباطنة، فعرف النفوس وطبائعها، والعقول ومذاهبها، والمدارك ومراكزها؛ حتى كاد يسمع حديث النفس ودبيب المنى، واخترق بذكائه كل حجاب، وفتح كل باب، ولكنه سقط أمام باب الغد عاجزاً مقهوراً لا يجرؤ على فتحه، بل لا يجسر على قرعه، لأنه باب الله، والله لا يطلع على غيبه أحدًا.

أيها الشبح الملثم بلثام الغيب، هل لك أن ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلاً لنرى صفحة[٣] واحدة من صفحات وجهك المقنع، أو لا، فاقترب منا قليلاً علنا نستشف صورتك من وراء هذا اللثام المسبل دوننا، فقد طارت قلوبنا شوقًا إليك، وذابت أكبادنا وجدًا عليك.

أيها الغد؛ إن لنا آمالاً كباراً وصغارًا، وأمانى حسانًا وغير حسان،

---

(١) مجثم الطائر: موضع جثومه. أى تلبده بالأرض.

(٢) الأسباب: الحبال، وكل ما يوصل بين الشيئين.

(٣) صفحة الشيء: جانبه.

فحدثنا عن آمالنا أين مكانها منك، وخبرنا عن أمانينا ماذا صنعت بها؛ أأذللتها واحتقرتها، أم كنت لها من المكرمين؟

لا، لأصن سرك فى صدرك، وابق لثامك على وجهك، ولا تحدثنا حديثًا واحدًا عن آمالنا وأمانينا، حتى لا تفجعنا فى أرواحنا ونفوسنا فإنما نحن أحياء بالآمال وإن كانت باطلة، وسعداء بالأمانى وإن كانت كاذبة.

وليست حياة المرء إلا أمانيا إذا هى ضاعت فالحياة على الأثر

الكأس الأولى

كان لى صديق أحبه وأحب منه سلامة قلبه وصفاء سريرته وصدقه ووفاءه فى حالى بعده وقربه، وغضبه وحلمه وسخطه ورضاه، ففرق الدهر بينى وبينه فراق حياة لا فراق ممات، فأنا اليوم أبكيه حيًا أكثر مما كنت أبكيه لو كان ميتًا، بل أنا لا أبكى إلا حياته، ولا أتمنى إلا مماته، فهل سمعت بأعجب من هذه الخلة الغريبة فى طبائع النفوس!

علقت حبالى بحباله حقبة من الزمان عرفته فيها وعرفنى، ثم سلك سبيلاً غير سبيله فأنكرته وأنكرنى، حتى ما أمر بباله، لأن الكأس التى علق بها لم تدع فى قلبه فراغًا يسع غيرها وغير العالقين بها، وربما كان يدفعنى فى مخيلته دفعًا إذا تراءيت فيها لأنه إذا ذكرنى ذكر معى تلك الكلمات المرة التى كنت ألقاه بها فى فاتحة حياته الجديدة، وما كان له وهو يهيم فى فضاء سعادته التى يتخيلها أن يكدر على نفسه بمثل هذه الذكرى صفاء هذا الخيال.

ثم لم أعد أعلم من أمره بعد ذلك شيئًا، لأن حياة المدمنين حياة متشابهة متماثلة، لا فرق بين صبحها ومسائها وأمسها وغدها؛ ذهاب إلى الحانات فشراب، فخمار[1] فنوم فذهاب، كالحلقة المفرغة، لا يدرى أين

(١) الخمار: صداع الشراب.

طرفاها، والمنظر المتكرر لا يلفت النظر ولا يشغل الذهن، حتى إن بعض من ينام على دورة الرحى يستيقظ عند سكونها، وكان أحرى أن يوقظه دورانها.

لذلك لم يشغل هذا المسكين محلاً من قلبى إلا بعد أن سكنت دورته، وهدأت حركته، فلم أعد أراه معربدًا فى الحانات، ولا مطرحًا فى مدراج الطرق، ولا معتقلاً فى أيدى الشرط[١]. هناك سألت عنه فقيل لى: مريض، فلم أعجب لشىء كنت أعد له الأيام والأعوام، كما يعد الفلكى الساعات والدقائق لكسوف الشمس واصطدام الكواكب.

دخلت عليه أعوده فلم أجد عنده طبيبًا ولا عائدًا، لأنه فقير؛ والأطباء يظهرون الرحمة بالفقراء، ويبطنون حب الصفراء والبيضاء، والأصدقاء يخافون عدوى المرض وعدوى الفقر فلا يعودون المريض ولا يزورون الفقير.

دخلت منزله فلم أجد المنزل ولا صاحبه، لأنى لم أجد فيه ذلك الروح العالى الذى كان يرفرف بأجنحته فى غرفه وقاعاته، ولم أر دخان المطبخ، ولم أسمع ضوضاء الخدم، ولا بكاء أطفال؛ ولا رنين الأجراس، فكأننى دخلت القبر أزور الميت، لا المنزل أعود الحى.

ثم تقدمت نحو سرير المريض فكشفت كلته البالية عن خيال لم يبق منه إلا إهاب[٢] لاصق بعظم ناحل؛ فقلت: أيها الخيال الشاخص ببصره إلى السماء قد كان لى فى إهابك هذا صديق محبوب فهل لك أن تدلنى عليه؟ فبعد لأى ما[٣] حرك شفتيه وقال: هل أسمع صوت فلان؟ قلت: نعم، مم تشكو؟ فزفر زفرة كادت تتساقط لها أضلاعه وأجاب: أشكو الكأس الأولى، قلت: أى كأس تريد؟ قال: أريد الكأس التى أودعتها مالى وعقلى وصحتى وشرفى، وها أنا ذا اليوم أودعها حياتى؛ قلت: قد كنت نصحتك ووعظتك، وأنذرتك بهذا المصير الذى صرت إليه فما أجديت عليك شيئًا، قال: ما كنت

(١) الشرط: أعوان الأمير، ومفرده «شرطى» بضم الشين وسكون الراء.
(٢) الإهاب: الجلد.
(٣) يقال «فعله بعد لأى» أى إبطاء، و«ما» زائدة.

تعلم حين نصحتنى من غوائل هذا العيش النكد أكثر مما أعلم، ولكننى كنت شربت الكأس الأولى فخرج الأمر من يدى.

كل كأس شربتها جنتها علىّ الكأس الأولى، أما هى فلم يجنها علىَّ غير ضعفى وقصور عقلى عن إدراك الأصدقاء والخلطاء.

لم تكن شهوة الشراب مركبة فى الإنسان كبقية الشهوات فيعذر فى الانقياد إليها كما يعذر فى الانقياد إلى غيرها من الشهوات الغريزية؛ فلا سلطان لها عليه إلا بعد أن يتناول الكأس الأولى. فلم يتناولها؟ يتناولها لأن الخونة الكاذبين من خلانه وعشرائه خدعوه عن نفسه فى أمرها ليستكملوا بانضمامه إليهم لذتهم التى لا تتم إلا بقراع الكئوس وضوضاء الاجتماع. ولو علمت كيف خدعوه وزينوا له الخروج عن طبعه ومألوفه وأى ذريعة تذرعوا بها إلى ذلك؛ لتحققت أنه أبله إلى النهاية من البلاهة، وضعيف إلى الغاية التى ليس وراءها غاية.

أنا ذلك الأبله وذلك الضعيف، فاسمع كيف خدعنى الأصدقاء، وزينوا لى ما يزينه الشيطان للإنسان.

قالوا: إن حياتك حياة هموم وأكدار، ولا دواء لهذه الأدواء إلا الشراب، وقالوا: إن الشراب يزيد فى رونق الجسم، ويبعث نشاطه، وإنه يفتق اللسان ويعلم الإنسان البيان، وإنه يشجع الجبان، ويبعث فى القلب الجرأة والإقدام، هذا ما سمعته فصدقته وخدعت به.

صدقت إن فى الشراب أربع مزايا: السعادة، والصحة، والفصاحة، والإقدام؛ فوجدت فيه أربع رزايا: الفقر، والمرض، والسقوط، والجنون.

غرهم من الصحة ذلك اللون الأحمر، الذى يتركه الشراب وراءه فى الأعضاء. وهو يتغلغل فى الأحشاء، ومن الفصاحة الهذر والهذيان، وهجر[1] القول وبذاءة اللسان، ومن الإقدام العربدة التى لا تسكن إلا فى غرفة السجن، ومن السعادة اللحظات القليلة التى يغشى فيها على عقل الشارب فيعمى عن رؤية ما يحيط به من الأشياء كما هى، فتنعكس فى نظره

(١) الهجر: الفحش.

الحقائق حتى يتخيل الشتم طرفة[١] والصفع تحية، فيضحكه من ذلك ما يضحك الأطفال والممرورين[٢].

أي سرور لمن يعيش في منزل لا يزور الابتسام ثغرًا من ثغور ساكنيه؟ أي سرور لمن يودعه أهله كل يوم في صباحه بالحسرات، ويستقبلونه في مسائه بالزفرات؟ أي سعادة لمن يمشي دائمًا في طريقه متلويًا متخلجًا[٣] يتسرب في المنعطفات والأزقة، ويعوذ بألواذ[٤] الجدر والأسوار فرارًا من نظرات الجزار، وتهكمات العطار، وصرخات الخمار.

ولقد كنت أرى هؤلاء الأشقياء في فاتحة حياتي التعسة فكان يمر بخاطري ما يمر بخاطر أمثالي من أنهم قتلى الإدمان لا قتلى الشراب، وكنت أقدر لنفسي القصد فيه أن لي قدر لي في أمره شيء حتى لا أبلغ مبلغهم، ولا أنزل منزلتهم، فلما شربت أخطأ العد، وضاع الحساب، وفسد التدبير، واختلف التقدير، وغلبت على أمري كما يغلب على أمره كل مخدوع بمثل ما خدعت به؛ ولولا الكأس الأولى ما هلكت، ولا شكوت الذي شكوت، ولولاها ما عافني الأصدقاء، ولا زهد في الأقرباء، فكن أنت وحدك صديق السراء والضراء.

فعاهدته على ذلك، ثم تركته في حالة:

تصم السميع وتعمى البصير ويسأل من مثلها العافية

الدفين الصغير

الآن نفضت يدي من تراب قبرك يا بني، وعدت إلى منزلي كما يعود

(١) الطرفة: الملحة المستحسنة.

(٢) الممرور: الذي هاجت مرته، ويطلق على الجنون.

(٣) متخلجًا: متثنيًا.

(٤) لوذ الجبل: جانبه، والجمع: ألواذ.

القائد المنكسر من ساحة الحرب، لا أملك إلا دمعة لا أستطيع إرسالها، وزفرة لا أستطيع تصعيدها.

ذلك لأن الله الذى كتب لى فى لوح مقاديره هذا الشقاء فى أمرك فرزقنى بك قبل أن أسأله إياك، ثم استلبنيك قبل أن أستعفيه منك، قد أراد أن يتمم قضاءه فى، وأن يجرعنى الكأس حتى ثمالتها، فحرمنى حتى دمعة أرسلها أو زفرة أصعدها، حتى لا أجد فى هذه ولا تلك ما أتفرج به مما أنا فيه؛ فله الحمد راضيًا وغاضبًا، وله الثناء منعمًا وسالبًا، وله منى ما يشاء من الرضا بقضائه والصبر على بلائه.

رأيتك يا بنى فى فراشك عليلاً فجزعت. ثم خفت عليك الموت ففزعت وكأنما كان يخيل إلىّ أن الموت والحياة شأن من شئون الناس وعمل من الأعمال التى تملكها أيديهم، فاستشرت الطبيب فى أمرك فكتب لى الدواء، ووعدنى بالشفاء، فجلست بجانبك أصب فى فمك ذلك السائل الأصفر قطرة قطرة، والقدر ينتزع من جنبيك الحياة قطعة قطعة، حتى نظرت فإذا أنت بين يدى جثة لا حراك بها وإذا قارورة الدواء لا تزال فى يدى. فعلمت أنى قد ثكلتك! وأن الأمر أمر القضاء، لا أمر الدواء.

سأنام يا بنىّ بعد قليل على فراش مثل فراشك، وسيعالج منى المقدار ما عالج منك، وأحسب أن آخر ما سيبقى فى ذاكرتى فى تلك الساعة من شئون الحياة وأطوارها؛ وخطوبها وأحداثها: هو الندم العظيم الذى لا أزال أكابد ألمه على تلك الجرع المريرة التى كنت أجرعك إياها بيدى وأنت تجود بنفسك، فيربد وجهك، وتختلج أعضاؤك، وتدمع عيناك، وما لك يد فتستطيع أن تمدّها إلىّ لتدفعنى عنك، ولا لسان فتستطيع أن تشكو إلىّ مرارة ما تذوق.

لقد كان خيرًا لى ولك يا بنى أن أكل إلى الله أمرك فى شفائك ومرضك، وحياتك وموتك، وألا يكون آخر عهدك بى يوم وداعك لهذه الدنيا تلك الآلام التى أجشمك إياها، فلقد أصبحت أعتقد أننى كنت عونًا للقضاء عليك وأن كأس المنية التى كان يحملها لك القدر فى يده لم تكن أمر مذاقًا فى فمك من قارورة الدواء التى كنت أحملها لك فى يدى.

ما أسمج وجه الحياة من بعدك يا بنى! وما أقبح صورة هذه الكائنات فى نظرى! وما أشد ظلمة البيت الذى أسكنه بعد فراقك إياه! فلقد كنت تطلع فى أرجائه شمسًا مشرقة تضىء لى كل شىء فيه، أما اليوم فلا ترى عينى مما حولى أكثر مما ترى عينك الآن فى ظلمات قبرك.

بكى الباكون والباكيات عليك ما شاءوا، وتفجعوا ما تفجعوا، حتى إذا استنفدوا ماء شئونهم، وضعفت قواهم عن احتمال أكثر مما احتملوا، لجأوا إلى مضاجعهم فسكنوا إليها، ولم يبق ساهرًا فى ظلمة هذا الليل وسكونه غير عينين قريحتين: عين أبيك الثاكل المسكين، وعين أخرى أنت تعلمها.

لقد طال علىّ الليل حتى مللته، ولكننى لا أسأل الله أن ينفرج لى سواده عن بياض النهار، لأن الفجيعة التى فجعتها بفقدك لم تبق بين جنبى بقية أقوى بها على رؤية أثر من آثار حياتك، فليت الليل باق حتى أرى وجه النهار، بل ليت النهار يأتى، فقد مللت هذا الظلام.

دفنتك اليوم يا بنى ودفنت أخاك من قبلك، ودفنت من قبلكما أخويكما فأنا فى كل يوم أستقبل زائرًا جديدًا، وأودع ضيفًا راحلاً.. فيالله لقلب قد لاقى فوق ما تلاقى القلوب، واحتمل فوق ما تحتمل من فوادح الخطوب.

لقد افتلذ كل منكم يا بنى من كبدى فلذة فأصبحت هذه الكبد الخرفاء مزقًا مبعثرة فى زوايا القبور، ولم يبق لى منها إلا دماء قليل لا أحسبه باقيًا على الدهر، ولا أحسب الدهر تاركه دون أن يذهب به كما ذهب بأخواته من قبل.

لماذا ذهبتم يا بنى بعد ما جئتم؟ ولماذا جئتم إن كنتم تعلمون أنكم لا تقيمون؟

لولا مجيئكم ما أسفت خلو يدى منكم، لأننى ما تعودت أن تمتد عينى إلى ما ليس فى يدى؛ ولو أنكم بقيتم بعد ما جئتم ما تجرعت هذه الكأس المريرة فى سبيلكم.

لقد كنت أرضى من الدهر فى أمركم أن يتزحزح لى عن طريقى التى أسير فيها، وأن يزوى وجهه عنى فلا أراه ولا يرانى، ولا يحسن إلىّ ولا يسىء ولا يتقدم إلىّ بخير ولا شر، ولا يتراءى لى مبتسمًا، ولا مقطبًا، ولا ضاحكًا، ولا باكيًا، لو أنه رضى منى بذلك؛ ولكنه كان أذكى قلبًا، وأنفذ بصرًا، من أن يفوته العلم بأننى ما كنت أبكى على النعمة لو لم تكن فى يدى، وما كنت أجد مرارة فقدانها لو لم أذق حلاوة وجدانها، وكان لابد له أن يجرى فى سنة الشقاء التى أخذ على نفسه أن يجريها فى الناس جميعًا، فلما عجز عن أن يدخل إلىّ من باب الطمع، دخل إلىّ من باب الأمل، فهو يمنحنى المنحة فأغتبط بها حقبة من الدهر، حتى إذا علم أن بذرة الأمل التى غرسها قد نمت وازدهرت وأننى قد استعذبت طعمها واستطبت مذاقها، كر علىّ فانتزعها من يدى أنعم ما أكون بها، كما تنزع الكأس الباردة من يد الظامئ الهيمان، ليعظم وقع السهم فى كبدى، ويفدح سلب النعمة من يدى، ولولا ذلك ما نال منى منالاً، ولا وجد إلىّ سبيلاً.

يا بنى، إن قدر الله لكم أن تتلاقوا فى روضة من رياض الجنة، أو على شاطئ غدير من غدرانها، أو تحت ظلال قصر من قصورها فاذكرونى مثل ما أذكركم، وقفوا بين يدى ربكم صفًا واحدًا كما يقف بين يديه المصلون ومدوا إليه أكفكم الصغيرة كما يمدها السائلون، وقولوا له: اللهم إنك تعلم أن هذا الرجل المسكين كان يحبنا وكنا نحبه، وقد فرقت الأيام بيننا وبينه، فهو لا يزال يلاقى من بعدنا شقاء الحياة وبأسائها ما لا طاقة له باحتماله، ولا نزال نجد بين جوانحنا من الوجد به، والحنين إليه، ما ينغص علينا هناء هذه النعمة التى ننعم بها فى جوارك بين سمعك وبصرك، وأنت أرحم بنا وبه أن تعذبنا عذابًا كثيرًا، فإما أن تأخذنا إليه أو تأتى به إلينا. لا، بل لا تطلبوا منه إلا أن يأتى بى إليكم. فإن الحياة التى كرهتها لنفسى لا أرضاها لكم، فعسى أن يستجيب الله من دعائكم ما لم يستجب من دعائى فيرفع هذا الستار بينى وبينكم فنلتقى كما كنا.

مناجاة القمر

أيها الكوكب المطل من علياء سمائه. أأنت عروس حسناء تشرف من نافذة قصرها، وهذه النجوم المبعثرة حواليك قلائد من جمان؟ أم ملك عظيم جالس فوق عرشه، وهذه النيرات حور وولدان؟ أم فص من ماس ما يتلألأ، وهذا الأفق المحيط بك خاتم من الأنوار؟ أم مرآة صافية، وهذه الهالة الدائرة بك إطار؛ أم عين ثرة ثجاجة؟ وهذه الأشعة جداول تتدفق؟ أو تنور مسجور؛ وهذه الكواكب شرر يتألق؟!

أيها القمر المنير:

إنك أنرت الأرض: وهادها ونجادها، وسهلها ووعرها، وعامرها وغامرها؛ فهل لك أن تشرق فى نفسى فتنير ظلمتها، وتبدد ما أظلمها من سحب الهموم والأحزان؟

أيها القمر المنير:

إن بينى وبينك شبهًا واتصالاً؛ أنت وحيد فى سمائك، وأنا وحيد فى أرضى كلانا يقطع شوطه صامتًا هادئًا منكسرًا حزينًا، لا يلوى على أحد ولا يلوى أحد عليه، وكلانا يبرز للآخر فى ظلمة الليل فيسايره ويناجيه، يرانى الرائى فيحسبنى سعيدًا، لأنه يغتر بابتسامة فى ثغرى، وطلاقة فى وجهى، ولو كشف له عن نفسى ورأى ما تنطوى عليه من الهموم والأحزان لبكى لى بكاء الحزين إثر الحزين، ويراك الرائى فيحسبك مغتبطًا مسرورًا، لأنه يغتر بجمال وجهك ولمعان جبينك، وصفاء أديمك، ولو كشف له عن عالمك لرآه عالمًا خرابًا، وكونًا يبابًا، لا تهب فيه ريح ولا يتحرك شجر، ولا ينطق إنسان، ولا يبغم حيوان.

أيها القمر المنير:

كان لى حبيب يملأ نفسى نورًا، وقلبى لذة وسرورًا، وطالما كنت أناجيه

ويناجينى بين سمعك وبصرك، وقد فرق الدهر بينى وبينه، فهل لك أن تحدثنى عنه، وتكشف لى عن مكان وجوده؟ فربما كان ينظر إليك نظرى، ويناجيك مناجاتى، ويرجوك رجائى.

وهأنذا يخيل إلىَّ أنى أرى صورته فى مرآتك، وكأنى أراه يبكى من أجلى كما أبكى من أجله، فأزداد شوقًا إليه، وحزنًا عليه.. فابق فى مكانك طويلاً تطل وقفتنا، ويدوم اجتماعنا.

أيها القمر المنير:

ما لى أراك تنحدر قليلاً قليلاً إلى مغربك كأنك تريد أن تفارقنى، وما لى أرى نورك الساطع قد أخذ فى الانقباض شيئًا فشيئًا، وما هذا السيف المسلول الذى يلمع من جانب الأفق على رأسك؟

قف قليلاً، لا تغب عنى، لا تفارقنى، لا تتركنى وحيدًا، فإنى لا أعرف غيرك، ولا آنس بمخلوق سواك.

آه، لقد طلع الفجر، ففارقنى مؤنسى، وارتحل عنى صديقى، فمتى تنقضى وحشة النهار، ويقبل إلىَّ أنس الظلام!!

أين الفضيلة

قرأت فى بعض الروايات أن فتى قضى حقبة من دهره مولعًا بحب فتاة خيالية لم يرها مرة واحدة فى حياته، وإنما تخيل فى ذهنه صورة ألفها من شتى المحاسن ومتفرقاتها فى صورة البشر، فلما استقرت فى مخيلته تجسمت فى عينيه فرآها فأحبها حبًا ملك عليه قلبه وحال بينه وبين نفسه وذهب به كل مذهب: فأنشأ يفتش عنها بين سمع الأرض وبصرها أعوامًا طوالاً حتى وجدها.

لا أستطيع أن أكذب هذه القصة لأنى أنا ذلك الفتى بعينه، لا فرق بينى

وبينه إلا أنه يسمى ضالته الفتاة وأسميها الفضيلة، وأنه فتش عنها فوجدها، وفتشت عنها حتى عييت بأمرها فما وجدت إليها سبيلاً.

فتشت عن الفضيلة فى حوانيت التجار فرأيت التاجر لصًا فى أثواب بائع وجدته يبيعنى بدينارين ما ثمنه دينار واحد، فعلمت أنه سارق للدينار الثانى، ولو وكل إلىَّ أمر القضاء ما هان علىَّ أن أعاقب لصوص الدراهم، وأغفل لصوص الدنانير، ما دام كل منهما يسلبنى مالى ويتغفلنى عنه.

أنا لا أنكر على التاجر ربحه، ولكنى أنكر عليه أن يتناول منه أكثر من الجزاء الذى يستحقه على ما بذل من جهد فى جلب السلعة وما أنفق من راحته فى سبيل صونها وإحرازها، وكل ما أعرف من الفرق بين حلال المال وحرامه: أن الأول بذل الجد والعمل والثانى بذل الغش والكذب.

فتشت عن الفضيلة فى مجالس القضاء فرأيت أن أعدل القضاة من يحرص الحرص كله على أن لا يهفو فى تطبيق القانون الذى بين يديه هفوة يحاسبه عليها من منحه هذا الكرسى الذى يجلس عليه مخافة أن يسلبه إياه، أما إنصاف المظلوم والضرب على يد الظالم. وإراحة[1] الحقوق على أهلها وإنزال العقوبات منازلها من الذنوب: فهى عنده ذيول وأذناب لا يأبه[2] لها، ولا يحتفل بشأنها إلا إذا أشرق عليها الكوكب بسعده فمشت مع القانون فى طريق واحد مصادفة واتفاقًا، فإذا اختلف طريقاهما بين يديه حكم بغير ما يعتقد ونطق بغير ما يعلم، ودان البرىء وبرأ المجرم، فإذا عتب عليه فى ذلك عاتب كانت معذرته إليه حكم القانون عليه. كأنما يريد أن يجعل العقل أسير القانون، وما القانون إلا حسنة من حسنات العقل وصنيعة من صنائعه.

فتشت عن الفضيلة فى قصور الأغنياء فرأيت الغنى إما شحيحًا أو متلافًا؛ أما الأول فلو كان جارًا لبيت فاطمة -رضي الله عنها- وسمع فى جوف الليل أنينها وأنين ولديها من الجوع ما مدَّ أصبعيه إلى أذنيه ثقة منه أن قلبه المتحجر لا تنفذه أشعة الرحمة، ولا تمر بين طياته نسمات الإحسان، وأما الثانى:

---

(١) أراح الحق على أهله: أعاده إليهم.

(٢) أبه للشيء: تفطن له واحتفل.

فماله بين الثغرين: ثغر الحسناء، وثغر الصهباء.. فعلى يد أى رجل من الرجلين تدخل الفضيلة قصور الأغنياء؟

فتشت عنها فى مجالس السياسة، فرأيت أن المعاهدة والاتفاق والقاعدة والشرط: ألفاظ مترادفة معناها الكذب، فرأيت أن الملك فى كرسى مملكته كالحوذى فى كرسى عربته، لا فرق بينهما إلا أن هذا ينقض (تعريفته)، وذاك ينقض معاهدته، ورأيت أن أعدى عدو للإنسان الإنسان، وأن كل أمة قد أعدت فى مخازنها ومستودعاتها وفى بطون قلاعها وعلى ظهور سفنها وفوق متون طياراتها ما شاء الله أن تعده لأختها من الموت وأفانين العذاب حتى إذا وقع الحتف بينهما على حد من الحدود أو جدار من الجدران، لبس الإنسان فروة السبع واتخذ له من تلك العدد الوحشية أظفارًا كأظفاره وأنيابًا كأنيابه، فتسحذ الأولى وكشر عن الأخرى ثم هجم على ولد أبيه وأمه هجمة لا يعود منها إلا بنفسه التى بين جنبيه، وإنك لو سألت الجنديين المتقاتلين ما خطبكما وما شأنكما؟ وعلام تقتتلان؟ وما هذه الموجدة التى تحملانها بين جنبيكما؟ ومتى ابتدأت الخصومة بينكما، وعهدى بكما ما أنكما ما تعارفتما إلا فى الساعة التى اقتتلتما فيها؟ لعرفت أنهما مخدوعان عن تقسيهما، وأنهما ما خرجا من ديارهما إلا ليضعا درة فى تاج الملك، أو نيشانًا على صدر القائد.

فتشت عنها بين رجال الدين فرأيتهم -إلا من رحم الله- يتجرون بالعقول فى أسواق الجهل، ورأيت كلاً منهم قد ثغر له فى كل رأس من رؤوس البشر ثغرة ينحدر منها إلى الأخلاق فيفسدها، والمشاعر فيقتلها، ليتوسل بذلك إلى الذخائر فيسرقها، والخزائن فيسلبها.

فتشت عنها فى كل مكان أعلم أنه تربتها وموطنها فلم أعثر بها، فليت شعرى هل أجدها فى الحانات والمواخير، أو فى مغارات اللصوص، أو بين جدران السجون.

سيقول كثير من الناس: قد غلا الكاتب فى حكمه وجاوز الحد فى تقديره، فالفضيلة لا تزال تجد فى صدور الكثير من الناس صدرًا رحبًا، وموردًا عذبًا؛ وإنى قائل لهم قبل أن يقولوا كلمتهم: إنى لا أنكر وجود

الفضيلة، ولكنى أجهل مكانها، فقد عقد رياء الناس أمام عينى سحابة سوداء أظلم لها بصرى، حتى ما أجد فى صفحة السماء نجمًا لامعًا، ولا كوكبًا طالعًا.

كل الناس يدعى الفضيلة وينتحلها، وكلهم يلبس لباسها ويرتدى رداءها ويعد لها عدتها من منظر يستهوى الأذكياء والأغنياء، ومظهر يخدع أسوأ الناس بالناس ظنًا، فمن لى بالوصول إليها فى هذا الظلام الحالك، والليل الأليل؟

إن كان صحيحًا ما يتحدث به الناس من سعادة الحياة وطيبها وغبطتها ونعيمها، فسعادتى فيها أن أعثر فى طريقى فى يوم من أيام حياتى بصديق يصدقنى الود وأصدقه، فيقنعه منى ودى وإخلاصى دون أن يتجاوز ذلك إلى ما وراءه من مآرب وأغراض، وأن يكون شريف النفس فلا يطمع فى غير مطمع، شريف القلب، فلا يحمل حقدًا ولا يحفظ وترًا. ولا يحدث نفسه فى خلوته بغير ما يحدث به الناس فى محضره؛ شريف اللسان فلا يكذب ولا ينم، ولا يلم بعرض ولا ينطق بهجر[1]. شريف الحب فلا يحب غير الفضيلة، ولا يبغض غير الرذيلة.

هذه هى السعادة التى أتمناها ولكنى لا أراها.

إنى لأرى الرياض الغناء تهفو أشجارها، وترن أطيارها، وأرى جداول الماء تنساب بين أنوارها وأزهارها، انسياب الأفاعى الرقطاء، فى الرمال البيضاء، وأرى أنامل النسائم تعبث بمنثورها الأوراق، عبث الهوى بألباب العشاق، وأسمع ما بين صفير البلابل، وخرير الجداول نغمات شجية تبلغ من نفس الإنسان، ما لا تبلغ أوتار العيدان، فلا يسرنى منها منظر، ولا يطربنى مسمع؛ لأنى لا أرى بين هذه المشاهد التى أراها ضالتى التى أنشدها.

لقد سمج وجه الرذيلة فى عينى، وثقل حديثها فى مسمعى، حتى أصبحت أتمنى أن أعيش بلا قلب فلا أشعر بخير الحياة وشرها وسرورها وحزنها.

---

(١) الهجر: الفحش.

ولولا بنيات يفقدون بفقدى طيب العيش ونعيمه لفررت من هذا العالم الناطق إلى ذلك العالم الصامت، فأجد من الأنس به والسكون إليه ما وجده الذى يقول:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى

وصوت إنسان فكدت أطير

الغنى والفقير

مررت ليلة أمس برجل بائس فرأيته واضعًا يده على بطنه كأنما يشكو ألمًا، فرثيت لحاله وسألته: ما باله؟ فشكا إلىَّ الجوع، ففثأته[1] عنه ببعض ما قدرت عليه، ثم تركته وذهبت إلى زيارة صديق لى من أرباب الثراء والنعمة، فأدهشنى أنى رأيته واضعًا يده على بطنه، وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائس الفقير، فسألته عما به فشكا إلىّ البطنة، فقلت: يا للعجب! لو أعطى ذلك الغنى ذلك الفقير ما فضل عن حاجته من الطعام ما شكا واحد منهما سقمًا ولا ألمًا.

لقد كان جديرًا به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته، ويطفئ غلته؛ ولكنه كان محبًا لنفسه، مغاليًا بها، فضم إلى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير فعاقبه الله على قسوته بالبطنة، حتى لا يهنأ للظالم ظلمه ولا يطيب عيشه. وهكذا يصدق المثل القائل: بطنة الغنى انتقام لجوع الفقير.

ما ضنت السماء بمائها، ولا شحت الأرض بنباتها، ولكن حسد القوى الضعيف عليهما فزواهما[2] واحتجنهما[3] دونه، فأصبح فقيرًا معدمًا، شاكيًا متظلمًا، غرماؤه المياسير الأغنياء، لا الأرض والسماء.

---

(١) يقال: فثأت فلانًا عن فلان، إذا سكنت غيظه عليه.

(٢) زوى عنه حقه: منعه إياه.

(٣) احتجن الشيء: إذا جذبه بالمحجن إلى نفسه؛ والمحجن الصولجان، والمراد أنه استأثر به.

ليتنى أملك ذلك العقل الذى يملكه هؤلاء الناس. فأستطيع أن أتصور كما يتصورون، حجة الأقوياء فى أنهم أحق بإحراز المال، وأولى بامتلاكه من الضعفاء؛ إن كانت القوة حجتهم عليه، فلم لا يملكون بهذه الحجة سلب أرواحهم كما ملكوا سلب أموالهم؟ وما الحياة فى نظر الحى بأثمن قيمة من اللقمة فى يد الجائع. وإن كانت حجتهم أنهم ورثوا ذلك المال عن آبائهم قلنا لهم: إن كانت الأبوة غلة الميراث فلم ورثتم آباؤكم فى أموالهم ولم ترثوهم مظالمهم؟ فلقد كان آباؤكم أقوياء فاغتصبوا ذلك المال من الضعفاء، وكان حقًا عليهم أن يردوا إليهم ما اغتصبوا منهم، فإن كنتم لابد ورثاءهم فاخلفوهم فى رد المال إلى أربابه، لا فى الاستمرار على اغتصابه.

ما أظلم الأقوياء من بنى الإنسان، وما أقسى قلوبهم، ينام أحدهم ملء جفنيه على فراشه الوثير، ولا يقلقه فى مضجعه أنه يسمع أنين جاره، وهو يرعد بردًا وقرًا، ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام قديده وشواءه حلوه وحامضه ولا ينغص عليه شهوته علمه. أن بين أقربائه وذوى رحمه من تتواثب أحشاؤه شوقًا إلى فتات تلك المائدة ويسيل لعابه تلهفًا على فضلاتها. بل إن بينهم من لا تخالط الرحمة قلبه ولا يعقد الحياء لسانه، فيظل يسرد على مسمع الفقير أحاديث نعمته، وربما استعان به على عد ما تشتمل خزائنه من الذهب وصناديقه من الجوهر وغرفه من الأثاث والريش، ليكسر قلبه وينغص عليه عيشه ويبغض إليه حياته وكأنه يقول له فى كل كلمة من كلماته وحركة من حركاته: أنا سعيد لأنى غنى، وأنت شقى لأنك فقير.

أحسب لولا أن الأقوياء فى حاجة إلى الضعفاء يستخدمونهم فى مرافقهم وحاجاتهم كما يستخدمون أدوات منازلهم، ويسخرون فى مطالبهم كما يسخرون مراكبهم، ولولا أنهم يؤثرون الإبقاء عليهم ليمتعوا أنفسهم بمشاهدة عبوديتهم لهم وسجودهم بين أيديهم، لامتصوا دماءهم كما اختلسوا أرزاقهم، ولحرموهم الحياة كما حرموهم لذة العيش فيها.

لا أستطيع أن أتصور أن الإنسان إنسان حتى أراه محسنًا؛ لأنى لا أعتمد فصلاً صحيحًا بين الإنسان والحيوان إلا الإحسان، وإنى أرى الناس

ثلاثة: رجل يحسن إلى غيره ليتخذ إحسانه إليه سبيلاً إلى الإحسان إلى نفسه، وهو المستبد الجبار الذى لا يفهم من الإحسان إلا أنه يستعبد الإنسان؛ ورجل يحسن إلى نفسه ولا يحسن إلى غيره وهو الشره المتكالب الذى لو علم أن الدم السائل يستحيل إلى ذهب جامد لذبح فى سبيله الناس جميعًا؛ ورجل لا يحسن إلى نفسه ولا إلى غيره وهو البخيل الأحمق الذى يجيع بطنه ليشبع صندوقه؛ وأما الرابع: وهو الذى يحسن إلى غيره، ويحسن إلى نفسه، فلا أعلم له مكانًا، ولا أجد إليه سبيلاً، وأحسب أنه هو الذى كان يفتش عنه الفيلسوف اليونانى «ديوجين الكلبى» حينما سئل: ما يصنع بمصباحه؟ وكان يدور به فى بياض النهار، فقال: «أفتش عن إنسان».

مدينة السعادة

رأيت فيما يرى النائم أننى أمشى فى قفرة جرداء قد انبسطت رمالها على سطحها متجعدة تجعد الأمواج المتكسرة على سطح القاموس[1] المحيط وكانت الشمس قد طفلت[2] للإياب فلم أر فى بطحائها ظلاً غير ظلى المستطيل الذى رسمته يد الشمس فأخطأت فى تصويره كأنما حسبتنى آدم أبا البشر[3] فأوسعتنى طولاً ورسمتنى ميلاً.

أنشأت أمشى لا أعرف لى مذهبًا ولا مضطربًا، وأنى يكون ذلك فى صحراء قد تشابهت مسالكها. وتشاكلت مذاهبها وانفرج ما بين قاصيها ودانيها حتى انحدرت الشمس إلى مستقرها: وطار طائر الليل من مكمنه. ونشر الظلام أجنحته السوداء فى الأفق حتى وجدتنى أحير من دمعة وجد فى مقلة عاشق؛ يدفعها الحب ويمنعها الحياء، ولا أعلم هل أنا سر كامن فى

---

(١) القاموس: وسط البحر ومعظمه.

(٢) طفلت الشمس: احمرت للغروب.

(٣) ربما لم يكن آدم أطول من بنيه قامة، ولكن التشبيه بحسب الخيال الذهنى على حد قوله تعالى ﴿كأنه رؤوس الشياطين﴾.

باطن الظلماء، أو حوت مضطرب فى أعماق الماء. وأحيانًا كان يخيل إلىَّ أنى فى منجم من مناجم الفحم فأمد يدى أتلمس جدرانه مخافة أن أصطدم بواحد منها؛ ولم أزل كذلك حتى شعرت بأن الظلام قد بدا ينفض صبغته. وأن ذراته تتطاير ههنا وههنا؛ فإذا أنا بين يدى جبل عال كأنما هو جدار قائم يمسك السماء أن تقع على الأرض، أو ملك جبار قد لبس من قرص الشمس التاج الأحمر، ومن شعاعها الرداء الأصفر.

ولا تسل هنالك عما ألم بقلبى من الهم وعقلى من الخبال؛ حينما رأيت أن صعود السماء أقرب إلى الأمل، من صعود هذا الجبل، وحرت بين الإقدام والإحجام، فلم أر بد من الاستسلام لمقدور الحمام، ثم رميت بطرفى فرأيت بين الصخور المبعثرة فى سفح الجبل صخرة بيضاء ناعمة الملمس، فاضطجعت عليها وأنا أتمثل بقول أبى العلاء:

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ جسم فيها والعيش مثل السهاد

وما هى إلا غمضة الطرف أن أشعرت بأنها تتحرك قليلاً قليلاً، ثم استقلت ثم طارت، فكدت أحسب أنه الموت قد نزل، وأنها الروح تصعد إلى الملأ الأعلى.. لولا أن فتحت عينى فرأيت ما كنت أحسبه صخرة طائرًا أشبه شىء بالنسر فى خلقه والقبة فى ضخامتها واستدارتها، واستمر ذاهبًا فى أفق السماء، ثم رنق لحظة فى الهواء ثم هبط إلى قمة الجبل فأسرعت بالانحدار عنه وهنالك أحسست بسلسبيل بارد من الأمل يتسرب إلى قلبى فينقع غلته. ويطفئ لوعته، لأننى رأيت السفح الثانى ورأيت بهجة الحياة وزهرة العمران.

رأيت على البعد خطوط الخضرة حول سطور الماء ورأيت الأكواخ الصغيرة والقصور العظيمة كأنها العصافير السوداء، والحمائم البيضاء، وكأن ما ألم بنفسى من السرور أنسانى ما ألم بجسمى من النصب فانحدرت إليها فما بلغتها حتى رأيتنى فى مزرعة فى وسطها بنية قد وقف على بابها شيخ هو أشبه الأشياء بما يتخيله فريق الخياليين من علماء الهيئة فى صور سكان المريخ، فذعر منى كما يذعر الإنسان لرؤية الجان، وما كان الذى قام فى نفسه منى بأكثر مما قام فى نفسى منه، لولا أنى ألفت الغرائب، وعجمت عود العجائب

فتقدمت نحوه كأنما ألهمت لغته، فحييته بها فحياني وهو يقول: ما كنت أحسب أن الشمس تطلع على مدينة غير هذه المدينة، أو أن فى العالم إنسانًا غير هذا الإنسان؛ فما زلت أحدثه وأستدنيه حتى أنس بى ودعانى إلى منزله وخلطنى بنفسه وأهله وقدم لى طعامًا شهيًا ومهد لى مرقدًا وثيرًا[١]. وكان الليل قد أقبل للمرة الثانية من هجرتى هذه، فنمت نومًا هادئًا مطمئنًا لا تروعنى فيه خواطر الموت ولا وساوس الهلاك.

استيقظت أنا والشمس من مرقدينا على صوت تلك الأسرة الطاهرة الكريمة تصلى إلى الله تعالى صلاة الخاشعين المتبتلين وتدعو وهى مصطفة صفًا واحدًا أن ييسر لها الله عسرها، ويسهل أمرها، ويصلح شأنها، ويمنحها معونته ونصره؛ فأخذ منظرها هذا من نفسى مأخذًا عظيمًا فلم أر بدًا من الانتظام فى صفها، والدعاء بدعائها والبكاء لبكائها؛ وعجبت أن يكون مثل هذا الإيمان الخالص راسخًا فى نفوس أهل هذه المدينة، ولم يرسل إليها رسول، ولم يتنزل عليها كتاب؛ فلما فرغنا من الصلاة التفت إلى صاحب البيت وقلت له: أراكم تتعبدون، فمن تعبدون؟ وتصلون، فمن الذى تدعون؟ قال: نعبد الله خالق هذه الكائنات ومدبرها؛ قلت: هل رأيتموه حتى عرفتموه قال نعم رأينا فى أثاره ومصنوعاته؛ رأيناه فى السماء والماء، والفلك الدائم والنجم السائر، وفى أجنحة الحيوان وبذور النبات؛ ورأيناه فى أنفسنا وعقولنا وأرواحنا قبل ذلك؛ قلت: ولم تعبدونه؟ قال: شكرًا له على نعمة الخلق والرزق، وأن أحدنا ليعنيه أن يشكر لصاحبه نعمته إذا أحسن إليه بجرعة أو أنعم عليه بمضغة؛ فأحرى به أن يشكر مانح المانحين، والمحسن إلى المحسنين؛ فقلت فى نفسى: لقد بلغ الرجل مرتبة الموحدين الصادقين، الذين يعبدون الله مخلصين له الدين، لا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا، ثم سألته أين تذهبون بعد الموت؟ قال: إلى النعيم المقيم أو العذاب الأليم؛ قلت: لعلك تريد الجنة والنار؟ قال: لا أفهم ما تقول، وإنما أعلم أن الإله الحكيم لا يترك المحسن دون أن يجازيه خيرًا على إحسانه، كما يأبى عدله أن يسوى بين المحسن والمسيء؛ قلت: متى يكون المحسن محسنًا والمسيء مسيئًا؛

---

(١) الوثير: الواطىء.

قال: الإحسان عمل الخير؛ والإساءة عمل الشر؛ لذلك لا ترى بيننا من يحدث نفسه بالإضرار بأخيه، أو من يقصر فى دفع الأذى عنه؛ فقلت فى نفسى ليت الفقهاء الذين ينفقون أعمارهم فى الحيض والاستحاضة والمذى والودى[١] والحدث الأكبر والحدث الأصغر. وليت الكلاميين الذين يسهرون الليالى ويقرحون المآقى فى عينيه الصفات وغيرتها والجوهر والعرض والحدوث والقدم، والدور والتسلسل؛ وليت المتصوفة الذين يحاولون أن ينازعوا الله مشيئته ويجاذبوه قدرته، ويغالبوه على أمره ونهيه ويزاحموه فى لوحه وقلمه- يعرفون من سر الدين وحكمته والغرض الذى قام له ما يعرف هؤلاء البلة الأغرار، الذين لا يفهمون معنى الجنة والنار، ولا يميزون بين الدين والتين.

فرغنا من الحديث وعرضت على الشيخ أن يزيرنى فى المدينة. فانحدر بى إليها؛ فرأيت شوارعها فسيحة منتظمة ومنازلها متفرقة غير متلاصقة، وقد أحاطت بكل منزل منها حديقة زاهرة؛ ورأيت سكانها مكبين على أعمالهم، مجدين فى شؤونهم. . صغاراً وكباراً. . رجالاً ونساء. . ما فيهم فقير يتسوّل. . ولا متبطل يتثائب ويتململ؛ وأغرب ما استهوى نظرى أننى لم أر فى تلك المدينة ذلك التفاوت الذى أعرفه فى مدائننا بين الناس فى منازلهم ومراكبهم. . ومطاعمهم ومشاربهم، وهيآتهم وأزيائهم، كأن جميع سكانها سواسية فى حالة المعيشة ودرجة الثروة، فسألت الشيخ: ألا يوجد فيكم غنى وفقير، وسيد ومسود؟ قال: لا يا سيدى، حسب الرجل منا بيت يؤويه، ومزرعة تقيته ودابة تحمل أثقاله، ثم لا شأن له بعد هذا فيما سوى ذلك، لذلك لا يوجد فينا سيد ومسود لأنه لا يوجد فينا غنى وفقير. قلت لابد أن يكون بينكم العاجز عن العمل والمتعطل الكسلان! قال: أما الكسلان فلا وجود له بيننا، لأنه يعلم أنا لا نرحمه ولا نغفر له ذلته فى احتقار نعمة العقل والقوة بتعطيلهما عن العمل، وأما العاجز فنحدب عليه ونحسن إليه، ولا نرى لأنفسنا فى ذلك فضلاً لأننا إنما نمنحه جزءاً من القوة التى منحنا الله إياها لنعبده بها، ولا نرى فى وجوه العبادة أفضل من مواساة العاجزين، ورحمة البائسين.

---

(١) المذى والودى: نوعان من الماء الذى يخرج من القضيب.

وإنه ليحدثنى بهذا الحديث إذ لاحت لنا بنية فخمة تمتاز عن غيرها من البنى بحسن نظامها، وجمال هندامها، فقلت للشيخ: هل أرى قصر الملك، قال: لا، ولكنه قصر رجل شرير طماع قد خالف إرادة الله وحكمه فاحتجن[١] دون عباده أرضهم ومالهم ليعلو عليهم، ويستأثر بالنعمة من دونهم، فغضب الله عليه، وقلب نعمته نقمة، ورخاءه شدة، فإنه ما أراح[٢] رائحة العيش الرغد حتى أسلم نفسه إلى شهواتها، وحملها فوق ما تحمل طبيعتها فها هو ذا اليوم يقاسى من آلام الأمراض وأنواع الأسقام ما بغض إليه العيش، وحبب إليه الموت: لم يحمه قصره، ولم يغنى عنه ماله، فهو عبرة للمعتبرين، وموعظة السابلة[٣]؛ فكبر الرجل فى ذرعى[٤] وعظم فى عينى، وأكبرت فيه وفى أمته هذه الخلال الشريفة، والأخلاق العالية؛ وقلت فى نفسى إن مدارسنا على ما تشتمل عليه دروسها من قواعد الحكمة وأصول التربية وفنون الآداب، لتعجز عن أن تخرج للناس رجالاً يستطيعون أن يساجلوا هؤلاء القوم فى صفاتهم وفضائلهم؛ وأردت -على ذكر المدارس- أن أعرف مناهج التعليم عندهم فقلت للشيخ: هل لك أن تزيرنى مدرسة من مدارسكم؟ فعجب لسؤالى وقال: ما المدرسة؟ فكان عجبى لجوابه أكثر من عجبه لسؤالى وقلت: المدرسة مكان محدود يجتمع فيه صغار يتعلمون وكبار يعلمون؛ قال: ما الذى يتعلمه الصغار من الكبار؟ قلت: ما يصلح شأنهم وينفعهم فى معاشهم وميعادهم؛ قال: وأى حاجة بنا إلى مثل هذا المجتمع الحاشد فى مثل هذا المكان المحدود؟ إنا يا سيدى أرحم بأبنائنا من أن نكل أمرهم إلى غيرنا، فنحن الذين نتولى هذا الشأن منهم. فلا مدارس عندنا غير المصانع والمزارع؛ نعلمهم فيها كيف يرمون البذور.. وكيف يستنبتونها.. وكيف يصنعون الآلات وكيف يستعملونها.. وفيها نعلمهم كيف يبنون منازلهم وينسجون ملابسهم ويعدون عددهم.. وإنا لا نعرف علمًا غير العمل ولا نعرف من العمل غير ما نحفظ به قوام حياتنا.. ونستعين به على عبادة

(١) احتجن المال: ضمه واحتواه.
(٢) أراح فلان الشيء: وجد ريحه.
(٣) السابلة: المختلفون على الطرقات فى حوائجهم.
(٤) كبر فى ذرعى: عظم وقعه عندى.

ربنا. قلت ألكم حاكم يتولى أموركم؟ قال لنا: حكم لا حاكم وهو رجل قد وثقنا به وبفهمه واستقامته.. فاخترناه لفصل الخصومات إن عرض لنا من ذلك عارض. قلت: أليس له جند وأعوان يؤيدونه ويتولون تنفيذ أحكامه؟ قال كلنا جنده وكلنا أعوانه على كل من يختلف عليه أو يتمرد على حكمه فقد وثقنا به وبعدله وحسبنا ذلك وكفى.

قلت: أليس له سجنًا يسجن فيه المجرمين؟

قال: لا.. حسب المجرم عندنا عقوبة أن يتفق أهل المدينة على احتقاره والزراية به.. وإن أحدنا لا يؤثر أن يتخطفه الطير أو يسقط عليه كسف[1] من السماء على أن يرى نفسه بغيضًا إلى قومه صغيرًا فى نفوسهم ذليلاً فى أعينهم.. لا يرفعون إليه طرفًا ولا يقيمون له وزنًا.

وما وصلنا من حديثنا إلى هذا الحد حتى كنا قد فرغنا من الطواف بالمدينة ووصلنا إلى المنزل الذى خرجنا منه.. فاستقبلنا أهله بالبشر والترحاب واستقبلوا شيخهم بالتقبيل والعناق.. فلم أر فيما رأيت من البيوت فى مدن العالم وقراه بيتًا أسعد حظًا ولا أنعم عيشًا ولا أروح بالاً من هذا البيت.

تلك هى «مدينة السعادة» التى يعيش أهلها سعداء لا يشكون همًا.. لأنهم قانعون. ولا يمسكون فى أنفسهم حقدًا.. لأنه متساوون؛ ولا يستشعرون خوفًا لأنهم آمنون.

تلك «مدينة السعادة» التى رأيتها فأحببتها وأحببت العيش فيها.. لولا أن الله فى خلقه سنة لا تتبدل.. وشأنا لا يتحول.. فقد جاء الليل وأخذت مكانى من مرقدى فى منزل الشيخ فلم أستيقظ حتى رأيتنى فى فراشى فى منزلى؛ فلا السهل ولا الجبل.. ولا الشيخ ولا المزرعة.. ولا المدينة ولا السعادة:

ولما نزلنا منزلاً طله الندى[2] أنيقًا وبستانًا من النور حاليًا
أجدّ لنا طيب المكان وحسنه منى فتمنينا فكنت الأمانيا

---

(١) الكسف: القطعة.

(٢) طل أمطره الطل، وهو المطر القليل.

أيها المحزون

إن كنت تعلم أنك أخذت على الدهر عهدًا أن يكون لك كما تريد فى جميع شؤونك وأطوارك.. وألا يعطيك ولا يمنعك إلا كما تحب وتشتهى؛ فجدير بك أن تطلق لنفسك فى سبيل الحزن عنانها كلما فاتك مأرب أو استعصى عليك مطلب. وإن كنت تعلم أخلاق الأيام فى أخذها وردها وعطائها ومنعها وأنها لا تنام عن منحة تمنحها، حتى تكر عليها راجعة فتستردها.. وأن هذه سنتها وتلك خلتها فى جميع أبناء آدم.. سواء فى ذلك ساكن القصر وساكن الكوخ.. ومن يطأ بنعله هام الجوزاء.. ومن ينام على بساط الغبراء؛ فخفض من حزنك وكفكف من دمعك.. فما أنت بأول غرض أصابه سهم الزمان. وما مصابك بأول بدعة طريفة فى جريدة المصائب والأحزان.

أنت حزين لأن نجمًا زاهرًا من الأمل كان يتراءى لك فى سماء حياتك فيملأ عينيك نورًا.. وقلبك سرورًا؛ وما هى إلا كرة الطرف أن افتقدته.. فما وجدته. ولو أنك أجملت فى أملك لما غلوت فى حزنك.. ولو أنت أنعمت نظرك فيما تراءى لك لرأيت برقًا خاطفًا.. ما تظنه نجمًا زاهرًا. وهنالك لا يبهرك طلوعه، فلا يفجعك أفوله.

أسعد الناس فى هذه الحياة من إذا وافته النعمة تنكر لها.. ونظر إليها نظرة المستريب بها.. وترقب فى كل ساعة زوالها وفناءها.. فإن بقيت في يده فذاك؛ وإلا فقد أعدّ لفراقها عدته من قبل.

لولا السرور فى ساعة الميلاد ما كان البكاء فى ساعة الموت؛ ولو الوثوق بدوام الغنى ما كان الجزع من الفقر. ولولا فرحة التلاق ما كانت ترحة الفراق.

إلـى الديـر

مسكين ذلك الفتى الذى رأيته صباح أمس منزويًا فى ركن من الأركان فى أحد الأندية وقد ظللت جبينه الوضاح سحابة سوداء من الحزن، وانحنى على نفسه كأنما هو يشعر أن قلبه يتنزى فى صدره وأنه يحاول الفرار منه وهو يعطف عليه ليمسكه بين جوانحه، ولو أنه أراد بنفسه خيرًا لتركه وشأنه يمضى فى سبيله حيث شاء، فبعدًا لقلب لا يسكن عن الخفقان ولا يفيق من الهموم والأحزان.

سألته: ما بالك أيها الصديق؟ قال: لا شىء؛ قلت: أنت تكتمنى ما فى نفسك، ولو عرفتنى ما كتمتنى، قال: ما جهلتك مذ عرفتك، ولكننى أعطيت الله تعالى عهدًا مذ خلقت ألا أشكو إلا من أرجو عنده البرء، وما أنا براج عندك ولا عند أحد من الناس برءًا من دائى، قلت: هبنى طبيبًا، والطبيب وإن كان لا يشفى إلا نادرًا فإنه يسكن غالبًا ويعزى دائمًا. فإن أنا عجزت عن معالجتك فلن أعجز عن تعزيتك، على أن الماء إذا اشتد غليانه احتاج إلى التنفيس عنه، وإلا طار بالقدر، طيران الهم بالصدر.

فأصغى إلى كلماتى واستخذى لها وأنشأ يحدثنى حديثًا تمازجه العبرات وتقطعه الزفرات، يقول: زوجنى أبى منذ سنين من زوجة جاهلة غبية لا تفهم من معنى الزواج إلا فيه قضاء لبانتها وترفيه عيشها وإرضاء نفسها وهو يحسب أنه قد أحسن إلىّ بسليلة المجد، وربيبة النعمة، ومالكة الدور، وساكنة القصور؛ أجل إنها ذات مال وفير، وخير كثير، ولكن ذهب عنه - غفر الله له!- أننى ما كنت أريد أن أكون تاجرًا أكسب مالاً، بل زوجًا، وأن أجد بجانبى نفسًا يؤنسنى محضرها ويوحشنى مغيبها، ومرآة صافية نقية أتراءى فيها فترينى نفسى كما هى، لا تكذبنى فى خير ولا شر وإنى أريد أن أجد فى الزوجة التى أتزوجها صديقًا فى المرتبة العليا من مراتب الصداقة ومن لى به فى امرأة تجهل حتى إرضاع طفلها، ولبس ثوبها! على أن ثروتها ما

كانت تقوم بحاجتها؛ فقد كانت لها خادم لملابسها، وأخرى لشعرها وأخرى لسريرها وطابخة وغاسلة؛ ومرضع وقهرمانة[١] وخياطة خاصة بها، وطبيب لا يغب[٢] عن زيارتها، ومؤنسات لا يفارقن مجلسها. . ولم تكن ممن أنعم الله عليهن بنعمة الجمال. . فكانت تنفق ما يزيد عن نصف دخلها فى الحسن المجلوب والجمال المكذوب. . وليتها كانت تغفل أمرى وتتركنى وشأنى فأستطيع أن أتناساها وأعد نفسى من العذاب تخيلاً وتقديرًا، بل كانت تقيم علىّ من نفسها ومن هذا الجحفل اللجب[٣] المحيط بها حراسًا كحراس الليل وجواسيس كجواسيس الإنكليز، يرقبن مواقع نظرى ومواطئ قدمى، لتعلم أين مذهب قلبى ووجهة نفسى فتغار على من الكواكب إذا رأتنى أنظر إليها. . وتكاد تمزق الثوب الذى تعلم أنى أحبه وأؤثره. . وتحسبها آهة الوجد أو دمعة إذا رأتنى أتأوه من آلام عشرتها أو أبكى لعظم مصيبتى فيها. . وما هى بغيرة الحب، ولكنها الأثرة[٤] قبحها الله وقبح كل من تأتى به، وأكثر ما كان يغيظنى منها: أنها ما كانت تفتح علىّ باب الحساب على اللفتات والخطوات إلا فى الساعة التى أريد أن أخلو فيها بنفسى أو بكتابى، فما أكاد أنتفع بواحد منهما. فإن سكت أغضبها سكوتى وإن نطقت أغضبها حديثى. وإن قرأت فى كتابى ظنت أن المؤلفين ما ألفوا الكتب إلا نكاية بها لأستطيع أن أتخذها معتصمًا أعتصم به من محادثتها ومسامرتها. . فكان الكتاب فى نظرها أعدى أعدائها وأبغض الأشياء إليها، وجملة القول أنها ما كانت تستطيع أن تتصور إلا أن الله خلقها لتكون طفلة لاهية لاعبة فى جميع أطوار حياتها، وأنه ما خلقنى إلا لأكون زينة مجلسها ودمية[٥] قصرها، وأداة لهوها ولعبها، فلا أقرأ ولا أكتب ولا أعطى نفسى حقًا من حقوقها، ولا أبكر لمزاولة أعمالى ولا أسأم أحاديثها الطويلة المملة التى لا تشمل إلا على نقد الأزياء واغتياب النساء. فإن وافيت فذاك وإلا استحالت فى لحظة واحدة من

(١) القهرمان: الوكيل، أو أمين الدخل والخرج، جمعها: قهارمة.
(٢) أغب فلان القوم: إذا جاءهم حينًا بعد حين.
(٣) الجحفل: الجيش واللجب: ذو الجلبة والصياح.
(٤) الأثرة: اختيار الشىء والاستئثار به.
(٥) الدمية: الصورة المنحوتة من المرمر.

إنسان ناطق إلى وحش مفترس، فلا تعرف كلمة مؤلمة لا تسمعنيها ولا تترك وسيلة من وسائل التنغيص لا تهجم بها عليّ. فكنت -بين ألم رضاها وعذاب غضبها- في شقاء حبب إليَّ الموت وبغض إليَّ وجه الحياة. وبعد: فقد رأيت أن العيش معها مستحيل.. فلم أر بدًا من فراقها ففارقتها وما على وجه الأرض شيء أبغض إليَّ من المجد.. ولا أسمج في نظرى من المال. قلت: ولكنى لا أزال أراك حزينًا حتى الساعة. قال: نعم لأننى نفضت يدى من الزوجة الجاهلة.. ورحت أفتش عن الزوجة المتعلمة وقلت: ليكونن لى من الشأن في الزواج الثانى ما لم يكن لى فى الزواج الأول.. بعدما صار إليَّ الخيار. وبعد تلك التجربة وذاك الاختيار.. فهيأ لى الحظ جارًا ملاصقًا ما زلت أسمع مذ حل في جوارى أن فى بيته فتاة جميلة ما زال يعنى بأمرها حتى خرَّجها[1] وأدبها فأصبحت نابغة مدرستها.. وسيدة أترابها علمًا وفضلاً وتهذيبًا وأدبًا.. فما قنعت بالخبر حتى خالطت أباها ثم خالطتها.. فإذا المرأة الجديدة من جميع وجوهها.. فوقعت في نفسى أحسن موقع.

وحلت مكانًا لم يكن حل من قبل

خطبت الفتاة إلى أبيها فما لبث أن أخطبنى[2] فامتلأ قلبى فرحًا وسرورًا.. وخيل إليَّ أننى أرى فى سماء الآمال نجمًا لامعًا ينير ظلمة حياتى، وسجلت أن الدهر أنشأ يكفر بحسناته ما أسلف من سيئاته؛ فإنى لكذلك وقد أعددت للبناء بها عدته، ولم يبق بينى وبينه إلا يوم واحد، إذا بالبريد قد هجم عليَّ بهذا الكتاب، فهاكه فاقرأه؛ فإن فيه بقية قصتى، وسر نكبتى. ثم ألقى إليَّ بكتاب معنون باسمه، ففضضته فوجدت فيه بطاقة تشتمل على رسم فتى حسن الصورة والهندام يخاصر فتاة جميلة وقد ألقت برأسها على كتفه، ووجدت مع البطاقة كتابًا فقرأت فيه ما يأتى:

«علمت أنك خطبت فلانة إلى أبيها وأنك عما قليل ستكون زوجها، ولعمرى لقد كذبك نظرك، وخدعك من قال لك أنك ستكون سعيدًا بها،

---

(١) خرج الأستاذ تلميذه: هذبه وعلمه.

(٢) يقال خطب فلان إلى فلان فأخطبه: أى أجابه.

فإنها لن تكون لك بعد أن صارت لغيرك، ولا يخلص حبك إلى قلبها بعد أن امتلأ بحب عاشقها، فاعدل عن رأيك فيها، وانفض يدك منها، وإن أردت أن تعرف من هو ذلك العاشق وتتحقق صدق خبرى وإخلاصى إليك فى نصيحتى فانظر إلى الصور المرسلة مع هذا الكتاب؟

التوقيع»

فما نظرت الصورة وقرأت الكتاب حتى عرفت كل شيء، فأحسست برعشة تتمشى فى أعضائى، وشعرت بسحابة سوداء قد غشت على نظرى لهول ما سمعت، وسوء ما رأيت، إلا أننى تماسكت قليلاً، فأعدت إليه كتابه وقلت له وهو كل ما استطعت أن أقول: ماذا يعنيك من أمر فتاة عاهر بعد ما انكشف لك سرها، وظهرت لك حقيقتها، ولو كنت مكانك لعدلت عن الحزن على فوتها، إلى الاستغفار من حبها، وحمداً لله على ما ألهم من صواب الرأى فيها؛ أما إن سألتنى عن رأيى فى زواجك بعد الآن، فإنى لا أرى لك إلا أن تترهب وتتعزب(١) وأن تقول ما قاله «هملت» وقد زهد فى الزواج بعدما عرف حقيقة المرأة وأدرك خبيئة نفسها: «إلى الدير.. إلى الدير».

الرحمة

سأكون فى هذه المرأة شاعرًا بلا قافية ولا بحر، لأنى أريد أن أخاطب القلب وجهًا لوجه، ولا سبيل إلى ذلك إلا سبيل الشعر.

إن البذور تلقى فى الأرض فلا تنبت إلا إذا حرث الحارث تربتها، وجعل عاليها سافلها، كذلك القلب لا تبلغ منه العظة إلا إذا داخلته، وتخللت أجزاءه، وبلغت سويداءه، ولا محراث للقلب غير الشعر.

أيها الرجل السعيد: كن رحيمًا، أشعر قلبك الرحمة، ليكن قلبك الرحمة بعينها.

---

(١) تعزب: أى عاش عزبًا لا يتزوج.

ستقول: إنى غير سعيد، لأن بين جنبى قلبًا يلم به من الهم ما يلم بغيره من القلوب، أجل. فليكن ذلك كذلك، ولكن أطعم الجائع واكس العارى، وعز المحزون، وفرج كربة المكروب، يكن لك من هذا المجموع البائس خير عزاء يعزيك عن همومك وأحزانك، ولا تعجب أن يأتيك النور من سواد الحلك، فالبدر لا يطلع إلا إذا شق رداء الليل، والفجر لا يدرج إلا من مهد الظلام.

لقد بليت اللذات كلها.. ورثت حبالها.. وأصبحت أثقل على النفس من الحديث المعاد.. ولم يبق ما يعزى الإنسان عنها إلا لذة واحدة: هى لذة الإحسان.

إن منظر الشاكر منظر جميل جذاب.. ونعمة ثنائه وحمده أوقع فى السمع من العود فى هزجه ورمله(١) وأعذب من نغمات معبد فى الثقيل الأول(٢).

أحسن إلى الفقراء والبائسين، وأعدك وعدًا صادقًا أنك ستمر فى بعض لياليك على بعض الأحياء الخاملة فتسمع من يحدث جاره عنك من حيث لا يعلم بمكانك، أنك أكرم مخلوق، وأشرف إنسان، ثم يعقب الثناء عليك بالدعاء لك أن يجزيك الله خيرًا بما فعلت.. فيدعو صاحبه بدعائه، ويرجو برجائه.. وهنالك تجد من سرور النفس وحبورها بها الذكر الجميل فى هذه البيئة الخاملة: ما يجده الصالحون إذا ذكروا فى الملأ الأعلى.

ليتك تبكى كلما وقع نظرك على محزون أو مفؤود(٣) فتبتسم سرورًا ببكائك.. واغتباطًا بدموعك، لأن الدموع التى تنحدر على خديك فى مثل هذا الموقف إنما هى سطور من نور.. تسجل لك فى تلك الصحيفة البيضاء: أنك إنسان.

إن السماء تبكى بدموع الغمام.. ويخفق قلبها بلمعان البرق.. وتصرخ

(١) الهزج والرمل: نوعان من الموسيقى.
(٢) معبد: أحد كبار المغنين فى العصر الأموى، والثقيل الأول: ضرب من ضروب الغناء.
(٣) المفؤود: المصاب فى فؤاده بألم أو غيره.

بهدير الرعد، وإن الأرض تئن بحفيف الريح.. وتضج بأمواج البحر، وما بكاء السماء ولا أنين الأرض إلا رحمة بالإنسان.. ونحن أبناء الطبيعة فلنجارها فى بكائها وأنينها.

إن اليد التى تصون الدموع، أفضل من اليد التى تريق الدماء، والتى تشرح الصدور. أشرف من التى تبقر البطون، فالمحسن أفضل من القائد وأشرف من المجاهد، وكم بين من يحيى الميت. ومن يميت الحى.

إن الرحمة كلمة صغيرة.. ولكن بين لفظها ومعناها من الفرق مثل ما بين الشمس فى منظرها. والشمس فى حقيقتها.

وإذا وجد الحكيم بين جوانح الإنسان ضالته من القلب الرحيم.. وجد المجتمع ضالته من السعادة والهناءة.

لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع ولا مغبون ولا مهضوم.. ولأقفرت الجفون من المدامع.. ولاطمأنت الجنوب فى المضاجع. ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو لسان الصبح مداد الظلام.

لم يخلق الله الإنسان ليقتر عليه رزقه. ولم يقذف به فى هذا المجتمع ليموت فيه جوعًا.. بل أرادت حكمته أن يخلقه ويخلق له فوق بساط الأرض وتحت ظلال السماء ما يكفيه مؤونته. ويسد حاجته.. ولكن سلبه الرحمة فبغى بعضه على بعض وغدر القوى بالضعيف واحتجن دونه رزقه.. فتغير نظام القسمة العادلة.. وتشوه وجهها الجميل.. ولو كان للرحمة سبيل إلى القلوب لما كان للشقاء إليها سبيل.

الفرد هو المجتمع.. وإنما يتعدد بتعدد الصور.. أتدرى متى يكون الإنسان إنسانًا؟ متى عرف هذه الحقيقة حق المعرفة وأشعرها نفسه.. فخفق قلبه لخفقان القلوب وسكن لسكونها. فإذا انقطع ذلك السلك الكهربائى بينه وبينها، انفرد عنها واستوحش من نفسه، وإذا كان الأنس مأخذ[1] الإنسان المجتمع.. فالوحشة مأخذ الوحش المنقطع.

(١) مأخذ الكلمة: أصل اشتقاقها.

وجماع القول أنه لا يمكن أن تجتمع رحمة الرحماء وشقوة الأشقياء فى مكان واحد؛ إلا إذا أمكن أن يجتمع فى بقعة واحدة الملك الرحيم والشيطان الرجيم.

إن من الناس من تكون عنده المعونة الصالحة للبر والإحسان فلا يفعل.. فإذا مشى مشى مندفعًا مندلثًا[١] يلوى على شىء مما حوله من المناظر المؤثرة المحزنة، وإذا وقع نظره على بائس لا يكون نصيبه منه إلا الإغراق فى الضحك سخرية به وببذاءة ثوبه ودمامة خلقه، وإن من الناس من إذا عاش الناس عاشرهم ليعرف كيف يحتلب درتهم[٢] ويمتص دماءهم، ولا يعاملهم إلا كما يعامل شويهاته وبقراته.. لا يطعمها ولا يسقيها إلا لما يترقب من الربح فى الاتجار بألبانها وأصوافها.. ولو استطاع أن يهدم بيتًا ليربح حجراً لفعل.. وإن من الناس لا حديث له إلا الدينار وأين مستقره وكيف الطريق إليه وما السبيل إلى حبسه والوقوف فى وجهه والحيطة لفراره.. يبيت ليله حزينًا كئيبًا لأن خزانته ينقصها درهم كان يتخيل فى يقظته أو يحلم فى منامه أنه سيأتيه فلم يقيض له، وأن من الناس من يؤذى الناس لا يجلب لنفسه بذلك منفعة أو يدفع عنها مضرة، بل لأنه شرير يدفعه طبعه إلى ما لا يعرف وجهه أو ليضرِّى[٣] نفسه بالأذى مخافة أن ينساه عند الحاجة إليه.. حتى لو لم يبق فى العالم شخص غيره لكانت نفسه مدب عقاربه وغرض سهامه.. وإن من الناس من إذا كشف لك عن أنيابه رأيت الدم الأحمر يترقرق فيها، أو عن أظافره رأيت تحتها مخالب حادة لا تسترها إلا الصورة البشرية، أو عن قلبه رأيت حجراً صلداً من أحجار الغرانيت لا يبضُّ[٤] بقطرة من الرحمة.. ولا تخلص إليه نسمة من العظة.

فيا أيها الإنسان احذر الحذر كله أن تكون واحداً من هؤلاء فإنهم سباع

---

(١) اندلث: كاندفع.
(٢) الدرة: اللبن إذا كثر وسال.
(٣) يقال: أضرى فلان كلبه بالصيد، وضراه: إذا أغراه به وعوده متابعته.
(٤) بض الدم: سال.

مفترسة وذئاب ضارية.. بل أعظك ألا تدنو من واحد منهم أو تعترض طريقه.. فربما بدا له أن يأكلك غير حافل بك.. ولا آسف عليك.

أيها الإنسان. ارحم الأرملة التى مات عنها زوجها، ولم يترك لها غير صبية صغار، ودموع غزار، ارحمها قبل أن ينال اليأس منها ويعبث الهم بقلبها فتؤثر الموت على الحياة.

ارحم المرأة الساقطة لا تزين لها خلالها ولا تشتر منها عرضها علها تعجز عن أن تجد مساومًا يساومها فيه فتعود به سالمًا إلى كسر بيتها.

ارحم الزوجة أم ولدك وقعيدة بيتك ومرآة نفسك وخادمة فراشك لأنها ضعيفة، ولأن الله قد وكل أمرها إليك، وما كان لك أن تكذب ثقته بك.

ارحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه فإنك إلا تفعل قتلته أو أشقيته فكنت أظلم الظالمين.

ارحم الجاهل لا تتحين فرصة عجزه عن الانتصاف لنفسه فتجمع عليه بين الجهل والظلم، ولا تتخذ عقله متجرًا تربح فيه ليكون من الخاسرين.

ارحم الحيوان لأنه يحس كما تحس ويتألم كما تتألم ويبكى بغير دموع، ويتوجع ولا يكاد يبين.. ارحمه وكذب من يقول إن الإنسان طبع على ضرائب لؤم، أقلها أنه يقبل يد ضاربه ويضرب من لا يمد إليه يدًا.

ارحم الطير لا تحبسها فى أقفاصها ودعها تهيم فى فضائها حيث تشاء، وتقع حيث يطيب لها التغريد والتنقير، إن الله وهبها فضاء لا نهاية له فلا تغتصبها حقها فتضعها فى محبس لا يسع مد جناحها؛ أطلق سبيلها وأطلق سمعك وبصرك وراءها لتسمع تغريدها فوق الأشجار، وفى الغابات، وعلى شواطئ الأنهار، وترى منظرها وهى طائرة فى جو السماء، فيخيل إليك أنها أجمل من منظر الفلك الدائر والكوكب السيار.

أيها السعداء. أحسنوا إلى البائسين والفقراء، وامسحوا دموع الأشقياء، وارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء.

رسالة الغفران[١]

غفوت إغفاءة طويلة لا علم لى بمداها ولا بما وقع لى فيها، ثم صحوت فرأيت نفسى فى صحراء مد البصر مكتظة[٢] بأنواع من الخلق لا أحصيهم عددًا، فعلمت أنى بعثت، وأنه يوم القيامة، فساورنى[٣] من الهم ما ساورنى حين ذكرت أن مقداره ألف سنة من سنى القيامة، وقلت: من لى بالصبر على موقف يهلك فيه صاحبه ظمأ وجوعًا، ويحترق تحت أشعة شمس ليس بينه وبينها إلا قيد ظفر، فتماسكت بضعة أشهر، ثم لم أجد بعد ذلك إلى الصبر سبيلاً، فزينت لى نفسى الكاذبة أن أذهب إلى رضوان خازن الجنان، وكنت أحمل شهادة التوبة فى يدى لاسترحمه وألتمس منه الإذن بالدخول قبل انفضاض المحشر، فما زلت أرقيه بقصائد المدح المسومة[٤] باسمه كما كنت أرقى بأمثالها أمثاله من عظماء العاجلة وسادتها، فما أبه[٥] لى ولا فهم كلمة مما أقول؛ فانصرفت عنه إلى خازن آخر اسمه زفر فكان شأنى معه شأنى مع صاحبه؛ إلا أنه كان أرق منه وألين جانبًا، فأشار علىّ بالذهاب إلى النبى الذى أتبعه، وأفهمنى أن الأمر موكول إليه، فعدت وبين جنبى من الحسرة والألم ما الله عالم به، فبينا أن أتخلل الصفوف، وأزاحم الوقوف، إذ وقع بصرى على حلقة من الناس تحيط بشيخ هرم، وأمعنت النظر فيه، فإذا هو الشيخ أبو على الفارسى النحوى، وإذا بالمحتفين به جماعة من شعراء العرب كلهم يخاصمه وكلهم ينقم عليه، هذا يقول له: رويت بيتى على غير وجهه؛ وذاك يقول: أعربته على غير ما أردت وذهبت، فدفعنى الفضول كما دفعهم إلى النزول فى ميدانهم فما فرغنا من الرفع والنصب

---

(١) للمعرى رسالة طويلة بهذا العنوان هذه خلاصتها.

(٢) مكتظة: مملوءة.

(٣) ساورته الهموم: واثبته وملكت ناصيته.

(٤) المسومة: المعلمة.

(٥) أبه: احتفل.

والزيادة والحذف حتى أدركت شؤم ما فعلت، وعلمت أن شهادة التوبة قد سقطت منى فى ذلك المعترك، فقلت: قبح الله الشعر والإعراب واللغة والآداب، إنها شؤم الآخرة والأولى.

وقفت أحير من ضب فى حمارة قيظ[١] لا أدرى ما آخذ، وما أدع، حتى رميت بطرفى فإذا بأمير المؤمنين على بن أبى طالب فى لفيف من العترة[٢] الطاهرة النبوية فدلفت[٣] إليه وأبثثته[٤] أمرى وأمر الشهادة المفقودة فقال: لا عليك، ألك شاهد بالتوبة؟ قلت: نعم، فنودى بشهودى فشهدوا بتوبتى، فقال: تريث[٥] قليلاً حتى تمر فاطمة بنت محمد فنسألها فى أمرك، فهى تمت إلى أبيها بما لا نمتُّ به[٦] وكانت ممن قسم لهم دخول الجنة قبل فصل القضاء إلا أنها كانت تخرج كل حين للتسليم على أبيها، ثم تعود إلى مستقرها؛ فإنا لكذلك، وإذا بمناد ينادى أن غضوا أبصاركم يا أهل الموقف حتى تعبر فاطمة بنت محمد -ﷺ-، فهرعت إليها، فرأيتها راكبة مع أخوتها وجواريها على أفراس من نور، وتقدم من وعدنى بسؤالها فى أمرى، فأنجز وعده، فقالت لأخيها إبراهيم: دونك الرجل، فقال: تعلق بركابى، فتعلقت، فطارت الأفراس فى الهواء تقطع الأجيال وتتخطى رؤوس القرون، حتى وافينا محمداً -ﷺ-، واقفًا لشهادة القضاء، فقصت عليه فاطمة ما علمت من أمرى، فراجع الديوان الأعظم فوجد اسمى فى التائبين فشفع لى فعدت فى ركب فاطمة فرحًا مستبشراً، وما كنت أقدر أن بين يدى عقبة الصراط، فلما وافيته وجدتنى لا أستمسك عليه لرقته فأمرت فاطمة جارية من جواريها أن تعبر معى فأمسكت بيدى، فمشيت أترنح ذات اليمين وذات الشمال، وخفت السقوط فقلت لها: احملينى زقفونة، فقالت: وما زقفونة؟ فقلت: أما سمعت قول الجحجلول من أهل كفر طاب:

---

(١) الحمارة -بالتشديد- شدة الحر.

(٢) عترة الشخص: عشيرته وأهله.

(٣) دلف: مشى مشيًا متثاقلاً.

(٤) أبثه السر: كاشفه.

(٥) تريث: أبطأ.

(٦) تمت بالشيء: توسل به.

صلحت حالى إلى الخلف حتى　　　صرت أمشى إلى الورا زقفونة

فقالت: ما سمعت بزقفونة ولا الجحجلول ولا كفر طاب، فقلت: ألقى يدى فوق كتفيك، واجعل بطنى إلى ظهرك، فحملتنى، وجازت بى الصراط كالبرق الخاطف، حتى صرت إلى باب الجنة، فرمت الدخول فوقف رضوان فى وجهى وقال: أين جوازك[١] فبعلت[٢] بالأمر؛ ثم رأيت فى دهليز الجنة شجرة صفصاف فعالجته على أن يعطينى منها ورقة أعود بها إلى الموقف لأستكتب عليها الجواز فأبى؛ فقلت، وقد ملك الهم على رشدى وصوابى: أما والله لو أنك حارس على أبواب الكرماء، أو خازن لخزائن الملوك والأمراء لما وصل شاعر إلى درهم، ولا سائل إلى سحتوت[٣]، ولهلك الفقراء بؤسًا وجوعًا، فسمع إبراهيم -عليه السلام- حوارى[٤] فجذبنى جذبة حصلنى بها فى الجنة وصاحبى ينظر إلىَّ شزرًا فدخلت، فرأيت ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

رأيت أنهارًا من الماء العذب أصفى من أديم السماء، وأصقل من مرآة الحسناء، تنصب فيها جداول من الكوثر، إذا جرع الشارب منها جرعة جرع ماء الحياة وأمن أن يذوق كأس المنون مرة أخرى، ورأيت جداول تفيض بالراح فيضًا قد زينت حوافيها بأباريق من العسجد، وكئوس من الزبرجد، فما نهلت منها نهلة حتى قلت لو كشف لأهل العاجلة عما فى هذه الخمرة من اللذة التى لا يشوبها كدر، والنشوة التى لا يعقبها خمار[٥] ما باعوا قطرة منها بكل ما تشتمل عليه بابل وقطربل[٦] من البواطى[٧] والدنان، ولو نظر الأقيشر الأسدى بعين الغيب إلى عسجد هذه الأباريق وزبرجد تلك الكئوس لخجل من نفسه أن يقول:

---

(١) الجواز: صك المسافر.
(٢) بعل بأمره: برم به فلم يدر ما يصنع فيه.
(٣) السحتوت فى الأصل: السويق القليل الدسم، ثم أطلق على كل شىء قليل.
(٤) الحوار: مراجعة الكلام.
(٥) الخمار: صداع الخمر.
(٦) بلدان معروفان بجودة خمرهما.
(٧) جمع باطية، وهى إناء للشراب يوضع بين الشرب للاغتراف منه.

أفنى تلادى وما جمعت من نشب قرع القوازيز[١] أفواه الأباريق

وفى تلك الأنهار آنية ترفرف فوق سطحها على صورة الطيور كالكراكى والطواويس والبط والعندليب ينحدر من مناقيرها شراب أرق من السراب وتسبح فيها أسماك من الذهب والياقوت:

يعمن فيها بأوساط مجنحة[٢] كالطير تنشر فى جو خوافيها

ورأيت أنهاراً من لبن، وأنهاراً من عسل لا يدرك الوهم كنهه إلا إذا أدرك ما يمتص نحل الجنة من أزهارها وأنوارها.

رأيت جميع تلك الأنهار مكبرة، ثم تمثلت فى نظرى مصغرة، فإذا هى سطور من النور، وأحرف بيضاء فى صحيفة خضراء، قرأتها فرأيتها ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾[٣].

ظللت أمشى فما أكاد أخطو خطوة حتى أرى منظراً عجبًا ينسى السابق، ويشوق إلى اللاحق، فوددت لو طويت لى الأرض طيًّا فأتعجل النظر إلى ما غاب عنى من الجنة وبدائعها. فما أخذ هذا الخاطر مكانه من نفسى حتى رأيت بين يدى فرسًا من الجوهر المتخير مسرجًا ملجمًا فعلمت أنى قد سعدت وأنها الأمنية التى كنت أتمناها، فعلوت ظهره وغمزته غمزة خرج بها خروج الودق[٤] من السحاب، والسيف من القراب[٥]، وعلى ما جهدته لم يشك إلىّ ما شكاه جواد عنترة العبسى إليه فى قوله:

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلىَّ بعبرة وتحمحم

أو ما شكاه جواد عمر بن أبى ربيعة إليه فى قوله:

تشكى الكميت الجرى لما جهدته وبين لو يسطيع أن يتكلما

---

(١) القوازيز: جمع قازوزة، وهى قدح للشراب.
(٢) مجنحة: ذات أجنحة.
(٣) سورة محمد: ١٥.
(٤) الودق: المطر.
(٥) قراب السيف: غمده.

ذكرت أنى، وأنا فى الدار الفانية كنت أسمع بذكر الذاهبين الأولين من الأدباء والشعراء والرواة، فآسف على أن لم أكن فى زمنهم أراهم وأحضر مجالسهم، فقلت ليت شعرى ما فعل الله بهم فى هذه الدار، وهل سعدوا أو شقوا، وهل يقيض لى من رؤيتهم فى دار البقاء، ما لم يقيض فى دار الفناء؟

ثم رميت بطرفى فإذا فارس يحضر فرسه(١) فى الهواء إحضارًا حتى تقاربنا فتماست الركب واختلفت الأعناق، فقال: انتسب، فقلت: فلان، ومن أنت يرحمك الله، وقد فعل؟ فقال: عدى بن زيد العبادى، فدهشت وقلت: عدى بن زيد فى الجنة بعد الزيغ والضلال؟ فقال أنا عيسوى، وأنت محمدى، وليس لصاحبك على أحد حجة إلا بعد ظهوره، وبلوغ دعوته، فقلت: لا نكران؛ ولكن كيف لم يقعد بك فسقك وشرابك، وأين استهتارك فى قولك:

بكر العاذلون فى وضح الصبح	يقولون لى أما تستفيق
ودعوا بالصبوح فجراً فجاءت	قينة فى يمينها إبريق

قال: غفر الله لنا ما غفر لكم، قلت: هل لك علم بجماعة الشعراء والرواة فقد تمنيت على الله أن أراهم فكنت عنوان الكتاب وفاتحة الإجابة! فقال: اصحبنى، فطارت بنا الخيل، فقلت له: هل آمن ألا يقذف بى هذا السابح على صخرة من الزمرد أو هضبة من الياقوت فيكسر لى عضداً أو ساقًا؟ فتبسم، وقال: أين يذهب بك؟ نحن فى دار الخلود والبقاء.

مررنا بروضة من رياض الجنة يخترقها غدير خمرى على شاطئه جمع كثير على سرر متقابلين، أو على الأرائك متكئين، فهوى صاحبى بفرسه فهويت هويه، وقلنا سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار، فرحبوا بنا وهشوا للقائنا وانتسبنا فتعارفنا، ثم أخذوا فيما كانوا فيه، فإذا الأصمعى ينشد مروياته، وأبو عبيدة يسرد وقائع الحروب ومقاتل الفرسان، وإذا سيبويه والكسائى متصافيان بعد أن وقع بينهما فى مجلس البرامكة ما وقع، وأحمد

(١) أحضر الفرس: ارتفع فى عدوه.

ابن يحيى لا يضمر لمحمد بن زيد من الموجدة ما كان يضمر، وأخذت تهب من ناحية النهر نفحة عطرية ذكرتني بقول أعشى ميمون:

مثل ريح المسك ذاك ريحها

وعلى ذكر الأعشى ذكرت مصرعه وشقاءه، وقلت في نفسي: لولا أن قريشًا صدته عن الإسلام لكان اليوم بيننا في مجلسنا هذا، فسمعت هاتفًا من ورائي يقول: أنا بينكم، وفي مجلسكم، فالتفت فإذا الأعشى ميمون، فلم أدر من أي مدخليه[1] أعجب، أمن مدخله إلى الجنة؟ أم من مدخله إلى نفسي، وعلمه بما هجس في صدري؟ فعلمت أن أهل الجنة ملهمون، ثم سألته: كيف غفر لك؟ فقال سحبتني الزبانية إلى سقر فرأيت في عرصات القيامة رجلاً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر والناس يهتفون به من كل جانب: الشفاعة يا محمد، فأخذت أخذهم، وهتفت هتافهم فأمر أن أدنو منه، فدنوت فسألني: ما حرمتك؟ فقلت: أنا القائل:

ألا أيهذا السائل أين يممت	**فإن لها في أهل يثرب موعدا**
فآليت لا أرثي لها من كلالة	**ولا من وجى حتى تلاقي محمدا**
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم	**تراحي وتلقى من فواضله ندا**
نبي يرى ما لا ترون وذكره	**أغار لعمري في البلاد وأنجدا**

فقال: ما سمعتها منك قبل اليوم، فقلت: خدعتني عنك الناس بعدما شددت راحلتي إليك، وكنت رجلاً أحب الشراب وخفتك عليه أن تفرق بيني وبينه، فشفع لي، فدخلت الجنة على ألا أذوق فيها الخمر، فقنعت بالرضاب عن الشراب، وبماء الثغر المنضود عن ماء العنقود، ورأيت بجانبه شابًا ريق الشباب، فسألت عنه فقيل لي: زهير بن أبي سلمى، فما كدت أصدق أنه القائل:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش	**ثمانين حولاً لا أبالك يسأم**

فقلت له: بم غفر الله لك؟ فقال: كنت في جاهليتي أترقب مبعث

---

(١) المدخل: مصدر دخل، كالدخول.

محمد، وأتمنى البقاء حتى أراه، فحال بينى وبينه الموت؛ فأوصيت به ابنى كعبًا وبحيرًا وكنت أؤمن بالحساب فما نفعنى شىء ما نفعنى قولى:

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ... ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب ويدخر ... ليوم الحساب أو يقدم فينقم

وإلى جانب زهير، عبيد بن الأبرص، فسألته عن مصير أمره؟ فقال: كتبت لى النار فما زال الناس يهتفون بقولى:

من يسأل الناس يحرموه ... وسائل الله لا يخيب

والعذاب يخفف عنى شيئًا فشيئًا حتى خرجت ببركة هذا البيت من الجحيم إلى النعيم.

ذهبنا فى الحديث كل مذهب وذهب بعضنا إلى ارتشاف الخمر من النهر، فى آنية الدر، فانتشينا جميعًا فما أفقنا إلا على حفيف رف[1] من إوز الجنة نزل بنا، ثم انتفض عن كواعب أتراب يغنين بالمزاهر والآلات الثقيل والخفيف والهزج، فما أتين على الألحان الثمانية حتى دارت بنا الأرض الفضاء، وحتى ملكنا من الطرب ما يستخف الحلوم ويطير بالهموم، وقلنا: لو علم جبلة بن الأيهم بما نحن فيه، لقرع السن على أن باع دينه بسرور محدود وأنس معدود، ودف وعود.

ذكرت جبلة فذكرت لذكره النار وقوله تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾[2] فتمنيت أن أطلع فأرى المعذبين كما رأيت المنعمين؛ فألهمت الإذن؛ فأشرت لصاحبى فقام وقمت، وركبنا فرسينا فطارتا بنا حتى انتهيا إلى سور الجنة فرأينا عنده من الداخل كوخًا يسكنه شيخ زرى الهيئة، فأشرفنا عليه فقال: لا تعجبوا لشأنى، أنا الخطيئة.. فوالله لولا أنى صدقت مرة واحدة فى حياتى فى قولى:

أرى وجهًا شوّه الله خلقه ... فقبح من وجه وقبح حامله

---

(١) الرف: الطيع من الطير.
(٢) سورة الصافات: ٥٥.

لما دخلت الجنة.. ولما أدركت كوخًا ولا حجرًا؛ فتركناه.. وطلعنا، فما رآنا أهل النار حتى ضجوا بصوت واحد ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾[1] فرأينا ملوكًا وأكاسرة يتضاغون[2] في السلاسل والأغلال ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾[3] فيهتف بهم هاتف ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[4].

ورأيت بجانبي امرأة تبينتها فإذا هي الخنساء، تطلع مثلنا فترى رجلاً كالجبل الأشم على رأسه شعلة من النار. فتمتعض وتقول: يا صخرة.. هذا تأويل قولي فيك من قبل:

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه النار

ورأيت هناك كثيرًا من أمثال امرئ القيس وعنترة وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد، ورأيت بشارًا بن برد تفتح عيناه بكلاليب من نار، وكلما اشتد به الألم رفس إبليس برجله، وقال له ما كنت لأدخل النار لولا قولي فيك:

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

وجزعنا من المنظر فهممنا بالرجوع.. وإذا إبليس يهتف بنا: يا أهل الجنة! بلغوا عني أباكم آدم أني لم أدخل النار بسببه حتى أخذت معي أكثر ولده وأفلاذ كبده، فلا يهنأ كثيرًا بمصيري، فقلنا: قبحه الله، ما يزال ينفس على آدم نعمته حتى اليوم، فما كان لنا همٌّ بعد رجوعنا إلا لقاء أبينا آدم -عليه السلام-.. فلقيناه.. فبلغناه الرسالة، فقال: وارحمتاه له، ما كان بينه وبين الإيمان إلا القليل.. فأدركه الحسد فكان من المهلكين.. فقبلنا يده وانصرفنا إلى ما أعد الله لنا من ملك كبير وجنة وحرير.. وحور وولدان، كأنهم

(١) الأعراف: ٥٠.
(٢) يقال: بات الصبيان يتضاغون من الجوع، أي: يتضورون منه.
(٣)، (٤) سورة فاطر: ٣٧.

الياقوت والمرجان، فحمدنا الله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

عبرة الدهر

بنى فلان فى روضة من بساتينه الزاهرة قصرًا فخمًا يتلألأ فى تلك البقعة الخضراء تلؤلؤ الكوكب المنير فى البقعة الزرقاء.. ويطاول بشرفاته الشماء أفلاك السماء، كأنه نسر محلق فى الفضاء، أو قرط معلق فى أذن الجوزاء، وكأن شرفاته آذان تفضى إليها النجوم بالأسرار، وطاقاته أبراج تتنقل فيها الشموس والأقمار.

شاده مرمرًا وجلله كلسا فللطير فى ذراه وكور[١]

ولم يدع ريشة لمصور ولا ليقة[٢] لرسام إلا أجراها فى سقوفه وجدرانه وطاقاته وأركانه حتى ليخيل إلى السالك بين أبهائه[٣] وحجراته، ومحاريبه وعرصاته[٤] أنه يتنقل من روضة تزهر بالورود الحمراء، والأنوار البيضاء، إلى بادية تسنح فيها الذئاب الغبراء؛ والنمور الرقطاء، ومن ملعب تصيد فيه الظباء الأسود، إلى غاب تصيد فيه الأسود الظباء، وأنشأ فى كبرى ساحاته، وأوسع باحاته: صهريجًا من المرمر مستديرًا يضم بين حاشيته فوارة ينفر الماء منها صعدًا كأنه سيف مجرد، أو سهم مسدد، فيخيل إلى الرائى أن الأرض تثأر لنفسها من السماء وتتقاضاها ما أراقت منها من الدماء، تلك تقاتلها بالرجوم والشهب، وهذه تحاربها بالسهام والقضب. وغرس حول دائرة الصهريج دوائر من شجرات مؤلفات ومختلفات، وأغصان، صنوان وغير صنوان، إذا رنحتها نسائم الأسحار.. رقصت فوق بساط الأزهار، وتحت ظلال الأثمار، فغنت

(١) الكلس: الصاروج يبنى به.
(٢) ليقة الدواة: صوفتها، ويتخذها أيضًا لجمع أخلاطه فيها.
(٣) الأبهاء، جمع بهو، وهو البيت المقدم أمام البيوت.
(٤) المحراب هنا: صدر البيت، والعرصات، جمع عرصة: وهى ساحة الدار.

على رقصها الأطيار، غناء الأغاريد لا غناء الأوتار، وادخر فيه لنعيمه وبلهنيته(١) ما شاء الله أن يدخر من نضائد(٢) ومقاعد، ووسائد ومساند، وفرش، وعرش، وكلل(٣) وحجل(٤)، وتماثيل وتهاويل(٥) وصحاف من ذهب، كاللهب، وأكواب من بلور، كالنور، وأقفاص للحمائم والنسور، ومقاصير للسباع والنمور، وعربات وسيارات، وجياد صافنات، ووصائف وولائد، تحيط بالمجالس والموائد. . إحاطة القلائد. . بأعناق الخرائد. . وخدم حسان. . تنتقل فى الغرف والقيعان. . تنقل الولدان فى غرف الجنان.

فى ليلة من ليالى الشتاء حالكة الجلباب، غدافية(٦) الإهاب، أفاق صاحب القصر من غشيته فتحرك فى سريره وفتح عينيه فلم ير أمامه غير خادمه «بلال»، وهو خصى أسود من ذوى الأسنان، رباه صغيرًا وكفله كبيرًا، وكان يجمع بين فضيلتى الذكاء والوفاء، فأشار إليه إشارة الواله المتلهف أن يأتيه بجرعة ماء، فجاء بها، فتساند على نفسه حتى شرب، وكأن الماء قد حل عقدة لسانه، فسأله: فى أى ساعة من ساعات الليل نحن يا بلال؟ فأجابه: نحن فى الهزيع الأخير يا سيدى، فقال: ألم تعد سيدتك إلى الآن؟ قال: لا؛ فامتعض امتعاضًا شديدًا وزفر زفرة كادت تخترق حجاب قلبه، ثم أنشأ يتكلم كأنما يحدث نفسه ويقول: إنها تعلم أنى مريض، وأنى فى حاجة إلى من يسهر بجانبى ويتعهد أمري ويرفه(٧) عنى بعض ما أعالجه، وليس بين سكان القصر من هو أولى بى وأقوم علىَّ منها، وأين وفاؤها الذى كانت تزعمه وتقسم لى بكل محرجة من الأيمان عليه؟ أين حبها الذى كانت تهتف به فى صباحها ومسائها وبكورها وأصائلها؟ أين النعيم الذى كنت أقلبها فى أعطافه والعيش الذى كنت أرشفها كؤوسه؟ أإن علمت أنى أصبحت بين حياة

---

(١) بلهنية العيش: رخاؤه.
(٢) النضائد: جمع نضيدة، وهى الوسادة.
(٣) جمع (كلة) بالكسر: وهى الستر الرقيق.
(٤) جمع (حجلة) بفتحات: وهى ستر العروش فى جوف البيت.
(٥) التهاويل: النقوش والصور؛ لأنها تهول من ينظر إليها.
(٦) الغداف: الغراب الأسود؛ وليلة غدافية شبيهة به.
(٧) رفه عنه: نفس عنه وخفف.

لا أرجوها، وموت لا أجد السبيل إليه برمت[١] بى واستثقلت ظلى واستبطأت أجلى واستطالت ضجعتى، فهى تفر من وجهى كل ليلة إلى حيث تجد لذات العيش ومواطن السرور، آه من العيش ما أطوله، وآه من الموت ما أبعده!

ما زال يحدث نفسه بمثل هذه الأحاديث، حتى هاج ساكنه واضطربت أعصابه. فعاودته الحمى وغلى رأسه بنارها غليان القدر بمائها فسقط على فراشه ساعة تجرع فيها من كأس الموت جرعًا مريرة، بيد أنه لشقائه لم يأت على الجرعة الأخيرة منها.

أفاق من غشيته مرة ثانية، فلم ير بجانبه تلك التى تسيل نفسه حسرات عليها، فسأل الخادم: ألا تعلم أين ذهبت سيدتك يا بلال؟ قال: خير لك ألا تنتظرها يا مولاى، وألا تلومها فى بعدها عنك؛ فإن لها عند بعض الناس دينًا فهى تخرج كل ليلة لتتقاضاه؛ قال: ما عرفت قبل اليوم أن بينها وبين أحد من الناس شيئًا من ذلك، ومتى كان الدائن يتقاضى دينه فى مثل هذه الساعة من الليل؟ وهل أعياها أن تجد من يقوم لها بذلك، فهى تتولاه بنفسها؟ وهل فرغت من أمر دينها بعد اختلافها إليه سنة كاملة! قال: إن بينها وبين غريمها صكًا مكتوبًا أن يؤدى ما عليه من الدين أقساطًا فى كل ليلة قسط، على أن تتناوله بيدها وأن تكون مواعيد الوفاء أخريات الليالى، قال: ما سمعت فى حياتى بأغرب من هذا الدين ولا بأعجب من هذا الصك، ومن هو غريمها؟ قال: أنت يا سيدى. فنظر إليه نظرة الحائر المشدوه[٢] وقال: إنى أكاد أجن لغرابة ما أسمع، وأحسب أنك هاذ فيما تقول أو هازئ. فدنا منه الخادم وقال: والله يا سيدى ما هزأت فى حياتى ولا هذيت، ألا تذكر تلك الليالى الطوال التى كنت تقضيها خارج المنزل بين شهوة تطلبها، وكأس تشربها، وملاعب تجرر فيها أذيالك، ومراقص تهتك فيها أموالك، تاركًا زوجتك فى هذه الغرفة على هذا السرير تشكو الوحشة وتبكى الوحدة، تتقلب على أحر من الجمر شوقًا إليك ووجدًا عليك، فلا تعود إليها إلا إذا

---

(١) برم به: سئمه وضجر منه.

(٢) المشدوه: المدهوش.

شاب غـراب الليل وطار نسـر الصبـاح؛ أنك سلبتـها تلك الليـالى السابـقة فأصبحت غريمهـا فيها، فهى تستردها منك اليـوم ليلة ليلة حتى تأتى عليها، ذلك هو دينهـا وهذا غريمها؛ ألا تذكـر أنك كنت فى لياليك هـذه ربما تحبس الزوجة عن زوجهـا وتملكها عليه وهو واقف موقـفك هذا فى حسرتك هذه، يبكى ما تبكى ويندب مـا تندب؟ ذلك الزوج هو الذى يتقاضاك اليـوم حقه، ويأبى إلا أن يأخذه عينًا بعين ونقدًا بنقد، فهو يفجعك فى زوجتك كما كنت تفجعـه فى زوجته، ويقض[1] مضـجعك كما تقض مـضجعه، وأنا أعـيذك بعدلك وإنصافك أن تكون من لواة الدين، أو تكون من الظالمين.

قال حسبك يا بلال؛ فقـد بلغت منى، وإن لى فى حاضرى ما يشغلنى عن ماضى، فادع لى ولدى، قال: لم يعد يا سيدى من الوجه الذى بعثته فيه حتى الآن، قال: لا أذكـر أنى بعثته فى وجـه ما، وأين ذهب؟، قال: ذهب إلى الحانة التى يخـتلف إليها، ولن يرجع منها حـتى يرتوى ولن يرتوى حتى يعـجز عن الرجـوع، إننى طالما وقفت بين يديك يا مـولاى ضارعًـا إليك أن تحول بينه وبين خلطـاء السوء وعشراء الـشر حتى لا يفـسدوه عليك، فكنت تعـرض عنى إعراض من يرى أن تدليل الولد وتـرفيـهه[2] وإرخاء العنان له عنوان من عناوين العظمة ومظهر من مظاهـر الأبهة والجلال؛ كنت أسألك أن تعلمه العلم وأن تهديه إلى طريق المدرسة ليضل عن طريق الحانة، فكنت ترى أن الذى يحـتاج إلى العلم إنما هـو الذى يرتزق منه. وإن ولدك عن ذلك من الأغنياء، فلا تشك من عمل يديك، ولا تبك من جناية نفسك عليك، فأنت الذى أرسلتـه إلى الحانة، وأنت الذى أبقـيته فـيهـا إلى مثل هذه السـاعة من الليل، وأنت الذى أبعدته عن فراشك أحوج ما كنت إليه.

وما وصل الخادم من حديثه إلى هذا الحـد حتى نصل الليل من خضابه واشتعل المبـيض فى مسوده، وإذا صوت الناعورة يرن فى بستـان القصر رنين الثكلى فقدت واحـدها، فقال السيد: هات يدك يـا بلال واحملنى إلى جوار النافذة لأروِّح عن نفسى بعض ما ألم بها، أو أودع إلى جانبها نسمات الحياة، ثم اعتمـد على يده حتى وصل إلى النافذة: فـجلس على متكأ طويل وألقى

---

(١) أقض مضجعه: جعله خشنًا.

(٢) رفهه: جعله مرفهًا، أى لين العيش.

على البستان نظرة طويلة فرأى البستانى وزوجه جالسين إلى الناعورة وقد برقت بوارق السعادة من خلال أثوابهما البالية بريق الكواكب المنيرة من خلال السحب المتقطعة. رآهما متحابين متعاطفين؛ لا يتعاتبان ولا يتشاحان[١] ولا يشكوان همًّا ولا يندبان حظًا؛ رآهما قويين نشيطين يجرى دمهما فى عروقهما صافيًا متسلسلاً وكأنهما يحاولان أن يخرجا من إهابهما[٢] مرحًا ونشاطًا؛ رآهما راضيين بما قسم الله لهما من خشونة الملبس وجشونة[٣] المطعم فلا يتشهيان ولا يتمنيان ولا ينظران إلى ذلك القصر الشامخ المطل عليهما نظرات الهم والحسرة؛ سمعهما يتحدثان فأصغى إليهما فإذا البستانى يقول لزوجه: والله لو وهب لى هذا القصر برياضه وبساتينه، وآنيته وخرثيه[٤]، على أن تكون لى تلك الزوجة الخائنة الغادرة لفضلت العيش فوق صخرة فى منقطع العمران، على البقاء فى مثل هذا المكان أقاسى تلك الهموم والأحزان. فقالت: لا أحسب أن سيدنا ينجو من خطر هذا المرض، فقد مر به على حاله تلك عام كامل، وهو يزداد كل يوم ضعفًا ونحولاً، قال: قد علمت أن الطبيب قد نفض يده من الرجاء فيه وأضمر اليأس منه. ولا عجب فى ذلك، فإنه ما زال يسرف على نفسه ويذهب بها المذاهب كلها حتى قتلها. قالت: ما أشقاه، أكانت نفسه عدوة إليه فجنى عليها هذا الشقاء، وذلك البلاء، قال: ما كان عدوًا لنفسه، ولا كانت نفسه عدوة إليه، ولكنه كان رجلاً جاهلاً مغرورًا، غره شبابه وماله وعزه وجاهه فظن أنه قد أخذ على الدهر عهدًا بالسلامة والبقاء فانطلق فى سبيله لا يلوى على شىء مما وراءه حتى سقط فى الحفرة التى احتفرها لنفسه؛ قالت: أتعلم ماذا يكون حال هذا القصر من بعده؟ قال: أعلم أنه سيكون لولده؛ قالت: ولكننى أعلم أنه سيكون لفلان، قال: إن فلانا ليس وريث السيد بل صديقه، قالت: إنه ليس بصديق السيد، بل صديق السيدة، فهو خاطب زوجته قبل وفاته، وزوجها بعد مماته.

---

(١) من المشاحة. وهى المخاصمة والمجادلة.
(٢) الإهاب: الجلد.
(٣) جشونة المطعم: خشونته.
(٤) الخرثى: أثاث البيت.

فما سمع السيد هذه الكلمات حتى اضطرب اضطرابًا شديدًا، وسقط عن كرسيه وهو يقول: أشهد أنى من الأشقياء. وما زال فى غشيته تلك حتى صحا صحوة الموت وفتح عينيه فرأى بين يديه هذا المنظر المحزن المؤلم.

رأى ولده لاهيًا بمحادثة فتاة من فتيات القصر، ورأى زوجته تضاحك تربًا من أترابها وتغمزها بطرفها أن قد حان حينه ودنا أجله، ورأى صديقه أو ولى عهده يأمر فى القصر وينهى، ويتصرف تصرف السيد المطاع، ورأى نفسه يعالج سكرات الموت، ويعد عدته للانتقال من القصر إلى القبر، وهنا سمع كأن هاتفًا يهتف به من السماء ويقول: أيها الرجل، لو وفيت لزوجك لوفت لك، ولو أدبت ولدك لعناه أمرك، ولو أحسنت اختيار صديقك ما خانك، ولو رحمت نفسك ما خسرت حياتك.. فأغمض عينيه وهو يقول «فلتكن مشيئة الله».

وهكذا فارق هذا المسكين حياته مفجوعًا بزوجته وولده وصديقه ونفسه وبستانه وقصره:

رب ركب قد أناخوا حولنا ... يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا ... وكذاك الدهر حالاً بعد حال

أفسدك قومك

أيها المجرم الفاتك الذى يسلب الخزائن نفائسها، والأجسام أرواحها، لست أحمل عليك من العتب فوق ما يحتمله ذنبك، ولا أنظر إليك بالعين التى نظر بها إليك القاضى الذى قسا فى حكمه عليك، لأنى أعتقد أن لك شركاء فى جريمتك. فلابد لى من أن أنصفك، وإن كنت لا أستطيع أن أنفعك.

شريكك فى الجريمة أبوك، لأنه لم يتعهدك بالتربية فى صغرك، ولم

يحل بينك وبين مخالطة المجرمين، بل كثيراً ما كان يبخبخ[١] لك إذا رآك هجمت على تربك وضربته، ويصفق لك إذا رأى أنك قد تمكنت من اختلاس درهم من جيب أخيك، أو اختطاف لقمة من يده، فهو الذى غرس الجريمة فى نفسك وتعهدها بالسقيا حتى أينعت ونمت وأثمرت لك هذا الحبل الذى أنت معلق به اليوم، وها هو ذا الآن يذرف عليك العبرات، ويصعد الزفرات، ولو عرف أنها جريمته، وأنها غرس يمينه لضحك مسروراً بغفلة الشرائع عنه وسجد لله شكراً على أن لم يكن حبلك فى عنقه وجامعتك[٢] فى يده.

شريكك فى الجريمة هذا المجتمع الإنسانى الفاسد الذى أغراك بها، مهد لك السبيل إليها، فقد كان يسميك شجاعًا إذا قتلت، وذكيًا فطنًا إذا سرقت، وعالـمًا إذا احتلت، وعاقلاً إذا خدعت، وكان يهابك هيبته للفاتحين، ويجلك إجلاله للفاضلين، وكثيراً ما كنت تحب أن ترى وجهك فى مرآته وجهًا أبيض ناصعًا، فتتمنى أن لو دام لك هذا الجمال؛ ولو أنه كان يؤثر نصحك ويصدقك الحديث عن نفسك لمثل لك جريمتك بصورتها الشوهاء، وهنالك ربما وددت يجدع الأنف لو طواك بطن الأرض عنها وحالت المنية بينك وبينها.

شريكك فى الجريمة حكومتك؛ لأنها كانت تعلم أن الجريمة هى الحلقة الأخيرة من سلسلة كثيرة الحلقات، وكانت تراك تمسك بها حلقة وتعلم ما سينتهى إليه أمرك فلا تضرب على يدك، ولا تعترض سبيلك؛ ولو أنها فعلت لما اجترمت، ولا وصلت إلى ما إليه وصلت.

كانت حكومتك تستطيع أن تعلمك وتهذب نفسك، وأن تغلق بين يديك أبواب الحانات والمواخير، وأن تحول بينك وبين مخالطة الأشرار بإبعادهم عنك وتشريدهم فى مجاهل الأرض ومخارمها.. وأن تعديك[٣] على قتيلك قبل أن يبلغ حقدك عليه مبلغه من نفسك.. وأن تحسن تأديبك فى الصغيرة قبل أن تصل إلى الكبيرة.. ولكنها أغفلت أمرك فنامت عنك

(١) بخبخ: قال له «بخ بخ».
(٢) الجامعة: الغل.
(٣) أعدى الأمير فلانًا على فلان، إذا نصره وأعانه عليه.

نومًا طويلاً. . حتى إذا فعلت فعلتك استيقظت على صوت صراخ المقتول. . وشمرت عن ساعدها لتمثل منظرًا من مناظر الشجاعة الكاذبة. . فاستصرخت جندها؛ واستنصرت قوتها وأعدت جذعها وجلادها؛ وكان كل ما فعلت أنها أعدمتك حياتك.

هؤلاء شركاؤك فى الجريمة. . وأقسم لو كنت قاضيًا لأعطيتك من العقوبة على قدر سهمك فى الجريمة ولجعلت تلك الجزوع قسمة بينك وبين شركائك ولكنى لا أستطيع أن أنفعك.

فيها أيها القتيل المظلوم: رحمة الله عليك.

الصدق والكذب

جاءنى هذا الكتاب من أحد الفضلاء.

يا صاحب النظرات:

سمعت بالصدق، وما وعد الله به الصادقين من حسن المثوبة وجزيل الأجر. . وسمعت بالكذب. . وما أعد الله للكاذبين من سوء العذاب وأليم العقاب. . وقرأت ما كتبه حكماء الأمم من عهد آدم إلى اليوم. . وإجماعهم أن الصدق فضيلة الفضائل والأصل الذى تتفرع عنه جميع الأخلاق الشريفة. . والصفات الكريمة. . وأنه ما تمسك به متمسك إلا كان النجاح فى أعماله ألصق به من ظله. . وأعلق به من نفسه. سمعت هذا وقرأت ذاك فلم يبق فى نفسى ريب فى ما أنا مرزوء به فى حظى من الشقاء، وعيشى من الضنك، وحياتى من الهموم والأكدار، إنما جرّه علىّ شؤم الكذب، وأن ما كنت أتخيله قبل اليوم من أن هناك مواقف يكون فيها الكذب أنفع من الصدق وأسلم عاقبة، إنما هو ضرب من ضروب الوهم الباطل. . ونزعة من نزعات الشيطان، فعاهدت الله ونفسى ألا أكذب ما حييت، وأعددت لذلك القسم العظيم عدته من شجاعة نفس وقوة عزيمة بعدما وجهت وجهى إلى الله تعالى وسألته أن يمدنى بمعونته ونصره.

ها أنا ذاكر لك مواقف الصدق التى وقفتها بعد ذلك العهد، وما رأيته من آثارها ونتائجها.

الموقف الأول: جلست فى حانوتى فما وقف بى مساوم إلا صدقته القول فى الثمن الذى اشتريت به السلعة والربح الذى أريده لنفسى منها والذى لا أستطيع أن أعد نفسى رابحًا إذا تجاوزت عن بعضه.. فيأبى إلا الحطيطة[١] فآباها عليه، فينصرف عنى استثقالاً للثمن واستعظامًا لقدره، وما هو إلا الربح الذى اعتدت أن آخذه منه فى مثل تلك الصفقة، إلا أننى كنت أكذب عليه فى أصل الثمن فيصغر فى نظره الربح، فلما صدقته عنه أعظمه وانصرف عنى إلى سواى، ولم أزل على هذه الحال حتى أظلنى الليل، ولم يفتح الله علىَّ بقوت يومى، وما هى إلا أيام قلائل حتى عرفت فى السوق بالطمع والمغالاة فأصبحت لا يطرق باب حانوتى طارق.

الموقف الثانى: جلست فى مجلس يتصدره شيخ من تجار العقول الضيقة المعروفين بمشايخ الطرق.. وقد حف به جماعة من عبدته وسدنة[٢] هيكله فسمعته يشرح لهم معنى التوكل شرحًا غريبًا يذهب فيه إلى أنه القعود عن العمل، وإلقاء حبل هذا الوجود على غاربه، وإعراض عن كل سعى يؤدى إلى أية غاية، ويعتمد فى هذيانه هذا على آيات يؤولها كما يشاء، وأحاديث لا يستند فى صحتها على مستند سوى أنه سمعها من شيخه، أو قرأها فى كتابه، وأكثر ما كان يدور على لسانه حديث **«لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا»**[٣]. فقلت له، وقد أخذ الغيظ من نفسى مأخذه: يا شيخ: أردت أن تحتج لنفسك فاحتججت عليها، أتعمد إلى حديث يستدل به رواته على وجوب السعى والعمل فتستدل به على البطالة والكسل، ألم تر أن الله سبحانه وتعالى ما ضمن للطير الرواح بطانًا إلا بعد أن أمرها بالغدو، وهى التى ترويها القطرة، وتشبعها الحبة، فكيف لا يأمر الإنسان بالسعى، وهو من لا تفنى مطالبه، ولا تنتهى رغباته؟

---

(١) الحطيطة: ما يحط من الثمن.

(٢) السادان: خادم الهيكل أو خادم الكعبة والمراد به الحاجب، والجمع: سدنة.

(٣) الخماص جمع خميص، وهو ضامر البطن، والبطان جمع بطين، وهو ممتلئ البطن.

أيها القوم، إنكم تقولون بألسنتكم ما ليس فى قلوبكم، إنكم عجزتم عن العمل، وأخلدتم إلى الكسل، وأردتم أن تقيموا لأنفسكم عذراً يدفع عنكم هاتين الوصمتين فسميتم ما أنتم فيه توكلاً، وما هو إلا العجز الفاضح، والإسفاف الدنىء.

وهنا زفر الشيخ زفرة الغيظ، ونادى فى قومه: أن أخرجوا هذا الزنديق الملحد من مجلسى، فتألبوا علىَّ تألبهم على قصاع الثريد، وأوسعونى لطمًا وصفعًا، ثم رموا بى خارج الباب، فما بلغت منزلى حتى هلكت أو كدت، فما مررت بعد ذلك بطائفة من العامة إلا رمونى بالنظر الشزر، وعاذوا بالله من رؤيتى كما يعوذون به من الشيطان الرجيم.

الموقف الثالث: لا أكتمك يا سيدى، أنى كنت أبغض زوجتى بغضًا يتصدع له القلب، غير أنى كنت أصانعها وأتودد إليها وأمنحها من لسانى ما ليس له أثر فى قلبى، مداورة لها وإبقاء على ما تحتويه يدى من صبابة مال كانت لها، فرأيت أن ذلك أكذب الكذب وأقبحه، فآليت على نفسى ألا أسدل بعد اليوم من دونها حجابًا يحول بينها وبين سريرتى، فانقطع عن مسمعها ذلك السلسبيل العذب من كلمات الحب، فاستوحشت منى وأظلم ما بينى وبينها، فما هى إلا عشية أو ضحاها، حتى وهنت تلك العقدة، وانحل ذلك الوثاق، وختمت سورة الفراق بآية الطلاق.

الموقف الرابع: حضرت مجتمعًا يضم بين حاشيته جماعة من الفضوليين الذين تضيق بهم مذاهب القول فيلجأون إلى الحديث عن الناس وتتبع عثراتهم، ويحاولون أن ينبشوا دفائن صدورهم، ويتغلغلوا فى أطواء[1] سرائرهم؛ ويغالون فى ذلك مغالاة الكميائى فى تحليله وتركيبه، فرأيتهم يتناولون بألسنتهم رجلاً عظيمًا من أصحاب الآراء السياسية لا أعتقد أن بين السالكين مسلكه والآخذين أخذه من أخلص لأمته إخلاصه، أو وقف المواقف المشهورة وقوفه؛ أو لاقى فى ذلك السبيل من صدمات الدهر وضربات الأيام ما لاقاه، سمعتهم يسمونه خائنًا، فوالله لأن تقع السماء على الأرض أحب

(١) أطواء الثوب: طرائقه ومكاسر طيه.

إلىّ من أن يتهم البرىء أو يجازى المحسن سوءًا على إحسانه؛ سمعت ما لم أملك نفسى معه؛ فقلت يا قوم، أتطالعون من كتاب الحرية مائة صفحة ونيفًا(١) ثم لا تزالون عبيد الأوهام، أسرى الخيالات، سراعًا إلى كل داع، سعاة مع كل ساع، تنظرون بغير روية، وتحكمون بغير علم، إنكم بعملكم هذا تزهدون المحسن فى إحسانه؛ وتلقون الرعب فى قلب كل عامل يعمل لأجلكم؛ وتثبطون همة كل من يحدث نفسه بخدمتكم وخدمة قضيتكم؛ أليس مما يلقى فى النفس اليأس من نجاحكم وصلاح حالكم، أن نراكم طعمة كل آكل؛ ولعبة كل لاعب، ويستهويكم الكاذب بالكلمات التى تستهوى بها المرضعات أطفالهن ثم يدعوكم إلى مناوأة الصادق فتمنحون الأول ودكم وإخلاصكم، والثانى بغضكم وموجدتكم. خاطبتهم بهذه الكلمات أريد بها خيرًا لهم، فأرادوا شرًا بى! فما خلصت من بينهم إلا وأنا ألمس رأسى بيدى لأعلم أين مكانها من عنقى!

الموقف الخامس: قابلنى فى الطريق شاعر يحمل فى يده طومارًا(٢) كبيرًا كنت ذاهبًا إلى موعد لابد لى من الوفاء به، فرض علىَّ أن يسمعنى قصيدة من طريف شعره، وأنا أعلم الناس بطريفه وتليده، فاستعفيته بعد أن كاشفته بعذرى فأبى، فانتحيت به ناحية من الطريق فأنشأ يترنم بالقصيدة بيتًا بيتًا، وأنا أشعر كأنما يجرعنى السم قطرة قطرة، حتى تمنيت أنه لو ضربنى بها جملة واحدة يكون فيها انقضاء أجلى ليريحنى من هذا العذاب المتقطع والتمثيل الفظيع، وكلما أتى على بيت منها أقبل علىَّ بوجهه، وأطال النظر فى وجهى وحدق فى عينى، ليعلم كيف كان وقع شعره من نفسى، فإذا رأى تقطيب وجهى ظنه تقطيب الشارب لارتشاف الكأس فيستمر فى شأنه حتى أنشد نحو خمسين بيتًا، ثم وقف وقال: هذا هو القسم الأول من أقسام القصيدة، فقلت؛ وكم عدد أقسامها يرحمك الله؟ قال: عشرة ليس فيها أصغر من أولها، قلت: أتأذن لى أن أقول لك يا سيدى إن شعرك قبيح، وأقبح منه طوله، وأقبح منه هذا وذاك صوتك الخشن الأجش، وأقبح الثلاثة

---

(١) يريد أن تاريخ الحرية فى مصر قرن ونيف.

(٢) الطومار: الصحيفة.

اعتقادك أنى من سخافة الرأى وفساد الذوق بحيث يعجبنى مثل هذا الشعر البارد عجبًا يسهل علىّ فوات الغرض الذى ما خرجت من منزلى إلا لأجله. . فتلقانى بضربة بجمع يده[1] فى صدرى، فرفعت عصاى وضربته بها على رأسه ضربة ما أردت بها -يعلم الله- إلا أن أصيب مركز الشعر من مخه فأفسده عليه فسقط مغشيًا عليه. وسقطت القصيدة من يده فأسرعت إليها ومزقتها، وأرحت نفسى منها، وأرحت الناس من مثل مصيبتى فيها، وكان الشرطى قد وصل إلينا فاحتملنا جميعًا إلى المخفر ثم إلى السجن حيث أكتب إليك كتابى هذا.

فيا صاحب النظرات أفتنى فى أمرى، وأنر ظلمة نفسى، فقد أشكل علىّ الأمر، وأصبت أسوأ الناس بالصدق ظنًا، بعدما رأيت أنى ما وقفت موقفه فى حياتى إلا خمس مرات، فكانت نتيجة ذلك إفلاسى وخراب بيتى، واتهامى بالخيانة مرة والزندقة أخرى؛ ذلك إلى ما أقاسيه اليوم فى هذا السجن من أنواع الآلام، وصنوف الأقسام.

أيها السجين:

كتبت إلىّ -مسح الله ما بك، وألهمت صواب الرأى فى حاليك- تشكو من جناية الصدق عليك ما وقف بك موقف الشك فى أمره، وكاد يزلق بك إلى الاعتقاد أنه رذيلة الرذائل لا فضيلة الفضائل، وما كان لك أن تجعل لليأس هذا السبيل إلى نفسك، وأن يبلغ بك الجزع من نكبات العيش وضربات الأيام مبلغًا يذهب برشدك، ويطير بلبك؛ فما أنت بأول صادق فى الأرض ولا بأول من لقى فى سبيل الصدق شرًا؛ وكابد ضرًا.

إنك لو فهمت معنى الفضيلة حق الفهم وصبرت على مراراتها حق الصبر لذقت من حلاوتها ما تقطع دونه أعناق الرجال.

ليست الفضيلة وسيلة من وسائل العيش أو كسب المال، وإنما هى حالة من حالات النفس تسمو بها إلى أرقى درجات الإنسانية وتبلغ بها غاية الكمال.

---

(١) جمع اليد: هيئتها حين تقبضها.

إن الذى يطلب الفضيلة ليستكثر بها ماله، أو يرفه بها عيشه، يحتقرها ويزدريها؛ لأنه لا يفرق بينها وبين سلعة التاجر وآلة الصانع.

ليس من صواب الرأى أن يجعل الإنسان حالة عيشه ميزانًا يزن به أخلاقه فإن اتسع عيشه اطمأن إليها، وإن ضاق أساء الظن بها، فكم رأينا بين الفاضلين أشقياء، وبين الأرذلين كثيرًا من ذوى النعمة والثراء!

لا يستطيع الرجل الفاضل أن يبلغ غايته من عيشه إلا إذا استطاع أن ينزل من نفوس الناس منازل الحب والإكرام، ولن يستطيع ذلك إلا إذا عاش بين قوم يعرفون الفضيلة ويعظمون شأنها، ولن يكونوا كذلك إلا إذا كانوا فضلاء أو أشباه فضلاء، والسواد الأعظم الذى يمسك بيده أسباب العيش ويملك ينابيعه: سواد أبله ساذج يبغض الصادق لأنه يصادره فى ميوله وأهوائه وينقم منه جهله وغباوته، ويحب الكاذب لأنه لا يزال يزين له أمره حتى يحبب إليه نفسه، فلابد للصادق من صدر يسع هموم العيش، وقلب يحمل بغض القلوب ليبلغ غايته من إصلاح النفوس وتهذيبها كما يبذل المجاهد حياته ودمه ليبلغ غايته من الفوز والانتصار.

الصدق جنة حفت بالمكاره، فإن كان للصادق فى جنة الصدق أرب فليحمل فى سبيلها ما حمله الأنبياء والمرسلون والحكماء والقائمون بإصلاح المجتمع الإنسانى ودعاة المطالب الدينية والسياسية.

كما أن الجود يفقر والإقدام قتال، وكما أن لكل فضيلة من الفضائل آفة من الآفات توعر طريقها وتبعد منالها إلا على أيدى الصابرين المخلصين، كذلك للصدق آفة من مصادقة الكاذبين وهم الأكثرون، للصادقين وهم الأقلون.

أتريد أيها الرجل أن تسمى صادقًا، وأن تنال أشرف لقب يستطيع أن يناله بشر، وأن يوافيك المجد طائعًا مذعنًا دون أن تبذل فى سبيله شيئًا من مالك أو راحتك؟

إنك إن أردت ذلك أو قدرته فى نفسك؛ تظلم الفضيلة ظلمًا بينًا وترخص قيمتها وتلق بها فى مدارج الطرق وتحت مواطئ النعال.

أيحزنك انصـراف الأغنياء عن حانوتك أو اتهامك بالزنـدقة والإلحاد أو المروق والخيانة، وترى أن ذلك كثيـر فى سبيل بلوغك منزلة الصدق وإحرازك فضيلته، وأنت تعلم أن الفاضلين قد بذلوا من قبلك أكثر مما بذلت، فى سبيل إحراز ما أحرزت، فما ندموا ولا حزنوا؟

أيها السجين الشريف:

هنيئًا لك السجن الذى تكابده، وهنيئًـا لك البغض الذى تحتمله، وهنيئًا العيش الذى تعـالج همومه، فوالله لأنت أرفع فى نظرى من كـثير من أولئك الذين يعدهم الناس سعداء، ويسمونهم عظماء.

لا تظلم الصـــدق ولا تكن سىء الظن به، وكن أحـــرص الناس على ولائه ومودته، وإياك أن يخـدعك عنه خادع، واصبـر قليلاً يثمر لك غـرسه ويمتد عليك ظله، وهنالك تجد فى نفسك من اللذة والغبطة ما لو بذل فيه ذوو التيجان تيجانهم، وأرباب الكنوز كنوزهم، لما استطاعوا إليه سبيلاً.

النظامـــون

ما لهؤلاء النظامين لا يهدئون سـاعة واحدة عن تصديع رؤوسنا وتمزيق أفئدتنا بهـذه الصواعق التى يمطرونها علينا كل يوم من سمـاء الصحف، حتى صرنا كلما فتحنا صحيفة ورأينا فى وسطها جدولاً أبيض مستطيلاً تخيلناه حية رقطاء، ففزعنا وألقينا الصحيفة كما ألقاها الشاعر المتلمس لينجو بنفسه ويسلم بحياته.

من لى بذلك القلم العـريض الذى يكتب به كتاب الصـحف السياسـية عناوين مقالاتهم فى معرض التهويل والتفخيم، فأكتب به إلى هؤلاء المساكين هذه الكلمة الآتية:

أيها الـقوم: إن علماء الـضاد الذين عرفـوا الشعـر بأنه الكلام الموزون المقفى، لم يكـونوا شعراء ولا أدباء ولا يعـرفون من الشعـر أكثـر من إعرابه

وبنائه واشتقاقه وتصريفه، وإنما جروا فى ذلك التعريف مجرى علماء العروض الذين لا مناص لهم من أن يقفوا فى تعريف الشعر عند هذا القدر مادام لا يتعلق لهم غرض منه بغير أوزانه وقوافيه وعلله وزحافاته.

لا تظنوا أن الشعر كما تظنون، وإلا لاستطاع كل قارئ بل كل ناطق أن يكون شاعرًا؛ لأنه لا يوجد فى الناس من يعجزه تصور النغمة الموسيقية والتوقيع عليها من أخصر طريق.

أيها القوم: ما الشعر إلا روح يودعها الله فطرة الإنسان من مبدأ نشأته ولا تزال كامنة فيه كمون النار فى الزند حتى إذا شدا[١] فاضت على أسلات أقلامه[٢] كما تفيض الكهرباء على أسلاكها، فمن أحس منكم بهذه الروح فى نفسه فليعلم أنه شاعر، أو لا فليكف نفسه مؤنة التخطيط والتسطير، وليصرفها إلى معاناة ما يلائم طبعه ويناسب فطرته من أعمال الحياة، فوالله للمحراث فى يد الفلاح، والقدوم فى يد التجار، والمسبر فى يد الحداد: أشرف وأنفع من القلم فى يد النظام.

فإن غم عليكم الأمر، وأعجزكم أن تعلموا مكان تلك الروح الشعرية من نفوسكم، فأعرضوا أنفسكم على من يرشدكم إليكم ويدلكم عليكم، حتى تكونوا على بينة من أمركم.

الحرية

استيقظت فجر يوم من الأيام على صوت هرة تموء[٣] بجانب فراشى وتتمسح بى، وتلح فى ذلك إلحاحًا غريبًا، فرابنى أمرها، وأهمنى همها وقلت: لعلها جائعة، فنهضت، وأحضرت لها طعامًا فعافته، وانصرفت عنه. فقلت: لعلها ظمآنة، فأرشدتها إلى الماء فلم تحفل به وأنشأت تنظر إلىَّ

(١) شدا: أخذ طرفًا من الأدب والعلم.
(٢) الأسلات جمع أسلة: وهى نبات رقيق الغصن.
(٣) المواء: صوت الهرة.

نظرات تنطق بما تشتمل عليها نفسى من الآلام والأحزان، فأثر فى نفسى منظرها تأثيراً شديداً، حتى تمنيت أن لو كنت سليمان أفهم لغة الحيوان، لأعرف حاجتها، وأفرج كربتها، وكان باب الغرفة مرتجًا، فرأيت أنها تطيل النظر إليه وتلتصق بى كلما رأتنى أتجه نحوه، فأدركت غرضها وعرفت أنها تريد أن أفتح لها الباب، فأسرعت بفتحه فما وقع نظرها على الفضاء، ورأت وجه السماء، حتى استحالت حالتها من حزن وهم إلى غبطة وسرور، وانطلقت تعدو فى سبيلها، فعدت إلى فراشى وأسلمت رأسى إلى يدى، وأنشأت أفكر فى أمر هذه الهرة، وأعجب لشأنها وأقول: ليت شعرى هل تفهم هذه الهرة معنى الحرية فهى تحزن لفقدانها وتفرح بلقياها؟ أجل. إنها تفهم معنى الحرية حق الفهم، وما كانِ حزنها وبكاؤها وإمساكها عن الطعام والشراب إلا من أجلها، وما كان تضرعها ورجاؤها وتمسحها وإلحاحها إلا سعيًا وراء بلوغها.

وهنا ذكرت أن كثيراً من أسرى الاستبداد من بنى الإنسان لا يشعرون بما تشعر به الهرة المحبوسة فى الغرفة، والوحش المعتقل فى القفص، والطير المقصوص الجناح من ألم الأسر وشقائه، بل ربما كان بينهم من يفكر فى وجهه الخلاص أو يتلمس السبيل إلى النجاة مما هو فيه، بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء فى هذا السجن ويأنس به ويتلذذ بآلامه وأسقامه.

من أصعب المسائل التى يحار العقل البشرى فى حلها: أن يكون الحيوان الأعجم أوسع ميدانًا فى الحرية من الحيوان الناطق، فهل كان نطقه شؤمًا عليه وعلى سعادته؟ وهل يجمل به أن يتمنى الخرس والبله ليكون سعيدًا بحريته كما كان سعيدًا بها قبل أن يصبح ناطقًا مدركًا؟

يحلق الطير فى الجو، ويسبح السمك فى البحر، ويهيم الوحش فى الأودية والجبال، ويعيش الإنسان رهين المحبسين: محبس نفسه ومحبس حكومته من المهد إلى اللحد.

صنع الإنسان القوى للإنسان الضعيف سلاسل وإغلالاً، وسماها تارة ناموسًا وأخرى قانونًا، ليظلمه باسم العدل، ويسلب منه جوهرة حريته باسم الناموس والنظام.

صنع له هذه الآلة المخيفة، وتركه قلقًا حذرًا، مروع القلب، مرتعد الفرائص يقيم من نفسه على نفسه حراسًا تراقب حركات يديه وخطوات رجليه وحركات لسانه وخطرات وهمه وخياله، لينجو من عقاب المستبد ويتخلص من تعذيبه، فويل له ما أكثر جهله! وويح له ما أشد حمقه؟ وهل يوجد فى الدنيا عذاب أكبر من العذاب الذى يعالجه؟ أو سجن أضيق من السجن الذى هو فيه؟

ليست جناية المستبد على أسيره أنه سلبه حريته، بل جنايته الكبرى عليه أنه أفسد عليه وجدانه، فأصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية، ولا يذرف دمعة واحدة عليها.

لو عرف الإنسان قيمة حريته المسلوبة منه وأدرك حقيقة ما يحيط بجسمه وعقله من القيود، لانتحر كما ينتحر البلبل إذا حبسه الصياد فى القفص، وكان ذلك خيرًا له من حياة لا يرى فيها شعاعًا من أشعة الحرية، ولا تخلص إليه نسمة من نسماتها.

كان فى مبدأ خلقه يمشى عريانًا، أو يلبس لباسًا واسعًا يشبه أن يكون ظلة تقية لفحة الرمضاء، أو هبة النكباء، فوضعوه فى القماط كما يضعون الطفل، وكفنوه كما يكفنون الموتى، وقالوا له: هكذا نظام الأزياء.

كان يأكل ويشرب كل ما تشتهيه نفسه وما يلتئم مع طبيعته، فحالوا بينه وبين ذلك، وملأوا قلبه خوفًا من المرض أو الموت، وأبوا أن يأكل أو يشرب إلا كما يريد الطبيب، وأن يتكلم أو يكتب إلا كما يريد الرئيس الدينى أو الحاكم السياسى، وأن يقوم أو يقعد أو يمشى أو يقف أو يتحرك أو يسكن، إلا كما تقضى به قوانين العادات والمصطلحات.

لا سبيل إلى السعادة فى الحياة، إلا إذا عاش الإنسان فيها حرًا مطلقًا، لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره مسيطر إلا أدب النفس.

الحرية شمس يجب أن تشرق فى كل نفس، فمن عاش محرومًا منها عاش فى ظلمة حالكة، يتصل أولها بظلمة الرحم، وآخرها بظلمة القبر.

الحرية هى الحياة، ولولاها لكانت حياة الإنسان أشبه شيء بحياة اللعب المتحركة فى أيدى الأطفال بحركة صناعية.

ليست الحرية فى تاريخ الإنسان حادثًا جديدًا، أو طارئًا غريبًا؛ وإنما هى فطرته التى فطر عليها مذ كان وحشًا يتسلق الصخور، ويتعلق بأغصان الأشجار.

إن الأشجار الذى يمدّ يديه لطلب الحرية ليس بمتسوِّل ولا مستجد، وإنما هو يطلب حقًا من حقوقه التى سلبته إياها المطامع البشرية، فإن ظفر بها فلا منة لمخلوق عليه، ولا يد لأحد عنده.

عبرة الهجرة

إن فى أخلاق النبى -ﷺ-، وسجاياه التى لا تشتمل على مثلها نفس بشرية ما يغنيه عن كل خارقة تأتيه من الأرض أو السماء، أو الماء أو الهواء.

إن ما كان يبهر العرب من معجزات علمه وحلمه وصبره واحتماله وتواضعه وإيثاره، وصدقه وإخلاصه، أكثر مما كان يبهرهم من معجزات تسبيح الحصى وانشقاق القمر، ومشى الشجر، ولين الحجر؛ وذلك لأنه ما كان يريبهم فى الأولى ما كان يريبهم فى الأخرى من الشبه بينها وبين عرافة العرافين وكهانة الكهنة، وسحر السحرة، فلولا صفاته النفسية وغرائزه وكمالاته ما نهضت له الخوارق بكل ما يريده، ولا تركت له المعجزات فى نفوس العرب ذلك الأثر الذى تركته، ذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[1].

كان -ﷺ- شجاع القلب، فلم يهب أن يدعو إلى التوحيد قومًا مشركين يعلم أنهم غلاظ جفاف شرسون متنمرون، يغضبون لدينهم غضبهم لأعراضهم، ويحبون آلهتهم حبهم لأبنائهم.

(١) سورة آل عمران: ١٥٩.

كان على ثقة من نجاح دعوته، فكان يقول لقريش -أشد ما كانوا هزءاً به وسخرية-: **«يا معشر قريش، والله لا يأتى عليكم غير قليل حتى تعرفوا ما تنكرون، وتحبوا ما أنتم له كارهون»**.

كان حليمًا سمح الأخلاق فلم يزعجه أن كان قومه يؤذونه ويزدرونه ويشعثون[1] منه ويضعون التراب على رأسه، ويلقون على ظهره أمعاء الشاة وسلى[2] الجزور، وهو فى صلاته، بل كان يقول: **«اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون»**.

كان واسع الأمل كبير الهمة صلب النفس، لبث فى قومه ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله فلا يلبى دعوته إلا الرجل بعد الرجل، فلم يبلغ الملل من نفسه، ولم يخلص اليأس إلى قلبه، فكان يقول: **«والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»**.

وما زال هذا شأنه حتى علم أن مكة لن تكون مبعث الدعوة، ولا مطلع تلك الشمس المشرقة، فهاجر إلى المدينة فانتقل الإسلام بانتقاله من السكون إلى الحركة، ومن طور الخفاء إلى طور الظهور.

لذلك كانت الهجرة مبدأ تاريخ الإسلام لأنها أكبر مظهر من مظاهره، وكانت عيدًا يحتفل به المسلمون فى كل عام لأنها أجمل ذكرى للثبات على الحق والجهاد فى سبيل الله.

لقد لقى -ﷺ- فى هجرته عناء كثيراً ومشقة عظمى، فإن قومه كانوا يكرهون مهاجرته لا ضنًا به، بل مخافة أن يجد فى دار هجرته من الأعوان والأنصار ما لم يجد بينهم، كأنما يشعرون بأنه طالب حق، وأن طالب الحق لابد أن يجد بين المحقين أعوانًا وأنصاراً، فوضعوا عليه العيون والجواسيس فخرج من بينهم ليلة الهجرة متنكراً بعدما ترك فى فراشه ابن عمه على بن أبى طالب -رضي الله عنه-، عبثًا بهم وتضليلاً لهم عن اللحاق به، ومشى هو

(١) يقال شعث فلان من فلان: تنقصه.

(٢) السلى للدواب بمنزلة المشيمة للإنسان.

وصاحبه أبو بكر -رضي الله عنه- يتسلقان الصخور، ويتسربان فى الأغوار والكهوف، ويلوذان بأكناف الشعاب والهضاب، حتى انقطع عنهما الطلب وتم لهما، ما أرادا بفضل الصبر والثبات على الحق.

إن حياة النبى -ﷺ- أعظم مثال يجب أن يحتذيه المسلمون للوصول إلى التخلق بأشرف الأخلاق والتحلى بأكرم الخصال، وأحسن مدرسة يجب أن يتعلموا فيها كيف يكون الصدق فى القول والإخلاص فى العمل والثبات على الرأى وسيلة إلى النجاح وكيف يكون الجهاد فى سبيل الحق سببًا فى علوه على الباطل.

لا حاجة لنا بتاريخ حياة فلاسفة اليونان وحكماء الرومان وعلماء الإفرنج، فلدينا فى تاريخنا حياة شريفة مملوءة بالجدِّ والعمل، والبر والثبات والحب والرحمة، والحكمة والسياسة، والشرف الحقيقى، والإنسانية الكاملة، وهى حياة نبينا -ﷺ-، وحسبنا بها وكفى.

الإنصـــاف

إذا كان لك صديق تحبه وتواليه، ثم هجمت منه على ما لم يحل فى نظرك، ولم يتفق مع ما علمت من حاله، وما أطرد عندك من أعماله، أو كان ذلك عدو تذم طباعه، وتنقم منه شئونه، ثم برقت لك من جانب أخلاقه بارقة خير فتحدثت بما قام فى نفسك من مؤاخذة صديقك على الخصلة التى ذممتها وحمد عدوك على الخلة التى حمدتها، عدك الناس متلونًا أو مخادعًا أو ذا وجهين تمدح اليوم من تذم بالأمس، وتذم فى ساعة من تمدح فى أخرى، وقالوا: إنك تظهر ما لا تضمر، وتخفى غير الذى تبدى، ولو أنصفوك لأعجبوا بك وبصدقك، ولأكبروا سلامة قلبك من هوى النفس وضلالها، ولسموا ما بدا لهم منك اعتدالاً لا نفاقًا، وإنصافًا لا خداعًا، لأنك لم تغل فى حب صديقك غلو من يعميه الهوى عن رؤية عيوبه، ولم تتمسك من

صداقته بالسبب الضعيف، فعنيت بتعـهد أخلاقه، وتفقد خلاله، لإصلاح ما فسد من الأولى، واعوج من الأخرى.

إن صـديقك الذى يبـسم لك فى حـالى رضـاك وغـضـبك، وحلمك وجهلك، وصـوابك وسقطك، ليس ممن يغـتبط بمودته، أو يوثق بصداقـته، لأنه لا يصلح أن يكون مـرآتك التى تتراءى فـيهـا فتكشف لك عن نفـسك، وتصدقك عن زينك وشينك وحلوك ومرك، وهو إما جـاهل متهور فى ميوله وأهوائه، فلا يرى غـير ما تريد أن ترى نفسه، لا مـا لا يجب أن تراه؛ وإما منافق مـخادع قـد علم أن هواك فى الصـمت عن عـيوبك وتجـرير الذيول، فجاراك فيما تريد، ليبلغ منك ما يريد.

فها أنت ذا ترى أن الناس يعكسون القضايا، ويقبلون الحقائق، فيسمون الصادق كاذبًا، والكاذب صادقًا؛ ولكن الناس لا يعلمون.

المدنيـة الغربيـة

سأودِّع فى هذه النظرة الخـيال والشعـر، وداع من يعلم أن الأمر أعظم شـأنًا وأجل خطرًا من أن يعبـث فيـه العابث بأمـثـال هذه الطرائف التى هى بالهزل أشبه منها بالجد، والتى إنما يلهو بها الكاتب فى مواطن فراغه ولعبه لا فى مواطن جدِّه وعمله.

إن فى أيدينا مـعشـر الكتاب من نفـوس هذه الأمة وديعـة يجب علينا تعهدها والاحتفاظ بها والحدب عليها حتى نؤديها إلى أخلافنا من بعدنا، كما أداها إلينا أسلافنا سالمة غـير مأروضة[1] ولا متآكلة، فـإن فعلنا فذاك، أو لا فرحمة الله على الصدق والوفاء، وسلام على الكتاب الأمناء.

الأمة المصرية أمة مسلمة شرقية، فيـجب أن يبقى لها دينها وشرقيتها ما جرى نيلها فى أرضها، وذهبت أهرامها فى سـمائها، حتى تبدل الأرض غير الأرض والسموات.

---

(١) الخشب المأروض: الذى أكلته الأرضة.

إن خطوة واحدة يخطوها المصرى إلى الغرب تدنى إليه أجله، وتدنيه من مهوى سحيق يقبر فيه قبراً لا حياة له من بعده إلى يوم يبعثون.

لا يستطيع المصرى وهو ذلك الضعيف المستسلم أن يكون من المدنية الغربية إن داناها إلا كالغربال من دقيق الخبز، يمسك خشاره ويفلت لبابه، أو الراووق[1] من الخمر، يحتفظ بعقاره، ويستهين برحيقه؛ فخير له أن يتجنبها جهده، وأن يفر منها فرار السليم من الأجرب.

يريد المصرى أن يقلد الغربى فى نشاطه وخفته، فلا ينشط إلا فى غدواته وروحاته، وقعدته وقومته، فإذا جد الجد وأراد نفسه على أن يعمل عملاً من الأعمال المحتاجة إلى قليل من الصبر والجلد، دب الملل إلى نفسه دبيب الصهباء فى الأعضاء والكرى بين أهداب الجفون.

يريد أن يقلده فى رفاهيته ونعمته فلا يفهم منهما إلا أن الأولى التأنث فى الحركات، الثانية الاختلاف إلى مواطن الفسق ومخابئ الفجور.

يريد أن يقلده فى الوطنية فلا يأخذ منها إلا نعيقها ونعيبها، وضجيجها وصفيرها، فإذا قيل له: هذه المقدمات، فأين النتائج؟ أسلم رجليه إلى الرياح الأربع واستن فى فراره استنان المهر الأرن[2] فإذا سمع صفير الصافر مات وجلاً، وإذا رأى غير شىء ظنه رجلاً.

يريد أن يقلده فى السياحة، فلا يزال يترقب فصل الصيف ترقب الأرض الميتة فصل الربيع، حتى إذا حان حينه طار إلى مدن أوربا طيران حمام الزاجل لا يبصر شيئًا مما حوله، ولا يلوى على شىء مما وراءه، حتى يقع على مجامع اللهو ومكان الفجور، وملاعب القمار، وهناك يبذل من عقله وماله ما يعود من بعده فقير الرأس والجيب، لا يملك من الأول ما يقوده إلى طريق السفينة التى تحمله فى أوبته، ولا من الثانى أكثر من الجعالة التى يجتعلها منه صاحب الجريدة ليكتب له بين حوادث صحيفته، حادثة عودته موشاة بجمل الإجلال والاحترام مطرزة بوشائع الإكرام والإعظام.

---

(١) الراووق: المصفاة.

(٢) الأرن: النشيط.

يريد أن يقلده فى العلم، فلا يعرف منه إلا كلمات يرددها بين شدقيه ترديدًا لا يلجأ فيه إلى ركن من العلم وثيق، ولا يعتصم به من جهل شائن.

يريد أن يقلده فى الإحسان والبر، فيترك جيرانه وجارته يطوون حنايا الضلوع على أمعاء تلتهب فيها نار الجوع التهابًا حتى إذا سمع دعوة إلى اكتتاب فى فاجعة نزلت فى القطب الشمالى أو كارثة ألمت بسد يأجوج ومأجوج سجل اسمه فى فاتحة الاكتتاب، ورصد هبته فى مستهل جريدة الحساب.

يريدن أن يقلده فى تعليم المرأة وتربيتها، فيقنعه من عملها مقال تكتبها فى جريدة أو خطبة تخطبها فى محفل؛ ومن تربيتها التفنن فى الأزياء، والمقدرة على استهواء النفوس، واستلاب الألباب.

هذا شأنه فى الفضائل الغربية، يأخذها صورة مشوهة وقضية معكوسة لا يعرف لها مغزى، ولا ينتحى بها مقصدًا، ولا يذهب فيها إلى مذهب، فيكون مثله كمثل جهلة المتدينين الذين يقلدون السلف الصالح فى تطهير الثياب، وقلوبهم ملأى بالأقذار والأكدار، ويجارونهم فى أداء صور العبادات، وإن كانوا لا ينتهون عن فحشاء ولا عن منكر، أو كمثل الذين يتشبهون بعمر فى ترقيع الثياب، وإن كانوا أحرص على الدنيا من صيارفة اليهود.

أما شأنه فى رذائلها فإنه أقدر الناس على أخذها كما هى، فينتحر كما ينتحر الغربى، ويلحد كما يلحد، ويستهتر فى الفسوق استهتاره، ويترسم فى الفجور آثاره.

إن فى المصريين عيوبًا جمة فى أخلاقهم وطباعهم، ومذاهبهم وعاداتهم، فإن كان لابد لنا من الدعوة إلى إصلاحها، فلندع إلى ذلك باسم المدنية الشرقية لا باسم المدنية الغربية.

إن دعوناهم إلى الحضارة فلنضرب لهم مثلاً بحضارة بغداد وقرطبة وثيبة وفينيقيا، لا باريس ورومة وسويسرا ونيويورك، وإن دعوناهم إلى مكرمة، فلنتل عليهم آيات الكتب المنزلة؛ وأقوال أنبياء الشرق وحكمائه، لا آيات روسو وباكون ونيوتن وسبنسر؛ وإن دعوناهم إلى حرب، ففى تاريخ خالد بن الوليد وسعيد بن أبى وقاص وموسى بن نصير، وصلاح الدين؛ ما يغنينا عن تاريخ نابليون وولنجتون وواشنطون ونلسن وبلوخر؛ وفى وقائع القادسية وعمورية وأفريقية والحروب الصليبية، ما يغنينا عن وقائع واترلوا وترافلغار وواسترليتز والسبعين.

إن عاراً على التاريخ المصرى أن يعرف المسلم الشرقى فى مصر من تاريخ بونابرت ما لا يعرف من تاريخ عمرو بن العاص، ويحفظ من تاريخ الجمهورية الفرنسية، ما لا يحفظ من تاريخ الرسالة المحمدية، ومن مبادئ ديكارت وأبحاث دارون ما لا يحفظ من حكم الغزالى وأبحاث ابن رشد، ويروى من الشعر لشكسبير وهوجو ما لا يروى للمتنبى والمعرى.

لا مانع من أن يعرب لنا المعربون المفيد النافع من مؤلفات علماء الغرب، والجيد الممتع من أدب كتابهم وشعرائهم، على أن ننظر فيه نظر الباحث المنتقد لا الضعيف المستسلم، فلا نأخذ كل قضية مسلمة، ولا نطرب لكل معنى أدبى طرباً متهوراً، ولا مانع من أن ينقل إلينا الناقلون شيئًا من عادات الغربيين ومصطلحاتهم فى مدنيتهم، على أن ننظر إليه نظر من يريد التبسط فى العلم والتوسع فى التجربة والاختبار، لا على أن نقلدها ونتقلدها ونتحلها قاعدتنا فى استحسان ما نستحسن من شئوننا، واستهجان ما نستهجن من عاداتنا.

وبعد. فليعلم كتاب هذه الأمة وقادتها: أنه ليس من عادات الغربيين وأخلاقهم الشخصية الخاصة بهم ما نحسدهم عليه كثيرًا. فلا يخدعون أمتهم عن نفسها، ولا يفسدوا عليها دينها وشرقيتها، ولا يزينوا لها تلك المدنية تزيينًا يرزؤها فى استقلالها النفسى، بعدما رزأتها السياسة فى استقلالها الشخصى.

يوم الحساب

ساهرت الكوكب ليلة أمس حتى ملنى ومللته وضاق كل منا بصاحبه ذرعًا، وقد وقف الهم بينى وبين الكرى أجذبه فيدفعه، وأدنيه فيبعده، حتى أسلس قياده، وسكن جماحه.

لم تخالط جفنى سنة الكرى حتى خيل إلىّ أنى قد انتقلت من العالم الأول إلى العالم الثانى، ورأيت كأنى بعثت بعد الموت وكأن أبناء آدم مجتمعون فى صعيد واحد يحاسبون على أعمالهم، فألهمت أنه موقف الحشر؛ وأنه يوم الحساب.

وأنشأت أمشى مشية الحائر الذاهل لا أعرف لى مذهبًا ولا مضطربًا، ولا أجد من يأخذ بيدى ويدلنى على نفسى فى هذا الموقف الذى ينشد فيه كل ذى نفس نفسه، فلا يجد إليها سبيلاً، فطفقت أتصفح وجوه الواقفين، وأقلب النظر فى الغادين والرائحين؛ علنى أجد صديقًا أستأنس به فى وحدتى؛ وأستعين بمرافقته على وحشتى، فلا أرى إلا خلقًا غريبًا، ومنظرًا عجيبًا، ووجوهًا ما رأيت لها فى حياتى شبيهًا ولا ضريبًا، ولولا أنى أعلم أن الحساب خاص بالإنسان لظننت أن الله يحاسب فى هذا الموقف جميع أنواع الحيوان.

هنالك وقد بلغ اليأس والهم مبلغهما من نفسى رأيت على البعد وجهًا يبتسم لى ويدنو منى رويدًا رويدًا؛ فأرقلت نحوه حتى بلغته فإذا صديقى «فلان» وإذا وجهه يتلألأ تلألؤ الكوكب فى علياء السماء؛ فسألته ما فعل الله به؟ فقال حاسبنى حسابًا يسيرًا ثم غفر لى، وها أنذا ذاهب إلى ما أعد الله لعباده الصالحين فى جنته من النعيم المقيم، فعجبت لشأنه وقلت فى نفسى: لقد هان أمر الحساب على كل عاص بعدما هان على هذا الذى كنت أعرفه فى أولاه: لا يتقى مأثمًا، ولا يهاب منكرًا؛ ولا يخرج من حان إلا إلى حان، ولا يودع مجمعًا من مجامع الفسق إلا على موعد من اللقاء، فنظر

إلىَّ نظرة العاتب اللائم وابتسم ابتسامة علمت منها أن الرجل قد ألم بما ضمرته فى نفسى، فذكرت أن قد كشف الغطاء فى هذه الدار؛ وأن قد رفع الحجاب بين الناس: فلا سر ولا جهر، ولا بطن ولا ظهر، ولا فرق بين حركات اللسان وخطرات الجنان، نظر إلىَّ تلك النظرة وقال: لا تعجب لأمر فى هذه الدار فكل ما فيها عجب، واعلم أن الله حاسبنى على كل ما كنت أجترح من الآثام فى الدار الأولى، إلا أنه وجد لى فى جريدة حسناتى حسنة ذهبت بجميع السيئات: ذلك أنه كان لى جار من ذوي النعمة والثراء والصلاح والخير والمروءة والبر، نكبه دهره نكبة ذهبت بماله، فأهمنى أمره وأزعجنى أن أراه فى مستقبل أيامه بائسًا معدمًا، يريق ماء وجهه على أعتاب الذين كان يسدى إليهم نعمته، فاحتلت على أن أدخل فى بيته خادمًا كانت فى بيتى، وجعلت لها جعلاً على أن تدس فى كيسٍ دراهمه كل ليلة خمسة دنانير من حيث لا يشعر بمأتاها، ولا يقف على سرِّها؛ وما زال هذا شأنى وشأنه، لا يعلم من أينِ يأتيه رزقه، ولا يشعر أحد من الناس باستحالة حاله، وذهاب ماله، حتى فرَّق الموت بينى وبينه، فما نفعنى عمل من أعمالى ما نفعنى هذا العمل، وما كان الإحسان وحده سبب سعادتى؛ بل كان سببها أنه أصاب الموضع وخلص من شائبة الرياء فهنأته بنعمة الله عليه وشكوت إليه وحشتى من الوحدة وخوفى من المحاسبة. فقال: أما الوحشة فلن أفارقك حتى يأتى دورك، أما الخوف فلا حيلة لى ولا لأحد من الناس فى نقض ما أبرم الله فى شأنك، فقلت: أنت من السعداء؛ فهل تستطيع أن تشفع لى أو تطلب لى شفاعة من ولى من الأولياء أو نبى من الأنبياء؟ قال: لا تطلب المحال، ولا تصدق كل ما يقال، فقد كنا مخدوعين فى الدار الأولى بتلك الآمال الكاذبة التى كان يبيعها لنا تجار الدين بثمن غال ولا يتقون الله فى غشنا وخداعنا؛ وما الشفاعة إلا مظهر من مظاهر الإكرام والتبجيل يختص به الله بعض المقرَّبين؛ فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن بالشفاعة لأحد إلا إذا كان بين أعمال المشفوع له أو فى أعمال سريرته ما يقتضى إيثاره بالمغفرة على غيره من العصاة والمذنبين، والله سبحانه وتعالى أجل من العبث وأرفع من المحاباة.

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى رأينا كوكبة من ملائكة العذاب تحيط برجل يساق إلى النار، ورأينا فى يد كل واحد منهم مقرعة من الحديد يقرع بها رأسه، وهو يصرخ ويقول: «أهلكتنى يا أبا حنيفة» فسألت صاحبى: ما ذنب الرجل؟ فقال: إنه كان فى حياته يتخذ فى أعماله ما يسمونه «الحيل الشرعية» فكان يهب لأحد أولاده على نية استرداده قبل أن يحول عليه الحول، ليتخلص من فريضة الزكاة، ويطلق زوجته ثلاثًا، ثم يأتى بمحلل يحللها له فيعود إلى معاشرتها؛ وكان يرابى باسم الرهن، فإذا جاءه من يريد أن يقترض منه مالاً أبى أن يقرضه إلا إذا وضع فى يده رهنًا، فإذا وضع يده على ضيعته ألزمه أن يستأجرها منه بمال كثير يراعى فيه النسبة التى يراعيها المرابون بين الربح وأصل المال؛ وكان إذا حلف لا يدخل بيتًا دخله من نافذته، أو لا يأكل رغيفًا أكله إلا لقمة منه، فذنبه أنه كان يعمد إلى الأحكام الشرعية فينتزع منها حكمها وأسرارها، ثم يرفعها إلى الله قشورًا جوفاء ليخدعه بها ويغشه فيها كما يفعل مع الأطفال والبله، مستندًا على تقليد أبى حنيفة أو غيره من كبار الأئمة، وأبو حنيفة أرفع قدرًا وأهدى بصيرة، من أن يتخذ هزؤًا وسخرية، وأن يكون ممن يهدمون الدين باسم الدين.

وما انقطع عنا صوت هذا الشقى، حتى رأيا شقيًا آخر ذا لحية طويلة كثة، قد أحاط به ملكان وشدًا عنقه بسبحة طويلة ذات حبات كبيرة، وقد أخذ كل منهما بطرف منها، وهو يهمهم بكلمات مبهمة فيقرعه أحدهما على رأسه ويقول له: «أمكر وأنت فى الحديد؟» فدنوت منه وأمعنت النظر فى وجهه فعرفته، فتراجعت ذعرًا وخوفًا وصحت: أيكون هذا من أشقياء الآخرة، وقد كان بالأمس من أقطاب الأولى! فقال لى صاحبى: إن هذا الذى كنت تحسبه فى أولاه من الأقطاب كان أكبر تاجر من تجار الدين، وما هذه اللحية والسبحة والهمهمة إلا حبائل كان ينصبها لاصطياد عقول الناس وأموالهم، ولكن الناس لا يعلمون.

وما زال المنصرفون من موقف القضاء يمرون بنا: هذا إلى جنته، وذاك إلى ناره، وأنا أسأل عن شأن كل منهم واحدًا فواحدًا فأرى سعيدًا من كنت أحسبه شقيًا، وشقيًا من كنت أحسبه سعيدًا، فسجلت أن الله سبحانه وتعالى

يحاسب الناس على قلوبهم، لا على جوارحهم، ويسألهم عن نياتهم، لا عن أفعالهم، وأن لا سعادة إلا الصدق، ولا شقاء إلا الكذب، وعلمت أن الله لا يغفر من السيئات إلا ما كان هفوة من الهفوات، يلم بها صاحبها إلمامًا، ثم يندم عليها، ورأيت أن أكبر ما يعاقب عليه جناية المرء على أخيه بسفك دمه أو هتك عرضه أو سلب ماله، وأن أضعف الوسائل إلى الله ذلك الركوع والسجود، والقيام والقعود، فلو أن امرأ قضى حياته بين ليل قائم، ونهار صائم، ظلم طفلاً صغيراً فى لقمة يختطفها من يده لاستحالت حسناته إلى سيئات، وما أغنى عنه نسكه من الله شيئًا.

وبينما أنا أحدِّث نفسى بهذا الحديث، وأقلب النظر فى وجوه تلك المواعظ والعبر، إذ قال لى صاحبى: أتعرف هذين؟ وأشار إلى رجلين واقفين ناحية يتناجيان: أحدهما شيخ جليل أبيض اللحية، وثانيهما كهل نحيف قد اختلط مبيضه بمسوده؛ فما هى إلا النظرة الأولى حتى عرفت الرجلين العظيمين رجل الإسلام «محمد عبده» ورجل المرأة «قاسم أمين» فقلت لصاحبى: هل لك فى أن ندنو منهما ونسترق نجواهما من حيث لا يشعران؟ ففعلنا؛ فسمعنا الأول يقول للثانى: ليتك يا قاسم أخذت برأيى وأحللت نصحى لك محلاً من نفسك فقد كنت أنهاك أن تفاجئ المرأة المصرية برأيك فى الحجاب قبل أن تأخذ له عدته من الأدب والدين فجنى كتابك عليها ما جناه من هتك حرمتها وفسادها وتبذلها وإراقة تلك البقية الصالحة التى كانت فى وجهها من ماء الحياء؛ فقال له صاحبه: إنى أشرت عليها أن تتعلم قبل أن تسفر، وأن لا ترفع برقعها قبل أن تنسج لها برقعًا من الأدب والحياء؛ قال له: ولكن فاتك ما كنت تنبأت به من أنها جاهلة لا تفهم هذه التفاصيل، وضعيفة لا تعبأ بهذا الاستثناء، فكنت كمن أعطى الجاهل سيفًا ليقتل به غيره فقتل نفسه، فقال: أتأذن لى يا مولاى أن أقول لك: إنك قد وقعت فى مثل ما وقعت فيه من الخطأ، وأنك نصحتنى بما لم تنتصح به، أنا أردت أن أنصح المرأة فأفسدتها كما تقول. وأنت أردت أن تحيى الإسلام فقتلته؛ إنك فاجأت جهلة المسلمين بما لا يفهمون من الآراء الدينية الصحيحة والمقاصد العالية الشريفة فأرادوا غير ما أردت؛ وفهموا غير ما فهمت. فأصبحوا ملحدين؛

بعد أن كانوا مخرفين، وأنت تعلم أن دينًا خرافيًا خير من لا دين. أولت لهم بعض آيات الكتاب فاتخذوا التأويل قاعدة حتى أولوا الملك والشيطان والجنة والنار! وبينت لهم حكم العبادات وأسرارها وسفهت لهم رأيهم فى الأخذ بقشورها دون لبابها، فتركوها جملة واحدة وقلت لهم: إن الولى إله باطل، والله إله حق؛ فأنكروا الألوهية حقها وباطلها؛ فتهلل وجه الشيخ وقال له: ما زلت يا قاسم فى أخراك، مثلك فى دنياك، لا تضطرب فى حجة، ولا تنام عن ثأر، لا تحمل همًا، ولا تخش سرًا، وثق أن الله سيحاسبنا على نياتنا وسرائرنا، ويعفو عن هفواتنا وسقطاتنا، أنا ما أردنا إلا الخير لأمتنا، وما أردنا لها إلا ما تحتمله عقولها، فإن كذبت فراستنا أو أخطأ تقديرنا فذلك لأن المستقبل بيد الله.

وما وصلا من حديثهما إلى هذا الحد حتى تركا مكانهما، وذهبا لشأنهما؛ فقلت لصاحبى: هل لك أن ترينى الميزان والصراط والجنة والنار، فإنى ما زلت فى شوق إلى رؤية تلك الأشياء ورؤية مواقعها منذ رأيتها فى «خريطة الآخرة» التى رسمها الشعرانى فى بعض كتبه، قال: أما الميزان فتقدير الأعمال والموازنة بين الحسنات والسيئات، وأما الصراط فهو سبيل الإنسان إلى سعادته أو شقائه، وأما الجنة والنار فلا علم لى حتى الساعة بهما.

وبينا أنا كذلك إذ سمعت صوتًا صارخًا ما قرع سمعى فى حياتى مثله ينادينى باسمى، فعلمت أن قد جاء دورى، فأدركنى من الهول والرعب ما أيقظنى من نومى، فاستيقظت فلم أر حسابًا ولا عقابًا ولا موقفًا ولا محشرًا، فعلمت أنها خيالات وأوهام، أو أضغاث أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.

الشعرة البيضاء

مررت صباح اليوم أمام المرآة، فلمحت فى رأسى شعرة بيضاء، تلمع فى تلك اللمة السوداء لمعان شرارة البرق فى الليلة الظلماء.

رأيت الشعرة البيضاء فى مفرقى[١] فارتعت لمرآها كأنما خيل إلىَّ أنها سيف جرده القضاء على رأسى، أو علم أبيض يحمله رسول جاء من عالم الغيب ينذرنى باقتراب الأجل، أو يأس قاتل عرض دون الأمل، أو جذوة نار علقت بأهداب حياتى علوقها بالحطب الجزل، ولابد لها مهما ترفقت فى مشيتها واتأدت فى مسيرها من أن تبلغ مداها، أو من خيط خيوط الكفن الذى تنسجه يد الدهر وتعده لباسًا لجثتى عندما تجردها من لباسها يد الغاسل.

أيتها الشعرة البيضاء! ما رأيت بياضًا أشبه بالسواد من بياضك، ولا نورًا أقرب إلى الظلمة من نورك، لقد أبغضت من أجلك كل بياض حتى بياض القمر، وكل نور حتى نور البصر وأحببت فيك كل سواد حتى سواد الغربان وكل ظلام حتى ظلام الوجدان.

أيتها الشعرة البيضاء! ليت شعرى! من أى نافذة خلصت إلى رأسى؟ وفى أى مسلك من مسالك الدهر مشيت إلى فودى؟

كيف طاب لك المقام فى هذه الأرض الموحشة التى لا تجدين فيها أنيسًا يسامرك، ولا جليسًا يساهرك، وكيف لم يرع قلبك لمنظر هذا الليل الفاحم ولم يعش بصرك فى هذا الظلام القاتم.

أيتها الشعرة البيضاء! لقد عيبت بأمرك، وبعلت[٢] بحملك، وأصبحت لا أعرف وجه الحيلة فى البعد عنك، والفرار من وجهك، لا ينفعنى معك أن أنزعك من مكانك، لأنك لا تلبثين أن تعودى إليه، ولا ينقذنى منك أن أخضبك بالسواد، لأنك لا تلبثين أن تنصلى[٣] ولأنى لا أحب أن أجمع على نفسى بين مصيبتين: مصيبة الشيب ومصيبة الكذب.

أيتها الشعرة البيضاء! يخيل إلىَّ وأنا أنظر إليك أنك من ذات الحيلة والدهاء والكيد والخبث، وأنك تهمسين فى آذان أخواتك السود اللواتى بجانبك تحاولين إغراءهن بالتشبه بك، والتردى بردائك، وكأنى بك.. وقد

---

(١) المفرق: موضع افتراق الشعر.

(٢) بعل الشىء: برم به واستثقله.

(٣) نصل الشعر: خرج من الخضاب.

أشعلت فى هذه البيئة الهادئة المطمئنة حربًا شعواء، وفتنة عمياء، يختلط فيها الرامح بالنابل[١] والدارع بالحاسر[٢] ويهلك فيها القاعد والقائم والمظلوم والظالم. .

إن كان هذا مصيرك فسيكون شأنك شأن ذلك السائح الأبيض، الذى ينزل بأمة الزنج مستكشفًا، فيصبح مستعمرًا، ويدخل أرضها سلمًا ويفارقها حربًا، فأسأل الله لرأسى العافية منك، ولأمة الزنج السلامة من صاحبك، فكلاهما مشؤوم الطلعة فى مقامه وارتحاله، وكوكب النحس فى وقوفه وتسياره.

أيتها الشعرة البيضاء! ما أنت وما شأنك؟ وما وفودك إلىّ؟ وما مكانك منى؟ وما مقامك عندى؟ إن كنت ضيفًا، فأين استئذان الضيف وتلطفه، وتجمله وتودده، وإن كنت نذيرًا، فأنا أعلم من الموت وشأنه ما لا أحتاج معه إلى نذير، فلم يبق ألا تكونى أوقح الخلائق وجهًا؛ وأصلبها خدًا، وإنك قد نزلت من السماجة والفضول منزلة لا أرى لك فيها شبيهًا إلا تلك الحية التى تلج كل جحر من أجحار الهوام والحشرات تعده جحرها، وتحسبه بيتها.

أيبلغ بك الشأن وأنت التى يضربون الأمثال بدفنها وخفائها، ويبعثون الملاقط والمقاريض وراءها، فلا يكادون يعرفون السبيل إلى مدارجها ومكانها أن تملئى من الرعب قلبًا لا يروعه السيف المجرد، ولا السهم المسدد؟

أيتها الشعرة البيضاء! هل لك أن تتجاوزى عما أسأت به إليك فى إطالة عتبك، واستثقال ظلك؟ فلقد رجعت إلى نفسى فعلمت أنك أكرم الخلائق عندى، وأعظمها شأنًا فى عينى.

هنيئًا لك رأسى مصيفًا ومرتعًا، وهنيئًا لك فودى مرادًا ومسرحًا، فأنت رسول الموت الذى ما زلت أطلبه منذ عرفته فلا أجد له سبيلاً، ولا أعرف له رسولاً.

ما الذى يحمله لك فى صدره من الحقد والموجدة رجل لم ينعم بشبابه،

---

(١) الرامح: حامل الرمح. والنابل: ذو النبل.

(٢) الدارع: لابس الدرع، والحاسر خلافه.

فيحزن على ذهابه، ولم يذق حلاوة الحياة، فيجزع لمرارة الممات، ولم يستنشق نسمات السعادة غصنًا رطبًا؛ فيأسى عليها عودًا يابسًا.

ما الذى ينقمه من شؤونك رجل يعلم أنك وحى الآمل الذى يبشره بقرب النجاة من حياة ليس فيها من السعادة والهناءة.. إلا لحظات قليلة يكدرها ما يحيط بها من الهموم والأحزان.. كما تكدر أنفاس الحزن الحارة صفحة المرآة.

أليس كل ما أعدَّه عليك من الذنوب أنك طليعة الموت، والموت هو الذى يخلصنى من منظر هذا العالم المملوء بالشرور والآثام، الحافل بالآلام والأسقام الذى لا أغمض عينى فيه إلا لأفتحها على صديق يغدر بصديقه، وأخ يخون أخاه، وعشير يحدد أنيابه لمضغ عشيره، وغنى يضن على الفقير بفتات مائدته، وفقير يقترح على الدهر حتى بلغة الموت فلا يظفر بأمنيته، وملك لا يفرق بين رعيته وماشيته، ومملوك لا يميز بين ملك الملك وربوبيته، وقلوب تضطرم حقدًا على غير طائل، ونفوس تتفانى قتلاً على لون حائل، وظل زائل، وغرض باطل، وعقول تتهالك وجدًا على نار تحرقها وأنياب تمزقها، وعيون حائرة فى رؤوس طائرة، تنظر ولا ترى شيئًا مما حولها، وتلمع ولا تكاد تبصر ما أمامها؛ إن كان هذا هو ظاهر ذنبك عندى فاستكثرى من ذنوبك، فإنى لك من الغافرين.

أيتها الشعرة البيضاء! مرحبًا بك اليوم، ومرحبًا بأخواتك غدًا.. ومرحبًا بهذا القضاء المختبئ وراءك أو الكامن فى أطوائك، ومرحبًا بتلك الغرفة التي أخلو فيها بربى، وآنس بنفسى، من حيث لا أسمع حتى دوى المدافع، ولا أرى حتى غبار الوقائع.

أهلاً بوافدة للشيب واحدة   وإن تراءات بشكل غير مودود

الصياد

حدَّث أحد الأصدقاء قال: بينا أنا فى منزلى صبيحة يوم إذ دخل على

رجل صياد يحمل فى شبكة فوق عاتقه سمكة كبيرة فعرضها علىَّ فلم أساومه فيهـا بل نقدته الثمن الذى أراده، فـأخذه شاكرًا متـهللاً وقال: هذه هى المرة الأولى التى أخذت فيهـا الثمن الذى اقترحته، أحـسن الله إليك كما أحسنت إلىَّ وجعلك سعـيدًا فى نفسك كما جـعلك سعيدًا فى مالك؛ فـسررت بهذه الدعوة كثيرًا وطمعت فى أن تتفـتح لها أبواب السماء المغلقة دونى، وعجبت أن يهتدى شـيخ عامى إلى معـرفة حقيقـة لا يعرفها إلا القليـل من الخاصة، وهى أن للسعادة النفسـية شأنًا غير شأن السعـادة المالية، فقلت له: يا شيخ، وهل توجد سـعادة غير سـعادة المال؟ فابتـسم ابتسامة هادئة مـؤثرة وقال: لو كانت السعادة سعـادة المال لكنت أنا أشقى الناس، لأننى أفقر الناس، قلت: هل تعد نفسك سعيدًا؟ قال: نعم، لأننى قانع برزقى مغتبط بعيشى، لا أحزن على فائت من العيش، ولا تذهب نفسى حسرة وراء مطمع من المطامع، فمن أى باب يخلص الشـقاء إلى قلبى؟ قـلت: أيها الرجل، أين يذهب بك؟ مـا أرى إلا أنك شيخ قد اختلس عقله، كيف تعد نفسك سعيدًا وأنت حاف غير منتعل، وعـار إلا قليلاً من الأسمـال البالية، والأطمـار السحيقـة؟ قال: إن كانت السعـادة لذة النفس وراحتها، وكان الـشقاء ألمها وعناءها، فأنا سـعيد؛ لأنى لا أجد فى رثاثة ملبسى، ولا فى خشـونة عيشى، ما يولد لى ألـمًا، أو يسبب لى همًا، وإن كانت السعادة عندكم أمـرًا وراء ذلك، فأنا لا أفهمها إلا كذلك؛ قلت: ألا يحزنك النظر إلى الأغنياء فى أثاثهم ورياشهم، وقصورهم ومراكبهم، وخدمهم وخيـولهم، ومطعمهم ومشربهم؟ ألا يحزنك هذا الفرق العظيم بين حـالتك وحالتهم؟ قـال: إنما يصغـر جميع هذه المناظـر فى عينى ويهونها عندى أنى لا أجد أصحابها قد نالوا من السعادة بوجدانها أكثر مما نلته بفقدانها.

هذه المطاعم التى تذكرها إن كان الغرض منهـا الامتلاء فأنا لا أذكر أنى بت ليلة فى حياتى جـائعًا، وإن كان الغرض منها قضاء شـهوة النفس فأنا لا آكل إلا إذا جعت؛ فأجد لكل ما يدخل جوفى لذة لا أحسب أن فى شهوات الطعام ما يفضلها؛ أما القصور فـإن لدى كوخًا صغيرًا لا أشعر أنه يضيق بى وبزوجتى وولدى فأقرع السن على أن لم يكن قصـرًا كبيرًا؛ وإن كان لابد من

إمتاع النظر بالمناظر الجميلة فحسبى أن أحمل شبكتى على عاتقى كل مطلع فجر وأذهب بها إلى شاطئ النهر فأرى منظر السماء والماء، والأشعة البيضاء، والمروج الخضراء، فما هى إلا لفتة الجيد أن يطلع من ناحية الشرق قرص الشمس كأنه مجن من ذهب أو قطعة من لهب، فلا يبعد عن خط الأفق ميلاً أو ميلين حتى ينثر فوق سطح النهر حليه المتكسر، أو درّه المتحدر، فإذا تجلى هذا المنظر أمام عينى يتخلله سكون الطبيعة وهدءوها، ملك علىّ شعورى ووجدانى، فاستغرقت فيه استغراق النائم فى الأحلام اللذيذة، حتى أحب أن أعود إلى نفسى إلى يوم النشور، ولا أزال هكذا هائمًا فى أحلامى حتى أشعر بجذبة قوية فى يدى، فأنتبه فإذا السمك فى الشبكة يضطرب، وما اضطرابه إلا أنه فارق الفضاء الذى يهيم فيه مطلق السراح، وبات فى المحبس الذى لا يجد فيه مراحًا ولا مضطربًا، فلا أجد له شبيهًا فى حالتيه إلا الفقراء والأغنياء. يمشى الفقير كما يشتهى ويتنقل حيث يريد كأنما هو الطائر الذى لا يقع إلا حيث يطيب له التغريد والتنقير، ولولا أن تتخطاه العيون وتنبو عنه النواظر ما طار فى كل فضاء؛ ولا تنقل حيث يشاء، أما الغنى فلا يتحرك ولا يسكن إلا وعليه من الأحداق نطاق، ومن الأرصاد أغلال وأطواق، ولا يخرج من منزله إلا إذا وقف أمام المرآة ساعة يؤلف فيها من حقيقته وخياله ناظرًا ومنظورًا، ثم يطيل التفكير: هل يقع المنظور من الناظر موقعًا حسنًا؟ حتى إذا استوثق لنفسه بذلك خرج إلى الناس يمشى بينهم مشية يحرص فيها على الصورة التى استقر رأيه عليها، فلا يطلق لجسمه الحرية فى الحركة والالتفات، حتى لا يخرج بذلك عن حكمها؛ ولا لفكرة الحرية فى النظر والاعتبار بمشاهدة الكون وآياته، مخافة أن يغفل عن إشارات السلام، ومظاهر الإكرام.

فإذا أخذت من السمك كفاف يومى عدت به وبعته فى الأسواق أو على أبواب المنازل، فإذا أدبر النهار عدت إلى منزلى، فيعتنقنى ولدى وتبش فى وجهى زوجتى، فإذا قضيت بالسعى حق عيالى وبالصلاة حق ربى نمت فى فراشى نومة هادئة مطمئنة، لا أحتاج معها إلى ديباج وحرير أو مهد وثير،

فهل أستطيع أن أعد نفسى شقيًا، وأنا أروح الناس بالاً، وإن كنت أقلهم مالاً؟

لا فرق بينى وبين الغنى، إلا أن الناس لا ينهضون إجلالاً لى إذا رأونى ولا يمدُّون أعناقهم نحوى إذا مررت بهم، وأهون به من فرق لا قيمة له عندى، ولا أثر له فى نفسى، وما يعنينى من أمرهم أن قاموا أو قعدوا، أو طاروا فى الهواء، أو غاصوا فى أعماق الماء، ما دمت لا علاقة بينى وبينهم، وما دمت لا أنظر إليهم إلا بالعين التى ينظر بها الإنسان إلى الصور المتحركة.

لا علاقة بينى وبين أحد فى هذا العالم إلا تلك العلاقة بينى وبين ربى فأنا أعبده حق عبادته وأخلص فى توحيده، فلا أعتقد ربوبية أحد سواه، ولا أكتمك يا سيدى أننى لا أستطيع الجمع بين توحيد الله والاعتراف بالعظمة لأحد من الناس، ولقد أخذ هذا اليقين مكانه من قلبى، حتى لو طلع على الملك المتوج فى مواكبه وكواكبه، وراياته وأعلامه، لما خفق قلبى خفقة الرهبة والخشية، ولا شغل من نفسى مكانًا أكثر مما يشغله ملك التمثيل.

ولقد كان هذا اليقين أكبر سبب فى عزائى، وراحة نفسى من الهموم والأحزان؛ فما نزلت بى ضائقة ولا هبت علىَّ عاصفة من عواصف هذا الكون إلا انتزعنى من بين مخالبها وهوَّنها علىَّ؛ حتى لا أكاد أشعر بوقعها؛ وكيف أتألم لمصاب أنا أعلم حق العلم أنه مقدور لا مفر منه، وأننى مأجور عليه على قدر احتمالى إياه، وسكونى إليه؟

آمنت بالقضاء والقدر خيره وشره؛ وباليوم الآخر ثوابه وعقابه؛ فصغرت الدنيا فى عينى، وصغر شأنها عندى حتى ما أفرح بخيرها، ولا أحزن لشرها، ولا أعول على شأن من شئونها حتى شأن الحياة فيها؛ وأقسم ما خرجت مرة إلى ضفة النهر حاملاً شبكتى فوق عاتقى إلا وقع الشك فى نفسى: هل أعود إلى منزلى حاملاً أو محمولاً؟

ما العالم إلا بحر زاخر، وما الناس إلا أسماكه المائجة فيه. وما ريب المنون إلا صياد يحمل شبكته كل يوم ويلقيها فى ذلك البحر فتمسك ما تمسك وتترك ما تترك، وما ينجو من شبكته اليوم لا ينجو منها غدًا، فكيف أغتبط

بما لا أملك، أو أعتمد على غير معتمد، إذن أنا أضل الناس عقلاً وأضعفهم إيمانًا!

قال المحدِّث: فأكبرت الرجل فى نفسى كل الإكبار، وأعجبت بصفاء ذهنه وذكاء قلبه وحسدته على قناعته واقتناعه بسعادة نفسه. وقلت له: يا شيخ إن الناس جميعًا يبكون على السعادة ويفتشون عنها فلا يجدونها. فاستقر رأيهم على أن الشقاء لازم من لوازم الحياة لا ينفك عنها، فكيف تعد العالم سعيدًا وما هو إلا شقاء؟ قال: لا يا سيدى، إن الإنسان سعيد بفطرته، وإنما هو الذى يجلب بنفسه الشقاء إلى نفسه، يشتد طمعه فى المال فيتعذر عليه مطمعه، فيطول بكاؤه وعناؤه، ويعتقد أن بلوغ الآمال فى هذه الحياة حق من حقوقه، فإذا أخطأ سهمه والتوى عليه غرضه، أنّ وشكا شكاة المظلوك من الظالم؛ ويبالغ فى حسن ظنه بالأيام، فإذا غدرت به فى محبوب لديه من مال أو ولد، فاجأه من ذلك ما لم يكن يقدر وقوعه فناله من الهم والألم ما لم يكن ليناله لو خبر الدهر، وقتل الأيام علمًا وتجربة وعرف أن جميع ما فى يد الإنسان عارية مستردة، ووديعة موقوتة، وأن هذا الإحراز الذى يزعمه الناس لأنفسهم خدعة من خدع النفوس الضعيفة ووهم من أوهامها. . إن أكثر ما يصيب الناس من شقوة إنما يأتى من طريق الأخلاق الباطنة، لا من طريق الوقائع الظاهرة، فالحاسد يتألم كلما وقع نظره على محسود؛ والحقود يتألم كما تذكر أنه عاجز عن الانتقام من عدوه، والطماع يتألم كلما ناجته بالإثم سريرته؛ والظالم يتألم كلما سمع ابتهال المظلوم بالدعاء عليه، أو حاقت به عاقبة ظلمه؛ وكذلك شأن الكاذب، والنمام والمغتاب، وكل من تشتمل نفسه على رذيلة من الرذائل.

ومن أراد أن يطلب السعادة فليطلبها بين جوانب النفس الفاضلة، وإلا فهو أشقى العالمين؛ وإن أحرز ذخائر الأرض وخزائن السماء.

قال الصديق: فما وصل الصياد من حديثه إلى هذا الحد حتى نهض قائمًا وتناول عصاه وقال: أستودعك الله يا سيدى وأدعو لك الدعوة التى أحببتها لنفسك وأحببتها لك، وهى: أن يجعلك الله سعيدًا فى نفسك، كما جعلك سعيدًا فى مالك.

والسلام عليك ورحمة الله.

الانتحار

فى كل موسم من مواسم الامتحان المدرسى نسمع بكثير من حوادث الانتحار بين المتخلفين من التلاميذ والراسبين، ولو ربى التلميذ تربية دينية لما هان عليه أن يخسر سعادته الأخروية خسرانًا مبينًا أسفًا على أن لم ينل كل حظه من السعادة الدنيوية، ولو ربى تربية أدبية لما احتقر حياته الثمينة وازدراها ولوى وجهه عنها لأنها لم تقدم إليه فى لفافة الشهادة المدرسية، ولو أن أستاذه ملأ قلبه بنور الإيمان ولقنه فيما يلقنه من قواعد الدين وأحكامه: أن جناية المرء على نفسه أكبر إثمًا عند الله وأعظم جرمًا من جنايته على غيره، لما خاطر بدينه فى آخر ساعة من ساعات حياته، وهى الساعة التى ينيب فيها العاصى إلى ربه، ويستغفر فيها المذنب من ذنبه. ولو أنه لقنه فيما يلقنه من دروس الأخلاق والآداب أن العلم صفة من صفات الكمال لا سلعة من سلع التجارة يجب أن ينظر إليه طالبه من حيث ذاته؛ لا من حيث كونه وسيلة من وسائل العيش، لما جرى على القاعدة الفاسدة «والشهادة بلا علم خير من العلم بلا شهادة» ولو أنه رباه على الاستقلال الذاتى وعلمه أن الشرف فى هذه الحياة على قدر ما يبذل الإنسان من الجهد فى خدمة الأمة أو المجتمع سواء أكان فى قصر الملك أم فى دار الوزارة، وفى حانوت التجارة، أم فى معمل الصناعة، لما أكبر مناصب الحكومة هذا الإكبار، ولا احتفل بها احتفال من لا يرى للحياة معنى بدونها، ولو أنه نفث فى روعه روح الشجاعة النفسية وعوّده الصبر والجلد فى مواقف الشدة والبلاء، لما جزع هذا الجزع الفاضح، ولا جن هذا الجنون الذى خيل إليه أن عذاب النزع أهون من عذاب الهم.

لا يجنى الطالب على نفسه، وإنما يجنى عليه والده وأستاذه والمجتمع الذى يعيش فيه.

أما الوالد فإنه يقول له وهو ذاهب به إلى المدرسة: ستكون غداً يا بنى مديراً كهذا المدير، ووزيراً كهذا الوزير. وكلما أراد أن يحضه على الاجتهاد

فى طلب العلم ويخوفه عاقبة فشله فى الامتحان صورّ له المستقبل المجرد من الوظيفة أقبح تصوير وأشنعه؛ وربما أشار عليه بالانتحار من طرف خفى فيقول له: إذا لم تنجح فى الامتحان فموتك أفضل من حياتك، أما الأستاذ فإنه يضرب له من نفسه مثلاً على وجوب احترام المنصب وإجلاله وإنزاله المنزلة الأولى بين أعمال المجتمع الإنسانى، إذ يراه بعينه يتجرعً مرارة الذل، ويعانى من كبرياء رؤسائه وقسوة المسيطرين عليه عناء شديداً؛ ويحتمل من ذلك ما لا يحتمله الرجل الشريف، حرصًا على منصبه وإرعاء عليه. فكأنما يلقى عليه درسًا عمليًا موضوعه «إن من يخاطر بمنصبه يخاطر بحياته، لأن المنصب كل شىء فى هذه الحياة»؛ أما المجتمع فإنه يحترم الموظف الصغير، أكثر مما يحترم العالم الكبير، ويطير إلى تهنئته بإقبال المنصب عليه وتعزيته يوم إدباره عنه؛ كأن الكوكب لا يدور إلا فى دائرة المناصب نحوسًا وسعودًا؛ فإذا رأى الناشئ ذلك أكبر الوظيفة أيما إكبار، ولج به الحرص عليها والتصق بها وكان سروره وحزنه على قدر قربها منه، أو بعدها عنه؛ فإذا وفق إليها لطم بأنفه قبة السماء. وداس بنعله هام الجوزاء، وإن يئس منها قتل نفسه وهو يتمثل بقول الشاعر الأحمق:

فإما الثريا وإما الثرى

أيها الناشئ: لقد جهل أبوك، وغشك أستاذك، وخدعك هذا المجتمع الفاسد، فكن أحسن حالاً منهم، واعلم أن شرف العلم أكبر من شرف المنصب. وأن المنصب ما كان شريفًا إلا لأنه حسنة من حسنات العلم، وأثر من آثاره، فإن فاتك حظك منه فلا تحفل به، فهو أحقر من أن تشتد فى أثره، أو تبذل حياتك وجدًا عليه، ولا تحسد أرباب المناصب على مناصبهم؛ فإنما هم يخدعونك بزخرف من القول، وظاهر من النعمة، وبهرج من الابتسام؛ ووراء ذلك لو علمت قلب يقطر دمًا، وفؤاد يضطرم لوعة وأسى.

خذ لنفسك حظها من العلم والأدب، ولا تحفل بعد ذلك بشىء فقد ربحت كل شىء.

الجمـــال

الجمـال هو التناسب بين أجزاء الهـيئات المركـبة، سـواء أكان ذلك فى الماديات أم فى المعقولات، وفى الحقائق أم فى الخيالات.

ما كان الوجه الجميل جمـيلاً إلا للتناسب بين أجزائه، وما كان الصوت الجميل جـميلاً إلا للتناسب بين نغمـاته، ولولا التناسب بين حبات العـقد ما افتتنت به الحسناء، ولولا التناسق فى أزهار الروض ما هام به الشعراء.

ليس للتناسب قاعدة مضطردة يسـتطيع الكاتب أن يبينها، فالتناسب فى المرئيات غيـره فى المسموعات، وفى الرسوم غيـره فى الخطوط، وفى الشئون العلميـة غيـره فى القصائد الشـعرية، على أنه لا حـاجة إلى بيـانه ما دامت الأذواق السليمة تدرك بفطرتها مـا يلائمها فترتاح إليه، وما لا يلائمـها فتنفر منه.

إن كثيراً من الناس يستحسنون الأنـف الصغير فى الوجه الكبير والرأس الكبير فى الجسم الصغير، ولا يـفرقون بين البرص فى الجسم الأسود، والخال فى الخد الأبيض، ويطربون لنقيق الضفادع كما يطربون لخرير المياه، ويفضلون أصوات النواعير على أنغام العيدان، ويعجبون بشعر ابن الفارض وابن معتوق والبرعى أكثر مما يعجبون بشعر أبى الطيب وأبى تمام والبحترى، ويضحكون لما يبكى، ويبكون مما يضحك، ويرضون بما يغضب، ويغضبون مما يرضى!

أولئك هم أصحـاب الأذواق المريضة، وأولئك هم الذين تـصدر عنهم أفعالـهم وأقوالهم مشوهة غـير متناسبـة ولا متلائمة، لأنهم لم يـدركوا سر الجمال فيصدر عنهم ولم تألفه نفوسهم، فيصبح غريزة من غرائزهم.

إن رأيت شاعـراً يبتـدئ قصـائد التهنئـة بالبكاء على الإطلال، ويودع القصائد الرثائية بالنكات الهـزلية، ويتغزل بممدوحه كما يتـغزل بمعشوقه؛ أو متكلمًا يقتضب الأحاديث اقتضابًا، ويهزل فى موضع الجد، ويجدّ فى موضع

الهزل؛ أو صحفيًا يضع العنوان الضخم للخبر التافه، ويكتب مقدمة فى السماء لموضوع فى الأرض، أو حاكمًا يضع الندى فى موضع السيف، والسيف فى موضع الندى، أو ماشيًا يتلوى فى طريقه من رصيف إلى رصيف، كأنما يرسم خطًا متعرجًا، أو لابسًا فى الشتاء غلالة الصيف، وفى الصيف فروة الشتاء، فاعلم أن ذوقه مريض، وأنه فى حاجة إلى معالجة ذوقه، كحاجة المجنون إلى علاج عقله، والمريض إلى علاج جسمه.

كما أنه ليس كل مجنون يرجى شفاؤه، ولا كل مريض يرجى إبلاله، كذلك ليس كل من فسد ذوقه يرجى صلاحه، فإن رأيت من تؤمل فى إصلاحه خيرًا، وتجد فى نفسه استعدادًا لتقويم ذوقه، فعلاجه أن تحفه بأنواع الجمال، وتدأب على تنبيهه إلى متناسباته ومؤتلفاته، وإن استطعت أن تعلمه فنًا من الفنون الجميلة كالشعر والتصوير والموسيقى فافعل، فإنها المقومات للأذواق، والغارسات فى النفوس ملكات الجمال.

الكذب

كذب اللسان من فضول كذب القلب، فلا تأمن الكاذب على ود ولا تثق منه بعهد، واهرب من وجهه الهرب كله، وأخوف ما أخاف عليك من خلطائك وسجرائك: الرجل الكاذب.

عرف الحكماء الكذب بأنه مخالفة الكلام للواقع، ولعلهم جاروا فى هذا التعريف الحقيقة العرفية، ولو شاءوا لأضافوا إلى كذب الأقوال كذب الأفعال.

لا فرق بين كذب الأقوال وكذب الأفعال فى تضليل العقول والعبث بالأهواء وخذلان الحق واستعلاء الباطل عليه، ولا فرق بين أن يكذب الرجل فيقول: إنى ثقة أمين لا أخون ولا أغدر فاقرضنى مالاً أرده إليك، ثم لا يؤديه بعد ذلك، وبين أن يأتيك بسبحة يهمهم بها فتنطق سبحته بما سكت عنه

لسانه من دعوى الأمانة والوفاء، فيخدعك فى الثانية كما خدعك فى الأولى، لا بل يستطيع كاذب الأفعال أن يخدعك ألف مرة قبل أن يخدعك كاذب الأقوال مرة واحدة لأنه لا يكتفى بقول الزور بلسانه حتى يقيم على قضيته بينة كاذبة من جميع حركاته وسكناته.

ليست الكذب شيئًا يستهان به، فهو أس الشرور ورذيلة الرذائل فكأنه أصل والرذائل فروع له، بل هو الرذائل نفسها. وإنما يأتى فى أشكال مختلفة ويتمثل فى صور متنوعة.

المنافق كاذب لأن لسانه ينطق بغير ما فى قلبه، والمتكبر كاذب لأنه يدعى لنفسه منزلة غير منزلته. والفاسق كاذب لأنه كذب فى دعوى الإيمان ونقض ما عاهد الله عليه، والنمام كاذب لأنه لم يتق الله فى فتنته، فيتحرى الصدق فى نميمته، والمتملق كاذب لأن ظاهره ينفعك؛ وباطنه يلذعك.

لقد هان على الناس أمر الكذب حتى إنك لتجد الرجل الصادق فتعرض على الناس أمره وتطرفهم بحديثه كأنك تعرض عجائب المخلوقات وتتحدث بخوارق العادات.

فويل للصادق من حياة نكدة لا يجد فيها حقيقة مستقيمة، وويل له من صديق يخون العهد، ورفيق يكذب الود، ومستشار غير أمين، وجاهل يفشى السر، وعالم يحرف الكلم عن مواضعه، وشيخ يدعى الولاية كذبًا، وتاجر يغش فى سلعته، ويحنث فى إيمانه، وصحفى يتجر بعقول الأحرار، كما يتجر النخاس بالعبيد والإماء، ويكذب على نفسه وعلى الله وعلى الناس فى كل صباح ومساء.

غرفة الأحزان

كان لى صديق أحبه لفضله وأدبه، أكثر مما أحبه لصلاحه ودينه، فكان يروقنى منظره ويؤنسنى محضره، ولا أبالى بعد ذلك بشىء من نسكه

وعبادته، أو فسقه واستهتاره، لأننى ما فكرت قط أن أتلقى عنه علوم الشريعة أو دروس الأخلاق.

قضيت فى صحبته عهدًا طويلاً ما أنكر من أمره ولا ينكر من أمرى شيئًا حتى سافرت من القاهرة سفرًا طويلاً فتراسلنا حينًا، ثم انقطعت عنى كتبه فرابنى من أمره ما رابنى، ثم رجعت فجعلت أكبر همى أن أراه فطلبته فى جميع المواطن التى كنت ألقاه فيها فلم أجده، فذهبت إلى منزله، فحدّثنى جيرانه أنه هجره من عهد بعيد، وأنهم لا يعرفون أين مصيره، فوقفت بين اليأس والرجاء برهة من الزمان، يغالب أولهما ثانيهما حتى غلبه، فأيقنت أنى قد فقدت الرجل، وأنى لن أجد بعد اليوم إليه سبيلاً.

هنالك ذرفت من الوجد دموعًا لا يذرفها إلا من قلَّ نصيبه من الأصدقاء، وأقفر ربعه من الأوفياء، وأصبح غرضًا من أغراض الأيام، لا تخطئه سهامًا ولا تغبه آلامها[١].

بينا أنا عائد إلى منزلى فى ليلة من ليالى السرار[٢] إذ دفعنى الجهل بالطريق فى هذا الظلام المدلهم إلى زقاق موحش مهجور يخيل للناظر إليه فى مثل تلك الساعة التى مررت فيها أنه مسكن الجان، أو مأوى الغيلان، فشعرت كأنى أخوض بحرًا أسود، يزخر بين جبلين شامخين، وكأن أمواجه تقبل بى وتدبر وترتفع وتنخفض، فما توسطت لجته حتى سمعت فى منزل من تلك المنازل المهجورة أنة تتردد فى جوف الليل، ثم تلتها أختها ثم أخواتها، فأثر فى نفسى مسمعها تأثيرًا شديدًا وقلت: يا للعجب! كم يكتم هذا الليل فى صدره من أسرار البائسين، وخفايا المحزونين.. وكنت قد عاهدت الله قبل اليوم ألا أرى محزونًا حتى أقف أمامه وقفة المساعد إن استطعت، أو الباكى إن عجزت، فتلمست الطريق إلى ذلك المنزل حتى بلغته، فطرقت الباب طرقًا خفيفًا فلم يفتح، فطرقته أخرى طرقًا شديدًا ففتحت لى فتاة صغيرة لم تكد تسلخ العاشرة من عمرها، فتأملتها على ضوء المصباح الضئيل الذى كان فى يدها، فإذا هى فى ثيابها الممزقة، كالبدر وراء

(١) أغبه الالم: جاءه حينًا بعد حين.
(٢) ليالى السرار: الليالى الأخيرة من الشهر.

الغيوم المتقطعة، وقلت لها: هل عندكم مريض؟ فزفرت زفرة كاد ينقطع لها نياط قلبها، وقالت: أدرك أبى أيها الرجل فهو يعالج سكرات الموت؛ ثم مشت أمامى فتبعتها حتى وصلت إلى غرفة ذات باب قصير مسنم، فدخلتها، فخيل إلىَّ أنى قد انتقلت من عالم الأحياء إلى عالم الأموات، وأن الغرفة قبر، والمريض ميت، فدنوت منه حتى صرت بجانبه، فإذا قفص من العظم يتردد فيه النفس تردد الهواء فى البرج الخشبى. فوضعت يدى على جبينه ففتح عينيه وأطال النظر فى وجهى، ثم فتح شفتيه قليلاً قليلاً؛ وقال بصوت خافت: «أحمد الله فقد وجدت صديقى» فشعرت كأن قلبى يتمشى فى صدرى جزعًا وهلعًا، وعلمت أنى قد عثرت بضالتى التى كنت أنشدها، وكنت أتمنى ألا أعثر بها، وهى فى طريق الفناء، وعلى باب القضاء، وألا يجدد لى مرآها حزنًا كان فى قلبى كمينًا، وبين أضالعى دفينًا، فسألته ما باله؟ وما هذه الحال التى صار إليها؟ وكأن أنسه بى أمد مصباح حياته الضئيل بقليل من النور، فأشار إلىَّ أنه يحب النهوض، فمددت يدى إليه، فاعتمد عليها حتى استوى جالسًا وأنشأ يقص علىَّ القصة الآتية:

منذ عشر سنين كنت أسكن أنا ووالدتى بيتًا يسكن بجانبه جار لنا من أرباب الثراء والنعمة، وكان قصره يضم بين جناحيه فتاة ما ضمت القصور أجنحتها على مثلها حسنًا وبهاء، ورونقًا وجمالاً، فألم بنفسى من الوجد بها ما لم أستطع معه صبراً، فما زلت بها أعالجها فتمتنع. واستنزلها فتعتذر، وأتأتى إلى قلبها بكل الوسائل فلا أصل إليه. حتى عثرت بمنفذ الوعد بالزواج فانحدرت منه إليها، فسكن جماحها، وأسلس قيادها، فسلبتها قلبها وشرفها فى يوم واحد، وما هى إلا أيام قلائل حتى عرفت أن جنينًا يضطرب فى أحشائها، فأسقط فى يدى، وطفقت أرتئى بين أن أفى لها بوعدها أو أقطع حبل ودِّها، فآثرت أخراهما على أولاهما، وهجرت ذلك المنزل الذى كانت تزورنى فيه، ولم أعد أعلم بعد ذلك من أمرها شيئًا.

مرت على تلك الحادثة أعوام طوال، وفى ذات يوم جاءنى منها مع البريد هذا الكتاب، ومد يده تحت وسادته وأخرج كتابًا باليًا مصفرًا، فقرأت فيه ما يأتى:

«لو كان بى أن أكتب إليك لأجدد عهدًا دارسًا، أو ودًّا قديمًا، ما كتبت سطرًا، ولا خططت حرفًا، لأنى أعتقد أن عهدًا مثل عهدك الغادر، وودًّا مثل ودك الكاذب، لا يستحق أن أحفل به فأذكره، أو آسف عليه فأطلب تجديده.

إنك عـرفت حين تركتنى أن بين جنبى نـارًا تضطرم، وجنينًا يضطرب، تلك للأسف على المـاضي، وذاك للخوف مـن المستـقـبل، فلم تبـال بذلك وفررت منى حـتى لا تحمل نفسك مؤونـة النظر إلى شقاء أنت صاحـبه، ولا تكلف يدك مسح دموع أنت مرسلها، فـهل أستطيع بعد ذلك أن أتصور أنك رجل شريف؟ لا. . . بل لا أسـتطيع أن أتصور أنك إنسـان؛ لأنك ما تركت خلة من الخلال المتفرقة فى نفوس العجـماوات وأوابد الوحش إلا جمعتها فى نفسك، وكل مـا فى الأمر أنك رأيتنى السـبيل إلى إرضـائها فـمررت بى فى طريقك إليها، ولولا ذلك ما طرقت لى بابًا، ولا رأيت لى وجهًا.

خنتنى إذ عاهدتنى على الزواج فأخلفت وعـدك ذهابًا بنفسك أن تتزوج امرأة مجرمة ساقطة، وما هذه الجريمة ولا تلك السقطة إلا صنعة يدك وجريرة نفسك، ولولاك ما كنت مجرمة ولا ساقطة، فقـد دافعتك جهدى حتى عييت بأمرك، فسقطت بين يديك سقوط الطفل الصغير، بين يدى الجبار الكبير.

سرقت عـفتى، فأصـبحت ذليلة النفس حزينة القلب، أسـتثقل الحـياة وأستبطئ الأجل، وأى لذة فى العيش لامرأة لا تستطيع أن تكون زوجة لرجل ولا أمًّا لولد، بل لا تستطيع أن تعيش فى مجتمع من هذه المجتمعات البشرية إلا وهى خافضـة رأسها، مسـبلة جفنها، واضعـة خدها على كفهـا، ترتعد أوصالها وتذوب أحشاؤها، خوفًا من عبث العابثين وتهكم المتهكمين.

سلبتنى راحتـى لأنى أصبحت مضطرة بعد تلك الحـادثة إلى الفرار من ذلك القصر الذى كنت متمتعة فيه بعشرة أبى وأمى، تاركة ورائى تلك النعمة الواسعة وذلك العيش الرغد إلى منزل حقيـر فى حى مهجور لا يعرفه أحد، ولا يطرق بابه، لأقضى فيه الصبابة الباقية لى من أيام حياتى.

قتلت أمى وأبى، فقد علمت أنهما مـاتا، وما أحسب موتهما إلا حزنًا لفقدى، ويأسًا من لقائى.

قتلتنى لأن ذلك العيش المر الذى شربته من كأسك، والهم الطويل الذى عالجته بسببك. قد بلغا مبلغهما من جسمى ونفسى، فأصبحت فى فراش الموت كالذبالة المحترقة تتلاشى نفسًا فى نفس، وأحسب أن الله قد صنع لى، واستجاب دعائى، وأراد أن ينقلنى من دار الموت والشقاء، إلى دار الحياة والهناء.

فأنت كاذب خادع، ولص قاتل، ولا أحسب أن الله تاركك دون أن يأخذ لى بحقى منك.

ما كتبت إليك هذا الكتاب لأجدد بك عهدًا، أو أخطب إليك ودًا، فأنت أهون علىَّ من ذلك، إننى قد أصبحت على باب القبر وفى موقف وداع الحياة بأجمعها خيرها وشرها، سعادتها وشقائها، فلا أمل لى فى ود، ولا متسع لعهد، وإنما كتبت إليك لأن لك عندى وديعة وهى فتاتك، فإن كان الذى ذهب بالرحمة من قلبك أبقى لك منها رحمة الأبوة، فأقبل إليها وخذها إليك حتى لا يدركها من الشقاء ما أدرك أمها من قبلها».

فما أتممت قراءة الكتاب حتى نظرت إليه فرأيت مدامعه تتحدَّر على خديَّه فسألته: وماذا تم بعد ذلك؟ قال: إنى ما قرأت هذا الكتاب حتى أحسست برعدة تتمشى فى جميع أعضائى، وخيل إلىَّ أن صدرى يحاول أن ينشق عن قلبى حزنًا وجزعًا، فأسرعت إلى منزلها وهو هذا المنزل الذى ترانى فيه الآن، فرأيتها فى هذه الغرفة على هذا السرير جثة هامدة لا حراك بها، ورأيت فتاتها إلى جانبها تبكى بكاءً مرًا، فصعقت لهول ما رأيت، وتمثلت لى جرائمى فى غشيتى كأنما هى وحوش ضارية، وأساود ملتفة، هذا ينشب أظافره، وذاك يحدِّد أنيابه، فما أفقت حتى عاهدت الله ألا أبرح هذه الغرفة التى سميتها «غرفة الأحزان» حتى أعيش فيها عيشها؛ وأموت موتها.

وها أنذا أموت اليوم راضيًا مسرورًا، فقد حدثنى قلبى أن الله قد غفر لى سيئاتى بما قاسيت من العناء، وكابدت من الشقاء.

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد، حتى انعقد لسانه واكفهر وجهه وسقط على فراشه فأسلم الروح وهو يقول: ابنتى يا صديقى؛ فلبثت بجانبه

ساعة قضيت فيها ما يجب على الصديق لصديقه، ثم كتبت إلى أصدقائه ومعارفه فحضروا تشييع جنازته؛ ومارئى مثل يومه يوم كان أكثر باكية وباكيًا.

ولما حثونا التراب فوق ضريحه جزعنا ولكن أى ساعة مجزع

يعلم الله أنى أكتب قصته، ولا أملك نفسى من البكاء والنشيج؛ ولا أنسى ما حييت نداءه لى وهو يودع نسمات الحياة، وقوله: «ابنتى يا صديقى».

فيا أقوياء القلوب من الرجال، رفقًا بضعفاء النفوس من النساء. إنكم لا تعلمون حين تخدعونهن عن شرفهن، وعفتهن.. أى قلب تفجعون، وأى دم تسفكون!!

الشرف

لو فهم الناس معنى الشرف لأصبحوا كلهم شرفاء.

ما من عامل يعمل فى هذه الحياة إلا وهو يطلب فى عمله الشرف الذى يتصوره، يقتل القاتل وفى اعتقاده أن الشرف فى أن ينتقم لنفسه أو عرضه بإراقة هذه الكمية من الدم، ولا يبالى أن يسميه القانون بعد ذلك مجرمًا؛ لأن البيئة التى يعيش فيها لا توافق على هذه التسمية؛ وهى فى نظره أعدل من القانون حكمًا، وأصدق قولاً.

يفسق الفاسق وفى اعتقاده أنه قد نفض عن نفسه بعمله هذا غبار الخمول البله الذى يظل الأعفاء والمستقيمين، وأنه استطاع أن يعمل عملاً لا يقدم عليه إلا كل ذى حذق وبراعة، وشجاعة وإقدام.

يسرق السارق ويزور المزور ويخون الخائن، وفى اعتقاد كل منهم أن الشرف كل الشرف فى إحراز المال وإن كان السبيل إليه دنيئًا وسافلاً، وأن للذهب رنينًا تخفت بجانب صوته أصوات المعترضين والناقدين شيئًا فشيئًا ثم تنقطع حتى لا يسمع بجانبه صوت سواه.

هكذا يتصوَّر الأدنياء أنهم شرفاء، وهكذا يطلبون الشرف ويخطئون مكانه، وما أفسد عليهم تصورهم إلا الذين أحاطوا بهم من سجرائهم وخلطائهم وذوى جامعتهم؛ أولئك الذين يحتقرون الموتور حتى يغسل الدم بالدم فيعظمونه، وينعون على الرجل العف المستقيم بلاهته وخموله حتى يفجر ويستهتر فيطرونه ويجلونه، ويكرمون صاحب الذهب، ولو أن كل دينار من دنانيره محجم من الدم، وأولئك الذين يسمون الفقير سافلاً، وطيب القلب مغفلاً، وطاهر السرير بليدًا، والحليم عاجزًا.

لا تعجب إن سمعت أن جماعة الأغنياء الجهلاء تنعكس فى أدمغتهم صور الحقائق حتى تلبس فى نظرهم ثوبًا غير ثوبها، وتتراءى فى لون غير لونها، فإن بين الخاصة الذين نعتد بعقولهم ونمتدح أفهامهم ومداركهم من لا يفرق بين الرذيلة والفضيلة، حتى ليكاد يفخر بالأولى ويستحى من الأخرى.

لولا فساد التصوَّر ما افتخر قائد الجيش بأنه قتل مائة ألف من النفوس البشرية فى حرب لا يدافع فيها عن فضيلة، ولا يؤيد بها حقًا من الحقوق الشرعية أو الاجتماعية، ولولا فساد التصور ما وضع المؤرخون اسم ذلك السفاح بجانب أسماء العلماء والحكماء والأطباء خدمة الإنسانية وحملة عرشها وأصحاب الأيادى البيضاء عليها فى سطر واحد من صحيفة واحدة، ولولا فساد التصوَّر ما جلس القاضى المرتشى فوق كرسى القضاء يفتل شاربه ويصعر خديه، وينظر نظرات الاحتقار والازدراء إلى المتهم الواقف بين يديه موقف الضراعة والذل، ولا ذنب له عنده إلا أنه جاع وضاقت به مذاهب العيش فسرق درهمًا، وهو يسرق الدنانير فى جميع أنائه وأوقاته. ولولاه لما توهم اللص الكبير أنه أشرف من هذا اللص الصغير، ولو باتا عند قدريهما لوقفا معًا فى موقف واحد أمام قاض عادل يحكم بإدانة الأول لأنه سرق مختارًا ليرفه عيشه، وبراءة الثانى، لأنه سرق مضطرًا لينقذ حياته من براثن الموت.

فمن شاء أن يهذب أخلاق الناس، ويقوم معوجها، فليهذب تصوراتهم وليقوِّم أفهامهم، يوافه ما يريد من التهذيب والتقويم.

ليس الرأى من أن يشير المعلم على المتعلم أن يجعل هذا المجتمع الإنسانى ميزانًا يزن به أعماله أو مرآة يرى فيها حسناته وسيئاته، فالمجتمع الإنسانى مصاب بالسقم فى فهمه والاضطراب فى تصويره، فلا عبرة بحكمه، ولا ثقة بوزنه وتقديره.

ليس من الرأى أن يرشد المعلم المتعلم إلى أن يطلب فى حياته الشرف الاعتبارى فليس كل ما يعتبره الناس شرفًا هو فى الحقيقة كذلك.

ألا تراهم يعدون أشرف الشرف أن يتناول الرجل من الملك قطعة من الفضة أو الذهب أو يحلى بها صدره، وربما كانوا يعلمون أنه ابتاعها بماله، كما تبتاع المرأة من الجوهرى حليتها؟

لا شرف إلا الشرف الحقيقى، وهو الذى يناله الإنسان ببذل حياته أو ماله أو راحته فى خدمة المجتمع البشرى جميعه أو خدمة نوع من أنواعه.

فالعالم شريف، لأنه يجلو صدأ العقل الإنسانى ويصقل مرآته؛ والمجاهد فى سبيل الذود عن وطنه شريف، لأنه يحمى مواطنيه غائلة الأعداء ويقيهم عادية الفناء؛ والمحسن الذى يضع الإحسان فى موضعه شريف لأنه يأخذ بأيدى الضعفاء ويحيى أنفس البائسين؛ والحاكم العادل شريف، لأنه رسول العناية الإلهية إلى المظلومين يمنعهم أن يبغى عليهم الظالمون؛ وصاحب الأخلاق الكريمة شريف لأنه يؤثر بكرم أخلاقه وجمال صفاته فى عشرائه وخلطائه، ويلقى عليهم بالقدوة الصالحة أفضل درس فى الأخلاق والآداب؛ والصانع والزارع والتاجر أشراف متى كانوا أمناء مستقيمين، لأنهم هم الذين يحملون على عواتقهم هذا المجتمع البشرى ويحتملون فى سبيل ذلك ما يحتملون من المؤنة والمشقة حذرًا عليه من التهافت والسقوط.

فإن رأيت فى نفسك أيها القارئ أنك واحد من هؤلاء، فاعلم أنك شريف وإلا فاسلك طريقهم جهدك، فإن لم تبلغ غايته فأخذ القليل خير من ترك الكثير، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فلتبك على عقلك البواكى.

الحب والزواج

قرأت فى بعض المجلات قصة قصها أحد الكتاب موضوعها أن كاتبها غاب عن بلده بضعة أعوام، ثم عاد إليها بعد ذلك فزار صديقًا له من أثرياء الرجال ووجوههم ومن ذوى الأخلاق الكريمة والأنفس العالية، فوجده حزينًا كئيبًا على غير ما يعهد من حاله قبل اليوم فاستفهم منه عن دخيلة أمره، فعرف أنه كان متزوجًا من فتاة يحبها ويجلها ويفديها بنفسه وماله فلم تحفظ صنيعه ولم ترع عهده، وأنها فرت منه إلى عشيق لها رقيق الحال وضيع النسب، فاجتهد الكاتب أن يلقى تلك الفتاة ليعرف منها سر فرارها من بيت زوجها، فلقيها فى منزل عشيقها فاعتذرت إليه عن فعلتها بأنها لا تحب زوجها لأنه فى الأربعين من عمره وهى لم تبلغ العشرين، وقالت: أنها جرت فى ذلك على حكم الشرائع الطبيعية وإن خالفت الشرائع الدينية؛ لأن الأولى عادلة، والثانية ظالمة، وقالت: أن ما يسميه الناس بالزنا والخيانة هو فى الحقيقة طهارة وأمانة، ولا الجريمة ولا الغش ولا الخداع إلا أن تأذن المرأة لزوجها الذى تكرهه بالإلمام بها إلمام الأزواج بنسائهم ما دامت لا تحبه ولا تألف عشرته، وقالت: لو أدرك الناس أسرار الديانات وأغراضها لعرفوا أنها متفقة فى هذه المسألة مع الشرائع الطبيعية، وأنها ربما تعدُّ المرأة فى بيت زوجها زانية، وفى بيت عشيقها طاهرة، إذا كانت تكره الأول.

هذا ملخص القصة على طولها، وأحسبها قصة موضوعة على نحو ما يضع الكتاب القصص الخيالية لنشر رأى من الآراء أو تأييد مذهب من المذاهب، لأن الكاتب قد أعذر[1] تلك الفتاة فيما فعلت، واقتنع بصحة أقوالها وصحة مذهبها وأعداها على زوجها[2] وقضى لها فيما كان بينهما.

وسواء أكانت القصة حقيقية أم خيالية، فالحق أقول: إن الكاتب أخطأ

---

(١) أعذرها: قبل عذرها.

(٢) أعداها عليه: أنصف لها منه.

في وضعها وما كنت أحسب إلا أن مذهب الإباحية[١] قد قضى وانقضى بانقضاء العصور المظلمة، حتى قرأت هذه القصة منشورة باللغة العربية بين أبناء الأمة العربية، فنالني من الهم والحزن ما الله عالم به.

قرأنا ما كتب الكاتبون في سبيل الدفاع عن المرأة الساقطة، وهي التي هفت في حياتها هفوة دفعها إليها دافع خداع أو سائق حاجة ثم ثاب إليها رشدها وهداها، فقلنا: لا بأس بتهوينهم ذنبًا جسمته العادة، وألبسته ثوبًا أوسع من ثوبه، ولا بأس برحمتهم فتاة مذنبة تحاول الرجوع إلى ربها، والتوبة من ذنبها، ويأبى المجتمع البشري إلا أن يسد عليها أبواب السماء المفتحة للقاتلين والمجرمين.

أما وقد وصل الحد إلى تزيين الزنا للزانية وتهوين إثمه عليها وإغراء العفيفة الصالحة بالتمرد على زوجها والخروج على طاعته كلما دعاها إلى ذلك داع من الهوى، فهذا ما لا يطاق احتماله ولا يستطاع قبوله؛ إن فتاة الرواية لم تهف في جريمتها فقط كما يهفو غيرها من النساء لأنها مقيمة في منزل عشيقها من زمن بعيد، وقد عقدت عزمها على البقاء فيه ما دامت روحها باقية في جسدها، ولم يسقها إلى ذلك سائق شهوة بشرية إن صحٍ أن تكون الشهوة البشرية عذرًا يدفع مثلها إلى مثل ما صنعت؛ لأنها فرّت من فراش زوجها، لا من وحشية خلوتها ولا سائق جوع؛ لأنها كانت أهنأ النساء عيشًا، وأروحهن بالاً، بل كانت على حالة من الرفاهية والنعمة والتقلب في أعطاف العيش البارد لم تر مثلها من قبل ولا من بعد، إذن فهي امرأة مجرمة لا يمنحها العدل من الرحمة ما منح المرأة الساقطة.

إن كانت هذه الفتاة عفيفة طاهرة كما يزعم الكاتب فقد أخطأ علماء اللغة جميعًا في وضع كلمة الفساد في معاجمهم، لأنها لا مسمى لها في هذا العالم، عالم العفة والطهارة والخير والصلاح، ولا يمكن أن يكون المراد منها فتاة المواخير لأنها لم تترك وراءها زوجًا معذبًا منكوبًا، ولم ترض عن حياتها الجديدة التي انتقلت إليها قط ولا اغتبطت بعيشها فيه اغتباط تلك الفتاة.

كل الأزواج ذلك الزوج إلا قليلاً، فإذا جاز لكل زوجة أن تفر من

---

(١) مذهب قديم كان يستحل أصحابه كل شيء رأيًا واعتقادًا.

زوجها إلى عشيقها كلما وقع فى نفسها الضجر من معاشرة الأول وبرقت لها بارقة الأنس من بين ثنايا الثانى، فويل لجميع الرجال من جميع النساء، وعلى النظام البيتى والرابطة الزوجية بعد اليوم ألف سلام.

أيها الكاتب! ليس فى استطاعتى ولا فى استطاعتك ولا فى استطاعة أحد من الناس أن يوقف دورة الفلك ويصدّ كر الغداة ومر العشى حتى لا يبلغ الأربعين من عمره مخافة أن تراه زوجته غير أهل لعشرتها إذا علمت أن فى الناس من هو أصغر منه سنًا وأكثر منه رونقًا وأنضر شبابًا.

إن الضجر والسآمة من الشىء المتكرر المتردد طبيعة من طبائع النوع الإنسانى فهو لا يصبر على ثوب واحد أو طعام واحد أو عشير واحد، وقد علم الله سبحانه وتعالى ذلك منه، وعلم أن نظام الأسرة لا يتم إلا إذا بنى على رجل وامرأة تدوم عشرتهما، ويطول ائتلافهما، فوضع قاعدة الزواج الثابت ليهدم بها قاعدة الحب المضطرب، وأمر الزوجين أن يعتبرا هذا الرباط رباطًا مقدسًا حتى يحول بينهما وبين رجوعهما إلى طبيعتهما، وذهابهما فى أمر الزوجية مذهبهما فى المطاعم والمشارب، من حيث الميل لكل جديد، والشغف بكل غريب.

هذا هو سر الزواج وهذه حكمته، فمن أراد أن يجعل الحب قاعدة العشرة بدلاً من الزواج، فقد خالف إرادة الله وحاول أن يهدم ما بناه ليهدم بهدمه السعادة البيتية.

أى امرأة متزوجة بأجمل الرجال لا تحدثها نفسها فى استبداله بأجمل منه؟ وأى رجل متزوج بأجمل النساء لا يتمنى أن يكون فى منزله أجمل منها، لولا هذا الرباط المقدس: رباط الزوجية، فهو الذى يعالج أمثال هذه الأمانى وتلك الهواجس وهو الذى يعيد إلى النفوس الثائرة سكونها وقرارها.

لا بأس أن يتثبت الرجل قبل عقد الزواج من وجود الصفة المحبوبة لديه فى المرأة التى يختارها لنفسه، ولا بأس أن تصنع المرأة صنيعه، ولكن لا على معنى أن يكون الحب الشهوى هو قاعدة الزواج، يحيا بحياته ويموت بموته. فالقلوب متقلبة، والأهواء نزاعة، بل بمعنى أن يكون كل منهما لصاحبه

صديقًا أكثر منه عشيقًا، فالصداقة ينمو بالمودة غرسها، ويمتد ظلها، أما الحب فظل ينتقل؛ وحال تتحول.

الإسلام والمسيحية

ما عجبت لشيء في حياتي عجبي لهؤلاء الذي يعجبون كثيرًا مما كتبه اللورد كرومر عن الإسلام، كأنما كانوا يتوقعون من رجل يدين بدين غير دين الإسلام يضن به ضنه بنفسه وماله أن يؤمن بالوحدانية، ويصدق الرسالة المحمدية، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويحج البيت ما استطاع إليه سبيلاً!

إن اللورد كرومر يعتقد كما يعتقد كل مسيحي متمسك بيسوعيته أن الإسلام دين موضوع ابتدعه عربي بدوي أمي ما قرأ في حياته صحيفة، ولا دخل مدرسة، ولا سمع حكمة اليونان، ولا رأى مدنية الرومان، ولا تلقى شيئًا من علوم الشرائع والعمران.

هذا مبلغ معتقده في ذلك الرجل، فكيف يرى نفسه بين يديه أصغر من أن يناقشه ويناظره ويخاطئه فيما وضعه الناس من الشرائع والأحكام؟ وكيف يسمح لنفسه أن ينظر إليه بالعين التي ينظر بها المسلم إليه من حيث كونه نبيًا مرسلاً موحى إليه من عند الله تعالى بكتاب كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ أما ما نقرؤه أحيانًا لبعض علماء الغرب المسيحيين من الثناء على الإسلام وإطراء أحكامه وآياته، فهو مكتوب بأقلام قوم مؤرخين قد أدوا للتاريخ حق الأمانة والصدق، فلم يعبث التعصب الديني بكتاباتهم، ولا تمشت الروح المسيحية في أقلامهم ولا ريب في أن اللورد كرومر ليس واحدًا منهم، فإن من قرأ كتابه «مصر الحديثة» خيل إليه أنه يسمع صوت راهب في صومعته قد لبس قلنسوته ومسوحه وعلق صليبه في زناره.

فهل يحق بعد ذلك لأحد من المسلمين أن يدهش أو يذهب به العجب كل مذهب إذا رأى في كتاب اللورد كرومر ما يراه كل يوم في كتب المبشرين

الإنجيليين، وجرائدهم ومجلاتهم، من الطعن على الإسلام وعقائده وشرائعه؟

بلغ التعصب الدينى بجماعة المبشرين أن حكموا بوجود اللحن فى القرآن بعد اعترافهم بأنه كتاب عربى نظمه على حسب معتقدهم رجل هو فى نظرهم أفصح العرب، وليست مسألة الإعراب واللحن مسألة عقلية يكون للبحث العقلى فيه مجال، وإنما الإعراب ما نطق به العرب، واللحن ما لم ينطقوا به؛ فلو أنهم اصطلحوا على نصب الفاعل ورفع المفعول مثلاً لكان رفع الأول ونصب الثانى لحنًا، ولكن جهلة المبشرين لم يدركوا شيئًا من هذه المسلمات، واستدلوا على وجود اللحن فى القرآن لقواعد النحو التى ما دونها مدونوها إلا بعد أن نظروا فى كلام العرب وتتبعوا تراكيبه وأساليبه، وأكبر ما اعتمدوا عليه فى ذلك هو القرآن المجيد، فالقرآن حجة على النحاة، وليست النحاة حجة على القرآن، فإذا وجد فى بعض تراكيب القرآن أو غيره من الكلام العربى ما يخالف قواعد النحاة حكمنا بأنهم مقصرون فى التتبع والاستقراء، على أنهم قصروا فى شىء من ذلك، وما تركوا كثيرًا ولا قليلاً ولا نادرًا ولا شاذًا إلا دونوه فى كتبهم، فلا القرآن بملحون، ولا النحاة مقصرون، ولكن المبشرين جاهلون، فإذا كان التعصب الدينى أنطق ألسنتهم بمثل هذه الخرافة المضحكة فليس بغريب أن نسمع هذا الرجل المتشبه بهم هذا الطعن على الإسلام فى عقائده وأحكامه.

إننا لا ننازع اللورد كرومر ولا أمثاله من الطاعنين على الإسلام فى معتقدهم ولكنا نحب منهم ألا ينازعونا فى معتقدنا، وأن يعطونا من الحرية فى ذلك ما أعطوه لأنفسهم.

يقول اللورد كرومر: إن الدين الإسلامى دين جامد لا يتسع صدره للمدنية الإسلامية، ولا يصلح للنظام الاجتماعى، ويقول: إن ما لا يصلح له الدين الإسلامى يصلح له الدين المسيحى، ويستدل على الإسلام بالمسلمين، وعلى المسيحية بالمسيحيين.

فى أى عصر من عصور التاريخ، كانت الديانة المسيحية مبعث العلم

ومطلع شمس المدنية والعمران؟ أفى العصر الذى كانت تدور فيه رحى الحرب الدموية بين الأرثوذكس والكاثوليكية تارة، وبين الكاثوليك والبروتستانت تارة أُخرى بصورة وحشية فظيعة اسود لها لباس الإنسانية، وبكت الأرض منها والسماء؟ أم فى العصر الذى كانت إرادة المسيحى فيه صورة من إرادة الكاهن الجاهل؛ فلا يعلم إلا ما يعلمه إياه، ولا يفهم إلا ما يلقيه إليه، فما كان يترك له الحرية حتى فى الحكم على نفسه بكفر أو إيمان، وبهيمية أو إنسانية، فيكاد يتخيل أن له ذنبًا متحركًا وخيشومًا طويلاً، وأنه يمشى على أربع إذا قال له الكاهن: أنت كلب، أو قال له: إنك لست بإنسان؟ أم فى العصر الذى كان يعتقد فيه المسيحى أن دخول الجمل فى سم الخياط أقرب من دخول الغنى فى ملكوت السموات؟ أم فى العصر الذى كان يحرم فيه الكاهن الأعظم على المسيحى أن ينظر فى كتاب غير الكتاب المقدس. وأن يتلقى علمًا فى مدرسة غير مدرسة الكنيسة؟ أم فى العصر الذى ظهرت فيه النجمة ذات الذنب فذعر لرؤيتها المسيحيون ورفعوا إلى البابا عرائض الشكوى فطردها من الجو فولت الأدبار؟! أم فى العصر الذى أهدى فيه الرشيد العباسى الساعة الدقاقة إلى الملك شارلمان، فلما رآها الشعب المسيحى وسمع صوتها فرّ من وجهها ظنًا منه أنها تشتمل على الجن والشياطين؟! أم فى العصر الذى ألفت فيه محكمة التفتيش لمحاكمة المتهمين بمزاولة العلوم فحكمت فى وقت قصير على ثلاثمائة وأربعين ألفًا بالقتل حرقًا أو صلبًا؟ أم فى العصر الذى أحرق فيه الشعب المسيحى فتاة حسناء بعدما كشط لحمها وحرق عظمها لأنها كانت تشتغل بعلوم الرياضة والحكمة؟

هذا الذى نعرفه أيها الفيلسوف التاريخى من تاريخ العلم والعرفان والمدنية والعمران فى العصور المسيحية، ولا نعلم أكانت تلك المسيحية التى كان هذا شأنها وهذا مبلغ سعة صدرها صحيحة فى نظرك أم باطلة، وإنما نريد أن نستدل بالمسيحيين على المسيحية، وإن لم يقف على حقيقتها كما فعلت أنت فى استدلالك بالمسلمين على الإسلام وإن لم تعرف حقيقته وجوهره، على أن استدلالنا صحيح واستدلالك باطل، فإن المدنية الحديثة ما دخلت أوربا إلا بعد أن زحزحت المسيحية منها لتحتل محلها كالماء الذى لا

يدخل الكأس إلا بعد أن يطرد منه الهواء لأنه لا يتسع لهما، فإن كان قد بقى أثر من آثار المسيحية اليوم فى أكواخ بعض العامة فى أوربا فما بقى إلا بعد أن عفت عنه المدنية ورضيت بالإبقاء عليه، لا باعتبار أنه دين يجب إجلاله وإعظامه، بل باعتبار أنه زاجر من الزواجر النفسية التى تستعين الحكومات بها وبقوتها على كسر شرّة النفوس الجاهلة، فلا علاقة بين المسيحية والتمدين الغربى من حيث يستدل به عليها، أو باعتبار أنه أثر من آثارها، ونتيجة من نتائجها، ولو كان بينه وبينها علاقة ما افترقت عنه خمسة عشر قرنًا كانت فيها أوربا وراء ما يتصوره العقل من الهمجية والوحشية والجهل، فما نفعتها مسيحيتها ولا أغنى عنها كهنوتها».

أما المدنية الإسلامية فإنها طلعت مع الإسلام فى سماء واحدة من مطلع واحد فى وقت واحد، ثم سارت إلى جانبه كتفًا لكتف ما ينكر من أمرها ولا تنكر من أمره شيئًا، فالمتعبد فى مسجده، والفقيه فى درسه، والمعرب فى خزانة كتبه، والرياضى فى مدرسته، والكيمائى فى معمله، والقاضى فى محكمته، والخطيب فى محفله، والفلكى أمام أسطرلابه، والكاتب بين محابره وأوراقه، إخوة متصافون وأصدقاء متحابون لا يختصمون ولا يقتتلون، ولا يكفر بعضهم بعضًا، ولا يبغى أحد منهم على أحد.

أيها الفيلسوف التاريخى: إن كان لابد من الاستدلال بالأثر على المؤثر فالمدنية الغربية اليوم أثر من آثار الإسلام بالأمس، والانحطاط الإسلامى اليوم ضربة من ضربات المسيحية الأولى. وإليك البيان:

جاء الإسلام يحمل للنوع البشرى جميع ما يحتاج إليه فى معاده ومعاشه ودنياه وآخرته، وما يفيده منفردًا، وما ينفعه مجتمعًا.

هذب عقيدته بعد ما أفسدها الشرك بالله والإسفاف إلى عبادة التماثيل والأوثان، وإحناء الرؤوس بين أيدى رؤساء الأديان، وأرشده إلى الإيمان بألوهية إله واحد لا يشرك به شيئًا، ثم أرشده إلى تسريح عقله ونظره فى ملكوت السموات والأرض ليقف على حقائق الكون وطبائعه، وليزداد إيمانًا بوجود الإله وقدرته وكمال تدبيره، ليكون اقتناعه بذلك اقتناعًا نفسيًا قلبيًا،

فلا يكون آلة صماء، في يد الأهواء تفعل به ما تشاء، ثم أرشده إلى مواقف تذكره بربه وتنبهه من غفلته وتطرد الشرور والخواطر السيئة عن نفسه كلما ابتغت إليها سبيلاً، وهي مواقف العبادات ثم أطلق له الحرية في القول والعمل، ولم يمنعه من الشرك بالله والإضرار بالناس، وعرفه قيمة نفسه بعدما كان يجهلها، وعلمه أن الإنسانية لا فرق بين فقيرها وغنيها ووضيعها ورفيعها وضعيفها وقويها، وأن الملك والسوقة، والشريف الهاشمي، والعبد الزنجي: أمام الله والحق سواء، وأن الأمر والنهي، والتحليل والتحريم، والنفع والضر، والثواب والعقاب، والرحمة والغفران: بيد الله وحده لا ينازعه منازع، ولا يملكها عليه أحد من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، ثم نظر في أخلاقه فأرشده إلى محاسنها، ونفره من مساوئها حتى علمه آداب الأكل والشرب، والنوم والمشي، والجلوس والكلام، والتحية والسلام ثم دخل معه منزله فعلمه كيف يبر الابن أباه ويرحم الوالد ولده. ويعطف الأخ على أخيه، ويكرم الزوج زوجته، وتطيع الزوجة زوجها، وكيف يكون التراحم والتواصل بين الأقرباء وذوي الرحم، ثم نظر في شؤونه الاجتماعية ففرض عليه الزكاة التي لو جمعت ووضعت في مواضعها المشروعة لما كان في الدنيا بائس ولا فقير وندبه إلى الصدقة ومساعدة الأقوياء للضعفاء، وعطف الأغنياء على الفقراء. ثم شرع له الشرائع للمعاملة الدنيوية. ووضع له قوانين البيع والشراء والرهن والهبة والقرض والتجارة والإجارة والمزارعة والوقف والوصية والميراث، ليعرف كل إنسان حقه، فلا يغبن أحد أحداً، ثم قرر له عقوبات دنيوية تمنعه أن يبغي بعضه على بعض بشتم أو سب أو قتل أو سرقة أو انتهاك حرمة أو مجاهرة بمعصية أو شروع في فتنة أو خروج على أمير أو سلطان، ثم نظر في شؤونه السياسية فقرر الخلافات وشروطها، والقضاء وصفاته، والإمارة وحدودها، وقرر كيف يعامل المسلمون مخالفيهم في الدين البعيدين عنهم والنازحين إليهم، وذكر مواطن القتال معهم، ومواضع المسالمة لهم.

وجملة القول: أن الدين الإسلامي ما غادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا ترك الإنسان يمشي في ميدان هذه الحياة خطوة من مهده إلى لحده، إلا مدَّ يده إليه وأنار له مواقع أقدامه، وأرشده إلى سواء السبيل.

طلعت هذه الشمس المشرقة فى سماء العرب فملأت الكون نورًا وإشراقًا، واختلف الناس فى شأنها ما بين معترف بها، ومنكر لوجودها ولكنهم كانوا جميعًا سواء فى الانتفاع بنورها، والاستنارة بضيائها على تفاوت فى تلك الاستنارة وتنوع فى ذلك الانتفاع.

طلعت هذه الشمس المشرقة فتمشت أشعتها البيضاء إلى أوربا من طريق أسبانيا وجنوب إيطاليا وفرنسا، فأبصرها عدد قليل من أذكياء الغربيين، فانتبهوا من رقدتهم واستيقظوا من سباتهم، ورأوا من جمال المذاهب الإسلامية وشرائع الكون ونظاماته وقواعد الحرية والمساواة ما لفت نظرهم إلى المقابلة بين المجتمع الغربى الخامل الضعيف والمجتمع الشرقى النابه اليقظ، فقالوا: أيمكن أن يعيش الإنسان حرًا على ظهر المسكونة لا يستعبده ملك ولا يسرقه كاهن؟ أيمكن أن يبيت المرء ليلة واحدة فى حياته هادئًا فى مضجعه مطمئنًا فى مرقده، لا يروعه دولاب العذاب، ولا سيف الجلاد؟ أيمكن أن تملك النفس حريتها فى النظر إلى نظام العالم وطبائعه ودراسة العلوم الكونية ومزاولتها؟ أيمكن أن يطلع فجر المدنية على هذا المجتمع الغربى فيمحو ظلمته التى طال عهدنا بها حتى غشيت أبصارنا فما يكاد يرى بعضنا بعضًا؟

كانت هذه الخواطر المترددة فى عقول أولئك الأذكياء هى الخطوة الأولى التى مشتها أوربا فى طريق المدنية والعمران بفضل الإسلام وشرائعه التى عرفها هؤلاء الأفراد من مخالطة المسلمين فى أوربا ومطالعة كتبهم ومناظرة حضارتهم ومدنيتهم، ثم أخذوا يعلمونها للناس سرًا ويبثونها فى نفوس تلاميذهم شيئًا فشيئًا، ويلقون فى سبيل نشرها عناء شديدًا، واستمر هذا النزاع بين العلم والجهل قرونًا عدة حتى انتهى أمره بالثورة الفرنسية، فكانت هى القضاء الأخير على الوحشية السالفة والهمجية القديمة.

أيها الفيلسوف التاريخى: إنك لابدَّ تعلم ذلك حق العلم لأنه أقل ما يجب على المؤرخ أن يعلمه، كما تعلم أن المدنية الإسلامية إذا وسعت غيرها فأحر بها أن تسع نفسها، ولكن التعصب الدينى قد بلغ من نفسك مبلغه، فما كفاك أن أنكرت فضل صاحب الفضل عليك، حتى أنكرت عليه فضله فى نفسه!

لا حاجة بى أن أشرح لك المدنية الإسلامية أو أسرد لك أسماء علمائها وحكمائها ومؤلفاتهم فى الطبيعة والكيمياء والفلك والنبات والحيوان والمعادن والطب والحكمة والأخلاق والعمران، أو أُعدِّد لك مدارسها ومجامعها ومراصدها فى الشرق والغرب، أو أصف لك مدنها الزاهرة، وأمصارها الزاخرة، وسعادتها وهناءتها، وعزتها وسطوتها، فأنت تعرف ذلك كله إن كنت مؤرخًا كما تقول.

غير أنى لا أنكر ما لحق بالمسلمين فى هذه القرون الأخيرة من الضعف والفتور، وما أصاب جامعتهم من الوهن والانحلال، ولكن ليس السبب ذلك الإسلام كما نتوهم، بل المسيحية التى سرت عدواها إليهم على أيدى قوم من المسيحيين أو أشباه المسيحيين لبسوا لباس الإسلام وتزينوا بزيه ودخلوا بلاده وتمكنوا من نفوس ملوكه الضعفاء، وأمرائه الجهلاء، فأمدوهم بشىء من السطوة والقوة تمكنوا به من نشر مذاهبهم السقيمة وعقائدهم الخرافية بين المسلمين، حتى أفسدوا عليهم مذاهبهم وعقائدهم، وأوقعوا الفتنة فيهم، وحالوا بينهم وبين الاستمداد من روح الإسلام وقوته فكان من أمرهم بعد ذلك ما كان.

كل ما نراه اليوم بين المسلمين: من الخلط فى عقيدة القضاء والقدر، وعقيدة التوكل، وتشييد الأضرحة وتخصيص القبور وتزيينها والترامى على أعتابها، والاهتمام بصور العبادات وأشكالها دون حكمها وأسرارها، وإسناد النفع والضرر إلى رؤساء الدين، وأمثال ذلك أثر من آثار المسيحية الأولى، وليس من الإسلام فى شىء.

أيها الفيلسوف التاريخى: لا تقل إننا متعصبون تعصبًا دينيًا فإنك قد أسأت إلينا وإلى ديننا، فلم نر بدًا من الذب عنا وعنه بما تعلم أنه حق وصواب، على أنه لا عار علينا فيما تقول، وهل التعصب الدينى إلا اتحاد المسلمين يدًا واحدة على الذود عن أنفسهم والدفاع عن جامعتهم؛ وإعلاء شأن دينهم ونصرته حتى يكون الدين كله لله.

إن كان رفضًا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافض

أهنــاء أم عــزاء

فارق مصر على أثر إعلان الدستور العثمانى كثير من فضلاء السوريين بعدمـا عمروا هذه البـلاد بفضائلهم ومـآثرهم وصيروها جـنة زاخرة بالعلوم والآداب ولقنوا المصـريين تـلك الدروس العـاليـة فى الصـحـافـة والتـأليف والترجمة، وبعد ما كانوا فينا سفراء خير بين المدنية الغربية والمدنية الشرقية.. يأخذون من كـمال الأولى ليـتممـوا ما نقص من الأخـرى، وبعد مـا علموا المصرى كيف ينشط للعمل وكيف يجد ويجتـهد فى سبيل العيش وكيف يثبت ويتجلد فى معركة الحياة.

قضوا بيننا تلك البرهة من الزمان يحسنون إلينا فنسىء إليهم، ويعطفون علينا فنسـميهم تارة دخـلاء، وأخرى ثقـلاء، كأنما كنا نحسـب أنهم قوم من شذّاذ الآفاق أو نفايات الأمم جاءوا إلينا يصادروننا فى أرزاقنا، ويتطفلون على مـوائدنا، ولو أنصـفناهم لعـرفناهم وعـرفنا أن أكـثرهم من بيـوتات المجـد والشرف، وإنما ضاقت بهم حكومة الاستبداد ذرعًا، وكذلك شأن كل حكومة مستبدّة مع أحرار النفوس وأباة الضيم، فأحرجت صدورهم، وضيقت عليهم مذاهبهم ففروا من الظلم تاركين ورائهم شـرفًا ينعاهم، ومجداً يبكى عليهم، ونزلوا بيننا ضيوفًا كرامًا، وأساتذة كباراً، فما أحسنا ضيافتهم ولا شكرنا لهم نعمتهم.

وبعـد: فقـد مضى ذلك الزمن بخـيره وشـره، وأصبـحنا اليوم كلـما ذكرناهم خـفقت أفئدتنا مـخافة أن يلحق باقـيهم بماضيـهم، فلا نعلم أنشكر للدستور إن فرج عنهم كربتهم، وأمنهم على أنفسهم، وردهم إلى أوطانهم أم نتقم منه أنه كان سـببًا فى حـرماننا منهم، بعـد أنسنا بهم، واغتبـاطنا بحسن عشرتهم وجـميل مودتهم، ولا ندرى هل نحن بين يدى هذا النظام العـثمانى الجديد فى هناء أم فى عزاء؟.

فيا أيها القوم المودعون، والكرام الكاتبون:

اذكرونا مثل ذكرانا لكم ... رب ذكرى قربت من نزحا
واذكروا صبا إذا غنى بكم ... شرب الدمع وعاف القدحا

الزوجتان

حدَّثنى أحد الأصدقاء قال: سأقص عليك قصة ليست من خيالات الشعراء ولا أكاذيب القصاصين.

أويت إلى مضجعى فى ليلة من ليالى الشتاء حالكة الجلبات، غدافية الإهاب فما استقبلت أول طليعة من طلائع النوم حتى قرع باب غرفتى فتسمعت فإذا الخادم تقول: أن امرأة سيئة الحال رثة الثياب فى زى المتسولات تلح فى طلب مقابلتك وتقول: أن لها عندك شأنًا، فقلت فى نفسى: لا شأن لى مع امرأة ربما كانت ذات حاجة وكانت حاجتها إلىَّ أكثر من حاجتى إلى النوم، على أن النوم لا يفوتنى، فليل الشتاء أطول من يوم القضاء، فارتديت ردائى ونزلت، فإذا فتاة فى ملاءة بالية وخمار خلق ينم بجمالها كما ينم السحاب المتقطع بضوء الشمس، وإذ هى ترعد وتضطرب وتقول بصوت شجى: أما فى الناس أخو همة ومروءة يعين على الدهر الغادر ويطفئ هذه الجذوة التى تتأجج بين أضالعى بقطرة واحدة من الرحمة؟ فقلت: من أنت يرحمك الله؟ قالت: أنا فلانة زوج فلان، فدهشت وغصصت بريقى حتى ما أجد بلة أحرك بها لسانى لهول ما سمعت وسوء ما رأيت، وقلت: يا للعجب! زوج فلان على عظمه وعظمها، وجلاله وجلالها، تخرج فى مثل هذه الساعة فى مثل هذه البزة! وسألتها: ما شأنك يا سيدتى ومم تبكين؟ قالت: لا تحدث نفسك بريبة ولا تذهب بك الظنون مذاهبها، فوالله ما جئت إليك تحت ستر الليل إلا وأنت أوثق الناس عندى، وأرفعهم فى عينى، ولولا

شدة أقلقت مضجعى وفرقت ما بين جفنى والكرى ما خضت إليك سواد الليل فى مثل هذه الساعة ولا احتملت فى سبيل ذلك ما احتملت، قلت: عهدى بسيدتى رخية البال ناعمة العيش سعيدة الحظ بزوج عذب الأخلاق كريم السجايا يؤثر هوى نفسه على هواك، ولا يعدل بك أحدًا، قالت: إنك تقص علىَّ حديث الأمس وقد مضى به الفلك الدائر، والكوكب السيار، فاستمع منى حديث اليوم:

أظنك تذكر تاريخ زواجى منه وأنه كان منذ ثلاثة أعوام، وأن أبى قد آثره وفضله على جميع الخاطبين إليه من علية القوم وجلتهم، وأنا لا ألومه على ذلك رحمة الله عليه فما أراد بى شرًا ولا اعتمد أن يسىء الاختيار لى، ولكنه كان رجلاً طيب السريرة طاهر القلب، فخدعه الخادعون عنى، ومن ذا الذى لا يخدع بشاب متعلم مهذب من ذوى المناصب الكبيرة والرتب العالية، وكيفما كان الأمر فقد تم عقد الزواج بيننا فاغتبطت به واغتبط بى برهة من الزمان حسبتها دائمة لا انقطاع لها حتى يفرق بيننا الموت، وكنت امرأة أجمع فى نفسى جميع ما يمت به النساء إلى الرجال، فما خنته ولا ضقت ذرعًا به، ولا قطبت فى وجهه مرة ولا أتلفت له مالاً، ولا نقضت له عهدًا، فجازانى بالإحسان سوءًا، وكفر بنعمة الله بعد الإيمان، وخان ودى، ونقض عهدى، لا لذنب جنيته، أو وصمه يصمنى بها، ولكنه رجل ملول متبرم، ولا تغضب يا سيدى إن قلت لك: إن قلب الرجل متقلب متلون يسرع إلى البغض كما يسرع إلى الحب، وإن هذه المرأة التى تحتقرونها وتزدرونها وتضربون الأمثال بخفة عقلها وضعف قلبها أوثق منه عقدًا، وأمتن ودًا، وأوفى عهدًا، ولو وفى الزوج لزوجته وفاءها له ما استطاع أن يفرق بين قلبيهما إلا ريب المنون. قلت: أنا لا أغضب لشىء إلا للإنسانية أن يخفر ذمامها، وينقض عهدها، ثم ماذا تم بعد ذلك؟ قالت: مات أبى كما تعلم وخلف لى مالاً أمكنت منه زوجى فأتلفه بين الخمر والقمر، فكنت أغضى على ذلك رحمة به وشفقة عليه استبقاء لوده، حتى إذا صفرت يدى وأقفر ربعى أحسست منه مللاً كان يدعوه

إلى سوء عشرتى وتعذيب جسمى ونفسى، وكان كثيراً ما يتهكم بى ويقول: إننى لا أحب المرأة الجاهلة التى لا تفهمنى ولا أفهمها، وآونة كان يعرض بى قائلاً: إن الرجل السعيد هو الذى يرزق زوجة متعلمة، تقرأ له الجرائد والمجلات وتتبسط معه فى الشؤون الاجتماعية والسياسية، بل يتجاوز التعريض أحيانًا إلى التصريح، فيقول كلما دخل علىّ متأففًا متذمراً: ليت لى زوجة كفلانة فإنها تحسن الرقص والغناء والتوقع على الآلات الموسيقية، فكنت أشك فى سلامة عقله، وأقول فى نفسى: كيف يفضل الزوجة المتبذلة المستهترة على الحيية المحتشمة، ووالله ما تمنيت مرة أن أكون على الصفة التى يحبها ويرضاها مع ما كنت أبذل فى رضاه من ذات اليد وذات النفس. وبعد؛ فما زال الملل يدب فى نفسه دبيب الصهباء فى الأعضاء حتى تحوَّل إلى بغضاء شديدة، فما كان يلحظنى إلا شزراً ولا يدخل المنزل إلا لتناول غرض أو قضاء حاجة، ثم يخرج لشأنه فكنت أحتمل كل هذا بقلب صبور، وجنان وقور، حتى عرض له بعد ذلك أن نقل إلى منصب أرقى من منصبه فى بعض بلاد الأقاليم، فسافر وحده وتركنى فى المنزل وحيدة لا مؤنس لى غير طفلتى، فلبثت أترقب كتابًا منه يدعونى فيه إلى اللحاق به؛ فما أرسل كتابًا ولا رسولاً ولا نفقة، فاستكتبت إليه الكتاب فما أسلس قياده، ولا طاوع عناده، فسافرت إليه مخاطرة بنفسى غير مبالية بغضبه لأعلم غاية شأنه معى، فما نزلت من القطار حتى قيض الله لى من وقفنى على حقيقة أمره، وأعلمنى أنه تزوج من فتاة متعلمة تقرأ له الجرائد والروايات وتفاوضه فى المسائل الاجتماعية والسياسية، وتحسن الرقص والغناء والتوقيع على القطع الموسيقية، فداخلنى من الهم ما الله به عليم، وجزعت ولكن أى ساعة مجزع، ولا أظن إلا أن العدل الإلهى سيحاسبه على كل قطرة من قطرات الدموع التى أرقتها فى هذا السبيل حسابًا غير يسير.

وكأنه شعر بمكانى، فجاء إلىَّ يتهددنى ويتوعدنى فتوسَّلت إليه ببكاء طفلته التى كنت أحملها على يدى، وذكرته بالعهود والمواثيق التى تعاقدنا

عليهـا، وذهبت فى استعطافه واسـتدنائه كل مذهب، فكنت كـأننى أخاطب ركودًا صماء(١) أو أستنزل أبودًا عـصماء(٢) ثم طردنى وأمر من حملنى إلى المحطة، فعدت من حيث أتيت.

فما وصلت إلى المنزل حتى خلعت ملابسى وليست هذه الثياب وجئتك متنكرة فى ذمـام الليل، لأنى وحيدة فى هذا العالم لا قـريب لى ولا حميم، ولأنى أعلم كـرمك وهمتك ومـا بينك وبين ذلك الرجل من الود والاتصـال عسى أن تـرى لى رأيًا فى التفـريق بينى وبينه، علنى أجـد فى فضاء الحـرية منفـذًا كسم الخـياط أرتشف منـه ما أتبلغ به أنا وطفـلـتى حتى يبلغ الكتـاب أجله.

فأحـزننى من أمر تلك الفتـاة البائسة مـا أحزننى، ووعدتـها بالنظر فى أمرها بعـد أن هونت عليهـا بعض أحزانهـا ولواعجهـا، فعادت إلـى منزلها وعدت إلى مضـجعى أفكر فى هذه الحادثة الغريبة، وقـد اكتنفنى همان: هم تلك البائسة التى لم أر فى تاريخ شـقاء النساء قلبًا أشقى من قلبـها ولا نجمًا أنحس من نجـمها، وهم ذلك الصـديق الذى ربحتـه سنين عدة وخـسرته فى ساعـة واحدة، فقـد كنت أغبط نفـسى عليه فأصـبحت أعزيـها عنه، وكنت أحسبه إنسانًا فإذا هو ذئب عملس(٣) تستره الصورة البشـرية وتواريه البشاشة والابتسامة.

هذا ما قصـه علىَّ ذلك الصديق الكريم، ثم لم أعد أعلم بعـد ذلك ما تم من أمره مـع تلك الفتاة المـسكينة، ولا ما تم من أمـرها مع زوجهـا حتى جاءنى منه أمس ذلك الكتاب بعد مرور عـام على تلك القصة الغريبة، وهذا نصه:

سيدى:

---

(١) الركود -من الركود- وهو الثبات والسكون. والصخرة الصماء: الصلبة المصمتة.
(٢) أبدت البهيمة: توحشت. والعصماء من الظباء: التى فى ذراعيها بياض وسائرها أسود.
(٣) العملس: السريع.

يهمني كثيرًا أن أرى بين كتب التهنئة التي ترد إليَّ كتابًا منك لأسر بمشاركتك إياي في سروري وهنائي.

إنك لابد تذكر تلك القصة التي كنت قصصتها عليك منذ عام في شأن تلك الفتاة البائسة التي خانها زوجها «فلان» وغدر بها وهجرها إلى أخرى غيرها بعدما جردها مما كانت تملك يدها وما كان من أمر مجيئها عندي وبث شكواها إليَّ، وربما كنت لا تعلم بما كان من أمرها بعد ذلك، فاعلم أنها دفعت زوجها إلى موقف القضاء فضاق بأمرها ذرعًا فطلقها، وكنت أفكر في ذلك التاريخ كما تعلم في الزواج من زوج صالحة أجد السعادة في العيش بجانبها، وما كنت لأجد زوجة أشرف نفسًا ولا أكرم عنصرًا ولا أذكى قلبًا منها، فتزوجتها فأمتعت نفسي بخير النساء وأنقذت الإنسانة المعذبة من شقوتها وبلائها، وأبشرك أن الله قد انتقم لهذه الفتاة المظلومة من ذلك الرجل الظالم انتقامًا شديدًا، فقد حدثني من يعلم دخيلة أمره أنه يعاني اليوم من زوجته الجديدة الموت الأحمر، والشقاء الأكبر، وأنها امرأة قد أخذت التربية الحديثة من نفسها مأخذًا عظيمًا فحولتها إلى فتاة غربية في جميع شؤونها وأطوارها، والرجل المصري شرقي بفطرته كائنًا من كان، أما غربيته فهي متكلفة معتملة يدور بها لسانه ولا أثر لها في نفسه، فهو يقاسي من تلك المرأة الخرقاء، أضعاف ما كانت تقاسيه منه أشرف النساء، والسلام؟

في سبيل الإحسان

الإحسان شيء جميل، وأجمل منه أن يحل محله، ويصيب موضعه.

الإحسان في مصر كثير، ووصوله إلى مستحقه وصاحب الحاجة إليه قليل؛ فلو أضاف المحسن إلى إحسانه إصابة الموضع فيه لما سمع سامع في ظلمة الليل شكاة بائس، وأنة محزون.

ليس الإحسان هو العطاء كما يظن عامة الناس؛ فالعطاء قد يكون نفاقًا

ورياء، وقد يكون أحبولة ينصبها المعطى لاصطياد النفوس والأعناق، وقد يكون رأس مال يتجر فيه صاحبه ليذل قليلاً ويربح كثيراً.

إنما الإحسان عاطفة كريمة من عواطف النفس تتألم لمناظر البؤس ومصارع الشقاء: فلو أن جميع ما يبذله الناس من المال ويسمونه إحسانًا - صادر عن تلك العاطفة الشريفة- لما تجاوز محله، ولا فارق موضعه.

فوضى الإحسان:

الإحسان فى مصر فوضى لا نظام له، يناله من لا يستحقه، ويحرم منه مستحقه، فلا بؤسًا يرفع، ولا فقرًا يدفع، فمثله كمثل السحاب الذى يقول فيه أبو العلاء:

ولو أن السحاب همى بعقل   لما أروى مع النخل القتادا[1]

الإحسان فى مصر أن يدخل صاحب المال ضريحًا من أضرحة المقبورين فيضع فى صندوق النذور قبضة من الفضة أو الذهب ربما يتناولها من هو أرغد منه عيشًا وأنعم بالاً، أو يهدى ما يسميه نذرًا من نعم وشاء إلى دفين فى قبره قد شغله عن أكل اللحوم والتفكه بها ذلك الدود الذى يأكل لحمه والسوس الذى ينخر عظمه، وما أهدى شاته ولا بقرته -لو يعلم- إلا إلى «وزارة الأوقاف» وكان خيرًا له أن يهديها إلى جاره الفقير الذى يبيت ليله طاويًا يتشهى ظلفًا[2] يمسك رمقه، أو عرقوبًا يطفئ لوعته.

وأعظم ما يتقرَّب به محسن إلى الله، ويحسب أنه بلغ من البر والمعروف غايتيهما: أن ينفق بضعة آلاف من الدنانير فى بناء مسجد للصلاة فى بلد مملوء بالمساجد، حافل بالمعابد، وفى البلد كثير من البائسين وذوى الحاجات، ينشدون مواطن الصلات، لا أماكن الصلوات، أو يبنى بنية ضخمة مرفوعة القباب، فسيحة الرحاب، مموهة الجوانب والأركان، مذهبة السقوف

(١) القتاد: شجر صلب له شوك لا فائدة منه.
(٢) ظلف البقرة: ظفرها.

والجدران يسميها «سبيلاً» ولا يهولنك هذا الاسم الضخم، فكل ما فى الأمر أن السبيل مكان يشتمل على حوض من الماء ربما لا يكون بينه وبين ماء النهر إلا بضع خطوات، على أن الماء كالهواء ملء الأرض والسماء، ويقف الضياع الواسعة من الأرض لتنفق غلتها على أقوام من ذوى البطالة والجهالة نظير انقطاعهم لتلاوة الآيات، وترديد الصلوات، وقراءة الأحزاب والأوراد، وهو يحسب أنه أحسن إليهم، ولو عرف موضع الإحسان لأحسن إليهم بقطع ذلك الإحسان عنهم علهم يتعلمون صناعة أو مهنة يرتزقون منها رزقًا شريفًا، فإن كان يظن أنه يعمل فى ذلك عملاً يقربه إلى الله تعالى أجل من أن يعبأ بعبادة قوم يتخذون عبادته سلمًا إلى طعام يطعمونه، أو درهم يتناولونه، أو يفتح أبواب منزله لهؤلاء المحتالين المتلصصين الذين يسمونهم مشايخ الطرق، ولو أنصفوهم لسموهم قطاع الطرق، ولا فرق بين الفريقين: إلا أن هؤلاء يتسلحون بالبنادق والعصى، وأولئك يتسلحون بالسبح والمساويك، ثم يسقطون على المنازل سقوط الجراد على المزارع، فلا يتركون صادحًا ولا باغمًا ولا خفًا ولا حافرًا، ولا شيئًا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها.. إلا أتوا عليه.

أسوأ الإحسان:

لم أر مالاً أضيع ولا عملاً أخيب ولا إحسانًا أسوأ من الإحسان إلى هؤلاء المتسولين الذين يطوفون الأرض ويقلبونها ظهرًا لبطن، ويجتمعون فى مفارق الطرق، وزوايا الدروب، وعلى أبواب الأضرحة والمزارات يصمون الأسماع بأصواتهم المزعجة، ويقذون النواظر بمناظرهم المستبشعة، ويزاحمون بمناكبهم الفارس والراجل، والجالس والقائم، فلو أن نجمًا هوى إلى الأرض لهووا على أثره، أو طائرًا طار إلى الجو لكانوا قوادمه وخوافيه[1].

وإن شئت أن تعرف المتسول معرفة حقيقية لتعرف هل يستحق عطفك وحنانك، وهل ما تسديه إليه من المعروف تسديه إلى صاحب حاجة، فاعلم

(١) القوادم، الريشات التى فى مقدم الجناح، والخوافى: التى إذا ضم الطائر جناحيه خفيت.

أنه في الأعم الأغلب من أحواله رجل لا زوجة له ولا ولد ينفق عليهما، ولا مسكن لـه يحتاج إلى مـؤن ومرافق، ولا شـهوة له في مطعم أو مـشرب أو ملبس. حـتى لو علم أن الانقطاع عن ذلك الخسـيس من الطعام والـقذر من الشراب، لا يقعده عن السعي في سـبيله لانقطع عنه، وهو لو شاء أن يتزوج أو يتخذ له مأوى يأوى إليـه لفعل، ولو جد في حرفته مـتسعًا لذلك؛ ولكنه الحرص قد أفسد قلبه وأمات نفـسه، فهو يتوسل بأنواع الحيل وصنوف الكيد، ليجـمع مالاً لا فائدة من جـمعه، ولا نيـة له في إصلاح شأنه به إذا اجـتمع عنده مـا يقـوم له بذلك، بل ليدفـنه في باطن الأرض حتـى يدفن معـه، أو لينظمه في سلك مـرقعته حـتى يرثه الغاسل من بعده، ولقـد يبلغ به الحرص الدنيء والشره السافل، أن يحمل في المال ما لا يستطيع مجاهد أن يحمل في سبيل الله، فيتعمد قطع يده أو ساقـه أو إتلاف عينيه أو إحداهما، ليستعطف القلوب عليـه، وكثيـرًا ما يحـسد صاحـبه إذا رآه أكـثر منه دمـامة، وأعظم تشويهًا.

كما يحكى أن شحاذًا مقطوع الساق قد وضع مكانها أخرى من الخشب تقابل مع آخر كـفيف البصر، فتنافـسا في مصيبتـيهما أيتهـما أقذى للأعين، وأقتل للنفوس، وأجلب للرحمة والشفقة، فقال الأول للثاني: لقد وهبك الله نعمة العمى ومنحك بسلب ناظريك أفضل حـبالة لاصطياد القلوب واستفراغ الجيوب. فـقال له صاحبه: وأين يبلغ العـمى من هذه القدم الضخمـة الثقيلة التي تجلب في كل عام وزنها ذهبًا؟

إن أكبر جريمة يجرمها الإنسـان إلى الإنسانية أن يساعد هؤلاء المتسولين بماله على الاستمرار في هذه الخطة الدنيئة فيغرى كل من شعر في نفسه بالميل إلى البطالة وإيثار الراحـة بالسعي على آثارهم، والاحتراف بحـرفتهم؛ فكأنه قطع من جسم الإنسانية عضوًا كاملاً، لو لم يقطعه لكان عضوًا عاملاً، فكأنه هدم بعمله هذا جـميع المساعي الـشريفة التي بذلهـا الأنبياء والحكمـاء قرونًا عديدة لإصـلاح المجتمع الإنسـاني، وتهذيب أخـلاقه، وتخليصـه من آفات الجمـود والخمول؛ فـهل رأيت معروفـا أقبح من هذا وإحسـانًا أسوأ من هذا الإحسان؟!

تنظيم الإحسان:

ليست كمية المال التى ينفقها المحسنون فى سبيل الإحسان مما يستهان به، فلو قال قائل: إنها تبلغ فى مصر وحدها كل عام مليونًا من الذهب لما أخطأ التقدير.

سألت رجلاً من وجوه الريفيين المعروفين بالبر والإحسان عن كمية ما ينفقه كل عام فى هذا السبيل، فأطلعنى على جريدة حسابه فرأيتها هكذا:

جنيه	
١٠	ولائم لمشايخ الطرق.
٦٠	ليالى فى موالد البيومى والعفيفى والدشطوطى.
٧٢	مرتبات قراءة القرآن والدلائل والصلوات فى مسجده ومنزله.
٣٠	هبات لجماعة الطوافين فى البلاد الذين يستجدون باسم المجد القديم والشرف الدائر.
١٨	صدقات للمتسولين على تقدير خمسة قروش يوميًا تقريبًا.
١٠	توضع فى صناديق الأضرحة.
٤٠	ثمن خبز ولحم وملابس توزع فى المواسم الدينية.
٢٤٠	المجموع

فهذه أربعون ومائتا جنيه ينفقها فى سبيل الإحسان رجل واحد من متوسطى الثروة فى عام واحد، وفى مصر مئات مثله وعشرات يزيدون عليه وآلاف يقلون عنه، فلا غرابة فى أن يقدر هذا النوع من الإحسان بمليون جنيه ينفقه منفقوه على غير شىء سوى إغراء الكسلان بكسله وحمل العامل على ترك عمله، وفى اعتقادى لو أن هذا المقدار حل من الإحسان محله، وأصاب منه موضعه، وأنفق فى سبل الخير النافعة، ووجوه البر الحقيقية، لارتقى بالأمة المصرية إلى ذروة الكمال، ولكان له الأثر الجليل فى وصولها إلى ما تتطلع إليه من هناء العيش وسعادة الحياة.

لذلك أقترح فى تنظيم الإحسان اقتـراحًا نافعًا وأدعوا الكاتبين الذين لا مـصلحة لهم فى إثارة الخـواطر وتهـييج النفـوس، وضـرب الناس بعضـهم ببعض، أن يساعدونى بأقلامهم على تحقيق ما أتمناه فى هذا المقترح المفيد.

أقترح أن يقوم جـماعة من سراة الأمة ووجوهها وأصحـاب الرأى فيها بتأليف مجتمع فى القاهرة يسمـى «مجتمع الإحسان» ويكون له فى كل مدينة من مدائن الأقاليم فرع تابع له.

أما أعماله التى أحب أن يقوم بها بالاتحاد مع فروعه فهى ثلاثة:

(أ) استخدام فـريق من مهرة الكتاب وفصحاء الخطبـاء يقومون بتعليم أفراد الأمة بكل واسطة من وسائل النشر وبكل وسيلة من وسائل التأثير معنى الإحسان، ومـا هو الغرض منه، وما هى أفضل وجـوهه، وأى أنواعه أجمع لخيرى الدنيا والآخرة.

(ب) بذل الجهد فى حمل الناس على اعتبـار مجتمع الإحسان هذا بيت مال لهـم أو وكالة عامـة عنهم تتولى جـمع الصدقـات منهم وتوزيعهـا على مستحقيها وحسبها أن تأخذ من كل فرد فى عام مجموع ما يحسن به عادة فى ذلك العام، فلا يكون بعـد ذلك مأخوذًا بشىء من الإحســان أمام ربه، وأمام أمته أكثر مما قدمه لهذا المجتمع.

(جـ) إنفاق ما يجتمع من المال على تـربية اليتامى الذين لا كاسب لهم والقيام بأود العاجزين عن الكسب وتفقد شؤون الذين نكبهم الدهر وتنكر لهم بعد الـعزة والنعـمة، وصيـانة ماء وجـوههم أن تراق على تراب الأعـتاب، والإنفـاق على تعليم من يتوسم فـيهم الـذكاء والفطنة ويرجى أن تنتـفع بهم الأمة فى مستقـبلها من أبناء الفقراء، إلى أمثال هذه الأعمال الخـيرية الشريفة التى لا يتحقق الإحسان بدونها، ولا ينصرف معناه إلا إليها.

أنا أعتقد اعتقادًا لا ريب فيه أن من يخطو الخطوة الأولى فى سبيل هذا العمل الجليل، ومن يضع الحـجر الأول فى بناء مجتمـع الإنسان، هو أفضل عامل فى الوجود وأشرف إنسان.

أدب المناظـــرة

أنا لا أقول إلا مـا أعتقـد، ولا أعتقـد إلاّ ما أسمع صـداه من جوانب نفسى؛ فربمـا خالفت الناس فى أشياء يعلمـون منها غير ما أعـلم، ومعذرتى إليهم فى ذلك أن الحـق أولى بالمجاملة منهم، وأن فى رأسى عـقلاً أجله عن أن أنزل به إلى أن يكون سـيقـة[1] للعـقول، وريشـة فى مـهاب الأغـراض والأهواء.

فهل يجمل بـعد ذلك بأحد من الناس أن يرمينى بجـارحة من القول أو صاعقة من الغضب لأنى خالفت رأيه أو ذهبت غير مذهبه، أو أن يرى أن له من الحق فى حملى على مـذهبه، أكثر مما يـكون لى من الحق فى حمله على مذهبى.

لا بأس أن يؤيد الإنسان مـذهبه بالحجـة والبرهان، ولا بأس أن ينقض أدلة خصـمه ويزيفها مما يعـتقد أنه مـبطل لها، ولا ملامة عليـه فى أن يتذرع بكل ما يعرف من الوسائل إلى نشر الحقيـقة التى يعتقدها إلا وسيلة واحدة لا أحـبهـا له ولا أعتـقد أنهـا تنفعـه أو تغنى عنه شـيئًـا، وهى وسيلة الشـتم والسباب.

إن لإخلاص المتكلم تأثيـرًا عظيمًا فى قـوة حجته وحلول كـلامه المحل الأعظم فى القلوب والأفهام، والشاتم يعلم عنه الناس جميعًا أنه غير مختص فيما يقول، فعبثًـا يحاول أن يحمل الناس على رأيه، أو يقنعهم بصدقه، وإن كان أصدق الصادقين.

أتدرى لم يسب الإنسـان مناظره؟ لأنه جاهل وعـاجز مـعًا، أما جـهله فلأنه يذهب فى واد غيـر وادى مناظره وهو يظن أنه فى واديه ولأنه ينتقل من موضوع المناظرة إلى البحث فى شئون المـناظر وأطواره وصفانه وطبائعه، كأن

---

(١) السيقة: ما يساق سوقًا؛ ومنه «إنما ابن آدم سيقة يسوقه الله».

كل مبحث عنده مبحث «فسيولوجى»؛ وما أعجزه فلأنه لو عرف إلى مناظره سبيلاً غير هذا السبيل لسلكه، وكفى نفسه مؤونة ازدراء الناس إياه وحماها الدخول فى مأزق هو فيه من الخاسرين، محقًا كان أم مبطلاً.

لا يجوز بحال من الأحوال أن يكون الغرض من المناظرة شيئًا غير خدمة الحقيقة وتأييدها، وأحسب أن لو سلك الكتاب هذا المسلك فى مباحثهم لاتفقوا على مسائل كثيرة هم لا يزالون مختلفين فيها حتى اليوم، وما اختلفوا فيها إلا لأنهم فيما بينهم مختلفون. يسمع أحدهم الكلمة من صاحبه ويعتقد أنها كلمة حق لا ريب فيها، ولكنه يبغضه فيبغض الحق من أجله فينهض للرد عليه بحجج واهية وأساليب ضعيفة وإن كان هو قويًا فى ذاته؛ لأن القلم لا يقوى إلا إذا استمدَّ قوته من القلب، فإذا جىء بالحجج والبراهين لجأ إلى المراوغة والمهاترة، فيقول لمناظره مثلاً: إنك جاهل لا يعتد برأيك أو إنك مضطرب الرأى لا ثبات لك، تقول اليوم غير ما قلت بالأمس؛ وهنالك يقول له الناس: رويدًا، لا تخلط فى كلامك، ولا تراوغ فى مناظرتك، ولا شأن لك بعلم صاحبك أو جهله، فإنه يقول شيئًا، فإن كان صحيحًا فسلم به، أو باطلاً فبين لنا وجه بطلانه، وهبه قولاً لا تعلم قائله، ولا شأن لك باضطراب صاحبه وثباته، فربما كان بالأمس على رأى تبين له خطؤه اليوم، والمرء يخطئ مرة ويصيب، فإذا ضاق بمناظره وبالناس ذرعًا فرَّ إلى أضعف الوسائل وأوهنها، فسب مناظره وشتمه وذهب فى التمثيل به كل مذهب، فيسجل على نفسه الفرار من تلك المعركة والخذلان فى ذلك الميدان.

على أن أكثر الناس متفقون على ما يظنون أنهم مختلفون فيه، فإن لكل شىء جهتين: جهة مدح، وجهة ذم، فإما أن تتساويا، أو تكبر إحداهما الأخرى، فإن كان الأول فلا معنى للاختلاف، وإن كان الثانى وجب على المختلفين أن يعترف كل منهما لصاحبه ببعض الحق، لا أن يكون كل منهما من سلسلة الخلاف فى طرفها الأخير.

كان يقع بين ملك من الملوك ووزيره خلاف فى مسائل كثيرة حتى يشتد

النزاع بينهما وحتى لا يسلس أحدهما لصاحبه فى طرف مما يخالفه فيه؛ فحضر حوارهما أحد الحكماء فى إحدى الليالى وهما يتناظران فى المرأة، يعلو بها الملك إلى مصاف الملائكة، ويهبط بها الوزير إلى منزلة الشياطين، ويسرد كل منهما على مذهبه أدلته، فلما علا صوتهما واشتد لجاجهما خرج ذلك الحكيم وغاب عن المجلس ساعة، ثم عاد وبين أثوابه لوح على أحد وجهيه صورة فتاة حسناء، وعلى الآخر صورة عجوز شوهاء، فقطع عليهما حديثهما وقال لهما: أحب أن أعرض عليكما هذه الصورة ليعطينى كل منكما رأيه فيها، ثم عرض على الملك صورة الفتاة الحسناء فامتدحها ورجع إلى مكان الوزير وقد قلب اللوح خلسة من حيث لا يشعر واحد منهما بما يفعل وعرض عليه صورة العجوز الشمطاء فاستعاذ بالله من رؤيتها وأخذ يذمها ذمًا قبيحًا، فهاج غيظ الملك على الوزير وأخذ يرميه بالجهل وفساد الذوق وقد ظن أنه يذم الصورة التى رآها هو. فلما عادا إلى مثل ما كانا عليه من الخلاف الشديد استوقفهما الحكيم وأراهما اللوح من جهتيه فسكن ثائرهما وضحكا ضحكًا كثيرًا، ثم قال لهما: هذا ما أنتما فيه منذ الليلة، وما أحضرت إليكما هذا اللوح إلا لأضربه لكما مثلاً لتعلما أنكما متفقان فى جميع ما كنتما تختلفان فيه لو أنكما تنظران إلى المسائل التى تختلفان فيها من جهتيهما، فشكرا له همته، وأثنيا على فضله وحكمته، وانتفعا بحيلته انتفاعًا كثيرًا، فما كانا يختلفان بعد ذلك إلا قليلاً.

الإحسان فى الزواج

ورد إلىَّ فى البريد هذا الكتاب بهذا التوقيع:

حضرة السيد الفاضل:

ضمنى وجماعة من الأصدقاء مجلس جرى فيه الحديث عن صديق لنا عرف امرأة من البغايا فأخذته الرأفة بها فتزوجها، وكان القوم ما بين

مستحسن لهذا العمل ومستهجن له، وطالت مدة الجدل بيننا ساعات، ولم يستطع أحد الفريقين أن يقنع الآخر برأيه، فاتفق رأينا جميعًا على أن نكتب إليك بذلك علك تلقى على هذا الموضوع نظرة من نظراتك الصادقة، والسلام.

ف.س

أيها السائل الكريم:

إن كان باعث الرجل على الزواج بهذه البغي شهوة يريد قضاءها من امرأة يعشقها ولا يرى سبيلاً إلى طول استمتاعه بها والاستئثار بحظه منها إلا هذا السبيل، كما هو شأن الذين يتزوجون من البغايا، فقد أخطأ خطأ جمًا، لأن من كان هذا شأنه لا يعنيه إلا أمر نفسه، ولا يشغله من شئون تلك المرأة إلا الشأن الذى يرتبط بشهوته، ويتعلق بلذته، وآية ذلك أنه لا ينظر بعد اتصاله بها فى إصلاحها، ولا يحاول أن ينزع من بين جنبيها ملكة الفساد الراسخة فى نفسها، ولا يداخلها مداخلة المؤدب المهذب الذى يصور فى نظرها معيشة الفساد بصورة تنفر منها وتشمئز لها؛ بل لا يكفيها مؤونة العيش، ولا يرفعها ولا يقلبها فى الرغد والنعمة إلا إذا شعر بأن فى قلبه بقية من الشغف بها، فإذا أقفر قلبه من حبها وعلم أن فراقها لا يهيج له وجدًا، ورجوعها إلى عيشها السالف لا يثير منه غيرة، فارقها فراقًا هادئًا مطمئنًا لا يمازجه حزن على فسادها، ولا يخالطه أسف على سقوطها، وهنالك تعود تلك المسكينة إلى عشها الذى طارت منه وقد أمسكت بين جوانحها من الحقد والموجدة على معيشة الصلاح والاستقامة ما الله عالم به.

فالرجل الذى يتزوج من البغى قضاء لشهوته وإيثارًا للذته، لا ينفعها ولا يحسن إليها؛ لأنه لا يهذب نفسها، ولا يفى لها بما عاهدها عليه من البقاء معها، والاستمرار على عشرتها، بل يسىء إليها بسوء تصرفه معها فيبغض إليها الصلاح ويحبب إليها الفساد، وعندى أنه فى عمله هذا فاسق لا متزوج، لأنه لو لم يرَ أن الزواج وسيلة من وسائل الاستئثار والتوسع فى الاستمتاع ما سمى مهرًا ولا عقد عقدًا.

فإن كان حقًا ما تقول من أن باعثه إلى ذلك الرحمة والرأفة والحنان والشفقة فقد أحسن كل الإحسان، ولا أحسب أن بين أعماله الصالحة عملاً هو أفضل عند الله ذخرًا وأعظم أجرًا، من هذا العمل الصالح.

العرض أثمن من الحياة، فإن كان من يمنح الحياة فاقدها شريفًا، فأشرف منه من يرد العرض الضال إلى صاحبه المفجوع فيه.

ليت الرجال يتفقون جميعًا على أن يستنقذوا بهذه الوسيلة الشريفة كل امرأة ساقها فقرها وعدمها أو فقد عائلها إلى البغاء، بل ليتهم يتفقون على الزواج منهن قبل أن تضيق بهن حلقات العيش فيسقطن.

لمَ لا يكون بابًا من أبواب الإحسان أن يتفقد المحسنون من الرجال الفقيرات من النساء فيتزوجوا منهن أو يزوجوهن من أولادهم وأقربائهم، وإن لم يكنَّ من ذوات الجمال أو ذوات النسب؛ لأنه إحسان، والإحسان لا يجمل إلا إذا أصاب موضعه من الشدة ومكانه من الشقاء.

لو عرف المحسنون معنى الإحسان لعرفوا أن إنفاق الأموال على بناء التكايا والزوايا، وتوزيعه على المتسولين والمتكفِّفين، ووقفه على القارئين والذاكرين، لا يدَّخر لهم من المثوبة والأجر عند الله ما يدخره لهم الإحسان إلى النساء بالعصمة من البغاء.

البغاء للبغي شقاء ما جناه عليها إلا رجل، فجدير به أن يغرم ما أتلف، ويصلح ما أفسد.

يهاجم الرجل المرأة ويعد لمهاجمتها ما شاء الله أن يعده من وعد كاذب، وقول خالب، وسحر جاذب، حتى إذا خدعها عن نفسها، وغلبها على أمرها وسلبها أثمن ما تملك يدها، نفض يده منها وفارقها فراقًا لا لقاء بينهما من بعده.

هناك تجلس في كسر بيتها جلسة الكئيب الحزين، مسبلة دمعها على خدها ملقية رأسها على كفها، تفلي أناملها التراب، لا تدري أين تذهب، ولا ماذا تصنع، ولا كيف تعيش!

تطلب العيش من طريق الزواج فلا تجد من يتزوجها؛ لأن الرجل يسميها ساقطة؛ وتطلبه من طريق العمل فلا تجد ما تحسنه منه؛ لأن الرجل أهمل شأنها، فلم يعلمها من العلم ما تستعين به على ضائقة العيش؛ وتطلبه من طريق التسول فلا تجده؛ لأن الرجل يؤثر أن يمنحها القنطار حرامًا؛ على أن يمنحها الدرهم حلالاً، فلا تجد لها بدًا من أن تطلبه من طريق البغاء.

فها أنت ذا ترى أن شقاء المرأة الساقطة رواية من الروايات المحزنة، وأن الرجل هو الذى يمثل جميع أدوارها، ويظهر فى كل فصل من فصولها، ومهما حال بيننا وبينه من ذلك الستار المسبل، فإنا لا نزال نعتقد أن الرجل غريم المرأة، وأن حقًا عليه أن يؤدى دينه، ويغرم أرش(١) جنايته.

إن أبى الرجل أن يتزوج المرأة بغيًا فليحل بينها وبين البغاء، ولا سبيل له إلى ذلك إلا إذا اعتبر الزواج بابًا من أبواب الإحسان، أى أنه يتزوجها لها أكثر مما يتزوجها لنفسه، وأحق النساء بالإحسان أولئك اللواتى سلبهن الله نعمة الجمال والمال، وحلية الحسب والنسب، فإن أبى إلا أن يتزوج من المرأة السعيدة، فليذكر أنه هو الذى أخذ الشقية من يدها، وساقها بنفسه إلى مواطن الشقاء، ورماها بيده فى هوَّة الفسق والبغاء.

لا همجية فى الإسلام(٢)

أيها المسلمون: إن كنتم تعتقدون أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق المسيحيين لا ليموتوا ذبحًا بالسيوف وقطعًا بالرماح، وحرقًا بالنيران، فقد أسأتم بربكم ظنًا، وأنكرتم عليه حكمته فى أفعاله وتدبيره فى شئونه وأعماله، وأنزلتموه منزلة العابث اللاعب الذى يبنى البناء ليهدمه، ويزرع الزرع ليحرقه، ويخيط الثوب ليمزقه، وينظم العقد ليبدِّده.

---

(١) الأرش: دية الجراحات.

(٢) كتبت لمناسبة ما أشيع من هياج المسلمين على المسيحيين فى ولاية أطنة من ولايات الدولة العثمانية وقتلهم إياهم وتمثيلهم بهم فى عام ١٩٠٩.

لم يزل الله سبحانه وتعالى مذ كان الإنسان نطفة فى رحم أمه يتعهده بعطفه وحنانه. ويمد برحمته وإحسانه، ويرسل إليها فى ذلك السجن المظلم الهواء من منافذه، والغذاء من مجاريه، ويذود عنه آفات الحياة وغوائلها: نطفة، فعلقة، فمضغة، فجنينًا، فبشراً سويًا.

إن إلهًا هذا شأنه مع عبده، وهذه رحمته به وإحسانه إليه، محال عليه أن يأمر بسلبه الروح التى وهبه إياها، أو يرضى بسفك دمه الذى أمده به ليجرى فى شرايينه وعروقه لا ليسيل بين تلال الرمال وفوق شعاف الجبال.

فى أى كتاب من كتب الله، وفى أى سنة من سنن أنبيائه ورسله، قرأتم جواز أن يعمد الرجل إلى الرجل الآمن فى سربه، والقابع فى كسر بيته، فينزع نفسه من بين جنبيه، ويفجع فيه أهله وقومه، لأنه لا يدين بدينه، ولا يذهب مذهبه فى عقائده.

لو جاز لكل إنسان أن يقتل كل من يخالفه فى رأيه ومذهبه، لأقفرت البلاد من ساكنيها وأصبح ظهر الأرض أعرى من سراة أديم.

إن وجود الاختلاف بين الناس فى المذاهب والأديان والطبائع والغرائز سنة من سنن الكون، لا يمكن تحويلها وتبديلها؛ حتى لو لم يبق على ظهر الأرض إلا رجل واحد، لجرد من نفسه رجلاً آخر يخاصمه وينازعه ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾(١).

إن الحياة فى هذا العالم كالحرارة لا تنتج إلا من التحاك بين جسمين مختلفين، فمحاولة توحيد المذاهب والأديان محاولة القضاء على هذا العالم وسلبه روحه ونظامه.

أيها المسلمون: ليس ما كان يجرى فى صدر الإسلام من محاربة المسلمين المسيحيين كان مراداً به التشفى والانتقام منهم، أو القضاء عليهم، وإنما كان لحماية الدعوة الإسلامية أن يعترضها فى طريقها معترض أو يحول بينها وبين انتشارها فى مشارق الأرض ومغاربها حائل، أى أن القتال كان ذودًا ودفاعًا، لا تشفيًا وانتقامًا.

---

(١) سورة هود: ١١٨.

وآية ذلك أن السرية من الجيش ما كانت تخطو خطوة واحدة فى سبيلها الذى تذهب فيه حتى يصل إليها أمر الخليفة القائم أن لا تزعج الرهبان فى أديرتهم، والقساوسة فى صوامعهم، وأن لا تحارب إلا من يقاومها ولا تقاتل إلا من يقف فى سبيلها، ولقد كان أحرى أن تسفك دماء رؤساء الدين المسيحى وتسلب أرواحهم لو أن غرض المسلمين من قتال المسيحيين كان الانتقام منهم، والقضاء عليهم.

لو أنكم قضيتم على كل من يتدين بدين غير دينكم حتى أصبحت رقعة الأرض خالصة لكم، لانقسمتم على أنفسكم مذاهب وشيعًا، ولتقاتلتم على مذهبكم تقاتل أرباب الأديان على أديانهم، حتى لا يبقى على وجه الأرض مذهب ولا متمذهب.

أيها المسلمون: ما جاء الإسلام إلا ليقضى على مثل هذه الهمجية والوحشية التى تزعمون أنها الإسلام.

ما جاء الإسلام إلا ليستل من القلوب أضغانها وأحقادها، ثم يملأها بعد ذلك حكمة ورحمة، فيعيش الناس فى سعادة وهناء، وما هذه القطرات من الدماء التى أراقها فى هذا السبيل إلا بمثابة العمل الجراحى الذى يتذرع به الطبيب إلى شفاء المريض.

عذرتكم لو أن هؤلاء الذين تريقون دماءهم كانوا ظالمين لكم فى شأن من شئون حياتكم، أو ذاهبين فى معاشرتكم والكون معكم مذاهب سوء تخافون مغبتها، وتخشون عاقبتها، أما والقوم فى ظلالكم والكون تحت أجنحتكم أضعف من أن يمدوا إليكم يد سوء، أو يبتدرونكم ببادرة شر، فلا عذر لكم.

عذرتكم بعض العذر لو لم تقتلوا الأطفال الذين لا يسألهم الله عن دين ولا مذهب قبل أن يبلغوا سن الحلم، والنساء الضعيفات اللواتى لا يحسن فى الحياة أخذًا ولا ردًا، والشيوخ الهالكين الزاحفين وحدهم إلى القبور قبل أن تزحفوا إليهم، وتتعجلوا قضاء الله فيهم.

أما وقد أخذتم البرىء بجريرة المذنب فأنتم مجرمون لا مجاهدون، وسفاكون لا محاربون.

من أى صخرة من الصخور، أو هضبة من الهضبات، نحتم هذه القلوب التى تنطوى عليها جوانحكم، والتى لا تروعها أنات الثكالى، ولا تحركها رنات الأيامى؟

من أى نوع من أنواع الأحجار صيغت هذه العيون التى تستطيعون أن تروا بها منظر الطفل الصغير والنار تأكل أطرافه وتتمشى فى أحشائه على مرأى ومسمع من أمه، وأمه عاجزة عن معونته، لأن النار لم تترك لها يداً تحركها، ولا قدمًا تمشى عليها؟

لا أستطيع أن أهنئكم بهذا الظفر والانتصار؛ لأنى أعتقد أن قتل الضعفاء جبن ومعجزة، وأن سفك الدماء بغير ذنب ولا جريرة وحشية أحرى أن يعزى فيها صاحبها، لا أن يهنأ بها.

أيها المسلمون: اقتلوا المسيحيين ما شئتم وشاءت لكم شراستكم ووحشيتكم، ولكن حذار أن تذكروا اسم الله على هذه الذبائح البشرية فالله سبحانه وتعالى أجل من أن يأمر بقتل الأبرياء، أو يرضى باستعطاف الضعفاء، فهو أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين.

البخيل

سألنى سائل: ماذا يستفيد الإنسان من حتى بخله على نفسه؟ وأى غرض يرمى إليه من ذلك؟ فأجبته بهذا الجواب:

البخل إحدى الملكات النفسية، والملكة صفة راسخة فى النفس تصدر عنها آثارها عفواً بدون روية ولا اختيار، فكما لا يسأل المسرف عن سبب إسرافه، والغاضب عن غايته من غضبه، والحاسد عن غرضه من حسده، كذلك لا يسأل البخيل عما يستفيده من بخله وحرصه، فكثيراً ما تعرض

لأرباب هذه الملكات عوارض تنزع بهم إلى الرغبة عن التخلى عنها حينًا، فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً، لمكان تلك الملكات من نفوسهم، ونزولها منها منزلة لا تزعجها الرغبات، ولا تزعزعها الإرادات، وربما عرض للبخيل ما يدفعه إلى بذل شىء من ماله، فإذا وضع يده فى كيسه وحاول القبض على شىء مما فيه، أحس كأن تيارًا كهربائيًا قد سرى من نفسه إلى يده فتشنجت أعصابها وتصلبت أناملها وأعيت على الالتواء والانثناء، فأخرجها صفرًا كما أدخلها، وبودِّه أن لا يفعل لولا أن للغريزة قوة فوق قوة الإرادة، وسلطانًا تخضع له الرغبات وتنقاد إليه العقول، إلا إذا كان وراءها وازع من القانون يزعها؛ فإنه يكسر شرتها أحيانًا، وإن لم ينتزعها انتزاعًا.

ويحكى أن شحيحًا تحركت فى قلبه يومًا الشفقة على ابنته الجائعة العارية، فأراد نفسه على أن يبذل لها شيئًا من ماله فتأبت عليه، فأذن لوكيله أن يختلس لها من ماله ما يسد خلتها من حيث لا يعلمه بذلك ولا يدعه ينتبه لشىء منه، علمًا بأنه لا يستطيع أن يكون كما يريد.

فالوجه فى السؤال أن يقال: ما هى الأسباب التى غرست ملكة البخل فى نفس البخيل؟ فيكون الجواب عن ذلك: إن الأسباب تختلف باختلاف الأشخاص وأطوارهم وأخلاقهم وتربيتهم، ونحن نذكر أهم تلك الأسباب من حيث ذاتها بقطع النظر عن افتراق ما يفترق منها واجتماع ما يجتمع.

الأول: الوراثة: وهى وإن كانت سببًا ضعيفًا لما يعرض للأخلاق الموروثة أحيانًا من التغير والانقلاب بمعاشرة المتصفين بأضدادها والتأثر بمخالطتهم، إلا أنها كثيرًا ما تنمو وتتجسم إذا أغفلت ولم يعترضها ما يسد سبيلها ويقف فى طريق نمائها.

الثانى: التربية: إذا نشأ الطفل بين أهل أشحاء ولم يكن فى فطرته ما يقاوم سلطان التربية على نفسه، أخذ أخذهم فى الحرص، وتخلق فيه بأخلاقهم كما يتخلق بها فى العقائد والعادات من حيث لا يفكر فى استحسان أو استهجان، كأنما هى عدوى الأمراض التى تسرى إلى الإنسان من حيث لا يدرى بها ولا يشعر بسريانها. ويحكى أن رجلاً دخل منزلاً يعرف أهله

بالشح والحرص، فرأى طفلاً صغيراً في يده ليمونة، فطلب إليه أن يعطيه إياها، فأجابه الطفل «إن يدك لا تسعها»!.

الثالث: سوء الظن بالله: ذلك أن المتدين إذا أخذت عقيدة القضاء والقدر من نفسه مأخذها رسخ في قلبه الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى عينًا ساهرة على عباده الضعفاء، فهو أرحم من أن يغفل شأنهم ويكلهم إلى أنفسهم ويسلمهم لصروف الليالي وعاديات الأيام، فلا يلج به الحرص على الجمع، ولا يزعجه الخوف من البذل، وعلى العكس منه ضعيف الإيمان، ضعيف الثقة بواهب الأرزاق ومقسم الحظوظ والحدود، فهو لسوء ظنه لا يزال الخوف من الفقر نصب عينيه حتى يصير البخل ملكة راسخة فيه.

الرابع: النكبات: كثيراً ما تحل بالإنسان نكبات تصهر قلبه وتزعج غريزته من مستقرها، ومن ذلك النكبات التي يكون مرجعها قلة المال، كأن يقع الرجل في خصومة يرى أنه لولا ضيق ذات يده لما وقع في مثلها، فكلما تمثلت له نكبة لج به الحرص وأغرق في المنع، حتى يصير ذلك غريزة فيه وخلقًا ثابتًا له، ومن ذلك جديد النعمة الذي ذاق مرارة الفقر حقبة من الزمان وكابد منه ما كابد من الآلام والأوجاع، فإنه مهما حسنت حاله وانتعشت نفسه وفاضت خزائنه بالفضة وبالذهب لا تذهب من فمه تلك المرارة، ولا تضيع من ذاكرته آلامها. فلا يزال يتملك قلبه وسواس مقلق يخيل إليه ما لا يتخيل، ويريه ما لا يرى، كمن تمثل له خيال الشيطان مرة في أبشع صورة وأفظع شكل فهاله منظره، وذهب الخوف منه برشده، فلا يزال يراه في كل مكان وزمان، وفي حالتي الأمن والخوف، والوحشة والأنس.

الخامس: اللؤم: فإن النفس إذا خبثت طينتها ولؤم طبعها، كان من أخص صفاتها الحقد على الوجود بأجمعه، وبغض الخير للناس قاطبة، فكيف يمنحهم من ذات يده ما يزيده ألمًا على ألم، وحسرة فوق حسرة، وهو لو استطاع أن يمنع عنهم سارية السماء، ويعترض دونهم نابتة الأرض لفعل.

السادس: سقوط الهمة: إذا نشأ الإنسان عالي الهمة طموحًا إلى المعالي محبًا للذكر الحسن والثناء الجميل، سهل عليه أن يبذل في سبيل ذلك كل ما

يستطيع بذله من ذات يده أو ذات نفسه، وحب المجد، أسال الذهب من خزائن الأغنياء، وصير نفوس الشجعان نهبًا مقسمًا بين شفرات السيوف، وأسنة الرماح، طلبًا لسعادة الحياة بالذكر، وسعادة الممات بالخلود. فمن لساقط الهمة ضعيف النفس بدافع يدفعه إلى بذل المال على مكانته الراسخة فى قلبه، وامتزاج حبه بلحمه ودمه، أيدفعه حب الثناء، وهو لا يشعر بلذته؟ أو خوف المذمة، وهو لا يتألم منها، ولا يحس بمرارتها؟ أم سعادة الحياة وسعادة الممات؟ وهو لا يفهم للسعادة معنى غير ما فهمه الزبرقان بن بدر حينما قنع على لسان الحطيئة من المكارم بلقمة يمضغها، وحلة يلبسها.

السابع: فساد المجتمع الإنسانى: ذلك أن كثيرًا من الناس قد بلغ بهم حب المال والتعبد له أن صاروا يعظمون صاحبه لا لفائدة يرجونها، ولا خير يطمعون فيه، بل لأنه ذو مال وذو المال فى نظرهم أحق الناس بالمحبة والإكرام والإجلال والإعظام، وإن لم يحصلوا منه على طائل، فلو أنهم عبدوا الله سبحانه وتعالى بهذا النوع من العبادة ساعة واحدة لأصبحوا من عباده المقربين، فمن ذا الذى لا يحب من البخلاء أن ينال هذه المنزلة فى نفوس هؤلاء المتملقين وليس بينه وبينها إلا الحرص على ما فى يده، وهو عمل يتكلفه ولا يتعمل له، بل هو أشهى ثراء ووفرًا، ومن هنا قال أحد البخلاء لأولاده: يا بنى لأن يعلم الناس أن عند أحدكم مائة ألف درهم أعظم له فى أعينهما من أن يقسمها فيهم، وقال رجل لآخر: يا بخيل؛ فقال له: لا أحرمنى الله بركة هذا الاسم؛ فإنى لا أكون بخيلاً إلا إذا كنت غنيًا فسم لى المال ولقبنى بما تشاء.

هذه هى أهم الأسباب التى تألفت منها رذيلة البخل؛ فإن أغفلنا النظر إليها وسلمنا للسائل صحة سؤاله عما يستفيده البخيل من بخله، حتى على نفسه وفرضنا البخيل مختارًا فيما يفعل غير مساق إلى هذا المورد الوبيل بسائق الغريزة الفاسدة، كان منال النجم أقرب من تطبق حاله هذه على قاعدة من قواعد العقل؛ لأن الله تعالى خلق الإنسان وركب فيه رغبات الشهوات مختلفة، بعضها نفسى، والآخر جسدى؛ فهو لا يزال يتطلبها ما لم يعجز عنها، فصاحب المال الكثير الذى يقنع بالشملة والمضغة، والجرعة والظلة،

ويحمل فى كل لحظة أشد الآلام من مقاومة نزوات نفسه ونزعاتها إلى ميولها ورغباتها، لا يمكن أن يحمل حاله على محمل العجز، لأنه قادر؛ ولا على الزهد، لأنه ما زهدد فيما لا ينفع فيزهد فيما ينفع؛ ولا على الخوف من الفقر، لأن عنده من المال ما يفنى الأعمار، فهيهات أن يفنيه عمر واحد، ولا على رغبة فى سعادة الذرية، لأن محبة الأب لولده لا يمكن أن تزيد على رغبته فى أن يراه شريكًا له فى سعادته؛ فإما أن يشقى فى حياته، ليسعد ولده بعد مماته، فما لا يقبله العقل، ولا يدخل فى دائرة من دوائر الفهم، فلم يبق لنا إلا أن نتوسل إلى علماء النفس أن يأذنوا لنا بالتوسع فى تفسير معنى الجنون، حتى لا يكون مقصوراً على المعربدين والهاذين، بل يكون شاملاً للعابثين الذين لا يدرون ما يأخذون وما يدعون، والذين يجلبون لأنفسهم بإرادتهم وباختيارهم آلامًا نفسية هى أشد مما يجلبه المجانين على أنفسهم بمناطحة الجدران ومطاردة الصبيان، كما نتوسل إلى علماء الشرائع أن يضعوا قانونًا لاستخراج المال من خزائن المفترين كما وضعوا قانونًا لحفظ المال فى صناديق المبذرين؛ فإن تبذير المال يضر قومًا وينفع أقوامًا، أما حبسه فيضر صاحبه، ويضر معه الناس أجمعين.

البعوض والإنسان

جلست ليلة أمس إلى منضدتى وعلقت قلمى بين أصابعى، وأنشأت أفكر فى الموضوع الذى يجمل بى أن أكتب فيه.. وتلك عادتى التى يعرفها عنى كثير من خلطائى وعشرائى: أننى لا أميل إلى الكتابة فى بياض النهار، ولا أحب أن أخط حرفًا على ما أحب وأرتضى إلا فى ظلام الليل وهدوئه.

ولا يظن المولعون باكتناه الحقائق واستشفاف الضمائر من إخواننا الفضوليين أننى أريد بذلك مراعاة النظير بين سواد المداد وسواد الظلام، أو أننى أترقب طلوع النجم لأتسلق أشعته إلى سماء الخيال، فكل ذلك لم يكن،

وليس فى الناس من هو أدرى بدخيلة أمرى منى، وكل ما فى المسألة أن هذه عادتى وتلك طريقتى، وكفى.

لم أكد أفرغ من التفكير فى الموضوع حتى شعرت بطنين البعوض فى أذنى، ثم أحسست بلذعاته فى يدى، فتفرق من ذهنى ما كان مجتمعًا وتجمع من همى ما كان مفترقًا، ولم أر بدًّا من إلقاء القلم وإعداد العدة لمقاومة هذا الزائر الثقيل.

طاردته بالمذبة فما أجدى ذلك نفعًا لأنه على الطيران أقوى منى على المطاردة، وفتحت النوافذ لأخرج ما كان داخلاً، فدخل ما كان خارجًا، وحاولت قتله فوجدته مبعثراً؛ ولو كان مجتمعًا فى دائرة واحدة لهلك بضربة واحدة، ولم أر فى حياتى أمة ينفعها تفرقها ويؤذيها تجمعها غير أمة البعوض؛ فما أضعف هذا الإنسان، وما أضل عقله فى اغتراره بقوته واعتداده بنفسه، واعتقاده أن فى يده زمام الكائنات يصرفها كيف يشاء ويسيرها كما يريد! وأنه لو أراد أن يذهب بنظام هذا الوجود، ويأتى له بنظام جديد لما كان بينه وبين ذلك إلا أن يرسل أشعة عقله دفعة واحدة، ويشحذ سيف ذكائه، ويبتعث عزيمته ويقتدح فكرته.

يزعم ذلك، وهو يعلم أنه أضعف من أن يحتال لنفسه فى مدافعة أصغر الحيوان جسمًا وعقلاً، وأدناها قيمة وشأنًا، بيد أنه يعلم ذلك بلسانه، وفى فلتات وهمه. ولو علمه علمًا يتغلغل فى نفسه، ويتمثل فى سويداء قلبه لكفكف من غلوائه، وخفض من كبريائه، وعلم علم اليقين أن الإنسان العاقل، والحيوان الملهم، والنبات النامى، والجماد الجامد، سواء بين يدى القوة الإلهية الكبرى، التى لا ينفع نفعها حول ولا قوة.

علمت أنى عييت بأمر هذا الحيوان، فلذت بجانب الصبر، والصبر -كما يعلم معشر الصابرين- حجة العاجز، وحيلة الضعيف وأيسر ما يستطيع أن يدفع به دافع عن نفسه ملامة اللائمين، وفضول المتطفلين، وقلت فى نفسى: لو كان البعوض يفهم ما أقول لقصصت عليه قصتى، وشرحت له عذرى، وسألته أن يمنحنى ساعة واحدة أقوم فيها بكتابة رسالتى هذه، ثم هو

بعد ذلك فى حل من جسمى ودمى، ينزل منهما حيث يشاء، ويمتص منهما ما يشاء، ولكنه -ويا للأسف- لا يسمع شكاتى، ولا يرحم ضراعتى ولا يفهم قيمة المروءة، لأنه ليس بإنسان.

أحسب أن لذعات البعوض قد أخذت مأخذها من عقلى وفهمى؛ وأنى قد بدأت أهذى هذيان المحموم؛ فمن أين لى أن لو كان البعوض إنسانًا كان يسمع شكاتى، ويكشف ظلامتى، أو أنه يفهم معنى الرحمة ويعرف قيمة المروءة، ومتى كان الإنسان أحسن حالاً من البعوض وأرحم منه قلبًا وأشرف غاية، فأتمنى لو كان مكانه؟ بل، ومن أين لى أن هذا الذى أحسبه بعوضًا ليس بإنسان قد تقمص جسم البعوض وتمثل لى فى صورته الضئيلة وجناحه الرقيق؟ وأى غرابة فى أن أتخيل ذلك ما دام الإنسان والبعوض سواء فى حب الشر والميل إلى الأذى، وما دامت الصورة الجثمانية لا قيمة لها فى جانب الجواهر الذاتية، والأجزاء المقومة للماهية؟

أى قيمة لما يمتصه البعوض من جسم الإنسان مجتمعًا فى جانب ما يمتصه القاتل من جسم المقتول منفردًا؟

إن البعوض فى امتصاصه الدم من الجسم أقل من القاتل ضررًا وأشرف غاية، وأجمل مقصدًا؛ لأنه إن أذى الجسم فقد أبقى على الحياة؛ ولأنه يطلب عيشه الذى يحيا به، وهذا طريقه الطبيعى الذى لا يعرف له طريقًا سواه ولا يستطيع أن يرى لنفسه غيره ولو استطاع لعافت نفسه أن يكون كالإنسان يتطوع للشر ويتعبد بالضر.

إنى وجدت بين الإنسان والبعوض شبهًا قريبًا فى صفات كثيرة أنا ذاكر لك طرفًا منها وتارك لفطنتك الباقى.

البعوض يمتص من الدم فوق ما يستطيع احتماله، فلا يزال يشرب حتى يمتلئ فينفجر، فهو يطلب الحياة من طريق الموت، ويفتش عن النجاة فى مكامن الهلاك، وهو أشبه شىء بشارب الخمر: يتناول الكأس الأولى منها، لأنه يرى فيها وجه سروره وصورة سعادته، فتطمعه الأولى فى الثانية،

والثانيـة فى الثالثة، ثم لا يزال يلح بالشـراب على نفسه حتى يتلفـها ويودى بها، من حيث يظن أنه ينعشها، ويجلب إليها سرورها وهناءتها.

البعوض سيء التصرف فى شئـون حياته؛ لأنه لا يسقط على الجسم إلا بعد أن يدل على نفـسه بطنينه وضوضائه. فـيأخذ الجالس منه حـذره ويدفعه عن مطلبه، أو يفتك به قـبل بلوغه إليه، فمثله فى ذلك كـمثل بعض الجهلة من أصحاب المطالب السياسية: يطلبون المآرب النافعة المفيدة لأنفسهم ولأمتهم غير أنهم لا يكتمونها، ولا يحسنون الاحـتفاظ بها فى صدورهم، ولا يبتغون الوسـيلة إليهـا إلا بين الصراخ والضـجيج، ولا يمسكون بالحلقـة الأولى من سلسلتها حتى يملأوا الخافقين بذكـرها؛ ويشهدوا الملأ الأعلى والأدنى عليها، وهنالك يدرك عـدوهم مقـصدهم، فيـعد له عـدته ويتلمس وجه الحـيلة فى إفساده عليهم هادئًا ساكنًا من حيث لا يشعرون.

البعوض خفيف فى وطأته، ثقيل فى لذعته، فهو كذلك الصاحب الذى يسرك منظره، ويسوءك مخبره! يلقاك بابتسامة هى العذب الزلال رقة وصفاء، والسحر الحلال جـمالاً وبهاء، وبين جنبيه فى مكان القلب صـخرة لا تنفذها أشعة الحب، ولا يتسرب إليها سلسبيل الوفاء، يقول لك: إنى أحبك ليغلبك على قلبك، ويملك عليك نفسك، فإن تم له ما أراد سلبك مالك إن كنت من ذوى المال، وجاهك إن كنت من ذوى الجـاه؛ فإن لم تكن هذا أو ذاك أغراك بالسيـر فى طريق يسقط مـروءتك، ويثلم شرفك، فـإن فاته مـا يشفى به داء بطنته، لا يفوته ما يطفئ به نار حقده وموجدته.

لا يزال البعوض ملحًا فى مهاجمتى، فلا طاقة لى بكتابة سطر واحد مما كتبت، والسلام.

الجـــزع

يا صاحب النظرات:

لى صديق سقط فى امتحان «البكالوريا» هذه السنة فأثر فيه ذلك السقوط تأثيراً كبيراً، فهو لا ينفك باكياً متألماً حتى أصبحنا نخاف عليه الجنون، ولكما عزيناه عن مصابه يقول: كيف أستطيع معاشرة إخوانى ومعارفى؟ وكيف أستطيع مقابلة والدى وأهلى؟ فهل لك أيها السيد أن تعالج نفسه بنظرة من نظراتك، التى طالما عالجت بها قلوب المحزونين؟؟

حقوقى

ليست المسألة مسألة صديقك وحده، بل مسألة الساقطين أجمعين، فإن المرء لا يكاد يتناول نظره منهم فى هذه الأيام إلا وجوهًا قد نسج الحزن عليها غبرة سوداء، وجفونًا تحار فيها مدامعها حيرة الزئبق الرجراج، حتى ليخيل إليك أن نازلة من نوازل القضاء قد نزلت بهم فزلزلت أقدامهم، أو فاجعة من فواجع الدهر قد دارت عليهم دائرتها فأثكلتهم ذخائر نفوسهم، وجواهر عقولهم، وأقامت بينهم وبين سعادة العيش وهناءته سدًا لا تنفذه المعاول، ولا تنال من أيده الزلازل.

خفض عليك قليلاً أيها الطالب، فالأمر أهون مما تظن، وأصغر مما تقدر، وأعلم وما أحسبك إلا عالمًا أنك لم تسقط من قمة جبل شامخ إلى سفح متحجر فتبكى على شظية طارت من شظايا رأسك، ولم يهو بك القضاء إلى هوة عميقة لا خلاص لك منها أبد الدهر.

إنك قد سعيت إلى غرض فإن كنت هيأت له أسبابه، وأعددت له عدَّته، وبذلت له من ذات نفسك ما يبذل مثله الباذلون فى مثله، فقد أعذرت إلى الله وإلى الناس وإلى نفسك، فحرى بك أن لا تحزن على مصاب لم يكن عملاً من أعمال يديك، ولا جناية من جنايات نفسك عليك، وإن كنت قصرت فى تلمس أسبابه، ومشيت فى سبيله مشية الظالع المتقاعس، فما حزنك على فوات غرض كان جديراً بك أن تترقب فواته قبل وقت فواته؟ وما بكاؤك على مصاب كان خيراً لك أن تعلم وقوعه قبل يوم وقوعه؟

ما لك تبكى بكاء الواثق بمواتاة الأيام، ومطاوعة الأقدار؟ وهل تستطيع أن تبرز لنا صورة العهد الذى أخذته على الدهر أن يكون لك كما تحب

وتشتهى؟ وعلى الفلك أن لا يدور إلا بسعدك، ولا يجرى إلا بجدِّك؟ وعلى القلم أن لا يكتب فى لوحة إلا ما دللته عليه، وأوحيت به إليه؟

لا تجعل لليأس سبيلاً إلى نفسك، فلعل الأمر يعوض عليك فى غدك ما خسرت فى أمسك، وامض لشأنك ولا تلتفت إلى ما وراءك، فإن تم لك فى عامك المقبل من طلبتك ما أردت فذاك، أو لا، فما فقدت إذ فقدت إلا ورقة كان كل ما تستفيده منها أن تشترى بها قيدًا لرجلك، وغلا لعنقك، ثم ترتبط فى سجن من سجون الحكومة بجانب رئيس من الرؤساء المدلين بأنفسهم، يسومك من الذل والخسف ما لا يحتمله الإسراء فى سجون الآسرين.

إن اعتدادك بهذه الورقة هذا الاعتداد كله وإكبارك إياها هذا الإكبار العظيم دليل على أنك كنت تريد أن تجعلها منتهى أملك، وغاية همتك، وإنك لا ترى بعدها مزيدًا من الكمال لمستزيد، فإن صدقت فراستى فيك، فاعلم أن الله قد خار لك فى هذا المصير، وساق إليك من الخير ما لا تعرف السبيل إليه، وأنه ما خيب رجاءك فى هذا الكمال الموهوم إلا لتطلب لنفسك كمالاً معلومًا، وما صرف عنك هذه الشهادة المكتوبة فى صفحات الأوراق، إلا لتسعى وراء السعادة المكتوبة فى صفحات القلوب.

إن كنت تبكى على الشرف فباب الشرف مفتوح بين يديك، لا شأن للحكومة فيه، ولا حاجب لها عليه، وما هو إلا أن تجد فى التزيد من العلم والمعرفة، واستكمال ما ينقصك من الفضائل النفسية، فإذا أنت شريف فى نفسك، وفى نفوس الخاصة من الناس، وإذا أنت فى منزلة يحسدك عليها كثير من أرباب الشهادات والمناصب، ولا حى الله شرفًا يحيى بورقة ويموت بأخرى، ولا مجدًا يأتى به سطر ويذهب به سطر، وإن كنت تبكى على العيش، ففى أى كتاب من كتب الله المنزلة قرأت أن أرزاقه وقف على الموظفين، وحبائس على المستخدمين؟ وأنه لا يأمر بصرف درهم واحد من خزائنه إلا إذا جاءته سفتجة بتوقيع أمير، أو إشارة وزير؟

أيها الطالب:

قل لأبيك وأخيك وأهلك وأصدقائك ومعارفك بلا خجل ولا استحياء: إن الذى وهبنى عقلى لم يسلبنيه، وأن الذى صورَّ لى أعضائى لم يحل بينى وبين الذهاب بها فيما خلقت له، وأن الذى خلقنى سوف يهدين، إنه الرزاق ذو القوة المتين.

النبوغ

من العجز أن يزدرى المرء نفسه فلا يقيم لها وزنًا، وأن ينظر إلى من هو فوقه من الناس نظر الحيوان الأعجم إلى الحيوان الناطق، وعندى أن من يخطئ فى تقدير قيمته مستعليًا، خير ممن يخطئ فى تقديرها متدليًا؛ فإن الرجل إذا صغرت نفسه فى عين نفسه يأبى لها من أعماله وأطواره إلا ما يشاكل منزلتها عنده؛ فتراه صغيرًا فى علمه صغيرًا فى أدبه، صغيرًا فى مروءته وهمته، صغيرًا فى ميوله وأهوائه، صغيرًا فى جميع شئونه وأعماله؛ فإن عظمت نفسه عظم بجانبها كل ما كان صغيرًا فى جانب النفس الصغيرة.

ولقد سأل أحد الأئمة العظماء ولده، وكان نجيبًا: أى غاية تطلب فى حياتك يا بنى وأى رجل من عظماء الرجال تحب أن تكون؟ فأجابه: أحب أن أكون مثلك، فقال: ويحك يا بنيٍ! لقد صغرت نفسك، وسقطت همتك، فلتبك على عقلك البواكى، لقد قدَّرت لنفسى يا بنى فى مبدأ نشأتى أن أكون كعلى بن أبى طالب، فما زلت أجد وأكدح حتى بلغت المنزلة التى تراها، وبينى وبين علىٍّ ما تعلم، من الشأو البعيد والمدى الشاسع؛ فهل يسرك، وقد طلبت منزلتى أن يكون ما بينك وبينى من المدى مثل ما بينى وبين علىٍّ؟

كثيرًا ما يخطئ الناس فى التفريق بين التواضع وصغر النفس؛ وبين الكبر وعلو الهمة، فيحسبون المتذلل المتملق الدنىء متواضعًا، ويسمون الرجل إذا ترفع بنفسه عن الدنايا، وعرف حقيقة منزلته من المجتمع الإنسانى متكبرًا؛ وما التواضع إلا الأدب، ولا الكبر إلا سوء الأدب؛ فالرجل الذى يلقاك

متبسمًا متهللاً، ويقبل عليك بوجهه، ويصغى إليك إذا حدثته ويزورك مهنئًا ومعزيًا، ليس صغير النفس كما يظنون، بل هو عظيمها؛ لأنه وجد التواضع أليق بعظمة نفسه فتواضع، والأدب أرفع لشأنه فتأدب.

فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ولكن كبرًا أن يقال به كبر

فإذا بلغ الذل بالرجل ذو الفضل أن ينكس رأسه للكبراء، ويتهافت على أيديهم وأقدامهم لثمًا وتقبيلاً، ويتبذل بمخالطة السوقة والغوغاة بلا ضرورة ولا سبب، ويكثر من شتم نفسه وتحقيرها ورميها بالجهل والغباوة، ويبصبص برأسه، وهو سائر فى طريقه بصبصة الكلب بذنبه، ويجلس فى مدارج الطرق، وعلى أفواه الدروب جلسة البائس المسكين، فاعلم أنه صغير النفس ساقط الهمة لا متواضع ولا متأدب.

إن علو الهمة إذا لم يخالطه كبر يزرى به ويدعو صاحبه إلى التنطع وسوء العشرة - كان أحسن ذريعة يتذرع بها الإنسان إلى النبوغ فى هذه الحياة، وليس فى الناس من هو أحوج إلى علو الهمة من طالب العالم، لأن حاجة الأمة إلى نبوغة أكثر من حاجتها إلى نبوغ سواه من الصانعين والمحترفين، وهل الصانعون والمحترفون إلا حسنة من حسناته، وأثر من آثاره؟ بل هو البحر الزاخر الذى تستقى منه الجداول والغدران.

فيا طالب العلم كن عالى الهمة، ولا يكن نظرك فى تاريخ عظماء الرجال نظرًا يبعث فى قلبك الرهبة والهيبة فتتضاءل وتتصاغر كما يفعل الجبان المستطار حينما يسمع قصة من قصص الحروب، أو خرافة من خرافات الجان؛ وحذار أن يملك اليأس عليك قوتك وشجاعتك فتستسلم استسلام العاجز الضعيف وتقول: من لى بسلم أصعد فيها إلى السماء حتى أصل إلى قبة الفلك فأجالس فيها عظماء الرجال؟

يا طالب العلم، أنت لا تحتاج فى بلوغك الغاية التى بلغها النابغون من قبلك إلى خلق غير خلقك؛ وجو غير جوك، وسماء وأرض غير سمائك وأرضك، وعقل وأداة غير عقلك وأداتك؛ ولكنك فى حاجة إلى نفس عالية كنفوسهم، وهمة عالية كهممهم، وأمل أوسع من رقعة الأرض، وأرحب من

صدر الحليم، ولا يقعدن بك عن ذلك ما يهمس به حاسدوك فى خلواتهم من وصفك بالوقاحة أو بالسماجة، فنعم الخلق هى إن كانت السبيل إلى بلوغ الغاية، فامض على وجهك ودعهم فى غيهم يعمهون.

جناحان عظيمان يطير بهما المتعلم إلى سماء المجد والشرف: علو الهمة والفهم فى العلم، أما علو الهمة فقد عرفته. وأما الفهم فى العلم، فإليك الكلمة الآتية:

العلم علمان: علم محفوظ وعلم مفهوم، أما العلم المحفوظ فيستوى صاحبه فيه مع الكتاب المرقوم، ولا فرق بين أن تسمع من الحافظ كلمة، أو تقرأ فى الكتاب صفحة؛ فإن أشكل عليك شىء مما تسمع، فانظر إن نطق الكتاب بشرح مشكلاته، نطق الحافظ بتفسير كلماته.

الحافظ يحفظ ما يسمع لأنه قوى الذاكرة، وقوة الذاكرة قدر مشترك بين الذكى والغبى والنابه والخامل؛ لأن الحافظ ملكة مستقلة بنفسها عن بقية الملكات: وإنك لترى الشيخ الفانى الذى لا يميز بين الطفولة والهرم، والذى يبكى على الحلوى بكاء الطفل عليها، ويرتعد فرقًا حينما يسمع ابنته تخيف طفلها بأسماء الجن والشياطين، ويسرد لك من تواريخ شبيبته وكهولته ما لو دونته لكان تاريخًا صحيحًا ضخمًا مملوءًا بالغرائب والنوادر؛ وقيل لأحد العلماء: إن فلانًا حفظ متن البخارى، فقال: لقد زادت نسخة فى البلد!

ذلك هو السر العظيم فى كثرة المتعلمين وقلة العاملين؛ لأن من فهم معلومًا من المعلومات حق الفهم أشربته روحه، وخالط لحمه ودمه ووصل من قلبه إلى سويدائه، وكان إحدى غرائزه، فلا يرى له بدًا من العمل به رضى أو أبى.

لولا أن العلم الدينى قد أصبح اليوم علمًا محفوظًا لما وجدت فى العلماء من يجمع بين اعتقاد الوحدانية وبين التردد على أبواب الأحياء والأموات فى مزاراتهم وفى مقابرهم يسألهم المعونة والمساعدة على قضاء الله وقدره، ولا وجدت بين الذين يحفظون قوله تعالى ﴿**قل لا أملك لنفسى نفعًا ولا ضرًا**﴾ من يسند النفع والضر إلى كل من سال لعابه وتمزق إهابه، ولا وجدت

فى الناس كثيراً من ضعفاء العزيمة الذين يحفظون ما ورد على ألسنة الأنبياء والحكماء من مدح الفضائل وذم الرذائل، ثم لا تجد فرقًا بينهم وبين العامة فى ارتكاب المنكرات والنفور من الصالحات.

لو كان العلم المحفوظ علمًا -وهو على ما نشاهد ونعلم من سوء الأثر وقلة الجدوى- ما ورد مدح العلم فى كتاب ولا سنة، ولا قدّسه كاتب، أو ترنم بمدحه شاعر، فإذا سمعت ذكر العلم فاعلم أنه العلم المفهوم لا المحفوظ؛ وآية فهم المعلوم تأثر العالم به، وظهوره فى حركاته وسكناته، وترقرقه فى شمائله ترقرق الصهباء فى وجه شاربها، ولا تثق بالحافظ فيما ينقل إليك. فربما مرَّ بالمعلوم محرفًا فأخذه على علاته، وأقبح ما عرفنا من أطواره أنه يجمع فى حافظته بين النقيض ونقيضه، والغث والسمين، والجيد والزائف، فكأن ذاكرته حانوت عطار اختلطت فيها الأدوية الشافية، بالعقاقير السامة.

وجملة الأمر أن الحافظ البحت لا أرى له فى مبحث فيسأل عن مذهب، ولا أثر لمعلوماته فى نفسه فيقتدى به، ولا ذوق له فى الفهم فيعتمد على شرحه وتأويله.

أما العلم المفهوم فهو الواسطة التى إذا جمع المتعلم بينها وبين علو الهمة طار إلى المجد بجناحين. وكان له سبيل مختصر إلى منزلة العظماء ودرجة النابغين، والعلم سلسلة طويلة طرفاها فى يدى آدم أبى البشر وإسرافيل صاحب الصور[(١)] ومسائله حلقات يصنع كل نابغة من النوابغ فى كل عصر من العصور واحدة منها، ولن يبلغ المتعلم درجة النبوغ إلا إذا وضع فى العلم الذى مارسه مسألة، أو كشف حقيقة، أو أصلح هفوة أو اخترع طريقة، ولن يسلس له ذلك إلا إذا كان علمه مفهومًا لا محفوظًا، ولا يكون مفهومًا إلا إذا أخلص المتعلم إليه، وتعبد له وأنس به أنس العاشق بمعشوقه، ولم ينظر إليه نظر التاجر لسلعته، والمحترف لحرفته؛ فالتاجر يجمع من السلع ما يتفق

(١) المراد أن العلوم لا يتم تدوينها ولا تنحصر مسائلها ما دامت العقول تفكر، فالعلم دائب فيها من ابتداء الدنيا إلى انتهائها.

سوقه، لا ما يغلو جوهره؛ والمحترف لا يهمه من حرفته إلا لقمة الخبز وجرعة الماء، أحسن أم أساء.

لا يزور العلم قلبًا مشغولاً بترقب المناصب، وحساب الرواتب، وسوق الآمال وراء الأموال، كما يزور قلبًا مقسمًا بين تصفيف الطرة، وصقل الغرة، وحسن القوام، وجمال الهندام، وطول الهيام بالكأسين: كأس المدام، وكأس الغرام.

البائسات

زرت منذ أيام حاكم بلدة فى منزله، فرأيت بين يديه فتاة فى الثانية عشرة من عمرها بائسة عليلة، تشكو ألمًا فى عنقها، وجرحًا فى ذراعها، وهمًا فى نفسها، وتدير فى الحاضرين عيونًا حائرة مضطربة كأنما هى مركبة على زئبق رجراج؛ فسألت: ما شأنها؟ فعلمت أن أهلها زوجوها وهى فى هذه السن وعلى السذاجة من رجل وحشى الخلق والخلق. ثم زفوها إليه فحاول أن يفترشها، وهى على حالة لا تستطيع معها أن تلم بفراش فامتنعت عليه، فأراد اغتصابها فعجز، فضربها هذا الضرب الذى رأينا آثاره فى جسمها، ففرت منه إلى منزل أهلها فنقموا منها هذا الإباء الذى سموه بلادة وغفلة، وأعادوها إلى منزل زوجها كما يعاد المجرم الفار من سجنه إليه مرة أخرى؛ وهنالك عاد زوجها إلى عادته معها، فعادت هى إلى فرارها فعاد أهلها إلى قسوتهم وجبروتهم. فلما أعياها الأمر خرجت إلى الطريق العامة هائمة على وجهها لا تعرف لها مذهبًا ولا مستقرًا، حتى رفع أمرها إلى ذلك الحاكم، فأمر باستدعائها وآواها فى منزله ليخلصها من ذلك الموقف الذى كانت فيه بين ذراعى وجبهة الأسد. وما فرغ من هذه القصة حتى رفعت إليه حادثة أخرى تشبه الحادثة الأولى من جميع وجوهها، إلا أن الزوج فى هذه المرة خدع زوجه عن نفسها وسقاها مخدرًا فعقرها كما عقر شقى ثمود الناقة من قبل.

إن المرأة المصرية شقية بائسة، ولا سبب لشقائها وبؤسها إلا جهلها وضعف مداركها.

إنها لا تحسن عملاً، ولا تعرف باب مرتزق، ولا تجد بين يديها سلعة تتجر بها وتقتات منها إلا قلب الرجل، فإن استطاعت أن تمتلكه عاشت عيشًا رغدًا، أو لا، فلا مفر لها من الشقاء؛ من المهد إلى اللحد.

ودون امتلاكها هذا القلب القاسى المتحجر أهوال عظام، وعقبات جسام، لو كلف الرجل نفسه على ما به من قوة وأيد وسعة حيلة أن يجتاز واحدة منها لسقط بين اليأس والاستسلام.

متى بلغت الفتاة سن الزواج سواء أكان ذلك على تقدير الطبيعة أو على تقدير أولئك الجهلاء أولياء أمر تينك الفتاتين: استثقل أهلها ظلها وبرموا بها وحاسبوها على المضغة والجرعة. والقومة والقعدة، ورأوا أنها عالة عليهم، وأن لا حق لها فى العيش فى منزل لا يستفيد من عملها شيئًا. وودوا لو طلع عليهم وجه الخاطب، أى خاطب كان، يحمل فى جبينه آية البشرى بالخلاص منها.

وإن قومًا هذا مبلغ عقولهم من الفهم، وقلوبهم من القسوة، وهذه منزلة فلذات أكبادهم من نفوسهم، لا يمكن بحال من الأحوال أن يفاوضوها فى اختيار الزوج، أو يحسنوا الاختيار لها حين يختارون فإذا دخلت هذا المنزل الجديد الذى لا تعرفه ولا تعرف شأنًا من شئون أهله، دخلت فى دور الجهاد العظيم بينها وبين قلب الرجل.

فإن كانت ذات جمال أو مال، فقد استوثقت لنفسها وأمنت آلام الهجر وفجائع التطليق، وإلا فهى تقاسى كل صباح ومساء فى الحصول على الحسن المجلوب، والجمال المصنوع، آلامًا جسمانية تطفئ نور شبيبتها وتذبل زهرة حياتها، وتلاقى فى سبيل مصانعة الزوج ومداراته والبكاء فى موضع الابتسام إن ابتسم، والابتسام فى موضع البكاء إن بكى ما يجعل أخلاقها فضاء مملوءًا بالكذب والكيد، والخبث والرياء، وهى فوق ذلك تنتظر من فم زوجها فى كل ساعة كلمة الطلاق، كما ينتظر القاتل من فم قاضيه كلمة الإعدام.

ليست كلمة الإعدام من قبيل الاستعمال المجازى، فما أنس لا أنس ليلة زرت فيها صديقًا لى، فرأيت عند باب منزله امرأة بائسة ليس وراء ما بها من الهم غاية وكأنما هى الخلال رقة وذبولاً، ووراءها صبية ثلاث يدورون حولها ويجاذبونها طرف ردائها، فتسبل فضل مئزرها على مآقيها المقرحة رأفة بهم أن يلموا ببعض شأنها فيبكوا لبكائها، فسألتها عن شأنها فأخبرتنى أنها مطلقة من زوجها وأن بيدها حكمًا من المحكمة الشرعية بالنفقة لأولادها وقد مر عليها زمن طويل و«الإدارة» تماطل فى إنفاذه، فجاءت إلى هذا الصديق تستعين به على أمرها، ثم أخذت تشرح من حالها وحال أطفالها فى مقاساة الشدة ومعالجة القوت ما أسال شئوننا؛ وصعد زفراتنا وأمسكنا له أكبادنا خشية أن تصدعا.

فخففت أنا والصديق شيئًا من آلامها فانصرفت؛ وفى صباح تلك الليلة سمعنا أن امرأة فقيرة ماتت بحمى دماغية فسألنا فعلمنا أنها صاحبينا بالأمس، وأنها ماتت شهيدة الزوجية الفاسدة.

أيها الرجل:

إن كنت تعتقد أن المرأة إنسان مثلك وهبها الله مدارك مثل مداركك، واستعدادًا مثل استعدادك، فعلمها كيف تأكل لقمتها من حرفة غير هذه الحرفة النكدة، وإلا فأحسن إليها وارحمها كما ترحم كلبك وشاتك.

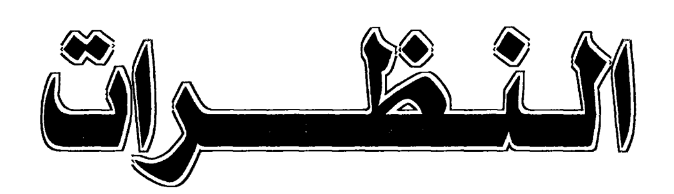
إن كنت زوجًا فلا تطردها من منزلك بعد أن تقضى مأربك منها كما تصنع بنعلك التى تلبسها، وإن كنت أبًا فهذه فلذة كبدك فلا تضق بها ذرعًا، ولا تلق بها فى حجر وحش ضار يأكل لحمها ويمتص دمها، ثم يلقى إليك بعظامها.

ويا أيها المحسنون: والله لا أعرف لكم بابًا فى الإحسان تنفذون منه إلى عفو الله ورحمته أوسع من باب الإحسان إلى المرأة.

علموها لتجعلوا منها مدرسة يتعلم فيها أولادكم قبل المدرسة، وأدبوها لينشأ فى حجرها المستقبل العظيم للوطن الكريم.

تم بحمد الله الجزء الأول من النظرات ويليه الجزء الثانى

مُصطفى لطفى المنفلُوطىّ



الجــزء الثانى

راجعــه

إبراهيم أمين محمد

البيـــان

قال لى أحد الوزراء ذات يوم: «إنى لتأتينى أحيانًا رقاع الشكوى فأكاد أهملها لما تشتمل عليه من الأساليب المنفرة، والكلمات الجارحة، لولا أن الله تعالى يلهمنى نيات كاتبيها وأين يذهبون، ولولا ذلك لكنت من الظالمين».

ذلك ما يراه القارئ فى كثير من المخطوطات التى يخطها اليوم كاتبوها فى الصحف ورقاع الشكوى والكتب الخاصة والمؤلفات العامة.

هزل فى موضع الجد، وجد فى موضع الهزل، وإسهاب فى مكان الإيجاز، وإيجاز فى مكان الإسهاب، وجهل لا يفرق ما بين العتاب والتأنيب، والانتقام والتأديب، والاستعطاف والاستخفاف، وقصور عن إدراك منازل الخطاب ومواقفه بين السوقة والأمراء، والعلماء والجهلاء، حتى إن الكاتب ليقيم فى الشوكة يشاكها مناحة لا يقيمها فى الفاجعة يفجع بها، ويكتب فى الحوادث الصغار ما يعجز عن كتابة مثله فى الحوادث الكبار، ويخاطب صديقه بما يخاطب به عدوه ويناجى أجيره بما يناجى به أميره.

ذهب الناس فى معنى البيان مذاهب متشعبة، واختلفوا فى شأنه اختلافًا كثيرًا، ولا أدرى علام يختلفون وأين يذهبون؟ وهذا لفظه دال على معناه دلالة واضحة لا تشتبه وجوهها ولا تتشعب مسالكها؟

ليس البيان إلا الإبانة عن المعنى القائم فى النفس، وتصويره فى نظر القارئ أو مسمع السامع تصويرًا صحيحًا لا يتجاوزه، ولا يقصر عنه، فإن علقت به آفة تينك الآفتين فهى العى والحصر.

جهل البيان قوم فظنوا أنه الاستكثار من غريب اللغة ونادر الأساليب فأغصوا بها صدور كتابتهم، وحشوها فى حلوقها حشوًا يقبض أوداجها ويحبس أنفاسها، فإذا قدِّر لك أن تقرأها، وكنت ممن وهبهم الله صدرًا رحبًا،

وفؤادًا جلدًا، وجنانًا يحتمل ما حمل عليه من آفات الدهر وأرزائه، قرأت متنًا مشوشًا من متون اللغة، أو كتابًا مضطربًا من كتب المترادفات.

وجهله آخرون فظنوا أنه الهذر فى القول، والتبسط فى الحديث واقعًا ذلك من حال الكلام ومقتضاه حيث وقع، فلا يزالون يجترون بالكلمة اجترار الناقة بجرَّتها، ويتمطقون بها تمطق الشفاه بريقها، حتى تسف وتتبذل، وحتى ما تكاد تسيغها الحلوق ولا تطرف عليها العيون، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

يخيل إلىَّ أن الكتَّاب فى هذا العصر يكتبون لأنفسهم أكثر مما يكتبون للناس، وأن كتابتهم أشبه شىء بالأحاديث النفسية التى تتلجلج فى صدر الإنسان حينما يخلو بنفسه، ويأنس بوحدته، فإنى لا أكاد أرى بينهم من يحكم وضع فمه على أذن السامع، وينفث فى روعه ما يريد أن ينفث من خواطر قلبه وخوالج نفسه.

الكلام صلة بين متكلم يفهم، وسامع يفهم، فبمقدار تلك الصلة من القوة والضعف تكون منزلة الكاتب من العلو والإسفاف، فإن أردت أن تكون كاتبًا فاجعل هذه القاعدة فى البيان قاعدتك، واحرص الحرص كله على ألا يخدعك منها خادع فتسقط مع الساقطين.

ما أُصيب البيان العربى بما أُصيب به إلا من ناحية الجهل بأساليب اللغة، ولا أدرى كيف يستطيع الكاتب أن يكون كاتبًا عربيًا قبل أن يطلع على أساليب العرب فى أوصافهم ونعوتهم، وتصوراتهم وخيالاتهم، ومحاوراتهم ومساجلاتهم، وقبل أن يعرف كيف كانوا يعاقبون ويؤنبون، ويعظون وينصحون. ويتغزَّلون وينسبون، ويستعطفون ويسترحمون، وبأية لغة يحاول أن يكتب ما يريد إن لم يستمد تلك الروح العربية استمدادًا يملأ ما بين جانحتيه حتى يتدفق مع المداد من أنبوب براعته على صفحات قرطاسه.

إنى لأقرأ ما كتب الجاحظ وابن المقفع والصاحب والصابئ والهمذانى والخوارزمى وأمثالهم من كتاب العربية الأولى، ثم أقرأ ما خطه هؤلاء الكاتبون فى هذه الصحف والأسفار فأشعر بما يشعر به المتنقل دفعة واحدة من

غرفة مُحكمة النوافذ، مُسبلة الستور، إلى جو يسيل قرًا وضرًا، ويترقرق ثلجًا وبردًا.

ذلك لأنى أقرأ لغة لا هى بالعربية فأغتبط بها، وهو العامية فألهو بأحماضها ومجونها.

رأيت أكثر الكاتبين فى هذا العصر بين رجلين: رجل يستمد روح كتابته من مطالعة الصحف وما يشاكلها فى أساليبها من المؤلفات الحديثة والروايات المترجمة. فإذا علقت بنفسه تلك الملكة الصحفية ألقى بها فى روع قارئ كتابته أدون مما أخذها، فيدلى آخذها كذلك إلى غيره أسمج صورة وأكثر تشويهًا، وهكذا حتى لا يبقى فيها من روح العربية إلا كما يبقى من الأطلال البالية بعد كر الغداة ومر العشىّ، وطالب قصارى ما يأخذه من أستاذه: نحو اللغة وصرفها، وبديعها وبيانها، ورسمها وإملاؤها، ومترادفها ومتواردها، وغير ذلك من آلاتها وأدواتها، أما روحها وجوهرها فأكثر أساتذة البيان عنده علماء غير أدباء، وحاجة طالب اللغة إلى أستاذ يفيض عليه روح اللغة، ويوحى إليه بسرِّها، ويفضى له بلبها وجوهرها أكثر من حاجته إلى أستاذ يعلمه وسائلها وآلاتها، وعندى أن لا فرق بين أستاذ الأخلاق وأستاذ البيان، فكما أن طالب الأخلاق لا يستفيدها إلا من أستاذ كملت أخلاقه وسمت آدابه. كذلك طالب البيان لا يستفيده إلا من أستاذ مبين.

ولا يقذفن فى روع القارئ أنى أحاول استلاب فضل الفاضلين أو أنى أريد أن أنكر على شعراء الأمة وكتابها ما وهبهم الله من نعمة البيان، فما هذا أردت ولا إليه ذهبت، وإنما أقول إن عشرة من الكتاب المجيدين، وخمسة من الشعراء البارعين، قليل فى بلد يقولون إنه مهد اللغة العربية اليوم ومرعاها الخصيب.

وبعد: فإنى لا أرى لك يا طالب البيان العربى سبيلاً إليه إلا مزاولة المنشآت العربية منثورها ومنظومها، والوقوف بها وقوف المتثبت المتفهم لا وقوف المتنزه المتفرج. فإن رأيت أنك قد شغفت بها وكلفت بمعاودتها والاختلاف إليها، وأن قد لذَّ لك منها ما يلذ للعاشق من زورة الطيف فى

غرة الظلام، فاعلم أنك قد أخذت من البيان بنصيب، فامض لشأنك، ولا تلو على شىء مما وراءك، تبلغ من طلبتك ما تريد.

ولا تحدثك نفسك أنى أحملك على مطالعة المنشآت العربية لأسلوب تسترقه أو تركيب تختلسه، فإنى لا أحب أن تكون سارقًا أو مختلسًا، فإن فعلت لم يكن دركك دركًا، ولا بيانك بيانًا، وكان كل ما أفدته[1] أن تخرج للناس من البيان صورة مشوهة لا تناسب بين أجزائها، وبردة مرقعة لا تلاؤم بين ألوانها وإنما أريد أن تحصل لنفسك ملكة فى البيان راسخة تصدر عنها آثارها عفوًا بلا تكلف ولا تعمل، وإلا كان شأنك شأن أولئك القوم الذين علقت ذاكرتهم بطائفة من منثور العرب ومنظومها، فقنعوا بها، وظنوا أنهم قد وصلوا من البيان إلى صميمه. فإذا جد الجد وأرادوا أنفسهم على الإفصاح عن شىء مما تختلج به نفوسهم، رجعوا إلى تلك المحفوظات ونبشوا دفائنها، فإن وجدوا بينها قالبًا لذلك المعنى يريدونه انتزعوه من مكانه انتزاعًا وحشروه فى كتابتهم حشرًا. وإلا تبذلوا باستعمال التراكيب الساقطة المشنوعة أو هجروا تلك المعانى إلى معان أخرى غيرها، لا علاقة بينها وبين سابقاتها ولاحقاتها، فلابد لهم من إحدى السوأتين: إما فساد المعانى واضطرابها، أو هجنة التراكيب وبشاعتها.

فاحذر أن تكون واحدًا منهم، أو أن تصدق ما يقولونه فى تلمس العذر لأنفسهم من أن اللغة العربية أضيق من أن تتسع لجميع المعانى المستحدثة، وأنهم ما لجأوا إلى التبذل فى التراكيب إلا لاستحالة الترفع فيها. فاللغة العربية أرحب صدرًا من أن تضيق بهذه المعانى العامة المطروقة بعدما احتملت من دقائق العلوم والمعارف ما لا قبلٍ لغيرها باحتماله؛ وقدرت من هواجس الصدور وخوالج النفوس على ما عيت به اللغات القادرات.

وليس الشأن فى عجز اللغة وضيقها، وإنما الشأن فى عجز المشتغلين بها عن الاضطراب فى أرجائها، والتغلغل فى أعماقها، واقتناعهم من بحرها بهذه البلة التى لا تثلج صدرًا، لا تشفى أواما.

---

(١) بمعنى: أفاد واستفاد.

وكل ما يعد عليها من الذنوب أنها لا تشتمل على أعلام لبعض هذه الهنات المستحدثة، وهو فى مذهبى أهوَن الذنب وأضعفها شأنًا، ما دمنا نعرف وجه الحيلة فى علاجه بالاشتقاق إن وجدنا السبيل إليه، أو التعريب إن عجزنا عن الاشتقاق، فالأمر أهوَن من أن نحار فيه، وأحقر من أن نقضى أعمارنا فى العراك ببابه، والمناظرة فى اختيار أقرب الطرق إليه، وأجداها عليه.

واعلم أنه لابد لك من حسن الاختيار فيما تريد أن تزاوله من المنشآت العربية، فليس كل متقدم ينفعك، ولا كل متأخر يضرك، ولا أحسبك إلا واقفًا بين يدى هذا الأمر موقف الحيرة والاضطراب، لأن حسن الاختيار طلبة تتعثر بين يديها الآمال، وتتقطع دونها أعناق الرجال، فالجأ فى ذلك إلى فطاحل الأدباء الذين تعرف ويعرف الناس منهم ذوقًا سليمًا، وقريحة صافية، وملكة فى الأدب كمصفاة الذهب، فإن فعلت وكنت ممن وهبهم الله ذكاء وفطنة وقريحة خصبة لينة صالحة لنماء ما يلقى إليها من البذور الطيبة، عدت وبين جنبيك ملكة فى البيان زاهرة، يتناثر منها منثور الأدب ومنظومه، تناثر الورود والأنوار من حديقة الأزهار.

السريرة

لو كشف للإنسان عن سريرة الإنسان لرأى منها ما يرى الأعمى من غرائب هذا الكون وعجائبه حين تدركه رحمة الله بعد طول محنته فيرتد بصيراً.

تتراءى لك السريرة فى ظاهرها كأنها أديم السماء أو صفحة الماء، فإن بدا لك أن تكتنه باطنها فإنك غير بالغ من ذلك مأربك إلا إذا استطعت أن تخترق جلدة السماء، فترى ما وراءها من بدائع الكائنات، وتغوص فى أعماق الماء فتشاهد ما فى باطنه من عجائب المخلوقات.

يعجز المرء عن رؤية الهباء فيتريث ريثما تمج الشمس لعابها من نافذة غرفته فإذا هو مائج وضاء يروح ويغدو رواح السانحات وغدو البارحات، ويعجز عن رؤية الجراثيم فيستعين عليها بمنظار يجسمها له ويدنيها منه حتى ليكاد يلمسها بيمينه، ويعجز عن اكتناه السريرة فلا يجد إلى الوصول إليها سبيلاً.

وقف آدم أمام باب السريرة يوم الشجرة يعالج فتحه فاستعصى عليه، ثم وقف بنوه من بعده موقفه فحجزوا عجزه، فلجَّ بهم الشوق إليها لجاجًا طار بعقولهم وذهب بألبابهم، فتراموا على أقدام المنجمين والعرَّافين لثمًا وتقبيلاً، وابتدروا النصب والتماثيل ركوعًا وسجودًا، وهاموا بزاجرات الطير والضوارب بالحصى هيام الإبل العطاش بمنازل الماء، يطلبون ما وراء السريرة والسريرة كنز مرصود لا تنجع فيه النفثات، ولا تجدى معه العزائم والرقى.

إنك لترى الرجل يتلألأ جبينه تلألؤ الكواكب فى جنح ليل مبرد، ويفتر ثغره عن الأنوار افترار الأكمام عن الأزهار، فتحسده على نعمته وسعادته، وتتمنى أن لو منحك الله ما منحه من هناء ورغد، وأن بين جنبيه -لو علمت- همًا يعتلج، وقلبًا يدب فيه اليأس دبيب الآجال فى الأعمار، وكبدًا مقروحة لو عرضها فى سوق الهموم والأحزان ما وجد من يبتاعها منه بأبخس الأثمان.

وإنك لترى الصديق فيعجبك منه حديثه الحلو، وثغره المبتسم، ويروقك منه كلفه بك وإعظامه لك وإعجابه بشمائلك ومحاسنك، وتشيعه لآرائك، ولو كشف لك من نفسه ما كشف له منها لوددت أن لو تيسر لك أن تبتاع أقدام السليك[1] بجميع ما تملك يدك ففررت من وجهه فرارك من وجه الأسود السالخ[2] ووددت بجدع الأنف أن لا يصافح وجهه وجهك من بعدها حتى فى جنات النعيم.

لولا ما أسدل الله على السرائر من الحجب لبدلت الأرض غير الأرض،

(١) السليك: رجل معروف بسرعة عدوه فى العرب.
(٢) ذكر الحيات.

والسموات غير السموات، وكان للكون نظام غير هذا النظام، وللتاريخ صفحات غير هذه الصفحات.

لو علم الجند أنهم لا يحاربون إلا ليضعوا «نيشانًا» فى صدر القائد، أو جوهرة فى تاج الملك، وأنهم كثيرًا ما يكونون مخدوعين فى مواقفهم بإشراك الوطنية وحبائل الدين، لما دالت الدول، ولا انتقلت التيجان، ولضعف ظهر الأرض عن حمل ما فوقه من بنى الإنسان. ولو علم جهلة المتدينين أن أكثر زعماء الأديان إنما يشترون منهم عقولهم وأموالهم بالقليل التافه من المدهشات الدينية والأحلام النفسية، ويملأون قلوبهم بالمخاوف والمزعجات ليبيعوهم الأمن والسلام بثمن غال، لضعفت أصوات النواقيس، وقصرت قامات المنائر، ولهلك أرباب الطياليس والقلانس جوعًا وسغبًا، ولأصبحت حبات السبح أكسد فى سوق الأديان من بعد الآرام فى سوق الأنعام، ولو علم الابن أن أباه يحبه لما يرجوه من منفعته فى شيخوخته، وأنه إنما يعجب بنفسه فى إعجابه به وثنائه عليه، ويفخر بقوة عقله وحسن تدبيره فى فخره بذكائه ونبوغه، لضعفت صلة الود بينه وبينه، ولما كانت بين حلقات الأنساب هذه الوشائج وتلك الأواصر. ولو علمت الزوجة أن زوجها يحب منها جسمها أكثر مما يحب نفسها، وأنه يتربص بها الدوائر ويعد ليومها الساعات والأيام ليستبدل بها خيرًا منها، لما وثقت بودِّه ولا اطمأنت لعهده ولما كان للمنازل سقوف تظل الأسرة والمهاد.

زيد وعمرو

أراد داود باشا -أحد وزراء تركيا فى العهد القديم- أن يتعلم اللغة العربية، فأحضر أحد علمائه، وأخذ يتلقى عنه علومه عهدًا طويلاً، فكانت نتيجة عمله ما ستراه.

سأل شيخه يومًا: ما الذى جناه عمرو من الذنوب حتى استحق أن

يضربه زيـد كل يوم ويبرِّح به هذا التـبريح المؤلم؟ وهل بلغ عـمرو من الذل والعجـز منزلة من يضعف عن الانتقام لنفـسه، وضرب ضاربه ضـربة تقضى عليه القضاء الأخير؟

سأل شـيخه هـذا السؤال وهو يتحـرق غيظًا وحنقـًا، ويضرب الأرض بقدميه؛ فأجابه الشـيخ: ليس هناك ضارب ولا مضروب يا مولاى، وإنما هى أمثلة يأتى بهـا النحاة لتقـريب القواعد من أذهـان المتعلمين. فلم يعجـبه هذا الجواب، وأكبر أن يعجز مثل هذا الشيخ عن معـرفة الحقيقة فى هذه القضية. فغضب عليه وأمر بسجنه، ثم أرسل إلى نحـوى آخر فسأله كما سأل الأول، فأجابه بمثل جـوابه، فسجنه كذلك ، ثم ما زال يأتى بهم واحـدًا بعد واحد. حتى امـتلأت السجـون وأقفرت المدارس، وأصـبحت هذه القضـية المشئـومة الشغل الشـاغل عن جمـيع قضايا الدولة ومـصالحهـا، ثم بدا له أن يستـوفد علماء بغداد، فأمـر بإحضارهم، فحضروا وقد علموا قـبل الوصول إليه ماذا يراد بهم، وكان رئيس هؤلاء العلماء بمكانة من الفضل والحدق والبصر بموارد الأمور ومصادرها، فلمـا اجتمعوا فى حضرة الوزيـر أعاد عليهم ذلك السؤال بعينه، فأجابه رئيس العلماء: إن الجناية التى جناها عمرو يا مولاى يستحق أن ينال لأجلها من العـقوبة أكثـر مما نال، فانبسـطت نفسه قليـلاً وبرقت أسارير وجه، وأقبل على محدِّثه يسأله: ما هى جنايته؟ فقال له: أنه هجم على اسم مولانا الوزير واغتصب منه الواو، فـسلط النحويون عليه زيدًا يضربه كل يوم جزاء وقـاحته وفضـوله -يشير إلى زيادة واو عـمرو وإسقاط الواو الثـانية من داود- فأعجب الوزير بهذا الجواب كل الإعجاب، وقال لرئيس العلماء: أنت أعلم من أقلته الغـبراء، وأظلته الخضراء، فـاقترح علىَّ ما تشـاء، فلم يقترح عليه سـوى إطلاق سبيل العلماء المسـجونين، فأمر بإطلاقـهم، وأنعم عليهم وعلى علماء بغداد بالجوائز والصلات.

أحـسن داود باشـا فى الأولى وأسـاء فى الأخرى، ولـو كنت مكانه لما أطلقت سبيل هؤلاء النحاة من سجنهم حتى آخذ عليهم عهدًا وثيقًا أن يتركوا هذه الأمثلة الباليـة إلى أمثلة جديدة مستطرفـة تؤنس نفوس المتعلمين وتذهب

بوحشتهم، وتحول بينهم وبين النفور من منظر هذه الحوادث الدموية بين زيد وعمرو، وخالد وبكر.

لا ينال المتعلم حظه من العلم إلا إذا استطاع تطبيقه على العمل والانتفاع به فى مواضعه ومواطنه التى وضع لأجلها، ولن يستطيع ذلك إلا إذا استكثر له معلمه من الأمثلة والشواهد الملائمة لقواعد ذلك العلم، وافتن له فى إيرادها افتنانًا يقرِّب إلى ذهنه تلك الصلة من العلم والعمل، ويسهل له الوصول إلى القدرة على تلك المطابقة، وإن أكثر المتعلمين فى مدرسة الأزهر أبعد الناس عن القدرة على المطابقة، لما حال بينهم وبين ذلك من الوقوف عند المثل الواحد لكل قاعدة من قواعد العلم! فلو أنك أردت أحدهم على أن يخرج فى المنطق عن الحيوانية والناطقية، وفى النحو عن ضرب زيد عمراً، وقتل خالد بكراً، وفى البيان عن تشبيه زيد بالبدر، واستعارة الأظافر للمنية، وفى الصرف عن فعلل وافعوعل لوجدت فى نفسه من الجهد والمشقة، وفى لسانه من العى والحصر ما يحزنك على أعوام طوال قضاها بين المحابر والدفاتر، ثم لم يحصل من بعدها على طائل.

علام يتعلم الطالب النحو والصرف إن عجز عن أن يقرأ صحيحًا كل كتاب وكل صحيفة؟ وعلام يتعلم علوم البلاغة إن عجز عن معرفة أسرار الكلام، وأوجه بلاغته وفهم المراد من مختلفات أساليبه، وعن الإبانة عما يدور فى نفسه إبانة واضحة لا يشوبها قلق ولا اضطراب؟ علام يتعلم المنطق إن عجز عن التميز بين فاسد القضايا وصحيحها فى ما يعرض عليه منها، وإن لم يكن الموضوع الإنسان، والمحمول الحيوان الناطق؟!

عجيب جداً أن يفهم الصانع الأمى أن العلم للعمل، فلا يتعلم النجارة إلا ليصنع الأبواب والصناديق، ولا الحداد إلا ليصنع الأقفال والمفاتيح، وأن يجهل المتعلم هذه القضية الضرورية، فلا يهمه من العلم إلا الاستكثار من المعلومات والقواعد، وإن عجز بعد ذلك عن التصرف فيها، والانتفاع بها فى مواطنها.

ما دامت مدرسة الأزهر على هذه الحال من أسلوب التعليم العقيم

فليس بمقدور لـها فى مستقبل الأيام أن ينبغ منها العلماء الذين تستطيع أن تنتفع بهم الأمة انتفاع أمثالها بأمثالهم فى مشارق الأرض ومغاربها، فويل للعلم من العلماء.

أبو الشمقمق(١)

إن كثيرًا من الفقراء لم تمتد يد الفقر إلى رؤوسهم، كما امتدت إلى جيوبهم، فهم يدركون كما يدرك الأغنياء، ويفهمون كما يفهمون. وكما أن فى أغنياء الجيوب فقراء الرؤوس، كذلك فى فقراء الجيوب أغنياء الرؤوس.

ولقد جلست فى منزلى صبيحة يوم مع قوم من الماديين الذاهبين الذين ملأ المال فراغ أذهانهم حتى أنساهم كل شىء وأنساهم أنفسهم قبل ذلك، فأخذوا يتجاذبون أسلاك الأحاديث الذهبية: ما بين تاجر يعجب بصفقته الرابحة، وزارع يفخر بقلة ما أعطى وكثرة ما أخذ. وآخر يعلل نفسه بكثرة الغلات وارتفاع الأسعار، والكل متفقون على أن السعادة التى أظلتهم أجنحتها فى هذا العهد الأخير: عهد العدل والإنصاف، عهد الحرية والمساواة، عهد الرقى والعمران: هى أشبه شىء بسعادة المتقين فى جنات النعيم.

كل هذا وأبو الشمقمق جالس ناحية يخزر طرفه، ويهز رأسه، ويصعد أنفاسه، ويمضغ أضراسه، ويئن من أعماق قلبه أنينًا يكاد يسمع فيه السامع قول الشاعر:

فيا لك بحرًا لم أجد فيه مشربًا ... على أن غيرى واحد فيه مسبحا

فما هو إلا أن قضوا لبانتهم من الكلام المملول، والحديث المعاد حتى قاموا يطيرون الآمال وراء الأموال. فأشرت إلى أبى الشمقمق أن يختلف ففعل. فسألته مالك لم تشترك معنا فيما كنا فيه؟ فأجاب إنى أكره الفضول

(١) هو فى الأصل رجل أديب من أدباء المولدين كان شديد الفقر.

فى الحديث وقد فرق المقدار بينى وبينكم فى المال، فلا أشترك فى المقال، فقلت: ألا يعجبك يا أبا الشمقمق حديث النهضة الحديثة التى نهضتها الأمة المصرية فى عهدها الأخير وأنت فرد من أفرادها، وجزء من أجزاء جسمها، فنهوضها نهوضك، وسقوطها سقوطك، والأمة -كما تعلم- هى الفرد المتكرر والواحد الدائر، فأنت الأمة والأمة أنت، فقال والله لا أدرى أتكلمنى بلسان الصوفية؟ ولست بصوفى، أم بلغة الفلاسفة؟ ولا أفهم للفلسفة معنى، وكأنك تقصدنى بالفرد المتكرر، فإن كنت تريد أننى فرد متكرر كثير الأشباه والأمثال فى العوز والفاقة، وواحد لا سند لى ولا عضد؛ ودائر فى مدارج الطرق ومعابر السبل، فقد أصبت وأحسنت، وإن كنت تريد معنى ذلك، فأنا لا أفهم إلا كذلك، فهل لك أن تعفينى من الجواب على هذه المعميات وتزن كلامك على مقدار عقلى وتحدثنى فيما يتناوله سمعى وبصرى؟ فقلت: أنا لم أخرج بك عن المألوف المعروف، ولا أريد إلا أن الأمة ليست فى الخارج شيئًا غير أفرادها، فإذا سعدت أو شقيت فالسعداء والأشقياء أبناؤها، وحسبك أن ترى تقدم الأمة المصرية فى ثروتها وعمرانها، وبذخها وترفها، وكثرة ناطقها وصامتها، فتسعد بسعادتها وتهنأ بهنائها، فقال: إن لم تبين لى سهمى من هذه السعادة، ونصيبى من ذلك الارتقاء فلا أصدق سعادة ولا أتصور ارتقاء، وما دمت أرى أن لى هوية مستقلة عن هوية سواى من السعداء، ويدًا تقصر عما تتناوله أيديهم، وبطنًا لا يمتلئ بما تمتلئ به بطونهم، وما دمت لا أرى واحدًا بينهم يلبس معى ردائى الممزق.. وقميصى المخرق.. ويقاسمنى همى.. ويشاطرنى فقرى.. فهيهات أن أسعد بسعادتهم، وأسر بسرورهم.. وهيهات أن أفهم معنى قولك أنت الأمة والأمة أنت.. فقلت: إن الغيث إذا نزل يسقى الخصيب والجديب.. والنجد والوهد؛ وينتظم من الأرض الميت والحى. فقال: كل سماء فيها هذا الغيث إلا سماء مصر فإنى أراه:

كبدر أضاء الأرض شوقًا ومغربًا ... وموضع رجلى منه أسود مظلم

ما لى وللروض الذى لا أستنشق روحه وريحانه.. والقصر الذى لا أدخله مالكًا ولا زائرًا.. وهب أن الطرق مفروشة بالحرير والديباج.. لا

بالحصى والمدر.. فهل أبقى لى الدهر من حاسة اللمس شيئًا فأستطيع أن أميز بين خشن الملمس وناعمه، ومعوج الأرض ومستقيمها؟ وهبنى إذا مشيت خضت فى بحر مائج بأنوار الكهرباء. فهل يغنى ذلك عنى شيئًا؟ وهل يكون نصيبى منه إلا انكشاف سوأتى ورثاثة حالتى لأعين الناظرين؟ ولقد حبب إلىَّ الظلام حتى تمنيت دوامه لألبس من ثوبه الطبيعى ما يكفينى مؤنة الرتق والفتق.. والتمزيق والترقيع.. وبعد: فما هو الارتقاء الذى تزعمه وتزعم أنه يعنينى ويشملنى؟ هل ترقت غرائز الإحسان فى نفوس المحسنين؟ وهل خفقت قلوب الأغنياء رحمة بالفقراء؟ فقلت: نعم.. أما ترى الأموال التى يتبرع بها الأغنياء للجمعيات الخيرية، والتى ينفقها المحسنون على بناء المدارس والمكاتب والمستشفيات؟ فقال: إن هذه التى تسميها مكارم، لا يسميها أصحابها إلا مغارم، ألجأهم إليها التملق للكبراء، وحب التقرب من الرؤساء، والطمع فى الزخرف الباطل والجاه الكاذب.

ما لى وللمدارس والمستشفيات، وأنا جوعان خبز لا جوعان علم.. ولا مرض عندى إلا مرض الفاقة، فهل أجد فى المدارس خبزًا أو فى المستشفيات دواء كذلك الدواء الذى وصفه أحد الأطباء الكرماء لرجل جائع دخل عليه وشكا إليه مرضًا فعرف سر مرضه فأعطاه علبة وكتب على غطائها «يؤخذ منه عند اللزوم» فلما ذهب بها الفقير وفتحها وجد فيها عشرة دنانير.

أنا رجل ضعيف البصر ضعيف القوة كما ترى فلا قدرة لى على العمل وعندى صبية صغار ليس بينهم من يستطيع عملاً أو يحسن صنعًا، ولقد كان لى فى الزمن الذى تذمونه، والعهد الذى تنقمون عليه، منفسح عظيم فى منازل المحسنين ومورد نمير من صدقاتهم وهباتهم، وظل ظليل من تحنن الأغنياء ورحمتهم بالفقراء البائسين، أما اليوم فإنى أبيت طاويًا، وأصبح شاكيًا، وأغدوا راجيًا وأروح يائسًا.

وهنا أرسل من جفنيه دمعة ليست بأول دمعة أرسلها على ردائه، ولكنها أحر من سابقاتها، لأنه لم يبك فى غير خلوته غير هذه المرة.

ثم نهض ومد يده إلىَّ مودعًا، فمسحت بيمينى دمعة واحدة من دموعه الكثيرات.

دورة الفلك[1]

أيها القصر:

أين الكوكب الزاهر الذى كان يتنقل فى أبراجك؟ أين النسر الطائر الذى كان يحلق فى أجوائك؟ أين الملك القادر الذى كان يطلع شمسًا فى صباحك وبدرًا فى مسائك؟

أين الأعلام والبنود تخفق فى شرفاتك؟ والقوَّاد والجنود تخطر فى عرصاتك؟ أين الشفاه التى كانت تلثم ترابك؟ والأفواه التى كانت تقبل أعتابك؟ والرؤوس التى كانت تطرق لهيبتك؟ والقلوب التى كانت تخفق لروعتك؟

أين الصوت الذى كان يجلجل فيقرع أذن الجوزاء؟ ويهدر فتلتفت عيون السماء؟ أين الفلك الذى كان يدور بالسعد والنحس، والنعيم والبؤس، والرفع الخفض، والإبرام والنقض؟

كيف استطاع الدهر أن يمد يده إلى شملك فيبدده؟ وجمعك فيفرقه؟ وسمائك فيكور شموسها؟ وأرضك فيزعج أنيسها؟

أين كانت أسوارك وأبوابك، وحراسك وحجابك؟ وكيف عجزت أن تمتنع على القضاء، وتصد عن نفسك عادية البلاء؟

ولم أر مثل القصر إذ ريع سربه ... وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره
تحمل عنه ساكنوه وهتكت ... على عجل أستاره وستائره

أيها السجن:

حلّ بأرجائك اليوم ملك تضيق به الدنيا، فكيف وسعته؟ وتعجز عن

(١) كتبت بمناسبة سقوط السلطان عبد الحميد ملك تركيا.

احتمـاله قلل الجبال الرواسى فكيف احتـملته؟ رفقًا به لا تزعـجه، ولا تحرج صدره، وضم جانحتيك عليـه كما تضم على القلب حنايا الضلوع، وأعطف عليـه عطف المرضعـات على الرضـيع، وارحم هذا الجلال الذاهب، والعـز الزائل، والرأس الذى بيـضتـه حوادث الـدهور، والظهر الذى قـوستـه أيدى المقدور.

أيها الدهر:

ألا تستطيع أن تنام عن الإنسان لحظة واحدة؟ ألا تستطيع أن تسقيه كأس السرور خالصة، لا يمازجها كدر، ولا يشوبها عناء؟

إن كنت تريد أن تسلـبه فلـم أعطيـته؟ وإن كنـت تريد أن تعطيـه فلم سلبتـه؟ كان خيـراً له أن لا تعطيه حتى لا تـفجعه فـى تلك العطية، وأن لا تسقيه كأس السرور حتى لا يتجرعَ ذلك السم الذى أودعته تلك الكأس.

أيها الرجل المودع:

كان ارتفاعك عظيمًا، فوجب أن يكون سقوطك عظيمًا.

إنك ذقت حلاوة الحياة خالصة، فلما ذقت مرارتها جزعت وقطبت كما يجـزع ويقطـب كل من ذاق من الشـراب مـا لا عـهـد له بـه ولا قـبل لـه باحتـماله.

لا تأس على ما فاتك، فإنما كان وديعـة من ودائع الدهر، أعاركها برهة من الزمان، ثم استردها.

إنك لا تدرى، لعلَّ الله أراد بك خيراً فمنحك قبل حلول أجلك فرصة من الزمان تخلو فيهـا بنفسك، وتراجع فها فهرس أعمـالك، فإن رأيت خيراً اغتبطت أو شرًّا استغفرت.

قضى الله أن يقيم فى كل حين لهذا العالم الغافل عبرة من العبر تزعجه من رقدته، وتوقظه من غفلته، فكنت أنت عبرة هذا الدهر وموعظته.

من بات بعدك فى مـلك يسربه ... فـإنما بات بـالأحـلام مـغـرور

تأبين فولتير(١)

فى مثل هذا اليوم، منذ مائة عام، مات الرجل العظيم، مات الرجل الخالد، مات فولتير.

ما مات «فولتير» حتى احدودب ظهره تحت أثقال السنين الطوال، وأثقال جلائل الأعمال، وأثقال الأمانة العظمى التى عرضت على السموات والأرض، فأبين أن يحملنها، فحملها وحده وهى تهذيب السريرة الإنسانية فهذبها، فاستنارت، فاستقام أمرها.

مات فولتير مرذولاً محبوبًا فى آن واحد يبغضه الحاضر لأنه يجهله، ويحبه المستقبل لأنه عرفه.

إن فى هاتين العاطفتين -البغض والحب- سرًا عظيمًا من أسرار المجد العظيم، لذلك الرجل العظيم.

كان وهو على سرير الموت محفوفًا بعاطفتين مختلفتين شكلاً، متفقتين معنى، لأنهما جميعًا فى سبيل مجده وفخاره، كان ينظر أمامه، فيسره منظر التبجيل والتعظيم من مستقبله، ويلتفت وراءه فيطربه مشهد البغض والازدراء والحقد الذى يضمره الماضى فى صدره لأولئك الرجال البواسل الذين حاربوه فانتصروا عليه.

كان «فولتير» رجلاً وأكبر من رجل، كان وحده أمة كاملة، إنه عاهد نفسه على إنجاز عمل عظيم فأنجزه ولم يخلف وعده، وكأن الإرادة الإلهية المتجلية فى الشرائع تجليها فى الطبائع، نثرت كنانة هذا المجتمع الإنسانى وعجمت عيدانه؛ فوجدت فولتير أصلبها عودًا، فاختارته للقيام بالعمل الذى قام به فأتمه.

(١) وهى ترجمة خطبة خطبها «فكتور هيجو» فى باريس فى حفلة تأبين فولتير الكاتب المشهور سنة ١٨٧٨م بعد مرور قرن على وفاته، مع بعض تصرف.

إننا أتينا هنا لفصل الخطاب فى المسألة الاجتماعية الكبرى، جئنا لنرفع شأن المدنية ونكرم الفلسفة إكرامًا ينفعها ويفيدها، جئنا لنتلو على القرن الثامن عشر رأى القرن التاسع عشر فيه، جئنا لنكرم المجاهدين والعاملين المخلصين، اجتمعنا لنمجد الطريق للوحدة الإنسانية التى يسعى إليها العلماء والعاملون، والكتاب المجدُون، وجملة القول أننا ما اجتمعنا هنا إلا لنمجد العاطفة الشريفة السامية، عاطفة السلام العام.

إنا نمجد السلام حبًا فى المدنية، وحرصًا على جمالها ورونقها، فالسلام فضيلة المدنية، والحرب رذيلتها.

نحن فى هذه الساعة العظيمة، فى هذا الموقف الرهيب، نجثو على الركب، ونعفر جباهنا بين يدى الشريعة الأدبية، ونقول للعالم الذى ينصت لسماع صوت فرنسا «لا قوة إلا قوة الضمير، ولا مجد إلا مجد الذكاء» هذا فى سبيل العدل، وهذا فى سبيل الحق.

لقد كان شأن المجتمع الإنسانى قبل الثورة الفرنسية على هذا المنال: الشعب فى المنزلة الدنيا، وفوق الشعب الدين والقضاء، وهذا يمثله «القضاة» وذاك يمثله «الإكليروس».

أتدرون كيف كان الشعب؟ وكيف كان الدين؟ وكيف كان القضاء فى ذلك العهد؟ كان الشعب جهلاً! والدين رياء! والقضاء ظلمًا!

إن كنت فى شك مما أقول فإنى أقص عليكم حادثتين من حوادث ذلك التاريخ أرى فيهما غناء ومقتنعًا.

فى ١٣ أكتوبر سنة ١٧٦١ وجد شاب مصلوبًا فى الطبقة الأرضية من بيت فى مدينة «تولوز» فهاج الشعب ولغط «الإكليروس» وبحث القضاة، فكانت النتيجة أن كان الشاب منتحرًا، فسمى قتيلاً، وكان والده بريئًا، فسمى قاتلاً.

هكذا أراد الدين وأرادت مصلحته أن يهلك والد الفتى لأنه كان بروتستانتيًا ولأنه كان يمنع فتاه أن يتدين بالكثلكة، إنها لجناية عظيمة جدًا

ينكرها الدين، ويحيلهـا العقل، ولكن هان أمرها، ولم يحفلوا بـالشريعتين: شريعة القلب، وشريعة العقل، فحكموا أن الشيخ الكبير قتل ولده الصغير.

هكذا قضى القضاء وهكذا كانت النتيجة فاستمعوها.

فى شهر مارس سنة ١٧٦٢ سيق إلى الميدان العام شيخ أبيض الشعر هو «جان كـالاس» ثم جـرِّد من ثيابه وطرح على دولاب العـذاب وشدت عليـه أطرافه وترك رأسه متدليًا.

ثلاثة رجال تلوثت أيديهم بدم الـقتيل: كاهن يحـمل الصليب، وجلاد يحمل القضيب، وقاض يحمل فى صدره عهد القوم إليه بالتنكيل والتعذيب.

لم يكن الشيخ المسكين وقد شق الخوف مرارته، وتمشى قلبه فى صدره، لينظر إلى الصليب فى يد الكاهن، بل إلى القضيب فى يد الجلاد.

ورفع الجلاد القـضيب، وضـرب ذراع الشيخ ضربة قـاسيـة صاح على أثرها صيحة مـؤلمة ثم أغمى عليه، فتقدم القاضى الرحـيم وأمره له بالمنبهات فانتعش، فضربه الجلاد الضربة الأخرى فوق الذراع الأخرى فعاد إلى صرخته وإغمـائه فعادوا إلى تنبـيهه وإنعـاشه، وهكذا حتى تم لكل ذراع من ذراعـيه ضربتان وصدعتان، فكأنما قتلوه قبل موته ثمانى مرات.

فى الإغماء الثامن بعد مرور سـاعتين من العذاب تقدم الكاهن ومدَّ إليه الصليب ليـقبله فحـوَّل وجهـه عنه، وكذلك تبلغ القـسوة الدينيـة من نفوس المتدينين، فأقـبل الجلاد وسدد إلى صدره الطرف الغليظ من القـضيب الحديد وضربه ضربة ألصقت صدره بظهره فكانت القاضية.

على هذه الصورة مات «جان كالاس».

وما هى إلا أيـام قلائل حتـى عرف الناس أن الفـتى مات منتـحرًا، لا مقتولاً فـحكموا ببراءة الشيخ بعد أن نفـذ فيه سهم القضاء، ومـاذا يعنيه بعد الموت، أمات ظالمًا أم مظلومًا!

أمـا الحادثة الأخـرى فهى عـبرة الشـبـاب كمـا كانت الأولى مـوعظة الشيخوخة.

بعد مضى ثلاث سنوات من تاريخ الحادثة الأولى وجدوا فى «إيفل» فى ليلة عاصفة صليبًا أكل السوس أحشاءه حتى عاف البقاء فيه مطرحًا فوق الجسر بعد أن عاش فوق السور ثلاثة قرون.

من ألقى به من أعلى السور؟ من أهانه؟ من ذا الذى دنس هذا الأثر المقدس؟ من ذا الذى أجرم هذا الجرم العظيم؟

ربما عصفت به ريح، أو عبث به عابر طريق، أو هوى به ضعف الشيخوخة وإعياء الهرم، لا. . لا. . كل ذلك لم يكن، لأن الدين أبى إلا أن يوجد مجرمًا. . هنالك أعلن مطران «إميان» براءة من غفران الله ورحمته لكل مؤمن علم أو ظن أنه علم شيئًا عن هذه الحادثة فكتمه.

إن الحرمان فى الكثلكة جريمة هائلة فظيعة قاتلة متى أوحى به التعصب الذميم، إلى الجهل العظيم، كان هذا الحرمان سببًا فى أن القضاء عرف أو ظن أنه عرف أن ضابطين اسم أحدهما «لابار» والآخر «ديتالون» مرا على جسر «إيفل» فى تلك الليلة المشؤومة يترنحان سكرًا، وينشدان نشيدًا عسكريًا، مرا بالجسر وأنشدا النشيد، فهما المجرمان، وكانت المحكمة تقدس «إيفل» ولم تكن بأقل عدلاً وإنصافًا من «مجلس الكابيتول» فى «تولوز» فأمرت بالقبض على الرجلين، فاختفى «ديتالون» وقبض على «لابار».

وأسلم إلى القضاء، فاعترف بالنشيد وأنكر المرور على الجسر، فحكمت محكمة إيفل بالإعدام، وأيد حكمها برلمان باريس، فدنت الساعة المخيفة الهائلة.

لقد تفننوا فى تعذيب «لابار» وإرهاقه ليكشفوا عن سر فعلته، وعن شركائه فى جريمته، أى جريمة المرور على الجسر، وإنشاد النشيد.

لقد عذبوه عذابًا أليمًا، حتى أن الكاهن الذى جىء به ليسمع اعترافه أغمى عليه حينما سمع قرقعة عظام ركبتيه.

مضى هذا اليوم وجاء اليوم الثانى، وهو يوم ٥ يونيه سنة ١٧٦٦ وجىء بالشاب المظلوم إلى ساحة «إيفل» الكبرى حيث تشتعل نار العذاب وتضطرم

إضرامًا، فأسمعوه نص الحكم، ثم بتروا يده، ثم استلوا لسانه بقابض من الحديد فاستأصلوه، ولكنهم رحموه بعد ذلك فقطعوا رأسه وألقوا بها فى النار.

على هذه الصورة مات «الشيفاليه دى لابار» كما مات من قبله «جان كالاس».

أحزنك هذا المنظر يا فولتير، وآلم نفسك، وملك عليك عواطفك وشعورك، فصحت صيحة الرعب والفزع، فكانت تلك الصيحة الحجر الأول فى بناء مجدك الخالد العظيم.

هنالك انبعثت نفسك إلى النزول فى ميدان المجتمع الإنسانى لتكف عادية الظالمين، وتقلم أظفار الوحوش الضارية، وجلست فى منصة القضاء لتحاكم الماضى على جرائمه، وتنتصف منه للمستقبل، فانتصفت وانتصرت، وكنت من المحسنين.

فيا أيها الرجل العظيم! طبت حيًا وميتًا.

حدثت تلك الحوادث التى ذكرتها على مشهد من المجتمع المهذب الراقى، وفى حياة حافلة بالسعادة مغتبطة بالهناء، يغدو إليها الإنسان لاهيًا، ويروح ساهيًا، لا يرفع رأسه فيعلم ما فوقه، ولا يخفضه فيرى ما تحته.

حدث ذلك وأيام البلاط أعياد، و«فرسايل» تتلألأ حسنًا وبهاء ورونقًا وماء، وظرفاء الشعراء أمثال «سان أولاير» و«بوفلير» و«جنتيل برنار» لاهون بالغزل الرقيق والوصف الجميل.

حدث ذلك وباريس تتجاهل ما يجرى حولها، فاستطاع القضاء الظالم بمعونة القسوة الدينية أن يمثل بالشيخ ذلك التمثيل الفظيع، بذلك القضيب الحديد، وأن يستل لسان الفتى لأنه أنشد الأناشيد.

كان المجتمع فى ذلك التاريخ مؤلفًا من قوى عظيمة هائلة، قوة البلاد وقوة الإشراف، وقوة المال، وقوة الشعب المائج المتدفع، وقوة الحكومة التى كانت أسدًا على الرعية، ونعامة بين يدى الملك، تجثو أمامه خاضعة صاغرة،

إلا أن جثيها كان على جثة الشعب.. وقوة «الإكليروس» المؤلف من الرياء الكاذب والتعصب الأعمى.

تقدم فولتير وحده وأثار حربًا عوانًا على هذا العالم المؤلف من تلك القوى المختلفة.. ولم يره أكبر من أن ينخذل.. ولم ير نفسه أصغر من أن ينتصر.

أتدرون ما كان سلاحه؟ ما كان له سلاح غير تلك الأداة التى تجارى العاصفة فى هبوبها.. وتسبق الصاعقة فى انقضاضها.. ما كان له سلاح غير القلم، فبالقلم حارب، وبالقلم انتصر.

انتصر فولتير، فولتير وقف وحده تلك المواقف المشهودة، فولتير أدار وحده رحى تلك الحرب الهائلة، حرب العلم والجهل، والعدل والظلم، والعقل والهوى، والصلاح والفساد، فتم على يديه الغلب للخير على الشر، وفاز فوزًا مبينًا.

وكان «فولتير» قلبًا وعقلاً.. كان له رقة الفتاة فى غلالتها[1] وشدة الأسد فى لبدته.

«فولتير» محا الخرافات الدينية والعادات الفاسدة، وأرغم أنف الكبرياء وأذل عز الرؤساء، ورفع السوقى إلى حيث لا يصل ظلم القاضى ولا تنطع الكاهن.

علم ومدن وهذب، ولقى فى سبيل ذلك من الشدائد والمحن والنفى والقهر ما يكسر سورة النفس، فلم تتكسر سورته، ولم تفتر عزيمته. بل كان يلقى الاستبداد بالسخرية، والغضب بالاستخفاف، والقوة القاهرة بالابتسامة المؤثرة.

أقف هنا قليلاً إجلالاً لابتسامة «فولتير».

«فولتير» هو الابتسامة، والابتسامة هى فولتير.

أفضل مزايا الرجل الحكيم أن يملك نفسه عند الغضب، وكذلك كان فولتير. كان عقله ميزان أعماله، فما غلبه حتى الغضب للحق.

---

(١) الغلالة: شعار يلبس تحت الثوب.

كنت تراه عابسًا مقطبًا، فما هى إلا كرة الطرف أن ترى فولتير الضاحك المبتسم فى مكان فولتير العابس المقطب.

تكاد تكون ابتسامته ضحكًا، لولا حزن الحكيم، وهم العاقل.

كانت ابتسامته كبارقة السيف يرتاع لها الأعداء، ويرتاح لها الأولياء.

كان يبتسم للقوى فيخجله بتهكمه واستخفافه، وللضعيف فيسره بتحننه وانعطافه.

فلنمجد تلك الابتسامة التى كانت أشعتها كأشعة الفجر، تمحو الظلام وتبعث الأنوار.

نعم الابتسام، ابتسام أنار الطريق للعدل والحق والصلاح، وبدد ظلمات التقليد.

إن ابتسامة فولتير أنشأت هذه الهيئة الاجتماعية وزينتها بالإخاء والمودة والحرية والمساواة، فنال العقل منزلته من الإجلال والإعظام، سواء أسكن القصر الكبير، أم الكوخ الحقير، ولبس المعلم تاج الملك فتصرف فى العقائد الباطلة والعادات الفاسدة، والخرافات الدينية تصرف الحاكم القدير، ونشر السلام أجنحته البيضاء على المجتمع الإنسانى فقرت السيوف فى الأغماد، وهدأت الدماء فى العروق، والأرواح فى الأجسام، كل ذلك بفضل ابتسامة فولتير، ولسوف يأتى ذلك اليوم العظيم يوم الرحمة بالضعفاء، والعفو عن الخاطئين، فيبتسم فولتير فى السماء إبتسامة تتلألأ بين لآلاء النجوم.

فلنمجد ابتسامة فولتير كل التمجيد ولنكبرها كل الإكبار.

هل كان «فولتير» يحلم دائمًا فلا يستخف حلمه الغضب؟ كلا: بل كان يغضب أحيانًا فى سبيل الحق.

إن التوسط وحفظ الموازنة بين الأخلاق هو القانون العقلى للإنسان، حتى لا تهبط به كفة وتعلو به أخرى، وحتى لا يهلك بين عاطفتى الحب والبغض، وأن الفلسفة هى الاعتدال، وامتلاك أزمة النفس فى جميع مواقفها

ومذاهبها، إلا أن حب الحق يجب أن يكون دائمًا فى مرتبة الغلو حتى تهب عاصفته قوية هائلة على الشرور والآثام فتذهب بها.

يعيش المرء بين سعادتين من حاضره ومستقبله، أما الأولى فيكفلها العدل وأما الثانية فيحرسها الأمل، لذلك يحب الناس القاضى العادل، والكاهن الصالح: لأن الأول صورة العدل، والثانى مثال الرجاء، فإذا انقلب العدل ظلمًا، والأمل يأسًا، عافهما الإنسان ولوى وجهه عنهما، وقال للقاضى «لا أحب قانونك» وللكاهن «لا أؤمن بك» وهنا يهب الفيلسوف الغيور غاضبًا، فيحاكم القضاء أمام العدل والكهنوت أمام الله، وكذلك فعل «فولتير» فكان من المحسنين.

إن الرجل العظيم لا يظهر فى المجتمع وحيدًا إلا قليلاً، وكلما كثر العظماء حوله ارتفع شأنه وعلا ذكره، فهو كالشجرة الباسقة تكون فى الغابة الشجراء أطول منها فى التربة الجرداء، لأنها تكون بين لداتها وأترابها، وكان فولتير فى غابة من العقول الكبيرة: روسو وديدور وبوفون وبورماشيه ومونتسكيو، أولئك القوم المفكرون المخلصون هم الذين علموا الناس النظر فى حقائق الأشياء، والتفكر الصحيح الموصل إلى إتقان الأعمال، وعلموهم أن صلاح القلب أثر من آثار صلاح العقل، فأجادوا وأفادوا.

مات أولئك القوم العظماء، وهوت من أفقها كواكبهم، ولقد كانوا فى حياتهم جسدًا وروحًا، أما الجسد فقد طواه القبر، وأما الروح فهى الثورة التى تركوها من بعدهم.

أجل، إن الثورة روحهم، والمظهر الساطع المتلألئ بحكمتهم ومبادئهم.

هم فى الحقيقة أبطال الثورة المقدسة، التى هى خاتمة الماضى، وفاتحة المستقبل.

إنك تراهم بعين بصيرتك، فى كل مواقفها ومواقعها، وإذا استطعت أن تنفذ بعين بصيرتك فى مواطن الأشياء، رأيت على نور الثورة الساطع أن

ديدور كان واقفًا وراء دانتـون، وروسو وراء روبسبير، وفولتـير وراء ميرابو، ووجدت أبطال الثورة صنيعة أبطال الفلسفة(١).

إن الكلمـة الأخيـرة التى أنطق بهـا فى هذا الموقف العظيم، هى دعـاء المجتمع البشرى إلى التقدم بهدوء وسكون، وثبات ووقار.

ولقـد وجد الحق ضـالتـه التى كـان ينشدها، وهـى الإخاء الإنسـانى والتـعارف النفـسى، فـمن العبـث أن تشغل القـوة بعـد ذلك مكانًا فى هذا المجتمع، فإن فعلت كان أليق الأسماء بها اسم الاستبداد.

إن المجتـمع الإنسانـى أنكر على القوة حـقهـا المزعوم، وضـاق صدره بجرائمها وآثامها، فـقضاها بين يدى الحق، وأتى بالتاريخ شاهدًا على دعواه، فقضى عليها ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا﴾.

شف ثوب الرياء عما تحته، وظهرت الحقيقة بيضاء ناصعة لا غبار عليها فأصـبح الأبطال والمجرمـون فى نظر الإنسانيـة سواد لأنهم جمـيعًـا يسفكون الدماء.

هدم التمدين تلك الـقاعدة الفاسدة: وهى أن الجـرم العظيم أصغر من الجرم الصغير، فأدرك الإنسان أن قـتل الشعوب أكبر إثمًا، وأعظم جريرة من قتل الأفـراد، واستكبـر أن يعتـبر الحـرب مجدًا وهو يعـتبـر السرقـة عارًا، وبالجملة: عرف أن الجريمة جريمة، حيثما حلت، وفى أى مظهر ظهرت، وأن القاتل لا يغنى عنه من الله شيئًا أن يسـمى القيصر أو يدعى الإمبراطور. ولا يخفى على الله من أمره شىء سواء ألبس تاج الملك، أو قلنسوة الإعدام!.

فلنصرح بالحـقيقة المقـررة الثابتة، ولنحتـقر الحرب أشد الاحـتقار، أن الحرب المباركة لا أثر لها فى الوجود.

إن منظر الدماء والأشلاء أفظع منظر.

لا يعقل أن يكون الشر طريق الخير، وأن يكون الموت وظيفة الحياة.

---

(١) دانتون، وروبسبير، وميرابو: أبطال الثورة الفرنساوية.

أيتها الأمهات الجالسات حولى: خففن من أحزانكن فقد أوشكت يد الحرب أن تكف عن اختلاس أفلاذ أكبادكن.

أتشقى المرأة فتلد، ويغرس الزارع فيكسو الأرض بساطها الأخضر، ويجد العامل فيملأ الخزائن فضة وذهبًا، ويأتى الصانع بعجائب المصنوعات وغرائب المدهشات، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وفاخرت السماء بنجومها وكواكبها، وذهبنا لرؤية معرضها العام وجدناه ساحة القتال؟!

آه... إننا لا نستطيع مع الأسف أن نخدع أنفسنا، وننكر أن الساعة التى نحن فيها تشتمل على بضع دقائق محزنة تكدر صفوها، وتنقص من سرورها.

لا تزال فى مرآة السماء الصافية سحابة سوداء.

إن الشعب لم يقض كل أربه من السعادة لأن الحرب لا تزال باقية.

فلنذكر عند ملوك الحرب: فولتير وجان جاك وديدور ومونتسكيو ملوك السلام، ولنوجه وجوهنا إلى تلك الروح العالية، إلى تلك الحياة العظيمة، إلى ذلك الدفين المقدس، إلى فولتير، ولنجث أمام قبره ضارعين متوسلين، عسى أن يمدنا بروح من عنده، ويهدينا إلى حظيرة السلام المقدسة، وإن مر قرن على موته لم يزل فى الأحياء الخالدين.

لنقف فى طريق الدماء المتدفقة لنقول للسفاكين بصوت عال: كفى كفى إنها همجية، إنها وحشية، إنها تشوه وجه المدنية الجميل.

إن أسلافنا من الفلاسفة رسل الحق إلى البشر.

فلنضرع إليهم فى تذكارهم هذا أن يتداركوا الفتنة قبل وقوعها، وينادوا: أن الحياة ملك الإنسان، وعزيز عليه أن تسلب منه، وأن التمتع بالحرية حق من حقوق العقول والأفكار، فلا يعترض سبيلها معترض.

إن النور لا أثر له بين أضواء القصور، فلنطلبه بين ظلمات القبور.

العلماء والجهلاء

لا تحسبن أن الفلسفة الاصطلاحية مطلب من المطالب التى لا ترام، أو أن بين من نسميهم العلماء ومن نسميهم الجهلاء ذلك الفرق العظيم الذى يتصوره الناس عندما يرون التفريق بينهما، وإنزالهما منازلهما، فالعلماء والجهلاء -إن دققت النظر- سواء لا فرق بينهما إلا أن هؤلاء يعلمون المعلومات منظمة، وأولئك يعلمونها مبعثرة، وأن هؤلاء يحسنون البيان عنها وأولئك لا يبينون.

ومن نظر إلى الأشياء نظرًا نافذًا وجد أن المعانى الصحيحة، والقضايا الكونية المتعلقة بالخير والشر والنفع والضرر، والمسائل المنوطة بالإنسان فى حياتيه المادية والمعنوية، يشترك فى العلم بها الناس جميعًا عامتهم وخاصتهم، كبارهم وصغارهم، من نشأ تحت سقوف الجامعات ومن عاش تحت سقوف السموات، لأن العلم ينبوع يفور من الداخل، لا سيل يتدفق من الخارج، ولأن المعلومات كامنة فى النفوس كمون النار فى الزند، والقوة فى المادة، وما وظيفة العلم إلا استثارتها من مكانها، وبعثها من مراقدها.

وآية ذلك أنك لا تجد حكمة من الحكم التى يفخر بها العلماء ويعدونها مظهر علمهم وآية فضلهم، إلا وترى فى ألسنة العامة وشوارد أقوالها وأمثالها ما يرادفها ويشاكلها، كما أنك لا تجد قاعدة من قواعد الأدب، ولا قضية من قضايا الأخلاق التى تعدها من ذخائر الأسفار ونفائس الأعلاق، ألا وهى ملقاة تحت أقدام العامة، ومذلة بين أيدى الغوغاء والأميين.

وعندى أنه لولا عجز العامة عن بيان ما يجول فى خواطرهم ويهجس فى ضمائرهم من المعلومات على صورة مرتبة منظمة لما خيل إليهم أنهم يسمعون من الخاصة كلامًا عجيبًا، أو معنى غريبًا.

ليس هذه الغبطة التى نراها تعلق بنفوسهم عندما يتلقون أحاديث الخاصة من أجل أنهم علموا ما لم يكونوا يعلمون، أو أدركوا ما لا عهد لهم به من قبل، بل لأنهم ظفروا بمن يترجم عن أفكارهم، ويجمع لهم شتات المعانى المبعثرة فى أنحاء أدمغتهم، ولأنهم وجدوا فى أنفسهم لذة الأنس بأفكار تشابه أفكارهم وآراءهم.

ولا أخشى بأسًا إن قلت: إن علم العامة أفضل من علم الخاصة، لأنه أولاً علم خالص من شائبة التكلف والتعمل، حتى إنك لتجد فى بعض الآحاديين بين معلومات الخاصة ومذاهبهم وآرائهم ما يضحك الثكلى لغرابته وشذوذه، وما يترفع أضيق العامة ذهنًا وأضعفهم فهمًا أن يجعل له شأنًا، أو يقيم له وزنًا، وثانيًا: لأنه يعلق بالنفس ويتغلغل بين أطوائها تغلغلاً تظهر آثاره على الجوارح، وكثيرًا ما تجد بين الجهلاء من تعجبك استقامته وبين العلماء من يدهشك اعوجاجه، وإن كان صحيحًا ما يقولون من أن العلم ما ينتفع به صاحبه فكثير من الجهلاء أعلم من كثير من العلماء.

فلا تبالغ فى تقدير فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء، ولا تنظر إليهم نظرًا يملأ قلبك زهبة ولا تغل فى احتقار الجهلاء وازدراء العامة والدهماء ولا تكن ممن يقضون حياتهم أسرى العناوين وعبيد الألقاب.

إن فى اختفاء الحقائق الكونية وتنكرها، وضلال هذا العالم فى مذاهبه ومراميه، وتفرقه مذاهب وشيعًا، وركوب كل فريق رأسه، وهيامه على وجهه، ووقوف طلاب الحقيقة فى كل دهر وعصر فى مفارق الطرق ورؤوس المسالك حيارى -ينشدون فلا يجدون ويجدون فلا يصلون- لدليلاً على أن الفلاسفة والحكماء والعلماء كلمات غير مفهومات وأسماء بلا مسميات، وأن حقائق الأشياء وأسرار الكائنات قد استأثر الله بعلمها واحتجنها من دون عباده، ولم يمنحهم إلا بلة تزيدهم وجدًا كلما وجدوا بردها وتملأ قلوبهم شوقًا كلما تذوقوا طعمها:

ضريبك فى بنى الدنيا كثير	وعز الله ربك من ضريب
وما العلماء والجهلاء إلا	قريب حين تنظر من قريب

الرجل والمرأة

سيدى المحترم:

لا تعجب إن رأيت إعجابى بك ظاهرًا فى كل سطر من سطور كتابى هذا فإنما أنطق بلسان كثير من العقلاء، الذين يحبونك حبًا جمًا، ويعتقدون أنك فريد فى أدبك، فريد فى قلمك، فريد فى تسامحك وتساهلك، لذلك أردنا أن نوجه إليك السؤال الآتى راجين منك الإجابة عليه:

لماذا نرى الهيئة الاجتماعية تحكم على المرأة الفاسقة حكمًا صارمًا فتنبذها وتحتقرها، ولا تحكم على الرجل الفاسق مع أن جريمتهما واحدة؟

هذا ما أردنا أن نسترشد برأيك فيه، والسلام؟

«سائل»

يعتقد كثير من الناس أن الرجل والمرأة سواء فى الذكاء والعقل، وعندى أنهم أصابوا فى الأولى وأخطأوا فى الأخرى.

تستطيع المرأة أن تجارى الرجل فى سرعة الفهم وحضور البديهة، ولا تستطيع أن تجاريه فى الأناة والرفق وامتلاك هوى النفس، والأخذ بفضيلة الصبر على ما تكره وعما تحب. ،

تستطيع المرأة أن تدرك ما يدركه الرجل من الشؤون والأطوار، وأن تستخرج كما يستخرج المجهولات من المعلومات، ولكنها لا تستطيع أن تنتفع بمعلوماتها كما ينتفع، لأن بين جنبيها نفسًا غير نفسه، وهوى غير هواه، ولأن لها قلبًا صغيرًا لا يقوى على احتمال ما يحتمله عقله الكبير.

يمشى الرجل وراء عقله فيهديه.. وتمشى المرأة وراء قلبها فيضلها، فما وقفت معه فى موقف إلا سقطت بين يديه عجزًا وضعفًا.. لأنه يعرف السبيل إلى قلبها.. ولا تعرف السبيل إلى عقله.

لا تعجب إن قلت لك: إن الذكـاء غير العقل، فاللصـوص والمحتالون والمزوِّرون والكاذبون والفـاسـقون والمنافـقـون أذكيـاء.. وليس بينهم عـاقل واحـد.. لأنهم يوردون أنفسـهم موارد التـلف والهلاك، من حـيث لا يغنى عنهم ذكاؤهم شيئًا.. وكثيراً ما يكون الذكاء السديد داعية الجنون؛ حتى إنك لا تكاد ترى ذكيًا من الأذكيـاء، إلا وترى له فى شؤونه وأطواره أحوالاً شاذة لا تنطبق على قـانون من قوانين العـقل.. ولا قاعـدة من قواعـد الطبيـعة. وعندى أن أكثر ما يصيب النوابغ والأذكـياء من بؤس العيش وسوء الحال عائد إلى ضعف فى عـقولهم.. ونقص فى تصوراتهم، وبعد. فـالذكاء فى رأس الإنسان كالسيف فى يد الشجاع.. وكثيراً ما يضرب الشجاع عنق نفسه بسيفه إذا كان طائشًا أهوج لا يملك نفسه فى مواقف الحزن أو الغضب.

فما يغنى المـرأة ذكاؤها إذا لم يكن وراءه عقل يملكها ويصـرفها ويمسك بيدها إن تعثر فى عدوها واشتدادها بعقبة من عقبات هذه الحياة.

سـيثـقل هذا الحكم على نفـوس النسـاء ونفـوس الـرجـال الذين يجاملونهن.. ولكن مـاذا أعمل وبين يدى برهان قاطع ليس فى استـطاعتهن أن ينازعنى فيه مع شدة ذكائهن.. ولا فـى استطاعة أنصارهن من الرجال أن ينقضوه.. ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

لولا أن الرجل أعقل من المرأة مـا كان له عليـها هذا السلطان.. وذلك الغلب.. ولا استطاع أن يقودها وراءه كما يقاد الجنيب(١) ولا أن يملك عليها أمر فقـرها وغناها وحبسهـا وإطلاقها وحجـابها وسفورها ويستـأثر من دونها بوضع القوانين والشرائع الخاصة بها من حيث لا ترى فى نـفسها قوة لدفعها، والخروج عليها.

القوىُّ يملك على الضعيف بحكم الطبيـعة كل شىء حتى نفسه وهواه، وكذلك كان شأن الإنسان مع الحيوان، وشأن الرجل مع المرأة.

الإنسان نوع من أنواع الحيـوان، لم يكن فى مبدأ خليفته خـيراً منها فى شأن من شـؤون الحياة، ولكنه كـان أوفر منها عـقلاً وأوسع حيلة، فـما زال

---

(١) الجنيب: المهر الذى يقاد إلى مهر آخر.

يطلب لنفسه الغاية التى تناسب استعداده وفطرته، حتى أصبح سيد الحيوان فمدَّن المدن ومصَّر الأمصار، وشاد وبنى، وتأنق وترفه، ثم طرد صاحبه إلى الصحارى والرمال، ورؤوس الجبال، يأكل بعضه بعضًا، ويتفانى شقاء وجهلاً، والرجل أخو المرأة وقسيمها فى الرحم والمهد، والأبوة والأمومة، والقومة والقعدة، والنومة واليقظة، ولكنه وجد فى نفسه فضلاً عليها فى قوة العقل والتدبير.. وكان ظالمًا خشن النفس قاسى القلب فأبى إلا أن يأسرها ويغلبها على أمرها ويملك عليها جسمها ونفسها، فتم له ما أراد.

ملك عليها جسمها لأنه حجبها عن النور والهواء فأذعنت.. وملك عليها نفسها لأنه ألقى فى روعها أن ذنبها فى جريمة الفسق المشتركة بينه وبينها أكبر من ذنبه، وأن جنايتها ضعف جنايته فصدقت، وطلب منها أن تسلم إليه الأمر فى تدبير شؤونها والتصرف بأموالها فسلمت.. وأصبحت تنظر إلى هذه القوانين الجائرة التى وضعها لها، والاعتبارات الفاسدة التى اعتبرها معها، كما ينظر إليها هو بعين الإجلال والإعظام.

يخدع الرجل المرأة عن شرفها فيسلبها إياه، فإذا سقطت هاج المجتمع الإنسانى عليها رجاله ونساؤه.. وملأ قلبها هولاً ورعبًا وأوسع نفسها تقريعًا وتأنيبًا من حيث لا تصبر على شرارة واحدة من هذه النار المتأججة.. لأنه هو الذى وضع هذا القانون وشرع تلك الشريعة.. وما كان له أن يقصر فى ممالأة نفسه ومحاباتها، لأنه شره طماع محب لذاته، ولا أن يعدل فى القضاء فى قضية هو الخصم فيها والحكم، لأنه ظالم جبار.

ولو كان للمرأة ما للرجل من قوة العقل، لاستطاعت هى أن تحجبه فى المنزل، وأن تتولى التصرف فى شأنه، وإن تعبث بعقله ما شاءت، فتعظم جريمته وتصغر جريمتها فى عينه، وإن تنفذ إلى قلبه فتلعب به لعب الصبى بالكرة، وأن تحدثه فيصدق، وتأمره فيأتمر.. وأن تسن له القوانين الجائرة والشرائع الفاسدة فيؤمن بها إيمانه بالإله المعبود كما صنع هو بها فى جميع ذلك فبلغ منها ما أراد.

لا أريد أن أقول: أن هذا الفرق فى القوة العقلية بين الرجل والمرأة يمنحه

هذا الحق فى ظلمها وغلبتها على حقها، بل أريد أن أقول: إن هذا الفرق بينهما هو سبب ذلك السلطان القاهر.. والحكم الجائر.

وجملة القول: أن حكم المجتمع الإنسانى بإدانة المرأة الزانية وبراءة الرجل الزانى حكم ظالم، ولو أنه أنصفها لعرف فرق ما بينهما فى القوة العقلية، فجعل عقاب الرجل القوى المهاجم فوق عقاب المرأة الضعيفة المدافعة.. ولكنه لم يفعل ذلك لأن رجاله ظلمة جائرون، ولأن نساءه ساذجات بسيطات، يصدقن الرجال فى أقوالهم، وينظرون إلى المستحسنات والمستهجنات بأنظارهم، فإن أردنا أن تنال المرأة حقها من الرجل، وأن تنتصف منه. فليس سبيلها إلى ذلك المغالبة والمصارعة. فإنها أضعف منه جسمًا وعقلاً. بل السبيل إليه أن نعلمها لتعرف كيف تستعطفه وتسترحمه، وكيف تحمله على إجلالها وإعظامها، وأن تعلمه ليستطيع أن يكون شخصًا كريمًا، وإنسانًا رحيمًا.

الدعـــوة

ما من قائم يقوم فى مجتمع من هذه المجتمعات البشرية داعيًا إلى ترك ضلالة من الضلالات أو بدعة من البدع، إلا وقد آذن نفسه بحرب لا تخمد نارها، ولا يخبو أوارها حتى تهلك، أو يهلك دونها.

ليس موقف الجندى فى معترك الحرب بأحرج من موقف المرشد فى معترك الدعوة، وليس سلب الأجسام أرواحها، بأقرب منالاً من سلب النفوس غرائزها وميولها.. ولا يضن الإنسان بشىء مما تملك يمينه ضنه بما تنطوى عليه جوانحه من المعتقدات، وأنه ليبذل دمه صيانة لعقيدته، ولا يبذل عقيدته صيانة لدمه، وما سالت الدماء ولا تمزقت الأشلاء فى موقف الحروب البشرية من عهد آدم إلى اليوم إلا حماية للمذاهب وذودًا عن العقائد.

لذلك كان الدعاة فى كل أمة أعداءها وخصومها، لأنهم يحاولون أن يرزءوها فى ذخائر نفوسها، ويفجعونها فى أعلاق قلوبها.

الدعاة أحوج الناس إلى عزائم ثابتة، وقلوب صابرة على احتمال المصائب والمحن التى يلاقونها فى سبيل الدعوة، حتى يبلغوا الغاية التى يريدونها أو يموتوا فى طريقها.

الدعاة الصادقون لا يبالون أن يسميهم الناس خونة أو جهلة أو زنادقة أو ملحدين، أو ضالين، أو كافرين، لأن ذلك ما لابد أن يكون.

الدعاة الصادقون يعلمون أن محمدًا -ﷺ- عاش بين أعدائه ساحرًا كذابًا، ومات سيد المرسلين، وأن الإمام الغزالى عاش بالكفر والإلحاد ومات حجة الإسلام، وأن ابن رشد عاش ذليلاً مهانًا حتى كان الناس يبصقون عليه إذا رأوه، ومات فيلسوف الشرق؛ فهم يحبون أن يكونوا أمثال هؤلاء العظماء أحياءً وأمواتًا.

سيقول كثير من الناس: وما يغنى الداعى دعاؤه فى أمة لا تحسن به ظنًا، ولا تسمع له قولاً، إنه يضر نفسه من حيث لا ينفع أمته، فيكون أجهل الناس وأحمق الناس.

هذا ما يوسوس به الشيطان للعاجزين الجاهلين، وهذا هو الداء الذى ألمَّ بنفوس كثير من العلماء فأمسك ألسنتهم عن قول الحق، وحبس نفوسهم عن الانطلاق فى سبيل الهداية والإرشاد، فأصبحوا لا عمل لهم إلا أن يكرروا للناس ما يعلمون، ويعيدوا عليهم ما يحفظون، فجمدت الأذهان، وتبلدت المدارك، وأصبحت العقول فى سجن مظلم لا تطلع عليه الشمس، ولا ينفذ إليه الهواء.

الجهل غشاء سميك العقل، والعلم نار متأججة تلامس ذلك الغشاء فتحرقه رويدًا رويدًا. فلا يزال العقل يتألم لحرارتها ما دام الغشاء بينه وبينها، حتى إذا أتت عليه انكشف له الغطاء فرأى النار نورًا، والألم لذة وسرورًا.

لا يستطيع الباطل أن يصرع الحق فى ميدان، لأن الحق وجود، والباطل عدم، إنما يصرعه جهل العلماء بقونه، ويأسهم من غلبته، وإغفالهم النداء به والدعاء إليه.

محال أن يهدم بناء الباطل فرد واحد فى عصر واحد، وإنما يهدمه أفراد متعددون؛ فى عصور متعددة، فيهزه الأول هزة تباعد ما بين أحجاره، ثم ينقض الثانى منه حجرًا، والثالث آخر، وهكذا حتى لا يبقى منه حجر على حجر.

الجهلاء مرضى والعلماء أطباء، ولا يجمل بالطبيب أن يحجم عن العمل الجراحى فرارًا من إزعاج المريض، أو خوفًا من صياحه وعويله، أو اتقاء لسبه وشتمه، فإنه سيكون غدًا أصدق أصدقائه وأحب الناس إليه.

وبعد: فقليل أن يكون الداعى فى الأمة الجاهلة حبيبًا إليها إلا إذا كان خائنًا فى دعوته، سالكًا سبيل الرياء والمداهنة فى دعوته، وقليل أن ينال حظه من إكرامها وإجلالها إلا بعد أن تتجرع مرارة الدواء ثم تشعر بحلاوة الشفاء.

الدعاة فى هذه الأمة كثيرون ملء الفضاء، وكظة[1] الأرض والسماء، ولكن لا يكاد يوجد بينهم داع واحد، لأنه لا يوجد بينهم شجاع واحد.

أصحاب الصحف وكتاب الرسائل والمؤلفون وخطباء المجامع وخطباء المنابر كلهم يدعون إلى الحق، وكلهم يعظون وينصحون، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولكن لا يوجد بينهم من يستطيع أن يحمل فى سبيل الدعوة ضرًا، أو يلاقى فى طريقها شرًا.

رأيت الدعاة فى هذه الأمة أربعة: رجلاً يعرف الحق ويكتمه عجزًا وجبنًا، فهو ساكت طول حياته لا ينطق بخير ولا شر، ورجلاً يعرف الحق وينطق به ولكنه يجهل طريق الحكمة والسياسة فى دعوته، فيهجم على النفوس بما يزعجها وينفرها، وكان خيرًا له لو صنع ما يصنعه الطبيب الماهر الذى يضع الدواء المر فى «برشامة» ليسهل تناوله وازدراده؛ ورجلاً لا يعرف حقًا ولا باطلاً، فهو يخبط فى دعوته خبط الناقة العشواء فى بيدائها، فيدعو إلى الخير والشر والحق والباطل، والضار والنافع، فى موقف واحد. فكأنه جواد امرئ القيس الذى يقول فيه:

---

(١) الكظة: البطنة.

مكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا

ورجلاً يعرف الحق ويدعو الأمة إلى الباطل دعوة المجد المجتهد، وهو أخبث الأربعة وأكثرهم غائلة؛ لأنه صاحب هوى يرى أنه لا يبلغ غايته منه إلا إذا أهلك الأمة فى سبيله، فهو عدوُّها فى ثياب صديقها؛ لأنه يوردها موارد التلف والهلاك باسم الهداية والإرشاد. فليت شعرى من أى واحد من هؤلاء الأربعة تستفيد الأمة رشدها وهداها؟!

ما أعظم شقاء هذه الأمة وأشد بلاءها؛ فقد أصبح دعاتها فى حاجة إلى دعاة، ينيرون لهم طريق الدعوة، ويعلمونهم كيف يكون الصبر والاحتمال فى سبيلها. فليت شعرى متى يتعلمون، ثم يرشدون؟

الحياة الذاتية

أكثر الناس يعيشون فى نفوس الناس أكثر مما يعيشون فى نفوس أنفسهم أى لا يتحركون ولا يسكنون، ولا يأخذون ولا يدعون إلا لأن الناس هكذا يريدون.

حياة الإنسان فى هذا العالم حياة ضمنية مدَّخلة فى حياة الآخرين، فلو فتش عنها لا يجد لها أثرًا إلا فى عيون الناظرين، وآذان السامعين، وأفواه المتكلمين.

يخيل إلىَّ أن الإنسان لو علم أن سيصبح فى يوم من أيام حياته وحيدًا فى هذا العالم لا يجد بجانبه أذنًا تسمع صوته، ولا عينًا تنظر شكله، ولا لسانًا يردد ذكره؛ لآثر الموت على الحياة عله يجد فى عالم غير هذا العالم - من آذان الملائكة أو عيون الجنة- مقاعد يقتعدها فيطيب له العيش فيها.

إذا كانت حياة كل إنسان متلاشية فى حياة الآخرين، فأى مانع يمنعنى من القول بأن تلك الحياة التى نحسبها متكثرة متعددة، إنما هى حياة واحدة يتفق جوهرها، وتتعدد صورها، كالبحر المائج نراه على البعد فنحسبه طرائق

قددًا، ونحسب كل موجة من أمواجه قسمًا من أقسامه، فإذا دنونا منه لا نرى غيره، ولا نجد لجزء من أجزائه حيزًا مستقلاً، ولا وصفًا ثابتًا.

لا يحيا فى هذا العالم حياة حقيقية، إلا ذلك الشاذ الغريب فى شؤونه وأطواره وآرائه وأعماله، الذى كثيرًا ما نسميه مجنونًا، فإن رضينا عنه بعض الرضا سميناه فيلسوفًا، ونريد بذلك أنه نصف مجنون، فهو الذى يتولى شأن الإنسان، وتغيير نظاماته وقوانينه؛ وينتقل به من حال إلى حال بما يغير من عاداته ويحول من أفكاره.

أية قيمة لحياة امرئ، لا عمل له فيها إلا معالجة نفسه على الرضا بما يرضى به الناس، فيأكل ما لا يشتهى، ويصدف نفسه عما تشتهى، ويسهر حيث لا يستعذب طعم السهر، وينام حيث لا يطيب له المنام، ويلبس من اللباس ما يحرج صدره، ويقصم ظهره، ويشرب من الشراب ما يحرق أمعاءه، ويأكل أحشاءه، ويضحك لما يبكى ويبكى لما يضحك، ويبتسم لعدوه، ويقطب فى وجه صديقه، وينفق فى دراسة ما يسمونه علم السلوك -أى علم المداهنة والملق- زمنًا لو أنفق عشر معشاره فى دراسة علم من العلوم النابغة لكان نابغته المبرِّز فيه حرصًا على رضاء الناس، وازدلافًا إلى قلوبهم.

ليست شهوة الخمر من الشهوات الطبيعية المركبة فى غرائز الناس فلو لم يذوقوها لما طلبوها ولا كلفوا بها، وما جناها عليهم إلا كلف تاركيها برضاء شاربيها، وما كان الترف خلقًا من الأخلاق الفطرية فى الإنسان ولكن كلف المتقشفون برضاء المترفين فترفوا، فحملوا فى ذلك السبيل من شقاء العيش وبلائه وأثقال الحياة وأعبائها، ما نغص عليهم عيشهم وأفسد عليهم حياتهم، وإنك لترى الرجلِ العاقل الذى يعرف ما يجب ويعلم ما يأخذ وما يدع، يبيع منزله فى نفقة عرس ولده أو ابنته، فلا تجد لفعله تأويلاً إلا خوفه من سخط الناس واتقاءه مذمتهم، وكثيرًا ما قتل الخوف من سخط الناس والكلف برضاهم ذكاء الأذكياء، وأطفأ عقول العقلاء، وكم رأينا من ذكى يظل طول حياته خاملاً متلفقًا لا يجرؤ على إظهار أثر من آثار فطنته وذكائه مخافة هزء الناس وسخريتهم، وعاقل لا يمنعه من الإقدام على إصلاح شأن أمته وتقويمها إلا سخط الساخطين ونقمة الناقمين.

وما أعجب برجل فى حياتى إعجابى بأديب من أدباء هذه الأمة يكتب الرسالة التى يريد كتابتها بينه وبين نفسه ثم يدلى بها إلى صحيفة من الصحف أية كانت ثم يمضى لسبيله كأنه ما صنع شيئًا، فلا يسير وراءها سير المتسمع المتجسس ليعلم ما رأى الناس فيها، وما حديثهم عنها، وهل سخطوا عليها، أو رضوا بها؟ ولا يمسى متنقلاً فى المجامع والأندية، مسائلاً عنها كل غاد ورائح، ليجد خيرًا فيضحك ويستبشر، أو شرًا فيبكى ويبتئس، بل كثيرًا ما رأيته يسمع حديث الناس عنه فى حالى رضاهم وسخطهم ساكنًا هادئًا، كأنما يتحدثون عن غيره، ويعنون شخصًا سواه، حتى كدت أتخيل ألا فرق عنده بين: أحسنت وأجدت، وأسأت وأخطأت، بل قلما رأيته على كثرة لصوقى به، وتفقدى مواقع سمعه وبصره يقرأ ما تكتبه الصحف عنه، وما تعلقه علو آرائه وأفكاره، من مدح أو ذم، حتى كدت أحمل تلك الحال الغريبة من أمره على البله والغفلة، أو العظمة والكبرياء، لولا أنى فاتحته مرة فى ذلك وسألته: لم لا تحفل برأى الكتاب فيك، ولم لا تقرأ ما يكتبون عنك؟ فأجاب: إننى ما أقدمت على الكتابة للناس فى إصلاح شؤونهم، وتقويم معوجهم، إلا بعد أن عرفت أنى أستطيع أن أنزل منهم منزلة المعلم من المتعلم، للناس خاصة وعامة، أما خاصتهم فلا شأن لى معهم، ولا علاقة لى بهم، ولا دخل لكلمة من كلماتى فى شأن من شؤونهم، فلا أفرح برضاهم، ولا أجزع لسخطهم، ولأنى لم أكتب لهم، ولم أتحدث إليهم، ولم أشهدهم أمرى، ولم أحضرهم عملى، بل أنا أتجنب جهد المستطيع أن أستمع منهم كل ما يتعلق بى من خير أو شر، لأنى راض عن طريقتى التى أكتب بها رسائلى، فلا أحب أن يكدرها علىَّ مكدر، وعن آرائى التى أودعها إياها، فلا أحب أن يشككنى فيها مشكك، ولم يهبنى الله من قوة الفراسة ما أستطيع أن أميز بين مخلصهم ومشوبهم، فأقبل على الأول لأستفيد علمه، وأعرض عن الثانى لأتقى غشه؛ فأنا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لابد له أن يفرغ منها فى ساعة محدودة، ثم علم أن على يمين الطريق الذى يسلكه روضة غناء تعتنق أغصانها وتشتجر أفنانها وتغرد أطيارها وتتألق أزهارها، وأن على يساره غابًا تزأر أسوده، وتعوى ذئابه، وتفح أفاعيه وصلاله، فمشى قدمًا لا يلتفت

يمنة مخافة أن يلهو عن غايته بشهوات سمعه وبصره؛ ولا يسرة مخافة أن يهيج بنظراته فضول تلك السباع المقعية والصلال الناشرة فتعترض دون طريقه، وأما عامتهم: فهم بين ذكى قد وهبه الله من سلامة الفطرة وصفاء القلب وسلامة الوجدان ما يعده لاستماع القول واتباع أحسنه؛ فأنا أحمد الله فى أمره؛ وضعيف قد حيل بينه وبين نفسه فهو لا يرضى إلا عما يعجبه، ولا يسمع إلا ما يطربه، فأكل أمره إلى الله واستلهمه صواب الرأى فيه حتى يجعل له من بعد عسر يسرًا؛ فأنا إنما أكتب للناس لا لأعجبهم، بل لأنفعهم، ولا لأسمع منهم أنت أحسنت، بل لأجد فى نفوسهم أثرًا مما كتبت، فلو أن هذه الملايين الاثنى عشر التى يحتضنها هذان الجبلان أجمعت أمرها على الإعجاب بى والرضا عنى، ثم رأيت من بينها رجلاً واحدًا ينتفع بما أقول، لكان الواحد المستفيد آثر فى نفسى من الملايين المعجبين، أتدرى لم عجز كتاب هذه الأمة عن إصلاحها؟ لأنهم يظنون أنهم لا يزالون حتى اليوم طلبة يتعلمون فى مدارسهم وأنهم جالسون بين يدى أساتذة اللغة يتلقون عنهم دروس البيان؛ فترى واحدًا منهم يكتب وهمه المالئ قلبه أن يعجب اللغويين، أو يروق المنشئين، أو يطرب الأدباء، أو يضحك الظرفاء، ولا يدخل باب أغراضه ومقاصده أن يتفقد المسلك الذى يجب أن يسلكه إلى قلوب الذين يقول إنه يعظهم أو ينصحهم أو يهذبهم أو يثقفهم، ليعلم كيف ينفذ إلى نفوسهم؛ وكيف يهجم على قلوبهم وكيف يملك ناصية عقولهم؛ فيعدل بها عن ضلالها إلى هداها، وعن فسادها إلى صلاحها، فمثله كمثل الفارس الكذاب الذى تراه حاملاً سيفه كل يوم إلى الجوهرى ليرصع له قبضته أو الحداد ليشحذ له حدَّه، أو الصقيل ليجلو له صفحته، ولا تراه يومًا فى ساحة الحرب ضاربًا به.

نعم قد يكون الولع برضاء الناس والخوف من سخطهم مذهبًا من مذاهب الخير وطريقًا من طرق الهداية للضال عنها لو أن الفضيلة هى الخلق المنتشر فيهم، والغالب على أمرهم، ولو كان الأمر كذلك لآثرت أن يعرض المرء نفسه على الفضيلة ذاتها من حيث هى، لا من حيث تشخيصها فى أذهان الناس وقولهم، فإذا استوثق منها وعلم أنها قد خالطت قلبه وأخذت

مستقرها من نفسه جعلها ميزانًا يزن به أقواله وأفعاله كما يزن به أقوال الناس وأفعالهم، ثم لا يبالى بعد ذلك أرضوا عنه ثم سخطوا عليه، أحبوه أم أبغضوه، فإنما يبكى على الحب النساء.

العبرات

كنت أغبط نفسي على التجلد والصبر، وأحسبنى قادرًا على الاستمساك فى كل رزء مهما جلَّ شأنه، وعظم وقته، فلما مات «مصطفى كامل» علمت أن من الرزايا ما لا يطاق احتماله، ولا يستطاع تجرعه.

كل يوم نرى الموت، ولا نزال نعد الموت غريبًا، هيهات! لا غرابة فى الموت، ولكن الغريب موت الرجل الغريب.

كل يوم تمر بنا قوافل الموتى فلا نأبه لها، وأكبر نصيبها منا الحوقلة والاسترجاع، فلما مرت قافلة «مصطفى كامل» دهشنا وجزعنا، لأنه كان غريبًا فى حياته، فأحرى أن يكون غريبًا فى مماته.

مات «مصطفى كامل» فعرفنا الموت، وما كنا نعرفه قبل ذلك، لأننا ما كنا نرى إلا أمواتًا ينقلون من ظهر الأرض إلى بطنها. أما «مصطفى كامل» فكان حيًا حياة حقيقية، فكان موته كذلك.

لا يحسب الكاتبون أنهم صنعوا شيئًا إذا بذلوا لذلك الرجل العظيم قطرة من المداد، ولا الباكون أنهم أبلوا بلاء حسنًا إذا بذلوا له قطرة من الدمع، فإنه كان يبذل لهم ماء حياته قطرة فقطرة حتى أفناه، ومضى لسبيله وشتان ما بين صنيعهم وصنيعه.

أين قطرات الدموع التى يريح بها الباكون أنفسهم، أو قطرات المداد التى يرصع بها الكتاب بياض صحائفهم، من قطرات الحياة التى أراقها «مصطفى كامل» فى سبيل وطنه وأمته؟

كان «مصطفى كامل» سراجًا كبير الشعلة، وكل سراج تكبر شعلته يفرغ زيته وشيكًا، وتحترق ذبالته، فينطفئ نوره.

كان «مصطفى كامل» نشيطًا سريع الحركة فقطع جسر الحياة فى لحظة واحدة.

كان الوطنيون قبل اليوم يتكلمون، فلما صاح «مصطفى كامل» وأسمع فى صياحه عرفوا أن آذان السياسة لا يخترقها إلا الصوت الجهورى، ولولاه ما كانوا يعرفون.

كان الوطنيون يحتقرون أنفسهم ويسيئون الظن به، فلا يصدقون أن تربة مصر تنبت أمثال «فولتير، وهوجو، وغاريبالدى، وواشنطون» فلما نبغ بينهم «مصطفى كامل» عرفوا أن تربة الشرق لا تختلف كثيرًا عن تربة الغرب لو تعهدها الزارعون.

كان لمصطفى كامل أنامل أشبه بريشة الموسيقار يضرب بها على أوتار القلوب، وكأنما كان بينه وبينها سلك كهربائى، فهى تتحرك بحركته وتسكن بسكونه.

ما كان «مصطفى كامل» أذكى الناس، ولا أعلم الناس، ولا أعقل الناس ولكنه كان أشجع الناس.

كان يفكر فيقتنع فيصمم فيمضى فلا ينثنى حتى الموت، كان يخطئ أحيانًا فى اتخاذ الوسائل إلى آماله، ولكنه كان إذا اتخذها لا يتمهل ريثما يتبين أى طريق يأخذ، ولا أى مسلك يسلك، مخافة أن تفتر همته بين الأخذ والرد، فيكون خطؤه فى تردده أكثر من خطئه فى جهاده.

كان له منافسون يرمونه بالخفة والطيش ويقولون له: إنك مخطئ أو مضر، أو غير محسن، أو غير عظيم، فما كان يصدق من ذلك شيئًا كأنما كان ينظر بعين الغيب إلى هذا اليوم الذى اتفق فيه أصدقاؤه وأعداؤه، وخصومه وأولياؤه، على أنه رجل عظيم.

ما كان «مصطفى كامل» من الأغنياء، ولا من بيت المُلْك، وما كان آمرًا

ولا ناهيًا، ولا رافعًا ولا خافضًا. ولكنه لقى من إجلال الناس لموته وإعظامهم لمصيبته.. ما لم يلق واحد من هؤلاء، ولا فضل لهم فى ذلك عليه، فهو الذى علمهم كيف يحترمون العقول، ويجلون المناقب والمزايا.

فيا أيها القارئ الكريم: إن كان لك ولد تحب أن تجعله رجلاً فاجعل بين يديه حياة «مصطفى كامل» ليتعلم منها الشجاعة والإقدام.

ويا أيها المصرى: كن أحرص الناس على وطنيتك.. ولا تبغ بها بدلاً من عرض الدنيا وزخرفها.. فإنك إن فعلت كنت «مصطفى كامل».

ويا أيها الإنسان: أقدم على عظائم الأمور، ولا تلتفت يمنة ولا يسرة واخترق بسيف شجاعتك صفوف المعترضين والناقمين والهازئين والساخرين فإنهم سيعترفون بفضلك، ويسمونك عظيمًا كما سموا «مصطفى كامل».

ويا أيها الراحل المودع: إن بين جنبى لوعة تعتلج لفراقك لا أعرف سبيلاً إلى التعبير عنها إلا القلم.

وهأنذا أعالج القلم علاجًا شديدًا على أن يسعفنى بحاجتى، وأقلبه ظهرًا لبطن، وأكثر من استمداده، وأضغط به على القرطاس ضغطًا شديدًا، فلا أراه يغنى عنى شيئًا.

خطر لى أن الحزن سويداء القلب، وأنه بعيد الغور ولا تبلغه هذه الأداة القصيرة التى فى يدى، فاستبدلت بها أداة أطول منها، وفكان حكمها حكم سابقتها.

إذن كيف أعبر عن وجدى أيها الفقيد الكريم، وقد خرس القلم وعى اللسان؟

الآن عرفت السبيل ووصلت إلى ما أريد.

أنت الآن فى عالم الأرواح.. وقد انكشف لك كل شىء من أسرار النفوس ودخائل القلوب، ولابد أن يكون قد انكشف لك ما يكن قلبى من الوجد عليك.. والأسف على فراقك.. فما حاجتى بعد ذلك إلى ترجمة القلم أو تعبير اللسان.

أيها الراحل المودع: طبت حيًا وميتًا، خدمت أمتك فى حياتك وبعد مماتك، ولولا حياتك ما نمت العاطفة الوطنية فى نفوس المصريين، ولولا مماتك ما عرف العالم أجمع أن الأمة المصرية على اختلاف مشاربها ومذاهبها تجمعها كلمة واحدة هى حب الوطن وحب رجاله العاملين.

دمعة على الإسلام

كتب إلىَّ أحد علماء الهند كتابًا يقول فيه: إنه اطلع على مؤلف ظهر حديثًا بلغة «التاميل»، وهى لغة الهنود الساكنين بناقور وملحقاتها بجنوب مدراس.. موضوعه: تاريخ حياة السيد عبد القادر الجيلانى، وذكر مناقبه وكراماته، فرأى فيه من الصفات والألقاب التى وصف بها الكاتب السيد عبد القادر ولقبه بها صفاتًا وألقابًا هى بمقام الألوهية أليق منها بمقام النبوةً.. فضلاً عن مقام الولاية كقوله «سيد السموات والأرض» و«النفاع الضرار» و«المتصرف فى الأكوان» و«المطلع على أسرار الخليقة» و«محيى الموتى» و«مبرئ الأعمى والأبرص والأكمه» و«أمره من أمر الله» و«ماحى الذنوب» و«دافع البلاء» و«الرافع الواضع» و«صاحب الشريعة» و«صاحب الوجود التام» إلى كثير من أمثال هذه النعوت والألقاب!

ويقول الكاتب: إنه رأى فى ذلك الكتاب فصلاً يشرح فيه المؤلف الكيفية التى يجب أن يتكيف بها الزائر لقبر السيد عبد القادر الجيلانى يقول فيه: «أول ما يجب على الزائر: يتوضأ وضوءًا سابغًا، ثم يصلى ركعتين بخشوع واستحضار، ثم يتوجه إلى تلك الكعبة المشرفة.. وبعد السلام على صاحب الضريح المعظم يقول:

«يا صاحب الثقلين.. أغثنى وأمدنى بقضاء حاجتى.. وتفريج كربتى.. أغثنى يا محى الدين عبد القادر.. أغثنى يا ولى عبد القادر.. أغثنى يا سلطان عبد القادر.. أغثنى يا بادشاه عبد القادر.. أغثنى يا خوجة عبد القادر».

«يا حضرة الغوث الصمدانى، يا سيدى عبد القادر الجيلانى، عبدك ومريدك مظلوم عاجز محتاج إليك فى جميع الأمور فى الدين والدنيا والآخرة».

ويقول الكاتب أيضًا: إن فى بلدة (ناقور) فى الهند قبرًا يسمى «شاه الحميد»، وهو أحد أولاد السيد عبد القادر -كما يزعمون- وأن الهنود يسجدون بين يدى ذلك القبر سجودهم بين يدى الله.. وأن فى كل بلدة من بلدان الهنود وقراها مزارًا يمثل مزار السيد عبد القادر.. فيكون القبلة التى يتوجه إليها المسلمون فى تلك البلاد والملجأ الذى يلجأون فى حاجاتهم وشدائدهم إليه.. وينفقون من الأموال على خدمته وسدنته.. وفى موالده وحضراته ما لو أنفق على فقراء الأرض جميعًا لصاروا أغنياء.

هذا ما كتبه إلىَّ ذلك الكاتب.. ويعلم الله أنى ما أتممت قراءة رسالته حتى دارت بى الأرض الفضاء، وأظلمت الدنيا فى عينى.. فما أبصر مما حولى شيئًا.. حزنًا وأسفًا على ما آلت إليه حالة الإسلام بين أقوام أنكروه بعدما عرفوه، ووضعوه بعدما رفعوه.. وذهبوا به مذاهب لا يعرفها.. ولا شأن له بها.

أى عين يجمل بها أن تستبقى فى محاجرها قطرة واحدة من الدمع فلا تريقها أمام هذا المنظر المؤثر المحزن، منظر أولئك المسلمين، وهم ركع سجد على أعتاب قبر ربما كان بينهم من هو خير من ساكنه فى حياته. فأحرى أن يكون كذلك بعد مماته!

أى قلب يستطيع أن يستقر بين جنبى صاحبه ساعة واحدة فلا يطير جزعًا حينما يرى المسلمين أصحاب دين التوحيد أكثر من المشركين إشراكًا بالله؛ وأوسعهم دائرة فى تعدد الآلهة وكثرة المعبودات!

لم ينقم المسلمون التثليث من المسيحيين؟.. لمَ يحملون لهم فى صدورهم تلك الموجدة وذلك الضغن، وعلام يحاربونهم، وفيم يقاتلونهم وهم لم يبلغوا من الشرك بالله مبلغهم، ولم يغرقوا فيه إغراقهم!؟

يدين المسيحيون بآلهة ثلاثة، ولكنهم يشعرون بغرابة هذا التعدد وبعده عن العقل. فيتأولون فيه ويقولون إن الثلاثة فى حكم الواحد، أما المسلمون فيدينون بآلاف من الآلهة أكثرها جذوع أشجار، وجثث أموات، وقطع أحجار، من حيث لا يشعرون!.

كثيراً ما يضمر الإنسان فى نفسه أمراً وهو لا يشعر به، وكثيراً ما تشتمل نفسه على عقيدة خفية لا يحس باشتمال نفسه عليها، ولا أرى مثلاً لذلك أقرب من المسلمين الذين يلتجئون فى حاجاتهم ومطالبهم إلى سكان القبور ويتضرعون إليهم تضرعهم للإله المعبود فإذا عتب عليهم فى ذلك عاتب، قالوا: إنا لا نعبدهم، وإنما نتوسل بهم إلى الله، كأنهم يشعرون أن العبادة ما هم فيه، وأن أكبر مظهر لألوهية الإله المعبود أن يقف عباده بين يديه ضارعين خاشعين، يلتمسون إمداده ومعونته، فهم فى الحقيقة عابدون لأولئك الأموات من حيث لا يشعرون.

جاء الإسلام بعقيدة التوحيد ليرفع نفوس المسلمين، ويغرس فى قلوبهم الشرف والعزة والأنفة والحمية، وليعتق رقابهم من رق العبودية، فلا يذل صغيرهم لكبيرهم ولا يهاب ضعيفهم قويهم، ولا يكون لذى سلطان بينهم سلطان إلا بالحق والعدل. وقد ترك الإسلام بفضل عقيدة التوحيد ذلك الأثر الصالح فى نفوس المسلمين فى العصور الأولى، فكانوا ذوى أنفة وعزة، وإباء وغيرة، يضربون على يد الظالم إذا ظلم، ويقولون للسلطان إذا جاوز حده غيرها سلطانه: قف مكانك، ولا تغل فى تقدير مقدار نفسك، فإنما أنت عبد مخلوق لا رب معبود، واعلم أنه لا إله إلا الله.

هذه صورة من صور نفوس المسلمين فى عصر التوحيد، أما اليوم وقد داخل عقيدتهم ما داخلها من الشرك الباطن تارة والظاهر أخرى، فقد ذلت رقابهم، وخفقت رؤوسهم، وضرعت نفوسهم، وفترت حميتهم، فرضوا بخطة الخسف، واستناموا إلى المنزلة الدنيا، فوجد أعداؤهم السبيل إليهم، فغلبوهم على أمرهم، وملكوا عليهم نفوسهم وأموالهم ومواطنهم وديارهم فأصبحوا من الخاسرين.

والله لن يسترجع المسلمون سالف مجدهم، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسهم من سعادة الحياة وهناءتها إلا إذا استرجعوا قبل ذلك ما أضاعوه من عقيدة التوحيد، وأن طلوع الشمس من مغربها، وانصباب ماء النهر فى منبعه، أقرب من رجوع الإسلام إلى سالف مجده، ما دام المسلمون يقفون بين يدى الجيلانى كما يقفون بين يدى الله، ويقولون للأول كما يقولون للثانى: «أنت المتصرف فى الكائنات، وأنت سيد الأرضين والسموات».

إن الله أغير على نفسه من أن يسعد أقوامًا يزدرونه ويحتقرونه ويتخذونه وراءهم ظهريًا، فإذا نزلت بهم جائحة، أو ألمت بهم ملمة. ذكروا الحجر قبل أن يذكروه، ونادوا الجذع قبل أن ينادوه.

بمن أستغيث؟ وبمن أستنجد؟ ومن الذى أدعوه لهذه الملمة الفادحة! أأدعو علماء مصر وهم الذين يتهافتون على «يوم الكنسة»[1] تهافت الذباب على الشراب؟ أم علماء الآستانة وهم الذين قتلوا جمال الدين الأفغانى فيلسوف الإسلام ليحيوا أبا الهدى الصيادى شيخ الطريقة الرفاعية! أم علماء العجم وهم الذين يحجون إلى قبر الإمام كما يحجون إلى البيت الحرم، أم علماء الهند وبينهم أمثال مؤلف هذا الكتاب.

يا قادة الأمة ورؤساءها، عذرنا العامة فى إشراكها وفساد عقائدها، وقلنا أن العامى أقصر نظرًا وأضعف بصيرة من أن يتصور الألوهية إلا إذا رآها مائلة فى النصب والتماثيل والأضرحة والقبور، فما عذركم أنتم وأنتم تتلون كتاب الله، وتقرءون صفاته ونعوته، وتفهمون معنى قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾[2] وقوله مخاطبًا نبيه: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا﴾[3] وقوله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[4].

إنكم تقولون فى صباحكم ومسائكم وغدوكم ورواحكم: «كل خير فى اتباع من سلف، وكل شر فى ابتداع من خلف» فهل تعلمون أن السلف

(١) يوم يذهب فيه علماء الدين إلى ضريح الإمام الشافعى للتبرك بكنس ترابه.
(٢) سورة النمل: ٦٥.
(٣) سورة الأعراف: ١٨٨.
(٤) سورة الأنفال: ١٧.

الصالح كانوا يجصصون قبرًا، أو يتوسلون بضريح؟ وهل تعلمون أن واحدًا منهم وقف عند قبر النبى -ﷺ-، أو قبر واحد من أصحابه وآل بيته، يسأله قضاء حاجة، أو تفريج هم؟ وهل تعلمون أن الرفاعى والدسوقى والجيلانى والبدوى أكرم عند الله وأعظم وسيلة إليه من الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين؟ وهل تعلمون أن النبى -ﷺ- حينما نهى عن إقامة الصور والتماثيل نهى عنها عبثًا ولعبًا؟ أم مخافة أن تعيد للمسلمين جاهليتهم الأولى؟ وأى فرق بين الصور والتماثيل وبين الأضرحة والقبور، ما دام كل منها يجر إلى الشرك، ويفسد عقيدة التوحيد؟

والله ما جهلتم شيئًا من هذا، ولكنكم آثرتم الحياة الدنيا على الآخرة فعاقبكم الله على ذلك بسلب نعمتكم، وانتقاض أمركم، وسلط عليكم أعداءكم يسلبون أوطانكم، ويستعبدون رقابكم، ويخربون دياركم، والله شديد العقاب.

السياسة

حضرة السيد الفاضل:

ما لك لا تكثر من الكتابة فى الشئون السياسية، إكثارك منها فى الشئون الأخلاقية والاجتماعية؟ وكيف يضيق بالسياسة قلمك، وقد وسع ما هو أدق مذهبًا منها، فاكتب لنا فى السياسة، فأمتك تحب أن تراك سياسيًا، والسلام.

«فلان»

أيها الكاتب:

يعلم الله أنى أبغض السياسة وأهلها بغضى للكذب والغش، والخيانة والغدر.

أنا لا أحب أن أكون سياسيًا، لأنى لا أحب أن أكون جلادًا، لا فرق عندى بين السياسيين والجلادين، إلا أن هؤلاء يقتلون الأفراد، وأولئك يقتلون الأمم والشعوب.

هل السياسى إلا رجل قد عرفت أمته أنه لا يوجد بين أفرادها من هو أقسى منه قلبًا، ولا أعظم كيدًا، ولا أكثر دهاء ومكرًا، فنصبته للقضاء على الأمم الضعيفة، وسلبها ما وهبها الله من الحسنات، وأجزل لها من الخيرات؟

أليس أكبر السياسيين مقامًا، وأعظمهم فخرًا، وأسيرهم ذكرًا، ذلك الذى نقرأ صفحات تاريخه فنرى حروفها أشلاء القتلى، ونقطها قطرات الدماء؟

أيستطيع الرجل أن يكون سياسيًا إلا إذا كان كاذبًا فى أقواله وأفعاله، يبطن ما لا يظهر ويظهر ما لا يبطن، ويبسم فى موطن البكاء، ويبكى فى مواطن الابتسام؟

أيستطيع الرجل أن يكون سياسيًا.. إلا إذا عرف أن بين جنبيه قلبًا متحجرًا لا يقلقه بؤس البائسين ولا تزعجه نكبات المنكوبين؟

كثيرًا ما يسرق السارق، فإذا قضى مأربه من عمله.. رفع يديه إلى السماء متضرعًا إلى الله تعالى أن يرزقه المال حلالاً حتى لا يتناوله حرامًا، وكثيرًا ما يقتل القاتل، فإذا فرغ من أمره، جلس بجانب قتيله يبكى عليه بكاء الثاكل وحيدها، ويتمنى بجدع الأنف لو رد إليه حياته، وافتداه بنفسه. أما السياسى فلا يرى يومًا فى حياته أسعد من اليوم الذى يعلم فيه أن قد تم له تدبيره فى هلاك شعب. وقتل أمة، وآية ذلك أنه فى يوم انتصاره -كما يسميه هو- أو فى يوم جريمته - كما اسميه أنا وتسميه العدالة الإنسانية - يسمع هتاف الهاتفين باسمه، واسم الجريمة التى ارتكبها مطمئن القلب، مثلج الصدر، حتى ليخيل إليه أن القضاء بأرضه وسمائه أضيق من أن يسع قلبه الطائر المحلق فرحًا وسرورًا.

يقولون: إن السياسة ليست علمًا من العلوم التى يتلقاها الإنسان فى

مدرســة أو يدرسها فى كتــاب، وإنما هى مجمــوعة أفكار قانونها التـجارب، وقاعدتها العمل. . أتدرى لماذا؟

لأن العلمــاء أشــرف من أن يدونوا المكايد والحـيل فى كتــاب. . ولأن المدارس أجل من أن تجعل بجانب دروس الأخلاق والآداب، دروس الأكاذيب والأباطيل، وإلا فكل طائفة من المعلومات المتشابهة تدخل بطبيعتها تحت نظام عام يؤلفها، ويجمع شتاتها، ويسمى علمًا.

هؤلاء هم الســياسيــون، وهذه هى أخلاقــهم وغرائزهم، فــهل تظن يا سيدى أن رجلاً نصب نفسه لخدمة الحقيقة، ومناصرتها على الباطل، واستنقاذ الفـضيلة من مـخالب الـرذيلة، ووقف قلمه على تــهذيب النفــوس وترقيــة الأخــلاق. . وملأ فى رســائله فضــاء الأرض والســماء بكاء على الضــعفــاء والمساكين والمظلومــين والمضطهدين، يستطيع أن يكون ســياسيًــا، أو محاســبًا للسياسيين؟

خــداع العنــاويــن

لقد جهل الذين قالوا: إن الكتاب يعرف بعنوانه. . فإنى لم أر بين كتب التاريخ أكذب من كتــاب «بدائع الزهور» ولا أعذب من عنوانه، ولا بين كتب الأدب أسخف من كـتاب «جواهر الأدب» ولا أر مــن اسمه، كـما لم أر بين الشعــراء أعذب اسمًا، وأحط شــعرًا من «ابن مليك» و«ابن النبيــه» و«الشاب الظريف».

لقــد كثــر الاختــلاف بين العناوين وبين الكتب حــتى كدنا نقــول: أن العناوين أدل على نقــائضها منهــا على مفهــوماتها. . وألصق بأضــدادها منها بمنطوقاتها، وأن العنوان الكبير حيث الكتــاب الصغير، والكتاب الجليل حيث العنوان الضئيل.

الأتقياء:

لولا خداع العناوين ما سمعنا صالحًا تقيًّا كل من حرك سبحته.. وأطال لحيته، ووسع جبته، وكور عمامته، ولقد نعلم أن وراء هذا العنوان كتابًا أسود الصفحات كثير السقطات، وأن تحت هذا الستار الحريرى الرقيق نفسًا سوداء مظلمة، لا ينفذ إليها شعاع من أشعة الرحمة، ولا تهب عليها نسمة من نسمات الإحسان.

لن يؤمن المؤمن حتى يبذل فى سبيل الله، أو فى سبيل الجماعة من ذات نفسه، أو ذات يده، ما يشق على مثله الجود بمثله، أما الجود بالشفاه للهمهمة، والأنامل للمسبحة، فعمل لا يتكلف صاحبه له أكثر مما يتكلف لتقليب ناظريه، وتحريك هدبيه، وهل خلقت الشفاه إلا للتحريك، والأنامل إلا للتقليب.

إن للإيمان مواقف يمتحن الله فيها عباده ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فإن بذل الضنين بماله فى مواقف الرحمة والشفقة، والشحيح بنفسه نفسه فى سبيل الذود عن حوضه.. والذب عن عشيرته وقومه.. وضعيف العزيمة ما يملك من قوة وأيد فى مغالبة شهوات نفسه ومقاومة نزواتها.. فذلك المؤمن الذى لا يشوب إيمانه رياء ولا دهان، ولا يخالط يقينه خداع ولا كذب أو لا فأهون بهمهمته ومسواكه ومسبحته، وهو بعنوان المنافق الكاذب أجدر منه بعنوان التقى الصالح ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ**﴾[1].

الأمجاد:

يقولون أن الولد سر أبيه، ويريدون بذلك أنه المرآة التى ترتسم فيها صورته، والبذرة التى تكمن فيها حقيقته، وعلى هذه القاعدة بنى البانون قاعدة المجد، فأعظموا شأن الرجل الذى يمسك بطرف سلسلة فى النسب يتصل طرفها الأعلى بعظيم من عظماء النفوس، أو شريف من شرفاء الأخلاق.

---

(١) سورة العنكبوت: ٢.

ثم ما زال الناس يعبثون بعنوان الشرف، ويتوسعون فى معناه، حتى نظموا فى سلكه الجبابرة الذين يسمونهم أمراء، والظلمة الذين يسمونهم ملوكًا، والسفاحين الذين يسمونهم قوادًا، واللصوص الذين يسمونهم أغنياء، فساقهم الخطأ فى فهم الشرف إلى الخطأ فى فهم المجد فسموا ماجدًا كل من ولد فى فراش ملك وإن كان الحاكم بأمر الله، أو أمير وإن كان الحجاج، أو وزير وإن كان ابن الزيات، أو قائد وإن كان تيمورلنك، أو غنى وإن كان قارون.

لا مجد إلا مجد العلم ولا شرف إلا شرف التقوى، ولا عظمة إلا عظمة الآخذين بيد الإنسانية المعذبة، رحمة بها وحنانًا عليها.

أولئك هم الأمجاد، وأولئك الذى يفخر الفاخر بالاتصال بهم، والانتماء إليهم، وأولئك هم المفلحون.

الأغنياء:

لم أر بين جماعة المتسولين الذين يضربون فى الأرض وراء لقمة يتبلغون بها أو خرقة يتقون بها لفحة الرمضاء، وهبة النكباء، ولا بين البؤساء الذين يحرقون فحمة الليل بكاء ونحيبًا على صغار كفراخ القطا يتلوون فى مضاجعهم من الجوع تلوى الأفاعى المضطربة فوق الرمال الملتهبة وتحت الشمس المحرقة، أسوأ حالاً ولا أنكد عيشًا، ولا أعظم شقاء من هؤلاء الفقراء الذين يسميهم الناس أغنياء.

يأكل الموسر الباخل كما يأكل الفقير، ويجلس كما يجلس، وينام كما ينام، ويشتهى كما يتشهى حتى لتكاد تثب أمعاؤه من جوفه وتسيل أحشاؤه من بين أشداقه. شوقًا إلى ما حرم على نفسه من أطايب العيش ولذائذه؛ ويستن[1] استنان الجواد الضامر فى ميدان السبق وراء الدرهم البعيد مناله، حتى تنبهر أنفاسه، وتتخاذل أوصاله، حتى لو تخيل أن نجوم السماء دنانير منثورة، لطار إليها بغير جناح، فسقط هاويًا؛ أو أن فى بطن الأرض كنزًا

(١) استن الجواد: عدا عدواً شديداً.

مذخوراً، لتمنى أن لو انفجر بركانها تحت قدميه فابتلعته فأصبح من الهالكين.

الغنى هو الغنى بما فى يده عما فى أيدى الناس، والفقير هو الذى لا يقنعه فى هذه الحياة مقنع؛ ولا تقف به نفسه عند مطمع.

فانظر تحت أى عنوان من هذين العنوانين تضع البخلاء الموسرين؟!

المجرمون:

حضرت مجلسًا من مجالس الأحكام، حكم فيه قاض مرتش على متهم سرق رغيفًا، فوضعت يدى على فمى مخافة أن يخرج أمر نفسى من يدى فأهتف صارخًا لما ألم بقلبى من الرعب والفزع، صرخة تدوى بها جوانب القاعة دوى الموج الثائر، فى البحر الزاخر قائلاً فيها: مهلاً رويدًا أيها الحاكم الظالم، فأنت إلى قاض عادل تقف بين يديه، أحوج منك إلى كرسى فخم تجلس عليه، ولو عدل القانون بينك وبين هذا الماثل بين يديك لبت وأعلاكما الأسفل.

إنك ترتزق فى كل شهر ثلاثين ديناراً، فلم ترتش إلا لأنك شره طماع، ولم يسرق ذلك السارق الرغيف إلا لأنه جائع مرتاع، ولو ملك ثلاثين درهمًا فقط ما فعل فعلته التى فعل، فأنت مجرم إلا أنك فى وشاح شريف، وهو شريف إلا أنه فى شملة مجرم.

فيا لله للحقيقة التى عبثت بها القوانين، ولعبت بعقول الناس فيها العناوين.

ربَّ نفس بين جدران السجون أطهر قلبًا، وأنقى ردنًا، وأبيض عرضًا، من مثلها بين جدران القصور، ورب طريدة من طرائد المجتمع الإنسانى ساقها القدر الذى لا مفر منه إلى وقفة بين أعواد المشنقة، كان أجدر بها ذلك المرابى الذى ينصب حبالة ماله لخراب البيوت العامرة، وقتل النفوس الطاهرة، أو ذلك القائد الذى يسفك فى موقف واحد من مواقفه دم مائة ألف أو يزيدون، فى غير سبيل سوى سبيل المجد المصنوع والفخر الموضوع، أو ذلك السياسى

الذى يدبر المكيدة للقضاء على أمة ضعيفة آمنة فى سربها، سعيدة فى عيشها؛ فيستعبد أحرارها، ويستذل أعزاءها، ثم يسلبها أثمن ما تملك يمينها من حريتها واستقلالها، وسعادتها وهناءتها.

المتمدينون:

ليس بين المصرى وبين أن يأخذ من إخوانه المصريين لقب الشاب العصرى أو الإنسان الراقى إلا أن يصقل جبهته، ويصفف طرته، ويفتح فمه للابتسام المتصنع ويقوِّس يده للسلام المتعمل، ويكثر فى حديثه من ذكر المدنية الغربية وشؤونها، وسرد أسماء نسائها ورجالها. وطرفها ونوادرها، ويستحسن ما تستحسنه -وإن كان البراز والانتحار- ويستطرف ما تستطرفه -وإن كان الزندقة والإلحاد- ثم يزعم أنه أرقى الناس أدبًا، وأحسنهم أخلاقًا، وأدقهم نظرًا فى إدراك سقطات الناس وعثراتهم، وتحليل طبائعهم وغرائزهم. ثم لا يحول تمدينه هذا بينه وبين أن يكون فاسقًا ينتهك الحرمات أو مدمنًا يترامى على أعتاب الحانات، أو أحمق لا يصفح عن ذنوب، ولا يغضى عن هفوة. وسفيهًا يشتم حتى أميره وسلطانه، ووالده وأستاذه، أو وقاح الوجه لا يستحى لمكرمة، ولا يستخذى لمروءة، وشحيحًا لا يشرك صاحبه فى مطعم ولا فى مشرب، ولا يفتح بابه لضيف زائر أو طارق حائر، زاعمًا أن التمدين شىء وذلك شىء آخر. إن كان حقًا ما يقولون من أن التمدين يصقل الطباع الخشنة، وينير النفوس المظلمة، ويهذب الأخلاق الجافية ويوسع الصدور الحرجة، فكثير ممن ندعوهم متمدينين متوحشون، وكثير ممن نسميهم همجيين مهذبون.

لو كان بى أن أكتب لمحو الفساد من المجتمع الإنسانى والقضاء على شروره وآثامه لما حركت يدًا، ولا جردت قلمًا، لأنى أعلم أن طلب المحال عثرة من عثرات النفوس، وضلة من ضلالات العقول، ولكننى أطلب مطلبًا واحدًا -لا أرى فى عقول الناس وأفهامهم ما يحول بينهم وبين تصوره وإدراكه- هو أن يهذبوا قليلاً من هذه المصطلحات التى أنسوا بها والعناوين التى جمدوا عليها، فلا يسمون المنافق تقيًا، ولا المتمجد ماجدًا، ولا البخيل

غنيًا، ولا الفقير مجرمًا، ولا المتوحش متمدينًا، حتى لا ينزع محسن عن إحسانه، ولا يستمر مسىء فى إساءته.

الإغــــراق

بين الإغراق فى المدح والإغراق فى الذم تموت الحقيقة موتًا لا حياة لها من بعده إلى يوم يبعثون.

يسمع السامع أن زيدًا ملك كريم، ثم يسمع أنه شيطان رجيم، فيخرج منه صفر اليدين، لا يعلم أين مكانه من هذين الطرفين.

يقولون أن المشعوذين إذا أرادوا أن يسحروا أعين الناس علقوا فى سقف من السقوف قطعة من المغناطيس ووضعوا مقابلها فى الأرض قطعة أخرى ثم يتركون فى الفضاء قطعة من الحديد لا تزال تضطرب بين هذين الجاذبين.

هكذا تضطرب الحقيقة فى أيدى المغرقين اضطراب الحديد فى أيدى المشعوذين.

الحقيقة بين الكاذب والكاذب، كالجبل بين الجاذب والجاذب، كلاهما ينتهى به الأمر إلى الانقطاع.

لو علم الذى ينصب نفسه للموازنة بين الأشخاص أنه جالس على كرسى القضاء، وأن الناس سيسألونه عما قال، كما يسألون القاضى عما حكم، ما طاش سهمه فى حكمه، ولا ركب متن الغلو فى تقديره.

كما أنه يجب على القاضى أن يقدر لكل جريمة ما يناسبها من العقوبة، كذلك يجب على الكاتب أن يضع كل شخص فى المنزلة التى وضعته فطرته فيها، وأن لا يعلو به فوق قدره، ولا ينزل به دون منزلته.

ليس بين كتاب هذا العصر من لم يقرأ فى التاريخ القديم متناقضات الحكم على الأشخاص، وليس بينهم من لم يتمن أن يكون فى موضع أولئك

المؤرخين المتطرفين، حتى لا يغلوا غلوهم، ولا يتطرف تطرفهم فى أحكامهم.

أيها الكتاب المحزونون: لا يحزنكم ما كان، فقضى ذلك الزمان بخيره وشره، ولا سبيل إلى رجوعه، ولئن فاتكم أن تكونوا مؤرخى العصر الماضى، فلن يفوتكم أن تكونوا مؤرخى العصر الحاضر، وكما أن للماضى مستقبلاً وهو حاضركم هذا، فسيكون لهذا الحاضر مستقبل آت يحاسبكم فيه رجاله على إغراقكم فى أحكامكم، كما تحاسبون اليوم رجال الماضى على غلوهم فى أحكامهم، وتطرفهم فى آرائهم.

إن من المتناقض بين أقوالكم وأعمالكم أن تنقموا من المؤرخين المتقدمين ما أنتم فاعلون اليوم، وتأخذوا عليهم ما أنتم به آخذون.

كل كاتب عندكم أكتب الكتاب وكل شاعر أشعر الشعراء، وكل مؤلف أعلم العلماء، وكل خطيب رئيس الأمة؛ وكل فقيه إمام الدين، فأين الفاضل والمفضول؟ وأين الرئيس والمرؤوس، وكيف يكون زيد اليوم أفضل من عمرو، ويكون عمرو غدًا أفضل منه؛ وأين ملكة التمييز التى وهبكم الله إياها لتميزوا بها بين درجات الناس ومنازلهم؟ وهل بلغ التفاوت بينكم فى عقولكم وأذواقكم أن يكون الرجل الواحد فى نظر بعضكم خير الناس وفى نظر البعض الآخر شر الناس؟!

إنى حبست الآن قلمى عن الكتابة لأتجرد من نفسى ساعة من الزمان، فتخيلت كأنى رجل من رجال العصور الآتية، وأنى ذهبت إلى دار من دور الكتب القديمة لأراجع تاريخ أحد عظماء عصركم هذا، فقرأت ما كتبتموه عنه فى كتبكم وجرائدكم، فرأيته تارة عظيمًا وأخرى حقيرًا، ومرة شريفًا، ومرة وضيعًا، ورأيته عالمًا وجاهلاً، وذكيًا وغبيًا، وعاقلاً وممرورًا[1] فى آن واحد فخرجت أضل مما دخلت، لا أعرف من تاريخ الرجل أكثر من أنه رجل، أى أنه ذكر بالغ من بنى آدم!

أيها القوم: إنكم لا تستطيعون أن تكونوا رجالاً عادلين فى أحكامكم

(١) الممرور: المصاب بخبل فى عقله.

وآرائكم، إلا إذا أصلحتم نفوسكم أولاً، وتعلمتم كيف تستطيعون أن تتجردوا من أهوائكم وأغراضكم قبل أن تتناولوا أقلامكم.

أيها القوم: إن عجزتم عن أن تكونوا عادلين، فكونوا راحمين؛ فارحموا أنفسكم واعفوها من الدخول فى مآزق أنتم عاجزون عنها، وارحمونا فقد ضاقت صدورنا بهذه المتناقضات، وسئمت نفوسنا تلك المبالغات.

اللقيطة

مر عظيم من عظماء هذه المدينة بزقاق من أزقة الأحياء الوطنية فى ليلة من ليالى الشتاء ضرير نجمها، حالك ظلامها، فرأى تحت جدار متداع فتاة صغيرة فى الرابعة عشرة من عمرها جالسة القرفصاء[1] وقد وضعت رأسها بين ركبتيها اتقاء للبرد الذى كان يعبث بها عبث النكباء بالعود، وليس فى يدها ما تتقيه به إلا أسمال تتراءى مزقها[2] فى جسمها العارى كأنها آثار سياط المستبدين، فى أجسام المستعبدين.

وقف الرجل أمام هذا المشهد المحزن المؤثر وقفة الكريم الذى تؤلمه مناظر البؤس، وتزعج نفسه مواقف الشقاء، ثم تقدم نحوها ووضع يده على عاتقها برفق فرفعت رأسها مرتاعة مذعورة وهمت بالفرار من بين يديه وهى تصيح «لا أعود.. لا أعود» فلم يزل يمسحها[3] ويروضها حتى هدأ روعها وعاد إليها رشدها وعلمت أنها ليست بين يدى الرجل الذى تخافه، فنظرت إليه نظرة لو أنها اتصلت بلسان ناطق وفم لحدثت عما وراءها من لواعج الأحزان وكوامن الأشجان.

---

(١) القرفصاء: أن يحتبى الرجل بيديه فيضعهما على ساقيه وهو جالس.
(٢) المزق: القطع.
(٣) مسحة: أمر يده عليه.

- ما اسمك أيتها الفتاة؟

- لا أعلم يا سيدى.

- بماذا ينادونك؟

- يدعوننى اللقيطة.

- وهل أنت لقيطة كما يقولون؟

- نعم يا سيدى، لأننى لا أعرف لى أبًا ولا أمًا، فى الأحياء ولا فى الأموات، سوى رجل يتولى شأنى، ويضمنى إليه فى منزله، وكنت أحسبه أبى فيمتلئ قلبى سرورًا به، وعطفًا عليه، فلما رأيت أنه يعذبنى عذابًا أليمًا ويحملنى من أثقال الحياة وأعبائها ما لا يحمله الآباء أبناءهم علمت أنى وحيدة فى هذا العالم، وفهمت معنى الكلمة التى ينادينى بها، فألم بنفسى من الحزن والألم ما الله عالم به، وكنت كلما مشيت فى الطريق، ورأيت فتاة صغيرة سألتها ألك أم؟ فتجيبنى: نعم، ثم تقص علىَّ من قصص نعمتها ورفاهيتها، وعطف أمها عليها، ورأفتها بها ما يريدنى همًا، ويملأ قلبى يأسًا، حتى كان يخيل إلىَّ أننى أذنبت قبل وجودى فى هذا العالم ذنبًا عاقبنى الله عليه بهذا الوجود، بيد أنى صبرت على هذا الرجل، وعلى ما كان يكلفنى به من التسول على قارعة الطريق، إبقاء على نفسى، وضنًا بحياتى، أن تغتالها غوائل الدهر، وكان كلما رأى حاجتى إليه وإلى مأواه، اشتط فى ظلمى، ولؤم فى معاملتى، حتى صار يضربنى ضربًا مبرحًا كلما عدت إليه عشاء بأقل من المبلغ الذى فرض علىَّ تقديمه فى كل يوم، ولم أزل أصابره وأحتمل منه ما يعجز عن احتماله مثلى برهة من الزمان، حتى جاءنى الليلة بداهية الدواهى، ومصيبة المصائب، فقد حاول أن يسلب من بين جنبى جوهرة العفاف التى لم يبق فى يدى ما يعزينى عما فقدته من هناءة الحياة ونعيمها سواها، فلم أر بدًا من أن أفر من بين يديه متسللة تحت جنح الظلام من حيث لا يرانى. وما زلت أمشى على غير هدى، لا أعرف لى مذهبًا ولا مضطربًا، حتى أويت إلى هذا الزقاق كما ترانى. فهل لك يا سيدى أن تحسن

إلىَّ كما أحسن الله إليك؟ وأن تبتاع لى رغيفًا من الخبز أتبلغ به، فقد مر بى يومان لم أذق طعامًا ولا شرابًا؟

لم يسمع الرجل من الفتاة هذه القصة المحزنة حتى استقبلها بدموع حارة تنحدر على خديه انحدار العقد وهى سلكه فانتثر، ثم أخذ بيدها، ومشى بها صامتًا واجمًا يكاد لا يهتدى لسبيله حتى بلغ قصره، وهناك صنع بها صنع الكريم بأهله، وأبلغها من دهرها ما لم تكن تمنى نفسها بالوشل القليل منه، وما هى إلا أيام قلائل حتى ظهرت فى ذلك القصر العظيم فتاة جديدة من أجمل الفتيات وجهًا، وأرقهن شمائل. . وأكرمهن أخلاقًا، وأكملهن آدابًا. . لا يعرف الناس عنها سوى أنها ابنة قريب لصاحب القصر مات عنها وخلفها يتيمة، فكان إلى هذا القصر مصيرها.

وكان لصاحب القصر فتاة من الفتيات اللواتى ربين التربية الحديثة التى يسمونها «التربية العصرية» ويريدون منها التربية الأفرنجية. فكانت كل ما حصلت من العلوم والمعارف والفنون الآتية:

١- الرطانة الأعجمية حتى مع خادمها الزنجى، وكلبها الرومى.

٢- الولوع بمطالعة الروايات الغرامية الفاسدة.

٣- البراعة فى معرفة أى الأزياء أعلق بالقلوب وأجذب للنفوس.

٤- الكبرياء والعظمة، واحتقار كل مخلوق سواها حتى أبويها.

٥- الأثرة وحب الذات حبًا يملأ قلبها غيرة وحسدًا، حتى إنها لا تستطيع أن تسمع وصفًا من أوصاف الحسن يوصف به سواها.

رأت هذه الفتاة اللقيطة قد أصبحت تقاسمها قلب أبيها وقلوب زائراتها من النساء بما وهبها الله من جمال فى الخلق، وحلاوة فى الطبع. وعذوبة فى النفس، فأضمرت لها فى قلبها من البغض والموجدة ما يضمره دائمًا أمثالها من اللواتى ربين تربيتها، ونهجن فى الحياة منهجها، فكانت تتعمد إساءتها وازدراءها، وتغرى بتبكيتها وتأنيبها، والفتاة لا تبالى بشىء من هذا وفاء

لسيدها وولى نعمتها، وذهابًا بنفسها عن النزول إلى منزلة من يغضب لمثل هذه الهنات، حتى حدثت ذات يوم الحادثة الآتية:

دخل صاحب القصر قصره ليلة من الليالى، فبينما هو صاعد فى السلم إذ عثر برقعة ملقاة، فتناولها فقرأ فيها هذه الكلمة:

سيدتى:

أنا منتظرك عند منتصف الليل فى بستان القصر تحت شجرة السرو المعهودة.

«حبيبك»

فما أتم الرجل قراءة الرقعة حتى دارت به الأرض الفضاء، وحتى لمس قلبه بيمينه ليعلم هل طار من مكانه أم لا يزال باقيًا فيه، ثم كأنه أراد أن يخفف ما ألم بنفسه من الحزن والقلق فقال: لعل ذلك الموعد مع تلك الفتاة اللقيطة، ومن الظلم أن أتعجل باتهام ابنتى قبل أن أقف على الحقيقة، فنظر فى ساعته فإذا الساعة قريبة، فرجع أدراجه، وما زال يترفق فى مشيته ويتنقل فى الحديقة من شجرة إلى شجرة حتى وصل إلى شجرة اللقاء فكمن وراءها ينتظر ما خبأ له الدهر من حدثانه، وما أضمر له الغيب فى طياته.

لم تكن الرسالة رسالة الفتاة الوضيعة، بل رسالة السيدة الشريفة. وبينما كانت الثانية واقفة فى غرفتها أمام مرآتها تختار لنفسها أجمل الأزياء وأليقها بموقف اللقاء، كانت الأولى نائمة فى غرفتها نومًا هادئًا مطمئنًا لا تزعجه زورة الطيف، ولا تروعه أحلام الشباب، حتى سمعت وقع أقدام سيدها على سلم القصر فاستيقظت، ثم رابها موقفه فأشرفت عليه من حيث لا يشعر بمكانها فعرفت كل شىء.. وعرفت أن سيدها سيقف على سر ابنته الذى كانت تعالج كتمانه زمنًا طويلاً.. وأنه لابد قاتل نفسه فى ذلك الموقف حزنًا ويأسًا.. فعناها من أمره ما عناها، ثم أطرقت برأسها لحظة تتلمس وجه الحياة فى دفع هذه النازلة، وتتطلب المخرج منها، ثم رفعت رأسها، وقد قررت فى نفسها أمرًا.

نزلت مسرعة من سلم القصر، فرأت الفتاة قد خرجت من باب القصر إلى ذلك الموعد فأدركتها، وأمسكت بطرف ثوبها فارتاعت الفتاة والتفتت إليها وقالت لها: ماذا تريدين منى؟ أتتجسسين علىَّ!! قالت لها: لا يا سيدتى.. وأفضت إليها بالقصة من مبدئها إلى منتهاها، فسقط فى يدها، وعلمت أن أباها قد وقف على سرها، فقالت لها: لا تزعجى نفسك، فإن أباك لا يعلم أيتنا صاحبة الكتاب فعودى إلى غرفتك، وسأذهب إلى الموعد مكانك، حتى إذا رآنى هناك ذهب من نفسه ما كان يخالجها من الشك فى أمرك.

ثم استمرت أدراجها حتى وصلت إلى تلك الشجرة، وهنالك برز الرجل من مكمنه، واقترب منها حتى عرفها، فحمد الله على سلامة شرفه وشرف ابنته، ثم قال لها:

أيتها الفتاة: إنى أحسنت إليك، واستنقذتك من يد البؤس والشقاء، فأسأت إلىَّ بما فعلت، حتى كدت الليلة أهلك حزنًا وكمدًا، وألصق بابنتى ذنبك وأحمل عليها عارك، فاخرجى من منزلى، فاللئيم ليس أهلاً للإحسان.

فخرجت خائبة تتعثر فى أذيالها، حتى وصلت إلى شاطئ النهر، وهنالك أخرجت مذكرتها من محفظتها، وكتبت فيها آخر كلمة خطتها أناملها:

«أحمد الله أنى قدرت على مكافأة الرجل الذى أحسن إلىَّ بستر عاره، وإزالة همه وحزنه».

ثم ألقت بنفسها فى النهر، وما هى إلا دورة أو دورتان حتى افترق ذانك الصديقان الوفيان، جسمها وروحها، فطفا منهما ما طفا، ورسب ما رسب.

وفى صباح تلك الليلة عثر رجال الشرطة بجثة الفتاة الشهيدة فعرفوها، وعادوا بها إلى منزل سيدها.. فبكاها بكاء كثيراً وندم على ما أساء به إليها من طردها وإزعاجها، ثم أمر بدفنها، ولم يبق فى يده من آثارها غير حقيبتها.

مرت الأيام تلو الأيام، وجاءت الحوادث إثر الحوادث، وظهر للرجل من أخلاق ابنته وطباعها، وتهتكها واستهتارها، ما لم يكن يعرفه من قبل، حتى ضاق بأمرها ذرعًا، وجلس فى غرفته فى إحدى الليالى يفكر فيما ساق إليه الدهر من خطوبه ورزاياه، ثم ألم به الضجر، فقام إلى صندوقه يفتش عن شىء يتلهى به، فعثر بتلك الحقيبة، ولم يكن قد فتحها قبل اليوم، فإنه ليقرأ إذ عثر بتلك الكلمة الأخيرة التى كتبتها الفتاة على شاطئ النهر قبل موتها، فما أتى على آخرها حتى عرف كل شىء فسقط مغشيًا عليه يعالج من الحزن والألم ما يعالج المحتضر من سكرات الموت.

وما استفاق من غشيته حتى صار يهذى هذيان المحموم، ولبث على هذه الحال بضعة أشهر، يمرض ثم يبل، ثم يمرض ثم يبل، حتى أدركته رحمة الله فمرض مرضًا لم ينقض إلا بانقضاء أجله.

فيا أيها الوالد المجهول، الذى قذف بتلك الفتاة البائسة فى بحر هذا الوجود الزاخر، أعلمت قبل أن تفعل فعلتك التى فعلت أنك ستبرز إلى هذا العالم فتاة تلاقى شقاءه وآلامه ما لا قبل لها باحتماله؟

ويا أيها الآباء العظماء: إن كنتم تريدون أن تسلموا بناتكم إلى هذا المدنية الغربية تتولى شأنهن، وتكفل لكم تربيتهن، فانتزعوا من جنوبكم قبل ذلك غرائز الشهامة والعزة والإباء والأنفة، حتى إذا رزأكم الدهر فيهن. وفجعكم فى أعراضهن وقفتم أمام ذلك المشهد هادئين مطمئنين، لا تتعذبون ولا تتألمون.

ويا أيها الناس جميعًا: لا تحلفوا بعد اليوم بالأنساب والأحساب، ولا تفرِّقوا بين تربية الأكواخ وتربية القصور، ولا تعتقدوا أن الفضيلة وقف على الأغنياء وحبائس على العظماء، فقد علمتم ما أضمر الدهر فى طيات أحداثه من رذائل الشرفاء وفضائل اللقطاء.

الصندوق

حضرة السيد الفاضل:

يوجد فى ضريح السيد البدوى صندوق توضع فيه النذور، ويبلغ مجموعها فى العام نحو ستة آلاف جنيه، فإذا فتح ذلك الصندوق يختص بعض الخلفاء بأخذ نحو الربع مما فيه، والباقى يوزع على أصحاب الأنصبة الكثيرين الذين يعدُّون بالمئات، فهل ترون أن هذه القسمة شرعية، مع أن الذين يأخذون الألوف أغنياء والذين يأخذون الآحاد فقراء؟

أفتنا أيها السيد الفاضل بما يوجبه الإنصاف والعدل الدينى فى هذه المسألة التى أصبحت الشغل الشاغل للكثير من الناس؟

«ابن جلا»

أيها السائل: أراك تسألنى عن القسمة الشرعية فى هذا المال كأنك تعتقد أنه ميراث شرعى، وأن لهؤلاء الذين تسميهم أصحاب الأنصبة لهم من الحق فى هذا المال مثل ما للوارثين فى مال المورِّثين.

إن الذى أعلمه أن هذا الحق المزعوم حق موهوب، لا يستطيع أن يحمله الحامل على وجه من الوجوه الشرعية، لأن الذين يضعون المال فى هذا الصندوق وأمثاله لا يريدون بذلك أن يهبوه أحداً من السدنة والخدم ولو أن ذلك كان غرضهم لوضعوه فى أيديهم بدلاً من الصندوق ولكنهم لما تصوروا أن ذلك الميت حى فى قبره يسمع نجواهم، ويفهم حديثهم، ويلبى دعاءهم، تجسم فى نظرهم هذا الخيال، فأرادوا أن يعطوه جميع أحكام الأحياء وصفاتهم حتى حب المال وادخاره، فخيل إليهم أن الصندوق من الميت بمنزلة الكيس من الحى، فهم يهبونه المال ويضعونه فى صندوقه، لأنهم يعجزون عن وضعه فى يده.

أما كيفية تصرف الميت بهذا المال، وكيف ينفقه وفى أى شىء ينتفع به، فذلك أمر لا يخطر ببالهم، ولا يدخل فى باب مقصدهم وأغراضهم.

فإن وجد بينهم من يعلم أن مرجع هذا المال إلى سدنة الضريح، وخدمته فعلمه هذا لا يستفاد منه أن يهبه لهم، أو يمنحه إياهم، لأنهم لو أرادوه على أن يعطيهم ذلك المال، أو يعطيهم بعضه ويستبقى لنفسه البعض الباقى، لما وسعه ذلك ولا رأى إن فعله أنه عمل عملاً صالحًا.

بل هو يعتقد أن أخذهم المال من الصندوق بعد أن يضعه فيه أمر لا علاقة له ولا شأن له فيه، لأن المال قد خرج من يده إلى صاحب الضريح، وصاحب الضريح يتصرف فى ماله كيف يشاء.

فهو فى جميع حالاته وشؤونه لا يهب هبة صحيحة، ولا يتصرف تصرفًا شرعيًا، ولا يضع صدقة فى موضعها، ولا يطرق بابًا من أبواب البر المسنونة.

وعندى أن مثل هذا المال بعد أن خرج من يد صاحبه إلى غير يد، وانقطعت ملكيته الأولى من حيث لم تقم مقامها ملكية أخرى، يعتبر مالاً مهملاً، لا صاحب له، ولا علاقة لأحد به.

وأحسن الحالات الشرعية والعقلية فى هذا المال أن ينفق فى مصارف الصدقات التى اعتبرها الشارع واعتمدها، وافتتحها بأداة الحصر التى تمنع غيرها من الاشتراك معها فى حكمها فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾(١).

فإن كان بين هؤلاء المتظلمين من قلة أنصبتهم فى ذلك الصندوق ذو حاجة داخل فى قسمه من الآية الشريفة، فله الحق فى ذلك المال من حيث كونه فقيرًا معدمًا، كعامة فقراء المسلمين، لا من حيث أن له صلة بصاحب الضريح تسوغ له أن يكون من ذوى الأنصبة والسهام فى صندوقه، فإن أمثال هذه الصلات والعلائق قد انقطعت بانقطاع الجاهلية الأولى. فلا هياكل اليوم

(١) سورة التوبة:

ولا سدنة، ولا وسطاء ولا شفعاء، ولا أقراط تعلق فى آذان الأصنام، ولا عقود تقلد بها أعناق الأوثان، ولا مال يوضع مع الموتى فى قبورهم لينتفعوا به بعد بعثهم من مراقدهم، وإنما الناس جميعًا سواء بين يدى الله سبحانه وتعالى، لا فضل لأحد منهم على أحد إلا بالتقوى، ولا زلفى لأحد يزدلف بها إليه إلا يقينه وإيمانه، وبره وإحسانه.

ذلك ما أراه فى هذه المسألة وهذا ما أعتقده فيها، ولا أعلم إن كنت أرضيت الناس فيما كتبت أو أغضبت، وإنما أعلم أننى أرضيت ضميرى وخالقى، وحسبى ذلك وكفى.

الغناء العربى

الغناء بقية خواطر النفس التى عجز عن إبرازها اللسان، فأبرزتها الألحان فهو أفصح الناطقين لسانًا، وأوسعهم بيانًا، وأسرعهم نفاذًا إلى القلوب وامتزاجًا بالنفوس، واستيلاء على العقول، وأخذًا بمجامع الأفئدة، وبيان ذلك أن النطق ثلاث طبقات تختلف درجاتها باختلاف درجات الإبلاغ والتأثير فيها، فأدناها النثر وأوسطها الشعر، وأعلاها الغناء، فلو أن عاشقًا برَّح به الهجر مثلاً فأراد أن يبلغك ما فى نفسه من ذلك، فإن قال لك: إنى مهجور، فحسب، فقد أبلغك بعض ما فى نفسه. وترك فى قلبك من الأثر بمقدار ما تحتمله طبقة النثر من التأثير، وإن أنشدك قول الشاعر:

فواكبدا من حب من لا يحبنى ... ومن زفرات ما لهن فناء

أو قول الآخر:

كأن قطاة علقت بجناحها ... على كبدى من شدَّة الخفقان

فقد سلك بك طريق الخيال، وصوَّر لك خواطر نفسه بصورة أوضح من الصورة الأولى، وترك فى نفسك أثرًا أعظم من الأثر الأول، وإن رفع عقيرته وكان يجيد التوقيع يتغنى بقول القائل:

وارحمتا للغريب بالبلد النا ... زح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا ... بالعيش من بعده وما انتفعا

فقد صوَّر لك قلبه كما هو. وألمسك موضع الألم وا عزن منه، فبلغ بك التأثير منتهاه، وربما بكيت عند سماعه حزنًا ورحمة، وما بكيت إذ بكيت إلا لأن الغناء لم يبق بقية من خواطر هذه النفس القريحة إلا نطق بها لك وأسمعك إياها، وكما أن الأبيات قيود المعانى كذلك الألحان قيود الأبيات، فلا يزال المعنى مشردًا ههنا وههنا حتى يحتويه بيت من الشعر. فإذا هو مستقر فى مكانه، ثم لا يزال البيت يتجانف عن الآذان ذات اليمين وذات الشمال، حتى يقوده الصوت الحسن، فإذا هو مستودع فى الصدور.

والغناء فن من فنون الطبيعة، تهتدى إليه الأمم بالفطرة المترنمة فى هدير الحمام وخرير المياه، وحفيف الأشجار. فمن أبكاه الحمام غرد تغريده كلما أراد البكاء، ومن أطربه صوت الناعورة رن رنينها ليطرب جمله أو ناقته فينشطان للمسير، وما زال هذا الفن مبتديًا ببداوة الأمة العربية لا يكاد يتخطى فيها حداء الجمال، ومناغاة الأطفال، حتى إذا انتقلت من مضيق الحاجيات إلى منفسح الكماليات، وتوسعت فيه وزادت فى أنغامه وضروبه، وتفننت فى آلاته وأدواته، وكذلك كان شأن العرب فى جاهليتهم، ينظمون أشعارهم على نسب متوازية، وأنغام متوازنة. فالبيت يوازن البيت فى ترتيب الحركات والسكنات وتعدادها، والشطر والتفعيلة يوازنان الشطر والتفعيلة كذلك، فكأنما كانوا يهيئون لأنفسهم بمذهبهم هذا فى الشعر ألحانًا موسيقية، غير أن معارفهم لم تكن تتسع لأكثر من هذا النوع من الموسيقى. وهو نوع التناسب الشعرى الذى هو قطرة من بحر هذا الفن الزاخر، ثم استمر شأنهم على هذا حتى جاء الإسلام واختلطت الأمة العربية بالأمة الفارسية التى كان لها من حضارتها وتمدينه متسع للبراعة فى هذا الفن ومنتدح فى مناحيه ومقاصده، ووفد الكثير من مغنى الفرس والروم موالى فى بيوت العرب وفى أيديهم العيدان والطنابير، والمعازف والمزامير، يلحنون بها أشعارهم الفارسية والرومية، فسمعها منهم العرب فاقتبسوها ولحنوا بها أشعارهم تلحينًا بزوا فيه

أساتذتهم، وولدوا ألحانًا وأنغامًا لم يأت بها من قبلهم، شأنهم فى جميع الفنون والصناعات التى كانوا يقتبسونها من الأمم المتمدينة المعاصرة لهم، وظهر فيهم رجال أذكياء كان لهم الفضل الباهر فى تقديم الغناء واتساعه مثل ابن سريج، ومخارق، وطويس، وإبراهيم الموصلى، وابنه إسحاق، وإبراهيم ابن المهدى، ومعبد -الذى طالما ضربت به وبحسن صوته الأمثال على ألسنة فحول الشعراء. كقول أبى عبادة البحترى فى وصف فرس كان أهداه إليه أحد الأمراء:

هزج الصهيل كأن فى نبراته نغمات معبد فى الثقيل الأول

والثقيل والخفيف الأول والثانى أسماء اصطلح عليها العرب ومرجعها إلى حركات الأصابع الخمس فى أوتار العود الخمسة شدة وضعفًا، وما أحسن قول أبى العلاء المعرى:

ولقد ذكرتك يا أميمة بعد ما نزل الدليل إلى التراب يسوفه[1]
وهواك عندى كالغناء لأنه حسن لدى ثقيله وخفيفه

وبالرغم من غضارة الدين وغضاضته فى ذلك العهد -عهد الصدر الأول- وشدته فى النهى والتلهى بالغناء والعزف والزمر وأمثالها ونعيه على من يحترف ذلك أو يتخلقه، فقد كان للمغنين الشأن الرفيع فى مجالس الخلفاء والأمراء، والنصيب الأوفر من جوائزهم وصلاتهم، ولا غرو فى ذلك، فسلطان الوجدان فوق سلطان الأديان، ولقد بلغ من شأن المغنين وإدلالهم على الخلفاء أن إسحاق الموصلى شتم إبراهيم بن المهدى فى حضرة أخيه الرشيد غير هياب ولا وجل، فما استطاع أخو الخليفة أن ينتصف لنفسه منه هيبة وإجلالاً، وكان ابن عائشة المغنى لا يغنى إلا لملك، أو ولى عهده، حتى كان الخليفة إذا أراد أن يختار من بين أبنائه من يعهد إليه بالأمر من بعده لا يكتب له بذلك عهداً، بل يأذن لابن عائشة أن يغنى عنده، فلا تطلع عليه شمس الغد حتى يفد الناس إليه يهنئونه بولاية العهد، فإن دعاه إلى الغناء

(١) ساف التراب: اشتمه. يريد أنه ذكر حبيبه فى أعظم أوقات شدته وهو وقت ضلال الركوب ونزول الدليل، اشتم التراب ليستدل منه على الأرض.

لديه أميـر أو وزير وجد من قوة الدالة بنفســه ما يدفع به الطلب عنه. ويروى أن ابن عتيق وهو من تعلم فى شرف البيت وجلال المحل رأى ابن عائشة يومًا وحلقه مخدوش، فقال: من فـعل بك هذا؟ قال: وأشار إلى ضاربه، فمضى ونزع ثيابه وعاد فـجلس للرجل على بابه، فلما خرج أخذ بتلبـيبه(١) وجعل يضربه ضـربًا موجـعًا، والرجل يصيح: أى شىء صنعــت؟ وما ذنبى إليك؟ وهو لا يجيبه حتى بلغ منه، وأقـبل الناس فحالوا بينه وبينه وسألوه عن ذنبه، فقــال: إنه أراد أن يكسر مـزماراً من مزامـير داود، يريد أنه خنق ابن عـائشة وخدشــه فى حلقه. ومما يروى من حـوادث تيهـه وترفعه أنه خــرج من عند الوليد بن عبد الملك وقد غناه:

أبعدك معقـلاً أرجو وحصنًا قد أعيتنى المعاقل والحصون

فأطربه وأمر له بثـلاثين ألف درهم وكثير من الثياب، فبـينا هو يسير إذ نظر إليه رجل من أهل وادى القـرى كان يشتهى الغناء فدنا من غـلامه وقال: من هذا الراكب المختال؟ قال: ابن عائشة المغنى، فدنا منه وقال: جعلت فداك أنت ابن عـائشة؟ قـال نعم، قال: أم عـائشـة المؤمنين؟ قال: لا، أنا مـولى لقريش وعائشة أمى، وحسبك هذا فلا تكثر؛ قال: وما هذا الذى بين يديك؟ قال: غنيت أمـير المؤمنين صـوتًا فأطربته فـأمر لى بهـذا المال وهذه الكسوة، قال: جعلت فداك هل تمن علىَّ بأن تسمعنى ما أسمعته إياه؟ فقال له: ويلك أمثلى يكلم بمثل هذا فى الطريق؟ قال: فـما أصنع؟ قال: الحقنى إلى المنزل، يريد مخاتلته والنجاة منه وحرك بغلة شقـراء تحته لينقطع عنه فعدا معه. حتى وافيـا المنزل كـفرسى رهان، ودخل ابن عـائشة فـمكث طويلاً طمعًـا فى أن ينصرف فلم يفعل، فلما أعياه قال لغلامه: أدخله فلما دخل قال له: من أين صبك الله علىَّ؟ قال: أنا رجل من أهل وادى القـرى أشتهى هذا الغناء، قال له: هل لك فيمـا هو أنفع لك منه؟ قال: وما ذاك: قال: مائتـا دينار وعشرة أثواب تنصرف بها إلى أهلك، فقال له: جعلت فداك والله إن لى لبنية ما فى أذنها علم الله حلقة من الورق(٢) وإن لى زوجة عليها يشهد الله قميص، ولو

(١) التلبيب: ما فى موضع اللبب من الثياب: أى ما يدور بالعنق من القميص ونحوه.
(٢) الورق: الفضة.

أعطيتنى جميع ما أمر لك به أمير المؤمنين على خلتى وحاجتى لكان الصوت أعجب إلىَّ منه، وما زال به حتى رحمه ابن عائشة وغناه الصوت بعد لأى[1] فطرب الرجل له طربًا شديداً وجعل يحرك رأسه وينطح بها الجدار حتى خيف أن يندق عنقه، ثم انصرف ولم يرزأه فى ماله شيئًا.

وفى هذا الحديث فوق الغرض الذى سقناه له ما يدل على أن الغناء العربى كان قريبًا إلى القلوب وأنه كان منها بمنزلة الأصابع من الأوتار، فإذا لمسها رنت رنين الثكلى والمرزوءة فى واحدها. وأن الوجدان العربى وجدان رائق شفاف تأخذ منه مختلفات الأنغام، فوق ما تأخذ الكهرباء من الأجسام، كما تبلغ منه نظرات الغرام، فوق ما تبلغ من عقل شاربها المدام.

وكانت الأصوات عندهم تنسب إلى واضعيها وتسمى بأسماء أصحابها كما هو الشأن فى الشعر، فيقال: صوت إسحاق أو معبد، كما يقال شعر مسلم أو بشار، وكان المغنى أحرص على صوته من الكريم على عرضه، فإذا صنع صوتًا لا يسمح لأحد من المغنين أن يأخذه عنه حتى يغنيه مراراً وتعرف نسبته إليه، كما يفعل اليوم المخترعون والصانعون من أخذ الامتيازات بمخترعاتهم ومصنوعاتهم، وكان لإسحاق الموصلى القدرة الغريبة على مخاتلة المغنين عن أصواته، حتى صنع مرة صوتًا وأراد الفحول منهم أن يأخذوه بعد ما سمعوه منه أكثر من سبعين مرة فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وكانت مجالس الغناء عندهم تشبه أن تكون مجالس علم لدراسة هذا الفن وتهذيبه، فكان أحدهم لا يحجم أن رأى فى صوت صاحبه مأخذًا أن يفجأه بالانتقاد ويبين له مواضع الخطأ مهما عظم شأن المجلس وشأن صاحبه، وكانت تقع بينهم المنافسات الشديدة فى ذلك كما تقع بين العلماء فى مجادلاتهم ومناظراتهم مما يدل على أن الغناء العربى كان له عند العرب صبغة جدية فوق صبغة اللهو، وأن الغربيين فى هذا العهد ليسوا بأعلم بصناعة الغناء ولا أقوم على أمرها من العرب فى ذلك العهد، ولو أن العرب توسعوا فى فنونه وضروبه لبلغوا فيه الغاية التى لا غاية وراءها. ولكنهم كانوا قلما يحفلون

---

(١) اللأى: الجهد.

بإدخاله فى الأغراض العالية كالحروب والشؤون الوطنية وأمثال ذلك من المناحى والمقاصد إلا قليلاً، كما ورد فى تاريخ الدولة العباسية أن أعداء البرامكة لما أرادوا الإيقاع بهم وعلموا أن سبيل الوشاية بهم إلى الرشيد سبيل وعر دسوا له من القيان من يغنيه بقول عمر بن أبى ربيعة:

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد   وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدَّت مرة واحدة   إنما العاجز من لا يستبد

فحرك ذكر العجز والاستبداد ما كان كامناً فى نفس الرشيد من شعوره بسلطان البرامكة عليه واستبدادهم بالأمر من دونه، فقال عند تمام الصوت: «نعم إنى عاجز» ثم كان أمره معهم بعد ذلك ما كان، ولقد مضى الصدر الأول من الإسلام وشأن فن الغناء العربى هذا الشأن العظيم خصوصاً فى أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية، ثم أخذت شمسه الباهرة تنحدر إلى الغروب بانحدار اللغة العربية وشعرها حتى أصبح فى حضارة الأندلس قدوداً وموشحات، بعد أن كان قصائد ومقطعات، فكان لا يسمع أبناء العرب فى ذلك العهد إلا إلى قول المغنى:

كحل الدجى يجرى من   مقلة الفجر على الصباح
ومعصم النهر فى   حلل خضر من البطاح

أو قوله:

كللى يا سحب تيجان الربى بالحلى
واجعلى سوارها منعطف الجدول

وليت الأمر وقف عند هذه الموشحات فإنها وإن لم تكن شعرية اللفظ فهى شعرية المعنى عالية الخيال، وهى على علاتها خير من شعر العامة الذى قضى عليهم فساد اللغة وانحطاطها بانتهاجه والتغنى به كالزجل، والمواليا، والقوما، والدوبيت، وكان ويكون، غير ذلك مما يسمى فى عهدنا هذه بالأدوار والتواشيح والأغصان والمذاهب وأمثالها.

فهل لجماعة المغنين فى عصرنا أن يعفونا من: «أحب جميل طبعه الدلال» ومن: «يا حلو صون عهد ودادى الله يصونك» ويأخذوا بنا فى مسلك أشرف من هذا المسلك، ويعيدوا للغناء العربى عهده الأول كما صنع شعراء العصر برفيقه الشعر، فلقد كان الشعر والغناء أخوين أليفين، رضيعى ثدى وضجيعى مهد، ثم ضربهما الدهر بضرباته فافترقا فماذا علينا لو قصرنا مسافة البعد بينهما، وماذا على المغنين والشعراء فى مصر لو عقدوا بينهم عهدًا أن يهذبوا أخلاق أمتهم ويرفعوا شأنها ليكون لهم من الفضل فى نهضتها وارتقائها ما عجز عن دركه الفلاسفة والحكماء، فينظم الشاعر المقطعات الرقيقة العذبة السائغة فى فضائل الأعمال ومكارم الأخلاق، كالشجاعة والشهامة والشرف وحب الوطن والاتحاد والتزهيد فى صغائر الأمور، والترغيب فى عظائمها، فيأخذها منه المغنى ولا يتكلف فى تلحينها أكثر ما يتكلفه فى تلحين سواها من الأدوار والمواويل ثم يغنيها فى الناس غير مبال بما يفاجئه به ضعفاء النفوس الجامدون من الانتقاد الملازم لكل عمل شريف فى مبدئه، وفى اعتقادى أن لهذه الطريقة من الأثر الحسن فى نفوس العامة وتهذيب أخلاقهم وطباعهم، وتقويم ألسنتهم وعقولهم، ما يخلد للملحنين والمغنين أجمل ذكر فى تاريخ عظماء الرجال.

التوبة

علم فلان، وكان شابًا من شبان الخلاعة واللهو، وقاضيًا من قضاة المحاكم، أن المنزل الذى يجاور منزله يشتمل على فتاة حسناء من ذوات الثراء والنعمة والرفاهية والرغد، فرنا إليها النظرة الأولى فتعلقها، فكررها أُخرى فبلغت منه، فتراسلا ثم تزاورا ثم افترقا، وقد ختمت روايتهما بما تختم به كل رواية غرامية يمثلها أبناء آدم وحواء على مسرح هذا الوجود.

عادت الفتاة إلى أهلها تحمل بين جنبيها هما يضطرم فى فؤادها، وجنينًا يضطرب فى أحشائها، وقد يكون لها إلى كتمان الأول سبيل، أما الثانى فسر

مذاع، وحديث مشاع، إن اتسعت له الصدور، لا تتسع له البطون، وإن ضن به اليوم لا يضن به الغد.

ذلك ما أسهر ليلها وأقض مضجعها، وملك عليها وجدانها وشعورها، فلم تر لها بدًا من الفرار بنفسها، والنجاة بحياتها، فعمدت إلى ليلة من الليالى السوداء فلبستها، وتلفعت بردائها، ثم ألقت بنفسها فى بحرها الأسود، فما زالت أمواجها تترامى بها حتى ألقتها إلى شاطئ الفجر، فإذا هى فى غرفة صغيرة فى إحدى المنازل البالية، فى بعض الأحياء الخاملة وذلك الجنين المضطرب.

كان لها أم تحنو عليها، وتفتقد شأنها، وتجزع لجزعها. وتبكى لبكائها ففارقتها، وكان لها أب لا هم له فى حياته إلا أن يراها سعيدة فى آمالها، مغتبطة بعيشها، فهجرت منزله، وكان لها خدم يقمن عليها ويسهرن بجانبها! فأصبحت لا تسامر غير الوحدة، ولا تساهر غير الوحشة، وكان لها شرف يؤنسها ويملأ قلبها غبطة وسرورًا ورأسها عظمة وافتخارًا. . ففقدته. . وكان لها أمل فى زواج سعيد من زوج محبوب فرزأتها الأيام فى أملها.

ذلك ما كانت تناجى نفسها به. . صباحها ومساءها، بكورها وأصائلها فإذا بدا لها أن تفكر فى علة مصائبها وسبب أحزانها علمت أنه ذلك الفتى الذى وعدها أن يتزوجها فخدعها عن نفسها، ولم يف بعهده لها، فقذف بها وبكل ما تملك يدها فى هذا المصير.

فلا يكاد يستقر ذلك الخاطر فى فؤادها، ويأخذ مكانه من نفسها حتى تشعر بجذوة نار تتقد بين جنبيها من الحقد والموجدة على ذلك الفتى لأنه قتلها، وعلى المجتمع الإنسانى لأنه لا يأخذ القاتل بجريمته، ولا يسلكه فى سلسلة المجرمين.

وما هى إلا أيام قلائل حتى جاءها المخاض. . فولدت وليدتها من حيث لا ترى بين يديها من يأخذ بيدها أو يساعدها على خطبها غير عجوز من جاراتها ألمت بشأنها فمشت إليها وأعانتها على أمرها بضع ساعات. . ثم

فارقتها تكاد على فراش مرضها ما تكابد.. وتعانى من صروف دهرها ما تعانى.

ولقد ضاق صدرها ذرعًا بهذا الضيف الجديد، وهو أحب المخلوقات إليها وأكثرهم قربًا إلى نفسها.. فجلست ذات ليلة، وقد وضعت طفلتها النائمة على حجرها وأسندت رأسها إلى كفها، وظلت تقول:

ليت أمى لم تلدنى، وليتنى لم أكن شيئًا.

لولا وجودى ما سعدت، ولولا سعادتى ما شقيت، وإن كان فى العالم وجود أفضل منه العدم فهو وجودى.

لقد كان لى قبل اليوم سبيل إلى النجاة من هذه الحياة، أما اليوم، وقد أصبحت أمًا فلا سبيل.

أأقتل نفسى فأقتل طفلتى؟ أم أحيا بجانبها هذه الحياة المريرة؟

لا أحسب أن الموت تاركى حتى يذهب بى إلى قبرى. فماذا يكون حال طفلتى من بعدى؟

إنها ستعيش من بعدى، وتشقى فى الحياة شقائى، لا لذنب جنته ولا لجريمة أجرمتها، سوى أننى أمها.

هل تعيشين أيتها الفتاة حتى تغفرى لى ذنب أمومتى حينما تسمعين قصتى وتسمعين شكاتى؟

لم يبق فى يدى يا بنيتى من حلاى إلا قليل سأبيعه كما بعت سابقه، فماذا يكون شأنى وشأنك بعد اليوم؟

محال أن أعود إلى أبى فأقص عليه قصتى، لأنه لم يبق لى مما يعزينى عن شقاء العيش وبلائه، إلا أن أهلى لا يعرفون شيئًا عن جريمتى، فهم يبكوننى كما يبكون موتاهم الأعزاء، ولأن يبكوا مماتى، خير لى ولهم من أن يبكوا حياتى.

وكذلك ظلت تلك البائسة المسكينة تحدث نفسها تارة، وطفلتها أخرى

بمثل هذا الحديث المحزن الأليم، حتى غلبها صبرها على أمرها، فأرسلت من جفنيها قطرات حارة من الدموع هى كل مـا يملك الضعفاء العاجزون، ويقدر عليه القانطون اليائسون.

دارت الأيام دورتها وباعت الفتاة جميع ما تملك يدها، وما يحمل بدنها وما تشـتمل عليه غرفـتها من حلى وثيـاب، وأثاث ورياش، ولم يبق لها إلا قميصها الخلق وملاءتها وبرقـعها، ولم يبق لطفلتها إلا أسمال باليات تنم عن جسمها نميمة الوجه عن السـريرة، فكانت تقضى ليلها شر قضاء حتى إذا طار غراب الظلام عن مـجثـمه أسبلت برقـعها على وجـهـها، واتزرت بمئزرها، وأنشأت تطوف شوارع المدينة، وتقطع طرقها، لا تبـغى مقصداً ولا تريد غاية سوى الفـرار بنفسـها من همـها، وهمـها لا يزال يسـايرها ويترسم مـواقع أقدامها.

وأحسب أن عجوزاً من عجائز المواخير رأتها فألمت ببعض شأنها فاقتفت أثرها حتى دخلت غرفتها، فوغلت عليها، وسـألتها ما خطبها؟ فأنست الفتاة عند رؤيتهـا، وكذا يأنس المصدور بنفثـاته، والبائس بشكاته، فأصـرحت لها بسرها وألقت إليهـا بخبيئة صدرها، ولم تتـرك خبراً من أخبار نعـيمها، ولا حادثًا من حوادث بؤسها لم تحدثها به، فعرفت الفاجرة محنتها، ورأت بعينها ذلك الماء من الحسن الذى يجول فى أديم وجههـا جولان الراح فى زجاجتها، وعلمت أنها إن أحرزتها فى منزلها فقـد أحرزت غنى الدهر، وسعادة العمر، وما هو إلا أن أرسلت إليـها بعض عقاربهـا ونفثت فى نفسهـا بعض رقاها، حتى غلبـتها على أمرها وقـادتها إلى منزلها، ومـا هى إلا عشية أو ضـحاها حتى بلغت بها الغاية التى لا مفر لها ولا لأمثالها من بلوغها.

عاشت تلك البائسة فى منزلها الجديد، عيشًا أشقى من عيشها الأول فى منزلهـا القديم لأنهـا ما كـانت تستطيع أن تصل إلى لـقمتـها -وهى كـل ما حصلت علـيه فى حيـاتها الجـديدة- إلا إذا بذلت راحتهـا وشرّدت نومـها، وأحرقت دماغها بالسهر، وأحـشاءها بالشراب، وصبرت على كل من يسوقه إليـها حظهـا من سـباع الرجـال وذئابهم، على اخـتلاف طـبائعـهم، وتنوع

أجلاقهم، لأنها لم تر بدًا من ذلك.. فاستسلمت استسلام اليائس الذى لم تترك له ضائقة العيش إلى الرجاء سبيلاً.

ولو أن الدهر وقف معها عند هذا الحد لهان الأمر ولألفت الشقاء ومرنت عليه كما يألفه ويمرن عليه كل من سار فى الطريق التى سارت فيها، ولكنه أبى إلا أن يسقيها الكأس الأخيرة من كئوس شقائه، فساق إليها ذئبًا من ذئاب الرجال كان ينقم عليها شأنًا من شؤون شهواته ولذاته، فزعم أنها سرقت كيسه فى إحدى لياليه التى قضاها عندها، ورفع أمرها إلى القضاء، واستعان عليها ببعض أترابها الساقطات اللواتى كن يحسدنها وينفسن عليها حسنها وبهاءها حتى أدانها.

جاء يوم الفصل فى أمرها فسيقت إلى المحكمة، وفى يدها فتاتها، وقد بلغت السابعة من عمرها، فأخذ القاضى ينظر فى القضايا ويحكم فيها بما يشاء حتى أتى دور الفتاة، فما وقفت بين يديه، ووقع بصرها عليه، حتى شدهت عن نفسها وألم بها من الحيرة والدهشة ما كاد يذهب برشدها، ذلك أنها عرفته وعرفت أنه ذلك الفتى الذى كان سبب شقائها وعلة بلائها، فنظرت إليه نظرة شزراء، ثم صرخت فى وجهه صرخة دوى بها المكان دويًا وقالت:

رويدك يا مولاى القاضى، ليس لك أن تكون قاضيًا فى قضيتى! فكلانا سارق وكلانا خائن، والخائن لا يقضى على الخائن، واللص لا يصلح أن يكون قاضيًا بين اللصوص.

فعجب القاضى والحاضرون لهذا المنظر الغريب، وغضب لهذه الجرأة العجيبة، وهمَّ أن يدعو الشرطى لإخراجها، فحسرت قناعها عن وجهها، فنظر إليها نظرة ألم فيها بكل شىء، فشعر بالرعدة تتمشى فى أعضائه، وسكن فى كرسيه سكون المحتضر فى سرير الموت، وعادت الفتاة إلى إتمام حديثها فقالت:

أنا سارقة المال، وأنت سارق العرض، والعرض أثمن من المال، فأنت أكبر منى جناية، وأعظم جرمًا.

إن الرجل الذى سرقت ماله يستطيع أن يعزى نفسه عنه باسترداده أو الاعتياض عنه، أما الفتاة التى سرقت عرضها فلا عزاء لها، لأن العرض الذاهب لا يعود.

لولاك ما سرقت، وما وصلت إلى ما إليه وصلت، فاترك كرسيك لغيرك، وقف بجانبى ليحاكمنا القضاء العادل على جريمة واحدة أنت مدبرها، وأنا المسخرة فيها.

إن شريعة تعلم أننا شركاء فى جريمة واحدة، ثم تأتى بنا إلى هذا المكان، فتقف أحدنا فى أشرف المواقف، وتقف الآخر فى أدناها، لشريعة ظالمة ليس بينها وبين العدل نسب موصول، أو زمام غير منقضب.

رأيتك حين دخلت هذه القاعة وسمعت الحاجب يصرخ لمقدمك ويستنهض الصفوف للقيام لك، ورأيت نفسى حين دخلت والعيون تتخطانى والقلوب تقتحمنى فقلت: يا للعجب!! كم تكذب العناوين، وكم تخدع الألقاب، وكم يعيش هذا العالم فى ضلالة عمياء، وجهالة جهلاء!!

بخ بخ لأولئك الذين منحوك هذه الشهادة، شهادة العلم والفضل والأخلاق والآداب. ومرحى مرحى لأولئك الذين أقعدوك هذا المقعد، ووضعوا بين يديك هذا القانون، وأوقفوا أمامك هذا الشرطى يأتمر بأمرك وينزل على حكمك.

إن تحت هذه الثياب التى تلبسونها معشر القضاة نفوسًا ليست بأقل من نفوسنا شرًا، ولا أخبث منها مذهبًا، وربما لا يكون بيننا وبين الكثير منكم فرق إلا فى العناوين والألقاب، والشمائل والأزياء.

أتيت بى إلى هنا لتحكم علىَّ بالسجن، كأن لم يكفك ما أسلفت إلىَّ من الشقاء حتى أردت أن تجىء بلاحق لذلك السابق.

ألم أحسن إليك بساعة من ساعات السرور فترعاها؟ ألست إنسانًا ذا شعور وإحساس فترثى لشقائى وبلائى؟

إن لم تكن عندى وسيلة أمتُّ بها إليك، فوسيلتى عندك ابنتك هذه، فهى الصلة الباقية بينى وبينك.

فرفع القاضى رأسه ونظر إلى ابنته الصغيرة نظرة رحمة وإشفاق وقد قرر فى نفسه ألا بدَّ له من أن ينصف تلك البائسة وينتصف لها من نفسه، غير أنه أراد أن يخلص من هذا الموقف خلوصًا جميلاً، فأعلن أن المرأة قد أُصيبت بدخل فى عقلها، وأن لابد من إحالتها على الطبيب. فصدق الناس قوله. ثم قام من مجلسه بنفس غير نفسه، وقلب غير قلبه، وما هى إلا أيام قلائل حتى استقال من منصبه بحجة المرض، ولم يزل يسعى سعيه حتى ضم إليه ابنته واستخلص أمها من قرارتها وهاجر بها إلى بلد لا يعرفهما فيه أحد، فتزوج منها وأنس بعشرتها، واحترف فى دار هجرته حرفة لولا مخافة أن أدل عليه إذا ذكرتها لذكرتها، ولا يزال حتى اليوم يكفِّر عن سيئاته إلى زوجته بكل ما يستطيعه من صنوف الرعاية، وأنواع الكرامة، حتى نسيا ما فات. ولم يبق أمامهما إلا ما هو آت.

الحسد

لو عرف المحسود ما للحاسد عنده من يد، وما أسدى إليه من نعمة لأنزله من نفسه منزلة الأوفياء المخلصين، ولوقف بين يديه تلك الوقفة التى يقفها الشاكرون بين أيدى المحسنين.

لا يزال صاحب النعمة ضالاً عن نعمته، لا يعرف لها شأنًا، ولا يقيم لها وزنًا حتى يدله الحاسد عليها بنكرانها، ويرشده إليها بتحقيرها، والغض منها، فهو الصديق فى ثياب العدو، والمحسن فى ثياب المسىء.

أنا لا أعجب لشىء عجبى لهذا الحاسد، ينقم على محسوده نعم الله عليه، ويتمنى لو لم تبق له واحدة منها وهو لا يعلم أنه فى هذه النقمة، وفى تلك الأمنية قد أضاف إلى محسوده نعمة هى أفضل من كل ما فى يديه من النعم.

وجه الحاسد ميزان النعمة ومقياسها، فإن أردت أن تزن نعمة وافتك فارم بخيرها فى فؤاد الحاسد، ثم خالسه نظرة خفيفة، فحيث ترى الكآبة والهم فهناك جمال النعمة وسناؤها.

ليس بين النعم التى ينعم بها الله على عباده نعمة أصغر شأنًا، وأهون خطرًا من نعمة ليس لها حاسد، فإن كنت تريد أن تصفو لك النعم فقف بها فى سبيل الحاسدين، وألقها فى طريق الناقمين، فإن حاولوا تحقيرها وازدراءها، فاعلم أنهم قد منحوك لقب «الحسد» فليهنأ عيشك وليعذب موردك.

إن أردت أن تعرف أى الرجلين أفضل، فانظر إلى أكثرهما نقمة على صاحبه، وكلفًا بالغض منه، والنيل من كرامته، فاعلم أنه أصغرهما شأنًا وأقلهما فضلاً.

قد جعل الله لكل ذنب عقوبة مستقلة يتألم لها المذنب عند حلول أجلها، فالشارب يتألم عند حلول المرض، والمقامر يتألم يوم نزول الفقر، والسارق يتألم يوم دخول السجن.

أما الحاسد فعقوبته حاضرة دائمة، لا تفارقه ساعة واحدة.

إنه يتألم لمنظر النعمة كلما رآها، والنعمة موجود من الموجودات الثابتة التى لا يلم بها إلا التنقل من مظهر إلى مظهر، والتحول من موقف إلى موقف فهيهات أن يفنى ألمه، أو ينقضى عذابه، حتى تقر عينه التى تبصر، ويسكن قلبه الذى ينبض.

الحسد مرض من الأمراض القلبية الفاتكة، ولكل داء دواء، ودواء الحسد أن يسلك الحاسد سبيل المحسود، ليبلغ مبلغه من تلك النعمة التى يحسده عليها، ولا أُحسب أنه ينفق من وقته ومجهوده فى هذه السبيل أكثر مما ينفق من ذلك الغض من شأن محسوده، والنيل منه، فإن كان يحسده على المال، فلينظر أى طريق سلك إليه فيسلكه، وإن كان يحسده على العلم فليتعلم أو الأدب فليتأدب، فإن بلغ من ذلك مأربه فذاك، وإلا فحسبه أنه ملأ فراغ حياته بشئون لولاها لقضاها بين الغيظ الفاتك، والكمد القاتل.

الوفــــاء

يا صاحب النظرات:

تزوجت منذ سنة من زوج صالحة طيبة القلب والسريرة، فاغتبطت بعشرتها برهة من الزمان، وقد عرض لها فى هذه الأيام رمد فى عينيها فذهب ببصرها فأصبحت عمياء، وأصبحت أعمى بجانبها، وقد بدا لى أن أطلقها وأتزوج من غيرها. . فماذا ترى؟

«إنسان»

أيها الإنسان: لا تفعل، فإنك إن فعلت كان عليك إثم الخائنين وجرم الغادرين، وكن اليوم أحرص على بقائها بجانبك منك قبل اليوم، لتستطيع أن تدخر لنفسك عند الله من المثوبة والأجر ما يدخر أمثالك من الصابرين المحسنين.

لا تقل إنها عمياء فلا خير لى فيها، ولا غبطة لى بها، فإنك ستجد بين جنبيك من لذة المروءة والإحسان والجود والإيثار ما يحسدك عليه الناعمون بالحور الحسان، فى مقاصير الجنان.

اجلس إليها صباحك ومساءك، وحادثها محادثة الصديق صديقه، بل الزوج زوجه، وتلطف بها جهدك وروِّح عن نفسها ما يساورها من الهموم والكروب وقل لها: لا تجزعى ولا تحزنى؟ فإنما أنا بصرك الذى به تبصرين ونورك الذى به تهتدين.

أعيذك أيها الإنسان بالله ورحمته، والعهد وزمامه، ألا تجعل لهذا الخاطر السىء -خاطر الطلاق والفراق- سبيلاً إلى نفسك، فإنها لم تسىء إليك فتسىء إليها، ولم تنقض عهدك فتنقض عهدها، فإن كنت لابد ثائراً لنفسك فاثأر من القدر إن استطعت إليه سبيلاً.

إن عجزاً من الرجل وضعفًا أن يغضب فيمد يده بالعقوبة إلى غير من أذنب إليه، ويعتدى عليه.

إن لم يكن احتفاظك بزوجك وإبقاؤك عليها عدلاً يسألك الله عنه فليكن إحسانًا تحاسبك الإنسانية فيه.

إنك قد خسرت بصرها، ولكنك ستربح قلبها، وحسب الإنسان من لذة العيش وهناءته فى هذه الحياة قلب يخفق بحبه، ولسان يهتف بذكره.

إنها أسعدتك برهة من الزمان، فليخفق قلبك رحمة بها، بقدر ما خفق سروراً بعشرتها.

لا أحسب أنها كانت تاركتك، أو غادرة بك، لو أن هذا السهم الذى أصابها قد أصابك من دونها، فاحرص الحرص كله على ألا تكون امرأة ضعيفة أسبق منك إلى فضيلة الصدق والوفاء.

إلى من تعهد بها بعد فراقك إياها؟ وأى موطن من المواطن هيأته لمقامها؟ وماذا أعددت لها من الوسائل التى تستعين بها على عيشها؟ وتأنس بها فى وحشتها ووحدتها؟

كيف يهنأ لك عيش، أو يغمص لك جفن، إذا أظلك الليل فذكرتها وذكرت أنها تقاسى فى وحدتها من الوحشة ما لا قبل لها باحتماله، وأنها ربما طلبت جرعة ماء فلا تجد من يقدمها إليها، أو كسرة خبز فلا تجد من يدلها عليها، أو ربما قامت من مضجعها فى سكون الليل وهدوئه تتلمس الطريق إلى حاجة من حاجاتها فاخطأ تقديرها فصدمها الجدار فى جبينها صدمة أسالت دمها حتى امتزج بدمعها؟

أيها الإنسان: إن لم تكن عادلاً ولا وفيًا ولا محسنًا فارحم نفسك من هذا الخيال الذى لابد أن سيساورك، يفت فى عضدك ويزعجك من مرقدك، فإن لم تكن هذا ولا ذاك، فغيرك أخاطب لأنى لا أحسن إلا مخاطبة الإنسان.

إنى محدثك عن صديق لى من كرام الناس وأوفيائهم تزوج امرأة حسناء

فاغتبط بها برهة من الزمان، ثم أصابها الدهر بمثل ما أصاب به زوجك، ولم يترك لها من ذلك النور الذاهب إلا كما تترك الشمس من الشفق الأحمر فى حاشية الأفق، فلم يقنعه من الوفاء لها أن استبقاها واستمسك بها، بل كان يحرص جهده على ألا تعلم أنه ينكر من أمرها شيئًا، فكان يعتب عليها فى بعض الأحايين فى أشياء لا يؤاخذ بها عادة إلا الناظرون المبصرون، يريد بذلك أن يلقى فى روعها أنه لا يزال يعدها ناظرة مبصرة، وأنه لا يرى شيئًا جديدًا طرأ عليها، رحمة بها وإبقاء على ما كانت تحب أن تحاوله من الاعتداد بنفسها والإذلال بمزاياها.

ولقد قرأت جملة صالحة من نوادر العرب فى آدابهم، ومكارم أخلاقهم ورقة شعورهم ولطف وجدانهم، فلم أر بينها نادرة أوقع فى النفس، ولا أجمل أثرًا فى القلب، من قول أبى عيينة الكاتب المعروف فى عهد الدولة العباسية، وكان كفيف البصر: اختلفت إلى القاضى أحمد بن أبى دؤاد أربعين عامًا فما سمعته مرة يقول لغلامه عند تشييعى، خذ بيده يا غلام، بل يقول اخرج معه يا غلام.

فإن كنت تريد أن يسجل لك من الوفاء فى صفحات القلوب، ما سجل لأحمد بن أبى دؤاد فى صفحات التاريخ، فلا تطلق زوجك، ولا تنقم منها أمرًا قد خرج حكمه من يدها، وإن أبيت إلا أن تأخذ لنفسك حظها من لذائذ العيش، فاعلم أنه ما من لذة يتمتع بها الإنسان فى حياته إلا ويشوبها الكدر، أو يعقبها الألم، إلا لذة البر والإحسان.

خبايا الزوايا

جلس قاضى التحقيق ليلة أمس على كرسى قضائه، ووقف عن يمينه رجل من ذوى الأسنان[1] قذر «دميم» المنظر، تسنح شعراته البيض فى بادية رأسه ولحيته سنوح الشرر الأبيض فى الدخان الأسود، وتتمشى فى أديم

(١) جمع سن: وهو العمر.

وجهه غبرة قاتمة من رآها علم أنها نسيج دخـان الحشيشة، الذى ينفثه من فيه صباحـه ومساءه وغدوه ورواحـه، ووقف عن يساره صبية سـتة نحل الأبدان جـوع الأكـباد، لم يتـرك لهم الدهـر -آكل الناس وشـاربهم- إلا هيكلاً من العظم تلمع فى رأسه عينان جائلتان، لا يستقران فى محجريهما إلا إذا استقر الزئبق الرجراج فى قرار مكين.

نظر إليهم قاضى التحقيق نظرات تمازجهـا الرحمة، وتخالطها الشفقة، والقضاة لا يرحمون ولا يشفـقون، لولا أن من المناظر مناظر تستهوى القلوب القاسية، وتذيب الأفـئدة المتحجرة، وأنشأ يسألهم واحدًا فـواحدًا ما شأنهم؟ وما خطبهم؟ وما مصيرهم! فكان جوابهم جوابًا واحدًا خلاصته أن هذا النمر اللابس ملابس الإنسان رأى خلتهم[١] من حيث يخفى مكانهـا فثغر[٢] فيها ثغرة انحدر منها إلى أعراضهم، فبـعث بها ما شاء وشاء العابثون، فكانوا فى داره الضروع الـتى يحتلبـها، حتـى إذا استنفـد درتها[٣]. ألح على دمـائها فـاستنزفـها، ثم قـالوا إنه كان يديم مطـال الجوع فى بطونهم فـإذا علم أنهم هلكوا أو كـادوا طفق يعللهم باللقـمة بعـد اللقمـة، والمضغـة بعد المضـغة، ويرمقهم[٤] العيش ترميقًا لا إبـقاء عليهم، بل على ما يصل إلى يده من المال من طريقـهم، وزعمـوا أنه كان يريبـه منهم فى بعض الأحـيان تمردهم عليـه واحتـفاظهم بأعـراضهم من دونه فيـملأ أدمـغتهم بدخـان الحشـيشة ليـسرق عقولهم، ويحل عقدة إبائهم، ويتركهم لا يدرون ما يأتون وما يدعون.

وما وصلوا من شكـواهم إلى هذا الحد حتى سـقط منهم اثنان بين يدى القاضى فراعـه من أمرهم ما راعه، ثم علم أنه الجوع، فأمـر لهم بخبز وأدم فازدحمـوا عليه يتناهبونه ويزدردونه ازدراد الوحش فريسـته. وقد وقف ذلك الذئب المستـأنس ينظر إليهم نظرة شـزراء كتلك النظرة التى يرمى بهـا الصائد صيده إذا أفلت من حبالته.

---

(١) الخلة: الحاجة.

(٢) ثغر الشىء: ثلمه وفتحه.

(٣) الدرة: اللبن.

(٤) رمقه الشراب: أعطاه إياه حسوة حسوة.

بذلك حدثنى من رأى هذا المنظر بعينه، فارتعت لسماع حديثه الارتياع كله، وحسبت أنه يحدثنى عن حادثة وقعت فى مبدأ الخليقة فى مغارة من مغاور الجن أو شفعة[١] من شفعات الجبال، وقلت له: أتعلم أيها الرجل أنك تحدثنى عن إنسان؟ قال: لا تعجل فما حدثتك إلا عن رجل حمَّار لا يفارق وجهه صورة حماره ليله ونهاره، وربما سرت إليه تلك النتيجة من هذه المقدمة فكيف بك لو علمت أن هذه الرذيلة لا يترفع عنها فى هذا البلد كثير من الأتقياء والصالحين، والأشراف والمستورين؟

قلت: لا تحدثنى عن شىء، فلم يبق فى قلبى متسع، لاحتماله أكثر مما احتملت والأمر لله وحده.

ليست مسألة الزوايا وخباياها أمرًا يستهان به، أو تفضى العيون عليه فإننا نريد أن نعد لوطننا رجالاً ذوى شجاعة وإقدام، وعزة وأنفة، من الذين إذا عظم الخطب كانوا حماة الديار، وإذا اشتد البأس لا يولون الأدبار.

القمار

لا أستطيع أن أعتقد ما يسمونه الجنون الفرعى، ويريدون منه أن يكون الإنسان مجنونًا فى شأن واحد من شئونه، عاقلاً فى باقيها، وعندى أن الرجل إما أن يكون عاقلاً أو مجنونًا، ولا ثالث لهما.

العقل قوة يقتدر بها المرء على ضبط نفسه عن شهواتها، فموقفه أمامها موقف واحد، فإما أن يغلبها جميعًا أو تغلبه جميعها.

أما ما يراه الرائى أحيانًا من استهتار الرجل فى بعض الشهوات استهتاراً يستهلك نفسه وعقله، وزهده فى بعضها زهد الأعفاء القانعين، فذلك لأنه رغب فى الأولى فاسترسل وراء رغبته، ولم يدعه إلى الأخرى داع من شهوات قلبه ونزعات نفسه، ولو دعاه لخف إليه ولباه، ولن يسمى الرجل

---

(١) الشفعة: رأس الجبل.

زاهدًا أو عفيفًا إلا إذا أمسك نفسه من شهوة تدعوه إليها فيدفعها، وتثور ثائرتها بين جنبيه فيقمعها.

لا تقل أن السكير عاقل إن رأيته غير فاسق ولا عاهر، واعلم أنه يؤثر الفسق ولا تجذبه إليه جواذبه، ولو آثره لكان موقفه من المواخير موقفه من الحانات، ولا تقل أن الفاسق عاقل إن رأيته غير سارق ولا مختلس، فإنه لا يحب السرقة ولا الاختلاس، ولو أنه أحبهما لكان فى التسلل إلى أعماق الدور والقصور، أبرع منه فى التسلل إلى مكامن الفسق والفجور، ولا تقل أن المقامر إن رأيته لا شاربًا ولا فاسقًا، فإن القمار قد استهلك شهوته واستخلصها لنفسه، ولم يدع فيها فضلة لسواها، ولولا ذلك لكان أكبر السارقين، وأفسق الفاسقين.

ولو كنت من المصانعين، الذين يزخرفون لأرباب الرذائل رذائلهم حتى يصوروها فى نظرهم فضائل بما يلبسونها من أثواب التأويل ويصبغونها من ألوان التعليل، لما استطعت أن تصانع المقامر لأن حاله من الجهل الفاضح، والغباوة المستحكمة، أبعد الحالات عن عذر المعتذرين، وتأويل المتأولين.

ما جلس المقامر إلى مائدة القمار، إلا بعد أن استقر فى ذهنه أن الدرهم الذى فى يده سيتحول بعد هنيهة من الزمن إلى دينار، ويعود به إلى أهله فرحًا مغتبطًا، وأحسب أن العقول العشرة مجتمعة ومتفرقة، تعجز عن إدراك هذه العقيدة ومثارها.

إن كان يؤمل الربح لأنه يرى عن يمينه رجلاً قد ربح. فلم لا يخاف الخسران لأنه يرى عن يساره مائة خاسرين؟ وإن كان يضحكه منظر الربح لأنه يرى فى بعض مواقفه أحد الرابحين ضاحكًا، فلم لا يبكيه منظر أصدقائه ورفقائه الخاسرين وهم يتساقطون حواليه تساقط جنود المعركة تحت القذائف المنطلقة.

ما أشبه المقامر الذى يطلب من الدينار الواحد مائة دينار بالكيميائى الذى يطلب من القصدير فضة، ومن النحاس ذهبًا، كلاهما يتاجر بالأحلام

فى سوق الأوهام، فيربح ربحًا مقلوبًا ويكسب كسبًا معكوسًا، وما أشبههما جميعًا بذلك الرجل الذى علم أن فى صحراء من صحارى أواسط أفريقيا كنزًا دفينًا لا تعرف له بقعة معينة، وليس عليه دليل فحمل فأسه على كتفه ومشى فى تلك الصحراء يحفر الحفرة التى تستنفذ قوته وتستهلك منته.. وتبلغ من نفسه ما لا يبلغ كر الغداة ومر العشى.. حتى إذا بلغ قرارتها.. وعلم أنه لم يعثر بضالته.. تركها وبدأ يحفر غيرها بجانبها.. فلا يكون نصيبه من الأخرى أوفر من نصيبه من الأولى.. وهكذا.. حتى أدركه الموت، وهو فى بعض تلك الحفر.. فكان هو نفسه الكنز الدفين.. إلا أنه لا يطمع فيه طامع ولا يرغب فيه راغب.

إن كنت لم تسمع فى حياتك باجتماع النقيضين وتلاقى الضدين، فاعلم أن المقامر فى آن واحد أجشع الناس، وأزهد الناس، فلولا حبه المال لما هان عليه أن يبذل راحته وشرفه وسعادته وحياته فى سبيله! ولولا زهده فيه لما أقدم باختياره على تبديده على مائدة القمار لا لغاية يطلبها ولا لمأرب يسعى إليه.

أنا لا أريد أن أنصح للمقامر بترك القمار، لأنى أعتقد أن من يملك عقلاً مثل عقله، وفهمًا مثل فهمه، لا يستطيع أن يفهم كلمة مما أقول، ومن عجزت حوادث الدهر وعبر الأيام عن أن ترد عليه ضالة عقله وتهديه السبيل إلى نفسه لا تنفعه كلمة كاتب، ولا موعظة واعظ، وإنما أريد أن أقول للذين لم يقدر لهم أن يخطوا خطوة واحدة فى هذه الطريق الوعرة حتى اليوم: لا تقامروا جدًا ولا هزلاً، فإن هزل القمار يجر إلى جده، ولا تمروا بمعاهد القمار قصدًا ولا عفوًا، فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ولا تصاحبوا المقامرين بحال من الأحوال، فإنهم لا يرضون عنكم حتى تتخذوا ملتهم، فإن فعلتم خسرتم مالكم وشرفكم وعزتكم وكرامتكم من حيث لا تجدون من رحمة القلوب ورأفتها ما يعوِّض عليكم ما خسرتم، فارحموا أنفسكم إن كنتم راحمين، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين.

الأوصيــاء

مـرض فلان مـرض الموت فلم يحفل بالمـنية لأنه اقـتطف زهرة الحيـاة جميعها، ولأن الثمانين قد ألحت عليه بصبحها ومسائها، وليلها ونهارها، فلم تترك له خيطًا من خيوط الأمل، ولا شعاعًا من أشعة الرجاء لولا أن بين يديه ولدًا صغيـرًا فى السابعة من عمره قـد ماتت أمه منذ عهد قـريب. وللشيوخ الكبار إلى أبـنائهم الصغار حنين الإبـل إلى أعطانها، فنظر إليـه، وهو يحوم حول فراشه نظرة طويلة لم يسترجعها إلا مبللة بالدمع المنسجم، ثم زفر زفرة حرى خيل لرائيها أنها الزفرة الأخيرة، وأنشأ يقول:

أى بنى، من لى بقلب يرعاك مثل قلبى، وعين تسهر مثل عينى، وروح ترفرف فوق رأسى مثل روحى، ونفس تضم جوانحها عليك مثل نفسى؟

أى بنى، كأنى بركب الموت، وقد نزل بى، وحل بساحتى، وكأنى به، وقد احتملنى من فـضاء القصر إلى مضيق القبـر، ومن نور الحياة، إلى ظلمة الموت، وكـأنى بك، وقد طـفقت تنشـدنى فـلا تجدنى، وتـفتش فـلا ترانى ففزعت وارتعت، ثم صـرخت فصعقت، ولـم تجد بجـانبك من يمسح دمعك ويخفف حزنك.

من لى بصديق أثق بوده وإخـلاصه، ورحمته وحنانه، فـأكل إليه أمرك وأعتمـد عليه فى تأديبك وتخريجك، وإبلاغك ما أرجـو لك من السعادة فى مستقبل دهرك؟

فما أتم حتى دخل عليه صديقه الوحـيد الذى كان يأنس به ويستخلصه لنفســه، وقد سمع آخر نجـواه، فقال له: هوّن عليك يا مولاى فـأنا صديقك الذى تنشده، وأنا والد ولدك من بعدك، وخليفـتك بعد الله عليه؛ ثم تهافت على فراشــه وظل يبكى لبكائه، وينشج لنشيــجه، فاسـتنار قلب الرجل بنور الأمل وقال: أحمدك اللهم قد رحمت ولدى وحفظت بيتى.

وما هى إلا أيام قلائل حتى كتب الشيخ كتاب الوصية بيده، ثم أجاب دعوة ربه تاركًا فى يد ذلك الصديق الكريم مجده وشرفه، وماله وولده.

اتخذ الشيخ ذلك الرجل صديقًا له فى الأعوام الأخيرة من أعوام حياته بعد ما رآه يكثر الاختلاف إليه، ويطيل اللبث بجانبه، ويلازم الوقوف عند أمره ونهيه، ويخف لقضاء حاجاته ولباناته، ذلك إلى ما كان يراه متجملاً به من صلاح مملوء بالركعات والسجدات، والتسبيحات المتواليات وعفة حتى عن اللقمة يصيبها على مائدته.. وتورع حتى عن الجرعة يتجرعها فى حضرته.. فاستخلصه لنفسه.. وأنزل من قلبه المنزلة التى لا ينزل معه فيها غير ولده.. وأصبح آثر الناس عنه حتى ما يستطيع فراقه لحظة، ولا يصبر عنه ساعة، إلى أن أحس باقتراب الأجل، فأوصاه بما أوصى، وعهد إليه بما عهد.

هذا هو تاريخ ذلك الصديق فى حياة الشيخ، أما تاريخه بعد مماته فأسمعك منه ما تهوى له الأفلاك عجبًا، وتخر له الجبال هدًا.

لم تكن صلاته إلا رياء ونفاقًا، وركوعه وسجوده إلا كيدًا ومداهنة، وعفته وزهادته إلا حبالة نصبها ليعلق بها عقل الشيخ، وقد علق، فيسلبه ماله وولده، وقد فعل، وما كان اختلافه إليه، ولا تردده عليه إلا طمعًا فى هذا المصير الذى صار إليه، فلما علم أن قد تم له من أمره ما أراد، أطلق يده فى مال الصغير يعبث به عبث النكباء بالعود، ويبتاع به لنفسه ما شاء أن يبتاع من قصور ودور وبساتين وضياع، فنبه ذكره بعد ما كان خاملاً، ونبت ريشه بعد ما كان عاريًا، وأصبح صاحب السلطان المطلق فى ذلك القصر يذل من يشاء ويعز من يشاء.

أما شأنه مع الولد فقد علم أنه سيبلغ عما قليل أشده، ويملك رشده وأنه سيقطع عليه لذته، ويقف له موقف المعترض سبيله، ويحاسبه على القليل والكثير والصغير والكبير، فلم ير بدًا من أن يعد لذلك اليوم عدته فعمد إلى الولد فقطعه عن المدرسة لأنه لا يحب أن ينشأ متعلمًا، ثم أغرى به من ساقه إلى مواطن الفسق ومجامع الفجور، لأنه لا يحب أن ينشأ عاقلاً، وما زال ينفق عليه وعلى الموكلين بإفساده من وراء حجاب حتى علق الشراب

برأسه علوق السلال بالصدور، فأصبح بين الحانات والمواخير، كالطائر بين الأغصان لا يرسل الساق إلا ممسكًا ساقًا.

فكأنما وكل بعقله مقراضًا يبضع له فى كل يوم منه بضعة حتى كاد يأتى عليه، فما بلغ السن التى يرشد فيها القاصرون حتى استحال الوصى على القاصر قيمًا على المعتوه، ولم يبذل فى سبيل الوصول إلى ذلك أكثر من لقيمات ألقاها من فتات تلك المائدة إلى أعضاء المجلس الحسبى، فأدخلوه تلك الجنة الزاهرة بغير حساب.

شرع الله شريعة الحجر على السفهاء والمعتوهين، وإقامة القوّام عليهم، رحمة بهم، فاستحالت على يد المجالس الحسبية نقمة عليهم وأصبح اللص الذى يجهل صناعة فتح الأقفال ويتقى مغبة تسلق الجدران، قادرًا على أن يسرق ما يشاء تحت راية هذه الشريعة المقلوبة من حيث يأمن على نفسه الوقوف أمام محكمة الجنايات، وجر الأغلال الثقال فى غيابات السجون. وانتقلت الثروات العظيمة من أيدى أصحابها مخافة أن يسرفوا فيها إلى أيدى آخرين يبددونها تبديدًا، ويمزقون أديمها تمزيقًا، من حيث لا يكون بينهم وبين المورث صلة نسب، أو وشيجة رحم، حتى أصبح السعى إلى جمع المال وادخاره للوارثين فى هذا العصر عملاً من الأعمال الباطلة، وضربًا من ضروب الخرق الواضح، والجهل الفاضح، فمن لى إن أنا دبرت المال وجمعته أن لا يكون خليفتى عليه من بعدى لصًا من أولئك اللصوص الذين تمنحهم المجالس الحسبية، ما تمنعهم الشرائع الإلهية؟ ومن لى أن أعيش إلى أن أدرك ولدى فأتولى أمر تربيته بنفسى قبل أن يظفر به فى حداثته ظفر جارح من أظفار أولئك الأوصياء فيميت نفسه، ويقتل عقله.. ويفسد عليه حياته، ويلبسه من الفضيحة والعار ما يقلق نفسى فى عالمها، ويزعج عظامى فى مرقدها.

فلقد حدثنى من قص علىَّ تلك القصة أن ذلك الوصى لما علم أن قد تم له من الحجر على ذلك الغلام ما أراد، عمد إلى تزويجه من فتاة حسناء من بنات الأشراف ما كان يعنيه أن يزوجه منها لولا أن له فى ذلك مأربًا من

المآرب الفاسدة، فإنهـا ما كادت تخلع ثوب عرسها حتى أنشـأ يختلف إليها، ويكثر ازديارها فى الجناح الذى تسكنه من القصر، بما لـه على زوجها وعليها من حق الولاية والرعـاية وبحجـة النظر فى شؤونهـا ومرافـقهـا، ثم ما زال يختلها عن نفسـها ويزين لها ما يزينه الشيطان للإنسان حـتى علقت بحبالته، كما علق بها غيرها من قبلها فكرهت زوجها، وبرمت به، فرابه من أمرها ما رابه، فرصدها ليلة من الليالى حتى عـرف سرهما وموضع هواها، فشكا فلم يجد سامعًا، ثم بكى فلم يجد راحمًا، فكان يقـضى كثيراً من لياليه فى غرفة من غرف القصر واجمًا مطرقًا مسلمًـا رأسه إلى ركبتيه، ودمعه إلى خديه، لا سميـر له ولا مؤنس إلا رنات الضحكات التى تنهل عليه من مـخدع زوجه، فكان يثب تارة وثبة الأسـد فيثـير فى القصر ثائرة شـعواء تضج لها جـوانبه، فيتسارع إليـه الخدم فيضربون على يده وفمه، وأُخرى يعـود إليه بلهه وخبله، فينظر إلى هذه المناظر المؤلمة نظر الضاحك اللاعب.

مرت على تلك الحوادث سنوات استـأثر فيها ذلك الوصى بتلك الدائرة الواسعة وألح عليها بكلكله، حـتى اجتز وبرها، ثم استكشط جلدها فلم يبق منها إلا هيكل عظمى قـائم، فلما علم أن قد قامت قيـامة الناس عليه، وأن قصته مع الغلام وزوجته قد ملأت مـسمع الخافقين، وأن نجمه الثاقب قد مال إلى الأفول، عمد إلى حيلة شيطانية ختم بها تلك الرواية الغريبة بهذا الفصل المحزن الأليم.

تفتح للغلام بعد انقباضه، وابتسم إليـه بعد تقطيبه، وابتاع له جميع ما اقترحه عليه من ثوب فاخـر، ومركب فاره، ومزاهر وعيدان وكؤوس ودنان، ثم خلا به فى ساعة من ساعات نشوته وارتياحه فقال له: أيها الصديق قد آن أوان استـقلالك بشأنك وانفـرادك بأمرك، فاكـتب إلى المجلس الحسبى رقـعة تطلب فيـها رفع الحـجر عنك، واكتب توقـيعك على هذه «المخـالصة» براءة لذمتى؛ فاستطير الغلام فـرحًا وسروراً، وما لبث أن كتب الأولى ووقع على الأخرى، ثم أوعظ إلـى المجلس الحسبى بـتلبية طلـبه، فلباه، وقـضى برفع الحجر عنه، فاستقبل تلك النعمة استقبال الظامئ كأس الشراب، وكان لابد له

من أن يشرب حتى يشم، ففتش بين يديه عن مال ينفقه فلم يجد، وكان الرجل قد وكل به عونًا من أعوانه يداخله ويتحين فرصة حاجته إلى المال فيمنحه ما يريد، فكان يعطيه المال باليمين، ويأخذ منه صك البيع باليسار، وما زال هذا يعطى وذاك يأخذ حتى أصبح نصف «الدائرة» بعد عامين ملكًا لعون الوصى وللوصى غدًا بثمن لا يساوى عشر معشارها، بل بغير ثمن، وهل ابتاعها مبتاعها إلا بمالها، وأنفق عليها إلا ثمرتها؟

هنالك قام الوصى وقعد، ونادى فى الناس بصوت يشبه صوت الحق ونغمة تشاكل نغمة الصدق: أيها الناس قد كنت أنذرتكم بمصير هذا الغلام أن صار أمره إلى نفسه، فكذبتم قولى، وسفهتم رأيى، وما زلتم تقولون وتتقوَّلون حتى أحرجتم صدرى، ودفعتمونى إلى الغدر بذلك العهد الذى أخذه علىَّ ذلك الصديق الكريم أن أتولى شأن ولده من بعده، ولا أتخلى ساعة واحدة عن رعايته وتعهده، فكان ما كان مما تعلمون من تبديد ثروته وتمزيقها، فها أنتم ترون بأعينكم شؤم رأيكم وجريرة سعيكم.

ثم أعاد كرته على الغلام وسعى سعيه فى المجلس الحسبى فأعاد سيرته الأولى ووضع فى عنقه غلا لا فكاك له من بعده، إلى يوم يبعثون.

ليت شعرى، هل يعلم ذلك المقبور فى لحده ما صنعت يد الحدثان بماله وولده، وأن المال قد ورثه غير وارثه، واستأثر به غير صاحبه؟ وأن ولده قد أصبح ذلك الملك الكبير، والجنة والحرير، يطلب المضغة فتعوزه، والجرعة فتلتوى عليه؟ وأنه يبيت الليالى ذوات العدد مطرحًا فى زوايا الحانات، لا وطاء غير أديم التراب، ولا غطاء غير قطع السحاب؟ وهل أعد عدته للوقوف بين يدى الله تعالى فى ذلك اليوم المشهود؟ يوم تكشف الهنات، وتفضح العورات.. فيمسك ولده بيمناه ووصيه بيسراه، ثم يناجى ربه ويقول:

اللهم أعدنى على هذا الكاذب الذى ختلنى وخدعنى وخفر ذمتى وخاس بعهدى وخان أمانتى، وأفسد وصيتى، وخذ لولدى بحقه من هذا الظالم الذى سرق ماله، وهتك عرضه، وعذب نفسه، ونغص عيشه. فأنت أعدل الحاكمين وأرحم الراحمين.

العام الجديد

فى مثل هذا اليوم من كل عام يقف ركب العالم السائر بمنزلة من منازل الحياة، فينزل عن مطاياه ليستريح فيها ساعة من وعثاء السفر بعد أن نال منه الأين والكلال، وأضناه سرى الليل وسير النهار، ثلاثمائة وخمسة وستين يومًا.

هنالك يجتمع السفر(١) فى صعيد واحد فيتعارفون ويتصافحون، ويتفقد بعضهم بعضًا، فيجدون أن فلانًا مات جوعًا، وفلانًا مات ظمأ، وآخر افترسه سبع، وآخر قتله لص، وآخر مات غيلة، وآخر سقط عيًّا وآخر طارت به قنبلة، وآخر هوت به طيارة، وآخر اجتاحه بركان، وآخر تردى عليه معدن يعودون إلى جرائد الإحصاء فيدوِّنون فيها حاضرهم، كما دونوا ماضيهم، ثم يوازنون بين هذا وذلك فيجدون أن الحاضر شر، وأن ميادين الحروب لا تزال ملوثة بالدماء، ومصانع الموت لا تزال تفتن فى عدده وتستكثر من أدواته، وأن جذور الشر القديمة لا تزال ناشبة بنفوس البشر، حتى ما يتمنى أحد أن تقع عينه على أحد وأن سحب البغضاء القاتمة لا تزال مخيمة على المجتمع الإنسانى من أدناه إلى أقصاه شعوبًا وقبائل وأجناسًا وأنواعًا، ومذاهب وأديانًا، ومنازل وأوطانًا، فيبغض الرجل صاحبه لأنه يخالفه فى جنسه، فإن عرف أنه يوافقه أبغضه لأنه يخالفه فى دينه، فإن وافقه فيه أبغضه لأنه ينطق بغير لغته فإن نطق بها أبغضه لأنه لا يشاركه فى وطنه فإن كان مشاركًا له أبغضه لأنه يزاحمه فى حرفته فإن بعد عن طريق مزاحمته أبغضه لأنه يخالفه فى رأيه، فإن لم يخالفه أبغضه لأنه لا يحاكيه فى لونه، فإن لم يجد شيئًا من هذا ولا ذاك أبغضه لأنه شخص سواه! كأن قضاء حتمًا على الإنسان أن يبغض كل صورة غير الصورة التى يراها كل يوم فى مرآته.

---

(١) السفر: المسافرون.

فإذا فرغوا من النظر فى جرائد حسابهم، والموازنة بين حاضرهم وماضيهم، أضافوا إلى سيئاتهم الماضية سيئة الغش والكذب، فتناسوا كل هذا ووضع كل منهم يده فى يد أخيه مهنئًا له بالعيد السعيد داعيًا له بدوام الغبطة والهناءة، ثم تنادوا للرحيل ليستقبلوا المرحلة الآتية بعد قطع المرحلة الماضية.

علام يهنئ الناس بعضهم بعضًا؟ وماذا لقوا من الدنيا فحرصوا على البقاء فيها؟ ويغتبطوا المراحل التى يقطعونها منها؟ وهل يوجد بينهم شخص واحد يستطيع أن يزعم أنه أصبح سعيدًا كما أمسى؟ أو أمسى سعيدًا كما أصبح؟ أو أنه رأى بروق السعادة قد لمع فى إحدى لياليه ولم ير بجانبه ما يرى فى الليلة البارقة من رعود قاصفة، ورياح عاصفة، وصواعق محرقة، وشهب متطايرة؟

بأية نعمة من النعم، أو صنيعة من الصنائع، تمن يد الحياة على إنسان لا يفلت من ظلمة الرحم إلا إلى ظلمة العيش، ولا يفلت من ظلمة العيش إلا إلى ظلمة القبر، كأنما هو يونس، الذى التقمه الحوت فمشى فى ظلمات بعضها فوق بعض! وأية يد من الأيادى أسدتها الأيام إلى رجل يظل فيها من مهده إلى لحده حائرًا مضطربًا، يفتش عن ساعة راحة وسلام تهدأ فيها نفسه، ويثلج صدره، فلا يعرف لها مذهبًا ولا يجد إليها سبيلاً، إن كان غنيًا اجتمعت حوله القلوب الضاغنة، واصطلحت عليه الأيدى الناهبة، فإما قتلته، وإما أفقرته، وإن كان فقيرًا عد الناس فقره ذنبًا جنته يداه، فتتناوله الأكف بالصفع والأرجل بالركل والألسن بالقذف، حتى يموت الموتة الكبرى بعد أن مات الموتة الصغرى، وإن كان عالمًا ولع الحاسدون بذمه وهجوه، وتفننوا فى تشويه سمعته، وتسويد صحيفته ولا يزالون به حتى يعطيهم العهود والمواثيق التى يرضونها أن يعيش عالمًا كجاهل وحيًا كميت، وأن يكتم علمه فى صدره، فلا يفضى به إلى لسان ولا قلم، حتى يدركه الموت، وإن كان جاهلاً اتخذه العالمون مطية يركبونها إلى مقاصدهم وأغراضهم من حيث لا يهادنونها ولا يرفقون بها حتى يعقروها. وإن كان بخيلاء ازدرته القلوب،

واقتحمته العيون وتقلصت له الشفاه، وبرزت له الأنياب، وانقبضت له الأسرة، والتهبت له الأنظار، وأرسلت إليه الأغصان ألسنة نيرانها حتى تحرقه، وإن كان كريمًا محسنًا عاش مترقبًا فى كل ساعة من ساعات ليله ونهاره شر الذين أحسن إليهم إما لأنه أذاقهم جرعة باردة فاستعذبوها فاستزادوه فلم يفعل، فهم ينتقمون منه، أو لأنهم من أصحاب النفوس الشريرة الذين يخيل إليهم أن المحسن يريد أن يبتاع منهم نفسه بما يسدى، وهم يأبون إلا أن يتناولوا منه الإحسان بلا مقابل فهم ينقمون عليه إن عرف كيف يفلت من أيديهم.

لا سعادة فى الحياة إلا إذا نشر السلام أجنحته البيضاء على هذا المجتمع البشرى، ولن ينتشر السلام إلا إذا هدأت أطماع النفوس، واستقرت فيها ملكة العدل والإنصاف، فعرف كل ذى حق حقه، وقنع كل بما فى يده عما فى يد غيره، فلا يحسد فقير غنيًّا، ولا عاجز قادرًا، ولا محدود محدودًا، ولا جاهل عالمًا، وأشعرت القلوب الرحمة والحنان على البائسين والمنكوبين فلا يهلك جائع بين الطاعمين ولا عار بين الكاسين، وامتلأت النفوس عزة وشرفًا، فلا يبقى شىء من تلك الحبائل المنصوبة لاغتيال أموال الناس باسم الدين مرة والإنسانية أُخرى، ولا ترى طبيبًا يدعى علم ما لم يعلم ليسلب المريض روحه وماله، ولا محاميًا يخدع موكله عن قضيته ليسلب منه فوق ما سلب منه خصمه، ولا تاجرًا يشترى بعشرة ويبيع بمائة، ثم ينكر بعد ذلك أنه لص خبيث، وكاتبًا يضرب الناس بعضهم ببعض حتى تسيل دماؤهم فيمتصها كما يضرب القادح الزند ليظفر بالشرر المتطاير منهما.

وما دامت هذه المطالب أحلامًا كاذبة وأمانى باطلة، فلا مطمع فى سلام ولا أمان، ولا أمل فى سعادة ولا هناءة، ولا فرق بين أمس الدهر ويومه ولا بين يومه وغده، ولا فرق بين مغفلات أيامه غير ما عرفت وما ذاق أحد من نغماته غير ما ذقت، وليفرح بالعام الجديد من حمد ما مضى من أيامه وسالف أعوامه.

سحر البيان

رأيت فى إحدى روايات شكسبير، وهى الرواية المعروفة برواية «يوليوس قيصر» موقفًا لبطلين من أبطال الفصاحة، وفارسين من فرسان البيان. وقد وقف كل منهما من صاحبه موقف اللاعب من اللاعب، ووقف الشعب الرومانى بينهما موقف الكرة من أقدام اللاعبين.. تعلو بها حينًا وتسفل أحيانًا، فلا تثبت صاعدة ولا تستقر هابطة، فعلمت أن العامة عامة فى كل عصر، والشعب شعب فى كل مصر. وأن سواد الأمة تحت صرح فرعون مثله تحت عرش قيصر، وأن رأس التاريخ اليسوعى، مثله فى ذنب التاريخ المحمدى، تدنو به كلمة، وتنأى به أُخرى، وتجذبه دمعة وتدفعه ابتسامة، وتطير بلبه الشعريات والخيالات طيران الريح الهوجاء بذرات الهباء.

علم بروتس الشريف الرومانى أن يوليوس قيصر قد استعبد الشعب الرومانى وأذل نفسه ذلاً.. ملك عليه حواسه ومشاعره حتى ما يكاد يشعر بمرارته، وكذلك الذل إذا نزل بالنفوس سلبها كل شىء حتى الشعور بنزوله فيها، وعلم أن حياة ذلك الشعب بموت ذلك القيصر.. فهان عليه أن يقتل صديقه وسيده، افتداء لامته ووطنه، فطعنه طعنة نجلاء، سلبته نفسه فى لحظة واحدة، فهاج الشعب الرومانى على القاتل وأعوانه، هياج الأمواج الثائرة على السفن الماخرة، فوقف الرجل خطيبًا أمام ذلك الشعب الهائج المحتدم وقفة المستبسل المستميت، وكان لابد له فى هذا الموقف من أحد المصيرين، إما نصر يعلو به إلى مدارك الأملاك، أو خذلان يهوى به إلى مقر الأسماك، ومن أحد المخرجين: إما مخرجه مرفوعًا على محفة الأبطال، أو محمولاً على أعناق الرجال، فبعد لأى ما استطاع بعض الزعماء أن يسكن ثائرة الثائرين ويستدرجهم إلى سماع دفاع القاتل عن نفسه، أو التفكه بمنظره المضحك، وهو يتلمس فى هذه الظلمة الحالكة المخرج من جريمته.

الخطبة

بروتس (وهو على منبر الخطابة): أيها الرومانيون، أتعدوننى بالصبر قليلاً على سماع ما أقول من حلو الكلام ومره، إكرامًا لموقفى وإكرامًا للعدل؟

أنا لا أريد أن أخدعكم، ولا أعبث بعقولكم وأهوائكم بل أُريد منكم أن تنظروا إلى قضيتى نظر الحذر المتيقظ الذى لا يعطى هوادة ولا يلقى قيادًا لأنى لا أعتقد أن فى زاوية من زواياها كمينًا أخاف أن تقع عليه العيون.

أيها الرومانيون، إن كان بينكم صديق لـ «قيصر» يحبه ويذوب حزنًا عليه فليسمح لى أن أقول له: أيها الصديق الكريم، إن بروتس قاتل قيصر كان يحبه أكثر منك.

أيها القوم: والله لو كذبت الناس جميعًا ما كذبتكم، فاعلموا أنى ما قتلت قيصر لأنى كنت أبغضه، بل لأنى كنت أحب روما أكثر منه. كان قيصر طماعًا فقتلته، ففى ساعة واحدة منحته دمعى وقلبى وخنجرى.

أنا لا أصدق أن بينكم من يحزن لموت قيصر، فأنتم رومانيون، والرومانى لا يحب أن يعيش ذليلاً.

من منكم يكره أن يكون رومانيًّا؟ من منكم يكره أن يكون حرًّا؟ من منكم يحتقر نفسه؟ من منكم يزدرى مصلحة وطنه؟ إن كان بينكم واحد من هؤلاء فليتكلم، لأنه هو الذى يحق له أن يثأر لنفسه منى، لأنى لم أسىء إلى أحد سواه.

الشعب - لا، لا، ليس فينا واحد من هؤلاء.

بروتس - إذن أنا لم أسىء إلى أحد منكم.

وهنا دخل أنطونيوس صديق قيصر ورأس الناقمين على قتلته والمطالبين بثأره هو وآخرون يحملون على أيديهم جثة قيصر لتأبينه فى هذا المجمع الحاشد فاستأنف بروتس الكلام وقال:

ها هى جثة قيصر، وها هو صديقه أنطونيوس جاء ليأبنه فاستمعوا له واعلموا أن قيصر المذنب غير قيصر الماجد، وقد سمعتم ما قيل عن الأول فاسمعوا ما يقال عن الثانى، واسمحوا لى أن أقول كلمة أختتم بها خطابى.

أيها الرومانيون: إن الخنجر الذى ذبحت به قيصر فى سبيل روما لا يزال باقيًا عندى لذبح بروتس فى سبيل قيصر إذا أرادت روما ذلك.

تأثير الخطبة

الشعب - ليحيى بروتس.

أحد الناس - أنا اقترح أن نحمله على الأكف إلى منزله.

آخر - انصبوا له تمثالاً.

آخر - امنحوه عرش قيصر.

آخر - إنه أفضل من قيصر.

آخر - إن قيصر كان ظالمًا.

آخر - إنه كان الظلم بعينه.

آخر - لتهنأ روما بالخلاص منه.

آخر - ألا نسمع تأبين أنطونيوس؟

آخر - نعم نسمعه لأن بروتس أمر بذلك.

وهنا نزل بروتس والقلوب طائرة حوله، والعيون حائمة عليه. ثم وقف على أثره أنطونيوس فرمقه الشعب بين الغضب والحقد. . ولولا إشارة من بروتس ما استطاع أن يثبت فى موقفه لحظة واحدة، ثم أخذ يتلو كلمة التأبين المشهورة التى هى آية الآيات فى اللغة الإنكليزية فصاحة وبيانًا.

القصيدة

أنطونيوس - أيها الرومانيون. . .

أحد الناس - اسمعوا ما يقول أنطونيوس.

آخر - لا . . لا نسمعه.

أنطونيوس - اسمعونى إكرامًا لبروتس.

أحد الناس - ماذا يقول هذا الرجل عن بروتس؟

آخر - لا يقول شيئًا.

آخر - إذن نسمعه.

أنطونيوس - أيها الأصدقاء، إننى ما جئت هنا الساعة لأرثى قيصر بل لأدفن جثته.

أيها القوم: ما من أحد من الناس إلا وله فى حياته أعمال حسنة وأخرى سيئة.

أما حسناته فتموت بموته، وأما سيئاته فتبقى من بعده إلى يوم يبعثون.

كذلك كان قيصر فى حياته ومماته. وكذلك كانت سيئاته.

أيها القوم: ما كنت لأستطيع أن أقف موقفى هذا بينكم ولا أن أقول كلمة مما أريد أن أقول لولا أن بروتس قاتل قيصر أمرنى بالوقوف وأمرنى بالكلام، وها أنتم أولاء ترون أننى قد أطعته، وأذعنت له لأنه رجل شريف.

أيها القوم: يقول الشريف بروتس أن قيصر كان رجلاً طماعًا، وأنا لا أستطيع أن أخالفه فيما يقول، لأنه رجل صادق لا يكذب.

أنا لا أستطيع أن أقول أن قيصر كان رجلاً قانعًا معتدلاً، لأن الشريف بروتس يقول غير هذا.

كل ما أستطيع أن أقوله أن الفدية التى افتدى بها أعداؤنا أسراهم الذين جاء بهم إلى روما قد ملأت الخزانة العامة حتى فاضت بها.

كل ما أستطيع أن أقوله أنى رأيت قيصر بعينى يبكى لبكاء الفقراء ويحزن لحزنهم، ويبيت الليالى ذوات العدد ساهراً لا يغمض له جفن حدبًا بهم، وعطفًا عليهم.

كل ما أستطيع أن أقوله أنى عرضت بنفسى تاج الملك على قيصر فى «لوبر كال» عدة مرات فأباه زهدًا فيه، وتعففًا عنه.

كنت أستطيع أن أقول إن الطمع لا يسكن قلبًا مثل هذا القلب ولا يخالط فؤادًا مثل هذا الفؤاد، لولا أن بروتس يقول أن قيصر رجل وأنا لا أستطيع مخالفته، لأنه رجل شريف.

إن لم تبكوه لصفاته الكريمة، فابكوه لأنكم كنتم تحبونه، ابكوه لأنه كان بالأمس ينطق بالكلمة فتدوى فى صدور العظماء دوى الرعد فى آفاق السماء، فأصبح اليوم مطرحًا مهينًا فى ظل هذا الحائط، ولا يجد بين الناس من يأبه له، ولا من يعطف عليه.

أيها العقل الإنسانى: كيف حالت حالك، وتغيرت آيك؟ وكيف انتقلت من الصدور الإنسية، إلى الصدور الوحشية، وكيف ضللت سبيلك، وعميت عليك مذاهبك، فحسبت الخير شرًا، والشر خيرًا واختلط عليك الأمر، فلم تستطع أن تميز بين الحسنات والسيئات والمكارم والجرائم.

أيها الرومانيون: عفوًا إن هذيت بينكم، أو أسأت إليكم، واعلموا أن الحزن قد قسم فؤادى قسمين: قسم على هذا المنبر، وقسم فى ذلك النعش.

أيها الأصدقاء: إن بين جنبى قلبًا يخفق بحبكم والعطف عليكم والرأفة بكم ولولا مخافة أن تنفجر صدوركم حزنًا وجزعًا لقلت لكم: إن قيصر قتل مظلومًا.

إننى أعتقد أن بروتس ورفاقه قوم شرفاء عظماء، لذلك أحب أن أسىء إلى نفسى وإلى قيصر وإليكم قبل أن أقول أنهم أخطأوا فى قتل قيصر.

«وهنا صمت أنطونيوس وأرسل من جفنيه بضع قطرات من الدموع».

الانقلاب

أحد الناس (يقول لصاحبه) - يلوح لى أن فيما يقول الرجل شيئًا معقولاً.

آخر – إنك إن أنعمت النظر وجدت أن قيصر قد أسىء إليه.

آخر – لقد أثر فى نفسى زهده فى تاج الملك.

آخر – لقد أحزننى عليه أنه كان يبكى رحمة بالفقراء.

آخر – إن الذى يرثى لبؤس البؤساء لا يكون طماعًا ولا ظالمًا.

آخر – إذًا فسيكون لمقتل قيصر شأن غير الشأن الأول.

آخر – لابد من عقاب القاتل.

آخر – (يقول لجليسه) انظر إلى أنطونيوس فهو يبكى وينتحب.

آخر – ليس فى رومة رجل أشرف من أنطونيوس.

أنطونيوس – أتأذنون لى أن أفارق موقفى هذا لحظة، لأقف قليلاً بجانب جثة القتيل؟

الشعب – نعم. . . نعم.

(فنزل أنطونيوس ومشى حتى وصل إلى جثة قيصر، وهو لا يزال فى ملابسه التى قتل فيها، ولا تزال طعنات الخناجر ظاهرة فى قبائه) ثم قال:

أنطونيوس – من كان يملك منكم دموعًا فليعدها لهذا الموقف العظيم، فإنه موقف يحتاج إلى كل ما فى عيونكم من دموع.

إنكم تعرفون جميعًا هذا القباء، ولكنكم لا تعرفون من تاريخه شيئًا، أنا أعلم أن قيصر لبسه أول ما لبسه فى مساء اليوم الذى انتصر فيه على «الدفى» ذلك الانتصار العظيم الذى نالت به روما فخر الأبد.

(ثم وضع يده على أحد الثقوب التى فى القباء وقال: فى هذا القباء الشريف مزقت جثة هذا الفاتح العظيم).

ومن هذا الثقب مرًّ خنجر بروتس إلى صدر قيصر. ومن هذا الثقب أطل دم قيصر ليرى بعينه وجه الضارب، وأحسب أن جميع أفراد النوع الإنسانى قد مرُّوا بخاطر قيصر واحدًا واحدًا قبل أن يمر بخاطره صديقه: «بروتس».

عرف قيصر أن قاتله هو صديقه، وصنيعة إحسانه، ففترت همته،

وعجـز عن المقاومة، لأن الطعنة التى أصـابته فى جسـمه، لم تكن بأقل من الطعنة التى أصابته فى قلبـه، ولم يكن منظر المدى والخناجر، أبشع فى نظره من منظر الخيانة والغـدر، هنالك عجز قيصـر عن أن يقول شيئًا غـير الكلمة التى ودع بها قاتله الوداع الأخير:

«وأنت أيضًا يا بروتس؟»

وهنالك تحت تمثال «بومبـاى» وجد قيصر قـتيلاً وقد لف وجهـه بقبائه حتى لا تتألم نفسه مرة ثانية بمنظر كفر النعمة ونكران الجميل.

ها أنتم تبكون على قـيصر، فشكرًا لكم علـى هذه الدموع الكريمة التى طهرتم بها ما لوَّثت به يد الظلم تربة هذه الأرض من الدماء.

إنكم تبكون لمنظر قبـاء قيصر الممزق، فكيف بـكم لو شاهدتم ما تمزق من جثته؟.

(ثم دنا وكشف القباء عن جسمه، وقال:

إن فى كل جرح من هذه الجروح لسانًا يشكو إليكم، فاسـتمعوا له فهو أنطق من لسان الرثاء).

أحد الناس - يا له من منظر فظيع!

آخر - وارحمتاه لقيصر!

آخر - إن يومًا يقتل فيه قيصر ليوم شره مستطير!

آخر - يا للدناءة والسفالة!!

آخر - يا للغدر والخيانة!!

آخر - الانتقام.. الانتقام.

الشعب (وهو يضج ضـجيجًـا عظيمًا) - حـرِّقوا القتلة، مـزقوهم، لا تبقوا على أحد منهم.

أنطونيوس - مهـلاً. مهلاً. أنا لا أريد أن أشعل بينكم فتنة عـمياء ولا

أريد أن تطالبوا القتلة بالدماء التى أراقوها، فإننى لا أزال أعتقد أنهم قوم شرفاء وربما كانوا يعرفون أسبابًا لقتله لا نعرفها، وإنما أريد أن أقول لكم: إن قيصر كان يحبكم حبًّا جمًّا فهو يستحق رثاءكم له وبكاءكم عليه.

لولا أنى أؤثر البقاء عليكم، ولولا أنى أحب تخفيف ما ألم بقلوبكم من الحزن على فقيدكم، لتلوت عليكم وصيته، لتعلموا أن الرجل كان يحبكم وأنه ما كان خليقًا أن يقتل بينكم، وفيكم عين تطرف وعرق ينبض.

الشعب- اقرأ الوصية.

أنطونيوس - إنى أخاف على صدوركم أن تنشق حزنًا على القتيل الشهيد.

الشعب - نريد سماع الوصية.

أنطونيوس - إنه يعطى كل فرد من أفراد الشعب الرومانى خمسة وسبعين فرنكًا، ويوصى بجميع غاباته ومنتزهاته للأمة.

أحد الناس - يا له من رجل كريم!

آخر - يا له من رجل شريف!

آخر - ويل للقتلة!

آخر - الثورة.. الثورة.

آخر - سنحرق منزل بروتس.

ثم خرج الشعب يتدفق فى شوارع روما تدفق الأمواج الثائرة فى القاموس المحيط.

أنطونيوس (فى موقفه وحده) - أيتها الفتنة العمياء قد أيقظتك من مرقدك فارفعى رأسك وامضى فى سبيلك، واشتعلى حتى يحرق لسانك أديم السماء ووجه الغبراء.

وهكذا استطاع أنطونيوس فى موقف واحد أن يستعبد الشعب الرومانى لنفسه قبل أن يفيق من استعباد قيصر له وكذلك الأمم الضعيفة الجاهلة لا مفر لها من إحدى العبوديتين: إما العبودية لحملة التيجان، أو لحملة البيان.

الكبريـــاء

حضرة السيد الفاضل:

لى فى البلدة التى أسكنها كرامة الحاكم، لأنى أشغل وظيفة عالية فيها، وقد بدا لى أن أختلف إلى المسجد لصلاة الجمعة، فاختلفت حتى فاجأنى يومًا من الأيام ما لم يكن فى الحسبان.

حدث أن صعلوكًا يعرفنى، ويعرف مقامى، تمادى فى وقاحته وسوء أدبه، حتى وقف بجانبى فى الصلاة، فاشمأزت نفسى من هذا الأمر اشمئزازًا عظيمًا، وحاولت أحتمله فلم أستطع، فخفت إن أنا طردته أن يؤاخذنى الناس به، فهل تعرف مسوِّغًا شرعيًا يفرِّق بين درجات الناس فى مواقف الصلوات؟

«سائل»

يا مولانا الحاكم:

رحماك بهذا الصعلوك المسكين الواقف بجانبك، لا تضن عليه بمذقة من ظلك الظليل أن تمتد إليه فتقيه أشعة التصعلك الحارة التى يتلظى فيها، ولا تحرمه نفحة من نفحاتك العطرة التى تهب من بين أردانك عله يجد فيها روح الحياة، ويتنسم منها نسيم السعادة والهناءة، فيهدأ ساعة من الزمان عن الشعور بمصائبه ورزاياه، وأحسن كما أحسن الله إليك، إن الله يحب المحسنين.

ليفرخ روعك وليثلج صدرك، واعلم أن هذا المسكين الواقف بجانبك لا يستطيع مهما نال منه العدم، وبرح به الشقاء، أن يقتطع قطعة من سعادتك أو يفتلذ فلذة من شرفك، فشرفك كالمصباح تستمد منه المصابيح، ونوره نوره، وبهاؤه بهاؤه.

لا تظلم الرجل ولا تقل إنه وقح الوجه، أو سيء الأدب، فإنى -بما

أعلم من أخلاق هؤلاء البائسين وطباعهم، وآمالهم التى تعتلج بها صدورهم وتهتف بها أحلامهم- أعتقد أنه ما وقف بجانبك إلا طمعًا فى دورة الفلك التى علت بك، وأنزلتك منازل العظماء، أن تدور به كذلك فتنزل منزلتك، وتعلو به إلى مقامك، فاغفر له جهله وقصوره، فمثلك من يقيل العثرة ويستر الزلة.

إنك تريد منى أن ألتمس لك من أبواب الشريعة الإسلامية بابًا يسوغ لك طرد هذا الصعلوك المجترئ عليك من موقفه الذى اختاره لنفسه بجانبك فاسمع ما ألقى عليك.

إن الذى وقفت بين يديه فى مصلاك أعظم شأنًا وأجل خطرًا، من أن يحفل بثوبك اللامع، وجبينك الساطع، وردائك المطرز، وقميصك المحبر، وأن يعرف لك من الفضل والشرف أكثر مما تعرف لصاحبك فما كان له أن يأمرك بالتقدم عليه فى موقف الصلاة، ولا أن يأمره أن يقف منك موقف العبد من السيد، والمحكوم من الحاكم.

إن للجمعة والجماعة فضائل كثيرة، وحكمًا جمة، أرادها الشارع منهما، وإنك لن تجد بين هذه الحكم، وتلك الفضائل، حكمة أغلى، ولا فضيلة أنفس من خلق التواضع الذى يشعر به العظيم عندما يرى أنه قد وقف من الفقير فى ذلك الموقف المقدس موقف الأخ من أخيه والكفئ من كفيئه.

إن كنت تريد يا مولانا الحاكم من اختلافك إلى المسجد ألا تترك للفقير موقفًا من المواقف يملك فيه الخيار لنفسه، حتى موقفه بين يدى ربه، فخير لك أن تستصحب معك عند ذهابك شرطتك وأعوانك لتأمرهم فيه بما يرضيك من طرده وإقصائه والتنكيل به جزاء له على وقاحته وسوء أدبه، فإن تم لك من ذلك ما أردت، فاحذر أن تنطق بعد ذلك بكلمة العبودية، بعد ما نطقت بكلمة الألوهية، حتى لا تجمع على نفسك بين رذيلتى الظلم والرياء.

فإن كنت تريد الصلاة للصلاة فاعلم أن الله لا يقبلها منك ولا يجزل لك ثوابها، حتى تقف بين يديه موقف من خالطت الخشية قلبه، وملكت

عليه السكينة سمعه وبصره، فلم يعد يبصر شيئًا مما حوله، ولا يعلم أواقف هو فى صفوف الملوك، أو فى زمرة الصعاليك؟

أيها العظماء:

ليست العظمة التى تعرفونها لأنفسكم إلا منحة من الفقراء إليكم فلولا تواضعهم بين أيديكم ما علوتم. ولولا تصاغرهم فى حضرتكم ما استكبرتم فلا تجزوهم بالإحسان سوءًا، ولا تجعلوا الكفر مكان الشكر، تستدفعوا النقم، وتستديموا النعم.

أيها العظماء:

ما هذه القصور التى تسكنونها، ولا هذه الدور التى تعمرونها، وهذه الأردية التى تجرون أذيالها، إلا ألوانًا وأصباغًا لا علاقة بينها وبين حقائق نفوسكم، ولا صلة لها بجواهر أفئدتكم وقلوبكم، وما هو إلا أن تطلع عليها شمس الحقيقة حتى تذهب بها ذهابها بألوان السحاب وأصباغ الثياب، فإذا أنتم عراة مجردون، لا تشفع لكم إلا فضائلكم، ولا تنفعكم إلا مواهبكم ومزاياكم.

أيها العظماء:

لا عذر لكم فى الكبرياء فى جميع حالاتكم وشؤونكم، فإن كنتم من أرباب الفضائل فحرى بالفاضل أن لا يشوه وجه فضيلته برذيلة الكبرياء، أولاً، فما تحمل الأرض على ظهرها أسمج وجهًا، ولا أصلب خدًا من جهلة المتكبرين، فانظروا أين تنزلون، وفى أى مقام تقيمون؟

الانتحار

قرأت فى بعض الصحف أن رجلاً من تجار المسلمين انتحر لا لضيق يد، أو شدة مرض، أو بؤس حال، بل لأنه حزن على وفاة صديق له فقتل نفسه.

إن الرجل المؤمن يعتقد ولا شك بسوء عاقبة المنتصر، فكيف هان عليه، وهو فى آخر يوم من أيام حياته، أن يضم إلى خسارة دنياه، خسارة آخرته، وهى الغراء الباقى له عن كل ما لاقاه فى حياته من شقاء وعناء؟

إن الانتحار نزعة فاسدة وعادة مستهجنة، رمتنا بها المدنية الغربية فيما رمتنا به من مفاسدها وآفاتها.

ولقد كنا نعجب قبل اليوم من تهالك الشرقيين على حب تقليد الغربيين حتى فيما يؤذيهم فى شرفهم وكرامتهم، وكنا إذا أردنا المبالغة فى تمثيل هذا التهالك، قلنا يوشك أن يقتل الشرقى نفسه بنفسه إذا علم أن تلك عادة من العادات الغربية، فقد صار قريبًا ما كان بعيدًا، وأصبح مألوفًا ما كنا نعده فرضًا من الفروض.

الانتحار منتهى ما تصل إليه النفس من الجبن والخور، وما يصل إليه العقل من الاضطراب والخبل، وأحسب أن الإنسان لا يقدم على الانتحار، وفى رأسه ذرة من العقل والشعور.

حب النفس غريزة ركبها الله تعالى فى نفس الإنسان لتكون ينبوع حياته وعماد وجوده، والمنتحر يبغض نفسه أشد مما يبغض العدو عدوه، فهو شاذ فى طبيعته، غريب فى خلقه، معاند لإرادة الله تعالى فى بقاء الكون وعمرانه، ومن كان هذا شأنه كان بلا قلب ولا عقل.

لا عذر للمنتحر فى انتحاره مهما امتلأ قلبه بالهم ونفسه بالأسى، ومهما ألمت به كوارث الدهر، وأزمت به أزمات العيش، فإن ما قدم عليه أشد مما فر منه، وما خسره أضعاف ما كسبه.

ولو كان ذا عقل لعلم أن سكرات الموت تجمع فى لحظة جميع ما تفرَّق من آلام الحياة وشدائدها فى الأعوام الطوال، وأن قضاء ساعة واحدة فيما أعد الله لقاتل نفسه من العذاب الأليم أشد من جميع ما يشكو منه، وما يكابده من مصائب حياته وأرزائها لو يعمر ألف سنة.

ما أكثر هموم الدنيا، وما أطول أحزانها، لا يفيق المرء فيها من همٍّ إلا إلى همٍّ، ولا يرتاح من فاجعة إلا إلى مثلها، ولا يزال بنوها يترجحون فيها ما بين صحة ومرض، وفقر وغنى، وعز وذل، وسعادة وشقاء، فإذا صح لكل مهموم أن يمقت حياته، ولكل محزون أن يقتل نفسه، خلت الدنيا من أهلها، واستحال المقام فيها، بل استحال الوفود إليها، وتبدلت سنة الله فى خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

ما سمى القاتل مجرمًا إلا لأنه قاسى القلب متحجر الفؤاد، وأقسى منه قاتل نفسه، لأنه ليس بينه وبينها من الضغينة والموجدة ما بين القاتل والمقتول، فهو أكبر المجرمين، وأقسى القاتلين.

يخدع المنتحر نفسه إن ظن أنه مقتنع بفضل الموت على الحياة، وأنه إنما يفعل فعلته عن روية وبصيرة، فإنه لا يكاد يضع قدمه فى المأزق الأول من مأزق الموت حتى يثوب إلى رشده وهداه ويحاول التخلص مما وقع فيه لو وجد إلى ذلك سبيلاً.

إن ألقى نفسه فى الماء تخبط وبسط يده إلى من يرجو الخلاص على يده وود لو يفتدى نفسه بكل ما تملك يمينه، وإن حبس نفسه فى غرفته ليموت مختنقًا بالغاز ولو سقط عليه سقف الغرفة ليستنشق نسمة من نسمات الهواء ولو عاش بعد ذلك كسير اليد والرجل، فاسد السمع والبصر.

إن فكرة الانتحار نزغة من نزغات الشيطان، وخطرة من خطرات النفس الشريرة، فمن حدثته نفسه بقتل نفسه فليتريث ريثما يتبين كيف يكون صبره على احتمال سكرات الموت، وآلام النزع، وماذا يكون حديث الناس عنه بعد موته، وهل يمكن أن يوجد بينهم عاذر له أو مشفق عليه، أو مقتصد فى النيل منه والسخرية به؟ وليعرض على مخيلته قبل ذلك أشكال العذاب وأنواع العقاب التى أعدها الله فى الدار الآخرة لأمثاله.

إنى لا أظنه بعد ذلك فاعلاً إلا إذا كان وحشًا فى ثوب إنسان، أو بطلاً من أبطال المارستان.

الحيــاة الشعــرية

لولا الحيــاة الشعرية التى يحيــاها الناس أحيانًا لســمج فى نظرهم وجه الحياة الحسية ومر مذاقها فــى أفواههم، حتى ما يغتبط حى بنعمة العيش، ولا يكره ميت طلعة الموت.

لذلك ترى كل حى يهــرب من الحياة الحــسية جــد الهرب، لاجــئًا إلى الحياة الشعــرية من أى باب من أبوابها، لأنه يرى فى هذه ما لا يراه فى تلك مما يريح فؤاده، ويثلج صــدره، وينفى عن نفسه السآمة والــضجر من صنوف المناظر وأفانين المشاهد، وغرائب المؤتلفات، وعجائب المختلفات.

لولا حب الحيــاة الشعرية ما وجــد فى الناس كثير من المولعين بتــخدير أعصابهم كشــاربى الخمر ومدخنى الحشيش وآكلــى الأفيون. وهى وإن كانت فى نظرهم حياة سعادة يتخللها شقــاء، إلا أنها خير عندهم من حياة شقاء لا تتخللها سعادة، ولولا حب الحياة الشــعرية ما وجد فى الناس هذا الجم الغفير من الشعراء المتخيلين والعابدين المتبتلين.

لا يجد السكير لذة العيش وهناءته إلا إذا أسلم نفسه إلى كأس الشراب فنقلته من هذا العالم البسيط المحدود إلى عالم واسع النطاق، شاسع الأطراف يرى فيه كل ما تشتهى نفسه أن تراه، فإن كــان قبيح الوجه مشوه الخلقة تخيل أنه شــرك الأبصار، وفــتنة النظــار، وأن القلوب محلــقة على جــمــاله تحليق الأطيار على الأشجــار، وإن كان فقيراً معدمًــا لا يملك فلسًا واحداً توهم أنه جالس على عرش الملك والصــولجان فى يمينه، والتاج فوق رأسه واعــتقد أن عبــيد الله تعالى جمــيعًا عــبيده، وجنود المملكة بأســرهم جنوده، حتى ذلك الجندى الذى يسحبه على وجهه إلى غرفة الســجن ليقضى فيها ليلته، وجملة القــول أن عينه لا تقع على مــا يحــزنه من المنظورات، وأن أذنه لا تسمع مــا ينفره من المسموعــات، حتى ليرى الجمال الباهر فى وجــه العجوز الشمطاء، ويسمع فى صوت الرعد القاصف ألحان الغناء.

ولا يشعر المتعبد بنعيم الحياة إلا إذا جن الليل، وأوى إلى معبده، وخلا بنفسه، فتخيل أن له أجنحة من النور كأجنحة الملائكة يطير بها فى جو السماء فيرى الجنة والنار، والعرش والكرسى، ويسمع صرير القلم فى اللوح، ويقرأ فى أم الكتاب حديث ما كان وما يكون.

ولا يستفيق الشاعر من هموم الحياة وأكدارها ومصائبها وأحزانها، إلا إذا جلس إلى منضدته، وأمسك بيراعه، فطار به خياله بين الأزهار والأنوار، وتنقل به بين مسارح الأفلاك ومسابح الأسماك. ووقف تارة على الطلول الدوارس، يبكى أهلها النازحين وقطانها المفارقين. وأخرى على القبور الدوائر، يندب جسومها الباليات، وأعظمها النخرات.

ليس الأمل إلا بابًا من أبواب الحياة الشعرية، ولا يوجد بين قلوب البشر قلب لا يخفق بالآمال العظام والأمانى الحسان؛ فالأمل هو الحياة الشعرية العامة التى يعيش فى ظلها الناس جميعًا أذكياء وأغبياء، فهماء وبلداء، والأمل هو السد المنيع الذى يقف فى وجه اليأس، ويعترض سبيله أن يتسرب إلى القلوب، ولو تسرب إليها لضاقت بالناس هذه الحياة وثقل عبؤها على عواتقهم، فطلبوا الخلاص منها ولو إلى الموت، طلبًا للتغيير والانتقال، وشغفًا بالتحول من حال إلى حال.

يقولون: أشقى الناس فى هذه الحياة العقلاء، ويقولون: ما لذة العيش إلا للمجانين.

أتدرى لماذا لأن نصيب الأولين من الحياة الشعرية أضعف من نصيب الآخرين، وذلك أن عقل العاقل يحول بينه وبين استمرار الطيران فى فضاء الخيالات الذهنية والمغالطات الشعرية، فلا يرى سوى ما بين يديه من الحقائق الملموسة ولا يسمح له علمه بأحوال الدنيا وشؤونها، ومعرفته أن المصائب والآلام من لوازمها التى لا تفارقها، يؤمن منها فى طبيعتها من دوام السرور واستمرار الهناءة، فلا يطلب سعة العيش من وراء الأمل كبقية المؤملين، ولا يتلذذ بتصديق ما لا يكون تلذذ المجانين.

والحق أقول، لولا الحياة الشعرية التى أحياها أحيانًا فى هذه الكلمات

التى أكتبها، لأحببت، زاهداً فى هذه الحياة الحسية، أن تطلع الشمس من مغربها إيذانًا بانقضاء العالم وفنائه، ولتمنيت حبًا فى الانتقال من حال إلى حال أن أنتقل ولو إلى رحمة الله.

رباعيات الخيام

وقفت برباعيات عمر الخيام[١] يومًا من الأيام كما يقف مسافر ضل به سبيله فى فلوات الأرض ومجاهلها بواد معشب أريض فى وسط فلاة جرداء عند منقطع العمران، فما خطوت فيه بعض خطوات حتى رأيت ما شاء الله أن أرى من أنوار بيضاء، وورود حمراء، وألوان من النبات، مشتبهات وغير مشتبهات، وغدران مطردة متسلسلة تنبسط فى تلك الديباجة الخضراء تبسط النجوم البيضاء فى الديباجة الزرقاء وأسراب من الحمائم والعصافير والبلابل والشحارير، تتطاير من فرع إلى فرع، وتنتقل من غصن إلى غصن، وتجتمع لتفترق، وتفترق لتجتمع، وتتقاتل مرة، وتتلاءم أخرى، وتصعد حتى تلامس بأجنحتها جلدة السماء، ثم تهبط حتى تصافح صفحة الماء، ولا تزال تغرِّد فى صعودها وهبوطها تغريداً مختلف النغمات، متنوِّع النبرات، فيتألف من ذلك الاختلاف والتنوع نغم لذيذ لا أعرف له شبيهًا إلا تلك الصورة الخيالية التى أتخيلها فى نغم الحور الحسان، فى فراديس الجنان.

فلم أزل أتقلب فى أعطاف تلك الغلائل الخضراء، وأجر ذيول تلك الجداول البيضاء، وأقلب طرفى فلا أرى رائحًا ولا غاديًا. أتسمع فلا أسمع هاتفًا ولا داعيًا، حتى وقف بى الحظ على دوحة فرعاء، مائلة على رأس بعض الجداول، وقد اضطجع فى ظلها على قطيفة من ذلك العشب الناعم رجل هانئ باسم، يقرأ تارة سورة الجمال فى وجه فتاة جالسة بين يديه،

(١) عمر الخيام: شاعر فارسى كان فى القرن السادس من الهجرة، رباعياته هذه مترجمة إلى أكثر لغات العالم.

ويقبل أخرى ثغر الكأس التى تتلألأ فى يمينه، ويترنم بين هذا وذاك بمقطوعات شعرية بديعة، يمثل فيها جمال الطبيعة وهدوءها وسعادة الوحدة وهناءتها، ويطير بأجنحة خياله فى عالم بديع من عوالم الغيب، تاركًا هذا العالم الحافل بالهموم والآلام، طاردًا عن نفسه كل خاطر من خواطر الشرور والآثام، ليستكمل لذته فى الحياة التى يحياها بين ظله ومائه وكأسه وفتاته.

فإن مر بخاطره ذكر الملوك والأمراء وما ينعمون به من عز وسلطان، ولذة واستمتاع، قال: ما لى وللملك والسلطان، والحاشية والجند، والقصور الشماء، والجنان الفيحاء، هنالك المحنة والشقاء، والفتنة الشعواء، والهموم والأرزاء، والدماء والأشلاء، والعويل والبكاء، وهنا الراحة والسكون فى ظلال الوحدة والانفراد، حيث لا سيد ولا مسود، ولا عابد ولا معبود، وبين هذين الثغرين: ثغر الفتاة، وثغر الكأس، وذينك الصديقين: هذا الكتاب المفتوح، وذلك الغصن المطل، كل ما يتمنى السعداء لأنفسهم من غبطة فى الحياة وهناءة.

وإن ذكر الآخرة وما أعد الله فيها من العذاب للمسرفين على أنفسهم قال: إن من العجز أن أبيع عاجل السعادة المعلوم بآجلها المجهول، أنا اليوم موجود، فلابد أن أستمتع بمتعة الوجود، أما الغد فلا علم لى به. ولا بما قدر لى فيه، وعسير علىَّ أن أتصور أننا معشر الأحياء الناطقين قطع من المعدن الصامت تدفن اليوم فى باطن الأرض لينبش عنا النابشون غدًا.

ثم يعود إلى نفسه مستغفرًا الله من ذنبه فى شكه وارتيابه فيقول: اللهم إنك تعلم أنى ما كفرت بك مذ آمنت، ولا أضمرت لك فى قلبى غير ما يضمر المؤمنون الموحدون، فاغفر لى آثامى وذنوبى، فإنى ما أذنبت عنادًا لك، ولا تمرُّدًا عليك، ولكنها الكأس غلبتنى على أمرى، وحالت بينى وبين عقلى وأنت أجل من أن تقاضينى مقاضاة الدائن غريمه، لأنك كريم. والكريم يمنح العطية منحًا، ولا يقرضها قرضًا، ويسبغ نعمته الوارفة الظليلة حتى على العصاة والمجرمين.

وأحيانًا يستشعر قلبه الرحمة بالعباد فيبكى أحيائهم وأمواتهم، ويقول مخاطبًا فتاته: رويدًا أيتها الفتاة فى خطاك على هذه الأعشاب النابتة، فلعل جذورها ممتدة إلى كبد فتاة مثلك كان لها قلب مثل قلبك، ووجدان مثل وجدانك، وجمال ورواء مثل جمالك وروائك، ثم ضرب الدهر ضرباته فإذا أنت فى غلالة هذه الأشعة البيضاء، وإذا هى فى دجنة تلك الأعماق السواء، فارفقى بها، واسكبى هذه الفضلة من كأسك على تربتها علها تتسرب إليها فتطفئ ذلك اللاعج الذى يعتلج بين جوانحها.

ثم يتخيل أحيانًا كأنه واقف بين يدى رجل خزاف يحرق حمأته فى تنوره فيقول له: رحمة أيها الخزاف بهذه النار، فقد كانت بالأمس إنسانًا مثلك، وستكون أنت فى مستقبل الأيام حمأة مثلها؛ وربما ساقك القدر إلى يد خزاف تحتاج إلى رحمته ورفقه، فارفق بها اليوم يرفق بك خزافك غدًا.

وآونة يلبس ثوب الواعظ المنذر فينعى على السعداء سعادتهم، ويذكرهم بما آلت إليه حال الملوك السالفين، والأقيال الماضين، من خرائب دورهم وعمران قبورهم، وغروب شموسهم، وعفاء آثارهم.

ثم ينتقل من ذلك إلى البكاء على نفسه، وترقب ذلك اليوم الذى تصوح فيه زهرته، وتنطفئ جذوته، وتضعف منته، ويمحو نهار مشيبه ليل شبابه، فيزحف إلى قبره خطوة خطوة حتى يتردى فيه، فيعود كما كان سرًا مكتومًا فى ضمائر الأقدار، وذرة هائمة فى مجاهل الأكوان.

وهكذا ما زال يتنقل من عبرة بليغة، إلى عظة بديعة، ومن خيال جميل إلى تشبيه رقيق، ومن وصف ناطق، إلى تمثيل صادق، حتى أصبحت أعتقد أن هذه النفس التى تشتمل عليها بردة هذا الشاعر الجليل مرآة صافية قد تمثل فيها هذا الكون بأرضه وسمائه، وليله ونهاره، وناطقه وصامته، وصادحه وباغمه، وأن فخار الأعراب بمتنبيها ومعريها، والفرنسية بلا مرتينها وفكتورها، والسكسون بشكسبيرها وملتونها، والطليان بدانتها، والألمان بجيتها، والرومان بفرجيلها، واليونان بهوميرها، ومصر القديمة ببنتاؤورها، ومصر الحديثة بأحمدها، لا يقل عن فخار فارس بخيامها.

إلـــى تولستـــوى(١)

قف ساعة واحدة نودعك فيها قبل أن ترحل لطيتك، وتتخذ السبيل إلى دار عزلتك، فـقد عـشنا فى كنفك على ما بيننا وبينك مـن بعد الدار، وشط المزار، عهدًا طويلاً كنا فيه أصدقاءك، وإن لم نرك، وأبناءك، وإن كان لنا آباء من دونك؛ وعزيز علينا أن تفارقنا قبل أن نقضى حق عـشرتك بدمعة نذرفها بين يديك فى موقف الوداع.

حـدثنا الناس عنك أنك ضقـت بهذا المجـتمع الإنسـانى ذرعًا بعـد أن أعجزك إصلاحه وتـقويمه فأبغضته، وعفت النظر إليه، وأبغـضت لبغضه كل شىء حتى زوجك وولدك، ففـرت بنفسك منه إلى غاب تسمع زئير سـباعه، أو دير تأنس برنة ناقـوسـه «وأسجلت أن لا تعـود إليـه، وأن تقطع كل صلة بينك وبينه إلى الأبـد فعـذرناك، ولم نعـتب عليك، ولم نسـمك جبـانًا ولا رعديدًا، ولا موليًا ولا مدبرًا، لأنك قـاتلت فأبليت، حتى لم يبق فى غمدك سيف، ولا فـوق عاتقك رمح، ولا فى كنانتك سهم، والـعدو كثيـر عدده، صعب مراسه، وافرة قوته، والشجاعة فى غير موضعها جنون، والوقوف أكثر من ثمـانين عامًـا أمام عـدو لا أمل فى براحـه، ولا مطمع فى زياله: عناد، وهل يكون مصيرك إن أنت ثبت فى موقفك حتى سقطت قتيلاً فى المعركة إلا مصـير أولئك الفلاسفـة العظماء من قبلك الذين قـاتلوا حتى قتلوا فـهدرت دماؤهم، واغتمضت عيونهم قبل أن يروا منظرًا من مناظر الصلاح والاستقامة فى المجتمع البشـرى يعزون به أنفسهم عن أنفسهـم، ويروِّحون به ما يجدون بين جوانحهم من ألم النزع، وفى أفواههم من مرارة الموت.

ماذا لقيت من الدنيا؟ وما الذى أفدت منها؟ وأين وقع علمك وفضلك؟

---

(١) كتبت هذه المقالة على أثـر ما جاء فى الأخبار أن (تولستوى) الفـيلسوف الروسى المشهور ترك منزله هائمًا على وجهه ليعتزل الناس فى أحد الأديرة، أو فى إحدى الغابات.

ولسانك وقلمك؟ وقوة عارضتك، ومضاء حجتك، من آثام الناس وشرورهم وقسوة قلوبهم وأفئدتهم، وظلم ألسنتهم وأيديهم؟

قلت لقيصر: أيها الملك، إنك صنيعة الشعب وأجيره، لا إلهه ومعبوده، وإنك فى مقعدك فوق عرشك لا فرق بينك وبين ذلك الأكار فى المزرعة، وذلك العامل فى المصنع، كلاكما مأجور على عمل يعمله، وكلاكما مأخوذ بإتقان ما يعمل، فكما أن صاحب المصنع يسأل العامل هل وفى عمله ليوفى له أجره، كذلك يسألك الشعب: هل قمت بحماية القانون الذى وكل إليك حراسته فأنفذته كما هو من غير تبديل ولا تأويل؟ هل عدلت بين الناس وآسيت بين قويهم وضعيفهم، وغنيهم وفقيرهم، وقريبهم وبعيدهم؟ هل استطعت أن تستخلص عقلك من يدى هواك؟ فلم تدع للحب ولا للبغض سلطانًا على نفسك يعدل بك عن منهج العدل ومحجته؟ وهل أصممت أذنك عن سماع كلمات الملق والمداهنة والمدح والثناء؟ فلم تفسد على الناس فضائلهم، ولم تقتل عزة نفوسهم ولم يذهب بهم الخوف من ظلمك، أو الطمع فى ضعفك، مذهب الزلفى إليك بالكذب والنميمة والتجسس، والتسقط، وذلك الأعناق وصرع الخدود؟ فإن وجدك الشعب عند ظنه، ورآك أمينًا على العهد الذى عهد إليك به، أبقى عليك وأبقى لك عرشك وتاجك، وحفظ لك يدك التى اصطنعتها عنده، وأحسن إليك كما أحسنت إليك، أو لا، كان له معك شأن غير هذا الشأن، ورأى غير ذلك الرأى.

فما سمع منك هذه الكلمات حتى أكبرها وأعظمها، لأنه لم يجد بين الكثيرين الذين يعاشرونه من يسمعه مثلها فحقد عليك وأضمر لك من الشر ما يضمر أمثاله لأمثالك، واستعان على مطاردتك بأولئك الذين أذل نفوسهم وأفسد ضمائرهم بظلمه وجوره من قبل لبعدهم لمقاتلة الحق ومصارعته فى مواقف خوفه وقلقه.

وقلت للغرندوق الروسى: ليس من العدل أن تملك وحدك -وأنت نائم فى سريرك، بين روضك ونسيمك وظلك ومائك- هذه الأرض التى تضم بين أقطارها مليون فدان، ولا يملك واحد من هؤلاء الملايين -الذين يفلحونها

ويحرثونها، ويبذرون بذورها ويستنبتون نباتها، ويسوقون ماشيتها، ويتقلبون بين حرها وبردها وأجيجها وثلجها- شبراً واحداً فيها، فاعرف لهم حقهم وأحسن القسمة بينك وبينهم، وأشعر قلبك الخجل من منظر شقائهم فى سبيل سعادتك، وموتهم فى سبيل حياتك، واعلم أن الأرض لله يورثها من يشاء.

ثم لم تقنع بما بذلت له من العظة والنصيحة حتى ضربت له مثلاً من نفسك، فعمدت إلى أرضك فجعلتها قسمة بينك وبين القائمين عليها من الزارعين، ثم عمدت إلى فأسك فحملتها، وماشيتك فأخذت بزمامها، ولم تزل سائراً حتى بلغت مزرعتك الصغيرة التى استبقيتها لنفسك فضربت مع الضاربين، وخضت مع الخائضين! لتعلم ذلك الجبار بفعلك ما لم تستطع أن تعلمه إياه بقولك، فسخر منك، ورثى لعقلك، وألف من أحاديثك رواية غريبة يروِّح بها عن نفسه -فى مجتمعات أنسه ولهوه- ما يساوره من السآمة والضجر.

وقلت للكاهن: إن المسيح عاش معذبًا مضطهداً لأنه لم يرض أن يقر الظالمين على ظلمهم، وأنه أبى أن يخفى المصباح الذى فى يده تحت ثوبه، بل رفعه فوق رأسه غير مبال بنقمة الملوك على ذلك النور الذى يكشف سوآتهم، ويهتك أستارهم، وأنت تزعم أنك خليفته، وحامل أمانته، والقائم بنشر آياته، والمترسم مواقع أقدامه فى خطواته، فما هذه الجلسة الذليلة التى أراك تجلسها تحت عروش الظالمين؟ وما هذه اليد التى تبسطها إليهم بالمودة والإخاء كأنما تريد أن تعقد بينك وبينهم عهداً أن يظلموا ما شاءوا ويسلبوا ما أرادوا باسمك واسم الكتاب الذى تحمله فى يدك، وما هذه السلطة التى تزعمها لنفسك أن تدخل الجنة من تشاء، وتخرج منها من تشاء؟ وما هذه القصور التى تسكنها، والديباج الذى تلبسه، والعيش البارد الذى تنعم به؟ وأنت الراهب المتبتل الذى كتب على نفسه الانقطاع عن الدنيا وزخرفها إلى عبادة الله والانكماش فى طاعته.

ذلك ما قلت للكاهن، فكان جوابه أن أرسل إليك كتاب الحرمان، وهو يعلم أنك لا تعترف له بالقدرة على إعطاء ولا منع، ولكنه أراد تشويه

سمعتك والغض من كرامتك، وإغراء العامة بك، فكان ذلك كل ما أفدت من نصيحتك وعظتك.

وأبكاك منظر المنفيين فى سيبريا، وما يلاقون من صنوف العذاب ويعالجون من أنواع الآلام، فصرخت صرخة دوى بها الملآن: الأعلى والأدنى، وقلت: أيها الناس إن الشر لا يدفع الشر، وإن الأشقياء مرضى فعالجوهم ولا تنتقموا منهم، فالتربية الصالحة تمحو الجرائم، والانتقام يلهب نارها، واجعلوا المدارس مكان السجون، والمعلمين مكان السجانين. فلم يسمع صرختك سامع، ولا بكا لبكائك باك، وما زال القضاة يحكمون والجند يصادرون، والسجانون يعذبون، والمسجونون يصرخون.

وأزعجك منظر الدماء المتدفقة فى معارك الحروب، وبكاء النساء المعولات خلف أزواجهن وأولادهن وإخوتهن، وهم سائرون إلى حرب لا يعرفون لها مصدراً ولا مورداً، وقد حمل بعضهم لبعض ضغائن وسخائم لا سبب لها إلا ذلك الوهم الذى غرسه فى قلوبهم قساة السياسة فخيل إليهم أنهم أعداء وهم أصدقاء، فخلعوا ثوب الإنسان ولبسوا فروة السبع، وأنشب كل منهم ظفره فى صدر أخيه كأنه يفتش عن قلبه لينتزعه من مكانه، ذلك القلب الذى لو شق عن سويدائه لوجد لنفسه فيه مكاناً علياً لولا جور السياسة وظلالها.

فما أغنى عنك بكاؤك وحنينك، ولا أجدى عليك عويلك وأنينك، فالحرب لم تزل باقية، ومصانع الموت لم تكتف بما أعدت من المهلكات لمعارك الأرض حتى أصبحت تعد مثلها لمعارك السماء.

فهنيئًا لك أيها الرجل العظيم ما اخترت لنفسك من تلك العزلة الهادئة المطمئنة، لقد نجوت بها من حياة لا سبيل للعاقل فيها إلا أن يسكت فيهلك غيظًا، أو ينطق فيموت كمداً.

ربما استطاع الحكيم أن يحيل الجهل علمًا، والظلمة نوراً، والسواد بيضًا والبحر براً، والبر بحراً، وأن يتخذ نفقًا فى الأرض أو سلمًا فى السماء. ولكنه لا يستطيع أن يحيل رذيلة المجتمع الإنسانى فضيلة، وفساده صلاحًا.

مـا دام الإنسان لا ينتـهى عن ظلم الإنسـان حتى يخـافه، ومـا دام لا يحسن إليه إلا إذا أراد أن يتخذ عـبدًا يعبده من دون الله، وما دام للأثرة هذا السلطان الأكـبر على أفراد المجـتمع، ومن أكبـر كبـاره إلى أصغر صـغاره، فإنسان اليـوم هو بعينه إنسان الغابات والأحـراش بالأمس، لا فرق بينه وبينه سوى أنه قد أوى اليوم بشروره ومفاسده إلى بيت من الزجاج يفعل فعلاته من ورائه، ولكن الزجاج شفاف لا يكتم ما وراءه.

وارحمتـــاه(١)

فى ذلك الإقليم القـاحل فى تلك الصحـراء المحرقـة طائفة من فـقراء المسلمين وبائسيهم، لا يملكون من الحول غير قلوب يملؤها اليقين بالله، والثقة به، ولا من الحـياة غـير ألسنة تهـتف به فى صـباحـها ومـسائهـا، وبكورها وأصائلها بالدعـاء إلى الله تعالى أن يتولى أمرها، ويسدد خطاها، وييـسر لها السبيل إلى الخـلاص من عدوها القاهر الذى نزل بها فى دار أمنـها وسكونها نزول القضاء الـنافذ، يريد أن يسلبها مـا أبقت الأيام فى يدها؛ وما أبقت فى يدها سوى لقيمات غير سائغة، وجرعات غير هنيئة، وظل غير ظليل.

وارحمـتاه لجماعـة المسلمين فى طرابلس، إنهم عاجـزون عن أن يعدُّوا لعدوهم الزاحف عليهم بقنابله وقـذائفه غير أجسام ستصـبح عما قليل أشلاء مبـعثرة تحت كل كـوكب، وقلوب لا تزال تنبض حتى تسـمع طلقات المدافع والبنادق فـتسكن، وأرواح سـتطيـر فى آفاق طيـران ذلك الدخان فى أجـواز الفضاء.

وارحمتـاه لهم، إنهم يستغيـثون فلا يجدون مغـيثًا، ويستصـرخون فلا يسمعون مجيبًا، وقد تقطعت بهم الأسباب، وأعوزتهم الوسائل، وسدَّت فى وجوههم السبل، فلا يبق لهم منها إلا سبيل الموت، وفى الموت راحة البائسين

(١) كتبت أثناء الحرب بين إيطاليا وطرابلس الغرب.

والمنكوبين من شقاء الحياة وبلائها، لولا أنهم يتركون من بعدهم بين يدى ذلك العدو الظالم أرامل ضعفاء، وأيتامًا صغارًا، وشيوخًا كبارًا، لا يعلمون ماذا أضمر لهم القدر فى صدره من نعيم أو شقاء.

كأنى أراهم وقد غلت فى صدورهم حمية الدين والوطن ودارت فى رؤوسهم سكرة العزة العربية، فأبوا إلا أن يزحفوا إلى الموت الأحمر زحف المستقتل المستبسل الذى يعلم أن باب الحياة السعيدة الأبدية لا يفتح إلا بين يدى الأرواح التى احتقرت أجسادها وازدرتها، فتجردت من أثوابها الرثة البالية وألقتها من ورائها، وكأنى أرى الرجل منهم، وقد دخل إلى بيته ليعدّ عدَّته، ويودع أهله الوداع الأخير، فبكت أمه وناحت زوجه وصاح ولده، فبكى لبكائهم، ورن لرنينهم، لا جزعًا من الفراق، لأنه فراق يعزيه عنه لقاء الله تعالى، ولا خشية من الموت، لأنه يعلم أن الحياة الذليلة أحقر من أن يضن بها صاحبها، بل مخافة أن تستبد بأعراض بيته وحرماته، تلك الأيدى الظالمة التى لا ترحم صغيرًا، ولا تعطف على كبير، أو أن يهلكوا من بعده جوعًا وفقرًا، لأنه لم يترك لهم قوتًا يتبلغون به، ولا عمادًا يعتمدون عليه، فإذا علم أن موقفه بين أهله موقف جلل يكاد يغلب فيه على صبره، نظر نظرة فى السماء أرسل فيها إلى ربه جميع ما تهتف به نفسه القريحة من وجد ورحمة وبكاء وحنين، وأمل ورجاء، ثم انفتل من بين أيديهم، ومضى لسبيله لا يلوى على شىء مما وراءه، حتى يبلغ ساحة الحرب، فلا يزال يقرع باب الحياة الأخرى حتى يفتح له.

هنالك تنوح النائحات، وتبكى الباكيات، وتطير النفوس، وتصعق القلوب، وترن المنازل والدور بالنحيب والتعداد، وهنالك ترى المرأة المسلمة المخبأة التى لم تر فى حياتها وجه الشمس إلا من كوة بيتها: بارزة الوجه، عارية الرأس حيرى مولهة هائمة فى الطرق والمذاهب، تسائل الغادين والرائحين ما فعل الله بولدها أو زوجها أو أخيها، فإما بقيت فى حيرتها بياض يومها وسواد ليلها، وإما عادت إلى بيتها بالثقل القاتل، والحزن الدائم، وهنالك ترى الشيوخ الكبار والأطفال الصغار، والعاجزين والضعفاء لائذين

بالتلال والآكام، يحاولون أن يتقوا بها صواعق الحرب وشهبها، فلا تقيهم، أو عائذين بالمضايق والشعاب يفرون إليها من وجوه الخيل وسنابكها فلا تحميهم، وهناك ترى أولئك القوم الذين يسمون أنفسهم مجاهدين، أو فاتحين، أو قوادًا عظامًا، أو سواسًا كبارًا، يمشون بين بيوت المسلمين ومجامعهم مشية الفرح المختال، وينظرون إلى أولئك المساكين الذين سرقوا حريتهم واستقلالهم، وانتهبوا أرواحهم وأموالهم، نظر السيد إلى مولاه الذى ملك ولاءه بماله، واستعبده بفضله وإحسانه، وربما رموا إليهم فى تلك الساعة بلقيمات كتلك التى يلقيها سيد الكلب إلى كلبه، أو الراعى إلى ماشيته، ليشهدوا العالم الإنسانى أجمعه على كرمهم وسخائهم، وعطفهم ورحمتهم، وأنهم ما سفكوا الدماء ولا قطعوا الأوصال، ولا أيموا النساء، ولا يتموا الأطفال، ولا انتهكوا الحرمات إلا خدمة للإنسانية العامة وإجلالاً لشأنها.

لا أحسب أن مسلمًا دخل الإيمان قلبه فملأه رحمة وإحسانًا، وعطفًا وحنانًا، يستطيع أن يتخذ لجنبه فى ظلمة الليل مضجعًا، أو يجد لنفسه فى ضحوة النهار قرارًا، حزنًا على هؤلاء المنكوبين الحائرين الذين يدورون بأعينهم فى مشارق الأرض ومغاربها يلتمسون ناصرًا يعينهم على أمرهم، أو منجدًا يدفع عنهم عادية البلاء فلا يجدون إلا أممًا إسلامية قد أصابها مثل ما أصابهم من قبل، فهى تعجز عن النظر لنفسها، فأحرى ألا تنظر لغيرها، فلم يبق بين أيديهم من الأمل إلا تلك الرحمة التى يعتقدون أنها باقية لهم فى قلوب الأفراد من إخوانهم المسلمين أن يمدوهم بقليل من القوت يستعينون به على جهاد عدوهم ويعودون بما بقى منه على عيالهم الذين يتضورون جوعًا من بعدهم.

أيها المسلمون:

إنكم لن تجدوا بعد اليوم موقفًا هو أقرب إلى الله، وأدنى إلى رحمته وإحسانه، وأجلب لمغفرته ورضوانه، من موقفكم أمام هؤلاء الضعفاء المساكين، تطعمون جائعهم، وتكسون عاريهم، وتسلحون أعزلهم، تعالجون جريحهم، وتخلفون قتيلهم فى أهله وولده.

إنكم إن تحسنوا إليهم تحسنوا إلى أنفسكم، وإن تنقذوهم من كربتهم تنقذوا جامعتكم وملتكم، فإن بينكم وبينهم لحمة أقوى من لحمة النسب، ووشيجة أوثق من وشيجة القربى، وإنكم جميعًا تصلون إلى قبلة واحدة، وتهتفون فى الغداة والعشى بذكر واحد، وتتوجهون بقلوبكم فى نعمائكم وبأسائكم إلى إله واحد، وتقفون فى بيت الله بين حرمه والمقام موقفًا واحدًا.

أيها المسلمون:

إنكم إن اجتمعتم اليوم لن تفترقوا غدًا، وإن هديتم لرشدكم فى موقفكم هذا لن تضلوا من بعده أبدًا، وإنكم إن قدمتم بين أيديكم هذا العمل الصالح أحسن الله جزاءكم وأعانكم على أمركم، ووفى لكم بما وعدكم من نصره ومعونته، و﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾.

خطبة الحرب

يا أبطال برقة، وليوث طرابلس، وحماة الثغور، وذادة المعاقل والحصون، صبرًا قليلاً فى مجال الموت، فها هى نجمة النصر تلمع فى آفاق السماء، فاستنيروا بنورها، واهتدوا بهديها حتى يفتح الله عليكم.

إن الله وعدكم النصر، ووعدتموه الصبر، فأنجزوا وعدكم ينجز لكم وعده.

لا تحدثوا أنفسكم بالفرار، فوالله إن فررتم لا تفرون إلا عن عرض لا يجد له حاميًا، وشرف لا يجد له ذائدًا، ودين يشكو إلى الله قومًا أضاعوه، وأنصارًا خذلوه.

إنكم لا تحاربون رجالاً أشداء بل أشباحًا تتراءى فى ظلال الأساطيل، وخيالات تلوذ بأكناف الأسوار والجدران، فاحملوا عليها حملة صادقة تطير بما بقى من ألبابها، فلا يجدون لبنادقهم كفًا ولا لأسيافهم ساعدًا.

إنهم يطلبون الحياة، وأنتم تطلبون الموت، ويطلبون القوت، وتطلبون

الشرف، ويطلبون غنيمة يملأون بها فراغ بطونهم، وتطلبون جنة عرضها السموات والأرض، فلا تجزعوا من لقائهم، فالموت لا يكون مر المذاق فى أفواه المؤمنين.

إنكم تعتمدون على الله، وتثقون بعدله ورحمته، فتقدموا إلى الموت غير شاكين ولا مرتابين، فما كان الله ليخذلكم، ويكلكم إلى أنفسكم، وأنتم من القوم الصادقين.

إن هذه القطرات من الدماء التى تسيل من أجسامكم ستستحيل غداً إلى شهب نارية حمراء تهوى فوق رؤوس أعدائكم فتحرقهم وأن هذه الأنات المتصاعدة من صدوركم ليست إلا أنفاس الدماء صاعدة إلى إله السماءان يأخذ لكم بحقكم ويعديكم على عدوكم، والله سميع الدعاء.

إن أعداءكم قتلوا أطفالكم، وبقروا بطون نسائكم، وأخذوا بلحى شيوخكم الأجلاء فساقوهم إلى حفائر الموت سوقًا، فماذا تنتظرون بأنفسكم؟

أجلبوا عليهم بخيلكم ورجلكم وأصدقوا حملتكم عليهم، وجعجعوا بهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم، واطلبوهم بكل سبيل وفوق كل أرض وتحت كل سماء، وازعجوهم حتى عن طعامهم وشرابهم، ويقظتهم ومنامهم، فما أعذب الموت فى سبيل تنغيص الظالمين!

احفروا لأنفسكم بسيوفكم قبوراً، فالقبر الذى يحفر بالسيف لا يكون حفرة من حفر النار.

لا تطلبوا المنزلة بين المنزلتين، ولا الواسطة بين الطرفين، ولا العيش الذى هو الموت أشبه منه بالحياة، بل اطلبوا إما الحياة أبدًا، وإما الموت أبدًا.

غدًا ينتهك أعداؤكم حرمة أرضكم ودياركم، ويملكون عليكم نساءكم وأولادكم؛ ويطأون بحوافر خيولهم مساجدكم ومعابدكم، وينظمون فى ثقوب آنفاكم مقاود يقودونكم بها إلى مواقف الذل والهوان؛ كما تقاد الإبل المخشومة إلى معاطنها؛ فافتدوا أنفسكم من هذا المصير المهين بجولة تجولونها فى سبيل الله ثم تموتون موت الجبان فى حياته وحياة الشجاع فى موته، فموتوا لتعيشوا، فوالله ما عاش ذليل ولا مات كريم.

إن هذه الأساطيل الرابضة على شواطئكم، والمدافع الفاغرة أفواهها إليكم والبنادق المسددة إلى صدوركم ونحوركم، لا يمكن أن يتألف منها سور منيع يعترض سبيلكم فى رحلتكم من هذه الدار إلى تلك الدار؛ فسيروا فى طريقكم إلى آخرتكم، فإن الأعداء إن ملكوا عليكم طريق الحياة لا يملكون عليكم طريق الموت.

المستميت لا يموت، والمستقتل لا يقتل، ومن يهلك فى الإدبار أكثر ممن يهلك فى الإقدام، فإن كنتم لابد تطلبون الحياة فانتزعوها من بين ماضغى الموت.

إن كتاب التاريخ قد علقوا أقلامهم بين أناملهم، ووضعوا صحائفهم بين أيديهم، وانتظروا ماذا تملون عليهم من حسنات أو سيئات، فأملوا عليهم من أعمالكم ما يترك فى نفوسهم مثل ذلك الأثر الذى تركته فى نفوسكم تلك الصحائف البيضاء التى سجلها التاريخ لأولئك الأبطال العظام.

موتوا اليوم أعزاء قبل أن تموتوا غدًا أذلاء.

موتوا قبل أن تطلبوا الموت فيعوزكم، وتنشدوه فيعجزكم.

موتوا اليوم شهداء فى ساحة الحرب تكفنكم ثيابكم، وتغسلكم دماؤكم وتصلى عليكم ملائكة الرحمن قبل أن يسبق قضاء الله إليكم فيموت أحدكم فلا يجد بجانبه مسلمًا يصلى عليه صلاة الجنازة ثم يمشى وراء نعشه إلى قبره حتى يودعه حفرته، ويخلى بينه وبين ربه.

إن الشيخين أبا بكر وعمر، والفارسين خالدًا وعليًا، والأسدين حمزة والزبير، والفاتحين سعدًا وأبا عبيدة، والبطلين طارق بن زياد وعقبة بن نافع وجميع حماة الإسلام وذادته، من السابقين الأولين والمجاهدين الصابرين، يشرفون عليكم اليوم من علياء السماء، لينظروا ماذا تصنعون بميراثهم الذى تركوه فى أيديكم، فامضوا لسبيلكم، واهتكوا بأسيافكم حجاب الموت القائم بينكم وبينهم، وقولوا لهم إنا بكم لاحقون، وإنا على آثارهم لمهتدون.

إن هذا اليوم له ما بعده، فلا تسلموا أعناقكم إلى أعدائكم، فإنكم إن فعلتم لن يعبد الله بعد اليوم على ظهر الأرض أبدًا.

الإنسانية العامة

الجامعة الإنسانية هى الكلية العامة التى يلجأ إلى كنفها هذا المجتمع الإنسانى كلما أزمته أزمة، أو نزلت به نازلة، وهى المطلع الذى يشرق منه شمس الرحمة الإلهية على هذا الكون فتنير ظلماءه، وتكشف غماءه، وهى الحكم العدل الذى يفصل فى قضايا المجتمعات البشرية حين تنفصم عروتها، ويدب دبيب العداوة والبغضاء بين أحيائها، وهى السلطان المطلق الذى يجلس على كرسى عظمته وجلاله، فتخر له الجباه سجداً، وتبتدر يديه الأفواه لثمًا وتقبيلاً.

الجامعة الإنسانية هى الجامعة الأساسية الثابتة التى رأت طينة آدم أولاً، وسترى نفخة إسرافيل آخراً والتى تسير مع الإنسان حيث سار فى بره وبحره وسهله وحزنه وحياته وموته، وتدور معه حيث دار فى إيمانه وكفره وصلاحه وفساده، واستقامته واعوجاجه، لا يتغير لونها ولا يتحول ظلها، ولا تستحيل مادتها، ولا تبلى جدتها على كر الليالى ومر الأيام.

ما من جامعة من الجامعات القومية أو الجنسية أو الدينية أو العائلية إلا وهى تعتمد على الجامعة الإنسانية فى سيرها وتستظل بظلها، وتهتدى بهديها، فالمجاهد الوطنى يقول: إنى أُدافع عن وطنى، وأحمى حوزته، وأقوم على ثغوره وعوراته مقام الذائد المناضل، لأنى أعتقد أنى إن أغفلت ذلك وأغفله فى وطنه كل ممنو بمثل ما أنا ممنو به فى وطنى تساقطت الحواجز القائمة فى وجه المطامع البشرية؛ فجرى سيلها متدفعًا لا يقوم له شىء حتى يأتى عليه، والمجاهد الدينى يقول: إنى أعتقد أن الإنسانية لا تزال معذبة يأكل قويها ضعيفها، ويغتال كبيرها صغيرها؛ ويستضعف حاكمها محكومها؟ حتى تدين بالدين الذى أدين به، فأنا إن حاربت البلاد، وقاتلت العباد، فإنما أُريد بخوض هذا البحر الأحمر من الدماء أن أصل إلى سفينة الإنسانية المشرفة على الغرق فأستخلصها من يد الموت الذى يحيط بها.

هكذا يقول دعاة الدين ودعاة الوطن، ودعاة كل جامعة، وهكذا يجب أن يقولوا، فإن لم يفعلوا، وأبوا إلا أن يغفلوا ذكر الجامعة الإنسانية فى دعائهم إلى جامعاتهم التى يدعون إليها، فسد عليهم أمرهم فى كل ما يقولون وما يفعلون.

ليس لصاحب وطن من الأوطان، أو صاحب دين من الأديان أن يقول لغيره ممن يسكن وطنًا غير وطنه، أو يدين بدين غير دينه: أنا غيرك، فيجب أن أكون عدوك، لأن الإنسانية وحدة لا تكثر فيها ولا غيرية، ولأن هذه الفروق التى توجد بين الناس فى آرائهم ومذاهبهم، ومواطن إقامتهم وألوان أجسادهم، وأطوالهم وأعراضهم إنما هى اعتبارات ومصطلحات، أو مصادفات واتفاقات، تعرض لجوهر الإنسانية بعد تكوينه واستتمام خلقه، وتتوارد عليه توارد الأعراض على الأجسام، ففى كل بلد، وفى كل عصر يستعجم العربى ويستعرب الأعجمى، ويسلم المسيحى ويتمسح المسلم، ويلحد المؤمن. ويؤمن الجاحد، ويستشرق المغربى، ويستغرب المشرقى، ولو شئت أن أقول لقلت أنه لا يوجد فوق رقعة الأرض من لا يزال يمسك حتى اليوم بطرف سلسلة، ينتهى طرفها الآخر بوطن غير وطنه، ودين غير دينه، وأمة غير أمته.

إذا جاز لكل إقليم أن يتنكر لغيره من الأقاليم، جاز لكل بلد أن يتنكر لغيره من البلاد، بل جاز لكل بيت أن ينظر تلك النظرة الشزراء إلى البيت الذى يجاوره، بل جاز للأب أن يقول لولده، وللولد أن يقول لأبيه: إليك عنى، لا تمد عينيك إلى شىء مما فى يدى، ولا تطمع أن أُوثرك على نفسى بشىء مما اختصصتها به، لأننى غيرك، فيجب أن أكون عدوك المحارب لك، وهناك تنحل كل عقدة وتنفصم كل عروة، ويحمل كل إنسان لأخيه بين أضلاعه من لواعج البغض والمقت ما يرنق عيشه، ويطيل سهده، ويقلق مضجعه ويحبب إليه صورة الموت، ويبغض إليه وجه الحياة، وهنالك يصبح الإنسان أشبه شىء بذلك الإنسان الأول فى وحشته وانفراده، يقلب وجهه فى آفاق السماء، وينبش بيديه طبقات الأرض فلا يجد له فى الوحشة مؤنسًا، ولا على الهموم معينًا.

الجامعة الإنسانية أقرب الجامعات إلى قلب الإنسان، وأعلقها بفؤاده، وألصقها بنفسه، لأنه يبكى لمصاب من لا يعرف -وإن كان ذلك المصاب تاريخًا من التواريخ أو أسطورة من الأساطير، ولأنه لا يرى غريقًا يتخبط فى الماء، أو حريقًا يتلظى فى النار، حتى تحدثه نفسه بالمخاطرة فى سبيله، فيقف وقفة الحزين المتلهف إن كان ضعيفًا، ويندفع اندفاع الشجاع المستقتل إن كان قويًا، ويسمع وهو بالمشرق حديث النكبات بالمغرب فيخفق قلبه وتطير نفسه لأنه يعلم أن أولئك المنكوبين إخوانه فى الإنسانية، وإن لم يكن بينه وبينهم صلة فى أمر سواها، ولولا أن ستارًا من الجهل والعصبية يسلبه كل يوم غلاة الوطنية والدين أو تجارهما على قلوب الضعفاء السذج، لما عاش منكوب فى هذه الحياة بلا راحم ولا ضعيف بلا معين.

لا بأس بالفكرة الوطنية، ولا بأس بالحمية الدينية، ولا بأس بالعصبية لهما، والذود عنهما، ولكن يجب أن يكون ذلك فى سبيل الإنسانية وتحت ظلالها، أى أن تكون دوائر الجامعات كلها داخلة فى دائرة الإنسانية العامة غير خارجة عنها، والوطنية لا تزال عملاً من الأعمال الشريفة المقدسة حتى تخرج عن حدود الإنسانية، فإذا هى خيالات باطلة وأوهام كاذبة، والدين لا يزال غريزة من غرائز الخير المؤثرة فى صلاح النفوس وهداها حتى يتمرد على الإنسانية وينابذها، فإذا هو شعبة من شعب الجنون.

فإن كان لابد للإنسان من أن يحارب أخاه أو يقاتله، فليحاربه مدافعًا لا مهاجمًا، وليقاتله مؤدبًا لا منتقمًا، وليكن موقفه أمامه فى جميع ذلك موقف العادل المنصف، والشفيق الرحيم، فيدفنه قتيلاً، ويعالجه جريحًا، ويكرمه أسيرًا، ويخلفه على أهله وولده بأفضل ما يخلف الرجل الكريم أخاه الشقيق على ولده من بعده، وليكن شأنه معه شأن تلك الفئة المتحاربة التى وصفها الشاعر فى قوله:

إذا احتربت يومًا ففاضت دماؤها   تذكرت القربى ففاضت دموعها

أدوار الشعر العربى

كانت العرب فى جاهليتها أمة هائمة متبدية على الفطرة النقية البيضاء، لا تعبث الحضارة بجمالها، ولا تعبث المدنية فى صورتها، شمسها فى آفاقها، فتنبسط أشعتها على سهولها وحزونها ونجادها ووهادها، من حيث لا يعترض سبيلها من الظل سحب، ولا من السقوف حجب، وينبت نباتها حيث يجرى ماؤها، لا تعبث فيه الأيدى بتربيع ولا تدوير، ولا تقويس ولا تعريج، ويجرى ماؤها فى سبيله حيث ينساب به تسلسله وأطراده، لا تلوى به عن قصده الحفائر، ولا تنتصب فى وجهه القناطر، ويهيم وحشها فى جبالها.. وطيرها فى أجوائها من حيث لا يحبس الأول عرين موصود.. ولا الآخر قفص محدود، والشعر من وراء ذلك كله مرآة صافية تتمثل فيها تلك المناظر الفطرية على طبيعتها وفطرتها.

ينطق العربى بما يعلم.. ويقول ما يفهم ويصوّر ما يرى ويحدث عما تمثل فى نفسه حديثًا صادقًا لا تكلف فيه ولا تعمل.. لأن كلا ما هو محيط به من هواء وماء وأرض وسماء.. وطعام وشراب، ومرافق وأدوات. على الفطرة السليمة الخاصة، فأحرى أن يكون شعره كذلك.

ذلك كان شأن الشعر العربى والعربى على فطرتهم. وذلك معنى قولهم: الشعر ديوان العرب، لأنه صورة حياتهم الاجتماعية والأدبية؛ ومثال خواطرهم الحقيقية والخيالية؛ فإن ظن ظان أن التماثيل والنصب والصور والتهاويل، وبقايا الآثار، وقطع الأحجار التى نراها فى خرائب اليونان والرومان، والفينيقيين والفراعنة؛ أدل على تواريخ أولئك الأقوام من الشعر العربى على تاريخ العرب قلنا له: ما من ديوان من دواوين الأمم الماضية إلا وقد تحدث المؤرخون بعبث الأيدى به ولعبها بسطوره وسجلاته؛ أما الديوان العربى فصورة صحيحة وآية ثابتة، لا تغيير فيها ولا تبديل.

ثم جرت بعد ذلك جـوار بالسعد والنحس؛ فانتقلت الأمـة العربية من بدواتها إلى حضارتهـا. وهاجر معها شعرها بهـجرتها. فطلع جيش المولدين يحمل لواءه الشـاعران الجليلان: بشار، وأبو نواس، فطرقوا مـعانى لم تكن مطروقة، ونهـجوا مناهج لم تكن مـعروفة؛ فـقلنا لا بأس، فالشعـر العربى أوسع من أن يضيق بحاجات أمته وضرورتهـا، فى جميع شؤونها وحالاتها، حتى جاء أبو تمام شيخ الصناعـة اللفظية، فسلك إلى كثير من معـانيه البديعة طريق اللفظ المصنوع والأسلوب المتكلف، فـثغر فى الـشعر العـربى ثغرة ألح عليهـا السائرون على أثره من بعـده بأظفارهم وأنيابـهم حتى صيـروها فوهة واسعة لا تمنع مـا وراءها ولا تدفع ما أمامهـا، فأصبح الشعـر على عهد ابن حجة وابن الفارض وابن مليك والصفدى والسراج والورّاق وأبى الحسن الجزار والصفى الحلى وأمثالهم، أشبه شىء بتلك الآنية الصـينية التى يضعها المترفون فى زوايا مـجالسـهم وعلى أطراف مـوائدهم ظهـرًا زاهيًا، وبطنًا خـاويًا، لا تشفى غلة، ولا تـبض بقطرة، ولا تسمن ولا تغنى من جـوع، ثم جاء على أثر هؤلاء من تدلى إلى منزلة أدون من هذه المنزلة، فـجاءوا بشىء هو أشـبه الأشياء بتلك التفاعيل التى وضعـها الخليل ميزانًا للشعر، لا يروق لفظها ولا يفهم معناها.

وعلى هذا المورد الوبيل وقف الشعر الوبيل، وقف الشـعر العربى بضعة قرون لا يتـزحزح عنهـا ولا يتحلحل، حتى أنزل الله إليـه من ملائكة البـيان رسلاً فى هذا العهد الأخـير أخذوا بيده، ونشروه من قبره ونفـضوا عنه غباره فأصبحنا نرى فى إيراد الكثير منهم، أجـسام امرئ القيس، والنابغة، ومسلم، وأبى نواس، وأبى عبادة، والـشريف، ومهيار لا فـرق بينهم وبينهم سوى أن هؤلاء مقلدون يتبعون الآثار وأولئك مبتدعون يفترعون الأبكار.

حوانيـت الأعـراض

أنا لا أستطيع أن أتصورّ الفرق بين رجل يمد يده إلى خزانة بيتى فيسرق

مالى، وبين آخر يمد لسانه أو قلمه إلى شرفى فيستلبه، كلاهما مجرم فاتك، وكلاهما لص مغتال، وإن كان أولهما فى نظر القانون وفى عرف الناس أكبرهما إثمًا، وأسوأهما أثرًا.

المال خادم من خدام الشرف، وحاجب من حجابه والوقوف على بابه، ولولا مكان الشرف، والكلف بصيانته، والضن به أن يعبث بجوهره عابث. ما كان لامرئ فى هذا المعدن الصامت أرب أكثر من أن يقيم به صلبه. ويمسك به حوباءه، فإن كان سارق المال مجرمًا من حيث كونه هاتكًا لذلك الحجاب المسبل دون الشرف، فجدير بمن يسرق الشرف نفسه أن يكون رأس الجانين وأكبر المجرمين.

يكون للرجل -من الصحفيين مثلاً- عند الرجل من كرام الناس وسراتهم وذوى السيرة الصالحة فيهم مأرب من المآرب التى لا يعرف لنفسه فيها حقًا ولا يمت إليها بسبب من الأسباب الظاهرة أو الباطنة، فما هو إلا أن يمتنع عليه حتى يرميه بسهم جارح من سهامه النافذات، يصيب به مقتلاً من شرفه وكرامته، ولا ذنب له عنده إلا أنه لم يكن من لحيته يلف عثنونها على يده ثم يقوده بها إلى حيث شاء كما تقاد السائمة إلى مصرعها.

يحب الرجل المجد حبًا يملأ ما بين جوانحه، ويكلف به حتى يصبح آثر عنده من نفسه التى بين جنبيه، ويقضى لكلفه به وحرصه عليه سواد ليله يساهر الكوكب حتى ينحدر إلى مغربه، وبياض نهاره يساير الشمس حتى تغرب فى حمأتها، ويقيم بينه وبين شهوات نفسه ونزعات قلبه حربًا عوانًا يحمل فى سبيلها ما لا يستطيع أن يحمله بشر، حتى إذا أمكنه المقدار منه وبدأ ينهل أول نهلة من مورده البارد العذب، رآها ممزوجة بذلك العلقم المر الذى صبه له فى إنائه ذلك المجرم الأثيم.

إن بين جدران بعض تلك القاعات التى يسمونها «إدارات» قومًا مفاليك قد دارت عليهم الأيام دورتها، وسلبتهم المواهب التى يعيش بها أمثالهم، ممن ولد مولدهم ونشأ منشأهم. فضاقت بهم سبل العيش التى ما كانت تضيق بهم لو أن الله أبقى لهم بعد أن سلبهم فضيلة الفهم والعلم فضيلة العمل

الصالح والسيرة المستقيمة، فلم يجدوا بين أيديهم منفذاً ينفذون منه إلى القوت، فتحوا حوانيت للاتجار بأعراض الناس وكرامتهم سموها صحفًا، وأكثر مشتملاتها أعراض الأشراف والعظماء وأرباب الجد والعمل، الذين سبقوهم إلى فردوس السعادة، وخلفوهم وراءهم يتآكلون غيظًا لحرمانهم مما أفاض الله عليهم. فهم إن فتشت عنهم، وكشفت عن دخائل نفوسهم، علمت ألا فرق بينهم وبين أولئك الفوضويين الذين يدينون بقتل الملوك والأمراء، وأستغفر الله، فللفوضويين رأى فى تلك الجرائم يرونه، وفكرة خاصة يعتقدون صحتها، بل هم كقطاع الطريق الذين يهاجمون والرائحين ولا ذنب لهم عندهم إلا أنهم مزودون وهم مقفرو الأيدى من الزاد.

ولقد يكون خطبهم سهلاً ومصابهم محتملاً، لو أنهم صرحوا عن أنفسهم وأبدوا للناس صفحات وجوههم، وطلبوا قوتهم من طريق الكدية الواضحة البينة، ولكنهم مراءون مخادعون، يشتمون باسم الموعظة ويقرضون الأعراض باسم النصيحة، ويتهمون الأبرياء باسم الغيرة الدينية أو الأدبية، ووالله ما بهم من أدب ولا دين، ولا عظة ولا نصيحة، ولكنهم قوم محددون، قد بلغت الفلاكة منهم مبلغًا، وضاقت بهم الأرض الفضاء على رحبها، فهم يروِّحون عن نفوسهم بالنيل من شرف الشرفاء، وتنغيص لذة السعداء. . ويطلبون قوتهم فيما بين هذا وذاك من يد تلك الفئة الساذجة التى لا يستطيع أن تفرق بين الكاتب الذى يكتب ليقوِّم معوجًا، أو يصلح مختلاً، أو يرفع بدعة باطلة، أو يكشف عن حقيقة خافية، وبين الآخر الذى يدور مع الدينار دورة الحرباء مع الشمس، لا يفارقه حتى تفارقها، والذى لا يلذه شرب الماء إلا ممزوجًا بدم. ووالله ما أدرى ما الذى أقامهم هذا المقام وعهد إليهم هذا العهد، ومن الذى وكل إليهم النظر فى شؤون الناس والفصل فى قضاياهم، والقيام على حسناتهم وسيئاتهم وما هم بالبررة الأتقياء الذين يصلحون أن يكونوا أمثلة حسنة فى منازلهم، فيكونوا قدوة صالحة فى أمتهم، ولا بالعلماء الفضلاء فتهتدى بهداهم، ونستن بسنتهم، ولا بالصادقين المخلصين فتتعبد بإجلالهم وإعظامهم، بل ليس لواحد منهم فضل الصانع فى مصنعه، أو التاجر فى حانوته، أو العامل فى معمله، فيصلح أن يكون حكمًا فى قضايا الأشراف والنبلاء، وميزانًا لحسناتهم وسيئاتهم. وعندى أن لو

جمعت عيوب الناس جميعها فى كفة ميزان، ووضعت فى الكفة الأخرى عيوبهم الجامعة للسفاهة والكذب والنميمة والتجسس، وهتك الأعراض، واتهام الأبرياء، واستهواء الضعفاء، لثقلت كفتهم أمام كفة الذين يزعمون أنهم يقوِّمون معوجهم ويثقفون منآدهم، ويصلحون ما فسد من شؤونهم.

الرثــــاء

ما أنس لا أنسى رجلاً كان خير من لقيت من الرجال، وكان يعجبنى منه أدبه وفضله، وعفته وحياؤه، وشرف نفسه، وطهارة قلبه، وأنه كان صبوراً محتملاً تقرع الخطوب صفاة قلبه فترتد عنها ثانية، كما ترتد الكرة عن الحائط إذا قرعتها.

كان فقيراً لا يملك من الدنيا أكثر مما يقيم صلبه، ويمسك حوباءه ويستر سوأته، فزوَّجه أبوه بابنة عم له لم يكن مثلها فى دمامتها، وسوء خلقها، وجفاء طبعها، ممن يطمع مثله فى جمال خلقه ولين حاشيته وانسجام طبعه، فكبرت نفسه عن مخالفة أبيه، لأنه كان برًّا به، مطيعًا له، نازلاً عند أمره ونهيه، وعن مجافاة زوجه وأطراحها والانقباض عنها، لأنه كان واسع الصدر، فسيح رقعة الحلم، رقيقًا بالضعفاء والعاجزين، فتزوجها وفى نفسه من المضض والألم ما يلهب الجوانح، ويذيب لفائف القلوب.

وأذكر أنى على طول عشرتى له، ولصوق نفسى بنفسه، ما سمعته يشكو إلىَّ يومًا من الأيام ما كان يعالجه من سوء عشرتها، ويكابده من شرورها التى لا تغبه ليلها ونهارها ثقة بالله ورحمته. وإيثاراً لفضيلة الصبر والجلد، وسكونًا إلى ما جرت به الأقلام فى ألواح المقادير. فكنت أرحم صمته وسكونه، وأرثى لجمود عينيه عن البكاء، لأنى أعلم أن نيران الأحزان لا يسكن اضطرامها، ولا يهدأ اعتلاجها، إلا باطراد العبرات وتصاعد الزفرات. وكان كل ما ينعم به من لذائذ هذه الحياة وأطايبها؛ أنه كان يسافر

فى كل شهر مرة أو مرتين إلى أحد أصدقائه فى الريف فيقضى عنده يومين أو ثلاثة ثم يعود وفى ثغره ابتسامة تتلألأ تلألؤ نجمة الصبح قبل انحدارها إلى مغربها ثم لا تلبث أن تتلاشى، ولا يلبث أن يعود إلى جموده الأول، لا يحزن فيبكى، ولا يفرح فيبتسم، حتى يخيل للناظر إليه أنه يعيش فى عالم غير هذا العالم، ولا يظلله ليل ولا يضيئه نهار.

قضيت فى صحبته على حاله تلك بضع سنين أعلم من دخيلة نفسه ما يحسب أنى أجهله فأكاتمه ذلك العلم جهدى رفقًا به وإشفاقًا عليه، حتى زرته فى منزله ذات يوم فرأيته جاثمًا فى مقعده الذى كان يقتعده من غرفته وقد أطرق إطراقًا طويلاً ذهل فيه عن نفسه فلم يشعر بدخولى حتى أخذت مكانى، فرفع رأسه فأدهشنى من منظره اصفرار وجهه وذبول عينيه، وما كان يغشى جبينه من دخان تلك النار التى تشتعل بين جوانحه، ثم نظر إلىَّ نظرة طويلة لا عهد لى بمثلها من قبل وقال:

- أتعتقد أن الله موجود؟ قلت: نعم -معالجًا نفسى على كتمان ما كان يذهب بلبى من تنكر حاله، وتغير أطواره.

قال: وتعتقد أنه عادل؟ قلت: نعم.

قال: وراحم؟ قلت: نعم.

فبسط يده إلىَّ فعل الضارع المستصرخ وقال:

- هل لك أن تحدثنى أيها الصديق عن نزول الصواعق، وثورة البراكين، وطغيان البحار، وغرق السفن، وانتشار الأوباء، وفتك الأداء، ونكبات الفقر والجوع، وتلك العيون التى لا تزال منهملة البكاء، والضلوع التى لا تزال ملتهبة بنيران الهموم والأحزان؟ هل تعتقد أن ذلك كله عدل من الله ورحمة؟

قلت: نعم، إن الله يمتحن عباده ليعلم الذين صبروا فيدخر لهم فى دار نعيمه من المثوبة والأجر أضعاف ما كانوا يقدرون لأنفسهم من سعادة الحياة وهناءتها.

قال: إن الله أكرم من أن يجعل الشر طريقًا إلى الخير، وألا يحسن إلى عباده إلا بعد أن يسلبهم الإساءة.

قلت: ذلك ما كتب على نفسه أن يجازى كل عامل بعمله. إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

قال: إنه كتب على نفسه الرحمة.

قلت: نعم، إنه أكرم الكرماء، وأرحم الرحماء.

قال: حدثنى عن الولد الصغير الذى لم يخالط نفسه شر، ولم يتسرب إلى قلبه كيد، ما لى أراه مفترشًا حجر أمه وقد تولى الليل إلا أقله يتقلب على مثل جمر الغضى مما يساوره من الآلام؟ فينتفض تارة ويختلع أخرى، ويصرخ صرخات تستمطر الدموع، وتحول بين العين وبين الدموع؟ وما لى أرى أمه باكية مولهة، ذاهلة اللب موجعة القلب، تفزع لفزعاته، وتصرخ لصرخاته وقد اختبل عقلها والتاث أمرها، وعظم يأسها، وفنيت حيلتها وقل مساعدها وضعف ناصرها، فأنشأت تقلب وجهها فى السماء ضارعة إلى الله تعالى أن يأخذ بيدها ويرحم نفسها برحمة ولدها، وبينا هى تنتظر صوت الإجابة يرن فى آفاق السماء، إذا بها تسمع حشرجة الموت فى صدر ولدها، وإذا به ينزع نزعًا مؤلمًا يطير باللب، ويذهب ببقية الصبر، حتى تفيض نفسه، فماذا جنى هذا الولد الصغير حتى أصبح لا يستحق رحمة من الله ولا رأفة؟

قلت: وما يدريك لعل الله أراد به خيراً فرحمه بالموت المعجل من حياة علم أنه سيلقى فيها مثلما تلقى أنت اليوم من الشقاء الممض والعذاب الأليم؟

فنالت هذه الكلمة من نفسه، وجمد أمامها جمودًا طويلاً، ثم قال: أحسنت أيها الصديق، ليت الذين يشقون فى هذه الحياة يشعرون بصغر هذه الدنيا، وحقارة شأنها، فيتمنون لو لم تلدهم أمهاتهم ولم يكتب لهم سطر واحد فى الوجود، وبعد فهل لك فى سفرة معى إلى ذلك الصديق الريفى نقضى عنده يومًا واحدًا ثم نعود؟ على أن تكون معى كما كان موسى مع الخضر، لا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً؟

فوافيت رغبته، وقبلت شرطه ثم قام وقمت، ولو أننى ملكت فى هذه اللحظة الدنيا بحزافيرها لوهبتها لمن يكشف لى سر صديقى ويدلنى على مكان نكبته التى زعزعت نفسه، وصهرت قلبه، وملكت عليه لبه، وكادت تعبث بيقينه، وما هى إلا ساعات حتى بلغنا المنزل الذى اردناه، وقد أظل الليل بجناحيه، فقضينا واجب التحية والسلام، ثم خلا الصديق بصديقه خلوة طويلة لا أعلم ما دار فيها بينهم، ثم خرجا إلىَّ فجلسنا ساعة نتحدث. ثم قمنا إلى فراشنا فنمت نومًا متقطعًا مملوءًا بالوساوس والهواجس، فما انتصف الليل حتى شعرت أن صديقى يتحرك فى فراشه، ويطيل النظر إلىَّ ليعلم أنائم أنا أم مستيقظ؟ فتناومت حتى رأيته قد قام من مكانه يختلس الخطى اختلاسًا حتى وصل إلى المشجب فلبس أثوابه، ثم تسلل من الغرفة فخفق قلبى خفقة الرعب والفزع وقلت: لابد أن الرجل يريد بنفسه شرًا وأنا أكون ألأم الناس إن أنا تركته يصنع بنفسه ما يشاء، فقمت على أثره أتتبع خطواته، وأسير وراءه من مدرجة إلى أُخرى؛ حتى بلغ مقبرة البلد، فوقف هنيهة يشرف على تلك النواويس العظام التى جثمت فى أمكنتها جثوم الآبال فى معاطنها، ثم مشى يتصفح القبور قبرًا قبرًا، فخيل إلىَّ أنه شبح من أشباح الموتى يهيم فى أرجاء تلك المقبرة الموحشة، فملكنى من الخوف والرعب ما كاد يحل عقدة لسانى لولا إجلالى لهذا الموقف الرهيب، وشعورى أننى واقف على أبواب تلك الدور التى سلب خوفها العاقلين عقولهم، وأطار طائر الغمض عن أجفانهم، ونغص عليهم ما يتمنون أن يصفوا من طعامهم وشرابهم، والتى يفد إليها كل يوم وفود البشر محمولين على أيدى أهليهم، وذوى أرحامهم.. ليقدموهم بأنفسهم هدية إلى الحشرات والديدان لتأكل لحومهم وتمتص دماءهم وتتخذ من سواد عيونهم وبياض ثغورهم، مراتع ترتع فيها كما تشاء.. من حيث لا يملك مالك منهم عن نفسه دفعًا، ولا يعرف إلى النجاة سبيلاً.

مرت بخاطرى تلك الذكرى فملكت على نفسى حتى ذهلت عن موقفى، وأنستنى الحيرة فى أمر نفسى الحيرة من أمر صديقى، وفيما يعالجه منذ الليلة من غرائب الشؤون وعجائبها، ثم استفقت فرأيته جاثيًا أمام قبر من

تلك القبور جثىً العابد بين يدى معبوده، فدلفت إليه حتى دنوت منه فسمعته يقول:

اللهم إنك تعلم أنى ما كفرت نعـمتك، ولا خفرت ذمتك، ولا هتكت حرمة من حرماتك، ولا نزلت عند سخـطك وغضبك، ولا تبرَّمت بقضائك وقـدرك، وإنك أحسنت إلىَّ بتلك الطفـلة إحسـانًا عظيمًـا لأنك أنقذت بهـا حياتى من همومها وآلامها، ثم لـم تلبث أن سلبتنيها وشيكًا أهنأ ما كنت بها وأرجى ما كنت إلى قضاء سـاعات العمر بجانبها، فاغـفر لى جزعى وحزنى فكثير علىَّ أن لا أجزع ولا أحزن.

لقد تبدلت الأرض غير الأرض والسمـوات، وكأنما استحالت فى نظرى حـقائق الأشـيـاء، فـأصبـحت لا أرى فى النجـمـة لألأها، ولا فى الزهرة جمالها، ولا فى السماء صفاءها، فـهل كانت فتاتى سر هذا الوجود حتى إذا ذهبت ذهب بذهابها كل شىء؟

لقد ذهـبت بى الأيام فيـما مضـى كل مذهب، وجـرَّعتنى من كـئوس الشقاء جرعًا ما أحتمل فيم قبل فمى مرارتها، فاغتفرت لها كل ذنوبها عندى حينما أسـدت إلىَّ تلك اليد التى أنستنى جمـيع هموم الحياة وآلامـها. . وأما اليوم وقد صفـرت منها يدى، وأقفر بفراقها ربعـى. . وحالت تلك الصفائح بينى وبينها، فلا عزاء ولا سلوى.

من لى بضـربة من ضربات الدهر تذهب بذاكـرتى جملة واحـدة، فلا أعود أذكـر أيام حياتهـا معى ومقعـدها بجانبى، وصوتهـا الرقيق، وحديثـها العذب، وصفـاء عينيها، ورونق وجهـها، وصورة قومتـها وجيئتـها وذهوبها وضحكها وبكائها ويقظـتها ومنامها، وحزنها لفـراقى وسرورها بلقائى، فإنى كلما ذكـرت ذلك شعرت كأن قلبى المجـموع قد استـحال إلى أفلاذ صغـيرة تتطاير فى أجواز الفضاء.

اللهم إنى أعلم أن الدنيـا ليست بدار قـرار، فلا أمل فى البقـاء فيـها، والركون إليها، والاستمتاع بلذة العيـش فيها، وإنها الجسر الذى يمر به الأحياء إلى دارهم الأخرى، وكل مـا كنت أطمع فيـه منها أن يكون لى كـما للناس

جميعًا رفيق يعيننى على قطع تلك الشقة البعيدة، ويهوّن علىَّ آلام وحشتها وكآبتها، فحرمتنى ذلك الرفيق المعين. فكيف أسير، وأين أعيش؟

اللهم إنك سلبتنى كل شىء حتى الدموع التى يريح بها الباكون أنفسهم ويطفئ بها المحزونون لواعج قلوبهم، فأصبح الحزن يغلى بين جوانحى غليان الماء فى القدر المحكمة الغطاء، فامنن علىَّ بدمعة واحدة أطفئ بها غليلى، ولا أحسب أنك تمنعنيها، فالدموع هى الرحمة العامة التى كتبت على نفسك أن تعالج بها نكبات المنكوبين، وبؤس البائسين.

اللهم لا ريبة فى عدلك، ولا ظنة فى كرمك، ولا اعتراض على قضائك وقدرك، ولا سخط فى ابتلائك ومحنتك، خرج أمر نفسى من يدى، وأصبحت لا أستطيع أن أبصر ما بين يدى، فاغفر لى سقطى وزللى.

اللهم إنك منعتنى حظى من الحياة، فلا تمنعنى حظى من الموت، فاسترد إليك عاريتك التى أعرتنيها فقد عجزت عن حملها؛ وضقت ذرعًا بأمرها؛ إنك بعبادك رؤوف رحيم.

وما أتم كلمته حتى صاح صيحة عظمى، ثم سقط على صفائح القبر؛ فعلمت أن الرجل قد انفجر؛ وأن الله قد استرد وديعته إليه؛ واختار للرجل ما عنده؛ فذعرت وارتعدت والتفت حولى فإذا صديقه واقف ورائى يشهد المنظر الذى أشهد، ويذرف من الدموع أضعاف ما أذرف، فدنونا منه معًا وحركناه فإذا هو ميت، فنقلناه إلى المنزل، وبتنا حول سريره نقضى حق صحبته تارة بالدموع وأخرى بالإطراق والخشوع، وهنالك قص علىَّ ذلك الصديق قصته وكشف لى عن خبيئة أمره فقال: إنه قضى زمنًا طويلاً يشكو إلىَّ آلام نفسه التى يعالجهم من سوء عشرة زوجه وخشونة طبعها، وجفاء خلقها، ثم اقترح علىَّ يومًا من الأيام أن أزوجه من أختى ففعلت رحمة به وإشفاقًا عليه، من حيث لا يعلم أبوه ولا أحد من أهله بذلك فكان يزورنا فى كل شهر مرة أو مرتين، وظل على ذلك عدة سنين، حتى وعكت تلك المسكينة وعكة ذهبت بها إلى ربها؛ وتركت له فتاة فى الخامسة من عمرها فكانت هى عزاءه الوحيد عن كل ما فاته من نعيم الحياة وهناءتها، وكان يختلف إليها كما كان يختلف إلى أمها، وشغف بها شغفًا بلغ به حد الجنون، وكان كثيرًا ما يقول لى إننى

أشعر أن حياتينا أنا وهذه الطفلة حياة واحدة، وإنا إما أن نعيش معًا، أو نموت معًا وكأنه ألهم بما سيكون، فقضى الله أن تمرض الفتاة مرضة شديدة لم تمهلها أكثر من خمسة أيام ثم لحقت بأمها ولما تسلخ الثامنة من عمرها، فنعيتها إليه بكتاب أرسلته إليه بالأمس، فجاء وجئت معه، ثم كان بعد ذلك ما قدر الله أن يكون.

دفنت صديقى بيدى، وألحدته بجانب ابنته التى قطع جسر الحياة الطويل فى لحظة واحدة شوقًا إليها، ووجدًا عليها، ثم عدت إلى بلدتى صفر الكف من ذلك الإنسان الذى كنت مالئًا منه يدى، والذى كنت أجله وأعظمه حيًّا ولا أزال أبكيه وأذكره ميتًا، وأتخذ حياته الشريفة الحافلة بمواقف الصبر والجلد، والوفاء والكرم عبرة أعتبر بها حتى يجمع الله بينى وبينه.

كفى حزنًا بموتك ثم إنى	نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت فى حياتك لى عظات	وأنت اليوم أوعظ منك حيا

الشعر

كتب إلىَّ كاتب يقول: عرفناك قبل اليوم شاعرًا ما تكاد تكتب سطرًا ثم رأيناك بعد ذلك كاتبًا ما تكاد تنظم بيتًا، فلم لم تكتب فى عهدك الأول، ولم لم تنظم فى عهدك الثانى؟ كأنما ظن عافاه الله أننى أكتب اليوم بقلم غير قلم الأمس، أو أهيم فى واد غير ذلك الوادى! وهل الشعر إلا نثارة[1] من الدر ينظمها الشاعر إن شاء شعرًا، وينثرها الكاتب إن شاء نثرًا؟ أو نغمات الموسيقى يسمعها السامع مرة من أفواه البلابل والحمائم، وأخرى من أوتار العيدان والمزاهر، أو عالم من عوالم الخيال، يطير فيه الطائر بقادمتين[2] من عروض وقافية أو خافيتين[3] من فقر وأسجاع.

---

(١) النثارة: ما تناثر من الشىء.

(٢) القادمة: مفرد قوادم، وهى عشر ريشات فى جناح الطائر.

(٣) الخوافى: ريشات إذا ضم الطائر جناحيه اختفت.

الكاتب الخيالى شاعـر بلا قافية ولا بحر، وما القافـية والبحر إلا ألوان وأصباغ تعرض الكلام فيمـا يعرض له من شؤونه وأطواره التى لا علاقة بينها وبين جوهره وحـقيقـته، ولولا أن غـريزة فى النفس أن يردد القائل مـا يقول ويتغنى بما يردد ترويحًا عن نفـسه، وتطريبًا لعاطفته، مـا نظم ناظم شعرًا ولا روى عروضى بحرًا.

ما كان الرجل العربى فى مبدأ عهده ينظم الشعر. . ولا يعرف ما قوافيه وأعاريضه، وما علله وزحافاته؟ ولكنه سمع أصوات النواعير وحفيف الأوراق وخرير الميـاه، وبكاء الحمائم، فلذ له صـوت تلك الطبيعـة المترنمة ولذ له أن يبكى لبكائها وينشجج لنشيجهـا، وأن يكون صداها الحاكى لرناتها ونغماتها؛ فإذا هـو ينظم الشعـر من حيث لا يفـهم من شؤونه سـوى أنه تلك النغـمة الموسيقية العذبة الخالبـة، ولا من أبحره وضروبه سوى أنها صورة من صوره، ولون من ألوانه.

ذلك منتهى نظر العربى إلى الشعـر، وذلك ما دعاه إلى أن يسمى النبى الذى بعثه الله إليه شـاعرًا، وهو يعلم أنه ما قصد فى حياته قـصيدة ولا رجز أرجوزة، ولكنـه سمع من كتـاب الله وآياته المفصـلات أبلغ الكلام وأفصـحه وأعلقـه بالنفوس وآخـذه بالألباب، وأملكه للعـواطف والمشاعـر، وأجمـعه لصنوف التـشبيـهات البـديعة، والاسـتعـارات الدقيـقة والمجازات الـرائعة، والكنايات المسـتطرفة، وأمـثال تيك مما لا يـنطق به الناطق فى أكثـر مناحيـه ومنازعه إلا عند ذهابه مذهب الخيـال الشعرى فشبه له فسمى ما سـمعه شعرًا وسمى الناطق به شاعرًا، وما هو بشاعر ولا ساحر ولا كاهن ولا مجنون.

ما كل موزون شعرًا، وكل ناظم شاعرًا، فالوزن ملكة تعلق بالنفس من طول ترديد المنظوم والتـغنى به مقطعًـا تقطيعًا يـوازن تفاعيله. . فـهو نغـمة موسيقية ولحن خاص من ألحان الغناء، يتمثل فى قول الملك الضليل(١).

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

كما يتمثل فى قول الخليل:

(١) هو لقب امرئ القيس.

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

ويتراءى فى أوتار الحلق الناطق كما يتراءى فى أوتار العود الصامت.

أما الشعر فأمر وراء الأنغام والأوزان، وما النظم بالإضافة إليه إلا كالحلى فى جيد الغانية الحسناء، أو الوشى فى ثوب الديباج المعلم. فكما أن الغانية لا يحزنها عطل جيدها، والديباج لا يزرى به أنه غير معلم، كذلك الشعر لا يذهب بحسنه وروائه أنه غير منظوم ولا موزون.

ذلك هو الفرق بين الشعر والنظم، وها أنت ترى ألا صلة بينهما غير تلك الصلة الاصطلاحية التى لا منشأ لها سوى ما اعتاده الناس من أنهم ينظمون ما يشعرون به، وتلك الصلة هى التى خلطت بينهما وعمت على كثير من الناس أمرهما، وهى التى أدخلت النظامين فى عداد الشعراء وألقت عليهم جميعًا رداءً واحدًا لا يستطاع معه التمييز بينهما إلا القليل من الناقدين، فأصبحنا نقرأ لبعض المعاصرين القصيدة ذات المائة بيت فلا نجد بيتًا، ونتصفح الديوان ذا المائة قصيدة فلا نعثر بقصيدة، وأصبحنا لا نكاد نجد بيننا قارئًا غير شاعر لأنه لا يوجد بين الناس من يعجزه تصوُّر تلك النغمة العروضية وتصويرها حتى العامة والأميين.

ولقد كتب الكاتبون فى تعريف الشعر وأمعنوا إمعانًا بعد به عن مكانه وضل به عن قصده، وعندى أن أفضل تعريف له أنه (تصوير ناطق) لأن قاعدة الشعر المطردة هى التأثير، وميزان جودته ما يترك فى النفس من أثر، وسر ذلك أن الشاعر يتمكن ببراعة أسلوبه، وقوة خياله، ودقة مسلكه، وسعة حيلته، من رفع ذلك الستار المسبل بينه وبين السامع، فيريه نفسه على حقيقتها حتى يكاد يلمسها ببنانه، فيصبح شريكه فى حسه ووجدانه، يبكى لبكائه، ويضحك لضحكه، ويغضب لغضبه، ويطرب لطربه، ويطير معه فى ذلك الفضاء الواسع من الخيال، فيرى الطبيعة بأرضها وسمائها، وشموسها وأقمارها، ورياضها وأزهارها، وسهولها وجبالها، وصادحها وباغمها[١] وناطقها وصامتها، من حيث لا ينقل إلى ذلك قدمًا، أو يلاقى فى سبيله نصبًا، فإن سمع قول القائل:

---

(١) يقال: بغم الغزال إذا صوت بأرخم صوته، فهو باغم.

وقـانا لفحـة الرمـضـاء واد سقـاه مضـاعف الغيث العـميم
نزلنا دوحـه فـحنـا علينا حنو المرضـعـات على الفطيم
وأرشـفنا عـلى ظمـأ زلالا ألـذ من المدامـة لـلنديم
يصد الشمس أنى واجهـتنا فـيحـجبـهـا، ويأذن للنسيم
يروع حصاه حـالية[1] العذارى فـتلمس جانب العـقـد النظيم

خيل إليـه أنه يخطر فى ذلك الروض البليل بين أنواره وأزهاره، خطران النسيم بين ظلاله وأشجاره، وأنه يرى بعـينه أولئك العذارى السانحات، وقد راعهن منظر الحصباء اللامع فوق تلك الديبـاجة الخضراء. فتولهن وفزعن إلى جوانب عـقودهن يلمـسنها بأطراف بـنانهن، يحسبن أن قـد وهت فانتـثرت جواهرها على بساط ذلك الروض الأريض.

وإن سمع قول الآخر:

ودار نـدامى عـطلـوها وأدلجـوا
بهـا أثر منـهم جـديد ودارس
حبست بها صحبى وجمعت شملهم
وأنى عـلى أمـثـال تلك لحـابس
أقـمنـا بهـا يومًـا ويومًـا وثـالثًـا
ويومًـا له يـوم التـرحل خـامس
تدار علـينا الراح فـى عـسـجـدية
حـبتـهـا بأنواع التـصـاوير فـارس
قـرارتهـا كـسرى وفى جـنبـاتهـا
مـهـا تدريهـا[2] بالقـسى الفـوارس
فللراح مـا زرّت عليـه جـيـوبهـا
وللمـاء مـا دارت علـيـه القـلانس

---

(١) الحالية: لابسة الحلى.
(٢) أدرى الصيد: ختله.

تمثل له كأنه مر فى ضاحية من ضواحى بغداد بدار موحشة فسمع فيها أصوات قوم يلهون ويقصفون[١] ويقرعون الكؤوس بأمثالها، فاقترب منها وأطل من خصاص[٢] بابها، فرأى أولئك القوم مجتمعين حول دن من الخمر قد تكاملت سنه، وشيب الدهر فوديه[٣] ففصدوه فسال دمه الأحمر فى كؤوس من الذهب منقوشة فارسية قد صورت فى قرارها صورة كسرى فارس ودارت فى جوانبها صور فرسانه متنكبى قسيهم يطاردون بقر الوحش الهارب من بين أيديهم، ورآهم يملأون الكؤوس خمرًا إلى ما يوازى أعناق أولئك الفرسان ثم يمزجونها بالماء إلى ما يغطى رؤوسهم، فتسلل من مكانه مغتبطًا بمجتمعهم، وبما هيئ لهم من الهناءة والنعمة فيه، ثم مر بتلك الدار بعد أيام فرآها مقفرة من أهلها لا تسمع بها نغمة ولا نأمة[٤] فدخلها فلم ير فيها إلا أعواد ريحان قد يبس أكثرها.. مبعثرة فى جوانبها.. وخطوطًا كانت رسمتها زقاق الخمر فوق تربتها فى غدوها ورواحها بين أولئك الندماء فانصرف حزينًا مكتئبًا يسمع صفير الريح الضاربة فى جوانبها فيردد قول القائل:

رب ركب قد أناخوا حولنا ... يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا ... وكذاك الدهر حالاً بعد حال

وإن سمع قول الآخر:

ويوم كتنور الإماء سجرنه[٥] ... وأوقدن فيه الجزل حتى تضرما
رميت بنفسى فى أجيج سمومه ... وبالعيس حتى بض منخرها دما

شعر كأن لهيب تلك الهاجرة يهب فى وجهه فيشيح عنه فرارًا من لفحاته ويكاد يبكى رحمة بذلك الشبح المصهور الذى ملكت عليه تلك التنوفة

(١) قصف: أقام فى أكل وشرب ولهو.
(٢) الخصاص: كل خلل وخرق فى باب أو غيره.
(٣) الفودان: ناحيتا الرأس.
(٤) النأمة: النغمة والصوت.
(٥) سجر الرجل التنور: ملأه وقودًا.

الحمراء سبيله، وحالت بينه وبين نفسه، فلا هو بصابر إن رام صبراً، ولا بناج إن أراد نجاء.

وإن سمع قول الآخر:

وارحمتا للغريب فى البلد النا زح، ماذا بنفسه صنعا؟
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

هملت عيناه حزنًا على ذلك الغريب الحائر، وتمنى أن لو التقى به فى بعض مذاهبه فعطف عليه وآنس وحشته. ثم أخذ بيده فأنزله من بيته منزلاً كريمًا وأبدله أهلاً بأهل، وجيرانًا بجيران.

وإن سمع قول الآخر:

وإن الذى بينى وبين بنى أبى
وبين بنى عمى لمختلف جداً

فإن أكلوا لحمى وفرت لحومهم
وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجداً

وإن ضيعوا غيبى حفظت غيوبهم
وإن هم هووْا غيى هويت لهم رشدا

وإن زجروا طيراً بنحس تمُّر بى
زجرت لهم طيراً يمر بهم سعدا

ولا أحمل الحقد القديم عليهم
وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

لهم جلُّ مالى إن تتابع لى غنًى
وإن قلّ مالى لم أكلفهم رفدا

وإنى لعبد الضيف ما دام ثاويًا
وما شيمة لى غيرها تشبه العبدا

أكبر تلك المكرمة وأجلها، ونظر إليها وهى فى علياء سمائها، نظر

الفلكى إلى كوكبه السارى، وشعر كأن نورها قد لمع فامتد شعاعه إلى نفسه فأضاءها.

ولا غرو أن يبلغ الشعر من نفسه هذا المبلغ، فطالما كان للشعر السلطان الأكبر على النفوس العظيمة، فقد نكب الرشيد البرامكة عندما دس له أعداؤهم ذلك المغنى الذى غناه هذا الصوت:

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد — وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدَّت مرَّة واحدة — إنما العاجز من لا يستبد

وأمر السفاح بقتل وجوه بنى أمية بعدما قربهم وأدناهم عندما دخل عليه سيف مولاه وأغراه بهم فى قوله:

لا تقيلن عبد شمس عثارا — واقطعن كل رقلة[1] وغراس
أنزلوها بحيث أنزلها الله — بدار الهوان والإتعاس
خوفهم أظهر التودد فيهم — وبهم منكم كحز المواسى
أقصهم أيها الخليفة واحسم — عنك بالسيف شأفة الأرجاس
فلقد ساءنى وساء سوائى — قربهم من نمارق وكراسى

بل عطف عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- على الحطيئة وأطلقه من سجنه حين سمعه يقول:

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ — حمر الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة — فاغفر عليك سلام الله يا عمر

بل سمع النبى -صلى الله عليه وسلم- قول قتيلة بنت الحرث تعاتبه فى قتله أخاها النضر بن الحرث على ما بينه وبينه من صلة القرابة:

أمحمد يا خير ضنء كريمة
فى قومها والفحل فحل معرق

---

(١) الرقلة: النخلة التى تفوت اليد.

مـــا كـــان ضـــرُّك لو مننت، وربما
منَّ الـفــتى، وهو المـغــيظ المحنق

والنضـر أقـرب من أصـبت وسيلة
وأحــقـهم، إن كــان عــتق، يعــتق

ظلت ســيــوف بنى أبيــه تـنوشــه
لله أرحـــــام هـنـاك تـشــــقـق

فبكى وقال -وهو من لا ظنة[1] فى عدله، ولا ريبة فى حكمه-: **«لو سمعتها قبل اليوم ما قتلته»**.

لا مؤثر فى نفس الإنســان مثل الشـعر، وما خـضع الإنسان لشىء فى جميع أدوار حياته إلا للشعر، وللشعر الفضل الأول فى نبوغ الإنسان وارتقائه وبلوغه هذا المبلغ البـاهر من التفوق والكمـال.. ولقد أحب الإنسان الشـعر ناطقًا وصـامتًا، أما الناطق فـقد عرفتــه، وأما الصامت، فالتـماثيل التى يراد بنصبها تمثيل حياة عظماء الرجال: شـعر، وهذه النغمات الموسيقية التى تصور خواطر القلوب، ووجداناتهـا فتهيج عاطفة الحب فى نفس العـاشق، وعاطفة الحمـاسة فى نفس الجندى: شعـر، وهدير الأمواج: شعـر، لأنه يمثل عظمة الجبارين، وظلام اللـيل: شعر، لأنه يطلق دموع البـاكين، وحفيف الأوراق: شعر، لأنه يمثل تناجى العشاق، وبكاء الحمـائم: شعر، لأنه يمثل فجيعة البين ولوعة الفراق، تلك النغمات الشعريـة التى نسمعها من فم الإنسان مرة، وفم الطبيعة أخرى، هى التى زخرفت لنا هذه الحـياة، وألبستها ذلك الثوب الناعم الأبيض حتى أحـببناها، وولعنا بهـا، وحرصنا عليهـا، وأعددنا العدة للبـقاء فيها.. والسكون إليها، فكتـبنا ودوَّنا وألفنا واخترعنا، وتعلمنا فعلمنا، وبنينا فشيدنا، وغـرسنا فجنينا، وعملنا فربحنا، واجتهدنا فـأثرينا، وأملنا فسعينا، وسعينا فبلغنا، فكأن الشعر سـر هذه الحياة، وعلة هذا الوجود، لا تطير إلينا الحـقائق إلا عـلى جناحه، ولا يـطيب لنا العـيش إلا فى جواره، فلـنمجـد الشعراء كل التمـجيد، ولنكبرهم كل الإكبار، فهم مشـارق شموس الحكمة،

(١) الظنة: التهمة.

ومطالع كواكب الفضل، وهم الينابيع الصافية التى يترقرق ماؤها، ثم يتسرب إلى الأفئدة فيملؤها سعادة وهناءة.

الشهيدتان

لم تغتمض عيناى ليلة أمس، لأننى بت أسمع فى الدار الملاصقة لبيتى أنين امرأة متوجعة، تعالج همًّا ثقيلاً، وتشكو مرضًا أليمًا، ويخيل إلىَّ أنى لا أسمع بجانبها معللاً يعللها، ولا جليسًا يتوجع لها، فلما أصبح الصباح ذهبت إليها، فإذا قاعة صغيرة مظلمة لا تشتمل على أكثر من سرير بال يتراءى فوقه شبح ماثل من أشباح الموتى، فترفقت فى مشيتى حتى دنوت منها، وكأنها شعرت بمكانى فحركت شفتيها تطلب جرعة ماء، فأسعفتها بها.. فاستفاقت قليلاً، فوقفت بجانبها أسائلها عن خطبها، فأنشأت تقص علىَّ قصتها بصوت خافت متقطع كنت كأنى انتزعه من بين ماضغيها انتزاعًا وتقول:

زوجنى أبى منذ سنوات من رجل مزواج مطلاق، لا يكاد يصبر على امرأة واحدة عامًا واحدًا، ولو كان للفتاة رأى فى نفسها من دون رأى أوليائها لعرفت كيف أحسن الاختيار لنفسى، بل لو لم يكن فى الأمر إلا أن أتبتل كما تتبتل الراهبات، أو أتزوج زواجًا ينتهى بى إلى هذا المصير، لكان لى فى الرهبانية رأى غير ما يراه النساء جميعًا، ولكننى عجزت فأذعنت، وحملت إليه فاستقبلنى بأحسن ما يستقبل به الزوج الكريم أحظى نسائه لديه، وأكرمهن عليه، فكان يرينى من ذلك ما يريب الفريسة من ابتسامة الأسد، وكنت أنتظر يوم الفراق كما ينتظر المجرم يوم القصاص، فما أفقت من صرعة النفاس حتى علمت أنه خطب فتزوج فبنى وأننى أصبحت فى المنزل وحيدة منقطعة لا مؤنس لى إلا طفلتى الصغيرة فجزعت عند الصدمة الأولى، ثم نزلت على حكم القضاء الذى لا أملك ردَّه ولا أعرف وجه الحيلة فيه، واحتملت طفلتى إلى بيت أبى فوجدته مريضًا مشرفًا، فبكى رحمة بى،

واستغفرنى من ذنبه إلىَّ فغفرته له، وما هى إلى أيام قلائل حتى مضى لسبيله مفجوعًا برزئى الذى نزل بى، فعلمت أن الدهر قد سجل علىَّ فى جريدة الشقاء أيامًا طوالاً لا أعلم متى يكون انقضاؤها، ولا أدرى ما الله صانع فيها، فظللت استكتب الناس الكتب إلى ذلك الرجل أسأله القوت، لأستعين به على تربية طفلته، أو التسريح، عسى أن يبدلنى الله خيراً منه زكاة وأقرب رحمًا، فضن بالأولى واستعظم الأخرى، فلم أرى لى سبيلاً غير سبيل العمل، فلبثت بضع سنين ساهرة الليل، قائمة النهار، استقطر الرزق من سم الخياط، فلا أبلغ منه الكفاف.. حتى نال منى الجهد.. فذهبت بمعضلة من الأدواء خرجت لها عن كل ما أملك من حيلة وذخيرة.. وكسوة وآنية، وأصبحت لا أملك درهمًا أبتاع به قارورة الدواء، ولا أجد مزقة أمسك بها قوائم هذا السرير المتداعى، ولم يقنع الدهر منى بذلك حتى رمانى بالداهية الدهياء التى يصغر بجانبها كل عظيم من خطوبه ونكباته، فقد كتبت إلى ذلك الرجل منذ شهر أصف له حالتى وأفضى إليه بذات نفسى وأسأله أن يمدَّنى وابنتى بقليل من القوت نمسك به تلك الصبابة التى أبقتها خطوب الأيام وأرزاؤها من أعظمنا وجلودنا، ولبثت أترقب رجع الكتاب كما يترقب الغريق سواد السفينة، فإنى لجالسة منذ أيام على هذا المقعد أعد على الدهر ذنوبه إلىَّ وسيئاته عندى، فلا أفرغ من عقد إلا إلى عقد، ولا أنتهى إلا إلى حيث أبتدئ، وقد أجلست طفلتى بين يدى أتطلع إلى وجهها الساطع فى ظلمات تلك الخطوب كما يتطلع الملاح فى ظلمات بحره إلى نجمة القطب.. إذ هجم علىَّ ذلك الظالم الجبار فاختطف ابنتى من بين يدى من حيث لا أملك دفعًا لما نابنى، ولا أجد ما أذود به عن نفسى، إلا زفرات لا يسمعها سامع، وعبرات لا يرحمها راحم، فشعرت كأن سهم الدهر الذى كان يروغ قبل اليوم ههنا وهنا.. قد أصاب فى هذه المرة المقتل، فبت ليلتى كما يجب أن تبيت امرأة بائسة معدمة قد فجعها الدهر بكل ما تملك يدها وبكل ما تتعلق به آمالها، فأصبحت لا تجد أمامها يداً تنبسط إليها، ولا عينًا تبكى عليها، وقد مر بى على ذلك نيف وعشرون ليلة لا يرقأ لى دمع ولا يهدأ بى مضجع، حتى إذا اختلست من يد الظلام نعسة تراءت لى تلك الفتاة فى نومها كأنها

تهتف باسمى، وكأن أباها يوسعها ضربًا وتعذيبًا، وكأننى أحاول استنقاذها مما هى فيه فلا أجد إليها سبيلاً، وهأنذا أشعر أن سحابة الموت تغشى على بصرى. وأنى مفارقة هذا العالم قبل أن ألقى على ابنتى نظرة أتزود بها منها قبل أن أفارق هذه الدار.

وما وصلت من حديثها إلى هذا الحد حتى جرضت بريقها وتتابعت أنفاسها وشطر بصرها، فجثوت عند سريرها أدعو لها الله أن يعينها على أمرها، ويمدها برحمته وإحسانه. فإنى لكذلك، وقد استغرقت فى هذا المشهد الذى بين يدى استغراق العابد فى هيكله. إذ رأيت من خلال الدموع التى كانت تزدحم فى عينى شبحًا منتصبًا عند باب الغرفة فتأملته فإذا رجل يمسك بيده فتاة صغيرة. فتقدمت نحوه فرأيته خاشعًا مستكينًا ينظر إلى فتاته نظرات الوجد والرحمة، والفتاة كأنها خرقة بالية لا يتحرك بها عضو، ولا ينبض بها عرق. فقلت: من أنت وماذا تريد؟ قال: أنا زوج هذه المرأة ووالد هذه الفتاة، قلت: لعلك جئت تستغفرها من ذنبك إليها فى التفريق بينها وبين ابنتها؟ قال: يا سيدى ما زالت الفتاة مذ فارقت أمها تبكى عليها بكاءً مرًا، وتهتف باسمها فى يقظتها ومنامها، حتى سقطت مريضة لا ينفعها طب، ولا ينجع فيها دواء، فلما رأيت أن الأمر قد وصل بها إلى هذا الحد جئت بها إلى أمها أرجو أن تجد بين ذراعيها شفاء من دائها، قلت: ذلك موكول إلى القضاء، ولا يعلم الغيب إلا الله، ثم تقدمت نحو الفتاة فرأيتها تجود بنفسها، فاحتملتها برفق حتى وضعتها بين ذراعى أمها، فما هو إلا أن هتفت الفتاة بأمها، والأم بفتاتها، حتى فاضت نفساهما معًا، كأنما كانتا من الردى على ميعاد!!

* * *

الآن وقد عدت من دفن تينك الشهيدتين، وجلست لكتابة هذه السطور، أشعر أن نفسى تسيل من بين جنبى حزنًا على تلك المرأة المسكينة، لا بل حزنًا على جميع البائسات من النساء اللواتى يقتلهن الرجال كل يوم صبراً بسيف الطلاق الماضى، من حيث لا يجدن راحمًا يرحمهن، ولا ثائراً يثأر لهن.

الدعـــــاء

وهى خلاصة قصيدة لفكتور هيجو:

قومى يا بنية إلى الصلاة، فقد نزل ستار الليل، ودب الشفق الأحمر فى حاشية الأفق، وأطلت عيون الكواكب من فروج السحب، وأجرى البدر المنير ليقته الفضية البيضاء على صفحة النهر، ومسحت أيدى النسائم المبتلة بندى الليل عن أوراق الأشجار، غبار النهار.

قومى يا بنية إلى الصلاة. فقد مات النهار، وماتت بموته الآلام والأحزان والأحقاد والأضغان، والمظالم والمآثم؛ ولم يبق من تلك الأعاصير والزوابع ما يعترض وفد الدعاء فى طريقه إلى أبواب السماء.

قومى يا بنية إلى الصلاة، فقد أوى الناس إلى منازلهم، والطيور إلى وكناتها، والوحوش إلى أوجرتها، وأخذت الطبيعة مكانها من مرقدها، ولم يبق من أصواتها إلا أنين الراحة المتمثل فى جعجعة هذه المركبة المقبلة، وجؤار هذه السائمة العائدة من حقولها، ودمدمة تلك الرياح الضاربة فى ذوائب الأشجار، وأعالى الأبراج.

قومى يا بنية إلى الصلاة، فقد جاءت الساعة التى يجثو فيها الأطفال حول أسرتهم حفاة الأقدام عراة الرؤوس، شواخص الأبصار، يطلبون الراحة من الله تعالى لآبائهم وأمهاتهم وللناس أجمعين، فترن أصواتهم، فى علياء السماء، رنين نغمات الموسيقى فى أجواز الفضاء فيرددها الملائكة طائرين بها إلى عرش الرحمن، فإذا فرغوا من دعائهم وقضوا حق الله عندهم، وحقهم عند أنفسهم؛ ذهبوا إلى مضاجعهم وناموا نومًا هادئًا مطمئنًا تتطاير فيه الأحلام الجميلة حول أفواههم الباسمة، كما تتطاير أسراب النحل حول أحواض الأزهار.

قومى يا بنية إلى الصلاة.. واطلبى الرحمة لتلك التى التقطت ذرتك

الأولى من عالمها، ثم اتخذت لك من حنايا ضلوعها سريراً قبل سريرك ومن أحشائها مهاداً قبل مهادك، والتى قدم لها الدهر كأسى شقائه ونعيمه فشربت الأولى وآثرتك بالأخرى.

اطلبى لها الرحمة فإنها كانت طيبة القلب، طاهرة النفس، تحب حتى من لا يحبها وترحم حتى من لا يرحمها، وتبتسم ابتسامة عذبة صافية لا يمازجها ذلك الريب الذى يمازج ابتسامات النساء، وتمد يدها إلى اجتناء كل ثمرة إلا ثمرة الشجرة المنهى عنها، وكانت تقف أمام مسرح الحياة الحافل بالزخارف والتهاويل وقفة المتمهل الذى يتهم سمعه وبصره، وتنظر إليه نظرة الحكيم العاقل الذى يعلم أن السعادة الكاذبة أمر مذاقًا فى الأفواه من الشقاء الصادق، وأن الذين يضحكون سروراً بهذه الصور الخالية إنما يبكون من حيث لا يشعرون، وأن الجالسين حول مائدة الشهوات واللذائذ إنما يقامرون بأنفسهم ولابد أنهم خاسرون، فتحول بصرها، وتشيح بوجهها، وتعود أدراجها، بقلب غير مخدوع، وفؤاد غير مصدوع.

اذكرى يا بنية أن تطلبى الرحمة لأبيك كما تطلبينها لأمك، فهو أحوج إليها منها، ولأن الخطايا قد أثقلت ظهره فأصبح لا يستطيع أن يرفع رأسه إلى السماء؛ وغلت يده، فلا يستطيع أن يمدها إلى الله بالدعاء.

إننى أشعر يا بنيتى حينما أسمع نشيد دعائك أننى أسمع صوت انقسام القيود عن قدمى، وأن تلك السحابة السوداء التى تغشى على عينى تنقشع عنها قليلاً قليلاً وكأن جناحى المهيض قد نبت له ريش ناعم جميل أحاول أن أطير به فى أعالى السماء.

اطلبى الرحمة للآباء العائدين إلى منازلهم تحت جنح الظلام بدموع منهلة، وقلوب واجمة، بعد أن سايروا الشمس من مشرقها إلى مغربها فلم يجدوا ما يمسحون به دموع أبنائهم الذين ينتظرونهم فى منازلهم.

اطلبى الرحمة للأمهات الجالسات حول أسرة أبنائهن المرضى وقد رجفت قلوبهن، وحارت أبصارهن مخافة أن يذقن مرارة الثكل والثكل كثير على قلوب الأمهات.

اطلبى الرحمة للبخيل الذى يجيع بطنه ويشبع صندوقه، والأحمق الذى

يبتسم للمعان الحرير فى صدره، والذهب فى أصابعه، والملك الذى يشعل نار الحرب فى أمته، ليطفئ نار غضبه، والزوج الذى لا يحاسب نفسه على ليلة سوء يقضيها خارج بيته، ويحاسب زوجه على ابتسامة تبسمها لرجل غيره، وسائر البائسين الذين لا يشعرون ببؤسهم، والأشقياء الذين يظنون أنهم سعداء.

اطلبى الرحمة لأولئك الذين عمروا الأرض وبنوا دورها، وشادوا قصورها وزخرفوا سهولها وجبالها، وأغوارها، وأنجادها، فجازتهم سوءًا بما عملوا، وابتلعتهم فى أعماق جوفها، فأصبحوا فى تلك الحفرة المظلمة الموحشة التى تختلط فيها الرؤوس بالأقدام، والنعال بالتيجان، والتى ينطوى فيها كل قديم تحت كل حديث، انطواء اللجة تحت اللجة فى البحر المحيط، يتألمون وينطقون، ولا يستصرخون فلا يجدون من يسمع نداءهم، أو يلبى دعاءهم.

أطلبى الرحمة لهم، فإن الدعاء الخالص يستحيل فى نظرهم إلى روضة غناء تزهر فوق أجداثهم، واركعى فوق التربة التى يئنون تحتها، واسقيها من دموعك قطرات باردة تبل غلتهم. وتطفئ جذوة الحزن الملتهبة فى أحشائهم، إنهم إلى الرحمة محتاجون وإلى الله راغبون.

اطلبى الرحمة للأبرار والفجار، والعصاة والطائعين، والملحدين والمؤمنين، وكل دارجة فى الأرض، وكل سابحة فى السماء، ولا تيأسى أن يستجيب الله دعاءك، فلكل بداية نهاية، ولكل سائلة قرار.

كما أن النهر يصب فى البحر، والطائر يقع على الغصن، والشمس تجرى لمستقرها، والنفس تصعد إلى عالمها، كذلك أبواب السماء، مفتحة لخالص الدعاء.

الكوخ والقصر

أنا إن كنت حاسدًا أحدًا على نعمة، فإنى أحسد صاحب الكوخ على

كوخه قبل أن أحسد صاحب القصر على قصره، لو أن للأوهام سلطانًا على النفوس لما تضاءلت الفقراء بين أيدى الأغنياء، ولا ورم أنف الأغنياء أن يتخذهم الفقراء أربابًا من دون الله.

أنا لا أغبط الغنى إلا فى موطن واحد من مواطنه، إن رأيته يشبع الجائع ويواسى الفقير، ويعود بالفضل من ماله على اليتيم الذى سلبه الدهر أباه، والأرملة التى فجعها القدر فى عائلها، ويمسح بيده دمعة البائس والمحزون ثم أرثى له بعد ذلك فى جميع مواطنه الأخرى.

أرثى له إن رأيته يتربص وقوع الضائقة بالفقير ليدخل عليه مدخل الشيطان من قلب الإنسان فيمتص الثمالة الباقية له من ماله ليسد فى وجهه باب الأمل، وأرثى له إن رأيته يعتقد أن المال هو منتهى الكمال الإنسانى فلا يطمع فى فضيلة ولا يحاسب نفسه على رذيلة، وأرثى له وأبكى على عقله إن مشى الخيلاء، وطاول بعنقه السماء، وسلم بإيماء الطرف، وإشارة الكف، ومشى فى طريقه يخزر بعينه خزرًا ليرى هل سجد الناس لمشيته، أو صعقوا من هيبته؟ وأرحمه الرحمة كلها إن عاش شحيحًا جعدًا مقترًا على نفسه وعياله، بغيضًا إلى قومه وأهله، ينقمون عليه حياته، ويستبطئون ساعة حتفه.

أما الفقير فهو أسعد الناس عيشًا، وأروحهم بالاً، إلا إذا كان جاهلاً مخدوعًا يظن أن الغنى أسعد منه حظًا، وأرغد عيشًا، وأثلج صدرًا فيحسده على النعمة التى أسبغها الله عليه، ويجلس فى كسر بيته جلسة الكئيب المحزون يصعد الزفرة فالزفرة، ويرسل العبرة فالعبرة، ولولا جهله وبلاهة عقله لعلم أن رُبَّ صاحب قصر يتمنى كوخ الفقير وعيشه، ويرى أن ذلك السراج الضعيف الذى لا يكاد ينير نفسه أسطع ذبالاً وأكثر لألاء من تلك الشموع الباهرات التى تأتلق بين يديه، وأن تلك الحشية من الشعر أو الوبر أنعم ملمسًا وألين مضجعًا من وسائد الحرير ونضائد الديباج.

لقد بلغ الضعف وصغر النفس بكثير من الناس أنهم يحفلون بالأغنياء لأنهم أغنياء، وإن كانوا لا ينالون منهم ما يبل غلة أو يسيغ غصة، وليت شعرى إن كان لابد لهم من إجلال المال وإعظامه حيث وجد، فلمَ يقبلون

أيدى الصيارفة، ولا ينهضـون إجلالاً للكلاب المطوَّقة بالذهب، وهم يعلمون ألا فرق بين هؤلاء وهؤلاء؟

لو عامل الفقراء بخلاء الأغنيـاء بما يجب أن يعاملوا به لوجدوا أنفسهم فى وحـشة من أنفـسهم، ولشـعروا أن بدرات الذهب التى يكنزونهـا إنما هى أساور ملتفـة على أقدامهم، وأغلال آخذة بأعناقـهم، ولعلموا أن الشرف فى كـمال الأدب، لا فى رنين الذهـب، وفى جلائل الأعـمـال، لا فى أحمـال المال.

فليعظم الناس الكرماء، وليحتـقروا الأغنياء، وليعلموا أن الشرف شىء وراء الغنى والفقر، وأن السعادة أمر وراء الكوخ والقصر.

على سرير المـوت

مررت يومًـا من الأيام على باب منزل صغيـر فى أحد الأزقة الضيـقة، فرأيت حوله مجمعًا حافلاً تصطـك فيه الأقدام بالأقدام، وتمتزج فيه الأنفاس بالأنفاس، وقد تخلله قوم من رجال الشـرطة وسمعت قائلاً يقول: «قبح الله الانتحـار»، وآخر يقـول: «أحسبـه شابًا غـريبًا لأنى لم أر عينًا تـدمع عليه» فعلمت أن هناك شابًا منتحرًا، وأن هذا الحادث سبب هذا الاجتماع.

لم أقنع بالإجمـال، فأحببت مـعرفة التـفصيل، فحـاولت الدخول إلى المنزل فمـا استطعت إلى ذلك سـبيلاً، فـتريثت حتى لمحت رجـلاً من رجال الشرطة أعـرفه فـدخلت معه وهنـالك رأيت على سرير الموت فـتى فى نحو العشرين من عـمره، رقيق الجسم أصفر الـلون، لم تستطع يد الموت أن تمحو كل آثار جمـاله، بل بقيت منه بقيـة كتلك البقيـة من الطيب التى يستنشقـها الإنسان فى الزهرة الذابلة.

اهتم الضابط بملابسه لعله يجد فيها ما يدل عليه، واهتم الطبيب بجثته ليعـرف علة موته، أما أنـا فجلست بجانبـه جلسة الكئـيب المحزون أفكر فى

مصيبته، وأندب شبابه وجماله، فلمحت حول سريره أوراقًا منثورة فجمعتها ووضعتها فى محفظتى من حيث لا يشعر الضابط ولا الطبيب بما أفعل، علنى أجد فيها عبرة من العبر.

وما هى إلا ساعة، حتى قرر الطبيب أنه منتحر بشرب مادة الزرنيخ وقرر الضابط نقل جثته إلى المستشفى، فنقلت الجثة، وانفض الجمع المزدحم، ثم لم أعد أعلم بعد ذلك من أمره شيئًا.

خلوت بنفسى والأوراق فنثرتها فرأيتها مجموعة خواطر عاشق، تناول كأس الحب بيده، فارتشف منها الرشفة الأولى فوجدها حلوة المذاق، فألصق الكأس بفمه، واستمر يشرب لا يرفعها، ولا يشعر بالمرارة المتجددة فى جرعاتها حتى أتى على الجرعة الأخيرة، فإذا هى السم الناقع الذى قتله وذهب بحياته.

قرأت تلك المذكرات فبكيت بكاء رحمت نفسى منه، ثم طويتها وألقيت بها بين أوراقى، وظلت على ذلك أعوامًا طوالاً.

وبينا أنا أقلب أوراقى ليلة أمس إذ عثرت بها فى سفط صغير، قد اصفر لونه لتقادم العهد عليه، كما يصفر الكفن حول الجثة البالية، فشعرت برعدة تتمشى فى أعضائى، وتخيلت أنها فى هذا السفط شبح كاتبها فى ذلك القبر.

ثم عدت إلى نفسى فنثرتها للمرة الثانية وأعدت قراءتها، فرأيت قلب العاشق مرسومًا فيها رسمًا صحيحًا فى حالى سعادته وشقائه، وهأنذا أنشرها فى الناس لتكون عبرة يعتبر بها المخاطرون بقلوبهم فى هذا السبيل، سبيل الحب القاتل:

-١-

رأيتها فأحببتها، وما كنت أعرف الحب من قبلها.

كان قلبى فى ظلام حالك لا يرى حتى نفسه، فلما أشرق فيه الحب أشرقت فيه شمس ساطعة منيرة؛ لها من الشمس نورها وجمالها، وليس لها منها حرارتها ولذعتها.

كنت أشعر قبل اليوم كأن قلبى فى صحراء هذه الحياة وحيد موحش لا يعرف القلوب، أو يعرفها ثم ينكرها، فلما أحببت رأيت بجانبه قلبًا يؤنسه ويزيل وحشته، فوجدت بين جوانحى من اللذة والغبطة ما لو قسم على القلوب جميعًا ما خالطها حزن ولا مسها ألم.

كنت أسمع باسم السعادة ولا أفهم معناها غير أنى كنت أسمعهم إذا ذكروها ذكروا بجانبها القصر والحديقة، والفضة والذهب، والسلطة والجاه، والشهرة والصيت، فلما أحببت اعتقدت ألا سعادة فى الدنيا غير سعادة الحب، وأيقنت أن الناس جميعًا إنما يطلبون سعادة الأجسام لا سعادة النفوس، فمثلهم كمثل الدفين المكفن بالحرير والديباج، وباطنه مسرح الدود ومرتع الهوام والحشرات.

-٢-

أحببتها قبل أن أعرف عنها شأنًا من الشؤون سوى أنها تحبنى، فكأننى ما منحتها قلبى إلا لأنها منحتنى قلبها، وهو ثمن قليل فى جانب هذه المنحة الغالية التى ما كنت أحدث نفسى بها، ولا كانت تستطيع أن تمثلها فى عينى خواطر الأمانى، ولا سوانح الأحلام.

عشت دهرًا بين أقوام لا يعنيهم أمرى ولا يهمهم شأنى، وذقت من آلام الحياة وشقاء العيش ما لا أستطيع أن يحتمله بشر، فسمعت من يسألنى: كيف حالك؟ ومن يقول لى: ما أشد جزعى لمصابك؟ ومن يتباكى رحمة بى وإشفاقًا علىّ، ولكنى لم أر بجانبى يومًا من الأيام عينًا تدمع، ولا قلبًا يخفق!

رأيت من يحب جمالى كما يحب تمثالاً متقن الصنع، ومن يحب مالى كما يحبه فى كيسه أو خزانته، ومن يعجب بحديثى إعجابه برواية بديعة، ولكنى لم أر فى حياتى من يحبنى!

أما اليوم فقد وجدت بجانبى القلب الذى يخفق لأجلى، والعين التى تبكى فى سبيلى، والنفس التى تحبنى لا لشىء سواى، فقليل لها منى أن أمنحها حياتى فكيف أبخل عليها بقلبى!

-٣-

جلست إليهـا للمـرة الأولى فحـدثتنى نفـسى أن أمـد يدى إلى يدها فأضـعها على صـدرى لأطفئ بها غلتى، فمـا لمستهـا حتى نظرت إلىَّ نظرة العاتب، وقالت: كن رجلاً فى حبك، وأترك الطفولة لغيرك.

إن كنت تحبنى لنفسـى فها أنت قد ملكتهـا علىَّ وأحرزتها من دونى.. وإن كنت تحبنى لهـذه الصورة الجسمـانية فمـا أضعف همتك.. وما أصـغر نفسك!.

أتذرف دمـعك، وتسهـر ليلك، وتذيب حـبة قلبك، من أجل عظمـة تلمسها أو جلدة تلثمها؟

أنت شريف فى نفسك، فكن شريفـًا فى حبك، واعلم أننى ما أحببت غير نفسك فلا تحب غير نفسى.

وما وصلت من حديثـها إلى هذا الحد حتى رأيتنى قـد صغرت فى عين نفسى وتمنيت أن لو عجل إلى أجلى قبل أن يمر هذا الخاطر الفاسد فى ذهنى. ثم استوهبتها ذنبى فوهبته لى، وما عدت من بعدها إلى مثلها.

-٤-

الآن عرفت مـبلغ عظمتهـا، وفضل هدايتهـا، ومقدار مـا يبلغه الحب الشريف من النفس، فهأنذا أشعر كأن نفسى مرآة يغشاها الصدأ، وكأن الحب صقيل يصقلها فيجلو صفاتها شيئًا فشيئًا.

كنت أحمل بين جوانحى لأعدائى ضغنًا وحقدًا، فأصبحت لا أشعر بما كنت أشعر به من قـبل، لأن الحب ملك على قلبى، واستخلصـه لنفسه فلم يترك فيه مجالاً لشىء سواه.

كنت ضيق الصـدر إن مسنى ألم.. سريع الغضب إن فـاتنى مأرب.. فأصبحت فسيح رقعة الحلم، لا يسـتفزنى غضب، ولا يحرجنى محرج لأنى قنعت بسعادة الحب، فلم أحفل بعدها بشىء سواها.

كنت شديد القسوة، متحجر القلب، لا أعطف على بائس، ولا أحنو على ضعيف، فأصبحت أشعر بالمصيبة أراها تصيب غيرى ولا تصيبنى، وأتألم لبؤس كل بائس وحزن كل محزون، لأن الحب أشرق فى قلبى فملأه نورًا. فارتفع ذلك الستار الذى كان مسبلاً بينه وبين القلوب.

وجملة القول أننى كنت وحشًا ضاريًا أعيا العالمين رياضته وتدليله، فصرت بين يدى الحب الشريف إنسانًا شريفًا، وملكًا كريمًا.

-٥-

خرجت بها فى الليل إلى ضفة النهر، وكان الماء رائقًا والسماء صافية، وفى كل منهما نجوم وكواكب تتلألأ فى صفحته فاختلط علينا الأمر حتى ما نفرِّق بين الأصل والمرآة ولا ندرى أين مكان الماء من مكان السماء، فمشينا طويلاً لا ينبس أحدنا بكلمة، وكأن سكون الليل قد سرى إلى أفئدتنا وملأ ما بين جوانحنا، فأمسكنا عن الحديث هيبة وإجلالاً.

وكنت أشعر فى تلك الساعة بخفة فى جسمى، وصفاء فى نفسى حتى كان يخيل إلىَّ أنى لو شئت أن أطير لطرت بغير جناح، وأن فى استطاعتى أن أخترق بنظرى حجب السماء وأنفذ إلى الملأ الأعلى فأرى هنالك ما هو محجوب عن نظر الناس أجمعين، وحتى صرت أتمنى أن يضل النجم سبيله فلا يهتدى إلى مغربه، وأن يختبئ الليل فى بردته فلا يعثر به فجره، وأن تستمر مشيتنا هذه ما ضل النجم وما دام الظلام.

فالتفت إليها وسألتها: هل تشعر بالسعادة التى أشعر بها؟

قالت: لا، لأنى أعرف من شؤون الأيام وأحوالها غير ما تعرف ولأنى لا أنظر إلى الدنيا بالعين التى تنظر بها إليها!

أنت سعيد بالأمل، وأنا شقية بالحقيقة الواقعة.

إنك سعيد لأنك تظن أن سعادتك دائمة لا انقطاع لها، وأنا شقية لأنى أتوقع فى كل لحظة زوالها وفناءها.

إنك إن استطعت أن تقف الشمس فى كبد السماء، وأن تحول بين

الأرض ودورتها، وأن تمنع الساكن أن يتحرك، والمتحرك أن يسكن، فاضمن لنفسك استمرار السعادة وبقاءها.

وهنا أمسكت عن الكلام وأطرقت برأسها طويلاً، فرأيت مدامعها تنحدر على خديها بيضاء صافية كاللؤلؤ المكنون، فبكيت لبكائها، وقلت لِمَ تبكين؟ قالت: خوف الفراق، قلت: فراق الحياة، أو فراق الموت؟ قالت: أَما فراق الحياة فإننى لا أخافه، لأنه لا توجد قوة فى العالم تستطيع أن تحول بينى وبينك، إنما أخاف فراق الموت، لأنه الفراق الذى لا حيلة لى فيه.. ولا منتدح عنه، قلت: هل لك أن نتعاهد على أن نعيش معًا ونموت معًا، قالت: ذلك ما يهوِّن علىَّ ألمى، فتعاهدنا، ثم رجعنا أدراجنا، والليل يشمر أذياله للفرار من النهار، ثم افترقنا على ميعاد، وذهب كل منا لسبيله.

-٦-

ألا يستطيع هذا الدهر الغادر أن ينام ساعة واحدة عن هذا الإنسان؟

ألا يستطيع أن يستقيه كأسًا واحدة لا يخالطها كدر، ولا يمازجها شقاء؟

ألا يستطيع أن يحرمه السعادة بتاتًا فلا يذيقه من كأسها قطرة واحدة مادام يريد أن يمنحه اليوم ليسلبه غدًا؟

إن الإنسان لا يعجز عن احتمال الشقاء الدائم، ولكنه يعجز عن احتمال السعادة المتقطعة.

يقولون: إن الأمل حياة الإنسان، وما قتل الإنسان ومزق شمل حياته إلا الأمل.

ليتنى ما سعدت، لأننى ما شقيت إلا بسعادتى، وليتنى ما أملت، لأن اليأس القاتل ما جاءنى إلا من طريق الأمل الباطل.

ماتت الفتاة التى كانت شمس حياتى، وأشعة آمالى، وينبوع سعادتى وهناءتى.

ماتت الفتاة التى كانت ملء الدنيا جمالاً وبهاء، فمات بموتها كل حى فى هذ الوجود.

أرى أن الأرض غير الأرض، والسماء غير السماء، وأرى الطيور صامتة لا تغرد، والغصون ساكنة لا تتحرك، وأرى النجوم آفلة، والأزهار ذابلة، والطبيعة واجمة حزينة، لا يفتر ثغرها ولا يتلألأ جمالها، وأرى الدنيا كأنما عادت إلى عهدها الأول لا يسكنها إنسان ولا يخطر بها حيوان، وكأننى فيها آدمها الوحيد المسكين يندب جنته ويشكو وحدته.

أيها الدهر الغادر: إن غلبتنى عليها فإنك لن تستطيع أن تغلبنى عن نفسى، لك أن تخرج من الدنيا من تشاء، ولكن ليس لك أن ترد إليها من تخرج منها.

ويا أيتها النفس الهائمة فى سمائها، لا تجزعى ولا تعجلى، فوالله لأفين بعهدك ولأذهبن عما قليل وحشتك ليكونن عهدنا فى مستقبلنا كعهدنا فى ماضينا، فما تعارفنا فى العالم الأول إلا بأرواحنا فلنكن كذلك فى العالم الثانى.

غدر المرأة

يقصون في بعض الأساطير القديمة أن حكيمًا من حكماء اليونان كان يحب زوجته حبًا ملك عليه قلبه وعقله.. وأحاط به إحاطة الشعاع بالمصباح المتقد وكان يمازج هناءته الحاضرة شقاء مستقبل يسوقه إلى نفسه الخوف من أن تدور الأيام دورتها، فيموت ويفلت من يده ذلك القلب الذى كان مغتبطًا باعتلاقه إلى صائد آخر يعتلقه من بعده، وكان كلما أبث زوجته سرًه وشكا إليها ما يساور قلبه من ذلك الهم، حنت عليه، وعللته بمعسول الأمانى وأقسمت له بكل محرجة من الإيمان أنها لا تسترد هبة قلبها منه حيًا وميتًا.. فكان يسكن إلى ذلك الوعد سكون الجرح الذرب تحت الماء البارد.. ثم لا يلبث أن يعود إلى هواجسه ووساوسه، حتى مر فى بعض روحاته إلى منزله فى إحدى الليالى المقمرة بمقبرة المدينة.. فبدا له أن يدخلها ليروح عن نفسه

هموم الموت بوقفة بين قبور الموتى، وكثيراً ما يتداوى شارب الخمر بالخمر، ويلذ للجبان وهو يرتعد فرقًا الإصغاء إلى حديث المردة والجان، فرأى فى بعض مذاهبه بين تلك القبور امرأة متسلبة جالسة أمام قبر جديد لم يجف ترابه وبيدها مروحة من الحرير الأبيض مطرز بأسلاك من الذهب، تحركها يمنة ويسرة لتجفف بها بلل ذلك التراب فعجب لشأنها وتقدم نحوها فارتاعت لمرآه.. ثم أنست به حينما عرفته.. فسألها ما شأنها.. وما مقامها هنا؟ ومن هذا الدفين؟ وما هذا الذى تفعل؟ فأبت أن تجيبه عما سأل حتى تفرغ من شأنها، فجلس إليها وتناول المروحة منها، وظل يساعدها فى عملها حتى جف التراب فحدثته أن هذا الدفين زوجها، وأنه مات منذ ثلاثة أيام، وأنها جالسة من الصباح مجلسها هذا لتجفف تراب قبره وفاء بيمين كانت قد أقسمتها له فى مرض موته ألا تتزوج من غيره حتى يجف تراب قبره، وأن هذه الليلة هى ليلة بنائها بزوجها الثانى فأبى لها وفاؤها لهذا الدفين الذى كان يحبها ويحسن إليها إن تحنث بيمين أقسمتها له.. أو تخيس بما عاهدته عليه، ثم قالت له: هل لك يا سيدى أن تقبل هذه المروحة هدية منى إليك.. وجزاء لك على حسن صنيعك معى؟ فتقبلها منها شاكراً بعد أن هنأها بزواجها الجديد! ثم انصرف وليس وراء ما به من الهم غاية، ومشى فى طريقه مشية الرائح النشوان يحدِّث نفسه ويقول: إنه أحبها وأحسن إليها، فلما ماتت جلست فوق قبره لا لتبكيه.. ولا لتذكر عهده، بل لتتحلل من يمين الوفاء التى أقسمتها له؛ فكأنها وهى جالسة أمام زوجها الأول تعد عدد الزواج من زوجها الثانى وكأنما اتخذت من صفائح قبره مرآة تصقل أمامها جبينها، وتصفف طرتها وتلبس حليتها، للزفاف إلى غيره.

وما زال يحدث نفسه بمثل هذا الحديث حتى رأى نفسه فى منزله من حيث لا يشعر، ورأى زوجه ماثلة أمامه مرتاعة لمنظره المؤلم المحزن فقال لها: أن امرأة خائنة غادرة أهدت إلىَّ هذه المروحة فقبلتها منها إليك.. لأنها أداة من أدوات الغدر والخيانة، وأنت أولى بها منى. ثم أنشأ يقص عليها، قصة المرأة حتى أتى عليها، فغضبت وانتزعت المروحة من يده ومزقتها إربًا إربًا.. وأنشأت تسب تلك المرأة وتشتمها، وتنعى عليها غدرها وخيانتها وسفالتها

ودناءتها، ثم قالت: ألا يزال هذا الوسواس عالقًا بصدرك ما دمت حيًّا؟ وهل تحسب أن امرأة فى العالم ترضى لنفسها بما رضيت به لنفسها تلك المرأة الغادرة؟ فقال لها: إنك أقسمت لى ألا تتزوجى من بعدى، فهل تفين بعهدك؟ قالت: نعم، ورمانى الله بكل ما يرى الغادر إن أنا فعلت؛ فاطمأن لقسمها وعاد إلى هدوئه وسكونه.

مضى على ذلك ثم مرض الرجل مرضًا شديدًا، فعالج نفسه فلم يجد العلاج حتى أشرف على الموت، فدعا زوجته وذكرها بما عاهدته عليه فاذكرت فما غربت شمس ذلك اليوم حتى غربت شمسه، فأمرت أن يسجى بردائه ويترك وحده فى قاعته حتى يحتفل بدفنه فى اليوم الثانى ثم خلت بنفسها فى غرفتها تبكيه وتندبه ما شاء الله أن تفعل، وإنها لكذلك إذ دخلت عليها الخادم وأخبرتها أن فتى من تلاميذ مولاها حضر الساعة من بلدته ليعوده حينما سمع بخبر مرضه، فلما سمع حديث موته ذعر ذعراً شديداً وخرّ فى مكانه صعقًا وأنه لا يزال صريعًا عند باب المنزل لا تدرى ما تصنع فى أمره، فأمرتها أن تذهب به إلى غرفة الأضياف وأن تتولى شأنه حتى يستفيق، ثم عادت إلى بكائها ونحيبها، فلما مر الهزيع الثانى من الليل دخلت عليها الخادم مرة أُخرى مذعورة مرتاعة وهى تقول: رحمتك وإحسانك يا سيدتى فإن ضيفنا يعالج من آلامه وأوجاعه عذابًا أليمًا وقد حرت فى أمره، وما أحسبه إن نحن أغفلنا أمره إلا هالكًا، فأهمها الأمر وقامت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى غرفة الضيف فرأته مسجى على سريره، والمصباح عند رأسه فاقتربت منه ونظرت فى وجهه، فرأت أبدع سطر خطته يد القدرة الإلهية فى لوح الوجود، فخيل إليها أن المصباح الذى أمامها قبس من ذلك النور المتلألئ فى ذلك الوجه المنير، وأن أنينه المنبعث من صدره نغمة موسيقية محزنة ترن فى جوف الليل البهيم، فأنساها الحزن على المريض المشرف الحزن على الفقيد الهالك، وعناها أمره، فلم تترك وسيلة من وسائل العلاج إلا توسلت بها إليه حتى استفاق ونظر إلى طبيبته الراكعة بجانب سريره نظرة الشكر والثناء، ثم أنشأ يقص عليها تاريخ حياته، فعرفت من أمره كل ما كان يهمها أن تعرفه، فعرفت مسقط رأسه وسيرة حياته وصلته بزوجها وأنه فتى غريب فى قومه لا

أب له، ولا أم، ولا زوجة ولا ولد، وهنا أطرقت برأسها ساعة طويلة عالجت فيها من هواجس النفس ونوازعها ما عالجت، ثم رفعت رأسها وأمسكت بيده؛ وقالت له: إنك قد ثكلت أستاذك وأنا ثكلت زوجى فأصبح همنا واحدًا، فهل لك أن تكون عونًا لى وأن أكون عونًا لك على هذا الدهر الذى لم يترك لنا مساعدًا ولا معينًا، فألم بخبيئة نفسها فابتسم ابتسامة الحزن المضض، وقال لها: من لى يا سيدتى أن أظفر بهذه الأمنية العظمى، وهذا المرض الذى يساورنى ولا يكاد يهدأ عنى قد نغص علىَّ عيشى، وأفسد علىَّ شأن حياتى، وقد أنذرنى الطبيب باقتراب ساعة أجلى إن لم تدركنى رحمة الله، فاطلبى سعادتك عند غيرى فأنت من بنات الحياة، وأنا من أبناء الموت. فقالت له: إنك ستعيش، وسأعالجك ولو كان دواؤك بين سحرى ونحرى قال: لا تصدِّقى ما لا يكون يا سيدتى فأنا عالم بدوائى، وعالم بأنى لا أجد السبيل إليه، قالت: وما دواؤك. قال: حدثنى طبيبى أن شفائى فى أكل دماغ ميت ليومه، وما دام ذلك يعجزنى فلا دواء لى ولا شفاء، فارتعدت وشحب لونها وأطرقت إطراقة طويلة لا يعلم إلا الله ماذا كانت تحدثها نفسها فيها.. ثم رفعت رأسها وقالت: كن مطمئنًا فدواؤك لا يعجزنى، ثم أمرته أن يعود إلى راحته وسكونه، وخرجت من الغرفة متسللة حتى وصلت إلى غرفة سلاح زوجها فأخذت منها فأسًا قاطعة، ثم مشت تختلس خطواتها اختلاسًا حتى وصلت إلى غرفة الميت، ففتحت الباب فدار على عقبه وصر صريرًا مزعجًا، فجمدت فى مكانها رعبًا وخوفًا، ثم دارت بعينها حولها فلم تر شيئًا فتقدمت لشأنها حتى دنت من السرير ورفعت الفأس لتضرب بها رأس زوجها الذى عاهدته ألا تتزوج من بعده، ولم تكد تهوى بها حتى رأت الميت فاتحًا عينيه ينظر إليها، فسقطت الفأس من يدها، وسمعت حركة وراءها فالتفتت فرأت الضيف والخادم واقفين يتضاحكان، ففهمت كل شىء.

وهنا تقدم نحوها زوجها وقال لها: أليست المروحة فى يد تلك المرأة أجمل من هذه الفأس فى يدك؟ أليست التى تجفف تراب قبر زوجها بعد دفنه أفضل من التى تكسر دماغه قبل نعيه؟ فصارت تنظر إليه نظرًا غريبًا ثم شهقت شهقة كانت فيها نفسها.

الضــــاد[١]

كان العرب الأولون أحراراً فى لغتهم، يضعون لكل ما يخطر ببالهم من المعانى مـا يريدون من الألفاظ، لا يتقيدون بقاعدة ولا شـرط، ونحن عرب مثلهم تجرى فى عروقنا دماؤهم، كما تجرى فى عروقهم دماء آبائهم من قبل، فسهمنا فى الضاد سهمهم، وحقنا فيـها حقهم، فلم يضعون الألفاظ للتفاهم والتخاطب، ولا نضعـها مثلهم لمثل ما وضعوا وحاجاتنا أكـثر من حاجاتهم، ومرافقنا أوفر عدداً من مرافقهم، وأوسع فصولاً وأنواعًا؟

أين باديتهم الخـلاء المقفرة التى لا يعمـرها إلا القليل من الخيام المبـعثرة بين معاطن الإبل ومرابض الشاء، من مـدائننا الفاخرة الزاخرة الحافلة بصنوف الموجودات، وأنواع الآلات، وغرائب المصنوعات، وأكثرها مستحدث متطرف لم تتداوله السنون والأيام، ولم تعصف به عواصف القرون والأعوام.

أليس من الظلم المبين والغبن الفاحش، أن تضيق حـاجاتهم عن لغتهم، فيتفكهوا بـوضع خمسمائة اسم للأسد، وأربعمائة للداهيـة، وثلثمائة للسيف ومائتين للحية وخمسين للناقـة؟ وتضيق عن حاجاتنا، فلا نعرف لأداة واحدة من آلاف الأدوات التى يضمـها المعمل اسـمًا عربيًـا واحدًا؟ اللهم إلا القليل التافه من أمثال: المسبر والمبرد، والمنشار والمسمار؟

أيكون لسفينة البر -وهى لا تحـمل إلا الرجل، أو الرجل ورديفه- مائتا اسم ومائتان من الأسماء لأعضـائها وأوصالها، ورحلها وكورها. . ولا يكون لسفينة البحر -وهى المدينة المتنقلة فى الدأماء- القليل من ذلك الحظ الكثير؟

كان لعرب الجاهلية الأولى مؤتمر لغوى يعقدونه فى كل عام بالحجاز بين نخلة والطائف، يجتـمع فيه شعـراؤهم وخطباؤهم، ويتناشدون ويتـساجلون ويتحاورون، ويتطارحون، ويعرضون أنفسهم على قضاة منهم يوازنون بينهم، ويحكمون لمبرّزهم على مـقصرهم، حكمًا لا يرد ولا يعارض، ولقـد شعروا

(١) الضاد: عنوان اللغة العربية.

بضرورة عقد هذا المؤتمر عندما أحسوا بتشعب لغتهم بين اليمن والشام ونجد وتهامة لصعوبة التواصل فى تلك البقاع وبعد ما بين قاصيها ودانيها فكان مطمح أنظارهم فى ذلك المجتمع توحيد لغتهم وجمع شتاتهم والرجوع بها إلى لغة قريش التى هى أفصح اللغات وأقربها مأخذًا وأسهلها مساغًا وأحسنها بيانًا.

أيقدر هؤلاء العجزة الضعفاء فى جاهليتهم الأولى على ما نعجز عنه نحن؟ ونحن إلى مؤتمرهم أحوج منهم إليه، لأن تشعب اللغة فى عصرهم لا يمكن أن يبلغ مبلغه فى عصرنا بين لغة الأدباء ولغة العلماء ولغة الدواوين ولغة المتصوفين، ولغة المترجمين، ولغات العامة التى لا حصر لها.

إن كان الجاهليون فى حاجة إلى مجتمع لتوحيد اللغات المتشعبة، فنحن فى حاجة إلى مجتمعات كثيرة: مجتمع لجمع المفردات العربية المأثورة وشرح أوجه استعمالها الحقيقية والمجازية فى كتاب واحد يقع الاتفاق عليه والإجماع على العمل به، ومجتمع دائم لوضع أسماء للمسميات الحديثة بطريق التعريب أو النحت أو الاشتقاق، وآخر للإشراف على الأساليب العربية المستعملة، وتهذيبها وتصفيتها من المبتذل الساقط والمستغلق السافر، والوقوف بها عند الحد الملائم للعقول والأذهان، وآخر للمفاضلة بين الكتاب والشعراء والخطباء ومجازاة المبرّز منهم والمقصر، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

سياحة فى كتاب

أعجب ما أعجب له من أمر نفسى أنى أحب الجمال خيالاً، أكثر مما أحبه حقيقة، فيعجبنى وصف الروض أكثر مما يعجبنى مرآه، ولا أطرب لمنظر الفتيات الجميلات، طربى لمنظر القصائد الغزليات، وأحب أن أقرأ وصف المدن الجميلة، وما كتبه الكاتبون على قصورها ودورها وسهولها وبطاحها وأنهارها وجداولها.. وميادينها وتماثيلها، وأنديتها ومجامعها ولا يهمنى أن

أراها، كأننى أريد أن أستديم لنفسى تلك اللذة الخيالية وأخاف أن تحول الحقيقة بينى وبينها وأحسب أنى لو كنت عاشقًا لأصبحت أضحوكة العاشقين. . وأعجوبة الهازئين والساخرين، ولكان مثلى مثل ذلك الرجل الذى أحب امرأة فاستزارها فمنعته حينًا ثم زارته، فلما رآها تركها وذهب لينام فعجبت لشأنه وسألته: ما باله؟ فقال لها: أريد أن أنام علنى أرى طيفك فى المنام!

جاء يوم شم النسيم فخرج الناس إليه يستقبلونه استقبال الجيش المدجج للملك المتوج، ويرحبون به ترحيب العشاق بيوم التلاق، بعد طول الفراق، ويبسمون له ابتسام الرياض الزاهرة للسحب الماطرة، وقد ذهبوا فى شأنه المذاهب كلها: فمن صاعد إلى رؤوس الجبال، وسارب فى سهل الرمال، وواقف موقف الإعجاب والإجلال. . بين جمال الأنوار، وأنوار الجمال، ومقلب طرفه بين حسن الزهرات وحسن الفتيات. . لا يعلم أتشبه القامات الغصون، أم الغصون القامات.

ذهب الناس فى ذلك اليوم تلك المذاهب، وما كان لى أن أذهب مذهبهم لأنى لا أعجب بما يعجبون. ولا أهتف لما يهتفون، فقبعت فى كسر بيتى أفتش عن ضالة خيال أجد فيها من السعادة والهناءة ما يجده الهائمون بين ثغر الحسناء وثغر الصهباء، فلمحت بجانبى كتاب بلاغة العرب، وهو الكتاب الذى ترجمه الأستاذ «كامل حجاج»، وجمع فيه نفائس اللغة الفرنسية وزبدة ما جادت به قرائح كتابها وشعرائها. . فقلت: حسبى من الرياض هذه الزهرات، ومن النسائم تلك النفحات.

خطوت الخطوة الأولى من سياحتى فى هذا الكتاب فرأيتنى واقفًا تحت نافذة قصر اللوفر فى باريس، ورأيت الناس وقوفًا فى ذلك الميدان الفسيح وقد هاج بعضهم فى بعض حتى ضاقت بهم رقعة الأرض، ورأيتهم يمدون أعناقهم إلى تلك النافذة وينظرون إليها نظرة الفلكى إلى كوكبه اللامع، ويرقبون منها ما يرقب الروض من غادية السحب، وأنهم لكذلك إذ أطل عليهم نابليون الأول من نافذة قصره كما يطل البدر من وراء الأفق يحمل بين

يديه طفله الصغير كما يسميه الناس، وملك روما كما يسميه أبوه، فضج الناس لمطلعه ضجيجًا ملأ مسمع الخافقين، وابتسموا لمرآه ابتسامًا أضاء ما بين المشرقين والمغربين، وهنا سمعت الشاعر الكبير[1] يخاطب ذلك الملك العظيم بصوت يشبه صوت البحر الزاخر قائلاً له:

رويدًا أيها الرجل المغرور بالتاج والسرير، والملك الكبير.. والجيش الخاضع، والشعب الطائع، أنت تقدر لطفلك فى مستقبل الأيام ملكًا كملكك، ومجدًا كمجدك، وعزًّا وسلطانًا كعزك وسلطانك، غير عالم بما تكتمه ضمائر الأيام من الحوادث العظام، والخطوب الجسام، فهل أخذت على الأيام عهدًا لنفسك فتأخذه لولدك؟ وهل وثقت بما فى يدك فتثق بما فى يد غيرك؟

أيها الملك المغرور: إنك ستفارق عما قليل هذا القصر الكبير.. إلى الكوخ الحقير، وسيحيط بك الجند فى منفاك إحاطة الإخضاع والإذلال.. لا إحاطة الإعظام والإجلال، وسيموت ولدك محرومًا هذا العرش الذى هيأته له بل محرومًا بضعة أشبار من تربة فرنسا يضطجع فيها ضجعة الموت.

أيها الملك المغرور: لا تقل إن المستقبل لى فإنما المستقبل لله.

تركت هذا الموقف الفخم الجليل وقد امتلأت نفسى عبرة بمصائر الأيام، ومصارع الكرام، وتقلبات الدهر ما بين رفع وخفض، وإبرام ونقض، ومشيت حتى وصلت إلى برية جرداء، ودوية قفراء، لا يطرقها إنسان، ولا يدب بها حيوان، فلمحت على البعد رجل يمشى على بعض الشواطئ فوق أرض رملية يخدع ظاهرها، ويقتل باطنها، ويدب ماؤها فى أحشائها، دبيب الصهباء فى الأعضاء، ويكمن فى صدورها كمون الأسرار فى صدور الأقدار.

فما هى إلا بضع خطوات حتى وقع نظرى على رجل مسكين غاصت قدماه فى الرمل فحاول نزعهما فغاص إلى ركبتيه، فتحلحل، فغاص إلى صدره، وما زال يساعد على نفسه بنفسه ويهبط شبرًا كلما حاول أن يرتفع

(١) فيكتور هيجو.

فترًا، حتى لم يبق منه على ظهـر الأرض غير فم يصرخ بالنداء، وعين تذرف البكاء، ثم ما لبث أن غطاهما الرمل فرفع يديه بالـدعاء، فلم يجد من رحمة فى الأرض ولا فى السماء.

وقفت أمام هذا المشهد المؤثر المحزن وقفة أرسلت فيها بضع قطرات من الدمع على هذا البائس المسكين، وقلت فى نفسى: إننى عـجزت عن إسعاده فى نكبته ومـعونته فى شدته، فلا أقل من أن أسـعده بقليل من الأسف على مصيره المحزن الأليم.

ثم فارقتـه ومشيت حتى بلغت منزل الشـاعر لامرتين فرأيته فى غـرفته الصغيرة وليس معه من يؤنسه غير كلبه المقعى على عتبة بابه؛ فسمعته يخاطبه ويقول له:

أيهـا الكلب الأمين، قـد هجـرنى النـاس وبقـيت بجـانبى؛ وخـاننى الأصدقـاء ووفيت لى؛ فأنت فى نظرى أوفى الأوفـياء؛ وأصدق الأصـدقاء، ولولا أنك كـريم الأخلاق مـتواضع، تأبى إلا أن تـعرف لسـيدك منزلتـه من السيادة عليك، وتحفظ له فضل ما أسـدى من النعمة إليك، لأكبرت جلستك هذه عند عـتبـة البـاب، ولأجلستـك بجانبى على فـراشى، لأنك صـديقى ومؤنسى، ولأنك أحق بالإكرام من كثير من أولئك الذين يفترشون الطنافس، ويتـوسدون الوسـائد، وحـسى منك هذه النظرات التى تلقـيـها علىّ بهـدوء وسكون، كأنك تقـرأ فيها صفـحة وجهى، ما غاب عنـك من دخيلة أمرى، وكأننى أسـمعك تقول: مـا باله، وما شأنه؟ ومـا الذى يبكيه؟ ليـتنى أعرف دخيلة أمره، وليتنى أستطيع أن أكـون فداءه! فحسبى منك ذلك، وهل يطمع الإنسان أن يـجد من أوفى أصـدقائه أكثـر مما أجده فى لـفتاتك، وألمحـه فى نظراتك؟

سمعت لامرتين يناجي كلبه بهذا النجاء الرقيق، فتسللت وذهبت لشأنى وأنا أقول فى نفسى: إذا كـان لامرتين -وهو أشعر شاعر فى فـرنسا، وفرنسا مهبط وحى الشعر- لم يجد له صديقًا وفيًا غير كلبه المقعى على عتبة غرفته، فأين يذهب سائر الشعراء، ومتى يجدون الأصدقاء؟

تركت منزل لامرتين وذهبت إلى منزل «دى مـوسيه» فرأيته مـعتزلاً فى

غرفـة من غرف منزله يبكي بكاء مراً. . ويـزفر زفيراً شـديداً، تكاد تنقطع له أحشاؤه. فقلت: ليت شعرى ما أبكاه؟ وما الذى دهاه؟ فسمعته يترنم بقصيدة من قصائده يشرح فيها تاريخ وجده وهواه، شرحًا مؤثراً مؤلمًا حتى كان يخيل إلىَّ أن كل بيت من أبياتها جذوة نار ملتهبة. وسمعـته يشكو من خيانة حبيبته «جورج صاند» ويعـالج نفسه على أن يسلوها، ويتناسى عهدها وزمـامها فلا يجد إلى ذلك سبـيلاً. . وما هو إلا أن أتم قصيدته حتى تغـير لونه وشخص بصره. . واضطرب اضطراب الأغصان اليابـسة. . بين أيدى الرياح العاصفة، ثم أخذ يهذى هذيـان المحموم، ويخلط فى كلامه خلطًا شـديداً، فعلمت أن الرجل قد جن، وأن العـالم الشعرى قد فـجع إلى الأبد، فمضيت لسـبيلى، وأنا أسأل الله العافية. وأقول: إن جمـال المرأة أحقر من أن يقتل أوفر عقل، وأعجز أن يطفئ أكبر قريحة.

ولكنهـا الأقدار تجـرى بحكمهـا علينا وأمر الـغيب سر مـحجب

تركت منزل دى موسيه، ومشـيت فى شارع من شوارع باريس، فرأيت شيخًا رث الثـياب، زرى الهيئة، يمشى مشية هادئـة مطمئنة، ويجر فى رجليه نعالاً باليـة، قد أطلت أصابعه مـن خروقها كـما تطل الحيات من أحـجارها فأتبعتـه نظرى، فرأيته لا يرفع طرفه سكونًا وإطراقًا، ولا يكاد يـحرك عضواً من أعضـائه رزانة ووقاراً، فقلت فى نفـسى: إن لهذا الرجل شأنًا، فمـشيت وراءه حـتى رأيتـه قد وقف على باب حـانوت إسكاف، فلم يـجد صـاحب الحانوت فى مكانه، فجلس على الأرض ينتظره حتى يعود فيخصف له نعله، فسألت بعض المارة عنه فـقال: هذا «كورنى» شاعر فرنسا، فـأخذتنى الدهشة وملكنى العجب، حـتى كاد يحول بينى وبين عـقلى، وقلت فى نفسى: ويح لكم معشر الناس. أتضنون بقطعة من الجلد الأسمر، على رجل يقلد أعناقكم الدر والجوهر. أعجـزتم على أن تجمعوا أمركم على أن تمسحـوا هذه الغضون عن تلك الجـبـهـة التى تجـود عليكم كل يوم بما يفـرج كـربتكم، ويخـفف محنتكم، ثم رجعت أدراجى وأنا أقول: كان قـضاء حتمًا على الدهر ألا ينيل هؤلاء الأدباء من دهرهم ما يريدون ولا يمنحهم من العيش ما يشتهون.

إن فى جلسة «لامارتين» منفردًا فى منزله لا مؤنس له غير كلبه، وفى عزلة «دى موسيه» فى غرفته بين دموعه وأحزانه، وفى جلسة «كورنى» أمام حانوت الإسكاف ينتظر ترقيع نعله، لآية للمتفكرين، وعبرة للمعتبرين.

* * *

الآن عدت من سياحتى فى ذلك الكتاب أشكر للكاتب ما كتب، وللمترجم ما ترجم، وأقول: من لى فى كل يوم بسياحة مثل هذه السياحة فى كتاب مثل هذا الكتاب؟

دمعة على الأدب

مات بالأمس إمام الشعر البارودى، وإمام النثر محمد عبده، فجزعنا ما جزعنا، وسكبنا عليهما من الدموع ما سكبنا، ثم كفكفنا من تلك الدموع وخفضنا من زفرات الضلوع، حينما سمعنا قول القائل: إن فى الباقى عزاء عن الفانى، وإن الأبناء خلفًا من الآباء، ولقد كر على عهدهما الشهر بعد الشهر، والدهر بعد الدهر، والأدب جاثم فى مكمنه هامد لم يبعث من مرقده بعد ما قبرناه ولم ينشر من قبره بعد ما واريناه، فتساءلنا: أين الباقى الذين يزعمون؟ والخلف الذى يذكرون؟

أين فطاحل اللغة الغربية، لا السياسية، وأرباب الأقلام العربية، لا الأعجمية؟

عذرنا المويلحى الكبير واليازجى، لأنهما ماتا ولحقا بصاحبيهما، فهل مات شوقى وحافظ والبكرى والمويلحى الصغير؟

ما مات منهم أحد، وإنما كانت حياة ذينك الرجلين، حياة الصناعيين، وكان لوجودهما سر من الأسرار ينبعث فى الألسنة فيطلقها والأقلام فيجريها وكانت منزلتهما من الأحياء منزلة الأم من مصابيح الكهرباء، تشتعل المصابيح

بتيارها، وتضىء بأسرارها، فإذا فرغت مادتها وانقضى أجلها، عم الظلام واشتد الحلك، والمصابيح -كما هى- جسم بلا روح، ولفظ بلا معنى.

أما شوقى فقد طار فى جو غير هذا الجو، وهام فى واد غير ذلك الوادى وما زالت تعبث به الأنواء حتى أغرقته فى شبر من الماء، وأما حافظ فقد انقبضت حياته النثرية قبل انقضاء البؤساء[١]، أما حياته الشعرية فلم يبق منها غير نظم المقالات السياسية من العام إلى العام، وأين هذه القيثارة البسيطة ذات اللحن الواحد من ذلك العود الأجوف الرنان الذى كنا نسمع منه مختلف الألحان وأفانين الأشجان؟ وأما البكرى والمويلحى فقد قضيا حق التأليف، هذا بصهاريجه[٢] وذاك بفتراته[٣] ثم لحقا بالسابقين، ومضيا على إثر الماضيين:

أين سكانك لا أين لهم ... أحجازاً أوطنوها أم شآما

أين الروضة الغناء التى كنا نتفيأ ظلالها، ونهصر أغصانها، ونقطف ما شئنا من ورودها ورياحينها؟ وأين البلابل التى كانت تتنقل بين أشجارها فتطرب بالأغاريد، وتستهوى بالأناشيد.

فاسألنها واجعل بكاك جوابًا ... تجد الدمع سائلاً ومجيبًا

أنا لا أعجب لشىء عجبى لهؤلاء الأدباء: يحزنون فلا يبكون، ويطربون فلا يضحكون، ويألمون بلا أنين، ويعشقون بغير حنين.

أيطرب البلبل فيغرد، ويشجى الحمام فينوح، ويطرب الشاعر، ويشجى الكاتب، فلا ينطق لسانهما ولا يهتز قلمهما؟

لما اسنَّ عمر بن أبى ربيعة ورأى أن شعر الغزل والتصابى غير لائق بشيبه ووقاره، عزم على هجره فما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وغلب على أمره كما يغلب المرء على غرائزه وسجاياه، فاحتال لذلك بأن حلف ألا يقول

---

(١) هو كتاب لفيكتور هيجو الشاعر الفرنساوى ترجمه حافظ إبراهيم ترجمة فصيحة ولم يتمه.

(٢) هو كتاب «صهاريج اللؤلؤ» للسيد البكرى.

(٣) هو كتاب «فترة من الزمن» المسمى «حديث عيسى بن هشام» لمحمد المويلحى.

بيتًا من الشعر إلا أعتق رقبة، فشكا إليه رجل حبًّا برَّح به، فحن واهتاج، ونظم أبياتًا فى شأن الرجل ووجده، ثم أعتق عن كل بيت رقبة.

فهل نزر أدباؤنا ما نذر عمر بن أبى ربيعة، وهم فى شرخ الشباب وإبان الفتوة؟ إن كانوا فعلوا ذلك فأسأل الله لهم قصة كقصة عمر تهيج أشجانهم، فتحنث أيمانهم، والأمة كفيلة لهم بوفاء النذور، وكفارة الأيمان:

وذو الشوق القديم وإن تعزّى   مشوق حين يلقى العاشقينا

مُصطفى لطفى المنفلُوطىّ



الجزء الثالث

راجعه

إبراهيم أمين محمد

البيـــــان

أعرف أديبًا من أفضل الأدباء فى هذا البلد المضطلعين باللغة وفنونها. الحافظين للكثير الممتع من منظومها ومنثورها، إلا أنه لا يكتب كلمة فى صحيفة، ولا ينشر فى الناس كتابًا، إلا أعجم كتابته وأبهمها، وتعمل فيها تعملاً يأخذ على القارئ عقله وفهمه، فلا يدرى أى سبيل يأخذ بين مسالكها وشعابها، وكنت أحسبها غريزة من غرائزه الغالبة عليه، الآخذة من نفسه مأخذ الطبيعة الثابتة والملكة الراسخة، فلا سبيل له إلى التخلص منها، والنزوع عنها، حتى اطلعت له عند بعض أصدقائه على كتاب صغير كان قد أرسله إليه فى بعض الشؤون الخاصة وكتبه بتلك اللغة السهلة البسيطة التى يسمونها اللغة العامية، فأعجبت بأسلوبه فى كتابه هذا إعجابًا كثيراً ورأيت أنه أبلغ ما قرأت له فى حياتى من كتب ورسائل، وعلمت أن الرجل فصيح بفطرته، قادر على الإبانة عن أغراضه ومراميه، كأفضل ما يتقدر متقدر على ذلك، إلا أنه يتكلف الركة والتعقيد فى كتابته تكلفًا، ويأخذ نفسه أخذًا، ولو أنه أرسل نفسه على سجيتها فكتب جميع رسائله ومؤلفاته بتلك اللغة الجميلة العذبة التى كتب بها هذا لكان من أعظم الكتاب شأنًا، وأرفعهم صوتًا فى عالم الكتابة والأدب، ولكن هكذا قدر له أن يقضى بنفسه على نفسه.

وقرأت منذ أيام لأحد الشعراء المتكلفين ديوان شعر فلم أفهم منه غير خطبته النثرية ولم يعجبنى فيه سواها، وما أحسبها أفلتت من يده، ولا جاءت فى هذه الصورة من الجودة والحسن إلا لأنه أغفل العناية بها، والتدقيق فى وضعها فأرسلها عفو الخاطر إرسال من يعلم أنه إنما يسأل عن الإجادة فى الشعر، لا عن البراعة فى النثر، وأن الناس سيغتفرون له ضعف الكاتب، أمام قوة الشاعر غير عالم أنه كاتب من أفصح الكتاب وأبينهم، ولو شاء لكان شاعرًا من أقدر الشعراء وأفضلهم، وأنه ما أحسن إلا حيث ظن الإساءة، ولا أساء إلا حيث ظن الإحسان.

ووالله لا أدرى ما الذى يستفيده هؤلاء الأدباء من سلوكهم هذا المسلك الوعر الخشن فى أساليبهم الكتابية والشعرية وتكلف الأغراب والتعقيد فيها، وهم يعلمون أنهم إنما يكتبون للناس لا لأنفسهم؛ وأن الناس، خصوصًا فى هذا العصر عصر المدنية والعمل، والحركة والنشاط أضن بأنفسهم وبأوقاتهم من أن يقفوا الوقفات الطوال أمام بيت من الشعر يعالجون فهمه، أو سطر من النثر يعانون كسر صخور ألفاظه عن معانيه، ولم لا يؤثر أحدهم أن كان يكتب للمنفعة العامة أن يستكثر من سواد المنتفعين بعلمه وفضله، أو للشهرة والذكر أن ينتشر له ما يريد من ذلك بين جميع طبقات الأمة عامتها وخاصتها علمائها وجهلائها، وهل الشعر والكتابة إلا أحاديث سائرة يحادث بها الشعراء والكتاب الناس ليفضوا إليهم بخواطر أفكارهم، وسوانح آرائهم، وخلجات نفوسهم، وهل يعنى المتحدث فى حديثه شىء سوى أن يعى عنه الناس ما يقول، وأن يجد بين يديه سامعًا مصغيًا، ومقبلاً محتفلاً، وأى فرق بين أن يجلس الرجل إلى جمع من أصدقائه ليقص عليهم بعض القصص، أو يفضى إليهم ببعض الآراء فيتلطف فى تفهيمهم، وإيصال معانيه إلى نفوسهم. ويفتن فى اجتذاب ميولهم وعواطفهم. وبين أن يجلس إلى مكتبه ليبعث إليهم بهذه الأحاديث نفسها من طريق القلم؛ ولم لا يعنيه فى الأخرى ما يعنيه فى الأولى؟

ليس البيان ميدانًا يتبارى فيه اللغويون والحفاظ أيهم أكثر مادة فى اللغة وأوسع اطلاعًا على مفرداتها، وتراكيبها، وأقدر على استظهار نوادرها وشواذها ومترادفها ومتواردها، ولا متحفًا لصور الأساليب وأنواع التراكيب، ولا مخزنًا لأحمال المجازات والاستعارات، وحقائب الشواهد والأمثال؛ فتلك أشياء خارجة عن موضوع البيان وجوهره، إنما يعنى بها المؤلفون والمدونون وأصحاب القواميس والمعاجم وواضعو كتب المترادفات ومصنفو فقه اللغة وتاريخ أدبها، أما البيان فهو تصوير المعنى القائم فى النفس تصويراً صادقًا يمثله فى ذهن السامع كأنه يراه ويلمسه لا يزيد على ذلك شيئًا، فإن عجز الشاعر أو الكاتب -مهما كبر عقله وغزر علمه واحتفل ذهنه- عن أن

يصل بسامعه إلى هذه الغاية فهو إن شئت أعلم العلماء الفضلاء، أو أذكى الأذكياء؛ ولكنه ليس بالشاعر ولا بالكاتب.

ما أشبه الجمود اللغوى فى هذه البيئة العربية بالجمود الدينى، وما أشبه نتيجة الأول بنتيجة الآخر.

لم يزل علماء الدين يتشددون فيه ويتنطعون، ويقتطعون من هضبته الشماء صخوراً صماء يضعونها عقبة فى سبيل المدنية والحضارة حتى صيروه عبئًا ثقيلاً على كواهل الناس وعواتقهم فمله الكثير منهم وبرموا به، وأخذوا يطلبون لأنفسهم الحياة الطيبة من طريق غير طريقه، ولو أنهم لانوا به مع الزمان وصروفه، وتمشوا بأوامره ونواهيه مع شؤون المجتمع وأحواله، لاستطاع الناس أن يجمعوا بين الأخذ بأسباب دينهم، والأخذ بأسباب دنياهم.

ولم يزل جماعة اللغويين وعبدة الألفاظ والصور يتشددون فى اللغة ويتحذلقون ويتشبثون بالأساليب القديمة والتراكيب الوحشية، ويغالون فى محاكاتها واحتذائها، ويأبون على الناس إلا أن يجمدوا معهم حيث جمدوا وينزلوا على حكمهم فيما أرادوا، ويحاسبون الكاتبين والناطقين حسابًا شديداً على الكلمة العربية والمعنى المبتكر، ويقيمون المناحات السوداء على كل تشبيه لم تعرفه العرب، وكل خيال لم يمر بأذهانهم، حتى ملهم الناس وملوا اللغة معهم فتمردوا عليهم وخلعوا طاعتهم، وطلبوا لأنفسهم الحرية اللغوية التامة فى جميع مواقفهم وعلائقهم فسقطوا فى اللغة العامية فى أحاديثهم وشبه العامية فى كتاباتهم، وكادت تنقطع الصلة بين الأمة ولغتها، لولا أن تداركها الله برحمته، فقيض لها هذا الفريق العامل المستنير من شعراء العصر وكتابه الذين عرفوا سر البيان وأدركوا كنهه، فاتخذوا لأنفسهم فى مناحيهم الشعرية والكتابية أسلوبًا وسطًا معتدلاً جمعوا فيه بين المحافظة على اللغة وأوضاعها وأساليبها وبين تمثيل روح العصر وتصوير الحياة، ولولاهم لبقيت اللغة فى أيدى الجامدين فماتت، أو غلبت عليها العامية فاستحالت.

★

قال لى أحـد الأدباء المتكلفين فى معرض اعتـذار عن نفسه وقد عـتبت عليه فى هذا المنهج الخشن الوعر الذى ينهجه فى أسلوبه: أنت تعلم أن الناس فى هذا البلد قد ألفوا من طريق خطأ الحس أن ينظروا بعين الإجلال والإعظام إلى كل أسلوب شعـرى أو كتابى مـعقد غـامض، وإن تفهت معـانيه وهانت أغراضه، وبعين الازدراء والاحتقار إلى الأساليب السهلة البسيطة وإن اشتملت على أشرف الأغـراض وأبرع المعانى، أى أنهم لا يرون السـهولة والانسـجام حتى يتوهموا التفاهة والفسولة، ولا يرون الركاكة والمعاظلة حتى يظنوا الحذق والبراعة وسمو المعانى وشرفها، وهى حالة طبـيعية فى جميع النفوس البشرية أن تزدرى المبذول لهـا، وتستسنى قـيمة الممنوع عنهـا، وليس هذا شأنهم مع أدباء العصر فحسب، بل مع أدباء كل عصر وجيل، فهم يسمون البحترى وأبا نواس والشريف الرضى وأمثـالهم: شعراء الألفاظ، ويسـمون المتنبى والمعرى وابن الرومى وأشباههم: شعـراء المعانى، ليس بين الأولين والآخرين فرق فى جـودة المعانى وشـرفـها إلا أن الأولين أمطروها على الـناس وبعثـروها تحت أقدامـهم فهـانت عليهم، وضن بهـا الآخرون ووعروا سـبيلها فـعظمت فى أعينهم، وحلت فى صدورهم، قال: ولقد عرضت السلعتين فى سوق الأدب فكتبـت أتفه المعانى وأدونـها فى أخشن الأسـاليب وأوعرها فنفـقت فى تلك السوق نفاقًا عظيمًا، وكثر المعجـبون بها والمكبرون لها، وكتبت أشرف المعانى وأبرعها فى ألطف الأساليب وأعذبهـا فما أبه لها إلا القليل من الناس، وربما لم يأبه لها أحد؛ فلم أر بدًا من أن أنتهج لنفسى فى الكتابة الخطة التى أعلم أنها أجدر بى وأجدى على.

فعجبت لرأيه عجبًا شديدًا وقلت له: أما هذا الذى تذكره فإنى لا أعرفه إلا لفـئة قليلة من القـراء فاسـدة الذوق لا يعبـأ بها عـابئ، وليس هذا رأى جمهور المتأدبين، بل ولا رأى العامـة من أبناء هذه اللغة، وهب أن الأمر كما تقول، فالأدب ليس سلعة من السلع التجارية لا هم لصاحبها سوى أن يحتال لنفاقها فى سوقـها، إنما الأدب فن شريف يجب أن يخلص له المتأدبون -بأداء حقه والقيام على خدمته- إخلاص غيرهم من المشتغلين ببقية الفنون لفنونهم، والأدباء هم قادة الجـماهير وزعـماؤهم فلا يجـمل بهم أن ينقادوا للجمـاهير

وينزلوا على حكمهم فى جهالتهم وفساد تصوراتهم، ولم أزل به حتى أذعن للرأى الذى رأيته له، فحمدت الله على ذلك.

★

ليس من الرأى ولا من المعقول أن ينظم الشعراء الشعر ويكتب الكتاب الرسائل -فى هذا العصر عصر الحضارة والمدنية وبين هذا الجمهور الذى لا يعرف أكثر من العامية إلا قليلاً- باللغة التى كان ينظم بها امرؤ القيس وطرفة والقطامى والحطفى ورؤبة والعجاج، ويكتب بها الحجاج وزياد وعبد الملك بن مروان والجاحظ والمعرى فى عصور العربية الأولى، فليس عصرنا كعصرهم، ولا جمهورنا كجمهورهم وأحسب لو أنهم نشروا اليوم من أجداثهم لما كان لهم بد من أن ينزلوا إلى عالمنا الذى نعيش فيه ليخاطبونا بما نفهم أو يعودوا إلى مراقدهم من حيث جاءوا.

ليست الأساليب اللغوية دينًا يجب أن نتمسك به ونحرص عليه حرص النفس على الحياة، إنما هى أداة للفهم وطريق إليه، لا تزيد على ذلك ولا تنقص شيئًا.

يجب أن نحافظ على اللغة باتباع قوانينها والتمسك بأوضاعها ومميزاتها الخاصة بها، ثم نكون أحرارًا بعد ذلك فى التصور والتخيل واختيار الأسلوب الذى نريد.

يجب أن يشف اللفظ عن المعنى شفوف الكأس الصافية عن الشراب حتى لا يرى الرائى بين يديه سوى عقل الكاتب ونفس الشاعر وحتى لا يكون للمادة اللفظية شأن عنده أكثر مما يكون للمرآة من الشأن فى تمثيل الصور والمخائل.

ويجب أن يتمثل المعنى فى ذهن المتكلم قبل أن يتمثل اللفظ، حتى إذا حسن الأول أفاض على الثانى جماله ورونقه؛ فاللفظ لا يجمل حتى يجمل المعنى، بل لا مفهوم للفظ الجميل إلا المعنى الجميل.

لو لم يكن للفصاحة قانون يرجع إليه من يريد معرفتها، ومقياس تقاس عليه؛ لوجب أن يكون قانونها العقلى أن يترك القائل فى نفس السامع الأثر الذى يريده فإن عجز عن ذلك فلا أقل من أن يصور له المعنى القائم فى نفسه، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فاحتراف أية حرفة من الحرف مهما صغر قدرها، واتضع شأنها أعود بالنفع على الأمة وأجدى عليها من حرفة القلم.

لا يبك شاعر بعد اليوم ولا كاتب سقوط حظه فى الأمة، ولا يقضى حياته ناعيًا عليها جهلها وقصورها كلما رآها منقبضة عنه غير حافلة به ولا مصغية إليه، فالأمة قد ارتقت واستنارت، وأصبحت طماحة متطلعة لا يقنعها من قلم الشاعر أن يرن على صفحة القرطاس دون أن يطربها ويملك عواطفها، ولا من قلم الكاتب أن يسود بياض الصحف دون أن ينير لها أذهانها، ويغذى عقولها ومداركها؛ فإن كان لابد باكيًا فليبك على نفسه ولينع عجزه وقصوره وليعلم أنه لو استطاع أن يكتب للأمة ما تفهم لاستطاعت الأمة أن تفهم عنه ما يقول.

إننى لا ألوم على الركاكة والتفاهة الأغبياء الذين أظلمت أذهانهم فأظلمت أقلامهم، وظلمة القلم أثر من آثار ظلمة العقل؛ ولا الجاهلين الذين لم يدرسوا قوانين اللغة، ولم يمارسوا أدبها ولم يتشبعوا بروح منظومها ومنثورها، ولا العاجزين الذين غلبتهم إحدى اللغة الأعجمية على أمرهم فأصبحوا إذا ترجموا ترجموا ترجمة حرفية ليس فيها مميز واحد من مميزات العربية، ولا خاصة من خواصها؛ وإذا كتبوا كتبوا بأسلوب عربى الحروف أعجمى كل شيء بعد ذلك فهؤلاء جميعًا لا حول لنا فيهم ولا حيلة؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا غير ذلك؛ إنما ألوم المتأدبين القادرين الذين عرفوا اللغة، واطلعوا على أدبها، وفهموا سر فصاحتها، وأنقم منهم عدولهم عن المحجة فى البيان إلى الجمجمة والغمغمة فيه؛ وأنعى عليهم نقص القادرين على التمام.

الناشئ الصغير(١)

لى ولد وحيد فى السابعة من عمره، لا أستطيع على حبى إياه وافتتانى به أن أتركه من بعدى غنيًا لأنى فقير، وما أنا بآسف على ذلك ولا مبتئس لأنى أرجو بفضل الله وعونه، ورحمته وإحسانه، أن أترك له ثروة من العقل والأدب، هى عندى خير ألف مرة من ثروة الفضة والذهب.

أحب أن ينشأ معتمدًا على نفسه فى تحصيل رزقه وتكوين حياته، لا على أى شىء آخر، حتى على الثروة التى يتركها له أبوه. ومن نشأ هذا المنشأ وألف ألا يأكل إلا من الخبز الذى يصنعه بيده، نشأ عزوفًا عيوفًا مترفعًا لا يتطلع إلى ما فى يد غيره، ولا يستعذب طعم الصدقة والإحسان.

أحب أن ينشأ رجلاً، ولا سبيل إلى الرجولة إلا من ناحية العمل، وقلما يعمل العامل إلا بسائق من الضرورة، ودافع من الحاجة، وفرق بين الغنى الذى يعمل لتنمية ثروته وتعظيم شأنها شرهًا وفضولاً، وبين الفقير الذى يعمل لتحصيل قوته، وتقويم أود حياته.

أحب أن يعيش فردًا من أفراد هذا المجتمع الهائل المعترك فى ميدان الحياة، يصارع العيش ويغالبه، ويزاحم العاملين بمنكبيه، ويفكر ويتروى، ويجرب ويختبر، ويقارن الأمور بأشباهها ونظائرها ويستنتج نتائج الأشياء من مقدمتها، ويعثر مرة وينهض أخرى، ويخطئ حينًا ويصيب أحيانًا؛ فمن لا يخطئ لا يصيب، ومن لا يعثر لا ينهض، حتى تستقيم له شؤون حياته.

ذلك خير له من أن يجلس فى شرفة من شرف قصره مطلاً على العاملين، والمجاهدين، يمتع نظره بمرآهم كأنما يشاهد رواية تمثيلية فى أحد ملاعب التمثيل.

(١) كتبت هذه الرسالة جوابًا عن سؤال هذا نصه «أيهما أصلح للإنسان: أن يولد فقيرًا أو غنيًا»؟.

أحب أن يمر بجميع الطبقات، ويخالط جميع الناس، ويذوق مرارة العيش ويشاهد بعينيه بؤس البؤساء وشقاء الأشقياء، ويسمع بأذنيه آنات المتألمين، وزفرات المتوجعين ليشكر الله على نعمته إن كان خيراً منهم ويشاركهم فى همومهم وآلامهم إن كان حظه فى الحياة مثل حظهم، لتنمو فى نفسه عاطفة الرفق والرحمة فيعطف على الفقير عطف الأخ على الأخ ويرحم المسكين رحمة الحميم للحميم.

أما الغنى الذى لم يذق طعم الفقر فى حياته فقلما يشعر بآلام الناس ومصائبهم، أو يعطف على بأسائهم وضرائهم؛ فإن حاول يومًا أن يمدَّ يده بالمعونة إلى بائس أو منكوب، فعل ذلك متفضلاً ممتنًا لا راحمًا ولا متألمًا.

والألم هو الينبوع الذى تتفجر منه جميع عواطف الخير والإحسان فى الأرض، وهو الصلة الكبرى بين أفراد المجتمع الإنسانى، والجامعة الوحيدة التى تجمع بين طبقاته وأجناسه، بل هو معنى الإنسانية وروحها وجوهرها، فمن حرمه حرم كل فضيلة من فضائل النفس، وكل مكرمة من مكرماتها، وأصبح بالصخرة الصلدة أشبه منه بالإنسان الناطق.

أحب أن يجوع ليجد لذة الشبع، ويظمأ ليستعذب طعم الرى ويتعب ليشعر ببرد الراحة، ويسهر لينام ملء جفونه، أى إننى أحب له السعادة الحقيقية التى لا سعادة فى الدنيا سواها.

وما السعادة فى الدنيا إلا لمحات البرق تخفق حينًا بعد حين فى ظلمات الشقاء، فمن لا يرى تلك الظلمات لا يراها؛ وأشقى الأشقياء أولئك المترفون الناعمون الذى يوافيهم الدهر بجميع لذائذهم ومشتهياتهم فلا يزالون يمنعون فيها ويتقلبون فى جنباتها حتى يستنفدوها؛ فيستولى على عقولهم مرض السآمة والضجر؛ فيتألمون من الراحة أكثر مما يتألم التعب من التعب؛ ويقاسون من عذاب الوجود أكثر مما يقاسى المحروم من عذاب الحرمان؛ وقد تدفعهم تلك الحالة إلى الإلمام بمشتهيات غريبة لا تتفق مع الطبيعة البشرية ولا تدخل تحت حكمها. تفريجًا بكربتهم وتنفيسًا عن أنفسهم وما هؤلاء المساكين الذين نراهم سهارى طوال لياليهم فى ملاعب القمار، ومجالس الشراب ومواقف

الرهان إلا جماعة الفارين من سجون السآمة والملل. يعالجون الداء بالداء، ويفرون من الموت إلى الموت.

أحب أن يكون غنيًا بالمعنى الحقيقى، لا بالمعنى الاصطلاحى، أى أن يكون مستغنيًا بنفسه عن غيره. لا كثير المال والثراء، وما سمى المال غنى إلا باعتبار أنه وسيلة إلى الغنى وطريق إليه، وهو اعتبار خطأ ما فى ذلك ريب، فإن أكثر الناس فقرًا إلى المال وأشدهم ولعًا بإحرازه، وأعظمهم مخاطرة بكراماتهم وفضائل نفوسهم فى سبيله هم الأغنياء، أصحاب المال والثراء، وإن كان فى الدنيا شىء يسمى قناعة واعتدالاً فهو فى جانب الفقراء المقلين، أكثر منه فى جانب الأغنياء الكثيرين، ولا يزال المرء يعتبر المال وسيلة إلى الحياة وذريعة من ذرائعها حتى يكثر فى يده فإذا هو فى نظره الحياة نفسها، يجمعه ولا يدرى ما يريد منه، ويعبده وهو لا يرجو ثوابه، ولا يخشى عقابه، ويستكثر منه وهو على ثقة من نفسه بأنه لا ينتفع بقليله، فضلاً عن كثيره، وإذا بلغ المرء فى حالته العقلية إلى درجة أن تنقلب فى نظره حقائق الكون، وتتغير نواميسه، فيرى الرؤوس أذنابًا، والأذناب رؤوسًا، والوسائل غايات، والغايات وسائل، فقل على عقله السلام.

لا أكره أن ينشأ ولدى غنيًا، ولا أحب أن أعرضه لمخاطر الفقر وآفاته، ولكنى أخاف عليه الغنى أكثر مما أخاف عليه الفقر.

أخاف عليه أن يعتدّ بالمال اعتدادًا كثيرًا، ويقدره فوق قدره، ويعتبره الكمال الإنسانى كله. فلا يهتم بإصلاح أخلاقه وتهذيب نفسه؛ وألا يجد من حوله من عشرائه وخلطائه مرآة يرى فيها هنأته وعيوبه لأن عشراء الأغنياء متملقون، مداهنون، يطوون سيئاتهم ويزخرفون حسناتهم.

أخاف عليه أن تستحيل نفسه إلى نفس مادية جامدة، لا تفهم من شؤون الحياة غير المادة، ولا تعنى بشىء سواها، فيصبح رجلاً قاسيًا صلبًا، ميت النفس والعواطف، لا يرحم بائسًا، ولا يعطف على منكوب، ولا يرثى لأمة، ولا يبكى على وطن، ولا يشترك فى شأن من الشؤون العامة خيرها

وشرها، ولا يعنيه ما دام راضيًا عن نفسه مغتبطًا بحظه؛ أسقطت السماء على الأرض، أم بقيت فى مكانها.

أخاف عليه أن يحتقر العلوم والآداب، ويزدرى المواهب والعقول، والفضائل والمزايا؛ فيصبح عار أمته وشنارها، ووصمتها الخالدة التى لا تزول، ومن أشرب قلبه حب المال، ونزل من نفسه إلى قرارتها، لا يحترم غيره ولا يقيم إلا لأربابه وزنًا، ويخيل إليه أن من عداهم من الناس لا قيمة لهم فى الحياة، بل لا حق لهم فى الوجود.

أخاف عليه إن تزوج أن يأبى الزواج إلا من غنية يرى أنها هى التى تليق بمقامه ومنزلته، ومن اشترط الغنى فى زوجة قلما تنزع نفسه إلى اشتراط شىء سواه، فيسقط فى زواجه سقطة يشقى بها طول حياته من حيث لا ينفعه ماله ولا جاهه.

أخاف عليه إن ولد ألا يجد بين أوقاته ساعة فراغ يتولى فيها النظر فى تهذيب ولده وتربيته، فيتركه صغيرًا فى أيدى الخدم، وكبيرًا فى أيدى عشراء السوء، فيصبح نكبته الكبرى فى حياته، وعاره الدائم بعد مماته.

أخاف عليه أن يقضى أيامه ولياليه مروعًا مذعورًا خافق القلب مستطار الفؤاد تقتله الخسارة إن خسر، ويصعقه فوت الربح إن فاته، ويطير بنومه وهدوئه هبوط الأسعار، ونزول الأسهم، وتقلبات الأسواق، وخسران القضايا ومنازعات الخصوم، والآفات السماوية والجوائح الأرضية.

وما حزن الفقير الذى أنفق آخر درهم بيده من حيث لا يعرف له طريقًا إلى سواه على نفسه وعلى مستقبله بأشد من حزن الغنى الشحيح على الدرهم الذى نقص من مليونه، أو الذى كان يؤمل أن يتمم به مليونه فلم يتح له.

وما ليلة البائس المسكين الذى يتصايح أولاده من حوله جوعًا، ولا يجد ما يسدُّ به رمقهم، بأطول من ليلة الغنى الذى يسقط إليه الخبر بأن سلعة من سلعه قد نفقت، أو أن سهمًا من أسهمه قد نزل.

وحدَّثنى من رأى بعينه من جن وهو واقف ينظر إلى قصر من قصوره

يحترق، وسمعت كثيراً من حوادث المنتحرين والمصعوقين على إثر النكبات المالية والخسائر التجارية التى لا تفقرهم ولا تصل بهم إلى درجة الإملاق وكل أثرها عندهم أنها تنقلهم إلى منزلة فى الغنى أدنى من منزلتهم الأولى.

أخاف عليه أن يصبح واحداً من أولئك الوارثين المستهترين الذين لا عمل لهم فى حياتهم سوى هدم حياتهم بأيديهم، وهدم ما ترك لهم آبائهم وأجدادهم من مال وجاه، فأندب حظى فى قبرى، وأقرع السن على أن لم أكن فارقت هذه الحياة لا مال لى فيها ولا ولد.

ولا أزال أذكر حتى الساعة أننى مررت بأحد شوارع القاهرة من بضع سنين فرأيت فى مكان واحد منه منظرين مختلفين، رأيت غلامًا من الوارثين جالسًا بإحدى الحانات يمرح فى نعمائه، وآخر من المتشردين نائمًا تحت الرصيف على مقربة منه يضطرب فى بأسائه، أما الأول فقد كان جالسًا بين مائدتى شراب وقمار، تسلب الأولى عقله والأخرى ماله، وقد أحاط به جماعة من الخلعاء الماكرين يلعبون بعقله لعب الغلمان بالكرة فى ميدانها، يضحكون لنكاته، ويؤمنون على أقواله ويصدقون أكاذيبه، ويتحركون بحركته، ويسكنون بسكونه، وهو يقهقه بينهم قهقهة المجانين، ويصيح صياح الثعالب، وأما الثانى فقد كان عاريًا إلا قليلاً، يفتح إحدى عينيه من حين إلى حين كلما رنت فى أذنه ضحكات هؤلاء السكارى وضوضاؤهم، ويضم ركبتيه إلى صدره كلما أحس صوت مركبة مارة بجانبه، وقد يبسط كفه أحيانًا وهو مغتمض إن خيل إليه أن يدًا تمتد إليه بالإحسان، ولا يد هناك ولا إحسان.

رأيت هذين المنظرين الغريبين المتناقضين، فثارت فى نفسى تلك الساعة عاطفتان مختلفتان، عاطفة البغض والاحتقار للأول وعاطفة الرحمة والشفقة على الثانى، وقلت فى نفسى: لو كان لى ولد وكان لابد له من أن يكون أحد هذين الغلامين، إما الوارث الجالس فوق الرصيف ينثر الذهب نثراً، أو المتشرد النائم تحته يسأل الناس لقمة فلا يجدها، لفضلت أن أراه بين فئة المتشردين، على أن أراه بين فئة الوارثين، لأنى أرجو له فى الأولى أن يجد

بين الراحمين راحمًا يحسن إليه، ويستنقذه من شقائه، ويأخذ بيده فى طريق الحياة الطيبة الصالحة أما فى الثانية فإنى لا أرجو له شيئًا.

إن للرحمة طيشًا كطيش القسوة والشدة، وأطيش الراحمين ذلك الذى يستنفد أيام حياته فى جمع الثروة لأولاده دائبًا ليله ونهاره لا يهدأ ولا يفتر من حيث يغفل النظر فى شأن تربيتهم وتعليمهم ضنًا بهم أن يزعج نفوسهم بشىء من تكاليف الحياة وأعبائها فإذا ذهب لسبيله وخلى بينهم وبين ذلك المال الذى جمعه لهم لا يكون لهم من الشأن فيه أكثر مما يكون لجماعة الحمالين فى الأثقال التى يحملونها من مكان إلى آخر، فهم ينقلونه من خزائنه شيئًا فشيئًا إلى خزائن الخمارين والمرابين والعاهرين حتى ينفد؛ فإذا فرغوا منه جلسوا فى عرصاتهم المقفرة جلسة الباكى الحزين، صفر الأكف، فارغى الجيوب، مطرقى الرؤوس، لا حول لهم ولا حيلة، فقد أضاعوا حياتهم وحياة آبائهم وأجدادهم وعدموا فى عام واحد أو عامين قرنًا كاملاً مجيدًا من أعلاه إلى أسفله ولا يعلم إلا الله ماذا يكون شأنهم بعد ذلك.

ولو أن أباهم كان يرحمهم رحمة حقيقية ويشفق عليهم إشفاقًا صحيحًا لرحمهم من هذا المصير المحزن. وضن بهم على هذا التراث المشئوم.

يقولون إن الفقر يدفع إلى الجرائم والقتل وارتكاب السرقات وأنا أقول: إننا إذا استطعنا أن نفهم الجريمة بمعناها الحقيقى وألا ننخدع بصور الألفاظ وألوانها علمنا أن للأغنياء جرائم كجرائم الفقراء، بل أشد منها خطرًا وأعظم هولاً، فإن كان بين الفقراء، اللصوص والقتلة والشطار والعيارون وقاطعوا الطرق؛ فبين الأغنياء: المحتالون والمزورون، والمغتصبون والخائنون، والمداهنون والممالئون وأصحاب المعامل والشركات الذين يغذون أجسامهم بدماء عمالهم، والتجار الذين يسرقون من الأمة فى يوم واحد باسم الحرية التجارية ما لا يسرقه منها جميع لصوص البلد وعياروه فى شهر كامل، والقوام والأوصياء الذين يورثون التركات من دون وارثيها، ويأكلون أموال اليتامى والمعتوهين باسم صيانتها والمحافظة عليها، والسماسرة الذين يغتالون الأسواق بأجمعها والمرابون الذين يختلسون الثروات بأكملها والسياسيون الذين يسرقون الممالك بحذافيرها.

على أن جرائم اللصوصية والسرقة والقتل ليست جرائم الفقر بل جرائم الغنى، فلولا شح الأغنياء بأموالهم وكلبهم عليها وحيازتها عن الفقراء لما وجد فى الأرض قاتل ولا سارق ولا قاطع طريق. ولا يسرق السارق، ولا يسلب السالب، ولا يلص اللص إلا جزءًا من حقه الذى كان يجب أن يكون له لو كان للمال زكاة، وللرحمة سبيل إلى الأفئدة والقلوب.

ليفتح الأغنياء المدارس وليبنوا الملاجئ، ولينشئوا المصانع والمعامل للعاطلين والمتشردين، وليتعهدوا المنكوبين والساقطين فى ميادين الحياة العامة بالمساعدة والمعونة، فإن وجدوا بعد ذلك لصوص أو قتلة أو مجرمين فليتهموا الفقر وينعوا عليه جرائمه وآثامه.

لا أريد أن أقول أن الغنى علة فساد الأخلاق، وأن الفقر علة صلاحها ولكن الذى أستطيع أن أقوله عن تجربه واستقراء: أنى رأيت كثيرًا من أبناء الفقراء ناجحين، ولم أر إلا قليلاً من أبناء الأغنياء عاملين.

إن العلوم والمعارف، والمخترعات والمكتشفات والمدنية الحديثة بأجمعها حسنة من حسنات الفقر؛ وثمرة من ثمراته، وما المداد الذى كتبت به المصنفات، ودونت به الآثار، إلا دموع البؤس والفاقة، وما الآراء السامية والأفكار الناضجة التى رفعت شأن المدنية الحديثة إلى مستواها الحاضر إلا أبخرة الأدمغة المحترقة بنيران الهموم، والأحزان وما انفجرت ينابيع الخيالات الشعرية والتصورات الفنية إلا من صدوع القلوب الكسيرة؛ والأفئدة الحزينة، وما أشرقت شموس الذكاء والعقل فى مشارق الأرض ومغاربها إلا من ظلمات الأكواخ الحقيرة؛ والزوايا المهجورة، وما نبغ النابغون من فلاسفة وعلماء، وحكماء وأدباء، إلا فى مهود الفقر، وجحور الإملاق، ولولا الفقر ما كان الغنى؛ ولولا الشقاء ما وجدت السعادة.

إن المجتمع الإنسانى اليوم ميدان حرب يعترك فيه الناس ويقتتلون لا يرحم أحد أحدًا، ولا يلوى مقبل على مدبر، يعدون ويسرعون ويتصادمون، ويختطبون، ويأخذ بعضهم بتلابيب بعض كأنهم هاربون من معركة، أو

مفلتون مـن مارستان، ودماء الشـرف والفضيلة تسيل علـى أقدامهم، وتموج موج البحر الزاخر يغرق فيه من يغرق وينجو من ينجو.

أتدرون لم سقطت الهيئة الاجتمـاعية هذا السقوط الهائل الذى لم تصل إلى مثله فى دور من أدوار حياتها الماضيـة، ولم هذا الجنون الاجتماعى الثائر فى خاصـتهم وعـامتهم، علمـائهم وجهـلائهم؟ ولم هذه الحروب القـائمة، والثورات الدائمة والقتال المـستحر بين البشر جماعات وأفـرادًا وقبائل وشعوبًا وممالك ودلاً؟

لا سبب لذلك سوى شىء واحـد: هو أن الناس يعتقدون اعـتقادًا خطأ أن المال معيار السـعادة وميزانها الذى توزن به، فهم يسـعون إليه لا من أجل الجمع والادخار، كما يجب أن يكون، بـل ومن أجل القوت وكفاف العيش، والمال فى العالـم كميـة محدودة لا تكفـى لملء جميع الخـزائن وتهدئة كـافة المطامع فهم يتـناهبون به ويتصـارعون من حوله كـما تتصـارع الكلاب حول الجيف الملقـاة، ويسمـون عملهم هذا تنازع الحيـاة، أو تنازع البقـاء. وما هو بالتنازع ولا التنـاظر، إنما هو التـفانى والتنـاحر، والدم السـائل، والعـدوان الدائم، والشقاء الخالد.

والعلاج الوحيد لهذه الحال المخـيفة المزعجة أن يفهم الناس ألا صلة بين المال وبين السعادة؛ وأن الإفراط فى الطلب شـقاء كالتقصير فـيه، وأن سعادة العـيش وهناءة وراحـــة النفس وسكونهـا لا تأتى إلا مـن طريق واحـد وهو الاعتدال.

★

الآن أستطيع غـير خاش لومًـا ولا عتبًـا أن أقضى للناشئ الفقـير على الناشئ الغنى قضاء لا مـجاملة فيه ولا محاباة، ومن ذا الذى يجـامل الفقراء ويحابيهم! وأن أقول للناشئ الفقيـر: صبراً يا بنى وعزاء، فإنك لم تخلق إلا للعمل، فاعمل واجـتهد؛ ولا تعتمد فى حيـاتك إلا على نفسك، ولا تحصد غير الذى زرعتـه يدك، فإن لم تجد معلمًا يعلمك فعلم نـفسك، والزمن خير مؤدب ومـهذب، وإن ضاقت بك المدارس فـادرس فى مدرسـة الكون ففيـها

علوم الحياة بأجمعها؛ وإن كنت ممن لا يعدُّون وظائف الحكومة ومناصبها غنمًا عظيمًا كما يعدها القعدة العاجزون؛ فها هو ذا فضاء الأرض أمامك فامش فيه وفتش عن قوتك كما تفتش عنه الطيور التى ليس لها مثل عقلك وقوتك، فإن الله لم يخلقك فى هذا العالم ولم يرزك إلى هذا الوجود لتموت فيه جوعًا أو تهلك ظمأ، ولا تصدق ما يقولونه لك من أن الناشئ الغنى أسعد منك حالاً، وأوفر حظًّا، وإن راقك منظره وأعجبك ظاهره، فلكل نفس همومها وآلامها، وهموم الفقر على شدَّتها أقل هموم الحياة وأهونها.

وحسبك من السعادة فى الدنيا ضمير نقى ونفس هادئة وقلب شريف، وأن تعمل بيدك فترى بعينك ثمرات أعمالك تنمو بين يديك وتترعرع فتغتبط بمرآها اغتباط الزارع بمنظر الخضرة والنماء فى الأرض التى فلحها بيده، وتعهدها بنفسه، وسقاها من عرق جبينه.

قتيلة الجوع

قرأت فى بعض الصحف منذ أيام أن رجال الشرطة عثروا بجثة امرأة فى جبل المقطم فظنوها قتيلة أو منتحرة حتى حضر الطبيب، ففحص أمرها وقرر أنها ماتت جوعًا.

تلك أول مرة سمعت فيها بمثل هذه الميتة الشنعاء فى مصر، وهذا أول يوم سجلت فيه يد الدهر فى جريدة مصائبنا ورزايانا هذا الشقاء الجديد.

لم تمت هذه المسكينة فى مفازة منقطعة أو بيداء مجهل؛ فنفزع فى أمرها إلى قضاء الله وقدره كما نفعل فى جميع حوادث الكون التى لا حول لنا فيها ولا حيلة بل ماتت بين سمع الناس وبصرهم، وفى ملتقى غاديهم برائحهم، ولابد أنها مرت قبل موتها بكثير من المنازل تطرقها فلم تسمع مجيبًا، ووقفت فى طريق كثير من الناس تسألهم المعونة على أمرها فلم تجد من يمد إليها يده

بلقمة واحدة تسدُّ بها جوعتها، فما أقسى قلب الإنسان، وما أبعد الرحمة من فؤاده، وما أقدره على الوقوف موقف الثبات والصبر أمام مشاهد البؤس ومواقف الشقاء.

لم ذهبت هذه البائسة المسكينة إلى جبل المقطم فى ساعتها الأخيرة؟ لعلها ظنت أن الصخر ألين قلبًا من الإنسان فذهبت إليه تبثه شكواها، أو أن الوحش أقرب منه رحمة فجاءته تستجديه فضلة طعامه، وأحسب لو أن الصخر فهم شكواها لأشكاها[1] ولو أن الوحش ألم بسريرة نفسها لرثى لها وحنا عليها، لأنى لا أعرف مخلوقًا على وجه الأرض يستطيع أن يملك نفسه ودموعه أمام مشهد الجوع وعذابه غير الإنسان.

ألم يلتق بها أحد فى طريقها فيرى صفرة وجهها وترقرق مدامعها وذبول جسمها فيعلم أنها جائعة فيرحمها.

ألم يكن لها جار يسمع أنينها فى جوف الليل، ويرى غدوها ورواحها حائرة ملتاعة فى طلب القوت فيكفيها أمره!

أأقفرت البلاد من الخبز والقوت فلا يوجد بين أفراد الأمة جميعها من أصحاب قصورها إلى سكان أكواخها رجل واحد يملك رغيفًا واحدًا زائدًا عن حاجته فيتصدق به عليها؟

اللهم لا هذا ولا ذاك، فالمال والحمد لله كثير، والخبز أكثر منه، ومواضع الخلات والحاجات بادية مكشوفة يراها الراءون ويسمع صداها السامعون، ولكن الأمة التى ألفت ألا تبذل معروفها إلا فى مواقف المفاخرة والمكاثرة، والتى لا تفهم من معنى الإحسان إلا أنه الغل الثقيل الذى يوضع فى رقاب الفقراء لاستعبادهم واسترقاقهم، لا يمكن أن ينشأ فيها محسن مخلص يحمل بين جنبيه قلبًا رحيمًا.

لقد كان الإحسان فى مصر كثيرًا فى عصر الاكتتابات والحفلات، وفى العهد الذى كانت تسجل فيه حسنات المحسنين على صفحات الجرائد تسجيلاً

---

(١) شكا إليه فأشكاه أى أرضاه وقبل شكواه.

يشهده ثلاثة عشر مليونًا من النفوس، فأما اليوم وقد أصبح كل امرئ موكولاً إلى نفسه، ومسئولاً أمام ربه وضميره أن يتفقد جيرته وأصدقاءه وذوى رحمه ويلتمس مواضع خلاتهم وحاجاتهم ليسدَّها، فها هم الفقراء يموتون جوعًا بين كثبان الرمال وفوق شعاف الجبال من حيث لا راحم ولا معين.

لقد كان فى استطاعة تلك المرأة المسكينة أن تسرق رغيفًا تتبلغ به أو درهمًا تبتاع به رغيفًا فلم تفعل، وكان فى استطاعتها أن تعرض عرضها فى تلك السوق التى يعرض فيها الفتيات الجائعات أعراضهن فلم تفعل، لأنها امرأة شريفة تفضل أن تموت بحسرتها، على أن تعيش بعارها، فما أعظم جريمة الأمة التى لا يموت فيها جوعًا غير شرفائها وأعفائها.

الأدب الكاذب

كنا وكان الأدب حالاً قائمة بالنفس تمنع صاحبها أن يقدم على شر، أو يحدث نفسه به، أو يكون عونًا لفاعليه. فإن ساقته إليه شهوة من شهوات النفس. أو نزوة من نزوات العقل، وجد فى نفسه عند غشيانه من المضض والارتماض ما ينغصه عليه ويكدر صفوه وهناءه، ثم أصبحنا وإذا الأدب صور ورسوم، وحركات وسكنات، وإشارات والتفاتات، لا دخل لها فى جوهر النفس، ولا علاقة لها بشعورها ووجدانها، فأحسن الناس عند الناس أدبًا وأكرمهم خلقًا، وأشرفهم مذهبًا، من يكذب على أن يكون كذبه سائغًا مهذبًا، ومن يخلف الوعد على أن يحسن الاعتذار عن إخلافه، ومن يبغض الناس جميعًا بقلبه على أن يحبهم جميعًا بلسانه، ومن يقترف ما شاء من الجرائم والذنوب على أن يحسن التخلص من نتائجها وآثارها، وأفضل من هؤلاء جميعًا عندهم أولئك الذين برعوا فى فن «الآداب العالية» أى فن الرياء والنفاق، وتفوقوا فى استظهار تلك الصورة الجامدة التى تواضع عليها «جماعة الظرفاء» فى التحية والسلام.

واللقاء والفراق؛ والزيارة والاستزارة والمجالسة والمنادمة؛ وأمثال ذلك مما يرجع العلم به غالبًا إلى صغر النفس وإسفافها، أكثر مما يرجع إلى أدبها وكمالها؛ فكأن الناس لا يستنكرون من السيئة إلا لونها؛ فإذا جاءتهم فى ثوب غير ثوبها أنسوا بها وسكنوا إليها؛ ولا يعجبهم من الحسنة إلا صورتها؛ فإذا لم تأتهم فى الصورة التى تعجبهم وتروقهم عافوها وزهدوا فيها، أى أنهم يفضلون اليد الناعمة التى تحمل خنجرًا، على اليد الخشنة التى تحمل بدرة، ويؤثرون كأس البلور المملوءة سمًّا على كأس الخزف المملوءة ماء زلالاً، ولقد سمعت بأذنى من أخذ يعدّ لرجل من أصدقائه من السيئات ما لو وزع على الخلق جميعًا للوث صحائفهم ثم ختم كلامه بقوله: وإنى على ذلك أحبه وأجله لأنه رجل «ظريف»! وأغرب من ذلك كله أنهم وضعوا قوانين أدبية للمغازلة والمعاقرة والمقامرة كأن جميع هذه الأشياء فضائل لا شك فيها، وكأن الرذيلة وحدها هى الخروج عن تلك القوانين التى وضعت لها، وما عهدنا ببعيد بذلك القاضى المصري الذى أجمع الناس فى مصر منذ أيام على احتقاره وازدرائه لا لأنه لعب القمار بل لأنه تلاعب بأوراق اللعب فى أحد أندية القمار، وسموه لصًا دنيئًا، والقمار لصوصية من أساسه إلى ذروته.

★

أعرف فى هذا البلد رجلين يجمعهما عمل واحد، ومركز واحد، أحدهما خير الناس، والآخر شر الناس، وإن كان الناس لا يرون رأيى فيهما.

أما الأول فهو رجل قد أخذ نفسه منذ نشأته بمطالعة كتب الأخلاق، والآداب ومزاولتها ليله ونهاره فقرأ فيها فصول الصدق والأمانة والعفة، والزهد والسماحة والنجدة، والمروءة والكرم، وقصص السمحاء والأجواد والرحماء والمؤثرين على أنفسهم، وافتتن بتلك الفضائل افتتانًا شديدًا، ثم دخل غمار المجتمع بعد ذلك وقد استقر فى نفسه أن الناس قد عرفوا من الأدب مثل ما عرف! فغضب فى وجه الأشرار، وابتسم فى وجه الأخيار، والأولون أكثر عددًا وأعظم سلطة وجاهًا، فسمى عند الفريقين شرسًا

متوشحًا؛ وامتدح إحسان المحسن، وذم إساءة المسيء، والمحسنون فى الدنيا قليلون، فسمى وقحًا بذيئًا حتى بين المحسنين، وبذل معروفه للعاجز الخامل، ومنعه القادر النابه؛ فلم يشعر بمعروفه أحد فسمى بخيلاً؛ واعتبر الناس بقيمهم الأدبية؛ لا بمقاديرهم الدنيوية، فلقى الأغنياء والأشراف بمثل ما يلقى به العامة والدهماء؛ فسمى متكبرًا؛ وقال لمن جاءه يساومه فى ذمته: إنى أحبك ولكنى أحب الحق أكثر منك؛ فكثر أعداؤه وقل أصدقاؤه.

أما الثانى فأقل سيئاته أنه لا يفى بوعد يعده؛ ولكنه يحسن الاعتذار عن إخلاف الوعود فلا يسميه أحد مخلافًا؛ وما رآه الناس فى يوم من أيامه عاطفًا على بائس أو منكوب؛ ولكنه يبكى لمصاب البائسين والمنكوبين، ويستبكى لهم فعدًّ من الأجواد السمحاء؛ وكثيرًا ما أكل أموال اليتامى وأساء الوصاية عليهم؛ ولكنه لا يزال يمسح رؤوسهم؛ ويحتضنهم إلى صدره فى المجامع والمشاهد كأرحم الرحماء وأشفق المشفقين؛ فسمى الوصى الرحيم؛ ولا يفتأ ليله ونهاره ينال من أعراض الناس ويستنزل من أقدارهم، إلا أنه يخلط جده بالهزل، ومرارته بالحلاوة فلم يعرف الناس عنه شيئًا سوى أنه الماجن الظريف.

ذلك هو الأدب الذى أصبح فى هذا العصر رأيًا عامًا يشترك فيه خاصة الناس وعامتهم وعقلاؤهم وجهلاؤهم؛ ويعلمه الوالد ولده والأستاذ تلميذه؛ ويقتتلون اقتتالاً شديدًا على انتحاله والتجمل به؛ كما يقتتلون على أعز الأشياء وأنفسها حتى تبدَّلت الصور، وانعكست الحقائق، وأصبح الرجل المخلص أحرج الناس بصدقه وإخلاصه صدرًا، وأضلهم بهما سبيلاً، لا يدرى أيكذب فيسخط ربه ويرضى الكاذبين؟ أم يصدق فيرضى نفسه ويسخط الناس أجمعين؟ ولا يعلم أيهجر هذا العالم إلى عزلة منقطعة يقضى فيها بقية أيام حياته غريبًا شريدًا؟ أم يبرز للعيون فيموت همًّا وكمدًا؟

★

يجب أن يكون أدب النفس أساس أدب الجوارح، وأن يكون أدب الجوارح تابعًا له وأثرًا من آثاره فإن أبى الناس إلا أن يجعلوا أدب الحركات

والسكنات أساس صلاتهم وعلائقهم، وميزان قيمهم وأقدارهم، فليعترفوا أن العالم كله مسرح تمثيلى، وأنهم لا يؤدون فيه غير وظيفة الممثلين الكاذبين.

إيفون الصغيرة(١)

«مترجمة»

ماتت وكأنها لم تمت، ليس على وجهها أثر واحد من آثار الآلام التى قاستها فى مرضها، يحسبها الرائى نائمة نومًا هادئًا لذيذًا، ويخيل إليه أنه يسمع صوت أنفاسها المترددة؛ ويرى هبوط صدرها وارتفاعه.

أين صفرة الموت ونحوله، أين آلام النزع وشدائده، أين الغصون التى خلفتها الأوجاع فوق جبينها؛ والدوائر الزرقاء التى رسمتها حول جفنيها؟

لقد مات كل ذلك بموتها فعاد لها رونقها وبهاؤها؛ وأصبحت كأنما قد خلقت الساعة ولما تنبعث الروح فى جسدها.

بهذا الوجه الجميل المشرق كانت جالسة منذ أيام قلائل أمام المدفأة باسمة مطمئنة تلاعب هرتها، وبهذا الفم الأرجوانى القانى كانت تغنى أمام قفص عصفورها أنشودة السعادة والحياة، وبهاتين اليدين البيضاوين الليتين كانت تقطف أزهار الربيع وتقدمها هدية إلى أبيها الشيخ، أما اليوم فقد انقضى ذلك كله لأن حياتها قد انقضت.

آخر كلمة نطقت بها قبل موتها «سأموت الساعة، فائتونى بعصفورى أودعه» فأتوها بقفص عصفورها وعلقوه بقائم سريرها فظلت تنظر إليه باسمة

(١) هى فتاة صغيرة عثر بها فى طفولتها على باب إحدى الكنائس فى فرنسا ناظر مدرسة قروية وكان شيخًا كبيرًا مات جميع أولاده وأحفاده وبقى هو من بعدهم وحيدًا مستوحشًا فأنس بها حين وجدها أنسًا شديدًا وسماها «إيفون الصغيرة» لأنه لم يكن يعلم من أمر نسبها شيئًا. فأصبحت سلوته الوحيدة فى شيخوخته وعنى بتربيتها وتهذيبها حتى بلغت السابعة من عمرها فأصابها مرض لم يمهلها إلا بضع ليال حتى ذهب بها إلى ربها فرثاها أحد الشعراء بهذه القطعة.

منطلقة. وظل العصفور يلعب ويغرد تغريدًا شجيًا، وهو لا يعلم أنه ينشد فوق رأسها أنشودة الموت.

وهنا وقف الشيخ الذى تبناها بجانب فراشها واجمًا حزينًا، مشرد اللب؛ ذاهل العقل؛ ومد يده إلى يدها الضعيفة الواهية التى كانت بالأمس عكاز شيخوخته وسند حياته، فأخذها ووضعها على صدره، كأنما يريد أن يمد حياتها بتلك البقية الباقية فى قلبه من الحياة لتعيش من بعده ولو ساعة واحدة حتى لا يراها تموت بين يديه، وظل على حاله تلك هنيهة، ثم التفت فجأة إلى أصدقائه، وقال لهم ها هى ذى الحرارة قد بدأت تدب فى جسمها شيئًا فشيئًا فنظروا إليه آسفين محزونين، ثم نكسوا أبصارهم، وأسبلوا مدامعهم فظل يدير بينهم عيونًا حائرة؛ ويتنقل بنظراته ههنا وههنا، كأنما يسألهم المعونة على أمره، ومن ذا يعين على القدر؛ أو يعترض سهم المنية القاتل.

وما هى إلا لحظة حتى شعر أن يدها تجذب يده فانتفض وحنا عليها فطوقته بذراعيها الضعيفتين وضمته ضمة كانت فيها نفسها.

إنا لله وإن إليه راجعون، ماتت إيفون الصغيرة، ماتت الطفلة الوديعة الجميلة. ماتت الفتاة الرزينة الصابرة؛ فى سبيل الله نجم تلألأ فى سماء الحياة لحظة ثم هوى وغصن أزهر فى روض المنى ساعة ثم ذوى، وقدح من البلور لم تكد تلمسه الشفاه حتى انكسر، وعقد من اللؤلؤ لم ينتظم فى سمطه حتى انتثر.

هذه الغرف التى طالما أنارتها بابتسامتها حتى فى الساعة تختفى فيها جميع الابتسامات، والحديقة التى كانت تقضى فيها كل يوم بضع ساعات من ليلها أو نهارها تلاعب أطيارها، وتقطف أزهارها، وتتعهد أشجارها والمماشى التى كانت تخطر على حصبائها فيصيرها شعاع خديها ياقوتًا ومرجانًا، وقد خلت جميعها منها، وهيهات أن يسعدها الحظ برؤيتها بعد اليوم.

كانت إيفون جميلة الخلق، طيبة النفس، نقية الضمير، تحب الأحياء جميعهم ناطقهم وصامتهم، فلا تبذل من ودها لهرتها المريضة أقل مما تبذل منه لأبيها الشيخ العجوز، ولا تتودد إلى الشيوخ الفانين أصدقاء أبيها

وسجرائه أكثر مما تتودد إلى وافد غريب يهبط قريتها للمرة الأولى فى حياته وما علموها قط اختلفت مع فتى أو فتاة من تلاميذ مدرستها، لأنها كانت تستهوى الطيب منهم بلطفها وأدبها والخبيث بعفوها وصفحها. وهى وإن لم تكن تعلم أنها لقيطة ولكن من كان ينظر فى عينيها ويرى ذبولها وانكسارهما ولمعانهما الذى يشبه لمعان الدمع الرقراق يخيل إليه أنها قد ألهمت ما كتمه الناس عنها؛ وأنها كانت تعلم أنها لا تعيش فى بيت أبيها بوصاية جدها كما كانوا يقولون لها، بل في بيت محسن كريم لا يعرف من تاريخها ولا من أمر ميلادها شيئًا، وكانت لا تزال تتراءى بين شفتيها ابتسامة حلوة هى الرقية التى كانت تفتح بها أقفال القلوب ثم تنزل فيما تشاء منها المنزلة التى تريدها، ولم تكن ابتسامتها ابتسامة التصنع والتكلف التى يرثها أكثر الفتيات عن أمهاتهن، بل ابتسامة الحب والإخلاص والحنو والعطف.

لذلك عجل الموت إليها لأن سكان السماء لا يستطيعون أن يعيشوا طويلاً على ظهر الأرض.

دقت أجراس الكنيسة تنعاها فلم تسمعها، ولو سمعتها لاهتزت لها فى سريرها شوقًا ولهفة كما كان شأنها فى حياتها، ثم جاءت ساعة الدفن فحملوها على أيديهم ومشوا بها حتى وصلوا إلى الكنيسة فوضعوا نعشها فى ركن من أركانها ثم اجتمعوا حولها يودعونها الوداع الأخير، فبكاها الشيوخ الذين كانوا يحبونها ويأنسون بها، والفتيان والفتيات من تلاميذ مدرستها، والنساء اللواتى كن يحببنها من أجل حبها أبناءهن، وبكاها أكثر من هؤلاء جميعًا ذلك الشيخ المسكين، لأنها كانت كل دنياه فخسرها فى ساعة واحدة.

وظل كثير من الوقوف يردد ذكراها، فيقول أحدهم: طالما رأيتها فى هذا الركن نفسه جالسة وحدها وبيدها الكتاب المقدس تتلو آياته. ويقول الآخر: لقد دخلت الكنيسة ليلة فرأيتها هائمة وحدها فى الظلام الحالك تحت هذه الأقبية فعجبت لصلاحها وتقواها، وتقول امرأة: لقد عثرت ابنتى يومًا من الأيام فى منصرفها من مدرستها ببعض الأحجار عثرة برحت بها فاحتملتها على ظهرها حتى جاءت بها إلى المنزل، وتقول أخرى: لقد كنت أراها تمر

كل يوم بجارتنا فلانة المسكينة فتعطيها رغيفًا من طعامها ثم تستمر أدراجها إلى مدرستها.

وهكذا ظل كل منهم يذكر ما يعرف عنها حتى حانت ساعة الدفن فعلت الأصوات بالبكاء ثم غيبوها فى قبرها وحثوا عليها التراب، وكان الليل قد أظل المكان بجناحيه وساد فيه سكون موحش رهيب فانصرفوا مطرقين واجمين يقولون:

«وارحمتاه لها لقد خرجت من الدنيا غريبة كما وفدت إليها».

الملاعب الهزلية

كنت آليت على نفسى منذ أعلنت هذه الحرب؛ قبحها الله؛ وقبح كل ما تأتى به ألا أكتب كلمة فى صحيفة سيارة فى شأن من الشؤون العامة خيرها وشرها حتى ينقضى أجلها وأن أترك هذا القلم هادئًا مطمئنًا فى مرقده مدرجًا فى ذلك الكفن الأبيض الرقيق المنسوج من خيط العنكبوت حتى يأتى ذلك اليوم الذى يستطيع فيه أن ينبعث كما يريد لا كما يراد منه، ولكن نازلاً نزل بهذا المجتمع المصرى منذ عام أو عامين لم أحفل به فى مبدئه؛ ولم ألق له بالاً؛ وعددته فى النوازل الصغيرة المترددة التى لا تلبث غيومها أن تنعقد فى سماء البلد حتى تهب عليها نسمة من نسمات الروح الإلهى فتنقشع ولكن ها قد مضى العام والعامان وهو باق فى مكانه؛ لا يتحول ولا يتحلحل بل تزداد قدمه على الأيام ثباتًا ورسوخًا وأحسبه سيبقى فى مستقبل أيامه أضعاف ما بقى فى ماضيها إن لم نثر عليه معشر الكتاب حربًا شعواء، تهز جدرانه هزاً، وتدكه دكًا، وتلحق أعاليه بأسافله لذلك كتبت هذه الكلمة غير مبال بتلك الألية التى كنت آليتها، فلعل أصدقائى من أفاضل الكتاب يساعدوننى فى هذا الشأن الذى إن عجزنا عنه اليوم فما نحن بقادرين عليه غداً.

نزلت بالأمة المصرية نازلة تلك المقاذر العامة التى يسمونها الملاعب

الهزلية وما هى فى شىء من الهزل ولا الجد؛ ولا علاقة لها بالتمثيل والتصوير ولا بأى فن من الفنون الأدبية، فأقبل عليها الناس إقبالاً عظيمًا، وأغرموا بها غرامًا شديدًا، فليقبلوا عليها ما شاؤا، وليفتتنوا بها ما أرادوا، ولكن فريقًا واحدًا من الأمة هو الذى نضن به على تلك المواطن الساقطة أن تطأها قدمه أو تظلل سماؤها رأسه لأنا نضن به على كل منقصة فى العالم تزرى به، أو تنال من كرامته.

ذلك الفريق المضنون به وبكرامته هو أنتم معشر الطلبة المصريين إخواننا وأبناءنا، وعنوان مجدنا وشرفنا، وصورة وجودنا وحياتنا، ومناط أمانينا وآمالنا فائذنوا لكاتب من كتابكم، وصديق من أصدقائكم، أن يحادثكم قليلاً فى هذا الشأن كما يحادث الأب ولده، أو الأخ أخاه لا قاسيًا ولا متجبرًا بل عاتبًا متلطفًا، وأمله عظيم أن ينتهى الحديث بينه وبينكم على ما يحب لكم، وما يعتقد أنكم تحبون لأنفسكم.

الحق أقول، أن الحياء يكاد يعقد لسانى بين أيديكم، فلا أدرى كيف أحدثكم، ولا ماذا أقول لكم؟

أأعظكم فى أمر أنتم تعلمون من نتائجه وآثاره وسوء عقباه مثل ما أعلم أو أدعوكم إلى اجتناب سيئة لا أحسب أن بين كباركم وصغاركم من يجهل أنها السيئة العظمى التى لم ترزأ الأمة بمثلها فى حاضر تاريخها أو ماضيه! أو أقول لكم أن هذه الأماكن التى تطؤها أقدامكم إنما هى مقابر المجد والشرف ومدافن الفضائل والأخلاق، ومصارع الأعراض والحرمات! وهل غاب ذلك عن علم أحد منكم فأعلمكم منه ما لا تعلمون؟!

لا يجهل أحد منكم شيئًا مما أقول، ولكنه الشباب يغرى الضعيف العاجز عن احتمال سلطانه وسيطرته بالإقدام على تلك المخاطر المهلكة، فيمضى إليها قدمًا، لا يجهل مكان الخطر منها، ولكنه يعجز عن مغالبة نفسه ومناورتها حتى يتردى فيها، وربما كان هذا هو كل الفرق بينى وبينكم.

إننى لا أرى فى هذه المجامع التى تفتتنون بها وتتهافتون عليها حسنة تغتفر سيئة، أو جمالاً يفى بقبح، أو خيرًا يعزى عن شر. فتمثيلها سخيف

بارد لا يستطيع من أوتى حظًا قليلاً من سلامة الذوق أن يصبر نفسه ساعة واحدة على النظر إليه وملحها ثقيلة مستبشعة لو نطق بها ناطق فى مجتمع من المجتمعات الخاصة ثم قلب نظره فى وجوه الجالسين حوله لرأى فى ابتسامات السخرية المترقرقة فى شفاهم ما يذيبه حياء وخجلاً، وأناشيدها سوقية مبتذلة فى موضوعها وصورة أدائها لا يطرب لمثلها إلا أصحاب الأذواق العامية الخشنة الذين يطربون لنشيد الأذكار وطبول الزار وتعداد النائحات وضجيج الباعة فى الأسواق، فماذا بقى فيها من وجوه الحسن بعد ذلك؟

بقى فيها الهزء والسخرية بالطبقات الشريفة العاملة فى الأمة كالفلاحين آبائنا وأولياء نعمتنا، والشيوخ حفظة ديننا وأئمة لغتنا والمحامين والأطباء والمعلمين أفاضل الأمة وعيونها، وغيرهم من طبقات الأمة كالصناع والخدم والأكارين وأمثالهم.

بل بقى ما هو شر من هذا جميعه، وهو تمثيل الشهوات الدنية والنفسية بجميع ألوانها وضروبها على مشهد من رجالنا ونسائنا وأطفالنا وتصويرها بتلك الصورة القبيحة التى ترخى على مثلها الستور، وتقام من حولها الدعائم والجدران.

فلو أن غريبًا وفد إلى هذا البلد وهو لا يعلم من شأنه شيئًا فذهب إلى مكان من تلك الأمكنة ليرى فى مرآته صورة الأمة ممثلة فى مسارحها الوطنية لقضى عليها للنظرة الأولى بأنها أحط الأمم وأدناها.

ذلك إلى ما يسمعه فيها من ألفاظ السب والشتم وجمل الفحش والهجو التى لا يطرق أذنه مثلها فى موقف من مواقف حياته أو مشهد من مشاهدها، إلا إذا قدر له أن يتغلغل بنفسه يومًا من الأيام فى تلك الأحياء العامة الساقطة حتى يصل إلى «عرب اليسار» أو «عشش الترجمان» فيسمعها هناك فى مشاجرات القرادين ومهاترات الشحاذين.

ولقد قال لى أحد الأصدقاء الظرفاء مرة إن شتائم «أم شولح» قد انتقلت إلى بيتى ولا أعرف كيف انتقلت إليه، فإنى أسمع الكثير منها منذ أيام يتردد فى أفواه الأطفال هازلين، وفى أفواه الخدم جادين.

أتدرون أيها الأصدقاء من هم هؤلاء الذين يسمون أنفسهم ممثلين، ويسمون ما يهذون به فى مسارحهم روايات، والذين يدعونكم معشر المتعلمين الراقين إلى حضور مجامعهم باسم الآداب والفنون؟

لو أن جماعة من الزامرين وآخرين من الطبالين وآخرين من القرادين وجماعة غيرهم من الرمالين والمداحين والصفاعين والبهلوانية والحواة والرقاة وبقية السائلين المستجدين الذين يمرون بأبواب المنازل كل يوم ضاجين صارخين فلا نلقى لهم بالاً ولا نعيرهم أذنًا اتفقوا فيما بينهم على أن يكونوا جماعة واحدة يدًا واحدة فى مكان واحدة لكانوا هم بعينهم جوق كشكش والبربرى وشر فنطح لا فرق بينهم وبينهم سوى أن أولئك يقفون بأبوابنا ضارعين مبتهلين يقنعون باللقمة، ويجتزئون بالشربة، وهؤلاء يأبون إلا أن نقف على أبوابهم ونتعلق بأستارها فلا يفتح لنا حجابهم إلا إذا دفعنا الأتاوة المضروبة عليها.

وألطف كلمة سمعتها فى هذا الشأن قول بعض المفكرين «كان الشر مفرقًا فى أنحاء البلد فجمعه كشكش فى مكان واحد».

فهل تسمح لكم نفوسكم أيها الأصدقاء وأنتم عيون الأمة اليقظة، وعقولها المفكرة، أن تنخدعوا بألاعيب هؤلاء الخبثاء المحتالين فترفعوهم بأيديكم إلى هذه المرتبة العالية التى لم يخلقوا لها، ولا يمتون إليها بسبب من أسباب العلم أو الذكاء أو الشرف أو الخلق، وها هم أولاء نوابغ الممثلين فى أمتكم أشقياء بائسون لا يكادون يجدون بين ظهرانيكم ما يقيمون به أود عيشهم، أو يعينهم على ما هو بسبيله من خدمة الفن والقيام عليه.

من الذى يذهب لمشاهدة التمثيل الجدى الشريف فى مسارح أبيض ورشدى وعكاشة وأمثالهم إن كنتم لا تذهبون إليها! ومن هو أولى بها من بعدكم إن قطعتم صلتكم بها!؟

أيعجبكم ألا يرى الزائر لتلك المسارح الشريفة حين يزورها غير العامة والسوقة والأميين والجاهلين، فإذا فتش عنكم فى مكان آخر غيرها رآكم

مزدحمين فى مراقص كشكش والبربرى وأمثالهما راضين عن مقامكم فيها، مغتبطين بسفسافها وهذياناتها!؟

ألا تخشون أن يستنتج مستنتج منهم بعد ذلك وقد راعه هذان المشهدان الغريبان -مشهدكم فى الأجواق الهزلية الساقطة، ومشهد العامة والسوقة فى الأجواق الجدية الشريفة- إن الأمة المصرية أمة غريبة الشأن يفسدها العلم، ويصلحها الجهل، أو إن يتطرف متطرف منهم فى رأيهم فيقول: ليت الأمة عاشت جاهلة عمياء، موفوراً لها حظها من الأخلاق والآداب. فذلك خير لها من علم يهوى بها فى مهواة الشقاء والعار.

لقد رأيت فى حياتى صنوف الحيل والكيد وضروب السماجة والوقاحة فلم أر بين المحتالين والمتوقحين من هو أعظم كيداً ولا أسمج وجهًا من هؤلاء القوم.

إنهم يحاولون دائمًا أن يلبسوا مفاسدهم وشرورهم ثوب الفضيلة والجد، وهو إن كان ثوبًا شفافًا ينم عما وراءه، ألا إنه يكفيهم للذود عن أنفسهم فى موقف الجدل والمناظرة، كما يكفى البرقع الشفاف المرأة المتهتكة للدخول فى سلك المخدرات المتحجبات.

يمثلون الفلاح أقبح تمثيل، ولا يتركون مفسدة من المفاسد ولا رذيلة من الرذائل إلا ويلصقونها به وينشدون مختلف الأناشيد فى السخرية بشكله. والهزء بصفاته وأعماله، ثم لا يخجلون أن يقولوا بعد ذلك فى بعض تلك الأناشيد (ما دامت بلادنا زراعية، حبوا الفلاح إن كنتم تحبوا وطنكم).

وينتقدون فى رواياتهم فساد الرجال وخلاعة النساء وينقمون على المصرى تبديد أمواله فى سبيل شهواته، وليس للنساء فى مسارحهم عمل سوى إغراء الشبان وإغوائهم وإفساد عقولهم وابتزاز أموالهم فى الساعة التى تمثل فيها هذه الروايات وتلقى هذه الأقوال!

ويهدمون اللغة العربية هدمًا بهذه اللهجة العامية الساقطة التى يكتبون بها رواياتهم، وينظمون بها أناشيدهم وينشرونها فى كل مكان، ويفسدون بها

الملكات اللغوية فى أذهان المتعلمين ثم يزعمون بعد ذلك أنهم أنصار اللغة العربية وحماتها، فيقولون بتلك اللهجة العامية الساقطة (ما لها لغتنا العربية، آل همجية، يا دى المصيبة يا دى العار، فشر. . . دى لغة المدنية اتمسكوا بها صغار وكبار).

ولا يستحيون أن يجمعوا فى نشيد واحد من رواية واحدة بين قولهم «أبيع هدومى عشان بوسة، من خدك القشطة يا ملبن، يا حلوة زى البسبوسة يا مهلبية تمام وأحسن» وبين قولهم «مصر يحميك ربك، ما تشوفى إلا أيام سعدك» أى أنهم يصفعون الأمة على وجهها هذه الصفعات المؤلمة ثم يحاولون أن يترضوها بعد ذلك بترديد كلمات «الوطنية» و«حب وطنك» و«مت فى سبيل الأوطان» وأمثالها من الكلمات العذبة الجميلة التى لا معنى لها فى أفواههم إلا أنهم يعتقدون أن المصريين قد بلغوا من الغفلة والبله مبلغًا لا يبلغه أطفال المكاتب ولا سكان المارستانات.

لا أرى لكم معشر الطلبة المصريين أمام هذه النازلة العظمى التى نزلت بنا إلا أن يتندب فريق من عقلائكم نفسه لنصيحة إخوانه بالامتناع عن الذهاب إلى تلك الملاعب وشرح مضارها وسيئاتها لهم، فإن امتناع فريق منكم يؤثر على فريق آخر، وهكذا حتى يصبح فى عرفكم جميعًا أن الدخول إلى تلك الأماكن عار يخجل مرتكبه من الظهور به بين أصدقائه ومعارفه.

نحن فى حالة نحتاج فيها إلى أن يعلم الناس عنا فى كل مكان أننا أمة أخلاق وآداب، وأن فى نفوس أفرادنا من الصفات والمزايا ما يرفعنا إلى مصاف الأمم العظيمة، ومقياس عظمة الأمم عند العالم إنما هو بصفاتها ومزاياها قبل أن يكون بأى شىء غير ذلك، فإن فات آباؤنا أن يورثونا خلق العظمة والإباء فى عهدهم، فلنتخلق به نحن لنورثه أبناءنا من بعدنا.

إنكم لا تذهبون فى الحقيقة إلى هذه الأماكن وحدكم بل يذهب إليها معكم إخوانكم وأخواتكم، وبقية أفراد أسركم، لأنكم تقصون عليهم عند عودتكم منها ما شاهدتم، وتروون لهم ما سمعتم فكأن سكان البلد جميعًا رجالاً ونساء كبارًا وصغارًا يجتمعون فى هذه البؤر الفاسدة فى ساعة واحدة،

فهل يستطيع متصور أن يتصور خطرًا على الأمة وعلى أخلاقها وآدابها أعظم من هذا الخطر؟

إننى لا أدعوكم إلى الامتناع عن الإلمام بهذه المقاذر العامة من أجل أنفسكم فقط، بل من أجل إخوتكم وأخواتكم اليوم، ومن أجل أبنائكم وأحفادكم غدًا، ومن أجل مستقبل الأمة المصرية كلها الذى أعتقد أن أمانة فى أيديكم، ووديعة موكولة إلى كرم نفوسكم، وشرف ضمائركم.

اهدموا هذه الأماكن هدمًا بالإعراض عنها واحتقارها، ثم قفوا بعد ذلك على أطلالها البالية هاتفين صائحين صياح الظافر المنتصر قائلين: ها قد نجت الأمة من خطر عظيم، وها نحن قد قمنا جميعًا بالواجب علينا لوطننا.

الشيخ على يوسف

هكذا تقوم القيامة، وهكذا ينفخ فى الصور، وهكذا تطوى السماء طى السجل للكتاب.

أفيما بين يوم وليلة يصبح هذا الرجل الذى كان ملء الأفئدة والصدور، وملء الأسماع والأبصار، وملء الأرجاء والأجواء، جثة ضاوية نحيلة مدرجة فى كفن، ملحدة فى مهوى من باطن الأرض سحيق؟

ما أعظم الفرق بين الحياة والموت! تغرب الشمس فلا تلبث أن تطلع من مشرقها، وتتراكم السحب فوقها فلا تلبث أن تنفرج عنها حينما تهب عليها الرياح الباردة، وتعرى الأشجار عن أوراقها، ثم تعود إلى جمالها مخضرة نضرة، حينما تهب عليها نسمات الربيع، وينام الأحياء فى مضاجعهم، حتى إذا طلع عليهم الكوكب النهارى، وعبثت أشعته بأهداب جفونهم قاموا من مراقدهم، وذهبوا فى سبلهم التى خلقوا لها، ويموت الميت فلا ينتظره منتظر ولا يؤمل أوبته آمل، فكأن ما صار إليه: العدم الذى لم يسبقه وجود.

اللهم إنا نعلم أن الموت غاية كل حى، وأن مقاديرك التى تجريها بين

عبادك ليست سهامًا طائشة، ولا نياقًا عشواء، وأن ورود الحياة لا يمكن أن تنبت إلا فى التربة التى نبتت فيها أشواك الموت، ولكننا لا نستطيع أن نملك عيوننا من البكاء ولا قلوبنا من الجزع، إذا فارقنا عزيز علينا، لأن ساحة الصبر التى منحتنا، أضيق من أن تسع نازلة البلاء التى ابتليتنا، فاغفر اللهم لنا عجزنا وبكاءنا على الهلكى والذاهبين.

اللهم إنك تعلم أنا نسير من حياتنا هذه فى صحراء محرقة لا نجد فيها ظلاً نستظل به، ولا أكمة نأوى إليها، وأن الصديق الذى نعثر به فى طريق حياتنا هو بمنزلة الدوحة الخضراء التى ننتهى إليها فى تلك الصحراء بعد الأين والكلال وطول السير والسرى فنترامى فى ظلالها الوارفة هانئين مغتبطين، فإذا هبت ريح عاصفة على تلك الدوحة فاقتلعتها من جذورها وطارت بها فى جو السماء وأصبحنا من بعدها ضاحين بارزين فإنا لا نجد بدًا من البكاء والجزع، لأن من الشقاء ما لا يستطاع احتماله ولا يطاق تجرع كأسه.

لقد كان هذا الرجل العزاء الباقى لنا عن كل ذاهب، والنجم المتلألئ، الذى كنا نتنوره من حين إلى حين فى هذه السماء المظلمة المدلهمة المقفرة من الكواكب والنجوم، والدوحة الخضراء التى كنا نلوذ بظلالها من لفحات هذه الحياة وزفراتها فنحن إن بكيناه فإنما نبكى الأمل الذاهب، والسعادة الراحلة، والحياة الطيبة، ومن هو أولى بالتفجع والبكاء من سعادتنا وآمالنا!

ما كنا نرجو لهذه الأمة غير هذين الرجلين، ميت الأمس الشيخ محمد عبده، وميت اليوم الشيخ على يوسف، فقد كانا لها طودين شامخين رابضين على أكتافها، يمسكها الأول أن تزل بها مزالق المدنية الخالبة فيذهب دينها، ويمسكها الثانى أن تطير بها أحلام السياسة الكاذبة فتذهب جامعتها، واليوم لا نرجو لها من بعدهما أحدًا، فويل للأمة فى دينها وويل لها فى جامعتها.

العلماء والخطباء والكتاب فى هذه الأمة كثير، ولكن الرجال قليل.

إنما ينفع الأمة ويضطلع بخطوبها ويحمل أعباءها على عاتقه: الرجل الذى يشعر من نفسه بأنه ينزل منها منزلة رئيس الأسرة من أسرته التى يعلم أنه مأخوذ بالقيام عليها والسعى لها، فيقوم لها بكل ما تريد، ويسعى لها

سعى الكادح المجد، ويرحم صغيرها، ويحنو على كبيرها، ويحتمل مغارمها، ويغتفر عبث أطفالها، وجهل شيوخها، ويرى لها فى كل شأن من شؤونها خيراً مما ترى لنفسها، أرضاها ذلك أم أغضبها، من حيث لا يمن عليها بذلك. ولا يطلب عندها جزاء ولا أجراً، بل من حيث لا تعلم ما يلاقى بينه وبين نفسه آلام الحياة وما يعالج من شدائدها فى سبيلها.

وكذلك كان شأن الشيخ على يوسف فى أمته، فقد مات بموته آخر من بقى لها من الرجال.

لقد كان الذين يعرفونه أقل من الذين يجهلونه، لأن الذين ينظرون ببصائرهم أقل من الذين ينظرون بأبصارهم، ولأن الحقيقة الكامنة فى سويداء قلبه كانت أعمق مكاناً، وأدق مسلكاً، من أن تتناولها النظرة الطائرة، ولأنه كان مخلصاً متحنثاً يعمل فى سره أكثر مما يعمل فى علانيته. ثم لا يدل بنفسه فى كلتا الحالتين على نفسه.

رأيته فى حادثة الأزهر -فى تلك الأيام التى كان يظن فيها كثير من الناس أنه حرب على الأزهر والأزهريين- يقضى كثيراً من لياليه متردداً على أبواب القائمين بالأمر ضارعاً إليهم أن ينيلوا هؤلاء القوم مطالبهم أو بعض مطالبهم قائلاً عنهم ما كان يقوله النبى -ﷺ- عن فئة حنين: «**اللهم إن تهلك هذه الفئة فلن تعبد بعد اليوم على ظهر الأرض أبداً**» فلا يقف فى سبيله إلا حماقة أولئك الذين كان يظن هؤلاء المساكين أنهم أصدقاؤهم وهم أعدى أعدائهم.

ورأيته يضم إلى كنفه كثيراً من أصدقائه الذين نبا بهم الدهر بعد سقوط دولة «عبد الحميد» وتنكر لهم الناس جميعاً خصوصاً أولئك الذين كانوا يزدلفون إليهم أيام إقبالهم، ويمرغون وجوههم على أعتاب قصورهم وكان يلاقى فى سبيل ذلك من عتب العاتبين عليه ولوم اللائمين له ما لا يستطاع احتماله، فلم يبال بشىء من ذلك.

ورأيت كثيراً من أعدائه الذين كانوا فى بعض أيام حياتهم حرباً عليه وشقاء له يعودون إلى حظيرته واحداً بعد آخر يستغفرونه فيجلس إليهم ويتحدث معهم حديث المودة والإخاء كأنما كانوا معه على ميعاد.

وما رأيته فى يوم من أيام حياته حاقـدًا ولا واجدًا ولا منتقمًا ولا طالبًا بثأر ولا ذائدًا عن نفسه إلا فى الساعة التى يعلم فـيها أن قد جد الجد وأن قد أصبح عـرضه وشرفه عـلى خطر، ولم أر سائلاً دخل إليه يشكو حـاجة من الحاج صادقًا كان فيها أم كاذبًا ويسأله المعونة عليها من ماله أو جاهه إلا أعانه عليها مـا وجد إلى ذلك سبيلاً، رحـمة وإشفاقًا، لا رياء ونفـاقًا، وكان يرى الرأى ويرى الناس جميعًا غيره فلا يثنيـه عنه ثان حتى يتحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل فإذا هو مصيب والناس جميعًا مخطئون.

ففى سـبيل الله يا على مـا فقدنا بفـقدك، وفى ذمـة الله وجواره تلك الروح الطيـبة الطاهرة التى عـاشت ما عاشت فى هـذه الدنيا سـرًّا كامنًا بين أحشاء ضلوعك لا يكتنهها ولا يسـتشف باطنها إلا قليل من الناس، فما رآها الناس جمـيعًـا رأى العين إلا وهى طائرة فى جو السـماء إلى ربهـا، وكذلك شأن هذه الأمة البائسة المحدودة لا ترى رجـالها ولا تعرف مكانهم ولا تشعر بعظمـتهم، إلا وهم ذاهبـون إلى قبورهم حـيث تنقطع الصلة بينهـا وبينهم، فمثلهـا ومثلهم كمثل صـاحب الدار الذى يجهل أن فى أرضها كنزًا مـخبوءًا حتى إذا باعها ممن يستخرج ذلك الكنز منها جلس إلى ظل حائطها يبكى بكاء البائس المحزون.

لقد كنت يا على مثل الحقيقة ينـتفع الناس بوجودها ولا يفهمونها، بل كنت أفضل من الحقيـقة، لأن الحقيقة يخدمها أعـداؤها وأصدقاؤها، أما أنت فكنت تخـدم أصـدقاءك وأعـداءك، أمـا الأولون فلأنك كنت تحـسن إليـهم بجـاهك أو بمالك أو برأيك، وأمـا الآخرون فـقـد كانوا يقـتـاتون من تلك القطرات من الدمـاء التى كـانوا يسـتـقطرونهـا من عـرضك وشرفك، فـويل للفريقين معًا من بعدك، وكنت القطب الذى تدور حوله رحى الأقلام فى هذا البلد، فـقد كانت وظيـفة الكتـاب أن يشرحـوا آراءك أو يفسروا كـلماتك أو يكتنهوا مقاصدك أو يوافقوك أو يخالفوك أو يمدحوك أو يذموك، فإن كتبوا فى شأن من الشـؤون غير هذا فـتروا واستـبردوا، فواضيـعة الأقلام ومـا أضيق مذاهـب الكتاب بعـد رحيلك، وكنت العـصمـة التى تعتـصم بها الأمـة فى

مواقف بؤسها وشقائها، ومواطن خطوبها وكروبها، وما أحسب إلا أن الدهر مدخر لها من ذلك فى مستقبل أيامها أكثر مما ادخر لها فى ماضيها، فما أكثر شقاءها وبلاءها بعد اليوم.

أيها الراحل الكريم: لقد كنت أرجو أن أجد بين جنبى بقية من الصبر أغالب بها هذا الحزن الذى أعالجه فيك حتى يبلى على مدى الأيام كما يبلى الكفن لولا قدر أبعدنى عن موطنك فى آخر أيام حياتك فحرمنى جلسة أجلسها بجانب سريرك أسمع فيها آخر كلمة من كلماتك، وأرى آخر نظرة من نظراتك، وحال بينى وبين خطوة أخطوها تحت نعشك أجزيك فيها ببعض ما خطوت لى فى حياتك من الخطوات الواسعات؛ ووقفة أقفها عند قبرك ساعة دفنك أذرف فيها على تربتك أول دمعة يذرفها الباكون عليك، فلئن بكيت موتك يومًا فسأبكى حرمانى وداعك أيامًا طوالاً حتى يجمع الله بينى وبينك.

العظمة

إن رأيت شاعرًا من الشعراء، أو عالمًا من العلماء، أو نبيلاً فى قومه، أو داعيًا فى أمته قد انقسم الناس فى النظر إليه وفى تقدير منزلته انقسامًا عظيمًا وانفرجت مسافة الخلف بينهم فى شأنه، فافتتن بحبه قوم حتى رفعوه إلى رتبة الملك، ودان ببغضه آخرون حتى هبطوا به إلى منزلة الشيطان، فاعلم أنه رجل عظيم.

العظمة أمر وراء العلم والشعر، والإمارة والوزراء والثروة والجاه، فالعلماء والشعراءء والنبلاء كثيرون، والعظماء منهم قليلون، وإنما هى قوة روحية موهوبة غير مكتسبة تملأ نفس صاحبها شعوراً بأنه رجل غريب فى نفسه ومزاج عقله ونزعات أفكاره وأساليب تفكيره غير مطبوع على غرار الرجال، ولا مقدود على مثالهم، ولا داخل فى كلية من كلياتهم العامة، فإذا

نزلت نفسه من نفسه هذه المنزلة أصبح لا ينظر إلى شىء من الأشياء بعين غير عينه، ولا يسمع بأذن غير أذنه، ولا يمشى فى طريق غير الطريق التى مهدها بيده لنفسه ولا يجعل لعقل من العقول مهما عظم شأنه وشأن صاحبه سلطانًا عليه فى رأى أو فكر أو مشايعة لمذهب أو مناصبة لطريقة، بل يرى لشدة ثقته بنفسه وعلمه بضعف ثقة الناس بنفوسهم أن حقًا على الناس جميعًا أن يستقيدوا له، وينزلوا على حكمه ويترسموا مواقع أقدامه فى مذاهبه ومراميه فترى جميع أعماله وآثاره غريبة نادرة بين آثار الناس وأعمالهم تبهر العيون وتدهش الأنظار، وتملأ القلوب هيبة وروعة، فإن كان شاعرًا كان مبتكرًا فى معانيه أو طريقته، أو كاتبًا أخذ على النفوس مشاعرها وأهوائها، أو فقيهًا هدم من المذاهب قديمًا وبنى جديدًا، أو ملكًا شغل من صفحات التاريخ ما لم يشغله ملك سواه، أو وزيرًا ساس أمته بسياسة جديدة لا عهد لهم بمثلها من قبل، أو قائدًا ضرب الضربة البكر التى ترن فى مسمع الجوزاء.

تلك هى العظمة، وهذا هو الرجل، ومن كان هذا شأنه كان فتنة الناس فى خلواتهم ومجتمعاتهم، ومعترك أنظارهم وأفهامهم، ومثار الخلف والشقاق بينهم فى استكناء أمره، وتقدير منزلته فيعجب به الذين فطروا على الإعجاب بكل غريب والافتتان بكل جديد، حتى ينتقل بهم الإعجاب به إلى الافتتان بأقواله وأفعاله وحركاته وسكناته، والإغراق فى حبه، والمشايعة له، والسير بعجبائه وغرائبه فى كل صقع وناد فيقع ذلك من نفوس مناظريه وحاسديه والمتمردين على عبقريته ونبوغه موقعًا غير جميل، فلا يجدون لهم بدًا من مقابلة الإغراق فى حبه بالإغراق فى بغضه، على قاعدة المشادة والمعاندة. وهناك تحتدم المعركة الهائلة بين أنصاره وخصومه، فيهاجمه هؤلاء يحاولون استلاب عظمته منه، ويناضل عنه أولئك يريدون استبقاءها فى يده، وهو واقف بينهم يدير أنظاره فيهم هانئًا مغتبطًا، لا يحزن ولا يبتئس، لأنه يعلم أن جميع هذه الأصوات الصارخة الصاخبة حوله إنما هى أبواق شهرته وعظمته.

لا أريد أن أقول أن الرجل العظيم مصيب فى كل ما يرى وما يفعل،

وما ينتهج لنفسه وللناس من المناهج والخطط، فربما كان من هو أضعف منه قوة، وأخمل ذكرًا، أسدَّ منه رأيًا، وأصدق نظرًا، وإنما أريد أن أقول أن أحدًا من الناس لا يستطيع أن يشغل أقلام الكتاب، وعقول المفكرين وألسنة الناطقين، وقلوب المحبين والمبغضين، إلا الرجل العظيم.

أحب عليًا قوم حتى كفروا بحبه؛ وأبغضه آخرون حتى كفروا ببغضه. وسمى بعض الناس أبا بكر وعمر شيخى المسلمين، وأنكر بعضهم صحبتهما، وإخلاصهما. وعاش محيى الدين بن العربى بين فئة تراه قطب الأولياء، وأخرى تراه شيخ الملحدين. واغتبط فريق من المسلمين بابن رشد فسموه فيلسوف الإسلام، ونقم عليه فريق فملأوا وجهه بصاقًا فى المسجد الجامع. وسمى قوم صاحب كتاب الإحياء حجة الإسلام. ومزق آخرون كتابه ونثروه فى مهاب الرياح، وعاش المعرى بين رضا الراضين عنه ونقمة الناقمين عليه يلثم الأولون مواطئ نعاله. ويسحبه الآخرون على وجهه فى الطرقات العامة. وشرب سقراط كأس السم بين أفواه باسمة شماتة به، وعيون دامعة حزنًا عليه. وجرت الأقلام بمدح المتنبى تارة فإذا هو سيد الشعراء، وبذمه أخرى فإذا هو أكبر المتكلفين، ورفع قوم شكسبير إلى مرتبة الكمال الإنسانى فقالوا نابغة الدهر، وهبط به آخرون إلى أدنى منازل الخسة والدناءة فقالوا المتنحل الكذاب. وافتتن المفتتنون بنابليون الأول فعلوا به إلى رتبة الأنبياء، وتنكر له خصومه وأعداؤه فسلكوه فى سلك الحمقى والممرورين، وذاق كل من لوثر وكالفين وغليلو وفولتير ونيتشه وتولستوى كأسى الحب والبغض فى حياته وبعد مماته إلى القطرة الأخيرة منهما، وما انقسم الناس فى هذا البلد فى هذا العصر فى شأن رجل من الرجال انقسامهم فى شأن جمال الدين ومحمد عبده وسعد زغلول ومصطفى كامل وعلى يوسف وقاسم أمين.

وما كان واحد من هؤلاء فى المنزلة التى يرفعه إليها المغرقون فى حبه، أو ينزل به إليها الغالون فى بغضه، ولكنهم كانوا قومًا عظماء فانقسم الناس فى شأنهم، وذهبوا فى أمرهم هذه المذاهب البعيدة المترامية، ولا ينقسم الناس هذا الانقسام العظيم، إلا فى شأن الرجل العظيم.

ليس معنى الوجود فى الحياة أن يتخذ المرء لنفسه فيها نفقًا يتصل أوله بباب مهده وآخرهم بباب لحده ثم ينزلق فيه انزلاقًا من حيث لا تراه عين ولا تسمع دبيبه أذن حتى يبلغ نهايته كما تفعل الهوام والحشرات والزاحفات على بطونها من بنات الأرض، وإنما الوجود قرع الأسماع، واجتذاب الأنظار، وتحريك أوتار القلوب، واستثارة الألسنة الصامتة، وتحريك الأقلام الراقدة، وتأريث نار الحب فى نفوس الأخيار، وجمرة البغض فى قلوب الأشرار، فعظماء الرجال أطول الناس أعمارًا وإن قصرت حياتهم، وأعظمهم حظًا فى الوجود وإن قلت على ظهر الأرض أيامهم.

العظمة كالحقيقة يخدمها أعداؤها وأصدقاؤها، ويحمل أحجار هيكلها على رؤوسهم هادموها وبناتها، فحيث ترى سواد الأعداء فهناك سواد الأصدقاء، وحيث ترى الفريقين مجتمعين فى صعيد واحد، فاعلم أن العظمة ماثلة على عرشها العظيم فوق أعناقهم جميعًا.

العظمة قصر مشيد مرفوع على ساريتين منحوتتين من حب الناس وبغضائهم فلا يزال ذلك القصر ثابتًا فى مكانه لا يتزعزع ولا يتحلحل ما بقيتا فى مكانهما، فإذا سقطت إحداهما عجزت الأخرى عن الاستقلال به فسقطت بجانب أختها فسقط هو بسقوطهما.

لا يعجبنك أن يتفق الناس جميعًا على حبك لأنهم لا يتفقون إلا على حب الرجل الضعيف المهين الذى يتجرد لهم من نفسه وعقله ورأيه ومشاعره، ثم يقعى على ذنبه تحت أقدامهم إقعاء الكلب الذليل، يضربونه فيصطبر لهم، ويعبثون به فيبصبص بذنبه طلبًا لرضاهم، ويهتفون به فيقترب، ويزجرونه فيزدجر.

ولا يعجبك أن يتفقوا على بغضك، لأنهم لا يتفقون إلا على بغض الخبثاء الأشرار الذين لا يحبون أحدًا من الناس فلا يحبهم من الناس أحد.

وليعجبك أن يختلفوا فى شأنك، وينقسموا فى أمرك، ويذهبوا فى النظر إليك وتقدير منزلتك كل مذهب، فتلك آية العظمة، وذلك شأن الرجل العظيم.

كن القائد الذى تعترك الجيوش حوله من بين ذائد عنه وعاد عليه، ولا تكن الجندى الذى يسفك دمه ليسقى به دوحة العظمة التى ينعم فى ظلالها القائد العظيم.

كن الناطق الذى تحمل الريح صوته إلى مشارق الأرض ومغاربها، ولا تكن الريح التى تختلف إلى آذان الناس بأصوات الناطقين من حيث لا يأبهون لها، ولا يعرفون لها يدها.

كن النبتة النضرة التى تعتلج ذرات الأرض فى سبيل نضرتها ونمائها، ولا تكن الذرة التى تطؤها الأقدام وتدوسها الحوافر والأخفاف.

كن زعيم الناس إن استطعت، فإن عجزت فكن زعيم نفسك، ولا تطلب العظمة من طريق التشيع للعظماء، والتلصق بهم، أو مناصبتهم العداء والوقوف فى وجههم، فإن فعلت كنت التابع الذليل وكانوا الزعماء والأعزاء.

الانتقاد

سألنى بعض الأصدقاء عن رأيى فى الانتقاد وشروطه وحدوده؛ وآدابه وواجباته، ورأيى فيه ألا شروط له ولا حدود؛ ولا آداب ولا واجبات، وأن لكل كاتب أو قائل الحق فى انتقاد ما يشاء من الكلام، مصيبًا كان أم مخطئًا محقًا أم مبطلاً، صادقًا أم كاذبًا، مخلصًا أم غير مخلص؛ لأن الانتقاد نوع من أنواع الاستحسان والاستهجان. وهما حالتان طبيعيتان للإنسان لا تفارقانه من صرخة الوضع، إلى أنة النزع، وكل ما هو طبيعى فهو حق لا ريبة فيه ولا مراء فإن أصاب الناقد فى نقده فقد أحسن إلى نفسه وإلى الناس، وإن أخطأ فسيجد من الناس من بدله على موضع الخطأ فيه، ويرشده إلى مكان الصواب منه، فلا يزال يتعثر بين الصواب والخطأ، حتى يستقيم له الصواب كله.

فإن أبينا عليه أن ينتقد إلا إذا كان كفؤًا فى علمه ومخلصًا فى عمله كما

يشترط عليه ذلك أكثر الناس، فقد أبينا عليه أن يخط سطرًا واحدًا فى الانتقاد؛ وقضينا على ذهنه بالجمود والموت، لأننا لا نعرف لهاتين الصفتين حدودًا معينة واضحة، فكل منتقد يزعمها لنفسه، وكل منتقد عليه يجرد منتقده منهما، ومتى سمح الدهر لعامل من العاملين بالإخلاص الكامل فى عمله، فيسمح به لجماعة المنتقدين!

على أن المنتقد الناقم لا تمنعه نقمته من أن يكون مصيبًا فى بعض ما يقول لأنه لم يأخذ على نفسه عهدًا أن يختلق جميع المآخذ التى يأخذها؛ وألا يكتب إلا الباطل والمحال، وإنما هو رجل عياب بالحق وبالباطل، فهو يفتش عن السيئات الموجودة حتى يفرغ منها فيلجأ إلى السيئات المختلقة.

ولقد كتب أول انتقاد فى التاريخ بمداد الضغينة والحقد؛ فقد كانت توجد فى عصور اليونان القديمة طائفة من الشعراء يجوبون البلاد، ويتغنون بالقصائد الحماسية والأناشيد الوطنية فى الأسواق والمجتمعات، وبين أيدى الأمراء والعظماء، فيكرمهم الناس ويجلونهم إجلالاً عظيمًا، ويجزلون لهم العطايا والهبات، فنفس عليهم مكانتهم هذه جماعة من معاصريهم من الذين لا يطوفون طوافهم، ولا يحظون عند الملوك العظماء حظوتهم، فأخذوا يعيبونهم؛ ويكتبون الكتب فى انتقاد حركاتهم وأصواتهم، ومعانى أشعارهم، وأساليبهم، وكان هذا أول عهد العالم بالانتقاد، والفضل فى ذلك للضغينة والحقد، فلرذيلة الحقد الفضل الأول فى وجود الانتقاد وبزوغ شمسه المنيرة.

كذلك لا يمنع الجاهل جهله من أن يكون رأيه فى استحسان الكلام واستهجانه رأيًا صائبًا. لا، بل ربما كان شعوره بحسن الكلام وقبحه -متى رزق حظًا من سلامة الذوق واستقامة الفهم- أصح من رأى الأديب المتكلف الذى يتعمل الانتقاد تعملاً، ويتعمق تعمقًا كثيرًا فى التفتيش عن حسنات الكلام وسيئاته حتى يضل عنهما، ورب ابتسامة أو تقطيبة يمران بوجه السامع العامى عفوًا أنفع للأديب حين يراهما، وأعون له على معرفة مكان الحسنة والسيئة من كلامه؛ من مجلد ضخم يكتبه عالم متضلع بالأدب واللغة فى نقد شعره أو نثره.

وإذا كان من الواجب على كل شاعر أو كاتب أن ينظم أو يكتب للأمة جميعها، أو خاصتها أو عامتها، فلم لا يكون من حق كل فرد من أفرادها متعلمًا كان أو جاهلاً، أن يدلى برأيه فى استحسان ما يستحسن من كلامه، واستهجان من يستهجن منه.

وهل رفع العظماء من رجال الأدب إلى مواقف عظمتهم وسجل لهم أسماءهم فى صحائف المجد، إلا منزلتهم التى نزلوها من نفوس السواد الأعظم من الأمة، والمكانة التى نالوها بين عامتها ودهمائها؟

وبعد، فلا يتبرم بالانتقاد ولا يضيق به ذرعًا إلا الغبى الأبله الذى لا يبالى أن يقف الناس على سيئاته فيما بينهم وبين أنفسهم، ويزعجه كل الانزعاج أن يتحدثوا بها فى مجامعهم، ولا فرق بين وقوفهم عليها وحديثهم عنها، أو الجبان المستطار الذى يخاف من الوهم، ويفرق من رؤية الأشباح، ولو رجع إلى أناته ورويته لعلم أن النقد إن كان صوابًا فقد دله على عيوب نفسه فاتقاها، أو خطأ فلا خوف على سمعته ومكانته منه، لأن الناس ليسوا عبيد الناقدين ولا أسراهم، يأمرونهم بالباطل فيذعنون، ويدعونهم إلى المحال فيتبعون، ولئن استطاع أحد أن يخدع أحدًا فى كل شأن من الشؤون فإنه لا يستطيع أن يخدعه فى شعور نفسه بجمال الكلام أو قبحه، ولو أن الأصمعى وأبا عبيدة وأبا زيد والمبرد والجاحظ والقالى وقدامة وابن قتيبة والآمدى وأبا هلال والجرجانى بعثوا فى هذا العصر من مراقدهم وتكلفوا أن يذموا قصيدة يحبها الناس من شعر شوقى مثلاً لما كرهوها، أو يمدحوا مقالة يستثقلها الناس من نثر «فلان» لما أحبوها، فالحقيقة موجودة ثابتة لا سبيل للباطل إليها، فهى تختفى حينًا، أو تتنكر، أو تتراءى فى ثوب غير ثوبها، ولكنها لا تنمحى ولا تزول.

فلتنطلق ألسنة الناقدين بما شاءت، ولتتسع لها صدور المنتقدين ما استطاعت فلقد حرمنا الحرية فى كل شأن من شؤون حياتنا، فلا أقل من أن نتمتع بحرية النظر والتفكير.

يـوم العيـد

أفضل ما سمعت فى باب المروءة والإحسان أن امرأة بائسة وقفت ليلة عيد من الأعياد بحانوت تماثيل فى باريس يطوقه الناس فى تلك الليلة لابتياع اللعب لأطفالهم الصغار، فوقع نظرها على تمثال صغير من المرمر هو آية الآيات فى حسنه وجماله، فابتهجت بمرآه ابتهاجًا عظيمًا، لا لأنها غريرة بلهاء يستفزها من تلك المناظر الصبيانية ما يستفز الأطفال الصغار، بل لأنها كانت تنظر إليه بعين ولدها الصغير الذى تركته فى منزلها ينتظر عودتها إليه بلعبة العيد، كما وعدته، فأخذت تساوم صاحب الحانوت فيه ساعة والرجل يغالى به مغالاة شديدة حتى علمت أن يدها لا تستطيع الوصول إلى ثمنه، وأنها لا تستطيع العودة بدونه، فساقتها الضرورة التى لا يقدرها إلا من حمل بين جنبيه قلبًا كقلب الأم، وفؤادًا مستطارًا كفؤادها، إلى أن تمد يدها خفية إلى التمثال فتسرقه من حيث تظن أن الرجل لا يراها، ولا يشعر بمكانها، ثم رجعت أدراجها وقلبها يخفق فى آن واحد خفقتين مختلفتين، خفقة الخوف من عاقبة فعلتها، وخفقة السرور بالهدية الجميلة التى ستقدمها بعد لحظات قليلة إلى ولدها.

وكان صاحب الحانوت من اليقظة وحدة النظر بحيث لا تفوته معرفة ما يدور حول حانوته، فما برحت مكانها حتى تبعها يترسم مواقع أقدامها حتى عرف منزلها ثم تركها وشأنها وذهب إلى مخفر الشرطة فجاء منه بجنديين للقبض عليها، وصعدوا جميعًا إلى الغرفة التى تسكنها ففاجأوها وهى جالسة بين يدى ولدها تنظر إلى فرحه وابتهاجه بتمثاله نظرات الغبطة والسرور فهجم الجنديان على الأم فاعتقلاها، وهجم الرجل على الولد فانتزع التمثال من يده، فصرخ الولد صرخة عظمى، لا على التمثال الذى انتزع منه، بل على أمه المرتعدة بين يديه، وكانت كلمة نطق بها وهو جاث بين يدى الرجل: رحماك بأمى يا مولاى، وظل يبكى بكاء شديدًا.

جمد الرجل أمام هذا المنظر المؤثر، وأطرق إطراقًا طويلاً، وإنه لكذلك إذ دقت أجراس الكنائس مؤذنة بإشراق فجر العيد فانتفض انتفاضة شديدة، وصعب عليه أن يترك هذه الأسرة الصغيرة المسكينة حزينة منكوبة فى اليوم الذى يفرح فيه الناس جميعًا، فالتفت إلى الجنديين وقال لهما: أظن أنى أخطأت فى اتهام هذه المرأة، فإنى لا أبيع هذا النوع من التماثيل، فانصرفا لشأنهما. والتفت هو إلى الولد فاستغفره ذنبه إليه وإلى أمه، ثم مشى إلى الأم فاعتذر إليها عن خشونته وشدته، فشكرت له فضله ومروءته، وجبينها يرفض عرقًا حياء من فعلتها، ولم يفارقهما حتى أسدى إليهما من النعم ما جعل عيدهما أسعد وأهنأ مما كان يظنان.

★

لا تأتى ليلة العيد حتى يطلع فى سمائها نجمان مختلفان، نجم سعود ونجم نحوس أما الأول فللسعداء الذين أعدوا لأنفسهم صنوف الأردية والحلل، ولأولادهم اللعب والتماثيل، ولأضيافهم ألوان المطاعم والمشارب، ثم ناموا ليلتهم نومًا هادئًا مطمئنًا تتطاير فيه الأحلام الجميلة حول أسرتهم تطاير الحمائم البيضاء حول المروج الخضراء، وأما الثانى فللأشقياء الذين يبيتون ليلتهم على مثل جمر الغضا يئنون فى فراشهم أنينًا يتصدع له القلب، ويذوب له الصخر، حزنًا على أولادهم الواقفين بين أيديهم يسألونهم بألسنتهم وبأعينهم: ماذا أعدوا لهم فى هذا اليوم من ثياب يفاخرون بها أندادهم، ولعب جميلة يزينون بها مناضدهم؟ فيعللونهم بوعود يعلمون أنهم لا يستطيعون الوفاء بها.

فهل لأولئك السعداء أن يمدوا إلى هؤلاء الأشقياء يد البر والمعروف، ويفيضوا عليهم فى ذلك اليوم النزر القليل مما أعطاهم الله ليسجلوا لأنفسهم فى باب المروءة والإحسان ما سجل لصاحب حانوت التماثيل.

إن رجلاً لا يؤمن بالله ورسله، وآياته وكتبه، ويحمل بين جنبيه قلبًا يخفق بالرحمة والحنان، لا يستطيع أن يملك عينه من البكاء، ولا قلبه من الخفقان عندما يرى فى العيد، فى طريقه إلى معبده، أو منصرفه من زياراته،

طفلة مسكينة بالية الثوب كاسفة الباب دامعة العين تحاول أن تتوارى وراء الأسوار والجدران خجلاً من أثوابها وصواحبها أن تقع أنظارهن على بؤسها وفقرها، ورثاثة ثوبها، وفراغ يدها من مثل ما تمتلئ به أيديهن، فلا يجد بداً من أن يدفع عن نفسه ذلك الألم بالحنو عليها، وعلى بؤسها ومتربتها، لأنه يعلم أن جميع ما اجتمع له من صنوف السعادة وألوانها لا يوازى ذرة واحدة من السعادة التى يشعر بها فى أعماق قلبه عندما يمسح بيده تلك الدمعة المترقرقة فى عينيها.

حسب البؤساء من محن الدهر وأرزائه أنهم يقضون جميع أيام حياتهم فى سجن مظلم من بؤسهم وشقائهم، فلا أقل من أن يتمتعوا برؤية أشعة السعادة فى كل عام مرة أو مرتين.

من الشيوخ إلى الشبان

لا نستطيع أن ننكر عليكم معشر الأبناء أن شبابكم أعظم قوة ونشاطًا، وأبعد همة، وأقوى عزيمة، من شيخوختنا، وأن أيدينا الشاحبة المعروفة لا تستطيع أن تصل إلى ما تصل إليه أيديكم الفتية المقتدرة، وأن آراءكم وأفكاركم وجميع تصوراتكم وآمالكم التى تتلون بها شبوبيتكم أكثر حدة وحرارة، وأبعد غورًا وعمقًا، من آرائنا وتصوراتنا، ولكن الذى ننكره عليكم ونعتب عليكم فيه أشد العتب هو زرايتكم علينا، واحتقاركم لنا، ورميكم إيانا بالجمود مرة، والخرف أخرى، كلما اختلفنا معكم فى شأن من الشؤون، كما أننا ننعى عليكم كبرياءكم وخيلاءكم واعتدادكم بأنفسكم هذا الاعتداد العظيم الذى يخيل إليكم معه أن هذه الألوان الجميلة التى تتلون بها حياتكم الحاضرة إنما هى خاصة بكم، ووقف عليكم، لم تمر بعصر غير عصركم، ولم يزه بها شباب غير شبابكم، وأنكم أنتم أصحاب الفضل الأول فى ابتكارها وافتراع عذرتها، ولو أنكم استطعتم أن تحملوا أنفسكم على الروية

والأناة، وأن تنتقلوا بأنظاركم من الحاضر إلى الماضى -وإن لم يكن ذلك من طبيعة الشباب ولا من خصائصه- لعلمتم أن هذا العهد الذى يمر بكم اليوم، والذى تفاخروننا به وتدلون علينا بأحلامه وأمانيه؛ وتصوراته وخيالاته مر بنا مثله فى زماننا، فقد كان لنا شباب مثل شبابكم نتصور فيه كما تتصورون ونفكر كما تفكرون، ونردد فى أنفسنا وأحاديثنا وعلى أسلات أقلامنا جميع هذه الآراء والأفكار التى ترددونها اليوم، حتى انطوى ذلك العهد، وزالت معالمه، وهدأت على أثره تلك الثورة النفسية الهادئة التى كانت تعترك بين جوانحنا ودخلنا غمار الحياة الحقيقية حياة الجد والعمل والنظر والتأمل، والخبرة والتجربة فاستطعنا أن نرجع إلى نفوسنا، ونثوب إلى رشدنا، وأن نهبط بهدوء وسكون إلى أعماق قلوبنا ونستعرض تلك الآراء والأفكار، والأحلام والآمال، بإمعان وتدقيق، فاستطعنا أن نميز صالحها من فاسدها، وصادقها من كاذبها ومعقولها من موهومها، وأن نقلب الأشياء على جميع وجوهها ونرى وجوه الحسن فيها ووجوه القبح، ونوازن بين هذه وتلك، فأخذنا بما أربت حسناته على سيئاته، وأطرحنا ما زادت سيئاته على حسناته فلا فضل لكم فى الحقيقة فى هذا الذى تزعمون أن لكم الفضل فيه وحدكم من دون الناس جميعًا، وإنما الفضل للشباب ومزاجه وطبيعته وحدته ولا علاقة للعلم والجهل والذكاء والغباوة والتقدم والتأخر بشىء من ذلك، وللشباب خصائص كثيرة وصفات متعددة، وأخص صفاته قصر النظر، وسرعة الحكم، والعجز عن إحكام الصلة بين أدوار الزمان الثلاثة ماضيه وحاضره ومستقبله، فهو لا يستطيع أن يتصور تصوراً ثابتًا متينًا أن الماضى أساس الحاضر ومنبع وجوده، لا يشرق إلا من مطلعه، ولا ينبت إلا فى تربته، وأن المستقبل بيد الطبيعة القاسية وقوانينها الصارمة، وليس أقرب إليه من أن يتصور أن فى استطاعته أن يمحو بيده فى لحظة واحدة وجه الكون بأرضه وسمائه، ثم يخلقه خلقًا جديدًا على الصورة التى يريدها ويتصورها، وأن فى إمكانه أن يحيل الترب أمواها، والأمواه تربًا، وأن يحجب بيده وجه الشمس فلا ينبعث لها شعاع إلا بإرادته، وأن يرغمها متى أراد أن تمزق

حجاب الليل وتبرز فى سمائه، ولا يزال يتخبط فى أمثال هذه التصورات والأحلام التى لا فائدة فيها ولا نتيجة لها حتى تطلع فى رأسه أول طليعة من طلائع الشيخوخة فتهدأ ثورته، وتفتر حدته، ثم لا يلبث أن يسقط جاثيًا بين يدى القوة الإلهية والقوى الطبيعية معترفًا بعجزه وقصوره وفراغ يده من كل حول وقوة هاتفًا: أن للكون إلهًا لا أستطيع محادته، وللطبيعة سنة لا أستطيع تبديلها.

كنا نفكر كثيراً فى شأن المرأة كما تفكرون اليوم، ولا نجد حديثًا ألذ ولا أطرب من الحديث عنها، وكنا لشدة إعجابنا بها، واهتمامنا العظيم بترفيهها وتدليلها، والوقوع من نفسها موقعًا جميلاً ندافع عنها ضد أنفسنا، ونطلب لها من النفوذ والسيطرة علينا أكثر مما تطلبه لنفسها، ونتمنى بجدع الأنف لو أننا رأيناها متمتعة بالحرية إلى أقصى حدودها، فتتبرج كما تشاء وتسفر كما تريد وتجلس إلى الرجل جنبًا لجنب فى المجتمعات العامة والخاصة، دون أن يعارضها معارض، أو يكدر عليها صفوها مكدر، بل كنا نذهب فى مجاملتها ومحاسنتها إلى أكثر من ذلك فكنا نغتفر لها سيئاتها الأدبية، ونسميها سقطات، أى هفوات فردية لا أهمية لها، ونغريها بمحاسبة زوجها حسابًا شديدًا على خيانته لها ومقابلة فعلاته بمثلها لأننا كنا نقرر لها مبدأ المساواة بينها وبينه، ونقول لها: ليس من العدل أن يغضب الزوج من خيانة زوجته إذا كان هو يخونها، وكنا نظن أن هذه الآراء آراء حقيقية راسخة فى نفوسنا، صادرة من أعماق قلوبنا، ثم علمنا بعد ذلك أننا كنا مخدوعين فيها، وأنها آراء الشباب وخواطره وأحلامه وتصوراته، ولا يثقل على الشباب فى ريعانه شىء مثل ذلك الحجاب المسبل على وجه المرأة، وذلك الجدار القائم بينها وبينه.

وكنا نبتهج بكل جديد كما تبتهجون، وننفر من كل قديم كما تنفرون ونعد الأول آية الآيات مهما سخف واستبرد، والثانى نكبة النكبات مهما غلت قيمته ونفس قدره، لا لأننا وازنا بينهما، وفاضلنا بين مزاياهما فحكمنا عليهما، بل لأننا كنا قريبى عهد بزمن الطفولة، والطفل سريع الملل كثير السآمة، لا يصبر على لعبته أكثر من يوم ثم يملها فيكسرها ويستبدل منها.

وكنا مولعين بالتقليد ولعكم به، لا نكاد نعرف لأنفسنا صورة خاصة ترتكز عليها أعمالنا فى الحياة، بل كانت تمر بنا جميع الصور على اختلاف أنواعها وألوانها فنلتقطها بأسرع مما يلتقط «الفلم» صوره، كأن فضاء حياتنا معمل لتجارب الحياة واختباراتها.

وكان العارف منا بلغة أجنبية لا يلبث أن يفتتن بها وبأصحابها افتتانًا شديدًا ربما حمله على احتقار لغته وتاريخها، فيترفع عن ذكر رجالها وعظمائها فى أحاديثه واستشهاداته، ويسخر منهم كلما جرى ذكرهم على لسان أحد غيره لا لأنه يفهمهم أو يفهم غيرهم، بل لأنه كان بسيطًا غريرًا يحتقر كل ما فى يده، ويستعظم كل ما فى يد غيره.

ولم نعرف إلا بعد زوال ذلك العهد أننا كنا مخطئين فى جميع هذه التصورات والأفكار، وأنها لم تكن عقائد راسخة فى نفوسنا بل أشباحًا وصورًا تتراءى فى حياتنا، فنعجب بها، ونستطير فرحًا وسرورًا بجمال منظرها وبهجة ألوانها فأصبحنا معتدلين فى آرائنا متئدين فى أحكامنا، نحب حرية المرأة ولكنا نكره فسقها وفجورها، ونأخذ مواد المدنية والحضارة من الأمم المتمدينة ولكنا لا نقلدها، ونحن نحب أدب الغربيين ونعجب بأدبائهم وعلمائهم، ولكنا لا نحتقر من أجل ذلك رجالنا وتاريخنا.

نحن لا نطلب منكم معشر الأبناء وأنتم فى ثورة الشباب ونشوته أن تكونوا معتدلين متئدين فى أحكامكم وتصوراتكم، أو هادئين فى مطامعكم وآمالكم، فليس من الرأى أن نطلب عندكم ما لم نكن نطلبه عن أنفسنا، ولكن أمرًا واحدًا كنا نحرص عليه فى عهدنا أشد الحرص هو الذى إليكم أن تحرصوا عليه مثلنا، وتضنوا به ضننا.

كنا نعتقد مثلكم أننا خير من آبائنا وأجدادنا، وأوسع منهم علمًا وأقوى إدراكًا، وربما اعتقدنا فى الكثير منهم كما تعتقدون فينا اليوم أنهم جاهلون أو مخرفون، أو متأخرون أو جامدون، إلا أن ذلك لم يكن يمنعنا من أن نحفظ لهم منزلة الأبوة وكرامتها فلا نلقبهم بلقب من هذه الألقاب التى تلقبوننا بها؛ ولا نذكرهم فى حضورهم أو غيبتهم بكلمة سوء تنغص عليهم ما قدر لهم أن

يقضوه بيننا من أيام حياتهم، وكان شأننا معهم فى برهم وإكرامهم واحترام عقائدهم ومذاهبهم مع اتساع مسافة الخلف بيننا وبينهم شأن خالد بن عبد الله القسرى أمير العراق إذ كان مسيحيًا فأسلم وحسن إسلامه، وكان أبوه لا يزال على دينه فطلب إليه أن يبنى له بيعة فى قصره يقوم فيها بأداء واجباته الدينية فبناها له كما أراد ولم ينع عليه شأنًا من شؤونه طول أيام حياته حتى ذهب إلى ربه.

ذلك ما نضرع إليكم فيه أن تحفظوه لنا كما حفظناه من قبلكم لآبائنا وأجدادنا واذكروا أن سيأتى عليكم ذلك اليوم الذى أتى علينا، وأنكم ستكرهون فيه أن يعاملكم أبناؤكم وأحفادكم بمثل ما تعاملوننا به اليوم، فاتقوا الله فينا وفى شيخوختنا فنحن آباؤكم الذين ولدناكم -وأساتذتكم آباؤكم- أن ترموهم فى وجوههم بالجهل والجمود، وما هم بجاهلين ولا جامدين ولكنهم شيوخ عاجزون.

الموتى

«مترجمة»

دقت أجراس المساء تنعى اليوم الراحل وتندب جماله الزائل وأخذت قطعان الماشية تعود من مراعيها إلى حظائرها، ومشى وراءها رعاتها يهشون عليها بعصيهم، لا يريدون بها شرًا ولا أذى لأنهم يحبونها ويرحمونها، بل يخافون عليها الضلال، فهم يهدونها الطريق؛ ومد الظلام رواقه الأسود على جسم الطبيعة المنبسطة كأنما ظن أنها تنام كما ينام البشر، فهو يقيها برد الليل وغائلته، وساد سكون رهيب فى تلك الأنحاء، فلا يسمع إلا صوت البلبل يشكر للقمر ما أهدى إلى جناحيه من أشعة متلألئة؛ ونعيب البوم يمد صوته بالشكوى إلى الله تعالى فى سمائه، وما شكاته إلا أن بنى آدم يطأون أرضه، وينتهكون حرمة خرباته المقدسة، وهنالك تحت ظلال الأشجار الضخمة

اليابسة رقـد أسلاف سكان تلك المزرعة تحت أعمـاق الأرض رقدة طويلة بل أكثـر من طويلة، لأنها لا نهاية لهـا فلا نسمـات الصباح البـاردة، ولا تغريد الطيور الصـادحة ولا صيـاح الديكة، ولا رنين الأجراس ولا هتـاف الرعاة، يوقظهم من رقدتهم هذه.

أسفى عليـهم لقد أمـسوا ولا نيران توقـد فى أكواخـهم، ولا زوجات صالحات يذهبن ويجئن فى تهيئة طعام عشائهم، ولا صبية صغاراً يستقبلونهم عند عودتهـم ليقبلوهم ويسـتقبـلوا قبلاتهم. أولئك الرقـود الهامـدون كانوا بالأمس أشداء أقوياء تمد السنابل أعناقها خاضعة لمناجلهم. ويئن ظهر الأرض وبطنها تحت وطأة محاريثهم وترعد جذوع الأشجار الضخمة فرقًا من ضربات فئوسهم.

أولئك الوجوم الصـامتـون كانوا بالأمس فرحين مـستبـشرين يرقـصون ويغنون ويجدون السعادة والبهجـة فى كل ما يحيط بهم فيطربون لوقع حوافر ماشيتهم على الحـصباء، كأنما يسمعون قيثارة مطربة، ويجـدون فى ضجعتهم فوق الأعـشاب اليابـسة الراحة التى يجـدها أصحـاب الأسرة فوق مـهادهم الوثير، ويشعـرون فى تناولهم ألوان الطعام الشهى على موائدهم، ويغـترفون بأكفـهم المياه من الأنهـر والخلجان فليـتذون بارتشـافه كـأنما يتناولون صافـية الصهباء فى كؤوس البلور والذهب.

أولئك الخـاملون المغمـورون الذين لم تنصب لهم التمـاثيل، ولم ترفع فوق قبورهم القـباب. كانوا فى حياتهم شرفاء عظماء، لأنهم كـانوا متحابين متـآخين، لا يحسـد فقيـرهم غنيهم، ولا يبـغى قويهم على ضـعيـفهم ولا يحقـدون ولا يغـدرون ولا يخافون شيـئًـا حتى الـموت ولا يعبـدون إلهًا إلا الله.

كذلك كـانوا بالأمس، واليوم طواهم الرمس، فـرحمة الله عـليهم يوم كانوا على ظهر الأرض، وبعد ما أصبحوا فى بطنها.

فليـجث فوق رمـال هذه القـبور المبـعثـرة، وبين أحـجارها المتـهدمـة المتـسـاقطة، أرباب المطـامع فى الحـيـاة وطلاب المجـد والعظمـة خـاشـعين

مستكينين، خافضى رؤوسهم إجلالاً وإعظامًا، وليمسكوا قليلاً الإدلال بعزهم وجاههم، والمكاثرة بفضتهم وذهبهم وليخفوا فى أعماق نفوسهم ابتسامات الهزء والسخرية المترقرقة عن شفاههم، وليعلموا أن طريق المجد والعظمة التى يسيرون فيها، وإن كانت مخضرة جميلة، مفروشة بالأعشاب محفوفة بالأزهار، فإنها تؤدى فى نهايتها إلى هذا المصير الذى صار إليه هؤلاء المقبورون.

أيها الناعمون فى عيشهم، المدلون بعزهم وجاههم، المفتخرون بقوتهم وجمالهم لا تحتقروا هؤلاء المقبورين المساكين إن رأيتم أجداثهم مشعثة بالية، وقبابهم متهدمة خاوية ولم تروا أسمائهم منقوشة بأجمل الألوان وأزهارها على صفائح قبورهم، واصغوا قليلاً تسمعوا آيات مدحهم والثناء عليهم ترددها الجداول والغدران، والحقول والمروج، والطيور المغردة فوق أعالى الأشجار والسوائم الحائمة على ضفاف الأنهار، فهم أصحاب اليد التى رصعت التاج للملك وصنعت السيف للقائد ونسجت المسوح للراهب، وبنت القصور للأمراء، وصاغت الحلى للأميرات، وغرست العشب للسائمة، ووضعت الحب للطائر، وهيأت للأحياء جميعهم -ناطقهم وصامتهم- طعامهم وشرابهم، ودثارهم ومهادهم.

أيها العظماء: لا تخلد التماثيل المنصوبة غير ذكرى ناحتيها، ولا تطمس السطور الذهبية المنقوشة فوق صفائح القبور سطور السيئات التى يخطها التاريخ فى صفحاته، ولا تسمع آذان الموت الصماء نغمات الملق المترددة فى أناشيد الرثاء.

رب يد تحت هذه الأرض لو أتيح لها الحظ فى حياتها لكانت يد العازف الذى يشنف الآذان، أو يد البطل الذى يهز العروش ويزعزع التيجان أو يد الشاعر الذى يثير الأشجان ويبعث إلى القلوب السرور أو الأحزان، ورب قلب فى هذه الحفائر المظلمة لو عاش فى جو غير هذا الجو، وعالم غير هذا العالم، لكان قلب ملك عظيم مملوء بالآمال العظام، والأمانى الجسام أو قلب زعيم جرىء يحاسب الظالمين على ظلمهم، ويذود النوم عن أجفانهم، أو

قلب نائب كبير يستهوى ببلاغته القلوب، ويسترعى الأسماع فتدوى له بالتصفيق قاعة مجلس النواب.

كم من لؤلؤة لم تعثر يد الغواص بها فظلت دفينة بين صدفتيها! وكم من زهرة أريجة لم تكد تتفتح حتى هبت عليها رياح الصحراء المحرقة فأذبلتها! وكم من ماسة وضاءة عجز المعدنون عن استخراجها من معدنها فانطفأ نورها فى منجم الفحم المظلم! وكم من قريحة وقادة لم تصقلها العلوم والتجاريب فعاشت مغفلة مهملة حتى انطفأت شعلتها ولو أنها صقلتها لغيرت وجه الكون، وبدلت الأرض غير الأرض! نعم كان بين هؤلاء القرويين المقبورين من كان له قلب كقلب (همبدن) إلا أن التاريخ لا يعرفه، ومن كان له لسان كلسان (ملتن) إلا أنه لم ينصب له تمثال، ومن كانت له همة كهمة (كرومويل) إلا أنه لم يقد الجيوش، ولكنهم عاشوا فى هذه الفلوات المنقطعة عن العلم والحضارة فدفن الجهل مواهبهم وأخمد الفقر نار ذكائهم وفهمهم فمروا بهذه الدنيا ولم يشعر بهم أحد، ثم ماتوا ولم يذكرهم أحدهم.

هنيئًا لهم جهلهم وخمولهم، فلو أنهم كانوا عظماء لقضوا أيام حياتهم يسفكون الدماء، ويمزقون الأشلاء، ويغتالون حقوق الضعفاء سعيًا وراء أغراضهم ومطامعهم، لا بل إنهم كانوا عظماء ولكنهم بريئون من آثار العظمة وجرائمها.

رحمة الله عليهم، لقد ذهبوا ولم يبق لهم من بعدهم مما يدل عليهم سوى حجر قديم ملقى فى طريق مقبرتهم قد كتب عليه بخط سقيم هذا البيت البسيط من الشعر:

«أيها المار فى هذا المكان احترم تربته، ولا تطأ بقدميك رفات الموتى».

هذا كل ما طمعوا فيه من شؤون الحياة بعد موتهم. لم يطلبوا تمثالاً يقام لهم، ولا قبة ترفع فوق أضرحتهم ولا صفحة خاصة من صفحات التاريخ تخلد فيها أعمالهم، بل لم يطلبوا طاقة زهر تؤنس مضجعهم، ولا قطرة غيث تبل ثراهم فما كان أقنعهم وأزهدهم!

الزهـرة الذابلـة

ورد إلى من صاحب التوقيع الكتاب الآتى:

أنا تلميـذ فى السابعة عـشرة من عمـرى حصلت على شهـادة الدراسة الابتدائية ثم تقـدمت لامتحان الكفاءة فلم أفلح، غـير أنى عزمت على الكد للعام المقبل وما دريت ما يخفى الغـيب فى سره حتى فوجئت بمرض «الحمى» العضال الذى ضعضعنى وما كـدت أشفى منه بعد مدة حتى أصابنى «الصمم» الكامل فضاعت بذلك آمالى وأظلمت الأرض فى وجـهى فرأيت أن أستغيث بك لعلك تسدى إلى جـميلاً بكلمة تعـزية من عندك وأنا أحق الناس بالعزاء والسلام.

٦ يناير سنة ١٩١٤.

لا أسـتطيع أن أعزيـك عن مصـابك يا بنى، فـهو فـوق مـا يحتـمل المتحـمل، ويطيق الجلد الصبور ولو حـاولت ذلك منك لكذبتك وغشـتتك، ولكان شـأنى معك شـأن أولئك الخادعين من المعـزين الذين يتخلفـون ليلهم ونهارهم إلى منازل المنكوبين والمرزوئين ليقـولوا للثاكل «لقد قدمت بين يديك شفيعًا يشفع لك يوم حسابك بين يدى ربك» وللباكى أباه «ما مات من خلف مثلك» وللباكى أخاه «إن فى الباقى عزاء عن الماضى» وللباكية زوجها «الشباب غض والرجال كثير» وللفاقد بصـره «حسبك مما فقدت من نور بصرك ما أبقى الله لك من نور بصيـرتك» وللمحتـضر المشرف «إن فى لقاء ربك عـوضًا من لقاء الدنيـا» ولمن حلت به نكبة مثل نكبتك «لـقد كفاك الله بما ابتـلاك سماع أقوال الكذب وكلمات السوء» وكأنما هم يحسبون أن الفواجع والرزايا صفقات تجارية إذا قاس فـيها المرء ربحه بخسرانه ووازن بين دخله وخـرجه، هان عليه هذا لذاك واغـتفـر ما فـات لما هو آت، ولا يعلمون أن الحـزن على الذاهب المفـقود إنما هو زفـرة من زفرات الحب أو نـفثـة من نفثـات الود، ولا دخل

للحساب والمعارضة فى شىء من ذلك، وأن أقسى الآباء قلبًا، وأصلبهم فؤادًا، لو ساومه مساوم فى فلذة كبده ووضع تحت قدميه خزائن الأرض والسماء لكان رأيه فى ذلك رأى ابن الرومى فى قوله:

وما سرنى أن بعته بثوابه ولو أنه التخليد فى جنة الخلد

وإن الأم تبكى وحيدها كما تبكى عاشر عشرة من أولادها، والصديق يبكى فراق صديقه وإن كثر أصدقاؤه فى كل محلة يحل بها، والزوجة تبكى زوجها وإن كانت تحت كل نافذة من نوافذ منزلها خطيب يترقبها، وإن البائس المسكين الذى يعيش من دنياه فى مثل جحر الضب ضنكًا وبؤسًا يضن بحياته الضن كله إذا أحس بوشك فراقها وإن علم أنه سينتقل منها إلى جنة عرضها السماوات والأرض، فهم فى الحقيقة يسخرون من مصائب الناس وأرزائهم، ويؤلمون نفوسهم فوق ألمها باحتقار أحزانهم وازدرائهم، وتصغير شأنها فى أعينهم، ويلقون فى نفوسهم اليأس من أن يجدوا بجانب قلوبهم قلوبًا تحس بإحساسها وتشعر بشعورها، من حيث يظنون أنهم يخففون عنهم آلامهم ويأخذونهم بنسيانها.

وأعوذ بالله أن أكون يا بنى من الكاذبين فى تعزيتك، أو الغاشين لك فيها، ولو أردت نفسى على ذلك لما استطعت، وكيف يستطيع أن يعزيك عن مصابك من لا يستطيع أن يعزى نفسه عن مصابه فيك، فقد ترك كتابك هذا بين جنبى لوعة من الحزن لا أحسب أنها دون لوعتك التى تعتلج بين جنبيك من الحزن على نفسك، حتى صرت كأنى أنا الذى ابتليت بما ابتليت به وكأن الذى أصابك من البلاء قد أصابنى من دونك، فلقد انقطع عنك بفقدك سمعك أيها البائس المسكين كل ما كان بينك وبين الناس جميعًا من سبب وصلة، فأصبحت وأنت فى دار الأنس والاجتماع، وبين ضوضاء الحياة وضجيجها، كأنك تعيش من وحشتك وكآبتك مدينة متحجرة من مدن التاريخ القديم، لا تأنس فيها بأحد ولا يأنس بك فيها أحد، ولا ترى بين يديك إلا نصبًا مائلة، وتماثيل جامدة.

تحسب العين أنهم جدًا أحياء لهم بينهم إشارة خرس

ولا يرفه عن نفسك فى ساعة من ساعات ضيقك وضجرك نغمة غناء، ولا رنة حداء، ولا خرير نهر، ولا تغريد طير، ولا حفيف شجر، ولا زفيف ريح، ولا ثغاء شاة، ولا نقيق ضفدع، ولا صرير جندب، سواء لديك ليلك ونهارك: وصبحك ومساؤك، ويقظتك ومنامك، فإن فررت من وحشتك هذه إلى مجتمع من المجتمعات العامة فجلست إلى الناس ساعة تتفرج[1] فيها مما بك، لا تسمع شيئًا مما يقولون، ولا يعنيهم أن يسمعوا شيئًا مما تقول، فإن قلبت نظرك فى وجوههم لتتسقط حرفًا من حروفهم، أو تتفهم حركة من حركات شفاههم، أو إشارة من إشارات أيديهم، أنكروا عليك نظراتك، وسخروا منك فيما بينهم وبين أنفسهم، لا بل ربما صارحوك بكلمتهم التى يضمرونها فى أنفسهم ورموا بها فى وجهك من حيث لا تعلم، فإن رأوا منك أنك تقتضب الأحاديث اقتضابًا، وتذهب منها فى أودية غير أوديتهم، وإنك تحدثهم فلا تحسن تقدير صوتك على مقياس أسماعهم، فتعلو به عليها، أو تنزل به دونها وأنك تبتسم فى موضع التقطيب. وتقطب فى موضع الابتسام أصبحوا ينظرون إليك بتلك العين التى ينظرون بها إلى الأطفال الصغار والبله الأغرار فإن ألمت بسر نظرتهم هذه إليك ألم بك من الحزن والهم ما لا طاقة لك باحتماله، وأصبحت ترتاب بكل نظرة تتجه إليك، وكل ابتسامة تتراءى لك، واعتادك سوء الظن بكل جالس يجلس إليك من أصدقائك وعشرائك، بل من أبويك وأهليك فلا يكاد يسلم لك صديق، أو يصفو لك حميم.

فإذا فررت من الناس نجاة بنفسك من لؤمهم وقسوتهم فررت إلى خلوة موحشة قاتمة تتراءى لك فيها خيالات الذكرى المؤلمة كلما وازنت بين حاضرك وماضيك، وقارنت بين ما كنت ترجو لنفسك فى أيامك الأولى، وما انتهى إليه أمرك فى أيامك الأخرى فلا تنفعك خلوة ولا يؤنسك اجتماع.

وأخوف ما أخاف عليك إن استمر بك هذا الشأن -ولا أسأل الله لك دوامه- وظللت تنطق ولا تسمع، وتقول ولا تفهم ما يقال أن تصبح فى يوم من أيامك لا سامعًا ولا ناطقًا، فالسماع مادة النطق التى يستمد منها قوته وحياته، ومن لا يسمع لا يحسن النطق، ومن لا ينطق لا يحسن التفكير.

---

(١) طلب الراحة والفرجة.

وكثير عليك يا بنى وأنت زهرة يانعة فى روض الشباب وابتسامة لامعة فى ثغر الآمال. وفجر مشرق فى سماء الحياة أن تصعد على هذه الربوة الزاهرة المخضلة من ربى الحياة، فلا تلبث إلا قليلاً حتى يمر بك فارس الدهر فيختطفك من مكانك ثم لا يعدو بك إلا قليلاً حتى يلقيك على هذه الصخور الصماء.

فوارحمتاه لك يا بنى مما بك اليوم، ومما يستقبلك به الدهر غداً، فأسأل الله تعالى لك أن يرفع عنك محنتك، أو يمنحك عينًا ثرة من الدمع لا ينضب معينها، تسكب منها صباح كل يوم ومساءه سجلاً على فؤادك الملتاع فتبرد غلته، وتفتأ لوعته، فالدموع هى الرحمة العامة التى يلجأ إليها المنكوبون المحزونون يوم لا يجدون لأنفسهم فى مذهب من مذاهب الأرض ولا فى سبيل من سبل السماء ناصراً ولا معينًا، والسلام عليك -من الراثى لك، الباكى عليك- ورحمة الله.

الوجهاء

جرى بينى وبين أحد الوجهاء المصريين الحديث الآتى:

الكاتب: ما هذه الطبقة التى تكسو وجهك فتحجب منه ما يحجب صفحة السماء، من السحب السوداء؟

الوجيه: إن بين جنبى همًّا يعتلج، وكمداً يذهب باللب ويطير بشظايا القلب، وناراً من الحزن متأججة متطربة دخانها هذا الذى تراه.

الكاتب: أحق ما تقول وأنت الرجل السعيد بحظه المغتبط بعيشه، قصر غمدان، وخورنق النعمان، وحور وولدان، وظل ظايل، ونسيم عليل، وخزائن تموج بالذهب، موج التنور باللهب، ذلك إلى ما أسبغ الله عليك من صحة البدن وسلامة الحواس! وأمدك به من الجاه العريض والكلمة النافذة والشفاعة المقبولة، فليت شعرى ما شكاتك بعد ذلك؟

الوجيه: أشكو الفقر الباطن فى الغنى الظاهر، والشقاء المقبل فى السعد المدبر، وإنى لأرى فى السماء غمامة دكناء يوشك أن تنفجر بالصاعقة الكبرى والكارثة العظمى.

الكاتب: ما كنت أحسب أن الشقاء يمر لك ببال بعد ما أعطاك الدهر عهدًا مكتوبًا بتلك الأحرف الذهبية، ألا يسدد سهمه إليك، ولا يدور بدورته عليك.

الوجيه: متى كان للدهر عهد يوثق به أو ذمام يعتمد عليه، فالناس فى يده كالكرة ذات الألوان فى يد الصبى، يديرها فترى الأسود فى مكان الأبيض، والأبيض فى موضع الأسود وكذلك بقية الألوان تعلو أسافلها وتسفل أعاليها، ودورة السعود والنحوس أسرع فى عمر الدهر من لمح الطرف ولفتة الجيد.

الكاتب: هل لك أن تحدثنى من أى منفذ نفذ الدهر إليك وما عهدتك شاربًا ولا عاهرًا، ولا مقامرًا ولا مستهترًا؟ وما للدهر مدخل يتسرب منه إلى خزائن الأغنياء غير هذا المدخل.

الوجيه: أين يذهب بك أيها الصديق، وهل يؤتى الأغنياء فى هذا البلد إلا من طريق المجد الباطل والسمعة الكاذبة؛ وهل يكب العظماء على وجوههم ويلصق بالرغام معاطسهم، إلا الشغف بنظرة الأمير، ولفتة الوزير، وزورة المدير، وأنت تعلم أن رجلاً مثلى لا يمكن أن يكون له مطمع فى المجد الصحيح، فلست بصاحب علم فأفخر به، ولا صاحب قلم فأمت بما يمت به أصحاب الأقلام من خدمة المجتمع الإنسانى وتهذيبه، فلم يبق أمامى غير هذا المجد الكاذب، وهو مجد القربى من الحكام والعمال ولا سبيل إليه إلا ببذل ثمن غال تقصر عنه خزائن قارون وكنوز روكفلر، وقد أنفقت فوق الطاقة ووراء الفاقة، فى بناء الصقور نزلاً للحكام، وغرس البساتين منازه لهم؛ وإعداد الفرش والآنية لمآربهم وولائمهم، فلما نضب معين الذهب، وعيت الأرض أن تثمر فوق ما تثمر لجأت إلى مصرف من المصارف المالية فأثقلنى بالديون، وأرهقنى بالطلب ففزعت منه إلى آخر، ثم إلى آخر فكنت

كناقس الشوكة بالشوكة، أو غاسل الدم بالدم ولو كشف لك من أمرى ما كشف لى منه لعلمت أن جميع ما كنت أملك من أطيان وعقار، ودور وقصور لم يبق لى منه إلا تلك الأرقام السوداء المسطورة فى جرائد الصيارف، وهأنذا اليوم طريد المصارف والغرماء، وغريم القضاءين: قضاء الأرض وقضاء السماء.

ذلك كل ما يستفيد الوجيه من وجاهته قبحها الله وقبح كل ما تأتى به، فلا تحسد الوجيه على مظهره الكاذب، وزخرفة الباطل ولا تنفس عليه بؤسه الكامن، وشقاءه الخفى، فهو أتعس خلق الله، وأكثرهم همًّا وأثقلهم مئونة، وأخسرهم حاضرًا ومستقبلاً، يكون عنده من الضياع أو العمائر جملة لا تثمر له من المال أكثر مما يسع ترفيه نفسه وتربية أولاده وصلة رحمه فيسميه الناس وجيهًا، والوجاهة كلمة صغيرة معناها فى نظر الناس كبير، كأنما هى عندهم من جوامع الكلم، فالوجيه فى اصطلاحهم هو الرجل الذى يمدُّ لكل غريب نزل بلده مائدة، ويسبغ العطاء على كل عابر سبيل مر بحيه، ويشترك فى جميع الجرائد والمجلات وإن كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ويبتاع تذاكر حفلات الجمعيات الخيرية على اختلاف ألوانها وأشكالها وإن كان لا ينتفع بواحدة منها، ويشترك فى جمعية الرفق بالحيوان، وجمعيات الرفق بالإنسان، ويبتاع المؤلفات الحديثة التى يكلفه المدير أو المأمور بابتياعها وإن كانت فى علم الأرتناطيقى أو علم المنطق وكان هو عمدة أو شيخ بلد، ولا تتم شروط الوجاهة عنده فيأخذ منها بالحظ الأوفر إلا إذا بذل للحكومة المعونة الكبرى فى مشاريعها من بناء المستشفيات والمدارس والكتاتيب وأمثال ذلك مما تضربه الحكومة علينا ضرب الجزية على أهل الذمة فى سالف الأزمان، والتى لا فرق بينهما وبين خراج الأطيان وعشور النخيل وعوائد الأملاك.

الكاتب: إنها تبرعات ومبرات لا إجبار فيها ولا إلزام، فالحكومة لا تشهر عليكم سلاحًا، ولا تعد لكم سجنًا، وكل ما فى الأمر أن رجالها يخطبون فيكم ويدعونكم إلى هذه الأعمال الصالحة بالحكمة والموعظة الحسنة.

الوجيه: لا أزال أكرر القول: إن رجال الحكومة يضربون علينا ضرائب

ليست فى شرع ولا قانون، والوجيه فى الحقيقة كالعبد فى اصطلاح علماء التوحيد، مجبور باطنًا مختار ظاهراً، أما الظاهر فهو ما ترونه من إقامة المحافل وخطابة الخطباء والتلطف فى الطلب وشكر المحسن على إحسانه، وأما الباطن فهو أن الوجيه منا -كما علمت- مفلس من جميع أنواع المجد إلا مجد الزلفى عند الحكام والحكام يعرفون ذلك منه فيدخلون عليه من بابه ولا يفتحون له باب القربى منهم إلا على مقدار ما يفتح من أبواب خزائنه لهم، فمنا من يزوره المدير أو المفتش لأنه وهاب الآلاف، أو المأمور لأنه من أصحاب المئات، ومن لا يزوره أحد منهم ولا ينهض له إذا أقبل، ولا يشيعه إذا انصرف لأنه لا يلبى دعوة ولا يحضر مجمعًا، ولا يكتب رقمًا فى قائمة اكتتاب، فلا يلبث أن يسلس قياده، ويصحب عناده، هذا هو الاستبداد الخفى الذى ترغم الحكومة به أنف الوجهاء من غير أن تشهر عليهم سلاحًا، أو تعد لهم سجنًا، ولكنها تبلغ به فى شهر واحد ما كانت تعجز عنه حكومة السجن والكرباج و«الويركور» و«الطانطا» والعوائد الشخصية فى عدة أعوام، ولقد راجعت صحيفة حسابى فى هذا العام -عام الأزمة والجدب- فوجدت أنى دفعت خراج الأطيان مرتين ولا أعلم كم أدفعه فى السنة الآتية:

الكاتب: هب أن الأمر صحيح كما تقول، فالحكومة لا تودع هذا المال خزانتها، ولا تقضى به غرضًا من أغراضها الخاصة وإنما تنفقه فيما ينفع الأمة فى تربيتها وتهذيبها، وتقدمها وارتقائها.

الوجيه: ذلك ما يجب أن تنفق عليه الحكومة من خزائنها التى تملأ من أموال الأمة لهذه الأغراض التى تذكرها، ولكنها تضن بمال هى فى حاجة إليه لإصلاح السودان وبناء العمائر وتشييد القصور وترقية كبار الموظفين خصوصًا الأجانب منهم وإقرار عيون السياح الأوروبيين بالمناظر البهيجة والمشاهد الجميلة، فلا ترى لها بدًا من حمل تلك الحمالات على أعناقها بلا رحمة ولا شفقة ولا نظر إلى ما تتكبده فى هذا السبيل مما يذيب الشحم، ويعرق العظم، وليتها كانت تتدرج فى الطلب وتهادن فيه فتدرك فى ذلك سياسة الحكومات السالفة المعروفة باستبدادها وإرهاقها، فقد حكى عن أحد رؤسائها

أنه علم أن أحد المديرين سلب أهالى مديريته المال دفعة واحدة أنهم ضاقوا به ذرعًا فأحضروه فى مجلسه وأمر أن تنزع من لحيته شعرات متفرقة فما أبه لذلك ولا احتفل، ثم أمر أن تنتزع من رأسه خصلة من الشعر مرة فصرخ وتألم، فقال له هكذا يجب أن يكون أخذ الأموال من الرعية، متفرقًا تحتمله، لا مجتمعًا تتألم له.

الكاتب: حسبك من ذلك ثواب الله وأجره على إحسانك وبذلك المال فى سبيله، وللآخرة خير وأبقى.

الوجيه: من أين يأتينى الثواب والأجر، وهل يثاب المرء إلا على قدر نيته وإخلاصه فى عمله؟ وإنى أعترف لك عنى وعن جميع الوجهاء أمثالى بما عرفت من أحوالهم. ومارست من طباعهم، أننا لا نريد من بذل ما نبذل إلا رضا الحاكم، والتودد إليه، وموافاة رغبته لاستكمال أسباب الوجاهة مرة، وقضاء المآرب والحاجات أخرى، ووالله لقد أفسد علينا هؤلاء القوم بخطتهم هذه غرائزنا وسجايانا وعودونا من الرياء فى الإحسان والنفاق فى المعاملة خطة قست معها قلوبنا، واستحجرت أفئدتنا، حتى أن أحدنا يكاد لا يحسن بالدرهم الواحد إلى جاره البائس الفقير لا أمام قاض فطن وشهود عدول وحتى زهد فينا الفقراء، ولوت المساكين وجوهها عن أبوابنا وجفانا ذوو الرحم والأقرباء، وأصبحت قصورنا فى نظرهم قبورًا يستدرون لها الرحمات، لا مناهل يرجون منها الصدقات. وأقفرت «مضايفنا» إلا من عربدة المطربشين ورطانة المبرنطين فمن أين لثواب الله أن يعرف طريقنا عافاك الله!؟

الكاتب: أتغضبك كلمة الحق إن قلتها لك أيها الصديق؟

الوجيه: قل ما تشاء فقد ملأ الهم ما بين جوانحى فاستحجر قلبى حتى ما يغضبنى حق ولا باطل.

الكاتب: أعجب ما رأيت من أمرك فى حديثك معى أنك تعرف الحق وتتنكر له كأنك لا تعرفه، وتمد يدك إلى الصواب حتى تكاد تلمسه ثم تعجز عنه، فقد زعمت أن مجد القربى من أولياء الأمر باطل، ولقد أصبت فيما تقول فما شأنك به، وما نهوضك إليه، وما لك واللصوق بأمر أنت تعلم قلة جدواه، وسوء مغبته، ولقد كان طريق مختصر إلى المجد الصحيح والشرف

الصميم، لو كنت أكبر منك همة، وأصح رأيًا، وأقوى عزيمة، فمجد الكرم ليس بأقل شأنًا من مجد السيف والقلم ولا أرى أنك كنت تنفق فى سبيله إلا بعض ما أنفقت فى هذا المجد الكاذب وما كان يصيبك فى الأول من الشقاء ما أصابك فى الثانى، فالكريم معان على أمره، ومبارك له فى عيشه، متى صح له معنى الكرم، وكانت الرحمة غريزة من غرائزه تسوقه إلى تفقد الضعفاء ومواساة الفقراء، من حيث لا يبتغى على ذلك أجرًا سوى ما وعد الله به المحسنين من حسن المثوبة والأجر، ورفع الذكرى فى الآخرة والأولى، ولكنكم بخلتم بأموال الأمة عليها واحتجنتموها من دونها، وأبت لكم همتكم الضعيفة أن يكون لكم كما كان لأمثالكم فى الأمم الأخرى آثار فى بناء المدارس والملاجئ والمستشفيات تسمى بأسمائكم، وتسجل فى صحيفة أعمالكم فتنالون بها ما تريدون من مجد الدنيا والآخرة، فعاقبكم الله على ذلك بأن سلط عليكم من يعبث بعقولكم، ويلعب بأموالكم، ويرغمكم على الإحسان إرغامًا، من حيث يكون له الغنم، وعليكم الغرم، فلا ذكرًا حصلتم، ولا مالاً حفظتم! وكذلك نولى بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون.

جرجى زيدان

لا أعلم أين تذهب نفس الإنسان بعد موته، ولا أين مكانها الذى تستقر فيه بعد فراق جسدها، ولا ما هى الصلة التى تبقى بين المرء وبين حياته الأولى بعد رحيله عنها، فإن كان صحيحًا ما يقولون من أن ساكن القبور يستطيع أن يجد بين صخورها ورجامها منفذًا يشرف منه على هذه الدار فيسره ما ترك وراءه فيها من ذكر جميل، وثناء عاطر، وسيرة صالحة ومجد باق، فإن نصيب جرجى زيدان اليوم من الهناء والغبطة بما ترك فى حياته الأولى من جليل الآثار، وصالح الأعمال أوفر الأنصبة وأجزلها.

ما أنعم الله على عبده نعمة أثنى قيمة، ولا أغلى جوهرًا، ولا أحسن

أثرًا من نعمة اليقين بالجزاء الصالح على العمل الطيب، فهو يعتقد أنه مجزى على عمله، مكافأ به، مؤمنًا كان أم ملحدًا، معترفًا بنعيم الآخرة أم منكرًا له، فإن كان الأول ساقه إلى العمل الصالح شغفه بجنة الخلد وحورها وولدانها، ولؤلؤها ومرجانها، وروحها وريحانها، وإن كان الثانى ساقه إليه شغفه بالذكر الجميل، والسيرة الصالحة، والحياة الباقية فى ألسنة الأجيال وبطون التواريخ ولولا هاتان الجنتان، جنة المؤمنين وجنة الملحدين، ما جدَّ فى هذه الحياة جاد، ولا عمل فيها عامل.

إن ميدان الحياة أضيق من أن يسع بين غايتيه العملِ الصالح والجزاء عليه معًا؛ وكيف يسعهما والمرء لا يكاد يفرغ فى حياته من عمله الذى يتوقع عليه الجزاء قبل أن تنطفئ ذبالة حياته؛ وتحترق فحمة شبابه؛ حيث تموت فى قلبه لذة العظمة، وتنضب فى فؤاده شهوة المجد، فإن فرغ منه قبل ذلك لا يترك له حساده ومنافسوه ساعة من ساعات فراغه يستطيع أن يسكن فيها إلى نفسه، ليستشعر برد الراحة ولذة الجزاء، فلابد أن يكون للجزاء حياة أخرى غير هذه الحياة، إما حياة الأجر؛ أو حياة الذكر.

مات جورجى زيدان فنحن نبكيه جميعًا؛ أما هو فيبتسم لبكائنا ويرى فى تفجعنا عليه والتياعنا لفراقه منظرًا من أجمل المناظر وأبهاها، لأنه يعلم أن هذه الدموع التى نرسلها وراء نعشه أو نمطرها فوق ضريحه إنما هى ألسنة ناطقة بحبه وإعظامه، والاعتراف بفضله، والثناء على عمله، وأنها المداد الإلهى النورانى الذى تكتب به فى صحيفة تاريخه البيضاء آيات مجده الخالد، وعظمته الباقية، وذلك ما كان يريد أن يكون.

مات جرجى زيدان فبكاه صديقه لأنه كان يحمد وده وإخاءه، وبكاه جاره لأنه كان يجد فى جواره لذة الأنس وجمال العشرة، وبكاه معتفيه لأنه كان ينتفع بماله، وبكاه صنيعته لأنه كان ينتفع بجاهه، وبكاه قارئ كتبه لأنه كان يجد فيها من غزارة المادة، وجمال الأسلوب، وسهولة التناول ما لا يجد فى غيرها، وبكاه قارئ رواياته لأنه كان يجد فى خيالها وبراعة تصوراتها، عونًا له على هموم الحياة وآلامها، أما أنا فبكيته لأمر فوق ذلك كله.

تطلع الشمس صباح كل يوم من مشرقها على هذه الكائنات ناطقها وصامتها ساكنها ومتحركها، جامدها وسائلها، فتستمد جميع ذراتها منها مادة حياتها التى تقومها، أو صورتها التى تتشكل بها وتأخذ منها الأغراس نماءها، والأزهار ألوانها، والنار حرارتها، والأجسام الحية قوتها، والأجسام الجامدة صورتها، والأجواء طهارتها ونقاءها، والآفاق جمالها وبهائها وكذلك كان جرجى زيدان فى سماء هذا البلد.

كان بطلاً من أبطال الجد والعمل، والهمة والنشاط، يكتب أحسن المجلات ويؤلف أفضل الكتب، وينشئ أجمل الروايات ويناقش ويناضل، ويبحث وينقب، ويستنتج ويستنبط، ويجيب السائل ويفيد الطالب فى آن واحد، لا يشغله شأن من تلك الشؤون عن غيره. ولا يشكو مللاً ولا ضجراً، ولا يستشعر خوراً ولا فتوراً، فكان القدوة الحسنة بين فريق المستنيرين من المصريين يتعلمون منه أن قليلاً من العلم يتعهده صاحبه بالتربية والتغذية ثم يقوم على نشره وإذاعته بين الناس أنفع له ولأمته من العلم الكثير، والعمل القليل.

ولو شئت أن أقول لقلت: أن جرجى زيدان كان رئيس البعثة العلمية السورية التى وفدت إلى مصر فى أواخر القرن الماضى فغيرت وجه العالم المصرى تغييراً كليًّا، وغرست فى صحرائه القاحلة المجدبة أغراس الجد والعمل، والشجاعة والإقدام، والهمة والاستقلال، وعلمت أبناءه كيف يؤلفون ويترجمون، وينشؤون الجرائد والمجلات، وكيف يتخذون من هذا العمل الشريف صناعة يقومون بها حياتهم المادية، وحياة أمتهم الأدبية، ويتقون بها مذلة الوقوف على أبواب الدواوين صباح مساء يتكففون رؤساءها، ويسألونهم أن يتخذوهم عبيداً لهم يخدمونهم على موائد عزهم وسعادتهم التى يجلسون عليها فأما عطفوا عليهم فألقوا إليهم بالنزر الخسيس من فتات تلك الموائد، وإما طردوهم منها كما يطردون الكلاب العاوية.

وكان شريف النفس بعيد الهمة، متجملاً بصفات المؤرخ الحقيقى الذى لا يتشيع ولا يتحيز. ولا يداهن ولا يجامل، ولا يترك لعقيدته الدينية مجالاً

للعبث بجوهر التاريخ وحقائقه، فكتب وهو المسيحى الأرثوذكسى تاريخ الإسلام فى كتبه ورواياته كتابة العالم المحقق الذى لا يكتم الحسنة إذا رآها ولا يشمت بالسيئة إذا عثر بها، فاجتمع بين يديه فى مجالس علمه من أبناء الأمة الإسلامية خاصتها وعامتها، عربها وعجمها، جمع لم يجلس مثله بين يدى عالم من علماء الإسلام ولا مؤرخ من مؤرخيه فى هذا العصر، فأقام بهذا العمل العظيم لهذا الدين القويم حجته أمام أولئك المتعصبين من الأوروبيين الذين لا يثقون فى خبر من أخباره، ولا فى بحث من أبحاثه، بحديث شيعته وأبنائه، وكان فى تسامحه هذا القدوة الصالحة للمؤرخ يتعلم منه كيف يكتب التاريخ، بلسان التاريخ لا بلسان الدين، والمثل الأعلى للعالم يتعلم منه كيف يستطيع أن يتجرد من عواطفه، وميول نفسه، وخواطر قلبه أمام الأمانة والعلم، والوفاء بحقه.

وكان مستقيمًا فى عمله، أمينًا فى علائقه، لا يكذب، ولا يتلون ولا يخيس بعهده، ولا ينكث وعده، ولا يكسو بضاعته لونًا غير لونها ليزخرفها على الناس ويجملها فى عيونهم، فتعلم منه العاملون أن الكذب فى المعاملة ليس شرطًا من شروط الربح، ولا سببًا من أسباب النجاح.

وكان واسع الصدر، فسيح رقعة الحلم، وقف له فى طريق حياته كما وقف لغيره من قبله ومن بعده فريق المقاطعين فى هذا البلد الذين لا ينطقون، ولا يسكتون عن مقاطعة الناطقين، فلبسوا ثوب الانتقاد ليشتموه، وكمنوا وراء أكمة الدين ليرموه فيصموه، وقالوا إنه شوه وجه التاريخ الإسلامى، وعبث بحقائقه، ولم يسألوه من أين نقل، ولا كيف استند؟ بل سألوه لم لم يكتبه كما كتبوا؟ ويستنتج منه مثل ما استنتجوا؟ كأنما لم يكفهم منه أن يروه بينهم مسيحيًا متسامحًا حتى أرادوا منه أن يكون مسلمًا متعصبًا، يكتب التاريخ بلسان الدين كما يكتبون، وينهج فيه كما ينهجون، فلما لم يجدوه حيث أرادوا رموه بسوء القصد فى عمله، وخبث النية فى مذهبه، ولم يستطيعوا أن يروضوا أنفسهم الجامحة على أن يقولوا: إن الرجل باحث مستنتج، يخطئ مرة ويصيب أخرى، أو يقولوا أن له فى تاريخ الإسلام

حسنات تصغر بجانبها سيئاته فيه فلنغتفر هذه لتلك، وما أحسب أن أحدًا منهم كان يعتقد شيئًا مما يقول، ولكنهم كانوا يرون أن الدين سلعة تباع وتشترى، وأن سلعته ملك لهم، ووقف عليهم، لا يجب أن تعرض فى حانوت غير حانوتهم؟ وكانوا يظنون أن الرجل تاجر مثلهم يريد أن يفتح فى سوقهم ظله، وقالوا مرة: إنه مسيحى لا يؤمن على الإسلام ولا على تاريخه، كأنما ظنوا أنه ينقل حوادث التاريخ ووقائعه من توراة موسى أو إنجيل عيسى، وقالوا أخرى: إنه سورى دخيل وفد على هذا البلد مسترزقًا أو متجرًا، فما هو بمخلص ولا بأمين، وفاتهم -عفا الله عنهم- أنه إن كان ضيفًا فليس من أدب الضيافة، ولا من خلال المروءة، والكرم: أن يمن المضيف على ضيفه بيده عنده، وأن يعد عليه لقيماته التى يطعمها على مائدته، وإن كان تاجرًا فقد باعهم بهذا النذر الخسيس من متاع الدنيا وزخرفها جوهر عقله، وينبوع ذكائه ومادة حياته، فما كانوا من الخاسرين، ولا كان من الرابحين.

ووالله ما أدرى كيف تتسع صدورهم للخمار الرومى واللص الإيطالى وللفاجر الأرمنى أن يفتح كل منهم فى كل موطئ قدم من مدنهم وقرارهم حانًا يسلب فيه عقولهم، أو مقمرًا يسرق فيه أموالهم، أو ماخورًا يهتك فيه أعراضهم، فلا يطاردونه ولا يحاربونه، ولا يسمونه دخيلاً ولا واغلاً؟ ثم يضيقون ذرعًا بالعالم السورى أو العراقى أو المغربى ينزل أرضهم نزول الديمة الوطفاء بالصحراء المحرقة فيعلمهم العلم، ويهذب نفوس أبنائهم، ويثقف عقول ناشئتهم ويبعث فى نفوس ضعاف العزائم منهم روح الهمة والنشاط، والشجاعة والإقدام.

ذلك هو شقاء الأمم، وهذا هو جواب السائلين عن أسباب سقوطها وانحطاطها.

لم يضق الرجل ذرعًا بهذا كله، بل كان شأنه معهم إن كان يعتب عليهم ولا يشتمهم، وينبههم إلى أدب المناظرة وواجباتها، ولا يؤنبهم، ويدعوهم إلى اتخاذ كلمة الحق سواء بينه وبينهم، ولا يمكر بهم، حتى انقلب عنهم يحمل لواء الفضيلة والحلم، وإن كان مخطئًا، وانقلبوا عنه يحملون

فوق ظهورهم رذيلة التعصب والجهل، وسوء الخلق، وضيق العطن، وإن كانوا مصيبين.

ولقد وضع بخطته هذه فى مناظرة خصومه ومجادلتهم أول حجر فى بناء الأخلاق الفاضلة فى هذه الأمة، فتعلم منه كثير من أدباء هذا البلد وعلمائه كيف يستطيعون أن يتناظروا ولا يتشاتموا، وأن يتعاونوا على الحقيقة المبهمة فيكشفوا الغطاء عن وجهها دون أن يريقوا فى معاركهم قطرة واحدة من دم الفضيلة والشرف، فإن تم لهذه الأمة فى مستقبل حياتها حظها من شرف الأخلاق وعلو الهمة ونبالة المقصد فى جميع شؤونها وأغراضها فلتتذكر دائمًا أن جرجى زيدان كان أحد الذين أسسوا فى أرضها هذه الدولة الفاضلة، دولة الآداب والأخلاق.

نحن لا تعوزنا المؤلفات ولا المترجمات، فالمؤلفون والمترجمون والحمد لله كثيرون، وإنما الذى يعوزنا روح عالية تخفق فى سماء هذه الأمة خفوق النجم الزاهر فى سمائه، وتشرق فى نفوس أبنائها إشراق الشمس فى دارتها فتبعث العزيمة فى قلب العاجز، والشجاعة فى فؤاد الجبان، وتقوم من الأخلاق معوجها وتصلح من الآداب فاسدها، وتثبت من العقول مضطربها، وتعلم كل صغير وكبير وقوى وضعيف: أن قيمة المرء فى حياته أداء واجبه للإنسانية أولاً ولأمته ثانيًا، ولنفسه أخيرًا، وأن الحب سعادة لإنسان، والبغض شقاؤه وبلاؤه وأن الفرق بين الدين الخالص والدين المشوب أن الأول يتسع صدره لكل شىء حتى لمخالفيه ومحاربيه، وأن الثانى يضيق صدره بكل شىء حتى بنفسه، وأن الله تعالى أوسع رحمة، وأعلى حكمة، من أن يسدّ فى وجوه عباده كل طريق للوصول إليه إلا طريق السيف والنار، وأن هذه الأحقاد الدنيئة التى تلتهب فى صدور الناس التهابًا لا تؤججها فى صدورهم الأديان نفسها، بل رؤساء الأديان الذين يستخدمونها ويستثمرونها ويتجرون بها فى أسواق الغباوة والجهل، وأن الذين يقدسون الأحقاد ويباركونها ويعتبرونها جزءًا من ماهية الدين، ومقومًا من مقوماته، إنما يقولون من حيث لا يشعرون: إن الإلحاد فى العالم، والفوضى الدينية فيه، وعبادة الشمس

والقمر، والتـرب والحجر، أنفع للمجـتمع وأحسن عليه عـائدة من عبادة الله المعبود.

ولقد كان جرجى زيدان روحًـا من تلك الأرواح العالية تمنيناها برهة من الزمان حتى وجدنـاها فلم ننعم بها إلا قليلاً ثم فقدناها أحوج مـا كنا إليها، فذلك ما يبكينا عليه ويحزننا على فراقه.

★

الكاتب كالمـصور، كلاهمـا ناقل، وكلاهمـا حاك، إلا أن الأول ينقل مشاعر النفس إلى النفس، والثانى ينقل مشاهد الحس إلى الحس.

وكما أن مـيزان الفضل فى التصوير أن تـكون الصورة والأصل كالشىء الواحد كذلك مـيزان الفضل فى الكتابة أن يكون المكتـوب فى الطرس، خيال المكنون فى النفس.

بهذه العين التى لا أزال أنظر بها دائمًا إلى الكتابة والكتاب، وأوازن بها بين أقـدارهم ومنازلهم؛ كنت أقـرأ ذلك الأسلوب العـذب البديع الذى كـان يكتب به المرحوم جـرجى زيدان كتبه ورواياـته فأتخيله مرآة نقـية صافيـة قد ارتسمت فيها صورة نفسه جلية واضحة لا غموض فيها ولا إبهام.

وقليلاً مـا كنت أجد فى نفسى هذا الشـعور عند النظر فى كتـابة كاتب سواه لأن الكاتب إن اسـتطاع أن ينال ثناء الناس وإعجابهم ببـلاغة لفظه، أو براعة معناه، أو سعة خياله، أو قوة حـجته، فإنه لا يستطيع أن ينال الثقة من نفوسهم إلا إذا كان من الصادقين المخلصين.

كنت أرى عذوبة نفسه فى عذوبة لفظـه، وطهارة قلبه فى طهارة لسانه، وصفاء ذهنه فى وضوح أغراضه ومراميـه، وجمال ذوقه فى جمال ملاحظاته واستنتاجاته، وكان خير ما يعجبنى منه ترفعه عن مجاراة المتكبرين من الكتاب فى كبـريائهم، ونزوله فى كـثيـر من مواقفـه إلى منازل العامـة ليحـدثهم بما يفهـمون لأنه كان من كتـاب المعانى لا من كتاب الألفـاظ ولأنه كان يؤثر أن يتعلم عنه الجاهلون على أن يرضى عنه المتحذلقون.

وإن كان الرجل هو الأسلوب كما يقولون، فلا أعلم أن أحدًا فى هذا البلد أولى بوصف الكاتب من المرحوم جرجى زيدان، فوارحمتاه له، وواأسفًا عليه.

احترام المرأة

نعم أن الرجال قوامون على النساء كما يقول الله تعالى فى كتابه العزيز، ولكن المرأة عماد الرجل، وملاك أمره، وسر حياته؛ من صرخة الوضع إلى أنة النزع.

لا يستطيع الأب أن يحمل بين جانحتيه لطفله الصغير عواطف الأم، فهى التى تحوطه بعنايتها ورعايتها، وتبسط عليه جناح رحمتها ورأفتها، وتسكب قلبها فى قلبه حتى يستحيلا إلى قلب واحد، يخفق خفوقًا واحدًا ويشعر بشعور واحد، وهى التى تسهر عليه ليلها، وتكلؤه نهارها، وتحتمل جميع آلام الحياة وأرزائها فى سبيله، غير شاكية ولا متبرمة، بل تزداد شغفًا به، وإيثارًا له، وضنًّا بحياته بمقدار ما تبذل من الجهود فى سبيل تربيته، ولو شئت أن أقول لقلت أن سر الحياة الإنسانية، وينبوع وجودها وكوكبها الأعلى الذى تنبعث منه جميع أشعتها ينحصر فى كلمة واحدة هى «قلب الأم».

لا يستطيع الرجل أن يكون رجلاً حتى يجد إلى جانبه زوجة تبعث فى نفسه روح الشجاعة والهمة، وتغرس فى قلبه كبرياء التبعة وعظمتها وحسب المرء أن يعلم أنه سيد وأن رعية كبيرة أو صغيرة تضع ثقتها فيه، وتستظل بظل حمايته ورعايته، وتعتمد فى شؤون حياتها عليه، حتى يشعر بحاجته إلى استكمال جميع صفات السيد ومزاياه فى نفسه، فلا يزال يعالج ذلك من نفسه ويأخذها به أخذًا حتى يتم له ما يريد، وما نصح الرجل بالجد فى عمله والاستقامة فى شئون حياته، وسلوك الجادة فى سيره، ولا هداه إلى التدبير ومزاياه، والاقتصاد وفوائده، والسعى وثمراته، ولا دفع به فى طريق المغامرة

والمخـاطرة؛ والدأب والمثابرة، مـثل دمـوع الزوجة المنهـلة، ويدها الضارعـة المبسوطة.

ولا يستطيع الشيخ الفانى أن يجد فى أخريات أيامه فى قلب ولده الفتى من الحنان والعطف، والحب والإيثار، ما يجد فى قلب ابنته الفتاة، فهى التى تمنحه يدها عكازًا لشيـخوخته، وقلبهـا مستودعًا لأسـراره، وهواجس نفسه، وهى التى تسهر بجـانب سرير مرضه ليلها كله تتسمـع أنفاسه، وتصغى إلى أناته، وتحرص الحـرص كله على أن تفهم من حـركات يديه، ونظرات عـينيه حاجـاته وأغراضه فـإذا نزل به قضـاء الله كانت هى من دون ورثتـه جميـعًا الوارثة الوحيدة التى تعـد موته نكبة عظمى لا يهونها عليـها، ولا يخفف من لوعتـها فى نفسـها، أنه قد ترك مـن بعده ميـراثًا عظيمًا، وكـثيرًا مـا سمع السامعـون فى بيت الميت قبل أن يجف تراب قبره أصـوات أولاده يتجادلون، ويشتجـرون فى الساعة التى يجتمع فـيها بناته ونساؤه فى حـجراتهن نائحات باكيات.

وجملة القول أن الحياة مسرات وأحـزان، أما مسراتها فنحن مدينون بها للمرأة، لأنها مصدرها وينبوعها الذى تتدفق منه، وأما أحزانها فالمرأة هى التى تتولى تحويلها إلى مسرات أو ترويحها عن نفوس أصحابها على الأقل، فكأننا مدينون للمرأة بحياتنا كلها.

وأستطيع أن أقول وأنا على ثقة مما أقول أن الأطفال الذين استطاعوا فى هذا العالم أن يعـيشوا سـعداء مـعنيًا بهم وبتربيـتهم وتخريـجهم على أيدى أمهاتهم بعد موت آبائـهم أضعاف الذين نالوا هذا الحظ على أيدى آبائهم بعد فقد أمهاتهم، وللرحمة الأموية الفضل العظيم فى ذلك.

فليت شعرى هل شكرنا للمرأة تلك النعـمة التى أسدتها إلينا وجازيناها بها خيرًا؟

لا . . لا، لأننا إن منحناها شيئًا من عواطف قلوبنا وخوالج نفوسنا فإننا لا نمنحـها أكـثر من عـواطف الحب والود، ونضن عليهـا كل الضن بعاطـفة

الاحترام والإجلال، وهى إلى نهلة واحدة من نهلات الإجلال والإعظام أحوج منها إلى شؤبوب متدفق من الحب والغرام.

قد نحنو عليها ونرحمها، ولكنها رحمة السيد بالعبد، لا رحمة الصديق بالصديق وقد نصفها بالعفة والطهارة، ومعنى ذلك عندنا أنها عفة الخدر والخباء، لا عفة النفس والضمير، وقد نهتم بتعليمها وتخريجها ولكن لا باعتبار أنها إنسان كامل لها الحق فى الوصول إلى ذروة الإنسان التى تريدها، والتمتع بجميع صفاتها وخصائصها؛ بل لنعهد إليها بوظيفة المربية أو الخادم أو الممرضة؛ أو لنتخذ منها ملهاة لأنفسنا، ونديمًا لسمرنا ومؤنسًا لوحشتنا؛ أى أننا ننظر إليها بالعين التى ننظر بها إلى حيواناتنا المنزلية المستأنسة لا نسدى إليها من النعم، ولا نخلع عليها من الحلل، إلا ما ينعكس منظره على مرآة نفوسنا فيملؤها غبطة وسرورًا.

إنها لا تريد شيئًا من ذلك، إنها لا تريد أن تكون سرية الرجل ولا حظيته، ولا أداة لهوه ولعبه، بل صديقته وشريكة حياته.

إنها تفهم معنى الحياة كما يفهمها الرجل، فيجب أن يكون حظها منها مثل حظه.

إنها لم تخلق من أجل الرجل، بل من أجل نفسها، فيجب أن يحترمها الرجل لذاتها لا لنفسه.

يجب أن ينفس عنها قليلاً من ضائقة سجنها لتفهم أن لها كيانًا مستقلاً، وحياة ذاتية، وأنها مسؤولة عن ذنوبها وآثامها أمام نفسها وضميرها، لا أمام الرجل.

يجب أن تعيش فى جو الحرية الفسيح، وتستروح رائحته الأريجة، ليستيقظ ضميرها الذى أخمده السجن والاعتقال من رقدته ويتولى بنفسه محاسبتها على جميع أعمالها، ومراقبة حركاتها وسكناتها، فهو أعظم سلطانًا، وأقوى يدًا من جميع الوازعين المسيطرين.

يجب أن نحترمها لتتعود احترام نفسها، ومن احترم نفسه كان أبعد الناس عن الزلات والسقطات.

لا يمكن أن تكون العبودية مصدراً للفضيلة، ولا مدرسة لتربية النفوس على الأخلاق الفاضلة، والصفات الكريمة، إلا إذا صح أن يكون الظلام مصدراً للنور، والموت علة للحياة، والعدم سلمًا إلى الوجود.

كما لا أريد أن تتخلع المرأة وتستهتر، وتهيم على وجهها فى مجتمعات الرجال وأنديتهم، وتمزق حجاب الصيانة والعفة المسبل عليها، كذلك لا أحب أن تكون جارية مستعبدة للرجل، يملك عليها كل مادة من مواد حياتها، ويأخذ عليها كل طريق حتى طريق النظر والتفكير.

وبعد؛ فإما أن تكون المرأة مساوية للرجل فى عقله وإدراكه أو أقل منه. فإن كانت الأولى فليعاشرها معاشرة الصديق للصديق، والنظير للنظير، وإن كانت الأخرى فليكن شأنه شأن المعلم مع تلميذه والوالد مع ولده، أى أنه يعلمها ويدربها، ويأخذ بيدها حتى يرفعها إلى مستواه الذى هو فيه، ليستطيع أن يجد منها الصديق الوفى والعشير الكريم. والمعلم لا يستعبد تلميذه ولا يستذله، والأب لا يحترق ابنه ولا يزدريه.

الانتقـــام

«مترجمة»

-١-

قضى المسيو «كابرينى» برهة طويلة من أيام حياته سعيدًا مغتبطًا بزوجة جميلة وثروة صالحة وخلق طيب شريف يحببه إلى الناس جميعًا، ثم نكبه الدهر نكبة عظمى ذهبت بماله وبزوجته، فبكاهما ما شاء الله أن يفعل ثم بلى حزنه كما تبلى جميع الأحزان فى قلوب الناس، ولم يجد بدًّا من أن يعيش لابنته «إلين» ليتولى تربيتها وإسعادها، فالتحق بمصرف من المصارف المالية بمرتب قليل، ثم لم يزل يجد ويجتهد فى خدمة العمل الذى وكل إليه حتى أصبح بعد مدة قصيرة وكيلاً لذلك المصرف، فكان يعمل فيه سحابة نهاره ثم

يعود ليـلاً إلى منزله فيرى ابنته منهـوكة مضعـضعة لكثرة ما كـانت تبذل من الجهـد فى خدمة المنزل ومناظرة شؤونه فـرأى أن يتزوج ليخـفف عنها بعض متاعبهـا وآلامها ففعل وكان سيء الحظ فى اختياره، فـتزوج من امرأة فاسدة خليعة لا هم لها فى حياتها سوى ترفيـه عيشها، وتدليل نفسها، والتقلب بين أعطاف شهـواتها ولذائذها، فلم ينتـفع منها بشىء، بل زادت همومـه وآلامه وأثقال عيشـه، ولكن ماذا يعمل وقد وضعت السلة فى عنقـه وانتهى الأمر، وأصبحت ابنته بعد أن كـانت سيدة بيتها، وأميرة نفسـها، أسيرة فى يد امرأة قاسية داهـية تسومها أنواع الخسف، وألوان العـذاب، فكانت تحتمل ذلك كله بصبر وجلد، وكانت تكتمه أباها كتـمانًا شديدًا ضنًا براحته وسكونه بل كانت تكتم عنه علائق زوجـته وصلاتهـا بمعارفهـا وأصدقائها، رحـمة به وإشفـاقًا عليه.

وكثـيرًا مـا كان يعـود إلى منزله فى بعض ليـاليه حـاملاً بعض دفـاتر المصـرف فى يده ليتـمم فـيهـا العمل الذى أعـجله الوقت عن إتمامـه هناك، فيجلس إلى مكتـبه ساهرًا ليله، مكبًا على عمله، ذائدًا النوم عن عـينيه حتى يغلبه على أمره فينام فى مكانه والقلم معلق بين أصابعه فى الساعة التى تكون فيها زوجـته بين جمع من أصدقائها وعشـرائها فى بعض الملاعب أو الحانات راقصة لاهية عابثـة بجميع الفضائل الإنسانية، فإذا اسـتيقظت ابنته أثناء الليل ورأته على هذه الحـالة مشت إليه برفـق وهدوء، وجلست على كرسى أمـامه واجتـذبت إليها الدفـتر الذى بين يديه وأتمت فيـه العمل من حـيث قطعه ثم توقظه بعد ذلك لينام فى فـراشه فيشكر لها يدها ومـعونتها ثم يسـألها سؤال المتـعض المتمرمـر: ألم تعد فلانة حـتى الآن؟ فتجـيبه أن لا، فـيذهب إلى سريره حاملاً بين جنبيه من الهم والألم ما الله به عليم.

وجملة القول أنه كان شـقيًا منحوسًا، يسير من شئـون حياته فى ظلمة داجية، لا ينتـهى بصره فيهـا إلى مدى، ولا يرى فى سمائهـا نجمًا يتنوره إلا ذلك النجم الضئيل الذى كان يلمع من حين إلى حين فـى جبين ابنته الراحمة الشفوقة فيتنفس أمامه تنفس الراحـة، ويأذن لفمه أن يبتسم فى ضوئه ابتسامة الغبطة والسرور.

فإنه لجالس ذات يوم فى غرفة مكتبه من المصرف إذ دعاه إليه مديره وأعطاه ورقة مالية قيمتها خمسة آلاف فرنك ليودعها الخزينة ويسجلها فى دفاتر المصرف فتناولها منه وعاد بها إلى غرفته ووضعها على مكتبه وتناول الدفتر ليقيدها، فما أمسك القلم بيده حتى دخل عليه بواب المصرف وقال له أن فتاة هيئتها كيت وكيت واقفة بالباب تسأل عنك وهى تكتم اسمها وتأبى الدخول إلى هنا فاضطرب اضطرابًا شديدًا ومر بخاطره أنها ابنته، وأن حادثًا عظيمًا حدث بالمنزل دعاها إلى الحضور إليه فى المصرف وما حضرت إليه فيه قبل اليوم، فترك كل شىء فى مكانه وخرج مسرعًا ليراها، فإذا هى بعينها واقفة بجانب الجدار وقفة الحياء والخجل، وإذا بيدها كتاب تحمله من زوجته فاختطفه منها وقرأه فإذا هى تقول له فيه: أنها تريد أن يرسل إليها فى هذه الساعة أربعة آلاف فرنك لتبتاع بها حلية جميلة رأتها فى بعض المخازن وأنها إن فاتها أن تبتاعها اليوم فربما لا تجدها غدًا فانفرجت شفتاه عن ابتسامة الغيظ والألم وأخذ ابنته ناحية وقال لها: بلغيها أننى لا أملك هذا المبلغ اليوم ولا غدًا، ولا أستطيع ذلك العام كله، ثم ألقى عليها نظرة العاتب لحضورها إليه فى المصرف وكان لا يحب ذلك منها، فأطرقت برأسها ولم تقل شيئًا لأنها لا تستطيع أن تقول له أن زوجته هى التى أرغمتها على ذلك، فتزيد همومه همًّا جديدًا ثم عادت أدراجها.

وكان بين عمال المصرف عامل سيء الأخلاق، فاسد النفس والضمير، ما زال منذ دخل هذا المكان يرصد الغفلة من مديره أو وكيله، علّه يتوصل إلى اختلاس شيء من المال، فدخل غرفة الوكيل فى اللحظة التى خرج فيها لمقابلة ابنته ليقدم إليه بعض الأوراق فلم يجده، ولمح الورقة المالية التى تركها على المكتب، فحدثته نفسه باختلاسها، فدار بنظره هاهنا وها هنا ثم انقض عليها ووضعها فى جيبه، وخرج متسللاً لم يشعر أحد بدخوله ولا بخروجه وما هى إلا لحظة حتى عاد المسيو «كابرينى» وفى يده الكتاب الذى أرسلته إليه زوجته فمزقه وألقى به فى السلة، ثم ألقى نظرة إلى المكتب فلم ير الورقة المالية حيث تركها، فذعر ذعرًا شديدًا، وأخذ يفتش عنها فى كل مكان فلم يجدها، فاشتد حزنه وهمه، وأخذ يسأل العمّال والخدم عمن دخل غرفته فى غيابه فلم يعترف له بذلك أحد، فظل يصرخ صرخات عظمى تقيم المصرف

وتقعده فسمع المدير الضوضاء فحضر ليرى ماذا حدث، فأفضى إليه الرجل بالقصة كما هى لم يكتمه منها شيئًا إلا أنه لم يشأ أن يخبره بموضوع الرسالة التى جاءت فيها ابنته ضنًا بأسراره البيتية أن يعلمها أحد غيره، فارتاب به الرجل، وما كان يعتد عليه بسيئة قبل اليوم، ولا يعرف له ماضيًا مريبًا ولكنه كان يعلم أنه فقير مقل، فظن به الظنون، وقديمًا كان الفقر ينبوع التهم، ومثار الشكوك والريب، وتركه مكانه وخرج إلى العمال والخدم يحادثهم فى هذا الشأن عله يصل إلى معرفة الحقيقة، فأخبره البواب أن الفتاة التى حضرت إليه كانت تحمل فى يدها كتابًا وأنه أخذها جانبًا وأسر إليها حديثًا لم يسمع منه شيئًا، فازداد شكه وارتيابه وعاد إليه فوجده واقفًا فى مكانه مذهولاً يقلب كفيه، فلم يقل له شيئًا، وأخذ يدور بعينيه فى أنحاء الغرفة ويقلب بيده الأوراق عله يعثر بذلك الكتاب الذى أخبره به البواب فلم يجده فألقى نظرة إلى السلة فرأى تلك المزق الصغيرة فجمعها فإذا هى الكتاب الذى يريده، فقرأه ثم ألقى على الرجل نظرة شزراء وقال له: إنى أتهمك يا مسيو كابرينى بأنك اختلست تلك الورقة وأرسلها إلى زوجتك مع ابنتك لتبتاع بها الحلية الجميلة التى أعجبتها فدهش الرجل دهشة عظيمة، ورد عليه ما طار بلبه، وأخذ عليه أنفاسه فصمت لحظة، وبعد لأى ما استطاع أن يقوله له: نعم إنها أرسلت إلى هذا الكتاب ولكنى لم أحفل به ولم أرسل إليها شيئًا، بل رددتها ردًا قبيحًا لأننى رجل فقير لا أملك هذا المقدار، ولأننى رجل شريف لا اختلسه، ولم يحفل المسيو «لورين» بدفاعه ولم يرث لضراعته واسترحامه ولم يلبث رفع أمره إلى القضاء فما أتى آخر النهار حتى كان الرجل فى السجن وكانت ابنته المسكينة فى حال من الهم والحزن تستثير الأشجان وتستذرف العبرات، أما زوجته فلم يكن يهمها فى تلك الساعة شيء سوى السعى للحصول على ثمن الحلية الجميلة من طريق غير الطريق.

لم ينفع الرجل دفاعه عن نفسه، ولا دفاع ابنته عنه، ولا شهادة الذين شهدوا بشرفه واستقامته من جيرانه وأصدقائه؛ لأن القضاة لا يستطيعون أن يصدقوا أن رجلاً عظيمًا ثريًا مثل المسيو «لورين» صاحب المصرف المشهور يكذب أو يلفق؛ أو يخطئ فى فراسته وتقديره، وأن رجلاً فقيرًا مقلاً مثل

المسيو كابرينى يتعفف عن اختلاس المال الذى يقع تحت يده متى وجد السبيل إلى ذلك؛ وكثيراً ما ساقت أمثال هذه الأقيسة الفاسدة والنظرات الطائشة الحمقاء، الأبرياء والأشراف إلى أعماق السجون، وقضت عليهم وعلى أهليهم القضاء الأخير؛ كما قضت على هذا الرجل المسكين اليوم؛ فإن قاضى التحقيق لم يلبث أن سمع شهادة خصمه عليه وعرف قصة الكتاب الذى أرسلته إليه زوجته حتى اقتنع بإجرامه وأحاله إلى محكمة الجنايات.

فاستطير عقل «إيلين» وجن جنونها فلم تجد بداً من أن تذهب إلى المسيو لورين لتستعطفه لأبيها، وتضرع إليه أن يساعدها على خلاصه، فذهبت إليه فى منزله فاستأذنت عليه فأذن لها فدخلت، فدهش دهشة عظمى حين رأى أمامه فتاة جميلة بارعة، بل آية من آيات الحسن والجمال، لا عيب فيها إلا أنها نحيلة صفراء متضعضعة وقد يكون الضعف والفتور عند بعض الناس حلية من حلى الجمال فافتتن بها حين رآها إلا أنه أخطأ فى الحكم عليها، كما أخطأ من قبل فى الحكم على أبيها، فظن أنه يستطيع أن يستثمر لنفسه ضرورتها وحاجتها فأخذ يحدثها فى الشأن الذى جاءت من أجله، ثم ذهب معها فى الحديث مذاهب أخرى لم تفهم غرضه منها إلا بعد حين، لأنها لم تألف سماع مثلها قبل اليوم، فأخذ وجهها يربد شيئًا فشيئًا؛ ثم انتفضت انتفاضة الليث فى غيله وألقت عليه نظرة هائلة لو ألقتها على رجل غيره لصعق فى مكانه، ولكنه كان رجلاً وقاحًا متبلدًا فلم يحفل بنظراتها، وتقدم نحوها وحاول أن يغلبها على أمرها، فدافعت عن نفسها دفاعًا شديدًا حتى عجزت، فأرادت الفرار من بين يديه فاعترض طريقها، فدارت بنظرها فى أنحاء الغرفة تتلمس سبيلاً إلى الخاص، فوقع نظرها على مسدس كان فوق مائدته فاختطفته لتهدده به، فانطلقت منه رصاصة خطأ فأصابته فى ذراعه، فصرخ صرخة عظمى، وما هى إلا لحظات قلائل حتى قبض عليها وسيقت إلى السجن بتهمة أنها دخلت على المسيو «لورين» فى منزله لتسأله أن يساعدها على تبرئة والدها فلم يحفل بها فأخرجت مسدسًا كانت تخفيه فى طى ردائها وأطلقته عليه لتقتله فلم تصبه إلا فى ذراعه.

وقد كان فى استطاعة المسيو لورين أن يعتـرف بالحقيقة التى يعرفها حق المعرفـة فلم يفعل، ولو فعل لما ضره ذلك شـيئًا وما هى إلا أيام قـلائل حتى حكمت عليها محكمة الجنايات بالسجن خمس سنين وكانت قد حكمت على أبيها قبل ذلك بالسجن عامين.

-٢-

دخلت «إيلين» سجن النسـاء لتقضى فيه المدة المقـدرة لها ووضعت فى غرفة واحـدة مع امرأة عجوز ساقطة قـضت جزءًا عظيمًا من حـياتها فى هذا المكان المظلم القاتم حتى ألفته وجمدت نفـسها عليه، فلم تعد تحفل بشىء فى هذا العالم ولا تفكر إلا فى الساعة التى يقدم فيها إليهـا الطعام فتلتهمه التهامًا وهى تضحك وتغنى كأنما هى سـعيدة هانئة، وكأنها أبعـد الناس عن الهموم والأحزان، فذعرت إيلين حين رأتهـا ذعرًا شديدًا وتسللت إلى زاوية من زوايا الغرفة فقبعت فيها، واستسلمت لهمومها وأحزانها، ولم تدع قطرة من الدمع فى عينيـها إلا ذرفـتها، وأبت أن تتناول الطعـام الذى قدمـه إليها السـجان، فوضعه بين يديها وتركها وشـأنها فبكت ما شاء الله أن تفعل حتى هدأ بعض ما بها، فعمدت إلى كتاب صـغير من كتب الأخلاق كانت لا تزال تحمله فى جيبها ما تفارقه، فأخرجـته وأخذت تتلهى بتقليب صفحاته فكان أول ما وقع نظرها عليه من كلماته هذه الكلـمة «العفو أشد أنواع الانتقام» فـانتفضت عند قراءتـها انتـفاضًا شـديدًا وعلق نظرها بهـا ما ينتـقل عنها، وأخـذت تراجع الحوادث التى مرت بهـا، وتستعرضها واحـدة بعد أخرى، وتفكر فى المظالم التى نالتها ونالت أباها، ومـا اقترفا ذنبًا، ولا جنيا على أحـد حتى أوردتهما هذا المورد من الشـقاء، فشـعرت بدبيب الـشر فى نفـسها للمـرة الأولى فى حيـاتها، وظلت تقول فى نفـسها: إن الذين مـرت على ألسنتهم أمـثال هذه الكلمات إنما كانوا يعـيشون فى عصر غير هذا العـصر، وبين ناس غير هؤلاء الناس، ولو أنهم عاشوا بيننا لكان لهم فى العالم وأهليه رأى غير هذا الرأى، ولما اجترأوا على المجـازفة بتدوين هذه الأفكار فى كتبـهم لأن العفو لا يكون

انتقامًا إلا من أصحاب الضمائر الطيبة الطاهرة التى تصدر عنها سيئاتها زلات وهفوات أما الضمائر القاسية المتحجرة التى لا تعبأ بشىء، ولا تخجل من شىء، فلا يزيدها العفو والصفح إلا تمردًا وطغيانًا.

وإنها لذاهبة هذه المذاهب الغريبة فى تصوراتها وخيالاتها إذ دنت منها جارتها العجوز تختلس الخطى إليها اختلاسًا حتى وقفت وراءها ونظرت فى الصفحة التى تنظر فيها فوقع نظرها على تلك الكلمة التى تنعم النظر فيها فقهقهت ضاحكة بصوت عال غريب فارتعدت «إيلين» والتفتت وراءها صارخة: ماذا تريدين يا سيدتى؟ قالت: لا تخافى يا بنيتى ولا تراعى، فما أنا بمجنونة كما ظننت وكما يظن سكان هذه الدار، ولكننى رأيتك مستغرقة فى هذا الكتاب لا ترفعين نظرك عنه فجئت لأقول لك: دعى الكتب وشأنها لا تحفلى بها، ولا تعولى على شىء فيها، فإن أصحابها الذين وضعوها غرباء عن هذا العالم لا يفهمون من شؤونه شيئًا إلا كما نفهم نحن من شؤون عالم الجن أو سكان المريخ، بل هم قوم معتوهون ممرورون، قضوا أيام حياتهم فى معتزلاتهم الخاصة المظلمة التى لا توجد فيها نافذة واحدة تشرف على العالم وما فيه، فملوا وسئموا، وأرادوا أن يروحوا عن أنفسهم وتلهوا بما يسرى عنهم مللهم وسآمتهم، فأخذوا يدونون هذه المبادئ التى انتزعوها من جوانب أدمغتهم، لا من طبيعة المجتمع الذى يحيط بهم، ويقرون الآراء التى يستحسنونها ويعجبون بها، لا التى تتفق مع طبيعة الكون وخصائصه فهم ينصحون المجرم أن يقلع عن إجرامه، ثم يخيل إليهم إنه قد أفلح ونزع، فيطلبون إلى من أجرم إليه أن يعفو عنه، قائلين له: «إن العفو أشد أنواع الانتقام» كأن الفضيلة عندهم هى الحالة الأساسية للنفوس، وكأن الإجرام عرض من أعراضها الطارئة عليها لا يلبث أن تهب عليه نسمة من نسمات العظة والاعتبار حتى تذهب به، فما أسخف عقولهم، وما أقصر أنظارهم، وما أبعدهم عن فهم حقائق الحياة، وطبائع النفوس، دعى الكتب يا بنيتى لا تنظرى فيها، وانزعى عنك همومك وأحزانك وكلى الطعام الذى يقدم إليك هانئة مغتبطة لا تلوين على شىء مما وراءك. فسيأتى قريبًا أو بعيدًا ذلك اليوم الذى يفتح لك فيه هذا الباب الموصد دونك فتخرجين إلى الانتقام من الرجل

الذى أساء إليك وساقك إلى هذا المكان وتنالين منه فوق ما نال منك، كما سأفعل أنا يوم خروجى بالرجل الذى ساءنى وأفسد علىّ حياتى؛ فليس العفو أشد أنواع الانتقام -كما يقولون- بل الانتقام أعظم ملاذ الحياة.

فهدأت نفس إيلين قليلاً، واستطاعت أن تتناول شيئًا من الطعام الذى قدم إليها، إلا أنها كانت إذا جاء الليل رأت أباها فى منامها يقاسى أنواع العذاب وصنوف الآلام فى سجنه؛ فتصبح باكية نادبة لا يهون عليها آلامها بعض التهوين إلا ثرثرة تلك العجوز وهذيانها، حتى نامت ليلة فرأته ميتًا على سرير من أسرة مستشفى السجن تحيط بجثته شمعتان مضيئتان، فاستيقظت فزعة مذعورة تبكى وتنتحب، وما هى إلا هنيهة حتى دخل عليها السجان يدعوها لمقابلة مدير السجن فذهبت إليه فأبلغها أن أباها توفى الليلة فى المستشفى فصعقت صعقة كادت تذهب بنفسها، ثم استفاقت فإذا هى فى غرفة سجنها، وإذا هى أشد عباد الله بؤسًا، وأعظمهم شقاء.

-٣-

قضت «إيلين» سنواتها الخمس فى سجنها ثم خرجت فمشت معها رفيقتها العجوز تشيعها إلى الباب وتقول لها: لا تنسى يا بنيتى أن تنتقمى من عدوك الذى أساء إليك، وتنكلى به تنكيلاً عظيمًا، وسأتبعك على الأثر عما قريب لأنتقم من عدوى مثلك. وهل لمثلى ومثلك فى هذه الحياة الشقية البائسة عزاء غير عزء الانتقام.

فودعتها وانصرفت، لا تعلم أين تذهب، ولا أى طريق تسلك بل لا تعلم أين تجد قوت يومها، أو المضجع الذى تأوى إليه سواد ليلتها، فقد انقطعت صلتها بالعالم كله بعد موت أبويها وطبع على جبينها اسم «المجرمة» الذى خرجت به من سجنها.

ولم تزل سائر عدة ساعات حتى شعرت بالتعب والنصب وأحست بالجوع يعبث بأحشائها، فحدثتها نفسها بالانتحار فراراً من الألم، وزهداً فى الحياة، وظلت تترجح ساعة بين الأنس بهذا الخاطر؛ والنفور منه حتى غلبها على أمرها فأخذت طريقها إلى النهر؛ وكانت الليلة داجية مكفهرة تلمع

بروقها؛ وتهطل غيومها؛ وتدمدم رعودها؛ وتعصف رياحها. فاستمرت أدراجها حتى إذا لم يبق بينها وبين النهر إلا بضع خطوات سمعت قعقعة مركبة مقبلة نحوها من بعد يمزق نور مصباحيها المشتعلتين أحشاء الظلمات فتريثت هنيهة فى مكانها حتى مرت المركبة بها فإذا المسيو «لورين» جالسًا بين بضع فتيات خليعات يعابثهن ويداعبهن، ويقهقه قهقهة عالية ترن فى أجواز الفضاء، فاختبأت وراء بعض الأشجار حتى مر ثم برزت من مخبئها تحدث نفسها وتقول ها هو ذا المجرم سعيد فى حياته، مغتبط بحظه، يتقلب فى أعطاف العيش الناعم لا ينغص عليه عيشه منغص ولا يكدر حياته مكدر، وهأنذا البريئة الطاهرة التى لم ألوث يدى فى حياتى بجريمة، ولم أقترف بينى وبين ضميرى إثمًا أهيم فى هذا الوادى الفسيح على وجهى، لا أعرف لى ملجأ، ولا مأوى، ولا أعرف سبيلاً للعيش ولا مذهبًا، ولو عرفت لما استطعت أن أنتفع بمعرفتى، لأننى عند الناس مجرمة قاتلة، ومن ذا الذى يأمن على نفسه أن يتصل بالقتلة المجرمين، أو يعطف على بأسائهم وضرائهم!

لا.. لا؛ لابد أن أعيش، ولابد أن أنتقم، وما دامت الشرائع الإلهية والقوانين الوضعية قد عجزت عن أن تنتصف للناس من الناس فلينتصف الناس بأنفسهم لأنفسهم.

وانحدرت من طريق النهر إلى طريق المدينة، وقد ودعت فى تلك اللحظة جميع خواطر الخير التى ملأت فضاء نفسها طول حياتها، وخلعت ذلك الثوب الجميل المتلألئ الذى لبسته مذ برزت إلى الوجود حتى اليوم - ثوب الشرف والكرامة والطهارة والأدب- واستحالت نفسها الطاهرة الكريمة إلى نفس أخرى غيرها لا صلة لها بها، فلم ينحدر برقع الظلام عن وجه الصباح حتى رآها الناس سائرة مع أحد العمال المريبين هادئة ساكنة، باسمة متطلقة لم يبق فى وجهها من دم الحياء إلا بضع قطرات قد أخذ لونها يستحيل شيئًا فشيئًا إلى لون البياض لتلحق بأخواتها.

-٤-

وكذلك هوت تلك الفتاة المسكينة البائسة فى تلك الهوة التى حفرها

المجتمع الإنسانى لأمثالها من الفتيات البائسات، فظلت تنتقل من يد إلى يد، ومن مضجع إلى مضجع، وكأن الحظ الذى فارقها وتجهم لها فى حياة الطهارة والعفة، أقبل عليها بوجهه الباسم المتهلل فى حياة السقوط والفساد، فما هى إلا أيام قلائل حتى طلعت فى سماء باريس نجمًا ساطعًا متلألئًا تنير كل أفق تشرق فيه، وتعطر كل أرض تخطر بأرجائها، وتعبث بألباب الرجال عبث النسائم بأوراق الأشجار.

فإنها لجالسة ذات ليلة فى مقصورة من مقاصير بعض الملاعب التمثيلية فى جمع من أصدقائها المفتتنين بها إذ وقع نظرها على خصمها المسيو «لورين» جالسًا فى المقصورة المقابلة لها مع إحدى خليلاته، فانتفضت حين رأته، وثارت فى نفسها ثائرة الغيظ والحنق، وظلت تردد النظر فى وجهه طويلاً، فلمحها وهى تنظر إليه، فأعجبه منظرها البارع الجميل إلا أنه لم يعرفها، فقد تغير كل شىء فيها حتى ملامحها وشمائلها، فما انتهى الفصل الأول من الرواية حتى نهض من مكانه مسرعًا وذهب يرود حول مقصورتها حتى التقى بأحد أصدقائه فى دهليز المقاصير فسأله عنها، فأخبره أنها السيدة «لوسى» المارسيلية الحسناء أجمل فتاة وفدت إلى باريس فى هذا العام؛ فتوسل إليه أن يقدمه إليها ففعل؛ فأحسنت ملتقاه وقد أضمرت له فى نفسها شر ما يضمر عدو لعدوه وأقبلت عليه تحدثه، وتتلطف به؛ وتمد له الحبالة التى اعتادت أن تمدها كل يوم لأمثاله، فما لبثت أن وقعت من نفسه، وملكت عليه جميع مشاعره، ثم رفع الستار فاستأذنها وعاد إلى مقصورته، وقد حلت من قلبه محلاً لم يحله أحد قبلها.

وفى صباح اليوم الثانى أرسل إليها مع بعض رسله طاقة جميلة من الزهر قد دس بين أوراقها عقدًا بديعًا من اللؤلؤ الثمين، فابتهجت به حين رأته، لا لأنها فى حاجة إلى العقود والدمالج بل لأنها علمت أنها قد وضعت يدها على الزمام الذى تقوده به إلى الهلاك، ثم زارها على الأثر وخر جاثيًا تحت قدميها مقدمًا لها قلبه وحياته، وكل ما تملك يده أى أنه جثا تحت قدمى تلك الفتاة البائسة المسكينة التى جثت تحت قدميه منذ سنوات تسأله أن

يساعدها على فكاك أبيها من سجنه، وتضرع إليه أن يغفر له ذنبه إليه، إن كان يعتقد أنه مذنب، فلم يفعل؛ ولو أنه فعل لابتاع بثمن قليل لا يوازى ربع ثمن العقد الذى قدمه الآن إليها قلبًا طاهرًا نقيًا، لم تلوثه الذنوب والآثام، ولم تعبث به الأهواء والشهوات وعاش عيشًا طاهرًا شريفًا مع خير الزوجات، وأفضلهن خلقًا وخلقًا ولكن هكذا قدر لهؤلاء المساكين الضعفاء أن يضنوا بالنزر اليسير من أموالهم على ابتياع القلوب الشريفة الطاهرة، حتى إذا لوثتها الذنوب والآثام، وأصبحت نهبًا مقسمًا فى أيدى الشهوات بذلوا فى سبيل الوصول إليها جميع ما تملك أيديهم حتى شرفهم وحياتهم، فقد ابتاع المسيو «لورين» لخليلته الجديدة قصرًا جميلاً أثثه أثاثًا حسنًا، ونزل على حكمها فى كل ما تريد وتشتهى، حتى أنفق عليها فى عام واحد كل ما تملك يمينه، ثم اضطر أن يعبث بودائع الناس المودعة فى مصرفه، فمشى فى ذلك المزلق المنحدر مدى بعيدًا أشرف منه على الخطر العظيم.

ثم حدث بعد ذلك أن فتحت سوق للإحسان فى باريس وكانت «لوسى» إحدى النساء اللواتى وقع عليهن الاختيار لبيع الأزهار فيها وكان تجار تلك السوق أجمل نساء باريس على الإطلاق، فجلست فى حانوتها المعد لها، وقد أمسكت بيدها زهرة تعرضها للبيع، وتعد من يبتاعها منها أن يتناولها بفمه من فمها. فازدحم حولها كثير من الأغنياء يتزايدون فى ثمن تلك الزهرة، حتى برز رجل من بينهم اسمه الكونت «مارسيال» فعرض فيها خمسمائة فرنك، فقالت لا أبيعها إلا بألف فرنك فأمسك الكونت، وأمسك الناس جميعًا وأنهم لكذلك إذا بالمسيو «لورين» يتقدم بهدوء وسكون وفى يده ورقة بألف فرنك فوضعها بين يدى لوسى وقال لها: لا يبتاع منك زهرتك يا سيدتى أحد سواى، فوضعتها بين ثناياها، فتناولها منها بفمه بأسلوب رقيق حسده عليه مزاحموه جميعًا وخاصة الكونت مارسيال، فقد انصرف من موقفه هذا وهو يقول: ما رأيت فى حياتى صاحب مصرف يذهب فى حياته هذا المذهب من البذخ والإسراف ويبعثر المال بلا حيطة ولا حذر كهذا الرجل وما أحسب أن ثروته الخاصة تتسع لكل هذا، فلابد أن يكون لصًا دنيئًا يسرق ودائع الناس ويبددها، فويل للمساهمين فى مصرفه ورحمة الله على أموالهم

جميعًا وكان يتكلم بصوت عال يسمعه الناس جميعهم، وليس بين الأحاديث أسير ولا أذيع من حديث السوء، فمشت كلماته فى المجتمعات العامة والخاصة، فاضطرب لها المساهمون وأصحاب الودائع اضطرابًا عظيمًا، ووصل الخبر إلى أعضاء مجلس إدارة المصرف فهالهم الأمر وأشفقوا على سمعة مصرفهم أن تنال منها هذه الأراجيف، فيسقط سقطة لا قيام له من بعدها، فقرروا الاجتماع فى يوم معين لمراجعة حسابه، وتفقد أمواله فلما علم ذلك المسيو «لورين» أخذ يزور فى الصكوك، ويعبث بدفاتر الحساب، طلبًا للخلاص من التبعة، فلم يجده ذلك شيئًا، فقد فهم مجلس الإدارة كل شىء، فلم يرد بدًا من أن يرفع الأمر إلى القضاء ففعل، والمسيو مستغرق فى شهواته ولذاته، جاث ليله ونهاره تحت قدمى خليلته، لا يشعر بشىء مما يجرى حوله، لولا أن أحد أصدقائه من المحامين وقف على الخبر فزاره فى منزله ليخبره به فلم يجده، فذهب إلى منزل «لوسى» فوجده، فأخبره أن الأمر قد صدر بالقبض عليه وأنه إن لم يبادر بالسفر فى الحال فقد هلك إلى الأبد، فأشار إلى «لوسى» أن تعد له حقيبة ملابسه وأن تهيئ نفسها للسفر معه، وهو أعظم الناس ثقة بها، وبحبها وإخلاصها فتظاهرت بالإذعان لأمره، والرثاء له، ولكنها لم تلبث أن خرجت من الغرفة حتى هرعت إلى غرفة «التليفون» وبلغت رئيس الشرطة خبر عزمه على الهرب، وأشارت عليه بإرسال من يقبض عليه فى الحال ثم أمرت الخدم بإغلاق الأبواب، والوقوف فى وجهه إن أراد الفرار ثم عادت إليه، فسألها: هل أعددت كل شىء؟ فنظرت إليه نظرة غريبة لم يفهم معناها، ثم انفرجت ضاحكة بصوت عال، فدهش وسألها: ما بالها؟ قالت: لا شىء سوى أنك ستبقى سجينًا هنا حتى يأتى رئيس الشرطة للقبض عليك، ثم ألقت عليه نظرة مخيفة هائلة، فعجب لأمرها ولم يعلم أمازحة هى، أم نزل بها عارض من عوارض الجنون؟ ووثب من مكانه مسرعًا ودنا منها وقال لها: ماذا عرض لك يا لوسى، فقد طلبت إليك أن تهيئى نفسك للسفر معى فهل فعلت؟ فقد دنت الساعة، ولسنا الآن فى موقف مزاح، وأخاف أن تفاجئنا الشرطة الساعة فتفوت الفرصة، فضحكت ضحكة أخرى، وقالت: قد بلغت رئيس الشرطة أنك عازم على

السفر وأشرت عليه أن يبادر بإرسال الجنود ليقبضوا عليك، وأمرت الخدم بإغلاق الأبواب حتى لا تتمكن من الهرب قبل حضورهم، فجن جنونه، وقد بدأ الريب يدب فى نفسه، وإن لم يفهم لما يرى سببًا، فركض إلى الباب ليتحقق الأمر بنفسه، فوجده مغلقًا، فأمرها أن تفتحه فأبت، فهجم عليها هجمة شديدة وهو يصيح: أين المفتاح أيتها العاهرة؟ فقالت: أتريد أن تقتلنى كما قتلت أبى بالأمس؟ فلم يفهم معنى كلمتها؛ ووقف فى مكانه ذاهلاً يقول لها: لم أفهم من أمرك شيئًا، ماذا تريدين؟ وما هو رأيك؟ قالت: هو المسيو «كابرينى» -وكيل مصرفك بالأمس- الذى اتهمته ظلمًا وعدوانًا بالسرقة وأنت تعلم أنه رجل شريف مستقيم لو علم أن شرب الماء يفسد مروءته ما شربه فكانت نهاية أمره أن مات فى سجنه ميتة الأشقياء البؤساء، لا يعوده من أهله عائد، ولا يحتضنه إلى صدره فى ساعة نزعه محتضن؛ ولا يوجد بجانب مضجعه من يسمع منه وصيته الأخيرة.

فاصفر وجه لورين، وظل جسمه يرتعد ارتعادًا شديدًا وأخذ يحدق النظر فى وجهها، ويتراجع شيئًا فشيئًا، ويقول بصوت مضطرب متقطع إذن أنت لست... فقاطعته وقال: نعم لست حبيبتك «لوسى» كما تعتقد، بل عدوتك «إيلين» التى تريد أن تنتقم منك لفجيعتها فى أبيها وفى نفسها؛ أنا إيلين التى جئت تحت قدميك منذ سبعة أعوام تسألك أن ترحم أباها وترحمها فأبيت إلا أن تساومها فى عرضها، فلما ضنت به عليك أردت النكاية بها فاتهمتها بتهمة القتل كذبًا وافتراء كما صنعت بأبيها من قبلها، فصدق القضاة الأغبياء دعواك، فحكموا عليها بالسجن خمس سنوات، كابدت فيها من صنوف العذاب وأنواع الآلام ما لا يستطيع أن يحتمله بشر؛ ثم خرجت من سجنها مصفرة اليد من كل شىء من بيتها وأهلها وكرامتها وشرفها، وكل ما تملك يدها من القوت الذى تقيم به صلبها بياض يومها وسواد ليلتها، وكان لابد لها من المغامرة بنفسها فى إحدى الهوتين، إما هوة الموت لترتاح من هموم الحياة وآلامها أو هوة الفساد لتنتقم لنفسها من عدوها الذى نكبها، وأفسد عليها حياتها فآثرت الانتقام على الموت، لأن نفسها الطاهرة الطيبة قد استحالت إلى نفس شريرة حاقدة لا تريد أن تسمح لعدوها أن يبنى سعادته

على انقاض شقائها، وأن يفلت من العقوبة التى هى النتيجة الطبيعية للذنوب والآثام وها هى ذى قد انتقمت لنفسها، ورَوحت عنها همومها وآلامها.

فنكس رأسه مليًا ثم رفعه وقال: إذن ما أحببتنى قط يا لوسى؟ قالت نعم بل ما اتصلت بك إلا لأسوقك إلى هذا المصير الذى صرت إليه اليوم، أنت الآن متألم جدًا. بل لا يوجد فى العالم كله ألم مثل الألم الذى يعتلج فى أعماق نفسك، لأنك فقدت فى يوم واحد شرفك وكرامتك، ومالك وحريتك؛ وموضع حبك ووجهة آمالك فى حياتك، وهذا ما كنت أريده وأرجوه، وهذه هى الساعة الوحيدة التى شعرت بلذة العيش وهنائه من بين ساعات حياتى.

فنظر إليها نظرة منكسرة دامعة وقال لها: ما كنت لأحفل بخسران شىء فى الحياة لو أننى ربحتك يا لوسى، أما وقد أصبحت يدى صفرًا منك فلا خير فى العيش من بعدك، ثم تهافت على مقعد بجانبه وانفجر باكيًا ما تهدأ دموعه ولا يفتر نشيجه، حتى حضر الجند فاعتقلوه، وساقوه إلى سجنه وهو صامت واجم لا يرفع طرفه، ولا يلتفت وراءه، وإيلين تشيعه بنظرات السرور والاغتباط حتى انقطع أثره.

-٥-

نعم إن الانتقام لذيذ جدًا كما يقولون، ولكنها اللذة التى يعقبها الندم والأسف وتأتى على أثرها الحسرات والآلام، وما استطاع منتقم قط أن يزن عمله بميزان العدل والحكمة فتهدأ نفسه ويستريح ضميره بعد فراغه من انتقامه كما تهدأ نفس القاضى العادل بعد صدور حكمه بالعقوبة التى يراها، والفرق بينهما أن القاضى يصدر فى رأيه عن نفس هادئة مطمئنة قادرة على الروية والأناة والمقارنة والمقابلة والوزن والتقدير، والمنتقم يصدر فى عمله عن روح هائجة محتدمة لا هم لها إلا أن تلتهم وتستأصل، وتأتى على كل ما تستطيع الإتيان عليه، فهو يقضى قضاءه لا ليعاقب المجرم على جريمته، ولا ليدفع عن المجتمع شروره وآثامه، بل ليجرح نفسه ويؤلمها، وينال منها أقصى ما يرى أنه كاف لشفاء حقده، وإطفاء غلته، فيجازى على الشتم بالضرب، وعلى الضرب بالقتل، وعلى القتل بالتشويه والتمثيل ولا يأبى أن يأخذ

البرىء بذنب المجرم؛ والجار بذنب الجار، فالانتقام جريمة كيفما كان الباعث عليه والدافع عليه، وكل جريمة تترك فى نفس صاحبها نصيبًا من الألم والحسرة بمقدارها، ما من ذلك بد، ولقد صدق الذى يقول: إن العفو مرارة ساعة النعيم إلى الأبد وأن الانتقام لذة ساعة، ثم الشقاء الدائم الذى لا يفنى.

عادت إيلين إلى غرفتها بعد ذهاب «لورين» وكان الليل قد أظلها فجلست تراجع فهرس حياتها الماضية؛ وتقلب صفحاتها صفحة صفحة، فشعرت بدبيب السآمة والملل فى نفسها، وخيل إليها أنها ستعيش بعد اليوم عيشة تافهة مملولة لا طعم لها، ولا لذة فيها، ورأت كأن سحابة سوداء من شقاء الحياة وبؤسها تدنو منها شيئًا فشيئًا، وأخذت تسائل نفسها هل أصابت فيما فعلت أم أخطأت؟ وهل سعدت بالانتقام أم شقيت؟ وهل كان خير لها أن تلقى بنفسها فى عباب الماء عندما فكرت فى ذلك يوم خروجها من سجنها؟ أم تعيش لتضحى بعرضها وكرامتها فى سبيل انتقامها؟ وهل خرجت من المعركة التى خاضتها ظافرة تمام الظفر، أم نالها من الخسران فيها ما يذهب ببهاء ذلك الانتصار الذى انتصرته؟

ولم تزل تسائل نفسها هذه الأسئلة فلا تسمع جوابًا يرضيها، حتى مضى الليل إلا أقله، فحاولت أن تأوى إلى مضجعها فلم تستطع؛ وأن تسرى عن نفسها بعض همومها فأعجزها ما أرادت؛ فلم تنقض دولة الظلام حتى كانت قد حكمت بنفسها على نفسها أنها مجرمة آثمة وأنها لم تستفد من كل ما عملت سوى أنها باعت عرضها بأبخس الأثمان وأدناها، وأنها لم تسىء إلى الرجل الذى أرادت منه بقدر ما أساءت إلى نفسها؛ فقررت الالتحاق بأحد المستشفيات الخيرية لتكفر عن ذنبها بخدمة المرضى ومواساتهم طول حياتها، حتى يوافيها أجلها.

-٦-

دخلت المستشفى، وأخلصت إلى الله فى عملها، فسهرت على المرضى، وأحسنت مواساتهم وبذلت فى ذلك من الجهد ما يعجز غيرها عنه؛ حتى أصبحت مضرب المثل فى صلاحها وتقواها، ورحمتها، وإحسانها.

وكانت المحكمة قد حكمت على المسيو «لورين» بالسجن عامين، فلقى فى سجنه من المتاعب والآلام ما لا طاقة لمثله باحتماله فسقط مريضًا لا يحفل به أحد ولا يواسيه مواس، حتى اشتد به المرض وأشرف على الهلاك فنقلوه إلى المستشفى التى كانت تعمل فيها «إيلين» فعرفته حين رأته رغم تغير صورته، واستحالة حالته، فلم تستطع أن تملك عينيها من البكاء، وأخذت نفسها بتمريضه والعناية به وظلت على ذلك عدة أيام وهو ذاهل مستغرق لا يشعر بشىء مما حوله، حتى استفاق فى ليلة من الليالى فرآها واقفة بجانب سريره تمد إليه يدها بالدواء، فظل يحدق النظر فى وجهها طويلاً حتى عرفها فتناهض من مكانه وأكب على يدها يقبلها؛ ويسألها العفو عن ذنبه إليها، فازداد نشيجها وبكاؤها، وقالت له: إننى أنا التى أسأت إليك، وأنا التى أطلب منك العفو والصفح، وكأن حياتها الجديدة التى انتقلت إليها قد أنستها حياتها الأولى وأكاذيبها وأباطيلها، فلم يبق فى قلبها أثر للبغض والموجدة، وأصبحت سريرتها بيضاء نقية لا تجول فيها غير خواطر الخير والإحسان، ولا تنطوى إلا على حب الإنسانية وحب الله.

وهكذا ظلت تعالج هذا المسكين بإخلاص لا تضمر مثله الأم لواحدها، وتقوم على خدمته ليلها ونهارها وما تهدأ ولا تفتر، ولكن الداء كان قد تمكن منه فلم يغن عنه العلاج شيئًا، وما هى إلا أيام قلائل حتى حضره الموت فجلست بجانبه تعزيه وتواسيه؛ وتلقى فى روعه أن الله غفر له جميع سيئاته فى حياته بما كابد فيها من العلل والأسقام، والهموم والآلام؛ وأن جوار الله فى دار جزائه خير له من جواهر هذه الحياة الباطلة الفانية؛ حتى أسلم روحه بين ذراعيها.

وفى صباح اليوم الثانى رآها الناس سائرة بهدوء وسكون فى طريق الدير؛ وقد لبست مسوحها وسوادها وعلقت صليبها على صدرها حتى بلغته؛ ففتح بين يديها بابه العظيم الذى لا يخرج منه داخله إلى الأبد؛ فدخلته وكان هذا آخر عهدها بالعالم وما فيه.

الخطبة الصامتة

لما بلغ أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير نعى أخيه مصعب بن الزبير أمير العراق صعد المنبر فجلس عليه، ثم سكت، فجعل لونه يحمر مرة، ويصفر أخرى، فقال رجل من قريش لآخر بجانبه: ما له لا يتكلم، فوالله إنه للخطيب اللبيب! فقال له الرجل: لعله يريد أن يذكر مقتل سيد العرب فيشتد ذلك عليه، وهو غير ملوم إن جزع.

ووقف ليلة أمس سعد باشا زغلول فى حفلة تأبين أخيه فتحى باشا زغلول وأراد أن يقول كلمة قصيرة يشكر فيها القائمين بتلك الحفلة، فاختنق صوته بالبكاء وارتج عليه، وهو الرجل الجلد الصبور الذى ما جزع فى حياته قط، والخطيب المفوه الذى ما ارتج عليه مرة فى أصعب المواقف وأحرجها، وأذهبها بالعقول والألباب فما أشبه هذا البطل الباكى، بذلك البطل الجازع.

وكذلك عظماء الرجال يضنون بدموعهم على نكبات الدهر وأرزائه أنفة وإباء، حتى إذا نزلت بهم كارثة من الكوارث التى لا أمر فيها إلا لله وحده لا يستحيون أن يقفوا بين يديه باذلين من شؤونهم ما كانوا يضنون به من قبل.

على أن البكاء الذى حال بين سعد باشا وبين كلمته التى أرادها لم يحل بينه وبين أن يكون أفصح القائلين فى ذلك الموقف وأنطقهم، فقد خطب الخطباء وأنشد الشعراء من قبله ساعتين كاملتين، فكان كل ما كان لكلماتهم من الأثر فى النفوس أن كان السامعون يتهامسون فيما بينهم بالإعجاب بفصاحة الفصيح، أو نباهة المؤرخ، أو بلاغة الشاعر، أو إبداع المبدع فى معانيه، أو إحسان المحسن فى إلقائه، حتى وقف هو وأرسل من جفنيه تلك الدمعة الحارة فبكى الناس جميعًا لبكائه كبارًا وصغارًا؛ شيوخًا وشبانًا، وكان مشهدًا مؤثرًا لم نر مثله فى حفلة تأبين قبل اليوم، فكان لتلك الخطبة القصيرة

الصامتة المتفجرة من قلب مصدوع مكلوم الأثر فى النفوس ما لم يكن لتلك الخطب الناطقة الطوال.

ليس الذى يبكى صديقًا كان يأنس بحديثه، أو عالـمًا كان ينتفع بعلمه، أو كريمًا كان يستظل بظلال مروءته وكرمه، كمثل الذى يبكى شظية قد طارت من شظايا قلبه.

اللفظ والمعنى

لم أر فيما رأيت من الآراء فى قديم الأدب وحديثه أغرب من رأى أولئك الذين يفرقون فى أحكامهم بين اللفظ والمعنى، ويصفون كلاً منهما بصفة تختلف عن صفة الآخر. فيقولون: ما أجمل أسلوب هذه القصيدة لولا أن معانيها ساقطة مرذولة! أو ما أبدع هذه القطعة لولا أن أسلوبها قبيح مضطرب! كأنما يخيل إليهم أن اللفظ وعاء، وأن المعنى سائل من السوائل يملأ ذلك الوعاء، فتارة يكون خمرًا، وتارة يكون خلاً؛ ويكون حينًا صافيًا وأخرى كدرًا، والوعاء باق على صورته لا يتغير، وما علموا أنهما متحدان ممتزجان امتزاج الشمس بشعاعها، والخمر بنشوتها؛ فكما لا يجوز أن نقول: ما أجمل الشمس وأقبح شعاعها، ولا ما أعذب الخمرة وأمر نشوتها كذلك لا يجوز أن نصف اللفظ بالجمال، والمعنى بالقبح أو نعكس ذلك، فليعلم الناشئ المتأدب أنه ليس للفظ كيان مستقل، ولا حيز خاص، فجماله جمال معناه، وقبحه قبحه، وأن القطع الأدبية الشعرية أو النثرية التى نصف أسلوبها بالجمال إنما نصف بذلك معانيها وأغراضها، وأن الذين يزعمون من الشعراء أو الكتاب أن أساليبهم الغامضة الركيكة المضطربة تشتمل على معان شريفة عالية كاذبون فى زعمهم أو واهمون.

لا يضطرب اللفظ إلا لأن معناه مضطرب فى نفس صاحبه، ولا يغمض إلا لأن معناه غامض فى نفسه، ومحال أن يعجز الفاهم عن الإفهام؛

ولا المتأثر عن التأثير، ولا المقتنع عن الإقناع، وما البيان إلا المرآة التى ترتسم فيها صورة النفس، فحيث تكون جميلة فهو جميل، أو قبيحة فهو قبيح، أو مضيئة فهو مضىء، أو مظلمة فهو مظلم، فإذا استطعنا أن نتصور مرآة تكذب فى تمثيل الصورة الماثلة أمامها، استطعنا أن نتصور بيانًا يختلف فى وصفه عن وصف نفس صاحبه.

يقول القائلون بمذهب التفريق بين اللفظ والمعنى عن مثل هذه القطعة:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا ولم يعلم الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

إنها جميلة الأسلوب، ولكنها تافهة المعنى لا تشتمل على أكثر من الوصف والتصوير، كأنهم لا يعلمون أن التصوير نفسه أجمل المعانى وأبدعها، بل هو رأس المعانى وسيدها، والغاية الأخيرة منها، وقد رسم الشاعر فى كلمته هذه صورة واضحة ناطقة للحجيج فى حلهم ومرتحلهم يسمعها السامع بأذنيه وكأنه يراها بعينيه، فقد أتى بأجمل المعانى فى أجمل الأساليب.

وإن وصفًا قصيرًا لحركة صغيرة من حركات النفس كقول الشريف:

وتلفتت عينى فمذ خفيت عنى الطلول تلفت القلب

لخير ألف مرة من قصيدة طويلة مملوءة بالمعانى الغريبة، والخواطر المبتكرة لا تمثيل الحقيقة، ولا تلتئم مع النفس ومزاجها، كقصيدة المتنبى التى مطلعها:

أيطمع فى الخيمة العذل

ويقولون أيضًا عن هذا البيت:

أنى يكون أبا البرية آدم وأبوك والثقلان أنت محمد

إنه قبيح اللفظ ولكنه جميل المعنى، وهم واهمون فيما يقولون، فإن

ذلك المعنى الجميل الذى يتوهمـونه ليس معنى هذا البيت بل المعنى خطر على أذهانهم وانبعث فى أفئـدتهم عند سماعه، فألصقوه به إلـصاقًا، وتوهموه له توهمًا، أما الـبيت نفسه فلا مـعنى له مطلقًا، وهذا شأن جمـيع المعانى التى يتوهمها متوهموها عند سماع بيت مـستغلق، أو كلمة غامضة فهى بأن تكون معانى السامعين، أولى من أن تكون معانى القائلين.

إذا سمعت بيتًا من الشعر فأطربك، أو أحزنك، أو أقنعك، أو أرضاك، أو هاجك وأنت ثائر، أو ترك أى أثر من الآثار فى نفسك، كمـا تترك النغمة الموسيقية أثرها فى نفس سامـعها، فاعلم أنه من بيوت المعانى، وأن هذا الذى تركـه فى نفـسك من الأثر إنما هو روحـه ومـعناه، وإن مـررت ببـيت آخـر فاسـتغلق عليك فهـمه، وثقل عليك ظله، وشعـرت بجمود نفسك أمـامه، وخيل إليك أنك بين يدى جـثة هامدة لا روح فيها، فـاعلم أنه لا معنى له، ولا حياة فـيه، فإن وجدت صاحـبه واقفًا بجانبـه يحاول أن يوسوس لك أن وراءه هذه الظلمة الحـالكة المتكاثفة نوراً مـتوهجًا يكمن فى طيـاتها، فكذبه، وفر بنفسك وأدبك وذوقك منه فراراً لا عودة لك من بعده.

هذا هو الميـزان الذى يجب أن تـزن به الكلام، ونصيـحـتى إليك ألا تصدق تـعريفًا واحـداً من تلك التـعريفـات المتعددة المـتناقضـة التى يضعـها واضعوها من الأدباء لأشعارهم خاصة، ويزعـمون أنها للشعر عامة، واجعل شعـور نفسك هو الميـزان الذى تزن به ما تسمع، فكمـا أنك لا تعتـمد على تعريف من تعريفات الجمال، ولا تلجأ إلى قانون من قوانينه عند وقوع نظرك على وجه امرأة لمعرفة درجتها من الحسن، وكـذلك لا تعتمد فى استحسان ما تستـحسن من الكلام، واستهـجان ما تسـتهجن منه، إلا على شعـور نفسك وإلهام حسك.

★

الشعر نغمة موسيـقية قبل كل شىء. ثم يأتى بعد ذلك جمال الوصف وحسن التصوير، وتمثيل الحقيقة، واكتناه أسرار الكون، وتحليل مشاعر النفس وأمثـال ذلك من الأغراض والمقاصـد، على أن تكون تلك النغمـة الموسيقـية

أساسها والروح السارية فيها، ليتحقق الفرق بين الشعر والفلسفة، فالفلسفة غذاء العقل برزانتها وهدوئها، وحججها وبراهينها، والشعر غذاء النفس برنانه ونغماته، وأهازيجه ونبراته.

نظم الشعراء الشعر من عهد الجاهلية الأولى الى اليوم فمات جميع ما نظموا ولم يبق منه إلا البيت الموسيقى الرنان الذى لو لم يغنه مغنيه لغنى وحده، وسيموت شعر جميع الشعراء فى هذا العصر ولا يبقى منه فى المستقبل إلا كما بقى من الماضى فى الحاضر.

الآداب العامة

يتحدث كثير من الناس عن فئة من الشبان المصريين المتعلمين قد ظهروا فى هذه الأيام واتخذوا لأنفسهم فى حياتهم العامة طريقًا غير الطريق اللائقة بهم وبكرامتهم وبمنزلة العلم الذى يزاولونه، فأصبحوا متبذلين فى شهواتهم مستهترين فى ميولهم وأهوائهم، ينتهكون حرمات الأعراض ما شاءوا وشاءت لهم نزعاتهم، ويعبثون بها فى كل مكان عبث الفاتك الجرىء الذى لا يخاف مغبة ولا يخشى عاراً وأهول ما يتحدثون به عنهم فى هذا الشأن أنهم يغرون الطالبات الصغيرات اللواتى لا يزلن يختلفن إلى مدارسهن، أو اللواتى انقطعن عنها منذ عهد قريب إلى منازلهن، وينصبون لهن صنوف الحبائل وأنواع الأشراك لاصطيادهن وإسقاطهن فى هوة الإثم والعار، وهذا ما أريد أن أتكلم عنه قليلاً!؟

أصحيح ما يقولون عنكم أيها الفتيان التعسون أنكم تتخذون صلة العلم التى هى أشرف الصلات وأكرمها صلة فساد بينكم وبين أولئك الفتيات الضعيفات وأن الحبالة التى تنصبونها لهن لاصطيادهن إنما هى، حبالة القلم الذى هو أفضل أداة للخير، وأعظم وسيلة للفضيلة، وخير واسطة للأدب والكمال؟

أصحيح ما يقولون عنكم أنكم تكتبون إليهن ليكتبن إليكم، وتهدون إليهن صوركم ليهدين إليكم مثلها، فإذا امتلأت حقائبكم وجيوبكم بصورهن ورسائلهن أخذتم تنشرونها فى كل مكان، وتعرضونها فى كل معرض، وأخذ بعضكم يفاخر بكثرة ما يملك منها أو بجماله ورونقه، كما يفخر المرء بأفضل المزايا وأشرف الخصال؟

أصحيح أنكم تقفون لهن بكل طريق، وتأخذون عليهن كل سبيل، وتضايقونهن فى مغداهن ومراحهن، وحيث ذهبن إلى عمل، أو خرجن لزيارة، أو برزن فى مجتمع، فإذا عجزتم عنهن فى الطريق أرسلتم وراءهن الرسل فى منازلهن يخادعنهن ويخاتلنهن، وربما توسلتم إليهن بأخواتكم وبنات أعمامكم ليسفرن بينكم وبينهن ويداخلنهن مداخلة الأصدقاء التى يجتذبنهن إلى منازلكم؟

أصحيح أنكم تقضون أكثر لياليكم مكبين على كتابة رسائل الغرام وأكثر أيامكم حائمين حول المنازل تنتظرون خدمها الذين اصطنعتموهم ليحملوا رسائلكم إلى ساكنيها، وربما جلستم على أبوابها بجانب البوابين والحوذيين ترقبون نوافذها وكواها علها تنفرج لكم عما تحبون؟

أصحيح أنكم أصبحتم لا تقنعون فى أمر أولئك الفتيات البائسات اللواتى يقعن فى مخالبكم بإفساد أخلاقهن حتى تسجلوا عليهن ذلك الفساد تسجيلاً موقعًا عليه بتوقيعاتهن، مستشهداً عليهن بصورهن وخطوطهن، لتملكوا عليهن أمرهن بعد ذلك، وتحولوا بينهن وبين التفلت من أيديكم، والحياة بعيداً عنكم فى جو غير جوكم، وجوار غير جواركم، عذارى أو متزوجات؟

أصحيح أنكم لا تكتفون بإفساد نفوسهن وضمائرهن، حتى تفسدوا عليهن عقولهن وصحتهن، فتشركوهن معكم فى شرب الخمر وتناول المخدرات سائلها وجامدها، فلا تلبث أن تنتهى حياتهن بما تنتهى به حياة النساء الساقطات اللواتى يلفظن أنفاسهن الأخيرة فى أقبية الحانات أو بين جدران المواخير؟

أصحيح أنكم فقدتم فى تلك السبيل التى تسلكونها خلق الرجولة والشهامة فأصبحتم تتجملون للنساء بأخلاق النساء، وتزدلفون إليهن بمثل صفاتهن وشمائلهن، وأصبح الرجل منكم لا هم له فى حياته إلا أن يتجمل فى ملبسه، ويتكسر فى مشيته، ويرقق من صوته، ويلون ابتساماته ونظراته بألوان التضعضع والفتور، ويقضى الساعات الطوال أمام مرآته متعهدًا شعره بالترجيل، وبشرته بالتنضير، وثناياه بالصقل والجلاء، حتى صار ذلك عادة من عاداتكم التى لا تنفك عنكم، وحتى سرى التأنث من أجسامكم إلى نفوسكم فلم يبق فيكم من صفات الرجولة وأخلاقها غير الأسماء والألقاب؟

إن كان حقًا ما يقولون كله أو بعضه فرحمة الله عليكم أيها الفتيان المساكين، وسلام على الفضيلة والشرف، سلام من لا يرجو عودة ولا ينتظر إيابًا.

إن هذه الفتاة التى تحتقرونها اليوم وتزدرونها، وتعبثون ما شئتم بنفسها وضميرها إنما هى فى الغد أم أولادكم، وعماد منازلكم، ومستودع أعراضكم ومروءاتكم، فانظروا كيف يكون شأنكم معها غدًا، وكيف يكون مستقبل أولادكم وأنفسكم على يدها.

أين تجدون الزوجات الصالحات فى مستقبل حياتكم إن أنتم أفسدتم الفتيات اليوم! وفى أى جو يعيش أولادكم ويستنشقون نسمات الحياة الطاهرة إن أنتم لوثتم الأجواء جميعها وملأتموها سمومًا وأكدارًا.

لا تتكون أخلاق الفتاة فى عهد طفولتها أو فى عهد شيخوختها، بل فى عهد شبابها، فإذا سلم لها ذلك العهد فقد سلم لها كل عهد بعد ذلك، فدعوها تجتز هذه المرحلة الوحيدة من مراحل حياتها شريفة طاهرة، تجدوا فيها بعد قليل من الزمن خير زوجة للزوج، وخير أم للولد، وخير سيدة للمنزل.

لا تعجلوا عليها وانتظروا بها قليلاً لتستطيعوا أن تجدوها غدًا زوجة طاهرة شريفة فى منازلكم، بدلاً من أن تجدوها فتاة ساقطة مزدراة مطرحة على أعتاب المواخير والحانات.

لا تزعموا بعد اليوم أنكم عاجزون عن العثور بزوجات صالحات شريفات يحفظن لكم أعراضكم، ويحرسن سعادتكم وسعادة منازلكم فتلك جناية أنفسكم عليكم، وثمرة ما غرست أيديكم، ولو أنكم حفظتم لهن ماضيهن لحفظن لكم حاضركم ومستقبلكم، ولكنكم أفسدتموهن، وقتلتم نفوسهن، ففقدتموهن عند حاجتكم إليهن.

إننى لا أفزع فى أمركم إلى القانون، فالقانون فى هذا البلد مدنى لا أدبى، ولا إلى الحكومة، فالحكومة مشغولة بشأن نفسها عن شأن غيرها: ولا إلى الدين فقد ضعف شأنه فى نفوسكم حتى هان أمره عليكم، ولا إلى آبائكم وأولياء أموركم، فقد عجزوا عنكم، وأصبحوا يبكون مع الباكين عليكم، بل أفزع فى أمركم إلى ضمائركم التى هى الأمل الباقى لنا بعد فقد جميع آمالنا فيكم، فاصغوا إلى صوتها ساعة تسمعوا منها هذا الرجاء الذى نرفعه إليكم، وصوت الضمير أقوى من كل صوت فى العالم.

أصغوا إليه تسمعوه يقول لكم: إن هؤلاء الفتيات اللواتى لا تستحيون أن تمدوا إليهن أعينكم وأيديكم إنما هن أخواتكم الحميمات يجمعكم وإياهن أب واحد وهو النيل، وأم واحدة وهى البلد، وشرف الأخوة وهو الملجأ الأمين لأعراض الأخوات وشرفهن.

يجب أن لا يفتح قلب الفتاة لأحد من الناس قبل أن يفتح لزوجها. لتستطيع أن تعيش معه سعيدة هانئة لا تنغصها ذكرى الماضى، ولا تختلط فى مخيلتها الصور والألوان، ولا أعرف فتاة فى هذا البلد بدأت حياتها بغرام قط فاستطاعت أن تتمتع بعده بحب شريف.

ولا أزال أذكر حتى اليوم حادثة ذلك الفتى الذى أهدت إليه حبيبته رسمها موقعًا عليه بتوقيعها؛ فلما تزوجت -وكان لا يحب ذلك منها- أراد الانتقام منها فقطع رأس الصورة ووضعها على جسم عار بتلك الطريقة الفنية المعروفة، ثم أرسلها مع كتاب وشاية إلى زوجها ليلة عرسها، فما لبثت أن خسرت فى لحظة واحدة سمعتها وسعادتها.

وحدثنى من أثق به أن كثيرًا من الفتيات الفاسدات لا يتزوجن إلا بعد أن يأخذن على أنفسهن عهدًا أمام أخلائهن أن يكن لهم بعد الزواج، أى بعد

أن يصبحن مطلقات من قيود العذرة وروابطها، وقلما تتزوج فتاة ذات صلات فاسدة من رجل إلا وردت عليه ليلة البناء بها أو فى صبيحتها كتب الوشاية بها من الأشخاص الذين اتصلت بهم، وأخلصت إليهن، فانتهى أمرها فى حياتها الجديدة بالشقاء والعار.

نحن فى حاجة إلى أن نعلم بناتنا، لأننا لا نريد أن يعشن جاهلات متأخرات، فتنحوا عن طريقهن أيها الغواة المفسدون ليستطعن أن يختلفن إلى مدارسهن آمنات مطمئنات على نفوسهن وأعراضهن؛ ولا تزعجوهن بفضولكم وإسفافكم فإننا لم نبعث بهن فى تلك السبيل ليفسدن شرفهن وعفتهن، بل ليضفن إلى فضيلة الأدب والكمال فضيلة العلم والمعرفة.

افسحوا الطريق لهن، وافسحوا للعاملة الخارجة فى طلب رزقها، والأرمل المسترزقة لبنيها، والفقيرة العاجزة عن قضاء حاجتها إلا بنفسها، والذاهبة لصلة رحمها، والسائرة لزيارة قبر فقيدها، ولا تكونوا حجر عثرة فى سبيل حرية المرأة فى ذهابها وجيئتها واضطرابها فى مذاهب الأرض سعيًا وراء رزقها، وقضاء مصالحها، فإن أبيتم عليها ذلك فاعترفوا أنكم أعداؤها القساة المتوحشون لأنكم تأبون عليها إلا إحدى الخطتين القاتلتين: إما الجهل الدائم، أو السقوط العظيم.

الفضيلة الفضيلة أيها القوم! فهى العزاء الوحيد لهذه الأمة المسكينة عن جميع آلامها ومصائبها، والأمل الباقى لها إن ضاعت -لا قدَّر الله- جميع آمالها وأمانيها، والشرف الشرف فربما جاء يوم ندير فيه أعيننا من حولنا فلا نجد مما تملك أيدينا شيئًا سواه.

المؤتمر الإسلامى

سرنى منظر ذلك الرجل[1] العظيم، والداعى الكريم، وهو قادم إلى

(١) كتب لمناسبة حضور المصلح الإسلامى الشهير إسماعيل بك غصبرنسكى الروسى إلى مصر سنة ١٩٠٨ للدعوة إلى مؤتمر إسلامى عام.

مصر يجتاز التخوم، ويتخطى البلدان، ويطوى الغبراء طى الكواكب الخضراء يقوده الأمل، ويسوقه الرجاء، وبين جنبيه همة عالية، ونفس كبيرة وقلب مشيع، وفؤاد فى الأفئدة، كالنسر فى الطيور، يحلق فى جو الإسلام تحليق من يحاول أن يظلله بجناحيه.

سرنى منظره، وإن لم أره وهو قائم بين جماعة المسلمين يحاول أن يرأب صدعهم، ويلم شعثهم ويجمع كلمتهم، ويؤلف بين قلوبهم، ويدعو إلى الله تعالى دعوة النبوة الأولى، إلا أن تلك عربية تدعو الأعجمية، وهذه أعجمية تدعو العربية الفصحى.

هنا ذكرت الإسلام ومجده، والإسلام وجنده، والإسلام ودولته، والإسلام وصولته، وذكرت أبا بكر وهو يقاتل أهل الردة ويقول: والله لو منعونى عقال بعير لقاتلتهم عليه، وذكرت عمر وهو واقف فى مرابض المدينة فى حمارة القيظ يستقبل شبحًا أسود يرفعه الآل ويخفضه، ويطويه الأديم وينشره، حتى اقترب منه فتبينه فإذا هو أعرابى قادم من سواد العراق فجعل يسايره وهو راجل والأعرابى راكب لا يعرفه ويسأل ما فعل الله بسعد وجنده، فيحدثه القادم عن فتح القادسية والمدائن، وما أفاء الله به على المسلمين من عرش كسرى وذخائره، وتراث مرازبته ودهاقينه، وعمر لاه عن نفسه سرورًا بما سمع، وفرحًا بما تم وذكرت صلاح الدين، وهو يقود الجحفل اللجب والجيش العرمرم، إلى حيث يستنقذ الثغور، ويستخلص الأمصار ويخوض جمرة الحرب المتأججة ليفتدى بنفسه أجسامًا إن لم تلتهمها النيران فكأنه قد من صخر، بسفائن البحر رمال القفر، حتى نزل بالقسطنطينية نزول القضاء من السماء، وسجد فى معبد أيا صوفيا سجدة الشكر لله على نعمته وحسن توفيقه، وذكرت صقر قريش وقد طار من الشرق إلى الغرب فأنشأ وحده دولة خضعت لها أفريقيا وبعض أوربا، وذكرت مع أبطال الحرب أبطال السلم فذكرت عمر بن عبد العزيز وعدله، والمأمون وفضله، والغزالى وحكمته، وابن رشد وفلسفته، ومعاوية وسياسته، وعبد الملك وكياسته، وذكرت مدارس بغداد وبخارى والاسكندرية والقاهرة وغرناطة وإشبيلية وقرطبة،

وذكرت مترجمى كتب إقليدس وبطليموس وأرسطو، وواضعى علوم الجبر والمقابلة والكيمياء وذكرت مخترعى البندول والبوصلة «بيت الإبرة» والساعة الدقاقة التى أهداها الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا ففزع منها سامعوها فزعًا شديدًا، وسموها شيطانًا رجيمًا أو آلة سحرية أو مكيدة عربية إلى كثير من أمثال هذه الآثار العربية والمفاخر الإسلامية.

ثم ذكرت الإسلام إذ ضربه الدهر بضرباته، ورماه بنكباته، فأصبح أثرًا من الآثار، وخبرًا من الأخبار، وعليلاً حار فيه أطباؤه، وملّه عواده وظل مترجحًا بين داهيتين، ومضطربًا بين غايتين إما أن يموت موتة أبدية -وبالله العياذ- أو يحيا حياة مادية، لا حياة أدبية، وينهض جامعة تجارية، لا جامعة دينية؛ ما دامت قاعدة الحكومات، وما دامت الحكومات عدوة الأديان، ومادامت الأديان لا تستطيع التحليق إلا فى فضاء من الحرية لا ينتهى البصر فيه إلى مدى، لذلك أحزننى عند سماع خطبة الخطيب ما يحزن الأشيب من ذكرى الشباب إذا عثر بين أوراقه على رسائل الحب، وأناشيد الغرام، وأمضنى ما يمض العاشق المفارق، إذا مر بالآثار وأطلال الديار، فرأى النؤى والأحجار، وموقد النار، ومجال الخيول، ومجر الذيول، فذكر ما كان ناسيًا، وهاج من وجده ما كان كامنًا، فبكى واستعبر.

وود بجدع الأنف لو عاد عهدها وعاد له فيها مصيف ومربع

ليست الجاهلية الأولى بأحوج إلى الإصلاح الدينى من الجاهلية الأخرى، بل ربما كانت هذه أحوج من تلك إليه.

كانت الجاهلية الأولى تعبد الأوثان لتقربها إلى الله زلفى، وجاهليتنا تعبد الأحجار والأشجار، والأحياء والأموات، والأبواب، والكوى، والقواعد والأساطين: تبركًا، أو تقربًا، لفظان مترادفان، مختلفان لفظًا متفقان معنى، ومن ظن غير ذلك فقد خدع نفسه.

كانت الجاهلية الأولى متفرقة قبائل وشعوبًا، وجاهليتنا متفرقة منازل وبيوتًا، بل آحادًا وأفرادًا، فلا تراحم ولا تواصل، ولا تعارف ولا تعاطف، حتى بين الأخ وأخيه، والأب وبنيه.

كانت جاهليتهم تسفك الدماء فى طلاب الأوتار، وجاهليتنا تسفكها فى سبيل السرقات وقضاء الشهوات، وكان أفظع ما فى جرائمهم وأد البنات، فصار أخف ما فى جرائمنا الانتحار، وكان بعضهم يسعى على بعض بسرقة ماله، أو استياق ماشيته، ففعلنا مثل ما فعلوا وفوق ما فعلوا، ثم فضلناهم بعد ذلك بتزوير الأوراق وتحريف الصكوك، وتقليد الأختام، والبراعة فى النصب والاحتيال، يكاد يستوى فى ذلك العالم والجاهل، والشريف الهاشمى، والفلاح القروى.

وليتنا إذ أخذنا جاهليتهم أخذناها كما هى رذائل وفضائل فيهون على المصلحين أمرها، ولكنا أسأنا الاختيار، فلنا خرافاتهم الدينية وأدواؤهم الاجتماعية، وليس لنا كرمهم ووفاؤهم، وغيرتهم وحميتهم وعزتهم ومنعتهم، فكيف لا يكون الأمر خطيراً، وكيف لا تكون الجاهلية الأخرى أحوج إلى دعوة كدعوة النبوة من الجاهلية الأولى؟

نبئنى عن الإسلام أين مقره ومكانه؟ وأين مسلكه ومضطربه؟ وفى أى موطن من المواطن حل، ومعهد من المعاهد نزل؟

أفى الحانات والمواخير التى يغص بها الفضاء، وتئن منها الأرض والسماء، والتى ينتهك فيها المسلمون حرمات دينهم بلا خجل ولا حياء؟ كأنما هم يشربون الماء الزلال، ويغشون البضع الحلال، ولقد هان عليهم أمر أنفسهم حتى لو وجدوا بينهم من يرى التقية فى عمله، أو الاحتشام فى أمره، سموه جبانًا جامدًا، أو متكلفًا باردًا، كل ذلك على مرأى ومسمع من الحكومة الإسلامية، والمعاهد الدينية، والقضاءين الشرعى والنظامى؟

أم فى حوانيت الباعة حيث الغش الفاضح، والغبن الفاحش، مزخرفًا بالأقوال الكاذبة، والأيمان الباطلة؟

أم فى مجالس الأحكام حيث للدينار الأحمر السلطان الأكبر على سلطان العدو وسلطان الذمة وسلطان الشرائع، اللهم إلا ما كان من تلك الألواح المكتوب فيها (العدل أساس الملك) أو ﴿**وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**﴾؟

أم فى المساجد حيث يعتقد المصلون أنه لو كان بين الصلاة والصلاة مائة عام، وكانت تلك الأعوام مملوءة بالآثام والجرائم، والمفاسد والمظالم لكفت تلك الحركات التى يسمونها صلوات ويحسبونها حسنات، لغفران تلك السيئات؟

أم فى معاهد الدين حيث يتلقى المتعلمون الدين جسمًا بلا روح، وعلمًا بلا عمل، كأنما يتلهون بدراسة إحدى الشرائع الداثرة، أو أحد الأديان الغابرة، وحيث يتلقون كشكولاً عجيبًا وخلقًا غريبًا من الأكاذيب، والترهات، فلا تكاد تسمع من أفواههم إلا حديثًا موضوعًا، أو قولاً مصنوعًا. أو خرافة تاريخية، أو بدعة دينية، وحيث يقضون حياتهم فى المناظرات والمجادلات، والتحاسد والتباغض والتقاطع والتدابر، وهى بعينها الأخلاق والرذائل التى ما جاءت الأديان إلا لمحاربتها، والقضاء عليها، فهم يهدمون من حيث يظنون أنهم يبنون، ويسيئون ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا؟

أم فى مجالس المتصوفة حيث الألعاب الجمبازية، والحركات البهلوانية، والسرقات باسم العادات، وانتهاك الحرمات بعنوان البركات؟

إن أراد المصلحون لأنفسهم نجاحًا، وللإسلام صلاحًا، فليبدأوا عملهم بتهذيب العقائد الدينية، وتربية النشء الحديث تربية إسلامية، لا تربية مادية، أى أنهم يدخلون إلى الإصلاح من باب الدين لا من باب الفلسفة، حتى يجمعوا للمسلمين بين صلاح حالهم ومآلهم، ودنياهم وآخرتهم، وحتى يكون الدين هو الزاجر والمؤدب، والمعلم والمهذب، والإسلام وإن كان دين العقل والفطرة، والإصلاح، إلا أن الخطر كل الخطر على المسلمين أن يكون فى نظرهم تابعًا للعقل، وأن يكون العقل الحكم بينهم وبينه، والخير كل الخير فى أن يكون الدين حاكمًا والعقل مفسرًا ومبينًا، فإذا تم ذلك للمصلحين بالرفق والأناة، والحكمة والسياسة، فقد تم لهم كل شىء، وتم للمسلمين ما يريدونه من الجامعتين: الدينية والسياسية، كما تم لهم ذلك فى العهد الأول من هذا الباب نفسه، وفى هذه الجادة المستقيمة، فهل يستطيع دعاة الإصلاح فى الجاهلية الحاضرة أن يكونوا كدعاته فى الجاهلية الأولى، وهل يستطيعون

أن يخلصوا لله فى عملهم جادين مثابرين، لا تأخذهم فيه هوادة ولا عنه سنة، وأن لا يرى أحدهم لنفسه على أخيه فضلاً إلا بالإيمان والتقوى، وأن يرى كل منهم نفسه بمنزلة المجاهد فى سبيل الله، يتحمل الأذى ويستسهل الوعر، ويحتمل الكريهة، ولا يجعل لليأس إلى قلبه سبيلاً، ولا للهوان على نفسه سلطانًا؟

هل يستطيع المصلحون أن يكونوا كذلك ليصلحوا فى الآخرين ما أصلح المصلحون فى الأولين؟ «لست أدرى ولا المنجم يدرى»؟

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

فى أكواخ الفقراء

«مترجمة»

مضى الليل إلا قليلاً والظلام مخيم على الكون بأجمعه، والكواكب متلفعة بأردية السحب، ما يستشف منها الناظر بصيصًا ولا قبسًا، والفضاء بحر خضم مترامى الأرجاء إلا أنه ساكن الصفحة، هادئ النأمة، يقصر فيه قاب العين، وتضل فى تيهه أشعة النظر حتى عن نفسها، والغيوث منهلة متواصلة، تهمى بقوة واحدة، وقوام واحد، ولا تغزز ولا ترق، ولا تضطرب خيوطها، ولا تختلف نغمتها كأنما هى شباك ممتدة بين السماء والأرض، وكوخ السماك «فيليب» جاثم فى مجثمه بين الأكواخ المحيطة به، لا يرى فيه الداخل غير مصباح ضئيل تجاهد ذبالته جهادًا شديدًا فى تمزيق قطع الظلام المتكاثفة حولها، وغير مجمرة هامدة قد خبت نارها إلا بقايا جمرات شاحبات قد التفت بأكفانها البيضاء، وأخذت طريقها فى مدرج الفناء وقد يرى الناظر على ضوء ذلك المصباح الضئيل بضع شبكات معلقة بالجدار كأنها الأشباح الماثلة، ومنضدة عارية قد نشرت فوقها بضعة آنية نحاسية تلمع لمعانًا ضعيفًا فى ذلك الحندس كأنها عيون الجنادب، فإذا دار الواقف بنظره حوله رأى

حشية مبسوطة على الأرض قد اضطجع فوقها ثلاثة أطفال متلاصقين آخذ بعضهم بأعناق بعض، كما تتآخذ الأفراخ فى أعشاشها وكما يضم الخوف الضلوع بعضها إلى بعض، وعلى مقربة من فراشهم امرأة صفراء شاحبة جاثية على ركبتيها تصلى وتبتهل وتدعو الله تعالى بصوت خافت متهافت أن يرد لها زوجها سالمًا، وكان قد خرج كعادته لصيد السمك من البحر فلم يعد حتى الساعة.

وإنها لكذلك إذ هبت الزوبعة هبوبًا عظيمًا، فاهتزت لها جوانب الكوخ اهتزازًا شديدًا، وأنَّ لوقعها الأطفال فى لفائفهم. فطار قلبها فزعًا ورعبًا، وخيل إليها أن هدير الأمواج، ودمدمة الرعود، وزفيف الرياح، وقعقعة السقوف والجدران إنما هى نذر السوء تنذرها بمصير زوجها المسكين فى أعماق ذلك الأوقيانوس العظيم، فظلت تردد بينها وبين نفسها: رب إنى بائسة مسكينة لا سند لى ولا عضد، وأن هؤلاء الأطفال الصغار عاجزون لا يستطيعون أن يقوتوا أنفسهم؛ ولا أن يعتمدوا على حولهم وحيلتهم فى شئون حياتهم فاحفظ لى ولهم حياة ذلك الرجل المسكين الذى أسلم أمره إليك، وأودع حياته بين يديك، وخرج فى طلب الرزق من ساحتك ليعود به على هذه الأسرة الفقيرة المعدمة فلم يعد حتى الساعة ولا ندرى ما فعلت به يد الأقدار.

ما أعظم بؤسنا وشقاءنا نساء الصيادين وأولادهم!

إنهم يتركوننا وحدنا فى هذه الأكواخ الموحشة، ويذهبون لطلب العيش فى ذلك التيه المائى العظيم الذى لا نهاية لعمقه، ولا حد لاتساعه ولا عاصم من مخاطره، ويحاولون انتزاع أرزاقهم من بين ماضغى تلك الأمواج الثائرة الفاغرة أفواهها كالذئاب الجائعة؛ تحاول التهام كل ما يدنو منها، ولعل القدر الذى نخشاه عليهم فى هذه الساعة قد نزل بهم؛ فلم تغن عنهم شيئًا تلك الرقائق الخشبية المتلاصقة التى يسمونها زوارق؛ ولعلهم لبثوا ساعات طوالاً يصارعون الأمواج وتصارعهم حتى غلبتهم على أمرهم، فداروا بأعينهم حولهم ليفتشوا عن زوارقهم المنقلبة فلم يروا منها إلا بقاياها المتطايرة فى

مهاب الرياح، فحاولوا أن يسبحوا إليها فأفلتت من أيديهم؛ فنال منهم العياء؛ فهووا إلى ذلك القاع العميق ليصبحوا فيه طعامًا للأسماك التى كانوا يظنون منذ ساعة أنه ستصبح طعامًا لهم.

هنالك يأتينا نعيهم فنبكى ونندب، ونهرع إلى الشاطئ والهين مدلهين ونقف أمام ذلك العالم المجهول الغامض صائحين أن رد إلينا أيها الوحش المفترس بعولتنا وأولادنا، وأفلاذ أكبادنا، أو تكشف عن نفسك قليلاً علنا نري جثثهم فى قاعك العميق، فلا نسمع ملبيًا ولا مجيبًا.

وهنا هدأت الزوبعة قليلاً، وخفتت أصوات الرياح، فسكن بعض ما بها ونهضت من مكانها فتناولت المصباح وفتحت باب الكوخ وقلبت وجهها فى السماء لترى كم بقى بينها وبين الصباح، وكان الظلام لم يزل حالكًا والمطر لم يزل منهلاً، فمدت يدها بالمصباح أمامها لترى هل من مقبل يتقدم، أو شبح يتحرك فلم يقع نوره إلا على كوخ بعيد منفرد لا نور فيه ولا حركة، فتذكرت حينما وقع نظرها عليه أنه كوخ تلك الأرملة المسكينة «جانت» التى مات زوجها غريقًا منذ بضعة شهور وخلف لها أطفالاً صغارًا تقاسى الآلام الشداد والأهوال العظام فى تدبير عيشهم، وتقويم أودهم، فمر بخاطرها أن تزورها وتتعرف حالها، لأنها كانت تعلم أنها مريضة مدنفة، وأنها كابدت ليلة أمس من دائها عناء عظيمًا، وأقرب ما تكون النفوس إذا جمعتها فى صعيد واحد هموم الحياة وآلامها، فأخذت طريقها إلى ذلك الكوخ حتى بلغته، فوقفت على بابه وقرعته مرارًا فلم يرد عليها أحد. فدفعته ففتح فدخلت رافعة مصباحها أمامها فأنار لها ما حولها فرأت بين يديها ما أرعد فرائصها، واستوقف دقات قلبها؛ وأمسك الدم عن جريانه فى عروقها.

رأت الكوخ يهتز ويضطرب فى أيدى الرياح المتناوحة، ورأت مياه الأمطار تسيل من سقفه الواهى الأخرق فتبلل كل شىء فيه. ورأت فراشًا قذرًا من القش قد رقدت فيه الأرملة «جانت» رقدة ساكنة جامدة لا حس فيها ولا حركة فدنت منها ولمستها بيدها فإذا هى ميتة، وإذا قطرات من الماء تنحدر من السقف على جبينها ورأسها وغطائها البالى الممزق، فوقفت أمام هذا المنظر المخيف المرعب ذاهلة مشدوهة ثم صاحت:

هذه نهاية الفقراء على ظهر الأرض، وهذا مصيرهم الذى يصيرون إليه بعد جهادهم فى سبيل الحياة زمنًا طويلاً، أنهم يعيشون فى هذا العالم مجهولين مغمورين لا يعرفهم أحد ثم يخرجون منه متسللين متلاوذين لا يشعر بخروجهم حتى أهلوهم وذوو أرحامهم.

ما يدرينى ألا يكون مصيرى ومصير أولادى غداً هذا المصير الذى أراه الآن وقد لا تدخل علىّ فى تلك الساعة جارة من جاراتى ترانى وترثى لحالى كما أرثى لحال هؤلاء المساكين؟

ثم خلعت رداءها فأسبلته على جثة الميتة؛ ودارت بمصباحها فى أنحاء الغرفة فرأت طفليها الصغيرين نائمين على فراشهما وجهًا لوجه، وعلى ثغر كل منهما ابتسامة صغيرة كأن شبح الموت الهائم حول مضجعهما لا يخيفهما، ولا يزعج سكونهما. ورأت رداء أمهما وكانت تعرفه قبل اليوم، مسبلاً عليهما فخيل إليها أنها ترى منظر تلك المرأة المسكينة قبل ساعة أو ساعتين وهى تعالج فى فراشها سكرات الموت ثم تلتفت من حين إلى حين إلى طفليها النائمين، والمطر يتساقط عليهما والبرد يعبث بأعضائهما، فتشفق عليهما، وترثى لهما، حتى ضاقت بها ساحة الصبر، فخلعت عنها رداءها وهى أحوج ما تكون إليه، وألقته عليهما؛ ثم ألقت بنفسها على فراشها وأسلمت روحها.

وقفت مارى أمام هذه المناظر المؤلمة، والريح تئن أنين الوالهين المتسلبين والموج يعج عجيج أجراس الموت، وقطرات الماء تنحدر من جبين الميتة إلى خديها الشاحبين كأنما هى تذرف دموع الحزن على فراق ولديها، وكان الفجر قد أخذ يمسح عن وجهه صبغة الظلام ويرسل بعض أشعته فى جوانب الكوخ، فأطفأت مارى المصباح الذى بيدها ووضعته جانبًا ثم جثت بجانب الميتة وصلَّت لها ما شاء الله أن تفعل، ثم نهضت ومشت إلى مكان الطفلين وحملتها برفق وسكون ومشت بهما حتى بلغت كوخها، فأضجعتهما بجانب طفليها، وأسبلت عليهم جميعًا رداء واحدًا.

ثم جلست بجانبهم تقول بينها وبين نفسها: لا أدرى أأصبت فيما فعلت أم أخطأت، وإنما أدرى أن المرأة التى أودع الله قلبها شعور الأمومة وإحساسها

لا تستطيع أن ترى طفلين طريحين على فراشهما فى كوخ عار من كل شىء إلا من جثة أمهما فتتركهما وشأنهما دون أن تعلم ما مصيرهما بعد ذلك.

إن المنظر الذى رأيته ما كان يسمح لى بالتفكير فى نتيجة العمل الذى أعمله فإن تبين لى بعد ذلك أننى مخطئة فليس معنى هذا أنى كنت أستطيع تجنب الوقوع فى هذا الخطأ، لأن قلبى من لحم ودم، لا من فولاذ وصوان.

نعم إن زوجى فقير، وإن طفليّ معدمان بائسان لا يكادان يشبعان من الخبز، وأن عناءنا فى تربية أربعة أطفال سيكون ضعف عنائنا فى تربية طفلين ولكن لا يجوز لنا ضنًا براحة أنفسنا أن نترك طفلين صغيرين يموتان -على مرأى منا ومسمع- بردًا وجوعًا.

ذلك ما سأقوله لزوجى عند رجوعه، وما أحسبه قاسيًا ولا متوحشًا فينكر على فعلتى هذه، ويأمرنى بإلقائهما خارج الباب.

ثم وقفت عن الكلام فجأة لأنها سمعت صرير الباب وهو يدور على عقبه فارتعدت، ثم علمت أنها الريح، فأطرقت برأسها ساعة ذهبت فيها بتصوراتها وأفكارها كل مذهب فبكت وضحكت، وغضبت ورضيت، وأملت ويئست، ورحمت وقست، وحمدت فعلتها وندمت عليها، وأحسنت الظن بزوجها، وأساءته به، وظل فؤادها نهبًا مقسمًا فى يد الهموم والأفكار حتى شعرت بسواد يتقدم نحوها، فاستطير قلبها خوفًا ورعبًا وانتبهت فإذا زوجها داخل يحمل شبكته على ظهره والماء يقطر منها، فنهضت إليه وعانقته، ثم ألقت نظرها على وجهه فأنكرت شحوبه وتضعضعه كما أنكر ذلك منها حين رآها، وسألته كيف كان حظه الليلة، وماذا كان شأنه مع العاصفة، فألقى بشباكه وقصبه على الأرض وظل يقول لها: أما الليلة فكانت مزعجة جدًا لم أر فى حياتى مثلها وأما الصيد فها هى يدى صفر منه كما ترين ولولا رحمة الله بى وبكم لهلكت وما أنا بأسف على شىء ما دمت أراكم بخير وكيف حال الولدين؟ فارتعشت وقالت: هما بخير، قال: ما لى أراك شاحبة صفراء. وكيف قضيت ليلتك، فأطرقت برأسها وقالت: قضيتها فى خياطة قميصين للولدين، وكنت كلما سمعت صوت العاصفة وهدير الأمواج خفت

عليك، أما الآن فـقد زال كل شىء والحمد لله، ثم نظرت إليـه وبين شفتيـها كلمة تحاول أن تنطق بهـا فلا تستطيع، ثم استنصرت جلدها وقـوتها وقالت: وشىء آخر أحـزننى جدًا، قـال: وما هو؟ قـالت: قد علمـت الساعة قـبل رجوعك بقليل أن جارتنا «جـانت» قد لبت دعوة ربها وأن ولديها الصـغيرين قد أصبحا وحيدين فى هذا العالم لا عائل لهما.

فاضطرب عند سـماع هذه الكلمة، ونهض من مـكانه وتمشى قليلاً ثم ألقى بقبعـته المبللة بالماء على سريره وظل يعبـث بشعر رأسه، فيـشده حينًا، ويمسحـه أخرى، وهى تتبـعه بنظراتها لـتفحص صـورة نفسه المرتسـمة على وجهه، ثم جلس على المائدة القـائمة فى وسط الكوخ، وظل يقول بينه وبين نفسه بصوت ضعيف متهدج:

رب إنى وإن كنت رجلاً جـاهلاً فدما لا أستطيع أن أفـهم حكمتك فى حـرمان هذين الولدين البـائسين من أمـهمـا، إلا أننى معـترف بوجـود تلك الحكمـة لا أنكرها، ولابد أن الذين يعلمـون أكـثـر مما أعلم، يفـهمـون من شؤونك وتصرفاتك فوق ما أفهم!

نعم إننى فقير مسكين أعيش تحت رحمة المصادفات والاتفاقات وربما مر على وعلى أولادى أيام لم نجد فيها ما نأتدم به، ولكن ماذا أصنع وقلبى يتألم لحال هاتين اليتيمتين الصغيرتين أكثر مما يتألم من الجوع والسغب؟

ثم التفت إلى زوجتـه وقال لها: إننى متألم جـدًا يا مارى، ويخيل إلى أن روح تلك المرأة المسكينة واقفـة الآن أمام هذا الباب تقرعـه وتضرع إلينا أن نأخذ ولديها إلينا، ونكفلهما من بعدها، ولكن كيف العمل يا إلهى؟ فقالت: إنى أكاد أسمع هذا الـصوت الذى تسمعه يا فـيليب. وإن ألمى عظيم كألمك، فصـمت هنيهة ثم انتـفض انتفاضـة شديدة ودنا منها وقـال لها: ألم يمت لنا طفلان فى العـامين الماضيين يا مارى؟ قـالت: بلى، قال: ما نصنع لو أنهـما بقيا حـين حتى اليوم؟ قالت: لا شىء سوى أننا نفـزع إلى الله فى أمرهما، قال: فلنفـزع إلى الله فى أمر هذين الطفلين اليتيـمين، وكأن ولدينا لا يزالان حيين حتى اليوم، أو كأنهما بعثا من قبرهما بعد موتهما.

اذهبى إليهما يا مارى واحضريهما، فربما استيقظا بعد هنيهة من نومهما فرأيا منظر أمهما الميتة فى فراشها فماتا خوفًا ورعبًا.

اذهبى إليهما واحمليهما برفق وهدوء دون أن توقظيهما واضجعيهما على فراش ولدينا فسيكون منظرهم جميعًا جميلاً جداً حينما يستيقظون من نومهم وينظر بعضهم فى وجوه بعض وحرام علىّ النبيذ واللحم بعد اليوم لأستطيع أن أقوم بنفقة هذه الأسرة الكبيرة التى أصبحت سيدها وعائلها، اذهبى يا مارى وثقى أن الله سيملأ علينا بيتنا خبزاً وفحمًا ببركة هؤلاء الأطفال الطاهرين.

فتهلل وجهها بشراً وسروراً، ونهضت من مكانها ومشت إلى مضجع الأطفال فرفعت عنهم الغطاء، ونظرت إلى زوجها صامتة لا تقول شيئًا، فما وقع نظر «فيليب» على هذا المنظر الغريب حتى استطير فرحًا وسروراً وهرع إلى زوجته واحتضنها إلى صدره وقال لها: ما أشرف قلبك يا مارى!

يا سكان القصور: ليتكم من سكان الأكواخ، لتستطيعوا أن تكونوا من الراحمين المحسنين.

الضمير

أتدرى ما هو الخلق عندى؟

هو شعور المرء أنه مسئول أمام ضميره عما يجب أن يفعل.

لذلك لا أسمى الكريم كريمًا حتى تستوى عنده صدقة السر وصدقة العلانية، ولا العفيف عفيفًا حتى يعف فى حالة الأمن كما يعف فى حالة الخوف، ولا الصادق صادقًا حتى يصدق فى أفعاله صدقه فى أقواله، ولا الرحيم رحيمًا حتى يبكى قلبه قبل أن تبكى عيناه، ولا المتواضع متواضعًا حتى يكون رأيه فى نفسه أقل من رأى الناس فيه.

التخلق غير الخلق، وأكثر الذين نسميهم فاضلين متخلقين بخلق الفضيلة، لا فاضلون، لأنهم إنما يلبسون هذا الثوب مصانعة للناس، أو خوفًا منهم، أو طمعًا فيهم، فإن ارتقوا عن ذلك قليلاً لبسوه طمعًا فى الجنة التى أعدها الله للمحسنين، أو خوفًا من النار التى أعدها الله للمسيئين.

أما الذى فعل الحسنة لأنها حسنة، أو يتقى السيئة لأنها سيئة فذلك من لا نعرف له وجودًا، أو لا نعرف له مكانًا.

لا ينفع المرء أن يكون زاجره عن الشر خوفه من عذاب النار، لأنه لا يعدم أن يجد بين الزعماء الدينيين من يلبس له الشر لباس الخير فيمشى فى طريق الرذيلة وهو يحسب أنه يمشى فى طريق الفضيلة، أو خوفه من القانون، لأن القوانين شرائع سياسية وضعت لحماية الحكومات لا لحماية الآداب، أو خوفه من الناس، لأن الناس لا ينفرون من الرذائل بل ينفرون مما يضربهم، رذائل كان أم فضائل، وإنما ينفعه أن يكون ضميره هو قائده الذى يهتدى به ومناره الذى يستنير بنوره فى طريق حياته.

وما زالت الأخلاق بخير حتى خذلها الضمير وتخلى عنها، وتولت قيادتها العادات والمصطلحات، والقواعد والأنظمة، ففسد أمرها، واضطرب حبلها، واستحالت إلى صور ورسوم وأكاذيب وألاعيب، فرأينا الحاكم الذى يقف بين يدى الله ليؤدى صلاته وأسواط جلاديه تمزق على مرأى منه ومسمع جسم رجل مسكين لا ذنب له عنده إلا أنه يملك صبابة من المال يريد أن يسلبه إياها، والأمير الذى يتقرب إلى الله ببناء مسجد قد هدم فى سبيله ألف بيت من بيوت المسلمين، والفقيه الذى يتورع عن تدخين غليونه فى مجلس القرآن، ولا يتورع عن مخالفة القرآن نفسه من فاتحته إلى خاتمته، والغنى الذى يسمع أنين جاره فى جوف الليل من الجوع فلا يرق له ولا يحفل به، فإذا أصبح الصباح ذهب إلى ضريح من أضرحة الأولياء، ووضع فى صندوق النذور بدرة من الذهب قد ينتفع بها من لا حاجة به إليها والمومس التى تتصدق بنفسها ليلة فى كل عام على روح بعض الأولياء وعندها أنها قد كفرت بذلك عن سيئاتها طول العام.

إلى كثير من أمثال هذه النقائص التى يزعم أصحابها ويزعم لهم كثير من الناس أنهم من ذوى الأخلاق الفاضلة والسيرة المستقيمة.

الخلق هو الدمعة التى تترقرق فى عين الرحيم كلما وقع نظره على منظر من مناظر البؤس، أو مشهد من مشاهد الشقاء.

هو القلق الذى يساور قلب الكريم ويحول بين جفنيه والاغتماض كلما ذكر أنه رد سائلاً محتاجًا، أو أساء إلى ضعيف مسكين.

هو الحمرة التى تلبس وجه الحى خجلاً من الطارق المتاب الذى لا يستطيع رده، ولا يستطيع مد يد المعونة إليه.

هو اللجلجة التى تعترى لسان الشريف حينما تحدثه نفسه بأكذوبة ربما دفعته إليها ضرورة من ضرورات الحياة.

هو الشرر الذى ينبعث من عينى الغيور حينما تمتد يد من الأيدى إلى العبث بعرضه أو بكرامته.

هو الصرخة التى يصرخها الأبى فى وجه من يحاول مساومته على خيانة وطنه، أو ممالأة عدوه.

الخلق هو أداء الواجب لذاته، بقطع النظر عما يترتب عليه من النتائج فمن أراد أن يعلم الناس مكارم الأخلاق فليحيى ضمائرهم، وليبث فى نفوسهم الشعور بحب الفضيلة، والنفور من الرذيلة بأية وسيلة شاء، ومن أى طريق أراد، فليست الفضيلة طائفة من المحفوظات تحشى بها الأذهان، بل ملكات تصدر عنها آثارها صدور الشعاع عن الكوكب، والأريج عن الزهر.

مدرسة الغرام

كنت لا أسأل الله تعالى إلا تقدم هذه الأمة وارتقاءها، وبلوغها فى المدنية مبلغًا يؤهلها لمجاراة الأمم الغربية فى عظمتها وسلطانها، فأصبحت أسأله ألا يستجيب دعائى وألا ينيلها من تلك المدنية فوق ما أنالها.

أصبحت أعتقد أن مفاسد الأخلاق والمدنية الغربية شيئان متلازمان وتوأمان متلاصقان، لا افتراق لأحدهما عن صاحبه إلا إذا افترقت نشوة الخمر عن مرارتها. فكيف أتمناها لأمة هى أعز علىّ من نفسى التى بين جنبى؟

قرأت حوادث الانتحار فى الغرب، فقلت قوم قد ضعفت قلوبهم عن احتمال حوادث الدهر وأرزائه فلم يستطيعوا الوقوف فى طريقها وقفة الشجاع المستقل، ففروا من وجهها إلى حيث يجدون الراحة الدائمة فى أعماق القبور، وما أكثر الجبناء فى مواقف الحرب وميادين الجهاد!

قرأت حوادث المبارزة فقلت قوم قد عجزت يد المدنية الحاضرة أن تستل من بين جنوبهم ما كانوا يعتقدون فى عهد الهمجية الأولى من أن العرض إناء إذا ألم به القذى لا يغسله إلا الدم المسفوح، وكثيراً ما أوردت العقائد النفوس موارد الحتوف.

قرأت حوادث عشاق الموتى الذين يتسللون تحت جنح الظلام إلى المقابر فينبشونها عن رفات الفتيات المقبورات، شوقًا إلى لثمة من خد يرشح صديده، أو رشفة من ثغر يتناثر دوده حتى إنه ليروقهم من منظر الساكنات تحت الرجام فوق ما يروقهم من منظر المقصورات فى الخيام. فلما طاردتهم الحكومة عن أمنيتهم، وحالت بينهم وبين مواطن غرامهم، ومواقف عشقهم وهيامهم، رأوا أن يحتالوا على الإلمام بأولئك الموتى خيالاً لما فاتهم الإلمام بهم حقيقة، فأنشأوا لأنفسهم فى باطن الأرض قاعة كبرى كسوا جدرانها بالأستار السوداء، ووضعوا فى وسطها صندوقًا من صناديق الموتى تنام فيه فتاة حياة تتصنع الموت باصفرار لونها، وإسبال جفونها، وسكون أنفاسها، فإذا لج بأحدهم الشوق إلى الإلمام بفتاة ميتة نزل إلى تلك القاعة السوداء وعالج مخيلته على أن يتصورها قبراً مظلمًا موحشًا، يضم بين أقطاره فتاة ميتة لا حراك بها، فيلم بها وهو يسمع نغمات الأحزان من قيثارة أعدت وراء القاعة لتجسيم ذلك الخيال.

قرأت هذا وقرأت أن منهم من تجاوز به جنونه وهوسه إلى الغرام ببعض

أنواع الحيوان، حتى أنهم نصبوا لأنفسهم مواخير خاصة يلمون فيها بالدجاج والبط والأوز إلمام غيرهم بالنساء البغايا، فقلت لا عجب فى ذلك. وهل هو إلاّ فن من فنون الجنون التى لا يجد المرء إلى حصرها سبيلاً!؟

إن كنت أغتفر للمدنية الغربية كل ذنوبها فإنى لا أغتفر لها ذنبها فى مدرسة الغرام التى أنشأها قوم من الأمريكيين فى وسط مدينة من مدن أمريكا ليعلموا فيها النساء والرجال فنون الحب والمغازلة جهرة من حيث لا يرون فى ذلك بأسًا ولا يجدون فيه متلومًا.

وقد وضعوا لها البرنامج الآتى:

يوم الأحد: دروس استعدادية.
" الاثنين: الغزل.
" الثلاثاء: المطارحة.
" الأربعاء: صناعة التقبيل والتخميش.
" الخميس: فلسفة الدلال والتصبى.
الجمعة: اختيار مواعيد اللقاء.
" السبت: الامتحان.

هذه هى المدرسة الغرامية، وهذا نظامها، فهل سمعت فى حياتك أن أمة من الأمم المتوحشة التى يسمونها الأمم البهيمية إشارة إلى ما بينها وبين البهائم من حب الشهوات والاستهتار فيها قد بلغت فى تهتكها وفساد أخلاقها مبلغ تلك الأمة التى يقولون عنها أنها زهرة المدنية الحديثة، وتاجها المرصع.

لماذا نسمى الزنوج قبائل متوحشة، ونحن نعلم فيما نعلم من أخلاقهم أنهم لا يتركون عزابهم ينامون وسط البيوت مخافة أن يكون لهم سبيل إلى مخالطة النساء، فيأخذونهم جميعًا إلى مكان خاص بهم خارج القرية يبيتون فيه فوق هضبة مرتفعة ينشرون حولها ترابًا معبدًا، حتى إذا أراد أحدهم أن يختلس من ظلام الليل غرة نم أثره عليه، كما نعلم أنهم يخيطون فروج العذارى حيطة وحذراً ليحفظوا أعراضهن لأزواجهن سالمات بريئات، ولماذا تسمى الأمة الأمريكية أمة متمدينة، وها هى ذى تفتح المواخير باسم المدارس

حتى لا تكون فى نفس أحد من الناس غضاضة فى دخـولها، والأخذ بنصيبه من لذائذها وشهواتها!!

إذا كـان توحش الأولين لإغراقـهم فى صون الأعـراض، والحيطة لهـا فالآخـرون أكثر منهم توحـشًا لإغراقـهم فى هتكها وابتذالهـا، والإغراق فى الخير، خير من الإغراق فى الشر.

فيأيها الزنجى المسكين، لقد ظلمك من سماك متوحشًا، ويأيها الأمريكى المتوحش لقد كذبك من سماك متمدينًا.

أيها الزنجى الأسود: إن كنت أسود اللون، فـالفضيلة أعلى قدراً من أن تتنزل لاعتبار السواد ذنبًا تنفر منـه، وجريمة لا تغتفرها! وإن كنت جاهلاً فهل استـفاد صاحبك من علمـه إلا إمتاع نفسـه بشهواتهـا ولذائذها، والتفنن فى فجور الحـياة وفسوقـها تفننًا لا أحسـبك تحن إليه، أو تتقطع نفسـك حسرات عليه؟ وإن كنت عاريًا فربما لبست من الفضـيلة ثوبًا يحسدك عليه -لو يعقل- ذلك الذى يفخر عليك بخزه وديباجه ودمقسه وحريره:

ولو بتـمـا عند قـدريـكمـا ... لبت وأعلا كـما الأسفل[1]

أمس واليـوم

مثلنا ومثل آبائنا الأولين من قبل طلوع شمس هذا التمدين الحديث ومن بعده كمثل رجل ضل به طريقه فى ليلة ليلاء غدافية الإهاب، حالكة الجلباب قد تجسد ظلامها حتـى كاد يلمس بالراح، فانقلب جرهراً بعد إذ هو عرض، فأصبح كأنما هو فحل سائل، أو مداد جـامد، فأنشأ هذ الضال المسكين يخبط فى ذلك الديجور ترفـعه النجاد، وتخفـضه الوهاد لا يرى علمًا فيـهتدى به، ولا يتنور نجمًا فيعتمد فى سراه عليه.

---

(١) أى لو تنزل كل منكما المنزلة التى يستحقـها لأخذ الأعلى مكان الأسفل، والأسفل مكان الأعلى.

وإنه لكذلك وقد استوت فى نظره الجهات الست، فسمائه أرض، وأرضه سماء، ووراءه أمام، وأمامه وراء، وإذا بقرن الشمس قد نجم فى جبهة الأفق، وأفرغ فى ناظره المملوء بالظلمة قطرات ملتهبة من ذائب أشعته المتلألئة فعشى بعد أن كان بصيراً فما أغنى عنه ذلك الضياء شيئًا، وما زال فى ضلاله القديم، إلا أن ذاك ضلال الظلام، وهذا ضلال الضياء وهو شر الضلالين، وأقتل الداءين، فإن ضلال الظلام يتخلله بريق الأمل فى الضياء، فأما وقد أصبح الدواء داء فلا أمل فى الشفاء.

لو بغير الماء حلقى شرق　　　كنت كالغصان بالماء اعتصارى

ذلك مثلنا ومثل آبائنا من قبلنا بين يدى هذه المدنية الجديدة التى همى سيلها على هذا العالم الإنسانى فرأى الغرب تربة طيبة صالحة فسقاها فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ورأى الشرق تربة طيبة صامتة متحجرة قد نجم فيها كثير من الأعشاب الضعيفة، والجذور الفاسدة، فأما ما تحجر منها، فلم تغن عنه السقيا شيئًا، وأما ما اخضر وترعرع فقد نما فاسداً كأصله وكان خيراً له لو ذهبت ذلك الفيضان به وبجذوره.

أى أن المدنية الحديثة تمشت فى صدر الغرب بقدم متثاقلة فما خفق لها قلبه ولا اضطرب، ثم وضعت يدها فى أيدى الغربيين فصعدت بهم إلى سمائها خطوة خطوة كما يعود الطفل الصغير على المشى وما أعجلتهم عن أمرهم كما أعجلتنا، فبلغوا ما أرادوا، وهوينا إلى أعمق مما كنا، كالحجر الثقيل يرمى به فى الجو، فإذا ارتد ارتد إلى حفرة يدفن نفسه فيها.

أى أن الغربيين أحسوا، فنهضوا، فجدّوا، فأثروا، فتمتعوا بثمرات أعمالهم ونحن أغفلنا جميع هذه المقدمات. ووثبنا إلى الغاية وثبًا فسقطنا.

فمهما كان نصيب آبائنا من الجهل، وانفراج المسافة بينهم وبين هذه المدنية الحاضرة، فقد كانوا على علاتهم أسعد منا حالاً وأروح بالاً وأهنأ عيشًا، وأسدّ خطوات فى سبل الحياة؛ وكانت المعيشة فيهم اجتماعية؛ أكثر منها فردية؛ فكانت الأسرة الوحدة أشبه شىء بالمملكة الدستورية المنتظمة يديرها عقل واحد فى جسوم كثيرة متفقة فى الرأى والدين والمذهب والأخلاق

والعادات؛ تجتمع حول المائدة كما تجتمع فى نادى المسامرة، وتتلاقى فى قاعة الصلاة كما تتلاقى فى ساعة المتنزه، يحبون الله، لا يختلفون إلا فى الطريق إلى رضاه؛ ويحبون الوطن ولا يختلفون إلا فى الطريق إلى خدمته، ويحترمون عاداتهم وأخلاقهم ولغتهم المكونة لهيئتهم الاجتماعية، ويفرون من العادات والمشارب الغربية عنهم فرارهم من الأسد؛ مخالفة أن يرق هذا الحاجز القائم بينهم وبين الأمم الأخرى فتنحل جامعتهم، فتهدأ حميتهم، فتجمد نفوسهم، فإذا هم ميتون ثم لا يبعثون.

وكان بين الصغار فى الأسرة والكبار فيها معاهدة رحمة واحترام يحترم الصغير الكبير فيكبر عمله وإرادته ومذهبه، فإذا أنزل نفسه منه هذه المنزلة أصبح بحكم الطبيعة مرآة له تنطبع فيها تلك الأعمال والإرادات والمشارب، حتى إذا أصبح الصغير كبيراً وجد من صغيره ما وجد منه كبيره، فلا تزال سلسلة التوارث فى الأسرة متصلة اتصالاً تعيا به الحوادث، وتكبوا دونه عاديات الليالى.

ويرحم الصغير الكبير فلا يألوه نصحًا فى حاضره ومستقبله، ولا يفتأ يطلب عنده ما عند نفسه حتى يتم بينهما التناسخ فإذا هو هو، حتى إذا قضى الله فيه قضاءه لا تفقد الأسرة بفقده شيئًا.

فمن لنا اليوم بتلك السعادة التى أثكلتنا إياها المدنية الغربية يوم أظلتنا بعلومها ومعارفها، ومخترعاتها الخالية، وزخارفها اللامعة الباطلة به فانقلبت المعيشة البيتية اجتماعية فردية محضة فالأخوان متناكران، والزوجان متنافران، والولد شقى بأبيه، والأب شقى بولده، وكأن ساحة المنزل ساحة الحرب، لا ترى فيها غير وجوه مقطبة، ونفوس منقبضة، وأشلاء فوق أشلاء، ودماء أثر دماء، وشقاء ليس يعدله شقاء.

ومن كان فى شك من هذه الحقائق فإنى أكله إلى جداول القضايا فى المحاكم فإن لم ير أن أكثر المخاصمات فيها -خصوصًا المدنية منها- واقعة بين الأقارب وذوى الرحم، فله حكمه ما شاء.

إن أبيت إلا أن تتمثل لك الحقيقة بأكمل وجوهها فاسمع قصة رجل

مصرى كـان ذا ثروة متوسطة عاشرت آباءه أجـيال متعددة؛ فمـا كانت تضيق بهم، وما كـانوا يضيقـون بها، وكان له ثلاثة أولاد و«امـرأة جديدة» متـعلمة تعرف كل شـىء إلا واجباتهـا وواجبات مـنزلها وزوجهـا وأولادها، وليتـها جهلت كل شىء إلا هذا فتكون قد علمت كل شىء، وتحب مطالعة الروايات الغرامية الفاسدة حبًّا ملك عليها مشاعرها وخوالجها فربما عرض لها المهم من الأمر فـلا تخف له قـبل فراغـها من الفـصل الذى تطالعه، وتحب التـمثيل فتقضى ليلها فى مشاهدته، ونهارها فى سـرد وقائعه ومشاهده على صواحبها وأترابهـا، وربما كانت تهـمس فى آذانهم أن ليتـها ترى «رومـيو» فـتكون له «جوليت»[1] وتبغض الحجاب بـغض الحرائر للسفور فيومهـا نصفان: نصف للخـروج، ونصف للتـهيـؤ له، فـهى خـارج المنزل من مطلع الشـمس إلى مغربها، بنى بها زوجها بعد وفاة زوجه الأولى فلم يغتبط بها غير عام واحد، ثم ضرب الدهر ضرباته فإذا بينهما عيشة لا أظن أن الجحيم أشد نكالاً منها.

أما أولاده فـأدخلهم مـدارس مختـلفة تعلمـوا فيـها لغـات مختلـفة. الإنكليزية والفرنسية والألمانية، ثم تخرجوا، هذا إنكليزى بفظاظته وخشونته، وهذا فرنسى بخلاعـته واستهتاره، وذاك ألمانـى بخيلائه وكبريائه، وجمـيعهم متفرنجـون مشربًا ومذهبًا ومطعمًـا وملبسًا ومسكنًا، وما فيـهم من تفرنج همة وعملاً.

خرجـوا من المدارس بلا دين ولا وطن، أما الدين فلأن أكثـر مدارسنا حتى الأهلية منها مادية محـضة لا تعلق للدين بشأن من شؤونها والدين خلق شأنه كـبقية الأخـلاق، لا يرسخ فى النفس إلا بتكرر السور الدينيـة وتداولها عليه، فـإن بعد عهدها به أغـفلته وأنكرته، وكذلك كـان شأن هؤلاء الأولاد المساكين فقست قـلوبهم، وجمدت نفوسهم، وفقدوا بفـقد دينهم أطيب عزاء يستـروحه الإنسـان فى هذه الحـيـاة المملوءة بالمصـائب، الحـافلة بالكوارث والهموم.

والإنسان مهما طال حوله، وكـثر طوله، واتسعت مذاهب قوته، فليس

---

(١) روميو وجوليت: اسم رواية لشكسبير.

ببالغ من دهره المعاند مـا يريد، لولا زهرة الأمل التى يتعهدها الدين بالسـقيا فى قلب المؤمن، فيستروح منها مـا يروح عن قلبه، ويسرى عن نفسه، ولولا يقـينه أن هناك حولاً أكـبر من حـوله، وطولاً أعظم من طوله، وإلهًـا قادراً يقرب إليه ما يريد مما ضاق به ذرعه، وعيت عنه قوته.

وأما الوطن، فلأن المدارس عندنا تديرها من وراء سـتار أيد أجنبية تربى التلاميذ لها لا لأوطانهم.

فكنت ترى منزل الرجل كـأنما هو مـجمع من مـجـامع السفـراء تركى متـمسك بتركيـته، وإنكليزى يهـتف ليله ونهاره بأن الدولة الإنكليزية سـيدة البحـار، وأن الشمس لا تغـيب عن أملاكهـا، وفرنسى يعبـد فرنسـا ويسبح بحـمدها، ويصـفهـا بأنها أمـة العدل والرحـمة، وأن أسـعد المسـتعـمرات مستعـمراتها، وألمانى يستظهر خطب الإمبراطور، ويتكهن أن المسـتقبل لألمانيا يوم يمحى اسم انكلترا وفـرنسا من مصـورات الجغرافـيا، وكثيـراً ما يقع بين المتـفـرنس والمتألمـن النزاع الطويل فى شـأن الألزاس واللورين، وبين المتـألمن والمتكلنز الشقاق العظيم فى واقعة واترلوا، وأى القـائدين كان له الفضل فيها بلوخن أو والنجتـون؟ ولا يتفقون إلا فى الساعـة التى يذكرون فيهـا أمتهم، فإنهم يمثلونها لأنـفسهم وللناس أقبح تمثيل ويلبـسونها ورجالها قـديمًا وحديثًا أثواب المراقع المضحكة، غير مستحيين من أنفسهم ولا من الناس، ولا مبالين بالأدمع المنهلة من ناحية والدهم الجالس ناحيـة يندبهم، ويندب نفسه معهم، فبئس الاختلاف حين يختلفون ولا حبذا الاتفاق يوم يتفقون.

وهكذا انحلت الجـامعـة فى هذا المنزل، وتفـرق أفراد تلك الأسـرة أيما تفرق وانقـسمـوا على أنفسهم كل الانـقسام، فـلا يصطحبـون فى متنزه ولا يجتمعون لصـلاة، ولا يتصافون فى سمر، ولا يتفقـون فى شأن من شئونهم البيـتية، حـتى أصبح لكل منهم من المأكل والمشـرب والملبس وجمـيع مرافق الحياة ما يطالبه به خلقه المباين لخلق أخيه أو أبيه.

فأنى لهم التعاضد الذى كان لآبائهم من قبل فى خوض غمرات الحياة، وأنى لوطنهم أن يسعد بهم بعد عجزهم عن إسـعاد أنفسهم والمنزل قوام الأمة تسعد بسعادته، وتشقى بشقائه؟

وأى شأن لهذه المعلومات الكثيرة التى حشوا بها أذهانهم، وهل أفادوا(١) بها إلا هذراً فى المنطق، وثرثرة فى اللسان، وشغلاً للأذهان، لا يغنى عن سعادة الحياة وهنائها فتيلاً؟

ولو عقلوا أن ذلك العلم القليل الذى كان يعلمه آباؤنا ونسميه جهلاً وهمجية، هو خير من علمنا الكثير المستفيض الذى نساجلهم به، وننعى عليهم تاريخهم من أجله، لأنهم كانوا بقليلهم هذا يعملون ما نعجز عنه نحن بكثيرنا.

أجل إنهم كانوا يجهلون عدد أقسام الأرض، وأن مصر فى شمال إفريقيا وسوريا فى غرب آسيا، ولكنهم كانوا يعلمون أن وطنهم حيثما حل من أقسام الأرض محبوب لديهم، وأن أبناء وطنهم أخوة لهم يسعدون معًا ويشقون معًا وأن سعادتهم فى استقلالهم، وشقاءهم فى امتداد اليد الأجنبية إليهم، وكانوا يعتقدون كثيراً من الخرافات والأوهام، وأن هناك أرواحًا خيرية وشرية تنفع وتضر وكانوا يتمسحون بالمعابد والمشاهد، ويطاطئون رؤوسهم بين يدى رؤساء الأديان تحنثًا وتعبداً، وعندى أن دينًا خرافيًا خير من لا دين، لأن لهذه المعبودات الوهمية فى نفوس العابدين لها سلطانًا قاهراً يقاوم أهواء الشر فيها، ويطهرها من كثير من الرذائل التى تعيا بها القوانين الشرعية والوضعية، كالخيانة والكذب، والحقد والحسد، وسفك الدماء، واغتيال الأموال، وغير ذلك من الشرور الإنسانية التى لا تزجر النفس عنها ما لم يكن منها لها زاجراً، والتى فشت اليوم بين طبقات المتعلمين الذين أخذوا العلم مجرداً عن روح التربية وصبغة الأخلاق.

ولقد كان آباؤنا على علاتهم يعتمدون فى أكثر عقودهم من بيع وشراء وهبة وقرض، ورهن على صدق ألسنتهم، ووفاء قلوبهم، فكان الرجل يأمن أن يقرض صاحبه الآلاف المؤلفة من الذهب بلا كتابة صك، ولا شهادة شاهد، فأصبحنا نكتب الصكوك ونستشهد الشهود على الدانق والسحتوت، والويل كل الويل لصاحب الحق إذا ضاع صكه، أو أنكر شهوده وكثيراً ما يفعلون.

---

(١) أفادوا: كاستفادوا.

وجملة الحال أنهم كانوا يجهلون أكثر ما نعلم، ولكن لم يجن عليهم جهلهم أكثر مما جنى علينا علمنا، وكانوا محرومين أكثر مما ننعم به اليوم من مساكن فاخرة، ومراكب فارهة، وملابس زاهية، وفرش وثيرة، وآنية صقيلة، وأدوات للمأكل والمشرب ثمينة، ولكنهم لم يكونوا محرومين فيما بينهم وبين أنفسهم شيئًا من هذا كله لأنهم ألفوا معيشتهم البسيطة كما ألفنا نحن هذه المعيشة المركبة، فنحن وهم سواء فى الرضا بحالتينا، إلا أن معيشتنا يكدرها الفقر والإفلاس الآجل أو العاجل، ومعيشتهم لم يكن يكدرها من ذلك شىء وها هى دفاتر المصارف وبيوت الأموال مكتظة بديون الفلاحين التى كانوا فى غنى عنها لولا المدنية الحاضرة التى قلبت الكماليات فى نظرهم إلى حاجيات، فبنوا القصور، وشادوا الدور، وما شادوا لا يعلمون إلا قبوراً دفنوا فيها راحتهم وهناءهم ومستقبل ذريتهم من بعدهم، فإن هؤلاء الأولاد المساكين بعد أن خرجوا من المدارس بلا دين ولا وطن أرادوا أن لا يبقوا فى قوس الحرية منزعًا فأطلقوا لأنفسهم العنان فى سبيل الشهوات واللذائذ، فكانوا يسهرون الليل بين رنين الكئوس وضرب الدفوف؛ ثم ينامون النهار بين التمطى والثوباء، حتى نبت بهم وظائفهم التى هى كل ما حصلوا عليه من علومهم ومعارفهم، فأبعدتهم عنها، فأصبحوا كلاً على أبيهم وعلى الناس، لم ينفعهم علمهم، ولم تغن عنهم شهادتهم، بعد أن نفخت الكبرياء فى صدورهم فأبوا أن ينزلوا للاحتراف بما يقوم حياتهم كما يفعل أولئك الذين أنضوا ركائب شبابهم فى طريق تقليدهم، وباعوا فى سوق التشبه بهم كل ما تملك أيمانهم وقلوبهم، وبعد أن ملكت الشهوات قيادهم فما وجدوا فى أنفسهم متسعًا لسواها، فأغروا بثروة أبيهم يأخذون منها بالحق تارة وبالباطل تارات، وكانوا قد قلصوا ظلالها أولاً بنفقات دراستهم، وثانيًا باتباع ما حسن لفظه وقبح معناه من السلع الأوربية، التى تفنى خزائن روكفلر وروتشلد قبل الوصول إلى إشباع بطون تجارها، فنضب معينها ولم يبق منها حتى الذماء[1] فتبدل ذلك النعيم شقاء، وتلك السعادة والرفاهية فقراً وعدمًا، أما الوالد فقضى شهيد العلوم والمعارف، والمخترعات والمستحدثات، وأما الأولاد

---

(١) الذماء: بقية النفس.

فاغتالت أحدهم يد الزهرى وكانت لأمثـاله من المغتالين واحتوى الآخر فراش السل حيث لا زائر ولا طبيب، وافتـرش الثالث تراب السجن على أثر جناية دفعه إليها العوز والحاجـة، وفرت «المرأة الجديدة» إلى معرض الأعراض حيث يبتاعها الشقاء بثمن بخس وهو فيها من الزاهدين:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسـمـر بمكة سـامـر

هذه قـصة منزل من مـنازلنا، وكل المنازل بيننا ذلك المنزل إلا مـا رحم الله، فلو أن باكيًـا بكى على ما آلت إليـه حالة هذه الأسرة الشـقية فـهو إنما يبكى أسرًا متعدِّدة، وأمة كاملة:

لقـد لامنى عند القبـور على البكا ... رفيـقى لتذراف الدمـوع السوافق
فـقلت له إن الأسى يبـعث الأسى ... دعـونى فهـذا كله قـبر مـالك[1]

وجملة القـول إن للحاضر سيـئات فوق سـيئات الماضى، فلا خـير فى العصرين، ولكن ويلاً أخـف من ويلين، والأمم لا تسعد بمعرفة الخـير والشر فالخير والشر معروفان حتى لأمة النمل، وإنما سـعادتها فى معرفة خير الخيرين وشر الشرين، ولئن دام هذا الحال، وأطرد المقياس، فالغد شر من اليوم، كما كان اليوم شرًّا من الأمس.

المرقص

حدث أحـد الأصدقـاء قال: ذهبت ذات ليلة إلى مـرقص من مراقص الأزبكيـة ولم أكن زرته ولا زرت غـيـره من قـبل، فـرأيت على بابه جنديًا يتمشى فى عرصته مشية هادئة مطمئنة، فذعرت لمرآه، وتراجعت قليلاً قليلاً، وكدت أعـتقد أننـى أخطأت الطريق إلى المرقص، وأننى بين يدى دار من دور الحكومة يحرسـها حاجبها، لولا أنـنى لم أر فى وجوه الداخلين ذلك الخوف

(١) الأبيات لمتمم بن نويرة يرثى أخاه مالكًا.

والاضطراب، والذل والانكسار، الذى اعتدت أن أراه فى وجوه الشاكين والمتظلمين.

وقفت ساعة أتردد بين الإقدام والإحجام حتى لمس كتفى لامس فالتفت ورائى فإذا صديق من أصدقائى يسألنى: ما وقوفك ها هنا؟ فقلت له ما قاله أبو العيناء لصاحبه حينما سأله عن سبب بكوره: أراك تشاركنى فى الفعل وتفردنى بالعجب، قال: أنا أفتش عن ابن عمى، قلت: وأنا أفتش عنك، فابتسم وقال: هيا بنا ندخل قبل أن تمتد سلسلة التفتيش إلى حيث ما لا نهاية له، وأمسك بيدى حتى جاز بى باب المرقص، فسألته ما هذا الجندى الواقف أمام الباب؟ قال: كيف ذهب عنك أن حكومتنا قد أصبحت اليوم حكومة مدنية لا أدبية، فتساوت فى نظرها «المصالح» والمراقص، واختلط عليها الأمر بين مواقف القضاء، ومعاهد البغاء، فأصبح الجندى يحمى أبواب العاهرات كما يحمى أبواب الوزارات، ويقف أمام البارات موقفه أمام الإدارات.

وإن العين لا تكاد تملك مدامعها سخًا وتذرافًا كلما أبصرت هذا الجندى الظريف واقفًا هذا الموقف الذليل، يسمع قراع الدفوف لا قراع السيوف، ويرى حمرة الصهباء لا حمرة الدماء، ويحمى الفسق والفجور، لا القلاع والثغور، وما أعجب لشىء عجبى لهذه الحكومة التى تضن بجنديها أن يشتمه شاتم، أو يلمسه لامس؛ فتغضب له غضبة مضربة فتراءى فيها الشامة والحمية، والعزة والنخوة ثم لا تضن به أن توجره نائحة فى الجنائز، أو قوادًا فى المراقص، وهو هو بعينه الذى يمثلها فى وقفاته، وينوب عنها فى غدواته وروحاته.

هذا ما كان يحدثنى به ذلك الصديق وهو سائر بى إلى قاعة المرقص حتى وصلت إليه، فماذا رأيت؟

إن كنت لم تسمع فى حياتك أن فدانًا واحدًا من الأرض يبتلع فى جوفه ستة ملايين من الأفدنة فأعلم أنه المرقص الذى يأكل وحده جميع ما تنبته تربة مصر من الخيرات والبركات، فكأنه العين التى تسع الفضاء بأرضه وسمائه؛ أو القلب الذى يحمل فى سويدائه علم ما كان وما يكون.

رأيت الدنانير ذائبة فى الكؤوس، والعقول جامدة فى الرءوس، والحبائل منصوبة لاستلاب الجيوب، والسهام مسددة لاصطياد القلوب، ورأيت من كنت أحسبه أوفر الناس عقلاً، وأذكاهم قلبًا، ومن كنت أراه فأغضى بين يديه إجلالاً وإكبارًا، واقعًا فى حبالة بغى تقيمه وتقعده، وتطويه وتنشره، وتعبث به عبث الطفلة بلعبتها؛ وهو فى غير هذا المكان قيصر الرومان عزة وفخارًا، وكسرى فارس أنفة واستكبارًا.

رأيت من يزعم أن الله قد وهبه عقلاً يخترق أشعة حجب الغيب، وعلمًا تتساوى أمامه المادة وما وراءها، ومن لا يزال يتمثل صبحه ومساءه بقول الشاعر:

وعلمت حتى ما أسائل واحداً عن حرف واحدة لكى ازدادها

يجهل قضية من القضايا الأولية التى يشترك فى فهمها الأذكياء والأغبياء والعلماء والجهلاء.

رأيته يجلس فى المرقص فتمر به البغى فما هى إلا لمحة طرف، أو غمزة كف. حتى تحدثه نفسه أنه قد وقع من نفسها، وملأ فراغ قلبها، فيدعوها إليه فتجلس بجانبه، فما هى إلا ابتسامة خالية، أو كلمة كاذبة، حتى يقسم بكل محرجة من الإيمان، أن نفسه صادقة فيما حدثته، وأن الفتاة قد علقت به علوقًا لا نجاة لها من بعده إلى يوم يبعثون.

هنالك يبذل لها ما يشاء من نفسه وشرفه وماله، ويرى أن ذلك قليل فى جانب ما تبذل له من دقائق تقضيها بين يديه، وابتسامات تجود بها عليه.

لقد كذبتك نفسك أيها الرجل فها هى المرآة بجانبك فهل ترى فيها منظرًا رائعًا، أو جمالاً ساطعًا، يأسر أقسى النساء قلبًا، وأعصاهن عنانًا.

إن الفتاة التى أسمعتك كلمة الحب قد أسمعتها قبلك وستسمعها بعدك كل صاحب جيب مثل جيبك، وعقل مثل عقلك.

وإن كنت فى شك مما أقول فأمسك عن فتح الزجاجات لحظة قصيرة ثم انظر بعد ذلك أين مكانك من نفسها، وموقعك من قلبها، فإن لم تمطر عليك

سحائب اللعنات، وتجعلك غرضًا لسهام التهكمات، فأنت أصدق الصادقين، وأنا أكذب الكاذبين.

رأيت هناك كل حاسة من الحواس قد لبست منظارًا يكبر المنظورات، ويضاعف المسموعات، تغنى المغنية بصوت مضطرب النغمات، بارد الترجيعات، ثقيل الحركات والسكنات، فتمتلئ أرجاء القاعة بالآهات، وتدوى فيها الصيحات المزعجات، وتطل العجوز الدردبيس على الناس بوجه مغضن وجفن مقرح، وسن بارز، وخد غائر، فتطير حولها القلوب، وتتحلب لها الأفواه، وتترامى تحت أقدامها الوجوه، فقلت فى نفسى: أهذا هو المرقص الذى تخرب فيه البيوت العامرة، وتذبل فيه الرياض الزاهرة؟

أهذا هو الذى تتدفق فيه الأموال الغزار، تدفق الأنهار فى البحار، وتقبر فيه نفوس الكرام، قبل أن تقبر تحت الرجام، والله لا يبلغ العدو منا بخيله ورجله وأساطيله وقنابله، ولا الأرض بزلازلها وبراكينها، ما يبلغ منا المرقص ببغاياه.

قال المحدث: والحق أقول إنى دخلت المرقص وأنا أحسب أنى أنفس عن نفسى كربة، فرأيت ما زاد نفسى همًّا، وملأ قلبى غيظًا، فقلت لصاحبى: هل لك فى القيام؟ فقام وقمت وأنا أقول: والله ما أدرى ما ترك هذا المكان، للمارستان؟

الماضى والحاضر

عندى أن الفضيلة والرذيلة كالجمال والقبح أمران اعتباريان يختلفان باختلاف الأمكنة والأزمنة، فكما أن الجمال فى أمة قد يكون قبحًا فى أمة أخرى كذلك الفضيلة فى عصر، قد تكون رذيلة فى عصر آخر.

ليست الفضائل والرذائل أسماءً توفيقية كأسماء الله تعالى لا يمكن تغييرها ولا تبديلها، وليست الفضيلة فضيلة إلا لأنها طريق السعادة فى

الحياة، ولا الرذيلة رذيلة إلا لأنهـا طريق الشقاء فيها، فيـحث تكون السعادة فى صفة فهى الرذيلة، وإن كانت صفة الكرم.

اعتاد علماء الأخلاق فى كل زمان وفى كل مكان من عهد آدم إلى اليوم أن ينشـروا لنا فى كل كتـاب يؤلفـونه أو رسالة يـدونونها جـدولين ثابتين لا ينتقـلان ولا يتلحلحان، يكتبون على رأس أحـدهما عنوان «الفضائـل» وتحته كلمات الشـجاعـة والكرم والأمانة والوفاء والعـفة والمروءة والصـدق والعدل والرحمـة، وعلى رأس ثانيهمـا عنوان «الرذائل» وتحته كلمـات الجبن والبخل والخيـانة والغدر والطمع والكذب والـظلم والقسوة، وأرى أنـه قد آن لهم أن يعلمـوا أن الناس اليوم غيـرهم بالأمس، وأن أساليـب الحياة الحـاضرة غـير أساليب الحـياة الماضية، وأن كـثيراً من الصـفات التى كانت فى عهـد البداوة والسذاجة رذائل يحتويـها الناس ويتبرمون بها، ويستثقلـون منها قد أصبحت فى هذا العصر عـصر المدنية المادية المؤسسة على المنافع والمصالـح حالة واقعة مقـررة فى نظام المجتـمع البشرى، وأسـسًا ثابتـة تبنى عليها جـميع أعـماله وشئـونه، فلابدّ للناس منها، ولا غنى لهم عنهـا، ولا مندوحة لهم إن أرادوا أن يخوضـوا معـترك الحـياة مع خائـضيه من أن يتـعلموها تعـلمًا نظامـيًّا، ويدرسوها مع مـا يدرسون من علوم الحيـاة التى يتوقف عليـها نظام عيـشهم ويتألف منها شأن سعادتهم وهنائهم.

كان الكرم فضيلة يوم كان الناس يحفظون الجميل لصاحبه، ويعرفون له يده التى أسداها إليهم، فإذا هوى به كرمه فى هوة من هوى الفقر لا يعدم أن يجد من بين الذين أحـسن إليهم أو عظم فى نفوسهم شـأن إحسانه -من يمد إليه يد المعونة ليـستنقذه من شقائه، أو يرفه عليه، أمـا اليوم وقد أنكر الناس الجميل، واسـتثقلوا حمله على عواتقهم، بل أصـبحوا يشمتون بصـاحبه يوم تزل به قدمه، ويصـبون على رأسه جمـيع ما فى كتب المترادفـات من أسماء الجنون وألقـابه، فليس الكرم فـضـيلة، وليس من الرأى الدعـاء له، والحض عليه.

وكانت الرحمة فضيلة يوم كان الناس صادقين فى أحاديثهم عن أنفسهم فـلا يعتـرف بالبؤس إلا بالبـائس، ولا يلبس القـديم إلا من عجـز عن لبس

الجديد، أما اليوم وقد ذلت النفوس، وسفلت المروءات، فلبس ثوب الفقر غير القفير، وانتحل البؤس غير البؤس، وأصبح نصف الناس كسالى متبطلين لا عمل لهم إلا اللجوء إلى ظلال القلوب الرحيمة يعتصرونها ويحتلبون درتها حتى تجف جفاف الخشف البالى، فالرحمة هى المقر العاجل، والخسران المبين.

وكانت الشجاعة فضيلة يوم كان الناس ينصرون الشجاع ويؤازرونه ويتبعون خطواته فى طريقه التى يذهب فيها، فلا يتخلون عنه ولا يخذلونه حتى يتم له الظفر الذى يريد، أما اليوم وقد فترت همم الناس، ووهت عزائمهم، وماتت فى نفوسهم الحفائظ والغير، ووكل كل أمره إلى صاحبه، فإن رأوه قائمًا بدعوة وطنية أو اجتماعية أغروه بالمضى فيها، وقفوا عن كثب ينظرون ماذا يفعل فإن ظفر هتفوا له، وانحدروا إليه يقاسمونه الغنيمة التى غنمها، وإن فشل خذلوه، وتنكروا له، فالشجاعة لا يجد صاحبها من ورائها إلا التهلكة والشقاء.

وكانت القناعة فضيلة يوم كان الفضل هو الميزان يزن به الناس أقدار الناس وقيمهم، ويوم كان الفقر مفخرة للشريف إذا عقدت يده، وعزفت نفسه. والغنى معرة للدنىء إذا سفلت مساعيه وأغراضه، أما اليوم وقد مات كل مجد فى العالم إلا المجد المالى، وأصبح الناس يتعارفون بأزيائهم ومظاهرهم، قبل أن يتعارفوا بصفاتهم وأعمالهم، فالقناعة ذل الحياة وعارها، وبؤسها الدائم، وشقاؤها الطويل.

وكان الغضب رذيلة يوم كان الناس يعرفون فضيلة الحلم ويقدرونها قدرها ويطاطئون رءوسهم إجلالاً لصاحبها، أما وقد أصبح الناس أشرارًا يحملون شرورهم على كواهلهم، ويدورون بها فى كل مكان يطلبون لها رأسًا يصبونها عليه، ولا يعجبهم مثل الرأس الضعيف المتهالك الذى لا يحسن الذياد عن نفسه، فلا خير فى الحلم، والخير كل الخير فى الغضب.

الحياة معترك أبطاله الأشرار، وأسلحتهم الرذائل، فمن لم يحاربهم بمثل سلاحهم هلك عند الصدمة الأولى.

يجب أن يكون الناس جميعًا إما فضلاً ليسعدوا بفضيلتهم، أو أدنياء ليتقى بعضهم بأس بعض، أما أن يتقلد سوادهم سلاح الرذيلة، والنزر القليل منهم سلاح الفضيلة وهو أضعف السلاحين وأوهاهما فليس لذلك إلا معنى واحد: هو أن يهلك أشراف الناس وفضلاؤهم فى سبيل أدنيائهم وأنذالهم.

إن الدعاء إلى البر والإحسان، والرحمة والشفقة، والعدل والإنصاف، والصدق والإخلاص، فى هذا العصر، إنما هو حبالة ينصبها الأقوياء الماكرون للضعفاء الساذجين ليخدعوهم بها عن مائدة الحياة التى يجلسون عليها، فيستأثروا بها من دونهم، فلا يدعو الداعى إلى الكرم إلا لينقل ما فى جيوب الناس إلى جيبه، ولا إلى العفو إلا ليصيب بشره من يشاء دون أن يناله من الشر شىء، ولا إلى القناعة إلا ليقلل من سواد المزاحمين له على أعراض الحياة ومطامعها، ولا إلى الصدق إلا ليتمتع وحده بثمرات الكذب ومزاياه.

كلنا يكذب، فلم يعيب بعضنا بعضًا بالكذب والتلفيق؟ وكلنا يبتسم لعدوه وصديقه ابتسامة واحدة، فلم نستنكر الرياء والمصانعة؟ وكلنا يطمع فى أن تكون له وحده جميع خيرات الأرض وثمراتها فلم نستفظع الطمع والجشع، وكلنا يتربص بصاحبه الغفلة ليختله عما فى يده فلم نشكو من الظلم والإرهاق؟

إننا لا نفعل ذلك إلا لأنا نريد أن نستخدم الفضيلة فى أعراضنا ومآربنا كما كان يستخدم رجال الدين فى الأعصر الماضية.

يجب أن يتعلم الطفل من أول يوم يجلس فيه أمام مكتب مدرسته أن الموجود فى الحياة غير الموجود فى الكتب، وأن قصص الفضائل التى يقرءونها ونوادر المروءات والكرم والإيثار، وأحاديث الشهامة والشجاعة وعزة النفس وإبائها إنما هى روايات تاريخية قد مضت وانقضى عهدها، حتى لا يصبح ناقمًا على العالم يوم ينكشف له وجهه؛ ويرى سوءاته وعوراته وحتى لا يضيع عليه عمره بين التجارب والاختبارات.

وليت الذين يعرفون من شئون الرذائل ودخلها فوق ما أعلم يضعون للناشئ كتابًا مدرسيًا على نمط كتب التاريخ يوضحون له فيه كيف يكذب

التاجر، ويغش الصانع؛ ويلفق المحامى، ويدجل الطبيب؛ ويختلس المرابى، ويرائى الفقيه، ويصانع السياسى، ويتقلب الصحافى، ثم يقولون له: هذه هى الحياة، وهذا هو ما يجرى فيها، فإن أردتها على علاتها فذاك، أو لا، فدونك مغارة موحشة فى قمة من قمم الجبال فعش فيها وحيدًا بعيدًا عن العالم وما فيه، وكل مما تأكل حشرات الأرض، واشرب مما تشرب منه، حتى يوافيك أجلك.

الشر لا يقاوم إلا بالشر، والظلم لا يدفع إلا بالظلم. وحامل السيف لا يغمده فى غمده إلا أمام حامل سيف مثله، والسيل الجارف لا يقف عن جريانه إلا إذا وجد فى وجهه سدًّا يعترض طريقه، والظالم لا يظلم إلا إذا وجد بين يديه ضعيفًا، والمحتال لا يحتال إلا إذا وجد أمامه غبيًّا، والناس لا يتحامون ولا يتحاجزون ولا يأمن بعضهم بأس بعض إلا إذا برزوا جميعًا فى ميدان واحد، يتقلدون سلاحًا واحدًا، من نوع واحد.

من أراد الفضيلة للفضيلة فسبيلها المقدس الشريف معروف لا ريبة فيه فليسلكه كما يشاء، ومن أرادها على أن تكون وسيلة من وسائل العيش، فى عصر مثل هذا العصر، وناس مثل هذا الناس، فليعلم أنه قد أخطأ الطريق، وأضل السبيل.

ما أجمل الفضيلة وما أعذب مذاقها وما أجمل العيش فى ظلالها، لولا أن شرور الأشرار وويلاتهم قد حالت بيننا وبينها، فرحمة الله عليها، وواأسفًا على أيامها وعهودها.

الشيخوخة المتمردة

حدث منذ عهد قريب أن أحد الوجهاء الريفيين كان يختلف إلى أسرة كريمة ليخطب إليها فتاة من فتياتها لابنه، ثم اتفق أن وقع نظره على تلك الفتاة عرضًا فشغف بها حبًّا وخطبها لنفسه، فلم ير أهلها مانعًا من أن

يزوجـوها منه على تقدم سنـه، وإدبار أمره لأنه أكـثر من ابنه مـالاً، وأوسع جاهًا وسلطانًا، فكانت نتيجة ذلك أن هجر الابن منزل أبيه هجرة لا رجعة له من بعدها، لأنه كـان يحب الفتاة حبًّا جمًّـا، وأصاب الفتـاة ذهول شديد لا يزال ملازمًا لها حتى اليوم، وأصـبح الشيخ حزينًا بائسًا لأنه أصبح بلا زوجة ولا ولد.

سمعت بهذه الحادثة فتألمت لها كثيراً. ثم قرأت حادثة أخرى وقعت فى فرنســا فى العام الماضى سـأقصـها عليك لتـوازن بين الحادثتين كـما وازنت، وتستنتج منهما ما استنتجت:

فجعت سيدة اسمها «مارجـريت بونفيل» بوفاة زوجها وهى فى الخامسة والثلاثين من عـمرها. وكـانت امرأة بارعة الجـمال، رائعـة الحسن، لا يراها الرائى حتى يخيل إليـه أنها الكوكب المشبوب رونقًـا وبهاء، وأنها لا تزال فى مستهل العقد الثالث من عمرها، فاستـوحشت لوفاة زوجها استيحاشًا شديدًا وبدأت تخـتلف إلى بعض الأندية العامـة علها تـروح عن نفسـها وحـشتـها وكآباتهـا فاتصلت هناك بفـتى من نبلاء الفـتيان أعـجبهـا منه جمـال صورته وعذوبة أخلاقه وحـلاوة سمره ورقة آدابه. فأحبته وافـتتنت به وأضمرت فى نفسها أن تتذرع بكل ما تعـرف من الوسائل للزواج منه، وإن كان أصغر منها سنًّا بنحو عـشر سنين. فلم تزال تتودد إليـه، وتستدنى قلبـه حتى نزلت من نفســه المنزلة التى تريدها، وكـانت إذا جلست إليه للحـديث معـه يردد على لسانها كـثيرًا ذكر ابنتها التى خلفـتها من زوجها المتـوفى، فكان يخيل إليه أن تلك الابنة طفلة فى الخامـسة أو السادسة من عمرهـا، حتى زارها فى منزلها يومًـا من الأيام فحـمل معـه لطفلتهـا هدية من اللعب التى يحـبها الأطـفال ويطربون لهـا، فلمـا وقع نظر مارجـريت عليـه وعلى مـا يحمل ضـحكت وقالت: ما هذا الذى تحمل؟ قال: إنها هـدية لمارى أريد أن أقدمها إليها وأين هى؟ فأرادت العبث به وقـالت له: إنك تجدها فى الجهة الشرقيـة من الحديقة على شاطئ الجدول، فاذهب إليها وقدم لها هديتك بنفسك.

فذهب حيث أشـارت، فراعه أنه لم يجد أمامـه طفلة فى السادسة من عمرها كما كـان يظن، بل فتاة كاعبًا رائعة الجمال فى السـادسة عشرة فوقف

أمامها موقف الحائر الذاهل لا يدرى ماذا يفعل ولا ماذا يقول، حتى رنت من ورائه ضحكة مارجريت، وكانت قد تبعته من حيث لا يشعر فارفض جبينه عرقًا، وتقدمت مارجريت نحو ابنتها وقالت لها: أقدم لك يا مارى صديقى جورج الذى حضر اليوم ليهديك حصانًا خشبيًا جميلاً، فهل تحسنين ركوب الخيل الخشبية؟ فابتسمت مارى وفهمت القصة، فأثر فى نفسها خجل جورج وارتباكه فمشت إليه ووضعت يدها فى يده وقالت له: أشكر لك هديتك يا سيدى، وأتقبلها منك باغتباط وسرور، وأعدك أنى سأحفظها لك عندى تذكارًا دائمًا لا أنساه، فسرى عنه ما لحقه من الخجل وجلسوا جميعًا يتحدثون ويسمرون، ومر لهم أطيب يوم مر لأحد حتى أظلهم الليل فاستأذن جورج وعاد إلى منزله.

وأصبح بعد ذلك يختلف إلى منزل مارجريت لا من أجل الأم وحدها، بل من أجل الأم والبنت، حتى حضر صباح أحد الأيام، وكانت الأم قد خرجت لبعض شأنها، فوجد مارى وحدها، فشعر فى نفسه بشىء من الارتياح لم يكن يشعر بمثله من قبل، وكأنه كان يتمنى أن يجدها خالية فوجدها، وكانت جالسة على شاطئ الجدول فى المكان الذى رآها فيه أول ما رآها، فجلسا معًا يتحدثان حديثًا طويلاً ذهبا فيه مذاهب مختلفة، حتى أشرفا على ذلك المورد العذب من الحب، فورداه، فإذا كل منهما يضمر لصاحبه من الوجد فوق ما تضمر الأفئدة والقلوب، وإنهما لمضطجعان وجهًا لوجه على ذلك البساط الأخضر الجميل ضجعة يتمنى المصور أن يراها فيرسمها فيرسم صورة السعادة الكاملة التى يفتش عنها الناس جميعًا فلا يجدونها، إذ وقفت بهما الأم من حيث لا يشعران فرابها منظرهما، وخيل إليها أنهما يتحدثان فى شأن غير الشأن الذى يأخذان فيه عادة أمامها، فأصغت إليهما، فألمت بطرف من حديثهما، فدارت بها الأرض الفضاء دورة كادت تصعق فيها، وتمثل لها أن صرح حياتها الشامخ العظيم قد خر بين يديها دفعة واحدة فثارت من حولها عبرة قاتمة حجبت عن عينها كل شىء فأملست من مكانها إملاسًا ومشت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى غرفتها فتهافتت على فراشها وبكت ما شاء الله أن تفعل حتى هدأ بعض ما بها، فمسحت عبرتها بيدها

فإذا المرآة أمامها، وإذا شعرات بيض سانحات فى رأسها تهتف بها أن قد انقضى عصر شبابك أو كاد، وقد خطوت الخطوات الأولى إلى شيخوختك، فأخلى مكانك لابنتك، فهى أولى به منك، وحسبك من السعادة أن تفرحى لفرحها، وتهنئى لهنائها، واعلمى أن للطبيعة حكمًا قاسيًا لا يختلف عليه مختلف، ولا يتمرد عليه متمرد إلا هلك، ومرت بها على حالتها تلك ساعة كانت عواطف قلبها ونوازعه تعترك فيها اعتراكًا وكان يميل بها الميزان نحو نفسها مرة، فتثور ثائرتها، وتأبى إلا أن تتمتع بالحياة الطيبة كما يتمتع بها أمثالها، ونحو ابنتها أخرى، فتلين عريكتها، ويسلس قيادها، وتقول فى نفسها: إنها أولى به منى، لأنه خلق لها وخلقت له حتى غلبت نزعة الخير فيها على نزعة الشر، فخرجت من غرفتها باسمة متطلقة حتى وصلت إلى مكانهما، فرأتهما مستغرقين فى شأنهما الذى كانا فيه لا يشعران بشىء مما حولهما، فصاحت بهما: أأنتما هنا يا ولدىّ؟ فاضطربا إذ رأياها، فابتسمت لهما ووضعت يدها فى أيديهما وعادت بهما إلى غرفتها، وجلست تتحدث إليهما حديثًا طويلاً انتهى بعقد الخطبة بينهما، وما هى إلا أشهر قلائل حتى زفت إليه، وولدت لهما بعد عام واحد طفلة كان نصيبها ذلك الحصان الخشبى الذى أهداه أبوها لأمها منذ عامين حين ظن أنها طفلة فى السادسة من عمرها.

وكانت قد بقيت بقية من مرارة الألم فى أعماق قلب مرجريت لم تزل تتضاءل شيئًا فشيئًا حتى رن فى أذنها يومًا من الأيام صوت حفيدتها تدعوها «جدتى» فكان هذا آخر عهدها بها.

وكذلك استطاعت مرجريت أن تعيش بعد ذلك سعيدة هانئة فى ظل سعادة ابنتها وهنائها.

ذلك ما فعل الرجل فى السبعين من عمره، وهو يخطو إلى القبر خطوات حثيثة، وهذا ما فعلت المرأة وهى نصف لا إلى الشيخوخة ولا إلى الشباب فجوزى هو على تمرده على الطبيعة، وخروجه عن سنتها شر الجزاء، وجوزيت هى على تعقلها ورزانتها، وتأدبها بأدب الحياة، أحسن الجزاء.

عجائز بوشنج

القاعدة المطردة فى هذا البلد أن الرجل إذا ابتسم له دهره يومًا من الأيام فنقله من أرض الخصاصة والفقر، إلى سماء الثروة والغنى، بنى بينه وبين ماضيه سلمًا محكمًا لا تنال منه المعاول، ولا تعصف به العواصف، ثم ألقى وراء ذلك السد جميع متعلقات ذلك الماضى، زيه وهيأته، ولغته ولهجته، ومناخه ومسكنه، وعاداته وأخلاقه، وأصحابه وعشراءه؛ وجميع صلاته وعلائقه، ولو استطاع أن يلقى بالأثرين الوحيدين الباقيين له: صورته واسمه لفعل.

يريد أنه قد أصبح إنسانًا غير ذلك الإنسان الأول، لا صلة له به؛ ولا شأن له معه، وأنه قد خلق خلقًا جديدًا.

إنها لخلة رديئة جدًا ما رأيت فى الخلال أقبح منها.

إنه يفعل ذلك لأنه يعتقد أن الفقر عيب و«عار»، والفقر ليس بعيب ولا عار، فإن كان لابد له أن يرى ذلك فليعلم أنه قد قضى على أبويه وأهله وعشيرته وأصدقائه، بل على السواد الأعظم من أمته بل على نفسه أيضًا، لأنه قضى عصر شبابه، والشبابُ هو الحياة من مبدئها إلى منتهاها، فى الفقر والخصاصة، والعَدم والإقلال.

ولا أدرى ماذا يكون شأنه غدًا إذا استرد الدهر هبته منه، وكثيرًا ما يسترد الدهر هباته وعطاياه، بل لا يكاد يهب هبة، أو يمنح منحة حتى يستردها.

عذرته فى ثوبه الذى خلعه، وقلت قد لبس لكل حالة لبوسها، وفى داره التى هجرها، وقلت لابد أن يكون هناك فرق بين حياة السعة وحياة الضيق، وفى لهجته التى غيرها؛ لأنه يعيش فى قوم غير القوم الذين كان يعيش فيهم، وفى خده الذى صعَّره، وصدره الذى أبرزه، وأنفه الذى شمخ

به، لأن الثروة طغيانًا كطغيان الشراب، لا سبيل إلى دفعه والخلاص منه، ولكننى لا أستطيع بحال من الأحوال أن أعذره فى زوجه التى طلقها واستبدل بها سواها.

إنها رفيقة حياته، وعشيرة صباه، وشريكته فى سرَّائه وضرَّائه، ويسره وعسره وشبعه وجوعه وريه وظمئه، وأحسب أنها كانت إذا خلت بنفسها وخلا لها وجه السماء بسطت يديها بالدعاء إلى الله تعالى أن يبدل عسره يسرًا، وضيقه سعة، وشدته رخاء، فليس من الرأى ولا من الوفاء أن يخلعها فيما يخلع من أثوابه وأرديته وأن يلقيها وراء ذلك السد كما يلقى نعله وأداته.

إنها شاركته فى شدته، فيجب أن تشاركه فى رخائه، واحتملته والدهر مدبر عنه فيجب أن يحتملها والدهر مقبل عليه، وأقرضته الصبر على عشرته، فيجب أن يوفيها الصبر على عشرتها، إن كان يرى أنها عبء ثقيل عليه.

أيريد أن يتمنى النساء جميعًا لأزواجهن دوام الفقر والفاقة حتى لا يستبدلوا بهن يوم يجدون السبيل إلى ذلك؟

إنهن يتمنين ذلك فعلاً، بل يسعين له سعيهن؛ لأنهن يجدن الأمان على أنفسهن فى ضاحية الفقر، أكثر مما يجدنه فى ظلال الغنى، فياللفظاعة والهول، ويا للمعيشة النكدة المريرة! ويا للشقاء الذى يهدد الحياة الزوجية وينذرها بالمحو والفناء!

حدثنى من أثق به أنه دعى إلى وليمة أقامها أحد أولئك الحديثى النعمة فلما قضوا ليلتهم وانصرفوا لفت نظرهم منظر امرأة بائسة واقفة تحت جدار البيت تتحدث إلى بعض الناس وتقول لهم: أنها سيدة هذا البيت بالأمس، وأن زوجها طلقها وطردها هى وطفلها الصغير فى اليوم الذى أنعم الله فيه عليه بنعمة الغنى، وليته صنع بها ما يصنع الكريم بأهله، فكفاها مؤونة العيش وحماها عادية الشقاء، بل تركها فى قريتها وحيدة منقطعة، لا يعود عليها بقليل من المال ولا بكثير، ولا ذنب لها ولا لولدها عنده سوى أنه

أصبح ذا زوجة جديدة، وولد جديد؛ وقالت أنها تحاول منذ ساعتين أن تدخل المنزل لتقابله وتسأله المعونة والمساعدة فيمنعها الخدم.

أنه لموقف مؤلم جداً أن تقف امرأة على باب البيت الذى كانت سيدته بالأمس موقف السائل المتكفف فلا تجد من يمنحها ما يمنح السائلين المتكففين.

لا يجد المرء لذة الطعام إلا إذا ذكر الجوع، ولا لذة الماء إلا إذا ذكر الظمأ، ولا لذة السعادة إلا إذا تمثل أمام عينيه عهد الشقاء، فما أحوجه -إذا انتقل من عذاب الفقر إلى نعيم الغنى- إلى أصدقاء عهده الأول وعشرائه، ليجلس إليهم من حين إلى حين، ويتحدث معهم عن ماضيه وحاضره، فيشعر بلذة الانتقال من حال إلى حال، وما أحوجه إلى زوجه التى قضى معها عهد شقائه أن تبقى معه فى عهد سعادته، ليرى فى مرآة وجهها صورته القديمة والحديثة فيعلم حين يقارن بينهما أن فضل الله عليه كان عظيماً.

وتعجبنى كثيراً قصة خالد بن برمك جد البرامكة وكان رجلاً أعجمياً من قرية من قرى فارس اسمها «بوشنج» وفد إلى بغداد وحظى عند الخليفة فولاه الوزارة فلما ركب فى الموكب الذى اعتاد أن يركب فيه الوزراء يوم العهد إليهم بذلك المنصب العظيم، وقف الناس له صفوفاً على جانبى الطريق، وأطل عليه النساء من نوافذ الدور والقصور، وهو مطرق واجم، فقال له أحد أصدقائه وكان يسير بجانبه: ألا ترى هؤلاء النساء الجميلات المشرفات عليك من نوافذ قصورهن؟ قال: نعم أراهن ولكننى كنت أفضل أن أرى بدلاً منهن عجائز «بوشنج».

أى أنه كان يتمنى أن العيون التى رأته بالأمس وهو وضيع، تراه اليوم وهو رفيع.

الأجواء

ما زالت منذ حدثت تلك الحادثة الكبرى التى رجف لها قلب مصر،

وسالت لها دموع الفضيلة حزنًا وأسى، وتحدث المتحدثون عن أولئك الفتيات الساقطات اللواتى يعشن فى تلك السجون العميقة التى يسمونها بيوتًا عيش البؤس والفاقة، أعجب لهن ولأمرهن، وأقول فى نفسى: ليت شعرى لم يرضين لأنفسهن هذه الحياة الشقية النكدة التى لا يجدن فيها علالة من العيش يتعللن بها عما فقدن من شرفهن وكرامتهن، ولم يصطبرن على ظلم ذلك الرجل الجبار الذى يستبد بهن، ويستأثر بجميع شئونهن ومصالحهن، ويسوقهن بين يديه سوق الراعى ماشيته، ولم لا يهربن من وجهه ويذهبن فى مذاهب الأرض حيث شئن، يطلبن لأنفسهن الحياة فى جو حر مطلق، والأجواء الحرة المطلقة كثيرة، وأسباب العيش فيها متنوعة، وما على وجه الأرض جو أسوأ من جوهن الذى يعشن فيه فيخفن أن يصرن إليه، ولم أصدق ما يقوله بعض الناس فى تأويل ذلك من أن ذلك الرجل الجبار قد ضرب حولهن نطاقًا من بأسه وقوته فلا سبيل لهن إلى اختراقه، ففى البلد حكومة نظامية لا تسمح بقيام حكومة أخرى بجانبها أو إنه وضع فى أعناقهن أغلالاً من الديون وليس فى وسعهن أن يبرحن مكانهن حتى يؤدينها فإن من لا يبالى بحق الله ولا حق عرضه لا يبالى بحقوق الناس، ولم أزل فى حيرتى هذه حتى قرأت بالأمس قصة وقفت منها على سر هذا الخلق الغريب فى النساء فأنا أروى لك خلاصتها لتقف منها على مثل ما وقفت.

★

توفيت زوج إحدى الدوقات العظام فى فرنسا فحزن عليها حزنًا شديداً لأنها كانت أحب إليه من نفسه التى بين جنبيه، فكان يروح عن نفسه بالاختلاف إلى الأندية الخاصة والعامة حتى ملها وسئمها، فمر بخاطره يومًا من الأيام أن يزور حى «مونمارتر» وهو القرارة التى تنصب فيها جميع قاذورات باريس الاجتماعية وفضلاتها، فظل سائرًا بمركبته يستطرق من زقاق إلى زقاق ومن معبر إلى معبر حتى وقف بباب خان فى زقاق مظلم مهجور سمع من داخله ضوضاء عظيمة تكاد تتصدع لها أركانه، فانحدر إليه وأطل من بابه فوقع نظره على طوائف كثيرة من الصناع والعمال والغوغاء والمتطلبين والمتشردين وأشباه اللصوص والمجرمين، ما بين قائم وقاعد وصائح وهاتف

وممسك قدحه بيده يجرع منه الجرعات الكبار ويصرخ صراخ المجانين، ولابط بالأرض قد بلغ منه السكر مبلغه فكبه على وجهه، وراقص يوقع حركات قدميه على نغمة شبابة ينفخ فيها آخر، وقد عقدت الأبخرة المتصاعدة فى سماء الحان سحبًا متكاثفة يرى الرائى من خلالها بعد لأى ما مائدة مستديرة فى وسط المكان ترقص عليها فتاة بائسة عارية الثياب إلا قليلاً، وتنثر على الناس نثارات من الورق الرقيق الملون، والناس من حولها طائرون بها فرحًا، يداورونها، ويعابثونها، ويخاطبونها بأقبح ما خاطب به أحد أحدًا، وربما مد بعضهم إليها يده فجذبها من ثوبها جذبًا شديدًا حتى يكاد يزلقها من مكانها، أو دفعها فى صدرها بعصاه فآلمها، وهى تبتسم مرة، وتقطب أخرى، فلم يدر الرجل أهو فى مارستان من مارستانات المجانين، أم فى حظيرة من حظائر الوحوش الضارية، ولكنه رأى على كل حال منظرًا غريبًا لم ير مثله قط فأعجبه وسكن إليه، وكذلك الملول يعجبه كل ما يطرد عن نفسه عادية الملل، ولو كان منظر الجحيم فانتبذ فى الحال مكانًا قصيًّا، وجلس إلى مائدة منفردة، وألقى نظرة على تلك الفتاة الراقصة فإذا هى رائعة الجمال، إلا أنه جمال مبعثر مذال، كما يعثر العاثر باللؤلؤة الثمينة بين القمامات المجتمعة فلا يزال ناظرًا إليها لا يقلع حتى فرغت من رقصتها، ونزلت تدور بعينيها علها تجد من يدعوها إلى لقمة تسد جوعتها أو كأس تبل بها غلتها، حتى مرت على مقربة من الدوق فدعاها للجلوس معه فاستطبرت فرحًا وسرورًا لأنها لم تر قبل اليوم زائرًا مثله فى فخامة هيئته، وجلال منظره، وأخذ يتحدث إليها ويسائلها عن نفسها، فعلم أنها تكابد أشد ما كابد أمرؤ قط فى حياته من بؤس وشقاء، وقد سمع فى صوتها نغمة تختلف بعض الاختلاف عن تلك النغمة الفاجرة الوقحة التى يسمعها السامعون من أفواه النساء الفاجرات فوقع فى نفسه أنه إن أنقذ تلك الفتاة المسكينة المتألمة من بؤسها وشقائها فقد أحسن إليها وإلى الإنسانية إحسانًا عظيمًا، فسألها: ألها بأحد من الناس صلة من زواج أو مخالة؟ فأطرقت برأسها وأجابت: أن لا، فعرض عليها رأيه الذى رآه لها، فاستطارت به فرحًا وسرورًا، وما هى إلا ساعة أو بعض ساعات حتى كانت بجانبه فى مركبته فسار به إلى منزله.

وهناك تغير من شأنها كل شيء، فأصبحت تلك الفتاة البائسة المسكينة الضاوية الصفراء ذات الأسمال البالية، والقبعة القذرة والحذاء المرقع سيدة فخمة يتلألأ وجهها بنور العزة والكرامة، وتسيل على أعطافها مخائل النعمة والرفاهية حتى ظن كثير من الناس أنها من ذوات الشأن فى الحياة، وأن الدوق يوشك أن يتزوج منها.

وكان الدوق يعيش وحده فى قصره لا يعاشر إلا خدمه، ولا يختلف إليه إلا القليل من أصدقائه القدماء من حين إلى حين لأنه كان منقطعًا لا زوج له ولا ولد، ولا قريب ولا نسيب فكانت «مارسيل» ملهاته التى يتلهى بها فى وحدته، وأنسه الذى يأنس به فى وحشته وكانت هى سيدة المنزل والآمرة الناهية فيه لا ينازعها فى ذلك منازع، وظل الأمر بينهما على ذلك شهوراً عدة وكانا يخرجان أصيل كل يوم فى مركبتيهما إلى ضاحية المدينة يرتاضان فى غاباتها وبساتينها ساعة أو ساعتين ثم يعودان، فإنهما لعائدين ليلة من الليالى من منتزههما إذا مرت بهما المركبة على مقربة من حى «مونمارتر» فاقترحت عليه «مارسيل» أن يمرا بذلك الحى ليلهوا بمناظره الغريبة، ومشاهده العجيبة فأذعن لرغبتها، وظلا يخترقان شوارعه وأزقته حتى بلغا الحان الذى وجدها فيه فطلبت إليه أن يأذن لها بدخوله لترى ما حل بأصحابه وزائريه من بعدها، فلم ير فى ذلك بأسًا، ودخل معها، فوجداه على هيئته التى تركاه عليها، واتجها إلى بعض الموائد المنفردة فجلسا إليها، فما وقع نظر الناس على مارسيل حتى هاجوا هياجًا عظيمًا، وهتفوا لها هتافًا شديدًا، وأقبلوا عليها يحيونها ويعتنقونها وهى تبتسم لهم، وتعطف عليهم، وتطرب لنغمات أحاديثهم الوحشية المزعجة، ثم لم يلبثوا أن جذبوها من مكانها، وأصعدوها إلى المائدة لترقص لهم، فكأنما ثارت فى نفسها ثائرة الطرب القديم، فرقصت وافتنت فى رقصها ما شاءت. حتى أتمت دورها، ثم نزلت وودعتهم وداعًا لطيفًا وانصرفت هى والدوق.

وهنا بدأت تشعر بملل شديد من حياتها الحاضرة التى تحياها فى قصر الدوق، حتى أصبح يخيل إليها أن هذا القصر الذى تعيش فيه إنما هو سجن،

وأن هذا الرجل الذى يحبها ويكرمها وينزل على حكمها فى جميع ما تحب وتشتهى إنما هو سجانها، وأن هذا السكون الذى يحيط بها إنما هو سكون الموت الذى يخيم فى فضاء القبور، فكانت إذا خلت بنفسها تراءى لها فى فضاء خيالها منظر الحان ومنظر زائريه، وموقفها فوق المائدة الخشبية بين جماعة الأشرار والغوغاء وهم يجاذبونها ثوبها، ويشدون يدها، ويصبون عليها فضلات كؤسهم، فتطرب لتلك الحياة الهائجة الثائرة، وتحن إليها حنين العاشق المفارق، ولم تزل هذه الفكرة تنمو فى نفسها شيئًا فشيئًا حتى أخذت مكانها من قلبها، فعزمت على الفرار بنفسها والعودة إلى عيشتها الأولى، فنهضت من فراشها ذات ليلة والقصر ساكن هادئ قد هجع كل من فيه فخلعت أثوابها وحلاها وألقتها على بعض المقاعد، وارتدت بدلاً منها أثوابها الأولى التى جاءت بها، وكانت لا تزال ملقاة فى بعض الغرف، وتسللت من باب القصر حيث لا يشعر أحد بمكانها، وأخذت سبيلها إلى حى مونمارتر.

وهكذا قضى عليها أن تشقى، بل هى التى قضت بنفسها على نفسها.

ولقد كان أسف الرجل عظيمًا جدًّا حينما تفقدها فى صباح اليوم الثانى فلم يجدها خصوصًا عندما رأى ثيابها وحلاها ملقاة على بعض المقاعد وعلم أنها هى التى آثرت الفرار واختارته لنفسها، فبكاها كثيرًا وعادت له وحشته التى كان يعالجها من قبل.

ومر على ذلك عام أو بعض عام وبينما هو مقبل على قصره فى ليلة من الليالى إذ لمح على عتبة الباب امرأة مسكينة تئن وتتوجع، وتحاول أن تمد يدها إلى حلقة الباب لتطرقه فلا تستطيع، فدنا منها ليتبينها فإذا هى مارسيل، أو هى شبح متهافت باق منها، فلما أحست به حدت ذراعيها إليه وقالت له بصوت خافت ضعيف: اغفر لى ذنبى يا مولاى، فدهش لمنظرها دهشة شديدة، ورق لحالتها فأمر الخدم بحملها إلى القصر فحملوها إلى غرفتها التى كانت تنام فيها، وهى فى حالة من البؤس والشقاء تذيب الأكباد، وتستذرف الدموع، ثم جلس إليها يسائلها عن شأنها. فقالت أنها مريضة مدنفة منذ شهور عدة، وأنها قد عجزت عن أن تجد سبيلاً إلى علاجها من دائها لفقرها

وفاقتها، فما زال المرض يأخذ منها مأخذه حتى مزق صدرها تمزيقًا، فلم تجد بدًّا من أن تأتى إليه لتستغفره من ذنبها، وتسأله أن يعينها على أمرها، لأنها لا تعرف فى الدنيا لها راحمًا سواه، فسألها لم فرت من قصره؟ وما الذى كانت تنقمه منه؟ فقالت لا أعلم، وإنما هو قدر قدره الله ولا حيلة لأمرى فيما قدره وقضاه، فسألها أين كانت تعيش بعد فرارها؟ قالت فى المكان الذى أنقذتنى منه فأبيت لشقوتى وبلائى إلا أن أعود إليه لتنفذ فى إرادة الله، فرثى لحالها، وأمر باستدعاء الطبيب لينظر فى أمرها، فلم يستطع الطبيب أن يصنع شيئًا، لأنه جاء بعد الأوان، وما أصبح الصباح حتى صعدت روحها إلى خالقها، وخلفت للدوق حسرة فوق حسرته الأولى بوفاة زوجته، فلم ينتفع بحياته طويلاً بعد ذلك.

★

لكل جو من الأجواء رائحة خاصة به يألفها أصحابه ويستنيمون إليها، فحولوا أيها الرجال بين نسائكم وبين تلك الأجواء الخبيثة، ولا تقولوا أنهن سيجزعن منها ويهجرنها حين يستنشقن رائحتها، فالرائحة الخبيثة لا يتألم منها إلا البعيد عنها.

الرسائل

كتاب فى التقاضى:

أنا إن سألتك حاجتى، أعزك الله، وبسطت إليك يد رجائى، فقد طرقت باب المكارم، واستمطرت غيث المراحم، ورجوت واحد الدهر همة وحزمًا، ونادرة الوجود كرمًا وفضلاً، فإن أنجزتها فليست أولى الهمم، ولا واحدة النعم، فلكم سبقت إلى منكم أياد تخرس دونها ألسنة الشكر، وتضيق بها جرائد الحصر ولقد مثلت، أيدك الله، بين أن أستشفع إليك بذوى الجاه عندك، والزلفى لديك وبين أن أكل ذلك إلى كرمك وفضلك، وما طبعت

عليه نفسك الشريفة من خلال الخير، وسجايا البر، فرأيت أن الثانية بك أحرى، وبفضلك أجدر، والسلام.

كتاب مقاطعة:

أتلقى كتابك وقد أبللت من مرض حبك، وصحوت من رقدة طال على الغيب فيها حتى خفت أن تتصل برقدة الموت، فلم ترعنى روائعك[١] ولا أجدى عندى اعتذارك، ولا أخذ حديثك من قلبى مأخذه من قبل، ولم أر بين سطورك ذلك النور الذى كان يملأ عينى روعة[٢] وقلبى هيبة، فالحمد لله الذى أدالنى منك وأعتقنى من رقك وكشف لى من مكنونك ما كشف غشاء الهوى عن بصرى، فجفت الدموع التى طالما أذلتها[٣] بين يديك وقرت العين التى كنت أساهر بها الكواكب شوقًا إليك، ولم يبق فى خاطرى من ذكرك إلا كما بقى فى قلوب الناس من الوفاء، والحب شجرة يغرسها الأمل فى القلب، ثم يغذوها بمائه وهوائه، فلا تزال تشتجر أغصانها، وترف[٤] ظلالها وترن أطيارها، حتى يعصف بها عاصف من اليأس فتموت ولقد عالجت هذا القلب الشموس[٥] فى الرجوع إلى سالف عهدك، وسابق ودك، فجمح جموح المهر الأرن[٦] وركب رأسه إلى حيث لا مطمع فى أوبته وله العتبى فيما فعل، فقد ملكنى قياده برهة من الزمان فأسأت عشرته وخفرت ذمته، وأرغمت معطسه، وركبت به فى سبلك أخشن مركب، وأنهلته من جفائك وكبريائك شر منهل فما هو إلا أن أمكنته العزة فانطلق انطلاق السجين من سجنه، والطائر من قفصه، فلا أوبة حتى يؤوب القارظان ويبلى الجديدان.

إذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تكد ... إليه بوجه آخر الدهر تقبل

---

(١) أى لم تعجبنى محاسنك.
(٢) الروعة: المسحة من الجمال.
(٣) أذلتها: هتنها.
(٤) رف النبات: اهتز واضطرب.
(٥) شمس: امتنع وأبى.
(٦) المهر الأرن: النشيط.

كتاب تهكم:

علمت أن ساسانيا[١] طرق بابك بالأمس، وما زال يكيد لك ويماحلك، ويتغلغل فى مواضع الضعف من قلبك، حتى خدعك عن نفسك، واقتطف زهرة من روضه، وراح يفتر عن ثغر باسم، ورحت تقرع سن نادم، فما هذا الخلق الغريب الذى تخلقه، وما هذا المذهب الجديد الذى اعتنقته، ومتى أقامك آدم وصيًّا على أولاده من بعده، تكسو عاريهم، وتشبع جائعهم، على أن الفقراء فى الدنيا كثير قد ضاقت بهم خزائن الأرض والسماء فكيف تسعهم خزائنك، وهل بين الدرهم الذى أعطيت، والدراهم الذى أبقيت، إلا حرف واحد[٢]؟ فليت شعرى من أين ذهبت، ومن أى باب نفذ هذا الشيطان إلى قلبك، وأن أخوف ما أخاف عليك أن تكون أتيت من باب الخدعة الشيطانية التى يسمونها الرحمة، فإن كانت هى فالخطب عظيم، والبلاء جسيم، فإنك حيثما ذهبت وأنى حللت، لا تقع عينك إلا على يد شلاء، ورجل بتراء، وعين عمياء وصورة شوهاء، وثوب مخرق، وشلو ممزق، وطريح على التراب سقيم، وجسم أعرى من أديم، فإن لم تفارق الرحمة قلبك، فارق المال جيبك، فطفت مع الطائفين وتسولت مع المتسولين، ثم لا تجد لك راحمًا ولا معينًا. فارحم نفسك قبل أن ترحم سواك، ولا تنس أن تردد فى صباحك ومسائك، وفى مستأنف خطواتك، وفى أعقاب صلواتك، كلمة ابن الزيات «الرحمة خور فى الطبيعة».

وعلمت أنك دعيت إلى وليمة فلان فتحلب لك فوك، ورقصت لها أشداقك، فطرت إليها، ثم وقعت على خبزها وشوائها، وفاكهتها وحلوائها؛ مثلج الصدر ثابت القدم، ساكن القلب، طيب النفس كأنك لا تعلم أنها لذة الساعة، ومرارة العمر، وشبع اليوم، وجوع الأبد، وأنك إنما طمعت ما فى الحبالة من الحب، تأكله اليوم ليأكلك غداً. فمن لك بالنجاة من مضيفك إذا

(١) النسبة إلى ساسانيا: وهو رجل كان معروفًا بالفقر والبطر والاحتيال على الصدقات.

(٢) يشير إلى أن الفرق بين مفرد الدراهم وجمعه حرف واحد هو الألف اللينة فى الجمع ويريد بذلك تعظيم شأن الدرهم وأنه لا يستهان به لأن الدراهم وإن كثرت فهى ليست إلا درهمًا على درهم.

جاءك يومًا يتقاضاك دينه، وقد حفت به كوكبة من خلانه وصحبه، فطار لمرآك لبك، وتمشى له قلبك فى صدرك، وخيرك بين لحم شاتك ولحمك، فالفقر إن منحت، والعار إن منعت وأعجب من ذلك أنك ما برحت الوليمة حتى أخذ المغنى مجلسه، فسمعت وطربت، ومن طرب شرب، ومن شرب وهب، ومن وهب جرب، وخلوتك بصندوقك فى كسر بيتك، حيث لا تزور ولا تزار، منادح عن هذه اللقمة التى أسهرت ليلك، وأقضت مضجعك، وأقعدتك مثل روق الظبى خيفة وحذاراً؛ فإياك والعود إلى مثلها يطل غمك، ويسود عيشك؛ والسلام.

كتاب يأس:

كتابى إلى سيدى ومولاى، والنفس بين جنة من الأمل تغن أشجارها، وترن أطيارها، وتشتجر أغصانها، وتعتنق غدرانها؛ وهاجرة من اليأس تتلظى نارها، ويعتلج أوارها، وتحول بين الجفون واغتماضها، والجنوب ومضاجعها، والقلب يهبط به الخوف يتمشى بين الأضالع مشية الطائر الحذر، ثم يدركه الأمن فيقر فى مستقره، قرار الماء فى نهاية منحدره، وحالى كحال هذه الدنيا تضطرب ما بين فرح وهم، وسرور وحزن، وقبض وبسط، ومد وجزر، أذكر الله ورحمته وإحسانه، ورأفته وحنانه، فيشرق لى من خلال ذكراه وجه الحياة الناضر، وثغرها البارق، وجمالها الساطع، وبشرها الضاحك، ثم أذكر الدهر وصروفه، والعيش وحتوفه، والأيام وما أعدت فى طياتها لبنيها عن عثرات فى الخطوات، ونكبات فى الغدوات والروحيات، وما أخذته من العهد على نفسها من الوقوف بين النفوس وآمالها، والقلوب وأمانيها، فألمس صدرى بيدى لأعلم أين مكان قلبى من أضالعى، ثم أنثنى على كبدى من خشية أن تصدعا، فليت الله يصنع لى فيمطر على قطرة واحدة من غيوث رحمته وإحسانه أبل بها غلتى، وأطفى بها لوعتى، أو ليت القدر ينشب أظافره بين سحرى[1] ونحرى نشوبًا لا يستقى بعده عرقًا نابضًا، ولا نفسًا مبرداً، فيستخلصنى من موقف أنا فيه كالمريض المشرف، لا هو حى فيرجى، ولا ميت فيبكى.

---

(١) السحر: الرئة.

يقولون «ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل» وأقول ما عذب الله عباده بنازلة القضاء، وصاعقة العذاب، وطاغية الطوفان، والزلزال الأكبر، والموت الأحمر، والخوف من الجوع، والنقص فى الأموال والأنفس والثمرات، بمثل ما عذبهم بالأمل الباطل، وما ليلة نابغية، ضرير نجمها، حالك ظلامها، يبيت منها صاحبها على مثل روق الظبى خيفة وحذاراً، فوق أرض تعزف جناتها[1] وتحوم عقبانها، وتزأر سباعها، وتعوى ذئابها، وتحت سماء تتهاوى نجومها، وتتوالى رجومها، وتتراكم غيومها، بأسوأ فى نفسه أثراً من رجاء كاذب يتردد بين جنبيه، تردد الغصة بين لحييه لا هى نازلة فيطعمها، ولا صاعدة فيقذفها.

قد أصبحت أحسد الوحوش الهائمة على وجوهها فى بطون الأودية، وقنن الجبال، أن أراها ساربة فى مساربها، سارحة فى مسارحها، تتناول رزقها رغداً من بوارق المصادفات، ومفاجآت المقادير، لا يعنيها الأسف على فائت من العيش ولا يقلقها الطمع فى آت من الرزق، قد قنت من الماء بالكدر، ومن العيش بالجشب[2] فتساوى لديها شحمها ولحمها، وشيحها وقيصومها، وسعدها ونحسها ونعيمها وبؤسها، فما تحفل بنوازل القضاء، ولا رجوم السماء، ولا تبالى أسقطت على الموت أم سقط الموت عليها؟

فمن لى بهذا العيش من عيش مثلى منه كمثل رجل زلت به قدمه فسقط فى جوف بئر بعيد غورها، ناء مكانها، فما زال يتخبط ويضطرب، ويهب ويثب حتى عثر بمرقاة علقت رجله بها. ثم تلمس أخرى غيرهما فما وجدها، حتى بلغ منه الجهد أو كاد، فلم يصبر على الثانية صبره على الأولى، فسقط، فخاف الغرق فعاد إلى نفسه، فعاد إلى سقوطه، فلا هو بالغ رأس البئر فينجو من الموت، ولا هو بالغ قرارة الماء فينجو من الشقاء.

ارم بطرفك حيث شئت من الناس هل تبصر إلا صريعاً صرعه أمله؟ أو قتيلاً قتله رجاؤه؟ أو صديقاً يشكو غدر صديق كان يعدّه لنوائب الدهر

---

(١) جمع: جان.

(٢) الجشب: الخشن من الطعام.

فأصبح عون النوائب عليه، أو باكيًا يبكى وليدًا كان يرجوه لمستقبل دهره ففجعته الأيام فيه، أو ساعيًا دائبًا وراء غاية يطلبها من الدهر فلا يقرب منها حتى يبتعد عنها، ولا يمسك بها حتى تفلت من يده، أو ساهرًا متململاً لولا أمله أن تنيله الأيام ما يشتهيه من هواه ما بات ليله شاكيًا باكيًا، داعيًا مناجيًا لا تراه إلا عين السماء، ولا تسمعه إلا أذن الجوزاء.

هذه حالتى، وذلك همى، وهذا ما وسوس لى أن أعتزل الناس جميعًا، وأفارق عشيرتى وصحبتى، ويراعى ومحبرتى، علنى أجد فى البعد عن مثارات الأمانى، ومباعث الآمال، راحة اليأس، فاليأس خير دواء لأمراض الرجاء.

فها أنا ذا قابع فى كسر بيتى ولا مؤنس لى إلا وحشتى، ولا أنيس إلا وحدتى أتخيل البيت قبرًا، والثوب كفنًا، والوحشة وحشة المقبورين فى مقابرهم لأعالج نفسى على نسيان الحياة، وأمانيها الباطلة، ومطامعها الكاذبة، حتى يبلغ الكتاب أجله، وهذا آخر عهدى بك وبغيرك، والسلام.

الكلمات

الجرائد:

لا أرى الصحف فى مصر إلا ناديًا من أندية القمار، ولا هؤلاء الكتاب إلا جماعة من اللاعبين، قد وضعوا رءوس المصريين على مائدة اللعب كما توضع الأكر على طاولة «البليار» ثم داروا حولها يلعبون بها ويتدافعونها، فيكسبها فى الصباح «زيد» ويخسرها فى المساء «عمرو» وربما لا يأتى آخر الليل حتى يدور النحس دورته عليهم جميعًا، فيخسرها الكل ويكسبها صاحب النادى.

عبد الحميد:

حضرت منذ أشهر قلائل تمثيل رواية فى مسرح عربى اختتمها جوق

التمثيل بنشيد للسلطان عبد الحميد يصفه فيه ناظمه بالعدل والرحمة والرفق والإحسان، ويدعو له بسلامة عرشه وطوله بقائه، فما سمع الناس باسمه حتى هتفوا له هتافًا يصم المسامع، وصفقوا له تصفيقًا كاد يضم أضلاع المسرح بعضها إلى بعض، وحضرت ليلة أمس منظرًا من مناظر الصور المتحركة فرأيتهم يمثلون ذلك السلطان بعينه رجلاً ظالمًا سفاحًا، ضعيف الهمة، ساقط النفس، زَمِن المروءة، جبانًا مستطارًا، ورأيتهم عمدوا إلى صورته فجعلوها مواطئ أقدامهم، ومضارب سيوفهم، فما رأى الناس هذا المنظر حتى راق فى أعينهم، وابتهجوا لمرآه ابتهاجًا ملأ فضاء صدورهم، فتمشى فى أعصاب أدمغتهم حتى وصل إلى أعصاب أيديهم، فصفقوا له تصفيقًا شديدًا بتلك الأكف التى رأيتهم يصفقون بها فى مسرح التمثيل.

أنا لا أعلم إن كان عبد الحميد ظالمًا أو عادلاً، كريمًا أو لئيمًا، شريفًا أو وضيعًا، وإنما أعلم أننى سأموت قبل أن أقف على حقيقة تاريخية فى أمره ما دام الناس عامتهم وخاصتهم، كتابهم وشعراؤهم، علماؤهم وجهلاؤهم، هم الناس الذين يقول فيهم القائل:

والناس من يلق خيراً قائلون له ... ما يشتهى، ولأم المخطئ الهبل

الشهرة:

لا يمكن أن تكون الشهرة بحال من الأحوال ميزانًا للفضل فى مصر، خصوصًا فى عالم الأدب، ولن يجرى الفضل والذكر فى ميدان واحد إلا إذا سلم السابق من كيد العابث، وخدعة الأريب وأنى لنا ذلك وفى شعراء مصر من يغتصب الشهرة اغتصابًا، ويلصقها بنفسه إلصاقًا. وينزع إليها بوسائل لو عرفها الناس لأنزلوه منزلته، وألبسوه حلته بينما ترى الآخر قد قنع من أدبه بلذة نفسه، وإمتاع وجدانه فلا يترنم بقصائده فى المنتديات والمجامع ولا يبتاع من الصحف الأسماء والألقاب، ولا يستخدم الكتاب لإطرائه والإشادة بذكره، ولا يتمم ما يجده من النقص فى أدبه بالغض من أدب غيره فترى للأول فى هذا البلد الساذج دويًا كدوى الرعد، وترى الآخر مطرحًا مجفواً لا

يؤبه له، والدرّ في الصدف أغلى قيمة وأرفع قدراً من جميع ما على وجه الأرض من ألواح البلور. وإن كان ملء العيون حسنًا وبهاء، وورنقًا وماء.

فكاهة:

حدثني بعض الأصدقاء أنه دخل في أيام الحرب الروسية اليابانية حانوت حلاق معروف بالثرثرة أكثر من أفراد طائفته ليحلق له رأسه وكان عنده جماعة من زائريه فأجلسه على كرسي أمام المرآة وأمسك بالموسى وأنشأ يحلق له رأسه حلقًا غريبًا لا عهد له بمثله من قبل، فكان يحلق بقعة ويترك إلى جانبها أخرى مستطيلة أو مستديرة وأخرى مثلثة أو مربعة حتى ريع الرجل وظن أن الحلاق قد أصابه مس من الجنون، فارتعد بين يديه وخاف أن يمتد به جنونه إلا ما لا تحمد عقباه، واعتقل لسانه فما يستطيع أن يسأله عن سر عمله.

فما انتهى الحلاق من أشكاله الهندسية، ورسومه الجغرافية حتى التفت إلى جلسائه وقال لهم كأنه يتمم حديثًا سابقًا بينه وبينهم: لأجل فض النزاع بيننا ها قد رسمت لكم خريطة الحرب الروسية اليابانية في رأس «الزبون» هنا طوكيو، وهنا بور أرثر، وهنا انكسرت كروباتكين، وهنا انتصر أوياما وفي هذا الخط مر الأسطول الروسي، وفي هذه البقعة تلاقى الأسطولان، وهنا أخذ يتكلم بحدة وحماسة عن شجاعة اليابان وبسالتهم، ثم أردف كلامه بقوله «وفي هذه البقعة ضرب اليابانيون الروس الضربة القاضية» وضرب بجمع يده أم رأس الزبون فقام صارخًا يولول ويهرول مكشوف الرأس يلعن السياسة والسياسيين والروس واليابانيين، والناس أجمعين.

لا أعلم إن كان المحدّث هازلاً، أو مجدًا، وإنما أعلم أنه قد أجاد التمثيل!

الأقسام:

لا أعرف فرقًا بين حنث الحانث في يمينه، وكذب الكاذب في حديثه كلاهما ضعيف المُنّة، وكلاهما ساقط الهمة، وكما لا يستطيع الكاذب أن يكون صادقًا، كذلك لا يستطيع الحانث أن يكون بارًّا. وناقض العهد أن

يكون وفيًا فخداع من المتكلم أن يزعم أن لأحاديثه من الشأن فى مواقف الأقسام ما ليس لها فى غير تلك المواقف، وأنه يتحرّج فى الحنث، ما لا يتحرج فى الكذب، فإن من يستصغر جرم الكذب لا يستكبر من بعده جرمًا.

الدين:

أيها الناشئ: إن من الناس قومًا قد ضعفت نفوسهم عن احتمال ثقل الدين، وسلطان أمره ونهيه فخرجوا عليه، ونبذوا طاعته، ثم علموا أن الناس سيأخذون عليهم ضعفهم وعجزهم، فلم يجدوا معذرة يعتذرون بها إليهم غير دعوى إنكار الدين وجحوده استثقالاً وتبرمًا، لا تقلداً وتمذهبًا، وما هم بمنكريه. فاعلم أن الله سيبتليك بهم، وأنهم سيزينون لك إنكار ما يزعمون أنهم ينكرونه، وسيخيلون إليك أنك لن تستطيع أن تبلغ ما تريد من هذه المدنية الحاضرة، وأن تنال الحظوة الباسقة فى نفوس أصحابها، إلا إذا تنكرت لدينك. وتسلَّبت منه، وخفرت ذمته، فاحرص الحرص كله على أن لا يعلق بنفسك عالق من هذه الخيالات الباطلة، واعلم أنك إلى نفسك أحوج منك إلى الناس وأن الناس لا يغنون عنك من الله شيئًا إن أنت آثرت مرضاتهم على مرضاته، وأن هذه الحياة الحافلة بصنوف الشقاء، وأنواع الآلام، والتى لا يفيق المرء فيها من غمرة إلا إلى غمرة، ولا يئل من عثرة إلا إلى عثرة، لا يعين عليها إلا عقيدة راسخة يلوذ بها الحائر كلما عثرت خطواته، وتداركت عثراته. ويستروح من أعطافها رائحة الجنة كلما ضاق ذرعه باحتمال جحيم العذاب.

الحقيقة:

قال لى بعض الناس: إن قومًا يغرقون فى مدحك فهلا زجرتهم فقلت له: إن آخرين قد أغرقوا فى ذمى فلم أصنع شيئًا، فدع الأكاذيب يقرع بعضها بعضًا فربما استطارت من تلك المعركة شرارة تضىء للناس مكان جوهرة الحقيقة المذالة تحت الأقدام فليتقطونها.

الانتقاد:

بين نقد المؤلفام هنا ونقدها هناك فرقان: أحدهما يتعلق بالناقد والآخر يتعلق بأثر النقد فى الأذهان، أفا الأول فهـو أن الناقد هناك ينتقد الكتاب فن حيث ذاته، فلـو لم يكن للكتاب لاحـب فعروف لا ينتـقده، وهنا ينتـقده باعتبار شقص فؤلفه، أى أنه لا ينتقد الكتاب بل لاحب الكتاب فى كتابه، وأفا الثانى وهو أثر طبيعى للأول فـهو أن للانتقاد هناك أثراً طاهراً فى الكتاب فن رواجه وككاده وشـهرته وخموله، فكما يقول المنتـقد يقول الناس بقوله، وهنا يمر الانتقاد بالأذهان مرًّا فلا يبقى فن آثاره فـيها إلا أثر واحد، وهو أن الكتاب جليل القدر، سنى القيمة، ولولا ذلك فا احتفل بأفره فحتفل، لذلك رأيت كثـيراً فن عقـلاء الأدباء لا يرضون عن أنفـكهم إلا إذا انتقـد الناقدون فؤلفاتهم، بل رأيت فن يتوسل إلى بعض الناقدين أن ينتقد فؤلفه، بل رأيت فن يبلغ به الأفـر أن ينتقـد كتابه بنـفكه بتـوقيع فنحـول، أولئك هم الذين يعرفون قـيمة المنتقدين عندنا وأثر انتـقاداتهم فى نفوسنا، أفا الذين يغـضبهم الانتقاد ويجرح لدورهم فهم الذين لا يعرفون فن هذا ولا ذاك شيئًا.

الحزم:

إن الدرهم الذى تمنحه فن لا يكتحقه، قد خرج فن يدك فلا سبيل بك إلى وجدانه فى اليـوم الذى ترى فيه أفـافك فن يكتحـقه، وإن الدينار الذى تعطيه الشارب ليـشترى به كأسًا يقتل بـها نفكه قد استـحال عليك أن تعطيه الفقير العائل ليشترى به رغيفًا يكد به جوعة أولاده.

الألم:

إن فى كثير فن الآلام التى نعالجهـا لذائذ وفكرام يدركها فن عرف أن الإنكان غافل بطبيعته عمـا يهدده فن فصائب هذه الحياة وأرزائها، وأن الآلام الضعيفة التى تناله فن العثرام الصغيرة هى نذر تأتيه فن عالم الغيب لتحذره فن الآلام الشديدة التى تناله فن الكفطام الكبيرة.

الغفران:

ليس الحقد واحتمال الضغينة غريزة من الغرائز اللازمة للإنسان، فإن الرجل قد يصفح عن سيئات الأطفال لأنهم لا يملكون الخيار لأنفسهم، ويذكر لأصحاب السيئات من الموتى حسناتهم لأن الزمن الذى ذهب بهم ذهب بخيرهم وشرهم، فلم لا نغتفر ذنوب أولئك الذين ما أذنبوا إلا بعد معركة مستمرة قامت بين عقولهم وقلوبهم ثم سقطوا على أثرها صرعى لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا؟

الدعوى:

إن أردت أن تكون فى الأمة الجاهلة كل شىء فادع لنفسك كل شىء، تنل بقولك فى الزمن القصير، ما لا ينال غيرك بفعله فى الزمن الطويل فإن الكاذب لا يزال يكذب حتى يصدقه الناس، ثم لا يزال يكذب حتى يصدق نفسه.

الدين والوطن:

من لا خير له فى دينه لا خير له فى وطنه، لأنه إن كان بنقضه عهد الوطنية غادرًا فاجرًا، فهو بنقضه عهد الله وميثاقه أغدر وأفجر، وإن الفضيلة للإنسان أفضل الأوطان، فمن لم يحرص عليها فأحرى به ألا يحرص على وطن السقوف والجدران.

الحلم:

إذا تورد متورد بكلمة سوء فلا تبتئس بها فإنك فى موقفك هذا بين اثنتين إما أن يكون الرجل صادقًا فيما يقول أو كاذبًا، فإن كانت الأولى فاحمد الله تعالى على أن قيض لك من أرشدك إلى عيبك، وكشف لك عن خبيئة نفسك، وإن كانت الأخرى فاربأ بنفسك أن تكون من الجاهلين الذين يتوهمون فى استطاعة الأكاذيب أن تبقى زمنًا طويلاً على ظهر الأرض.

الأدب:

لا تكافئ السفيه على سفهه بمثله، فإنك إن فعلت قضيت له على نفسك، وأصبحت شريكه فى الخلة التى تزعم أنك تنقمها منه، فإن كنت لابد منتقمًا فليكن مثلك مثل الأحنف بن قيس إذ جاءه رجل قد جعل له بعضُ الناس جعلاً على أن يغضبه، فما زال يسبه ويشتمه ويلح فى ذلك إلحاحًا محرجًا والأحنف ساكت لا يقول شيئًا حتى ضاق بالرجل أمره فانقلب إلى قومه باكيًا نادبًا يأكل أصبعه أكلاً ويقول: والله ما سكت عنى إلا لهوانى عليه.

الأخلاق:

مثل المتعلم غير المتأدب كمثل شجرة عارية لا تورق ولا تثمر قد انتصبت للناس فى ملتقى الطرق تعترض الرائح، وتصد سبيلِ الغادى، فلا الناس بظلها يستظلون، ولا هم من شرها ناجون.

الاعتدال:

بين الجبن والتهور منزلة هى الشجاعة والإقدام، وبين البخل والإسراف منزلة هى الكرم، وبين العفو والانتقام منزلة هى العقوبة، وبين العجز والجهل منزلة هى الحكمة، فليكن من أفضل ما تأخذ به نفسك التريث والتثبت عند النظر فى الفرق بين مشتبه الفضائل والرذائل، واعلم أنك لا تزال كريمًا حتى تنفق مالك فى غير موضعه فإذا أنت مسرف، وأنك لا تزال حليمًا حتى تغضب للباطل فإذا أنت جهول، وأنك لا تزال جبانًا حتى تقاتل عن عرضك وشرفك فإذا أنت شجاع، وأن كل الناس يعرفون الفضائل والرذائل ويفهمون معانيها، أما إدراك الفرق بين غوامضها ومتشابهاتها فتلك مرتبة العقلاء الأذكياء.

البر:

ربما كان لك من أبويك أو من ذوى رحمك ممن تولوا شأنك فى مفتتح

عمرك من لم تساعده شئون دهره أو عصور نشأته على أن ينال حظًا من العلم والمعرفة مثل ما نلت، فإياك أن يدعوك ذلك إلى تسفيهه أو تجبيهه أو السخرية به أو الإدلال بنفسك عليه فإنك إن فعلت خسرت من الأدب أضعاف ما كسبت من العلم، على أنه ربما كان لكبيرك هذا الذى عققته وظلمته وكفرت بفضل نعمته عليك من العلم بتجارب الحياة ومقاتلها، وموارد الأمور ومصادرها، ما يبهر علمك الذى تعتد به، وتدل بمكانك منه عليه، وهناك تكون قد خسرت فوق خسران أدبك ما كان خليقًا بك أن تتلقاه بين يديه من علوم التجارب التى ليست علوم الدراسة بالإضافة إليها إلا كالنقطة من البحر والذرة من الفقر.

الشقاء:

السبب فى شقاء الإنسان أنه دائمًا يزهد فى سعادة يومه ويلهو عنها بما يتطلع إليه من سعادة غده، فإذا جاء غده أعتقد أن أمسه كان خيراً من يومه، فهو لا ينفك شقيًّا فى حاضره وماضيه.

الفتاة والبيت

«الكلمة التى قرظ بها المرحوم كتاب الفتاة والبيت».

حضرة صديقى الكاتب الفاضل أنطون أفندى الجميل.

أهديتَ إلى كتابك: الفتاة والبيت فأهديته إلى ابنتى، لأنه مكتوب لها ولأترابها من الفتيات الناشئات، وربما كانت وكن أقدر منى ومن الرجال جميعًا على فهم مزيته، وتقدير منزلته، فلما قرأته عادت إلى تقول إننى لم أهد إليها فى حياتها خيراً من هذا الكتاب.

سامحها الله، فقد كان فيما أهديت إليها كتاب «النظرات» فقد فضلته على كتاب أبيها، ولكن ما لها وللنظرات، وأمثالها من كتب الكليات العامة

الخيالات السائرة، فهى فتاة على باب المستقبل يهمها أن تعرف أسباب الحياة المنظمة التى لا تستطيع فتاة فى هذا العصر أن تعيش بدونها والتى عجز أبواها عن أن يرشداها إليها، لأنهما بقية من بقايا العصر الماضى عصر المصادفات والاتفاقات، ولا يزال عصرهما لاصقًا بهما حتى اليوم، ويعنيها أن تعلم كيف تنسج من أخلاقها وآدابها ثوبًا يغنيها جماله عن الجمال، وتعيش من عقلها وحكمتها فى ثروة تقوم لها مقام ثروة المال، وكيف تدبر القليل من الرزق وتنتفع به، إن قدر لها أن تعيش عيش المقلين، وتحسن التصرف فى الكثير منه وتبقى عليه إن قدر لها حظ المكثرين، وكيف تكون شمسًا مشرقة فى أفق بيتها تضىء نفوس جميع ساكنيه، من زوجها إلى خادمتها، فتسعد بهم ويسعدون بها، وكيف تتولى أمر نفسها بيدها، حتى لا يخدعها الخدم عن مالها، إن كانت ذات خدم، أو تستغنى عن معونتهم، إن عجزت عن اتخاذهم، وكيف تستنبط من ثقب الإبرة، فى اليوم الذى تفقد فيه عائلتها ومعينها، قطرات من الرزق تقيم بها أوَدَها، وتصون بها ماء وجهها؟

وكتابك -ياسيدى- هو الجواب عن جميع ما تطلبه، وتسائل نفسها عنه، فلا غرو أن أعجبها وأطربها، ولا عجب إن فضلته على كل كتاب حتى كتاب أبيها.

أشكر لك، يا أنطون، تلك اليد البيضاء التى أسديتها إلى وإلى أمتك، وأنصح لجميع الآباء والأمهات أن يجعلوا كتابك هذا خير هدية يقدمونها إلى فتياتهم، وأن يأخذوهنّ بتلاوته مع كتب صلواتهن فى مطلع كل شمس ومغربها، فما أحرزت الفتاة فى بيتها خيرًا من كتاب «الفتاة والبيت».

البعث

«هى قصة خيالية، الغرض منها تمثيل أبى العلاء المعرى فى أخلاقه وآرائه لم يكتب منها غير هذه الأيام الثلاثة، وقد نشر فى الذيل من كلام أبى العلاء عند المناسبات ما يميز بين الحقائق التاريخية والتصورات الخيالية».

اليوم الأول

نبا بى مضجعى ليلة لهمّ نزل بى، والهم رسول من رسل الشر ينزل بأهداب العيون فلا يزال يسعى سعيه حتى يوقظ الفتنة بين أشياعها فظللت أساهر الكوكب حتى ملنى ومللته وضاق كل منا بصاحبه ذرعًا، فلما تقضى الليل إلا أقله ولم يبق إلا أن تنفرج لمة الظلام عن جبين الصباح سمعت طارقًا يدق الباب دقًا ضعيفًا ما كدت أتبينه لولا هدوء الليل وسكونه، فقلت من الطارق؟ قال: غريب حائر ضل به سبيله فى هذه الرقعة السوداء وأعوزه المأوى يطلب كريمًا يعتمد عليه، ومضجعًا يأوى إليه، وقد أعد لمن يسدى إليه تلك النعمة، ذخيرة صالحة من شكر لا يبلى ودعاء لا يخيب، فأعجبت بعابر سبيل يمر بعفو لسانه من فصيح القول وصحيحه ما يعيى على جهد المتكلفين، وتزويق المزورين(١)، وقلت فى نفسى: ما لهذا الرجل بد من شأن وفتحت الباب فإذا شيخ كنتى(٢) من حملة أعباء الدهر، قصير القامة، ناحل الجسم، زرى الهيئة، قد نيف على الثمانين من عمره، فخيل إلىّ أن ظهره المحدودب قوس، وأن عصاه التى يعتمد عليها وترٌ قد شدّ إلى تلك القوس، وأنه قد أعدّ من هذه وتلك سلاحًا يذود به عن نفسه عادية المنون(٣) فلما شعر بمكانى رفع رأسه إلى ورمانى بنظرة خلت أنها نفذت إلى موضع الأسرار من قلبى وأحاطت بما بين قمة رأسه وأخمص قدمى فرأيت وجهًا أسمر اللون قد انتثرت فى أكنافه حفائر الجدَرى(٤) وأسارير تنطوى تارة على عبر القرون، وحوادث الدهور، وتنفرج أخرى عن أنوار الصلاح والتقوى، ولحية بيضاء إلا

---

(١) زور الشىء: حسنه وقومه.

(٢) الرجل الكنتى الكبير العمر، نسبة إلى قوله: كنت فى شبابى كيت كيت.

(٣) وصف أبو العلاء نفسه فى شيخوخته فى إحدى رسائله بقوله «وإنى لأعجز إذا اضطجعت عن القعود فربما استعنت بإنسان فإذا هم بإعانتى وبسط يديه لنهضتى ضربت عظامى لأنهن عاريات عن كسوة كانت عليهن» وقوله فى لزومياته:

يا نفس جسمك سربال له خطر	وما يبدل فى حال بسربال
قد أخلفته الليالى فاتركيه لقى	فما يزيدك لبس المخلك البالى

(٤) اعتل أبو العلاء فى الرابعة من عمره بعلة الجدرى فذهبت ببصره وبقيت آثارها فى وجهه بعد ذلك.

أنها شعثاء، وعينين كبيرتين مستديرتين ينبعث منهما نور ساطع خفاق لا يراه الرائى حتى يطرق له إجلالاً وإعظامًا، وسحنة غريبة لا عهد لى بمثلها فى حمراء الأمم وسودائها، وأحسب أن لو كان بين يدى مثال من صور الناس فى القرون الغابرة لنسبتها[1] فمشيت إليه مشية الهائب الوجل وقلت: على الرحب والسعة يا سيدى، لقد حللت بمنزل أنت صاحبه وولى الأمر فيه «ثم قدمت إليه يدى فمشى معى يتوكأ ويتحامل ويهمس بهذه الكلمة:

ما أوسع الموت يستريح به الجسم المعنى ويخفت اللجب.

حتى وصلنا إلى غرفة الأضياف فأعاد النظر إلىّ وقال: اذهب لشأنك فأنا فى حاجة إلى الانفراد بنفسى، فتركته وذهبت إلى غرفة منامى وقد أخذ منظر الرجل مكانًا من قلبى وشغلنى من أمره ما كاد ينسينى هموم نفسى فلم أزل أقلب النظر فى حاله وأذهب المذاهب فى استبطان سره حتى أخذ عينى نوم ثقيل لم أستيقظ منه إلا فى صفرة الأصيل.

سألت الخادم عن الضيف فعلمت أنه أخذ حظه من المطعم والمشرب والمضجع والمستحم وأنه لا يزال فى مصلاه فهبطت إليه فى خلوته أهيب ما أكون له فرأيته جالسًا إلى قبلته يقلب وجهه فى السماء، ويكرر هذا الدعاء:

اللهم لا راد لقضائك، ولا سخط على بلائك، أمرت فأطعنا، وابتليت فرضينا، فأمطرنا غيث إحسانك، وأذقنا برد رحمتك، وألهمنا جميل صبرك، وثبت قلوبنا على طاعتك، فلا عون إلا بك، ولا ملجأ إلا إليك، إنك أرحم الراحمين، وأعدل الحاكمين[2].

---

(١) نسبتها: أى ذكرت نسبتها إلى نوع من أنواع تلك الصور.

(٢) حدث القاضى أبو الفتح أنه دخل على أبى العلاء فى خلوته فسمعه يقول وهو لا يعلم بمكانه:

كم بودرت غادة كعوب	وعمرت أمها العجوز
يجوز أن تبطئ المنايا	والخلد فى الدهر لا يجوز

ثم تأوه مرات وتلا قوله تعالى ﴿إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة - الآية﴾ ثم صاح وبكى بكاء شديدًا وطرح نفسه على الأرض وهو يقول: سبحان من هذا كلامه. قال: فعلمت صحة دينه ويقينه.

ثم أطرق بعد ذلك إطراقًا طويلاً خلت أنه وصل فيه إلى مقام التجريد وأن الذى أراه بين يدى جسد هامد قد أسرى بروحه إلى الملأ الأعلى فجعلت اختلس الخطا إليه حتى صاقبته، فرفع رأسه إلى ذاهلاً، وقال: أنت هنا؟ قلت: نعم، قال: فى أى سنة نحن من تاريخ الهجرة؟ فعجبت لسؤاله وقلت: فى السنة التاسعة والعشرين بعد الثلثمائة والألف، قال: ما اسم هذا المصر الذى تعمرونه؟ قلت: القاهرة المعزية: قال: أفى هذه الأمة كثير مثلك؟ قلت: لم أفهم ما تريد يا سيدى، قال: لقد استفتحت هذه الأبواب التى تليك فلم أجد من ورائها إلا ضعيفًا لا يلبث أن يرانى حتى يرعد منى فرقًا فيوصد بابه فى وجهى أو ضنينًا يرى بؤسى وشكاتى فيزوى ما بين حاجبيه ثم ينصرف عنى، أو أعجميًا لا يفهم ما أقول، ولا أفهم ما يقول: قلت: ما فى هذه الحالة أعجمى، قال إنهم خاطبونى بلحن لا أعرفه وإن شئت أعدته عليك كما سمعته، ثم أخذ يسرد على الكلمات العامية التى سمعها من الناس فى طريقه إلى سردًا متواصلاً كما تسرد الببغاء كلماتها، فقلت: إنك قد أعدت يا سيدى بذكائك هذا عهد أبى العلاء المعرى، فإنهم يتحدثون عنه أنه كان إذا سمع أعجميًا يتكلم حفظ كلامه بدون أن يفهم معناه[1] فما سمع كلمتى هذه حتى اضطرب جسمه وانكفأ لونه[2] ورأرأ بمقلتيه[3] وزحف إلى حتى اصطكت ركبتانا، فعجبت لأمره وما رأيت من استحالة حاله. ثم قال لى: من هو هذا المعرى الذى حدثوك عنه، قلت: رجل من علماء الأمة العربية وشعرائها عاش فى القرن الرابع والخامس من الهجرة نقرأ سيرته فى كتب التاريخ والأدب ونعجب بفهمه وعلمه وذكائه كل الإعجاب، قال: وما ظنكم به؟ قلت: أن الناس فى أمره مختلفون، ومن يرفضه أكثر ممن يتشيع له، قال: ومن أيهم أنت؟ قلت: ممن يتشيع له، فقد قرأت كتبه قراءة مستثبت مستبصر فما شككت فى مذهبه ودينه، قال: أكنت تؤثر أن تكون فى عصره

(١) ذكر المؤرخون لأبى العلاء قصصًا متعددة تتضمن أنه كان يحفظ ما يسمعه من الأعاجم بلغتهم فيبقى فى ذهنه زمنًا طويلاً حتى يلقيه كما سمعه.

(٢) انكفأ لونه: تغير.

(٣) رأرأ بمقلتيه: حركهما وأدارهما.

أو .أن يكون فى عصرك حتى تراه؟ قلت: ما أعـدل بهذه الأمنية غيرها، قال: قد بلغك الله طلبتك، قلت لم أفهم يا سيدى شيئًا مما تقول، قال: أكاتم أنت على سرّى قلت: نعم، قال: أتقسم؟ قلت: إن للوفاء عندى حرمة مثل حرمة القسم ولو كنت متهمًا نفسى لأقسمت، قال: الآن عرفتك، أنا أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى المعرى، فما قرعـت هذه الكلمة مسمعى حتى أسقط فى يدى وعلمت أنى قـد هلكت، وكان أول مـا كان منى أن ألتـفت ناحـية لأرى هل أجد السبيل إلى الهرب أن عرض لى من هذا الجنون عارض سوء، وكأنه ألمّ بما فى نفـسى فقال: لا ألومك على مـا ظننت فقد قـدرت قبل أن ألقى إليك كلمتى هذه أنها بالغـة منك ما بلغت فهل تؤمن بالله؟ قلت: نعم، قال: وتؤمـن بالبعث، قلت: نعم، قـال: وما يريبك من رجل أمـاته الله ثم بعثه بعد مـوته؟ قلت: ذلك يوم يبعثون، قال: هبهـا قصة إبراهيم إذ قال له ربه ﴿**فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعياً**﴾ وبعد فوالله بما بنى ما كفرت منذ آمنت، ولا كذبت منذ عرفت أن الصدق منجـاة من النار، ولا استـرد الله منى نعمـة العقل بعد مـا منحنى إياها ولو كذبت الناس جـميعًا مـا كذبتك فقـد أسلفت إلى من أياديك ما لا أحـتاج بعـده إلى كذبـة اتنفق بها عليـك، أو ازدلف بها إليك، وإنى قـاص عليك قصتى فأصغ لها ولك بعد ذلك حكمك، فسرى عنى قليلاً ما كان ألم بنفسى من القلق فأقبلت عليه بوجهى فأنشأ يقول:

لا أزال يا بنى حتى الساعة أشعر بمرارة الحساب فى فمى، فقد حوسبت حسـابًا غير يسـير على الكبـير والصغـير والدقيق والجلـيل والقومة والقـعدة والخطرة واللمـحة وكل مـا وجدته حاضـراً بين يدى فى صحـائفى، فكادت حسناتى تكافئ فى الميـزان سيئاتى ولولا تـلك الكلمات التى كنت أرددها فى حياتى الأولى فى تزهيد الناس فى النسل والزواج[1] فقد دخلت بها فى زمرة

---

(١) لأبى العـلاء أقوال كثـيرة فى النهى عن الزواج والـتزهيد فى الـنسل جاء بها عـلى صور مختلفة تارة كان يفرح بموت الطفل فى مهده كقوله:

قـدم الفـتى ومـضى بغـيـر تثـيـة	كـهـــلال أول ليـلة من شـــهـــره
لقـد اسـتـراح من الحـيـاة مـعـجل	لو عــاش كـابـد شـدة فى دهره

وتارة كان يفضل بقاءه فى عالم الغيب كقوله:

المفسدين الذين تنكروا لإرادة الله وأغفلوا حكمته فى خلق النوع البشرى وطال حسابى عليها وحجاجى فيها وكان لابد من العقاب ففزعت إلى الروح الشريفة المحمدية مستشفعًا بها لا أريد القضاء ولكن أريد اللطف فيه، فتعلق محمد -ﷺ- بقوائم العرش الإلهى وقال:

اللهم إنك تعلم أن عبدك هذا عاش فى تلك الدار كارهًا لها متبرمًا بها متسخطًا عليها حابسًا نفسه فى كسر بيته فرارًا من أهلها يترقب فراقها فى جميع آنائه وفيناته حتى لو رأى الشمس طالعة لتمنى ألا يرى مغربها ولو رآها

= وإذا أردتم لبنين كرامة ... فالحزم أجمع تركهم فى الأظهر

وتارة كان يظهر سروره بأنه لم يتزوج ولم ينسل كقوله:

تواصل حبل النسل ما بين آدم ... وبينى لم يوصل بلامى ياء
تشاءب عمرو إذ تشاءب خالد ... بعدوى فما أعدتنى الثوباء

وقوله:

بنت عن الدنيا ولا بنت لى ... فيها ولا عرس ولا أخت

وقوله:

لقد صرت فى الدنيا غبينًا مرزءًا ... فأعفيت نسلى من أذاة ومن غبن
فإن تحكمى بالجور فى وفى أبى ... فلن تحكميه فى بناتى وفى ابنى

وتارة كان يعد ولادة الوالد لولد جناية منه عليه كقوله:

ليلنم والدًا ولد ويعتب ... عليه فبئس عمرى ما سعى له

وقوله:

هذا جناه أبى علىّ ... وما جنيت على أحد

وظاهر أن الذى أثار هذه الخواطر فى نفسه ما كان يتصوره من أن الشقاء فى هذا العالم لازم ضرورى من لوازم النوع الإنسانى ولا خلاص له منه إلا من طريق العدم المحض، وأن إسناده الجناية إلى الوالد بولادة ولده ليس على ظاهره بل أراد به الإمعان فى تصوير هذا الشقاء وتبين ضرورة اتصاله بالإنسان وأنه لو لم يولد لما كان شقيًا، وقد أوضح غرضه هذا توضيحًا بينًا فى قوله:

ألا تفكرت قبل النسل فى زمن ... به حللت فتدرى أين تلقيه
ترجو له من نعيم الدهر ممتنعًا ... وما علمت بأن العيش يشقيه
شكا الأذى فسهرت الليل وابتكرت ... به الفتاة إلى شمطاء ترقيه
وأمه تسأل العراف قاضية ... عند النذور لعل الله يبقيه
وأنت أرشد منها حين تحمله ... إلى الطبيب يداويه ويسقيه
ولو رقى الطفل عيسى أو أعيد له ... بقراط ما كان من موت يوقيه

غاربة لتمنى ألا يرى مشرقها، وقد قضى قضاؤك الذى لا مرد له ولا محيص عنه أن تعاقبه على ما اجترح من السيئات فى دار العمل فأسألك بقلمك النورانى الذى تمحو به فى لوحك ما تشاء وتثبت، أن تقى جسمه الذى طهره فى الحياة الدنيا بالزهد فى شهواتها ولذائذها، والصبر على آلامها وأهوالها من عذاب النار[1] وأن تجعل عذاب قلبه فداء عذاب جسمه فعاقبه بإرجاعه إلى تلك الدار التى كانت جحيمه ومستقر عذابه، وحسبه من العقاب أن يلقى فيها آخر ما لقى فيها أولاً، إنك بعبادك لطيف خبير.

فقبل الله شفاعة نبيه وقضى أن أعود إلى الدار الأولى لأقضى فيها من الأيام بعد ما قضيت فيها من السنين وقد علم سبحانه وتعالى أنى كنت فى العهد الأول أحمده على العمى كما يحمده غيرى على البصر، فرد إلىّ بصري لتنفذ مشيئته فى عقابى وتعذيبى فله الحمد على سرائه وضرائه.

هذه قصتى قصصتها عليك وهذا أول يوم من الأيام التى سأقضيها فى داركم هذه، فاكتم على أمرى حتى ينقضى أجلى وكن لى خير معين على هموم الحياة وبأسائها، فقد اغتبطت بك مذ رأيتك وعلمت أن الله ما قيضك لى إلا وهو يريد أن يخفف عنى العذاب مرة أخرى.

فما أتم قصته حتى ابتدرت يديه لثمًا وتقبيلاً وعلمت أنى أحرزت فى بيتى كنزاً لا أعدل به كنوز الأرض ظاهرها وباطنها، وشعرت بما أضاء بين جوانحى من سرور ما كان يكدره على إلا خوف انقضائه.

ثم ما زلنا نتحدث حتى كادت تحترق فحمة الليل فوضعت يدى فى يده وعاهدته على كتمان سره ثم ودعته وتركته فى خلوته على أن نلتقى غداً.

---

(١) كان أبو العلاء يعتقد ما يعتقده جميع الموحدين أن ما لقيه فى هذه الحياة من عناء وشقاء وما أخذ به نفسه من الزهد فى العيش والرغبة عن لذائذ الحياة وأنعمها مدخر له أجره فى دار الجزاء كما يظهر من مثل قوله:

أالخشى عذاب الله والله عادل ... وقد عشت عيش المستضام المعذب

وقوله:

أأصبح فى الدنيا كما هو عالم ... وادخل ناراً مثل قيصر أو كسرى

اليوم الثانى

ما كنت أجهل قبل اليوم رأى الشيخ فى الطعام وما يحب منه وما يكره ولكننى ظننت أنه بعث بطبيعة غير طبيعته ورأى غير رأيه فقدمت إليه فى طعام العشاء دجاجات ربلات(١) كنت أعددتهن للضيفان من قبل فلما أخذ بصره المائدة ينظر إليها مرة وإلى أخرى ثم قال: ما اسم هذا الطعام الذى تقدمه إلى؟ قلت: إنهن دجاجات لم يكن للخادم الصغرى عندى شأن غير رعايتهن والقيام عليهن والحدب بهن، فكانت تؤثرهن بأفضل ما نؤثرها به من طعام وشراب وتنزلهن من نفسها منزلة الواحد من أمه امتلأن واكتنزن(٢) واستدرن للذبح، وقد كنت أبقى عليهن كلما طرقنى طارق إبقاء على الفتاة أن ينفجر صدرها حزنًا على أترابها الصغيرات، أما اليوم فلم أر من ذلك بدًا فذبحتهن إكرامًا لك، فسال من دموع الفتاة عليهن أكثر مما سال من دمائها.

فوجم الشيخ ثم أطرق إطراقًا طويلاً سمعته يهينم(٣) فيه بهذه الكلمات، وارحمتاه، ألا تزال هذه المدى موكلة بهذه الأعناق، ألا يزال الحيوان الناطق ينكر على الإنسان الصامت حتى حسه ووجدانه، ويأبى إلا أن ينظمه فى سلك الجمادات الصم لأنه صامت لا ينطق، وأخرس لا يبين(٤) وبما كان زقاء الديك، وقوقأة الدجاجة، وصرصرة البازى، وهديل الحمام، وزقزقة العصفور، وثغاء الشاة، ومواء الهرة، وخوار الثور، وحنين النيب(٥) بكاء بغير دموع، وشكرى بغير لسان، وربما كان يكتم ذلك الذبيح فى نفسه من الوجد والرجاء والبرحاء ما لو استطاع أن يبين عنه لأبكى العيون دماء وفجر الصخور عيونًا.

---

(١) الربل: الكثير اللحم.
(٢) اكتنز اللحم: اجتمع وصلب.
(٣) الهينمة: الصوت الخفى.
(٤) من كلام أبى العلاء فى إحساس الحيوان بالألم قوله فى إحدى رسائله «وقد علم أن الحيوان كله إحساس يقع به الألم» وقوله: «ولم يزل من ينتسب إلى الدين يرغب فى هجران اللحوم لا يتوصل إليها إلا بإيلام حيوان يفر منه فى كل أوان».
(٥) النيب: جمع ناب، وهى الناقة المسنة.

ثم رفع إلى وقال: أما سمعت الدجاجات يقلن لك شيئًا عندما أردت ذبحهن قلت: لا يا مولاى ومتى قلن للناس شيئًا فيقلن لى؟ فنظر إلى نظرة شزراء لا أنسى سهمها الواقع فى قلبى ما حييت ثم قال: أما لو أن الله منح ذابح الدجاجة من نور البصيرة ما منحه من نور البصر لسمعها تقول له: مهلاً رويدًا أيها القاتل السفاك لا تدن منى ولا تمدد يدك إلى فلا شأن لك معى ولا وترة(١) لك عندى.

أنا صاحبة الحق المطلق فى حياتى وأنا لا أريد أن أموت ولا رغبة لى فى فراق الحياة لأن ورائى أفراخًا صغاراً هن إلى حياتى أحوج منك إلى مماتى، وليس من الرأى أن أكل أمرهن إليك من بعدى لأنك شره طماع لا يشبع بطنك ولا تهدأ مديتك.

أنت لا تملك أن تعطينى الحياة فلا تملك أن تسلبنى إياها.

كل ما تستطيع أن تمن به على أنك تطعمنى وتسقينى فهل تعلم أنك ما كنت تطعمنى إلا فتات مائدتك ولا تسقينى إلا غسالة يديك، وأنك ما كنت تصنع ذلك رحمة بى ولا إحسانًا إلى بل لتهيئ لنفسك ما يسد شهوتك ويطفئ لوعتها وهل تعلم أنك أنت الذى سجنتنى فى أقفاصك، وحلت بينى وبين رزق الله أطعمه أنى ذهبت وأين حللت من حيث لا يساومنى فيه مساوم ولا يحاسبنى عليه محاسب؟!.

أمن أجل الخشارة(٢) القذرة والجريمة الكدرة تسلبنى حياتى وتفجع بى أفراخى ولا ذنب لى ولا لهن عندك إلا أنا كنا زينة بيتك ولعبة أطفالك وحماة آلك من بنات الأرض(٣) وهوامها ورسل الفجر المنير إليك.

لا تظلم السبع اليوم ولا تنقم منه وحشيته وافتراسه فكلاكما وحش وكلاكما مفترس لا فرق بينك وبينه إلا أنه لا يحسن الذبح والطبخ كما تحسن، فهو يبقر البطون بأظافره وأنت تفرى الأوداج بمداك، لا بل أن

---

(١) الترة: الثأر.

(٢) الخشارة: فضالة المائدة.

(٣) المراد ببنات الأرض: الحشرات التى تخرج من بطنها.

جريمتك أكبر من جريمته وعذرك أضعف من عذره لأنه يفترس ليشبع بطنه وأنت على ذلك من القادرين[١].

استضعفتنى فبرزت إلى فهلا برزت لشبل الأسد، أو ديسم الدب، أو فرعل الضب، أو حرش الحية، أو هيثم النسر، أو ناهض العقاب؟[٢]

ما أخبثك أيها الإنسان عاجزًا، وما أظلمك قادرًا، وما أشقاك بنفسك وأشقى العالمين بشقائك!

ذلك ما كان يسمعه الذابح من ذبيحته لو أن الله وهبه أذنًا كالآذان وبصيرة كالبصائر، ولكن الناس لا يعلمون.

هيه يا صاحب الدجاجات! حدثنى عنك ألم يكن لك فى جميع ما تنبت الأرض من بقلها، وقثائها، وفومها، وعدسها، وبصلها منادح لإكرامى والقيام بحقى، وأنت تعلم أننى رجل سلخت فى دنياكم هذه من حياتى الأولى نيفًا وأربعين سنة لم أذق فيها لحم الحيوان ولا ثماره ولا نتاجه، فحميت نفسى حتى عسل النحل وبيض الدجاج وألبان ذوات الأثداء وأقنعتها بالبلسن طعامًا والبلس حلوى[٣] لأنى كنت أعلم أن طعامى الذى لا يلاءمنى غيره ولا يشبعنى سواه، وأن لحم الحيوان إنما خلق للشفاه الغليظة، والأنياب العريضة والأظافر الحادة والجلود المزأبرة[٤] والأعضاء المتوثبة، والهامات

---

(١) فضل أبو العلاء الحيوان على الإنسان فى كثير من كلامه كقوله:

سببت بالكلب فأنكرته ... والكلب خير منك إذ ينبح

وقوله:

أقل منهم شرًا ومرزية ... ما ركبوا فى السرى وما ذبحوا

وقوله:

خير من الظالم الجبار شيمته ... ظلم وحيف ظليم يرتعى الذبحا

(٢) هذه فروق نتاج تلك الأنواع من الحيوان.

(٣) البلسن: العدس. والبلس: التين، ومن كلام أبى العلاء:

يقنعنى بلسن يمارس لى ... فإن أتتنى حلاوة فبلس

(٤) الثوب المزأبر: الذى له زئبر وهو ما يظهر من دروزه.

الضخمة، وكنت أرى أن أكلة اللحوم إنما يخادعون أنفسهم فيها ويجترونها إلى طباعهم اجتراراً لا يأكلونها إلا إذا عالجوها بالطبخ والصف[1] والتقديد والشى والقلى، ومزجوها بالخضر والتوابل والأباذير والأقزاح[2] مزجًا يكاد يخرج بها عن جوهرها إلى جوهر النبات، حتى إذا نزل بهم عارض مرض نزعوا عنها وبرئوا إلى الله منها وفزعوا إلى النبات فى طعامهم وشرابهم وعقاقيرهم، كأنما يطلبون شفاءهم فى الرجوع إلى غذائهم الطبيعى الذى خلقوا له.

وأعجب ما كنت أعجب له من أمرهم أنهم كانوا ينكرون على رأيى فى ترك ذلك الطعام ويمعنون فى مسألتى عنه وحجابى فيه وحملى عليه ويلحون فى ذلك إلحاحًا شديداً حتى ظننت أنهم قاتلى من دونه[3] كأنما يزعمون فى ضوضائهم هذه أنهم إنما يأكلون لحم الحيوان باسم الشريعة الدينية لا باسم القرم والجعم[4] أو أن الله تعالى أنزل عليهم قرآنًا ألا يقيم لهم يوم القيامة وزنًا ولا يقبل منهم صرفًا ولا عدلاً إلا إذا قدموا عليه ببطون بجر[5] مكتظة بلحوم الحيوان تتقدم بين أيديهم فى منصرفهم من الحساب لتفتح لهم أبواب الجنان، وكأنهم فرغوا من أداء ما افترض الله عليهم أن يؤدوه وترك ما أمرهم أن يتركوه فلم يبق بين أيديهم من أبواب العبادة إلا باب التورع عن أكل اللحم مخافة أن ينقلب المباح بإعراضهم عنه حرامًا، كما ترك النبى

(١) الصف: تشريح اللحم عراضًا.

(٢) التوابل وما يليها: ما يطيب المطبوخ من الأشياء اليابسة.

(٣) كتب ابن أبى عمران إلى أبى العلاء جملة رسائل يسأله فيها عن سبب امتناعه عن أكل اللحم ويبكته تبكيتًا مؤلمًا، ويعرض عليه أن يحمل بعض الأمراء على أن يرسل إليه ما يكفيه مؤونة ذلك إحراجًا له واعناتًا، وأبو العلاء يومئذ فى أواخر حياته ومنتهى شيخوخته فقد ضعفت شهوته عن اللحم وغيره ووهنت قوته عن المناظرة والجدل حتى قال فى بعض أجوبته عن تلك الرسائل: «ولو مثل بحضرته السامية لعلم أنه لم يبق فيه بقية لأن يسأل ولا أن يجيب وقد عجز عن القيام فى الصلاة فإنما يصلى قاعداً والله المستعان».

(٤) القرم والجعم: شهوة اللحم.

(٥) بجر: جمع أبجر، وهو الممتلىء.

-ﷺ- صلاة التراويح بعد أدائها مخافة أن تنقلب سنتها باستمراره عليها فريضة(١).

وأحسب أن لو كنت فيهم من أكلة السحت أو الميتة والدم ولحم الخنزير أو أموال الناس بالباطل، لأوسعوا لى فى صدورهم من العذر ما لم يوسعوا فى ترك مباح ما تركته نقمة على الشريعة أو تبرمًا بها أو تمردًا عليها، ولكننى كنت امرءًا جزوعًا يزعجنى منظر الشرائح الحيوانية على مائدتى لأنه يذكرنى بمنظر الذبيحة وارتياعها وولها بين حبل الذابح وسكينه، وكنت فقيرًا لا أملك فى كل عام من الرزق إلا نيفًا وعشرين دينارًا لا يتسع مثلها لمثل ما يتسع له عيش الناعمين المترفين(٢) وما كنت أجد السبيل إلى غيرها إلا من طريق الكدية والتكفف أى بقبول صلات الأمراء وصدقات المحسنين، وقد علم الله من شأنى أننى رجل لو علمت أنى إن أذلت ما صان الله من ماء وجهى على عتبة أمير أو قدم وزير أمطرت السماء على ذهبًا، واستحالت الحصباء تحت قدمى درًا ما فعلت ضنًا بنفسى على هذا الموقف المستوبل وإيثارًا للرضا بقضاء الله وقدره فى قسمة أرزاقه بين عباده(٣).

---

(١) من كلام أبى العلاء فى الذين يحفلون بصغائر الذنوب ويفعلون كبارها:

يعيب أناس أن قومًا تجردوا	لحمامهم نصب العيون الشوازر
لقد سعدوا أن كان لم يحز عندهم	من الوزر إلا تركهم للمآزر

(٢) من كلام أبى العلاء فى سبب امتناعه عن أكل اللحم قوله فى بعض رسائله «ومما حثنى على ترك اللحم أن الذى لي فى السنة نيف وعشرون دينارًا فإذا أخذ خادمى بعض ما يجب، بقى ما لا يعجب، فاقتصرت على فول وبلسن، وبعض ما لا يعذب فى الأحسن» ومن كلامه الدال على أنه كان فقيرًا معوزًا قوله:

واتهامى بالمال أوجب أن يطـ	ـلب منى ما يقتضى التمويل
ويقول الغواة خولك الله	كذبتم لغيرى التخويل

(٣) كان أبو العلاء غاية فى قناعته وأنفة نفسه وقد ظهر ذلك فى حالة معيشته واعتقاله بيته وانزوائه عن الناس مع رغبة الأمراء فيه وإلحاح الكبراء عليه فى البروز إليهم والسكون معهم فضلاً عما كان لا يزال يهتف به من ذكر القناعة فى شعره كقوله:

الحمد لله قد أصبحت فى دعة	أرضى القليل ولا أهتم بالقوت

وقوله:

من مذهبى أن لا أشد بفضة	قدحى ولا أصغى لشرب معوج
لكن أقضى مدتى بتقنع	يغنى وأخرج بالقليل الأروج
هذا ولست أود أنى قائم	بالملك فى ثوبى أغر متوج

=

فلم أر خيراً من ترك طعام لو اشتهيته لما قدرت عليه ولو قدرت عليه لما اشتهيته من حيث لا يكون للتحريم والتحليل ولا للإيمان والزندقة فى ذلك مدخل.

وما زال المتورعون من السلف الصالح يتركون ما هو لهم حلال مطلق من لذائذ هذه الحياة وشهواتها ويجزعون من ملامسته والدنو منه جزعهم من اجتراح السيئات، وانتهاك الحرمات، فقد كان النبى -ﷺ- يجيع نفسه من غير عوز وكانت عائشة -رضي الله عنها- تقول: إن رسول الله لم يمتلئ قط شبعًا وربما بكيت رحمة له مما أرى به من الجوع فأمسح بطنه بيدى وأقول: نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك، فيقول: «**يا عائشة إخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم**»، وكان يقول: «**شرار أمتى الذين يأكلون مخ الحنطة**[1]» وعلا عمر -رضي الله عنه- ولده عبد الله بن عمر بالدرة[2] إذ دخل عليه فرآه يجمع فى طعامه بين الثريد والشواء. وكان بعض الصالحين يعد الجمع بين الخبز والملح شهوة فيتجنبها، وكان بعضهم يعجن دقيقه ويجففه فى الشمس ثم يأكله قائلاً: كسرة وملح حتى يتهيأ فى الآخرة الشواء، ومنهم من لم يأتدم قط فى حياته لا بالجواذب[3] والكباب ولا بالخل والزيت.

= ولما اضطر أن يخرج إلى أسد الدولة صالح وهو بظاهر العرة ليطلب منه إطلاق جماعة من الأسرى عنده قبل صالح شفاعته وأطلقهم. ولكنه جزع بعد ذلك لهذه الضراعة جزعًا ظهر فى قوله:

تغيبت فى منزلى برهة ... ستير العيون فقيد لحسد
فلما مضى العمر إلا الأقل ... وحم لروحى فراق الجسد
بعثت شفيعًا إلى صالح ... وذاك من القوم رأى فسد
فيسمع منى سجع الحمام ... وأسمع منه زئير الأسد
فلا يعجبنى هذا النفاق ... فكم نفقت محنة ما كسد

(١) مخ الحنطة: خالصها.

(٢) الدرة: السوط يضرب به، كان فى يد عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- درة تكاد لا تفارق يده.

(٣) الجوذاب: طعام يتخذ من سكر وأرز ولحم.

فهل كان واحد من هؤلاء بطرًا بنعمة الله أو محرمًا ما حلل الله؟ لا، فما كل من أبغض حلالاً حرمه، ولا كل من أحب حرامًا حلله، فقد اعتقد صاحب أبي حنيفة بحل النبيذ فلما أريد عليه قال: لو قطعت إربًا إربًا ما حرمته ولو قطعت إربًا ما شربته وعلم النبي -ﷺ- بحل الطلاق ثم قال: **«أبغض الحلال إلى الله الطلاق»**، بل لو تبينت لعلمت أن قاعدة التحريم والتحليل في الشرائع الدينية مصادرة النفوس في ميولها وشهواتها، والنفوس لا تنفر إلا مما حل لها ولا تشتهي إلا ما حرم عليها.

فويل لي من هؤلاء الناس، شركتهم في دنياهم فقالوا شره طماع، وصدفت لهم عنها فقالوا زنديق ملحد، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون[1].

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى بلغ منه الجهد أو كاد، فتفصد جبينه عرقًا واستسر حديثه يبين، فرثيت له مما به وأمرت برفع المائدة من بين يديه وقدمت له مقترحه من الطعام، فلبثنا نأكل صامتين حتى فرغنا فأردت أن أرفه عليه ما ألم به من الهم فقلت له: يا مولاي إن للحيوان اليوم شأنًا غير ذلك الشأن الذي تعرفه له من قبل فقد ذهب كثير من الناس مذهب الرفق به والإحسان إليه، واجتمع في كل مدينة من مدن العالم قوم من الراحمين المحسنين يأخذون أنفسهم بمناظرة المدارج والسبل والأسواق العامة فإذا وجدوا من يحمل على دابته فوق ما تحتمل أو يسوطها سوطًا عنيفًا[2] رفعوا إلى الحاكم أمره، أو رأوا حيوانًا هزيلاً أو مهيضًا[3] حملوه إلى مكان خاص بمعالجة أمراض الحيوان فعالجوه إن وجدوا إلى الرجاء فيه سبيلاً وإلا قتلوه رحمة به وإشفاقًا عليه.

قال: لقد أحسنوا في الأولى وأساءوا في الأخرى، ومن لهم بعلم ما استتر وراء حجب الغيب من كوامن الأقدار في تحديد الآجال، وها نحن نرى

(١) من كلام أبي العلاء في عدم رضاء الناس عنه حتى في زهده عما في أيديهم:

حوربت في كل مطلوب هممت به ... حتى زهدت فما خليت والزهدا

(٢) ساط دابته - سوطًا: أي ضربها بالسوط.

(٣) المهيض: الكسير.

فى كل يوم مريضًا يبل بعد إشرافه وبكاء الباكيات حوله، وصحيحًا يخترم فى اجتماع قوته واستكمال فتوته وغليان مـاء الشباب فى وجهه كما تخترم الثمرة الغضـة من غصنهـا الناضر فهـلا وكلوه إلى منيتـه تأتيه هادئة مطمـئنة حيث يسوقها القدر إليه(١).

ما أحـسب هؤلاء الراحمين الذين تحـدثنى عنهم إلا مرائين مـصانعين، ولا هذه الرحـمة التى ينتـحلونها لأنفـسهم إلا حـبالة من الحـبائل نصـبوها لاصطياد الـعقول واخـتتال الـنفوس، ولو أنهم أرادوا بما فعـلوا إلا أن يقول الناس عنهم أنهم رحموا الحـيوان فأحرى أن يرحموا الإنسان، فـمثلهم كمثل المرائين فى الدين الذين يتورعون عن التمرة حلالاً تذرعًا إلى البدرة حرامًا.

يا بنى آدم، دعوا النوق فى مراحهـا، والشاء فى دروبها، والوحش فى كناسه، والضب فى جـحره، والذئب فى وجـاره، والقطـا فـى أفاحـيصـه، ولا تزعـجوا العـصافيـر فى أعشـاشـها، ولا الحـمام عن مـحاضنـها، ولا اليعاسـيب عن خلاياها، ولا الأسماك عن مسـارحها(٢)، وجنبوها فخاخكم وشـبـاككم، وقـتـركم زباكم(٣)، ومـداكم وشـفـاركم، فـإن لهـا نفـوسًـا كنفوسكم، ووجـدانًا كوجدانكم، ورجـاء فى الحياة كـرجـائكم، واعلموا أن الله تعالى مـا أغوى بعضكم على بعـض، ولا سلط قويكم على ضعـيفكم، ولا أجرى هذه اليـنابيع من الدماء بين أحـياءكم إلا بعـد أن ضريتم(٤) بهذه اللحوم ضراء السـباع بفرائسها، وقطعتـم إلى المتعة بها ما شئـتم من الحلاقيم والغلاصم والأوداج والأباهر(٥)، فارحـموها ترحـموا أنفـسكم، واعصـموا

---

(١) من كلام أبى العلاء فى عجز العالم عن إدراك الغيب:

وجـدت الغـيب تجـهله البـرايا ... فـمـا شق هـديت ومـا سطيح

(٢) هذه فروق أماكن تلك الحيوانات.

(٣) القتر: جمع قترة بضم القاف، وهو الناموس الذى يبنيه الصائد ليستتر عن الصيد.
والزبى: جمع زبية بضم الزاى وهى حفرة تحتفر فى قمة الجبل لصيد الأسد.

(٤) ضرى الوحش باللحم اعتاده وألفه.

(٥) الغلاصم: جمع غلصمة وهى اللحـمة بين الرأس والعنق، والأباهر جمع أبهر وهو عرق يخرج من القلب إلى سائر الشرايين إذا انقطع مات صاحبه.

دماءها يعصم الله دماءكم، إنكم إلى الرحمة محتاجون، وإلى الله راغبون[١].

ثم سكت بعد ذلك سكوت المجهد المتعب، وكان الظلام قد أظلنا بجناحيه، فشعرت أن سنة من النوم قد رنقت[٢] فى عينيه، فانسللت من بين يديه، وتركته فى مضجعه على أن ألقاه غداً.

اليوم الثالث

أصبحت فى اليوم الثالث فإذا الشيخ قد فارق خلوته إلى حديقة المنزل فافترش ترابها، وتوسد أعشابها وأنشأ يردد النظر بين أزهارها وأنوارها ويبسم

---

(١) للمعرى كلام كثير فى الرفق بالحيوان والنهى عن إيذائه ومطاردته وذبحه وأكل لحمه والانتفاع بألبانه وثماره كقوله فى النهى عن ضرب الدواب:

لقد ساءنى مغد الفقير بجهله ... على العير ضربًا ساء ما يتقلد
يحمله ما لا يطيق فإن ونى ... أحال على ذى قترة يتجلد

وقوله يخاطب الحمامة ويؤمنها من غدره وختله:

لك النصح منى لا أعاديك خاتلاً ... بمكر ولكنى أغاديك مكرما
إذا ما حذرت الصقر يومًا فحاذرى ... أخا الإنس أيامًا وإن كان محرما
يصوغ لك الغادى قلادة هالك ... من الدم تخبى وجدك المتضرما

وقوله فى النهى عن صيد الوحش:

لا تطرد الوحش فما يلبث ... المطرود فى الدنيا ولا الطارد

وقوله فى النهى عن تقطيع لحم الحيوان المذبوح وقت اختلاجه وقبل مفارقته الحياة:

روح ذبيحك لا تعجله ميتته ... فتأخذ النحض منه وهو يختلج

وقوله فى الاعتراض على صيد الأسماك:

جاروا على حيوان اليرثم غدوا ... على البحار فقالوا الصيد ما فيها
لم يقنع الحى منها ما تقنصه ... حتى أجاز أناس أكل طافيها

وقوله يبكى على الطائر المقتول:

وابك على طائر رماه فتى ... لاه فأوهى بفهره الكتفا
أو صادفته حبالة نصبت ... فظل فيها كأنما كتفا
بكر يبغى المعاش مجتهداً ... فقص عقد الشروق أو هتفا
كأنه فى الحياة ما فرع الغصـ ... ـن فغنى عليه أو هتفا

(٢) يقال رنق النوم فى عينيه إذا خالطهما كأنه مأخوذ من ترنيق الطائر أى تحليقه ورفرفته بجناحيه.

للعصافير تنتقل بين أنجمها[١] وأشجارها ويصغى إلى سرار الحديث بين حصبائها ومائها فعرفت المدخل إلى قلبه والوسيلة إلى سروره وغبطته فاقترحت عليه البروز إلى ضاحية البلد ليرفه عن نفسه ما ألم بها من الحزن والألم فخرجنا يتوكأ على يدى مرة وعلى عصاه أخرى حتى وصلنا إلى واد أفيح يهتز بصنوف الأشجار، وأفانين الأزهار ويتراءى فى ألوان من النبات، مشتبهات وغير مشتبهات، من هائج وعميم، وبارض وجميم[٢]، وكروم وأعناب، وسنابل وأعشاب وتفيض أرجاؤها بالجداول والغدران، والقنى والخلجان، مطردات ومنعطفات، ومجتمعات ومفترقات، يفضى أولاها إلى أُخراها، ويتصل أقصاها بأدناها، ويعطف كبيرها على صغيرها، وقويها على ضعيفها؛ فكأنها صلال رقشاء قد فرت من حر الظهيرة إلى هذا الروض الأريض تبترد بين روابيه وأكماته، ومصاعده منحدراته، فهى تنقبض وتنبسط وتنساب وتتمعج[٣] وتقبل وتدبر، وتقوم وتقعد، وتتوائب وتتراجع وتتواصل ثم تتقاطع؛ وكأن حفيف أوراقه، وخرير مائه، وتغريد أطياره، وضجيج نواعيره، وعجيج سائمته أنغام مختلفات يتألف من مجموعها لحن بديع يسمعه السامع فيخيل إليه أنه هابط من أبواب السماء أو أن سكان الألمب[٤] فوق عروشهم يغنون، وسكان الأرض بين أيديهم يستمعون.

هنالك وقف الشيخ أمام هذا المشهد المؤثر وقفة الحائر المشدوه، وقد ملكت عليه مشاعره وحيل بينه وبين نفسه فجمد فى مكانه كأنه نصب من الأنصاب ووقفت وراءه أعجب لجموده وسكونه حتى فنيت كما فنى فى مشهد الذى بين يديه فلم أرجع إلى نفسى حتى سمعته يقول:

للمليك المذكرات عبيد ... وكذاك المؤنثات إماء

(١) الأنجم: جمع نجم بفتح النون، وهو ما نجم من النبات على غير ساق.
(٢) الهائج من النبات الذى اصفر ويبس والعميم منه ما عم الأرض والبارض أول ما يبدو من النبات فإذا تحرك قليلاً فهو الجميم.
(٣) تمعجت الحية: تلوت فى سيرها وتثنت.
(٤) الألمب: خرافات اليونان، مجمع آلهتهم ويقولون أن لتلك الآلهة ساعات يشربون فيها فى مجتمعهم هذا ويطربون.

فالهلال المنيف والبدر والفر قد والصبح والثرى والماء
والثريا والشمس والنار والنثرة والأرض والضحى والسماء
هذه كلها لربك ما عا بك فى قول ذلك الحكماء

ثم التفت إلى وقال: كل الناس يطلبون الحقيقة وكلهم عاجزون عنها لأنهم يطلبونها من صحائف التاريخ، والمؤرخون يصانعون ويداهنون، أو من أفواه الفقهاء، والفقهاء تجار يرتزقون، لا هداة يرشدون، أو من خطرات عقولهم، وقد أفسدها، عليهم القائلون والكاتبون[1] والحقيقة موجودة ولكنهم لا يعرفونها لأنهم لايعرفون الطريق إليها، قلت وأين نجدها، قال فى هذه الأودية الفيحاء، تحت تلك القبة الزرقاء، بين الظل والماء.

هنا يرى الإنسان ربه فى الغريسة يلقى بها غارسها فى التربة، فإذا هى نبتة زاهرة مستوية على سوقها تعجب الزراع، ويراه فى الحبة الدقيقة فى الصرة المستديرة فى النواة الصغيرة التى لا تلبث أن تأخذ مكانها مغرسها حتى تصير نخلة سحوقًا تملأ الأرض خيرًا بجذوعها وسعفها وجريدها وقنواتها وعثاكيلها وطلعها وبلحها وبسرها، ويراه فى الكواكب الماثلة فى السماء

(١) كثيرًا ما نقم أبو العلاء على الرواة والقصاص أخبارهم التى يضعونها من عند أنفسهم ويدونونها فى كتبهم مصانعة للعامة واستهواء لقلوبهم وطلبًا للربح منهم كقوله:

ويقال للكرام قولاً وما فى العـ صر إلا الشخوص والأسماء
وأحاديث حبرتها غواة وافترتها للمكسب القدماء
غلب المين منذ كان على الخلق وماتت بغيظها الحكماء

وقوله فى تكذيب ما ورد على ألسنتهم من أخبار المعمرين فى التاريخ القديم:

وادعوا للمعمرين أمورًا لست أدرى ما هن والمشهور
أتراهم فيما تفضى من الأيام عدوا سنيهم بالشهور

وقوله فى تكذيب القصاص الذين يزعمون أن أول من شاب من الرجال هو سيدنا إبراهيم -عليه السلام-:

ما أقبح المين قلتم لم يشب أحد حتى أتى الشيب إبراهيم عن أمم
كذبتم ونجوم الليل شاهدة أن المشيب قد يماحل فى اللحم

وقوله:

لعمرى لقد فضح الأولين ما كتبوا وما سطروا

والأسماك السابحة فى الماء، والأجواء المملوءة بالهواء والليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلى، فيمتلئ قلبه يقينًا صافيًا رائقًا لا تعبث به المناظرات، ولا تشوه جماله المجادلات، ولا يحتاج بعده إلى متكلم يعلمه النظر، ولا فقيه يلقنه الجدل، فلا دليل على الله غيره، ولا هادى إليه سواه(١).

هنا يرى الإنسان السائمة تأكل العشب، والعشب يأكل التراب، والتراب يأكل السائمة، فيستحيل الجماد نباتًا، والنبات حيوانًا، والحيوان جمادًا. فيعلم أن المواليد الثلاثة مادة واحدة تتلون ذراتها وتشكل جواهرها، ويعلم أن هذا الإنسان الفاخر بنفسه، والمدل بعظمته واقتداره، وربما كان بالأمس صفيحة(٢) ملقاة على جانب قبر، وربما يكون فى الغد جلدة بالية فى ذؤابة(٣) نعل(٤).

---

(١) كان أبو العلاء من أشد الناس بغضًا للمناظرات الدينية لاعتقاده أنها تورث الأحقاد والأضغان فضلاً عما تلقيه أحيانًا من الشكوك فى نفوس الضعفاء وكان يكره من المتناظرين أن المنافسة وحب الغلب كثيرًا ما يحملهم على الخروج عن الحق وإنكار البديهات كما يظهر ذلك من مثل قوله:

لولا التنافس فى الدنيا لما وضعت ... كتب التناظر لا المغنى ولا العمد
قد بالغوا فى كلام بأن زخرفه ... يوهى العيون ولم تثبت له عمد
وما يزالون فى شأم وفى يمن ... يستنبطون قياسًا ما له أمد
فذرهم ودنياهم فقد شغلوا ... بها ويكفيك منها الواحد الصمد

وقوله:

ملل غدت فرقًا وكل شريعة ... تهدى لمضمر غيرها أكفارها

وقوله:

علم الفتى النظار أن بصائرًا ... عميت فكم يخفى اليقين وكم يعم
لو قال سيد غضًا بعثت بملة ... من عند ربى قال بعضهمو نعم

وقوله:

هذا الفتى أوقح من صخرة ... يبهت من ناظره حيث كان
ويدعى الإخلاص فى دينه ... وهو عن الإلحاد فى القول كان
يزعم أن العشر ما نصفه ... خمس وأن الجسم لا فى مكان

(٢) الصفيحة: الحجر العريض.

(٣) الذؤابة من النعل ما أصاب الأرض من المرسل منها على القدم.

(٤) يردد أبو العلاء هذا المعنى الخاص بتغير المادة وتشكلها كثيرًا فى كلامه فمن ذلك قوله:

مضى الأنام فلولا علم حالهم ... لقلت قول زهيراية سلكوا
فى الملك لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا ... منه فكيف اعتقادى أنهم هلكوا

هنا يرى الإنسان الأرض الصلفاء يمر بها الماء وتلقى فيها البذور، فلا تلبث الشمس أن تجفف ماءها والريح أن تعصف بذورها فيعلم أن الحقائق الدينية لا يمكن أن تستقر فى قلوب الأشرار إلى أن تبلغ شغافها وأن الناس ما اختلفوا إلا لأنهم جاحدون، ولا اقتتلوا إلا لأنهم ملحدون.

هنا يرى الإنسان الشمس طالعة من مشرقها، مصفرة اللون متقاربة الخطوات مخافة أن تطير إليها رشاشة سوداء من مآثم هذا العالم ومخازيه ثم لا تلبث أن تأخذ مكانها من كبد السماء حتى تنحدر إلى مغربها هاربة فتنغمس فى ماء البحر قبل غروبها لتغسل عن جرمها الأبيض المشرق ما ألم به من تلك الأدران والأوحال، ويرى الليل مقبلاً يقطب وجهه ويزوى ما بين حاجبيه ويربد شيئًا فشيئًا، حتى يسود غضبًا على هذا المجتمع البشرى فيما يقترفه تحت ستاره من المفاسد والشرور، ولا يزال مادًا يديه بالدعاء إلى الله تعالى أن يعجل أوبته إلى مستقره حتى يستجيب له ويداوله بينه وبين النهار، ويرى الكواكب قد كمنت وراء ستر الظلام، ثم أطلت بعيونها على هذا العالم الأرضى مرغمة لتنفس عن رفيقها الليل بعض ما خالط قلبه من الهم والكمد فلا تلبث أجفانها أن تطرف انغلاقًا وانفتاحًا مخافة أن يصيبها سهم نافذ من سهام الأشرار، التى تتطاير يمنة ويسرة وصعودًا وهبوطًا فلا يقوم لها شىء إلا أتت عليه.

هنا يرى الإنسان الحقيقة فى هذا العالم عارية الجسم ويسمع صوتها

وقوله:

وما يدريك والإنسان غمر ... وقد يدرى خليلك وهو دار
لعل مقاصل البناء تضحى ... طلاء للسقيفة والجدار

وقوله:

فلا يمس فخاراً من الفخر عائد ... إلى عنصر الفخار للنفع يضرب
لعل إناء منه يصنع مرة ... فيأكل فيه من أراد ويشرب
ويحمل من أرض وما درى ... فواهًا له بعد البلى يتغرب

وقوله فى داليته المعروفة:

رب لحد صار لحداً مراراً ... ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين ... فى طويل الأزمان والآباد

واضح النبرات من حيث لا يحجب بصره تكلف المتكلفين، ولا خداع الخادعين، ولا يصد سمعه قرع النواقيس، ولا صياح المؤذنين.

فقلت حسبك يا مولاى، فقد نال منك أجيج هذه الرمضاء وإنى أرى فى رأس هذا الوادى رجلاً أحسبه فلاح هذه الأرض فامض بنا إليه عله ييسر لنا ظلة نفىء إليها وجرعة باردة نفثًا بها هذه الصارة[١]، فمشينا إليه حتى بلغناه فرأيناه مكبًا على تربته يفلحها ويقلب عاليها سافلها، وقد شرست يده وشثنت قدماه وزأبر صدره[٢]، وأفرغ قرص الشمس فى رأسه جعبة سهامه فتصبب عرقًا، حتى سالت منه على قدميه قطرات كقطرات البخار تسيل على جوانب القدر المضطرم، فحييناه بتحية حيانا بأحسن منها، وأفضينا إليه بطلبتنا، فأشار بيده إلى كوخه، وكان منه على بعد كثب، فإذا عريش من عيدان القصب مسجج[٣]، قد ارتفع فوقه سقف من جذوع الأشجار، واعتمد على أسيطينة[٤] من اللبن الأسود، وامتدت أمامه صفة مستطيلة، واستدار به نؤى يمنع عنه مسيل الماء؛ فدخلناه فلم نر فيه إلا رثة[٥] من المتاع لا تكاد تزيد على جوالق الخبز اليبيس، وخلقان من القمص والأبراد، وقدر وأثفية، وجرة مملوءة ماء، وحشية[٦] مفككة تضطرب فى جوفها حشوة من الليف اضطراب الجنين فى جوف الحامل، فشربنا حتى ارتوينا، وأخذنا من تلك الحشية مضجعًا، وما زلنا على حالنا تلك سكوتًا لا نتكلم حتى جاء الرجل وقد مال ميزان النهار يقزل[٧] فى مشيته، ويحمل فأسه على عاتقه، ويجر وراءه ولدين صغيرين له بين الثامنة والعاشرة، فجلس وجلس ولداه بين يديه، وأنشأ يلقى إلينا معاذيره، ويتوجع لعجزه عن إكرامنا وإسعافنا بما نحب، فعذرناه. ثم

---

(١) يقال فثأ القدر إذا سكن غليانها، الصارة: العطش.

(٢) شرست اليد إذا غلظ ظهرها من برد فتشقق. وشثنت إذا خشنت وغلظت، وزأبر الثوب إذا خرج له زئير وهو ما يظهر من درزه.

(٣) يقال سجج الحائط إذا طلاها بطبقة رقيقة من الطين.

(٤) أسيطينة: تصغير أسطوانة.

(٥) رثة المتاع بكسر الراء: ساقطة.

(٦) الحشية: الفراش المحشو.

(٧) قزل - به قزل: وهو أقبح العرج.

جرى بينه وبين الشيخ الحديث الآتى -وكنت أترجم بينهما لأنهما لا يكادان يتفاهمان-:

الشيخ: من يملك هذه الأرض؟

الفلاح: هى لسيدى ومولاى -أطال الله بقاءه وأتم عليه نعمته- صاحب هذا القصر الذى تراه -وأشار إلى قصر فخم يرفرف بأجنحته فى هذه البقعة الخضراء رفرفة الحمامة البيضاء فى القبة الزرقاء-.

الشيخ: أراك تدعو له، وتتمنى له الخير والسعادة، فلعلك سعيد بجواره، مغتبط بمكانك منه ولعله يمدك ببره وإحسانه، ويغدق عليك من نعمته ما يطلق لسانك بحمده والثناء عليه.

الفلاح: حسبى من سيدى أن أرى وجهه مرة فى كل يوم أو يومين، ممتطيًا فرسه الدهماء، فى ركب من أصحابه وحاشيته، مارًّا بهذه الإجمالات الملتفة، يتنزه ويتروح، ويطارد الثعالب والذئاب، مطاردة الشجاع المستقتل، ثم يعود إلى قصره مسرورًا مغتبطًا بمصبحه وممساه.

الشيخ: إنما أسألك عن أياديه عندك وصنائعه لديك، لا عن منازهه وطرائده وملذاته وشهواته.

الفلاح: وهل يوجد فى باب النعم جليلها ودقيقها، نعمة أجل قدرًا وأسنى قيمة من أن أكون عبدًا مملوكًا لسيد كهذا السيد، رفيع الجاه، جليل القدر، واسع النعمة، تطأطئ بين يديه رءوس العظماء، ويختلف بين حضرته كبار الأمراء؟

الشيخ: أيها الرجل: ما عن هذا أسألك، إنما أسألك هل يسلم عليك سيدك هذا إذا مر ببابك أو يخلو بك أحيانًا ليتعرف همك وما تهتف به نفسك من رغباتك وحاجاتك؟

الفلاح: الحق أقول يا سيدى إنى ما سمعت فى حياتى بأعجب من سؤالك هذا، ومتى كان السيد يخاطب عبده إلا بالأمر والنهى أو يرفع إليه طرفه إلا بالنظر الشزر، أو يلامس بيده جسمه إلا للتأديب والتهذيب، ولقد

تمر بى وبعيالى الليالى ذوات العدد ولا نكاد نجـد من الخبز المخشوشب ما يملأ بطوننا فلا أجـد فى نفسى من الحـزن والألم ما أجد من نـسيان سـيدى إياى بضعة أيام أو إغـفاله أمرى ونهيى وزجرى وتأيبى، وقـد أعد لى -حفظه الله وأمتعنى بدوام رعايتـه وعنايته- عصيًا غلاظًا يتـعهدنى بها من حين إلى حين كلما نسيـت أمرًا من أوامره أو قصرت فى رعـاية غرض من أغراضه فـاغتبط بذلك الاغتبـاط كله لأنى أعلم أنى منه على ذكر[١] وأنى قد نزلت من نفسه منزلة من لا يهون عليه إغفاله وإطراحه وإلقاء حبله على غاربه.

الشيخ: وأين أم هذين الولدين؟

الفلاح: ماتت -رحـمها الله- فى سبيل خـدمة سيدها، فـقد كنا يومًا نمتج[٢] على حافة بئر فزلقت أقدامنا وأنبت بنا الحبل فسقطنا، أما هى فاستأثر الله بها وأمـا أنا فانكسرت رجلى وقـدر الله لى الحياة فمـا أسفت على أن لم أكن قد لحـقت بها فأكـون قد هلكت فى سـبيل خدمـة سيدى كـما هلكت ليترحم على كما ترحم عليها ويأمر بدفنى فى مقبرة أجداده كما أمر بدفنها.

الشيخ: ربما كنت قانعًا من إحسان سيدك إليك وعطفه عليك بما تعود به على نفسك وعيالك من غلة هذه الأرض وثمراتها؟

الفلاح: لا والله يا سيدى ما أعلمنى نازعت سيـدى نعمته وسعادته فى قفيـزبر، أو حفنة تمر، إلا أن تسقط بين يدى تمرة أعلم أنه لا يأبه لهـا فتكون قسمة بينى وبين ولدى أو أحـتطب من أطراف الوادى بضعة أعواد من الحطب أشعلها تحت قدرى وأستغفر الله مما سهوت عنه أو أخطأت فيه.

وهنا رأيت أبا العلاء كـأنما يحاول أن يكاتمنى دمعـة تترجح فى مقلتـيه فأشرت إليه بالقيام فقمنا ومشينا صامتين لا ينطق ولا أنطق حتى بلغنا المنزل، وقد سـتر الظلام فقلت أرجـو يا مولاى أن أكون قـد بلغت ما أردت لك فى مخرجك هذا من السرور والغـبطة، قال: ما نغص على يومى إلا منظر ذلك الرجل الأبله المسكين فى صغر سنه وسقوط همته وذلة جانبه. وما أحسب إلا

---

(١) الذكر: التذكر.

(٢) منج الماء متجًا: نزعه.

أن الظلم قد ألح على نفسه حتى قتلها وسلبها حسها ووجدانها فأصبح لا يعرف لنفسه حياة ذاتية مستقلة عن حياة ذلك الإنسان الذى يسميه سيده[١] فهو لا يفرح إلا لفرحه ولا يغتبط إلا باغتباطه، ويرضيه منه كل شىء حتى سوء مجازاته إياه على إخلاصه إليه وتعبده له، بضربه وتعذيبه وتقتير الرزق عليه، وكذلك يفعل الظلم فى نفوس المستضعفين.

ثم تركنى وانحدر إلى مخدعه وهو يهتف بهذه الكلمات:

يحسن مرأى لبنى آدم　　　وكلهم فى الذوق لا يعذب
أفضل من أفضلهم صخرة　　　لا تظلم الناس ولا تكذب

الأربعون[٢]

الآن وصلت إلى قمة هرم الحياة، والآن بدأت أنحدر فى جانبه الآخر، ولا أعلم هل أستطيع أن أهبط بهدوء وسكون حتى أصل إلى السفح بسلام، أو أعثر فى طريقى عثرة تهوى بى إلى المصرع الأخير هويًا.

سلام عليك أيها الماضى الجميل، لقد كنت ميدانًا فسيحًا للآمال والأحلام وكنا نطير فى أجوائك البديعة الطلقة غادين رائحين طيران الحمائم البيضاء فى آفاق السماء، لا نشكو ولا نتألم، ولا نضجر ولا نسأم، بل نعتقد

(١) ما كان أبو العلاء يرى لأحد فضلاً إلا بالفضائل النفيسة، وقد ردد هذا المعنى كثيراً فى كلامه كقوله:

أسر إن كنت محموداً على خلق　　　ولا أسر بأنى الملك محمود

وقوله:

وإقصائى عن الرؤساء كونى　　　وكونهم لخالقنا عبيداً

وقوله:

وإن أفضل من تعظيمهم رجلاً　　　صفراً من الحكم التعظيم للحجر

(٢) كتب المرحوم المؤلف هذه الرسالة بعد بلوغه الأربعين من حياته وكأنما كان يتنبأ بدنو أجله رحمه الله وبرد ثراه.

أن فى العالم همومًا وآلامًا، وكان كل شىء فى نظرنا جميلاً حتى الحاجة والفاقة، واحتمال أعباء الحياة وأثقالها، كان كل منظر من مناظرك قد لبس ثوبًا قشيبًا من نسيج الزهر الأبيض، فأصبح فتنة الأنظار، وشرك الألباب!

وكان يخيل إلينا أن هذا الزورق الجميل الذى ينحدر بنا فى بحيرتك الصافية الرائقة سيستمر فى طريقه مطرداً مندفعًا لا يعترضه معترض، ولا يلوى به عن طريقه لا والى ما لا نهاية لإطراده وتدفعه.

وكان كل ما نعالج فيك من آلام وهموم، أن يكون لنا مأربان من مآرب الحياة، فنظفر بأحدهما ويفوتنا الآخر أو غرضان من أغراضها، فنصل إلى القريب، ونبيت دون البعيد.

وكان كل ما يستذرف الدمع من أعيننا هجر حبيب أو طلعة رقيب أو أرق ليلة أو ضجر ساعة، أو نظرة شزر يلقيها بغيض، أو نفثة شر يرمينا بها حقود، ثم لا تلبث مسراتنا ومباهجنا أن تطرد تلك الآلام أمامها كما يطرد النهر المتدفق الأقذار والأكدار بين يده وتسلم لنا الحياة سائغة لا كدر فيها ولا تنغيص.

سلام عليك أيها الشباب الذاهب، سلام على دوحتك الفينانة الغناء، التى كنا نمرح فى ظلالها، مرح الظباء العفر فى رملتها الوعثاء ننظر إلى السماء فيخيل إلينا أنها مغدى ومراح لنا، وإلى الآفاق البعيدة فيخيل إلينا أنها مجرى سوابقنا ومجرّ رماحنا، فكأن العالم كله مملكتنا الواسعة العظيمة التى نسيطر عليها ونتصرف فى أى أقطارها شئنا.

أبكيك يا عهد الشباب، لا لأننى تمتعت فيك براح أو غزَل، ولا لأنى ركبت مطيتك إلى لهو أو لعب، ولا لأنى ذقتُ فيك العيش بارد الهواء كما يذوقه الناعمون المترفون بل لأنك كنت الشباب وكفى.

أبكيك لأنى كنت أرى فى سمائك نجم الأمل لامعًا متلألئًا يؤنسنى منظره ويطربنى لألاؤه وينفذ إلى أعماق قلبى شعاعه المتوهج الملتهب فلما ذهبت ذهب بذهابك فأصبح منظر تلك السماء منظر فلاة موحشة مظلمة لا يضيئها كوكب، ولا يلمع فيها شعاع.

أجل، لم أتمتع فيك بمتعة من المتع، ولا بلذة من الملاذ، ولا نلتُ فى عهدك مأربًا من مآرب المجد أو الجاه، ولكنى كنت أؤمل وأرجو. وبذلك الأمل كنت أعيش وتحت ظلال ذلك الرجاء كنت أهنأ وأنعم.

أما اليوم وقد بدأت أنحدر من قمة الحياة إلى جانبها الآخر فقد احتجب عنى كل شيء ولم يبق بين يدى مما أفكر فيه إلا أن أعدَّ عدّتى لتلك الساعة الرهيبة التى انحدر فيها إلى قبرى.

مضى عهد الشباب وبدأت اختلف إلى الأطباء الثلاثة طبيب العيون، وطبيب المعدة، وطبيب الأسنان، وتقاربت خطواتى فأصبح فرسخى ميلاً، وباعى ذراعًا، ونعى الناعون إلى كثيرًا من أصحابى وأترابى أى أنهم نعوا إلى نفسى ورأيت أصدقائى الذين نشأت معهم فى طريقى فأنكرت استحالة حالهم واغبرارَ وجوههم، واحمرار خدودهم، وابيضاض شعورهم، فعلمت أننى أولهم وأنهم ينكرون منى ما أنكر منهم ودعا لى الداعون بالقوة والنشاط وطول البقاء، وحسن الختام، أى أن قوتى فى هبوط، ونشاطى فى اضمحلال وسلامتى فى خطر وحياتى على وشك الانحدار إلى مغربها، ومررت بمجامع الشبان الحافلة بالقوة والنشاط والمرح السرور فخيل إلى أننى غريب عنهم لا صلة لى بهم ولا شأن لى معهم، وأننى أعيش فى عالم غير العالم الذى يعيشون فيه وانتقلت من النظر فى شأن نفسى، وشأن مستقبلى إلى النظر فى شأن أولادى وشأن مستقبلهم، لأن مستقبلى أصبح ماضيًا، وغدًا أصبح أمس لا رجعة له إلى الأبد، وسمعت كلمة «الجدّ» يهتف بها أحفادى الصغار، فلم أنكرها ولم أبتئس كأننى معترف أنها الكلمة التى يجب أن أسمعها، ونصحنى الناصحون بالاقتصاد والتدبير أبقاءً على مصلحة أولادى الفقراء، كأنهم يقولون لى إنك موشك أن ترحل فأعد لمن وراءك من أهلك وبنيك ما يغنيهم عنك يوم يفقدون وجهك، وهدأت نفسى بعد ثورتها وجماحها، فأصبحت سمحًا كريمًا، عفوًا غفورًا، لا أبغض أحدًا، ولا أحقد على أحد، ولا أقابل ذنبًا بعقوبة، ولا إساءة بمثلها، كأننى أقول فى نفسى: ما لى وللعالم ولما يحويه من خير وشر وأنا مفارقه وشيكًا، إن لم يكن اليوم فغدًا، وأخذت أتحدث عن الماضى أكثر مما أتحدث عن الحاضر، لا لأن الأول أجمل من الثانى

بل لأن الشبيبة أجمل من الشيخوخة، وذكرت الجلسة البسيطة التى كنت أجلسها أيام الطلب فى غرفتى العادية الصغيرة بين زملائى الفقراء البسطاء فبكيتها ورثيتها ولم تنسنى إياها جلستى اليوم فى منزلى الأنيق الجميل بين خير الناس أدبًا وفضلاً ومجداً وشرفًا، لأن الأولى كانت فى سماء الأحلام الحلوة اللذيذة، أما الثانية ففى أرض الحقيقة المرة المؤلمة، وكنت أنعم فى صباى بكثير من الملاذ الوهمية الكاذبة، فكنت، أجد فى نفسى غبطة عظمى حينما أجلس لمطالعة قصة ألف ليلة وليلة، أو سيرة سيف بن ذى يزن، أو حروب عنترة، أو وقائع أبى زيد أو أساطير الجن والشياطين، وحين آوى إلى مضجعى فأرى فى منامى رؤى بديعة يجتمع لى فيها جميع ما أحب واشتهى من مطامع الحياة ومآربها وملاذ العيش ومباهجه، وحين أختلف إلى مقابر الصالحين ومزارات الأولياء وأقف موقف الضراعة أمام حلقات أبوابهم فأشعر بسكينة فى قلبى يبعثها الأمل ويزجيها الرجاء، والآن وقد حرمت ذلك كله منذ الساعة التى عرفت فيها أن أساطير الأولين أكاذيب وأباطيل وأن الرؤى والأحلام هوس وجنون، وأن الأولياء والصالحين أحياء كانوا أو أمواتًا فى شاغل بأنفسهم عن غيرهم لا يستطيعون نفعًا ولا ضرًّا؟ أى أننى شقيت حين علمت، وكنت سعيداً قبل أن أعلم، وكان كل ما أفكر فيه أن أشيد لى بيتًا جميلاً أعيش فيه عيش السعداء الآمنين فى مدينة الأحياء، فأصبحت وكل ما أفكر فيه الآن أن ابنى لى قبراً بسيطًا يضم رفاتى فى مدينة الأموات، وكنت أدهش لبلاغة البليغ، وذلاقة الخطيب، وبراعة الشاعر وقدرة الكاتب الصائغ ونبوغ المبتكر، وأطرب لكل عظيم وجليل مما أرى ومما أسمع، فأصبحت لا أدهش لشىء ولا أعجب من شىء لأن مرآة نفسى قد صدئت فلا ينطبع فيها غير الكوكب الفخم العظيم، وأين ذلك الكوكب فيما يقع عليه نظرى من كواكب السماء ونجومها.

ما أنا بآسف على الموت يوم يأتينى، فالموت غاية كل حى، ولكنى أرى أمامى عالـمًا، مجهولاً لا أعلم ما يكون حظى منه وأترك ورائى أطفالاً صغاراً لا أعلم كيف يعيشون من بعدى ولولا ما أمامى ومن ورائى ما باليت أسقطت على الموت أم سقط الموت على؟!

لكن مـا أراده الله، أما ما أمـامى فالله يعلم أنـى ما ألممت فى حـياتى بمعصية إلا وترددت فـيها قبل الإلمام بها، ثم ندمت عليها بعـد وقوعها، ولا شككت يومًا من الأيام فى آيات الله وكتـبه، ولا فى ملائكته ورسله، ولا فى قضائه وقدره، ولا أذعنت لسلطان غير سلطانه، ولا لعظمة غير عظمته، وما أحسب أنه يحاسبنى حـسابًا عسيراً على ما فرطـت فى جنبه بعد ذلك، وأما من ورائى فالله الـذى يتولى السائـمة فى مرتعـها، والقطاة فى أفـحوصـها، والعصـفور فى عـشه، والفرخ فى وكـره، سيـتولى هؤلاء الأطفـال المساكين وسيبسط عليهم رحمته وإحسانه.

وداعًا يا عهد الشباب، فقـد ودعت بوداعك الحياة، وما الحياة إلا تلك الخفقات التى يخفقها القلب فى مطلع العمر، فإذا هدأت فقد هدأ كل شىء، وانقضى كل شىء!

أيا عهد الشباب وكنت تندى   على أفـياء سـرحتك السـلام

تم الجزء الثالث من النظرات

فهرس الجزء الأول

الموضـــــوع | صفحة

الموضـــــوع	صفحة

فهرس الجزء الثانى

الموضـــــوع | صفحة

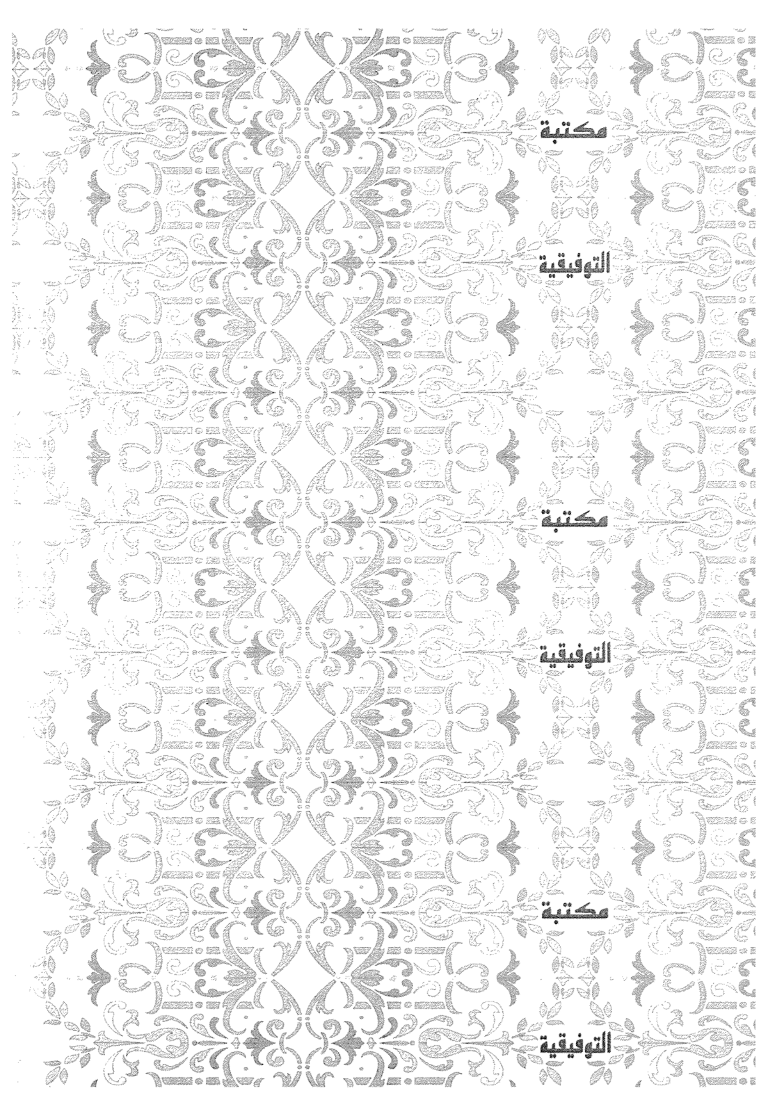
فهرس الجزء الثالث

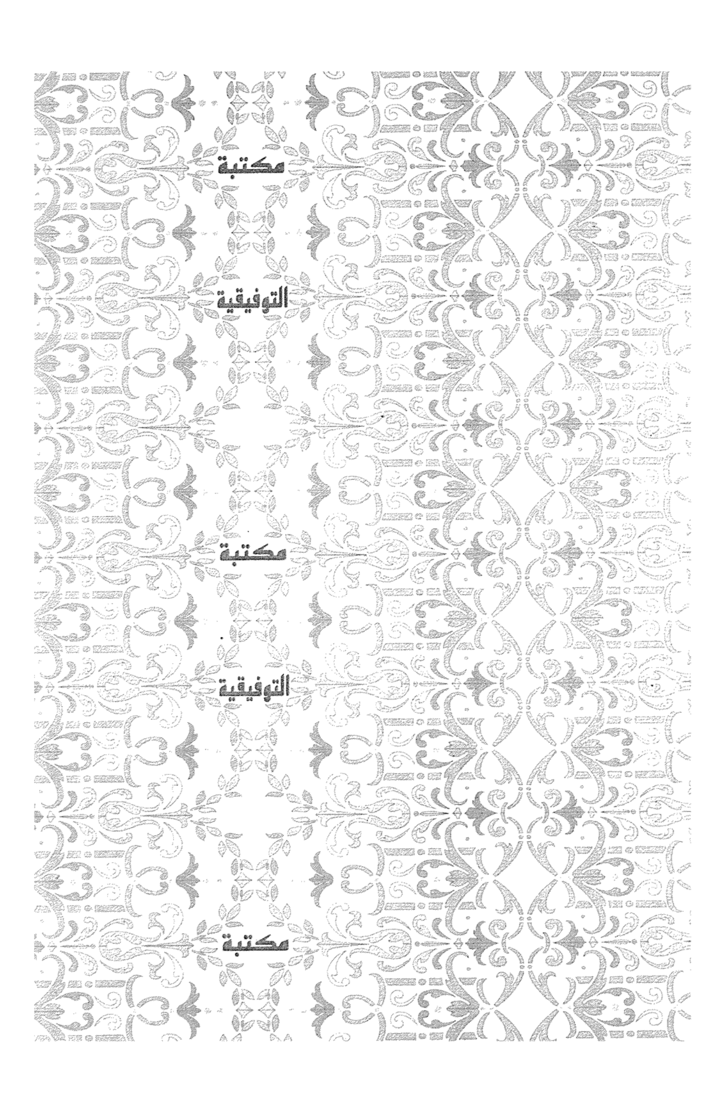
الموضوع	صفحة

الموضـــــوع | صفحة



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
ت ٥٩٠٤١٧٥ _ ٥٩٢٢٤١٠


مكتبة
التوفيقية
مكتبة
التوفيقية
مكتبة
التوفيقية


مكتبة
التوفيقية
مكتبة
التوفيقية
مكتبة


Bibliotheca Alexandrina
06669847